

جون لويس بوركهارت

ميراث الترجمة

رحلات بوركهارت
في بلاد النوبة و السودان

ترجمة: فؤاد أندراوس
تصدير: حسن نور



مكتبة سور الأريكة
www.books4all.net

رحلات بوركهارت

فى بلاد النوبة والسودان

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر : طلعت الشايب

– العدد : ١٠٤٤

– رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان

– جون لويس بوركهارت

– فؤاد أندراوس

– محمد محمود الصياد

– الشاطر بصيلى

– محمد شفيق غريال

– حسن نور

– ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

TRAVELS IN NUBIA;

By : JOHN LEWIS BURCKHARDT

المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومي للترجمة

رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان

تأليف : جون لويس بوركهارت

ترجمة : فؤاد أندراوس

تقديم : محمد محمود الصياد

حقق أعلامه : الشاطر بصيلى

أشرف على نشره : محمد شفيق غربال

تصدير : حسن نور



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوركهارت ، جون لويس .
رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان / ترجمة : فؤاد
أندراوس - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٤٤٠ ص ؛ ٢٤ سم - (المشروع القومى للترجمة)
١ - السودان وصف ورحلات .
(أ) أندراوس ، فؤاد (مترجم)
(ب) العنوان
٩١٦ ، ٢٤

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٣٩٧٠
الترقيم الدولى 8 - 201 - 437 - 977 I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب
الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها
فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تصدير

وُلِدَ جون لويس بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧) بمدينة لوزان بفرنسا ، إلا أن أباه أُصر على مغادرة بلاده بعد أن فقد ثقته في حكامها الجدد الذين اتهموه بالخيانة وممالأه الأعداء ، ولما لاقته أسرته من ظلم وعنت ، وما آلت إليه حالتهم الاقتصادية من تدهور بعد حياة العز والرفاهية ، ويرحل الشاب بوركهارت إلى إنجلترا وهو يناهز الخامسة والعشرين من عمره القصير باحثاً عن عمل ؛ إذ رأى أبوه أنه من الحكمة عدم البقاء في بلاده حتى لا يقع مرة ثانية في أيدي الحكام الجدد الذين باتت نيتهم للقضاء عليه على الرغم من ظهور براءته مما نسب إليه .

تعلم جون لويس بوركهارت على يد معلم خاص ثم التحق بجامعة ليبزج ، وظل بها أربع سنوات ، وكان قد بلغ العشرين من عمره ، ثم انتقل إلى جامعة جوتنجن .

عُرف بالاستقامة والاحترام والجرأة في إبداء آرائه ، كما عرف بطموحه العلمي وجده واجتهاده في التحصيل والمعرفة ، ولأنه مثل أبيه لا يثق في رجال الثورة الفرنسية حمل عصاه ورحل إلى إنجلترا عساه أن يجدد هناك الملاذ الآمن الذي افتقده في بلاده، وقد تحقق له ذلك ، فقد كُلف هناك باكتشاف سر نهر النيجر الذي كان مجهولاً بالنسبة لهم ، حتى إنهم كانوا يعتقدون أنه أحد روافد نهر النيل ، إلا أن القدر لم يمهلهم لاستكمال هذه المهمة ، على الرغم من أنه قضى ثمان سنوات من عمره القصير في رحلته الأولى إلى بلاد النوبة التي صادف خلالها صعوبات جمة ، ذلك أن قارة أفريقيا في هذا الوقت (بداية القرن التاسع عشر) كانت لم تزال مجهولة للأوروبيين ؛ حيث إن ظروفها الطبيعية كانت انتشار الغابات الكثيفة ، وتظاهر الصحارى في معظم سواحلها ، وانتشار الجنادل على امتداد نهر النيل مما يعوق الملاحظة فيه كان من أهم العوامل التي أخرت اكتشافها .

وعلى الرغم من أن العرب قد عرفوا الطريق إلى القارة الأفريقية عن طريق القوافل التجارية التي كانت تسلك السواحل الغربية للقارة أو يصعدون في حوض النيل إلى قلبها إلا أن نتائج هذه الرحلات لم تكن معروفة أيضاً عند الأوروبيين حتى يستفيقوا منها ، لهذا نجد أن بوركهارت تحمل مصاعب جمة وهو يجتاز القرى النوبية من شمالها إلى جنوبها ، مخترقاً الجبال والوديان والسهول في وقت لم تكن وسائل النقل الحديثة قد عرفت ، مما اضطره إلى الاستعانة بالنوق المعروفة بسفينة الصحراء وتحملها الجوع والعطش تحت درجات الحرارة العالية ، وعلى الرغم من أن المسافة بين قرية وأخرى كان يمكن قطعها في زمن لا يزيد على الساعة أو الساعة والنصف باستخدام المراكب الشراعية ، إلا أنه كان يستغرق لقطعها زمناً طويلاً يزيد عن ثمان ساعات لوعورة الطرق التي كان يسلكها وطبيعة البلاد القاسية ، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع أن يكيف نفسه على تحمل هذه الصعاب ، خاصة الأطعمة الخشنة التي عاش عليها النوبيون خلال هذه الفترة ؛ فالخبز مصنوع من دقيق الذرة الخشن ، والإدام غالباً ما يكون من ورق اللوبيا (الكشرنجيج) أو العدس المخلوط بالويكة ، وربما كان الوقت الذي أقدم فيه على هذه الرحلة لم يكن مناسباً ؛ فقد تصادف مع هروب الممالك إلى هذه المناطق من مذبحه القلعة التي دبّرها لهم محمد على ، الأمر الذي جعل الكثير من حكام النوبة يشكون فيه وفي مقصده ؛ فقد ظنه الكثير منهم أنه أحد رجال محمد على جاء ليتجسس عليهم وعلى من يناصرهم من هؤلاء الحكام الذين أظهروا تعاطفهم معهم ، ولولا الخطابات التي كان يحملها لهم من حاكم إسنا لما لاقت رحلته النجاح ، بل ربما كان قد لقي حتفه على يد أحدهم .

لقد حقق بوركهارت بعض الأهداف من رحلته إلى بلاد النوبة ؛ فعرف طبيعة المنطقة ... جبالها ووديانها ومناخها ونباتاتها وطرق ربيها ومواسم حصادها وحيواناتها وطيورها ، وأيضاً مناطق التعدين بها ، كما عرف عادات أهلها وتقاليدهم وأصولهم وأسلافهم ، وكذا معابدها الكثيرة المنتشرة في أنحاءها ، ابتداء من معبد أبى سمبل ومروراً بمعابد السبوع وكلايشة والدكه وقورته وقرشه ومروا وبلانه .

لقد استمر في رحلته حتى وصل إلى شمال الخرطوم ، واضطره تعنت بعض حكام النوبة إلى العودة قبل أن يتم مهمته بالدخول إلى دنقلة (آخر بلاد النوبة في الجنوب) ، وقد لاحظتُ على عرضه لهذه الرحلة عدم تعرضه لأي صناعة تكون قد صادفته هناك ؛ مما يدل على الفقر المادي والفكرى ؛ فإذا اقترضنا عدم توفر المواد الخام الزراعية ؛ فلماذا لم تقم صناعة على التعدين أو على الصيد مع توافر مناجم الرخام بأنواعه المختلفة ، وامتداد نهر النيل بطول البلاد ؟..

لقد استغرقت رحلة بوركهارت إلى بلاد النوبة ذهاباً وإياباً ثمان سنوات اقتطعها من عمره القصر (٣٣ عاماً) ، ولو عرفنا أنه بون كل ما صادفه في هذه الرحلة لأدركنا مدى الجهد الذى بذله فيها ، خاصة أنه اضطر لاستخدام النوق فى تنقلاته ، وأن ذلك كان يستغرق منه ساعات طويلة يقضيها على ظهورها تحت وهج الشمس الحارقة ، ومع ذلك لا يركن إلى الراحة إذا ما حط رحاله فى إحدى القرى ، بل يروح يدون ما لاقاه ولاحظه خلال الساعات الفائتة ، فى الوقت الذى لم يجد فيه إلا لقيمات قليلة أو بعض التمر ليسد بها رمقه ، ومع هذا فإنك تكاد تحس بنبضه وحسه وصدقه مع كل كلمة تقرأها ، بل وكأنك تشاركه فى رحلته ... فى ذهابه وإيابه ومقابلاته ومعاناته ، لأن كل كلمة تنبض بالحياة .

إن هذا الكتاب يشمل الكثير من المعلومات ، فهو أدب رحلات ، وهو أيضاً بحث اجتماعى يتناول حياة النوبيين ... عاداتهم وتقاليدهم وطباعهم وأخلاقهم وأصولهم وقبائلهم وسلالاتهم ، وهو أيضاً كتاب فى التاريخ ، وفى الجغرافيا ، وفى الآثار ؛ فقد تناول بالتفصيل كل معابد المنطقة بأسلوب سهل بسيط سلس بحيث يستوعبه غير المتخصص .. أسلوب بسيط بساطة أهل النوبة الذين بسطوا له أذرعهم واستقبلوه بحرارة مناخ بلادهم ؛ فأقبل عليها ببساطة أشد على الرغم من كل ما لاقاه من صعوبات - كما سلف وأوضحت - بدءاً من قلة معلوماته عن المنطقة ومروراً بقسوة طبيعتها وخشونة طعامها وندرته وقسوة بعض حكامها وابتزاز بعض الأدلة الذين استعان بهم ، وتخلف وسيلة الانتقال الوحيدة التى اضطر لاستخدامها فى تنقلاته ، بالإضافة إلى

حادثة سنه وقلة خبرته، وعلى الرغم من كل ذلك لم يتوان لإنجاز رحلته عن روح المحب، تلك الروح التي ساعدته على إنجازها ، بل والتخطيط لإعادة الكرة مرة أخرى لتحقيق الهدف الأساسي منها (اكتشاف النيجر) لولا أن منيته كانت أسرع من كل أمانيه .

لقد نجح هذا الرحالة الطموح فى أن يردف قارئة وراءه على ظهر دابته ليجوب معه قرى النوبة ونجوعها من أسوان وإلى آخر قرية حطَّ رحاله فيها (شمال الخرطوم) وجعله يعيش معه هذه المغامرة الحلوّة الصعبة الخطرة ، وأكسبه خبرات لم يكن يعرفها عن هذه البلاد ولم يسمع عنها ، ولو سمع عنها فربما لم يعرف غير اسمها ، ثم يجد نفسه وهو يلتهم صفحات هذا الكتاب ، يغترف منه كل معلومة عنها ، فلا يستطيع أن يتركه قبل أن يأتى على صفحاته . لقد بدأ رحلته من الشمال إلى الجنوب ، أى عكس جريان الماء فى نهر النيل العظيم الذى ارتوى من مائه طوال هذه الرحلة ، وربما اقتفى أثره فى بعض تنقلاته من قرية إلى أخرى ، فيسير هائناً مطمئناً بجواره حتى يبلغ حدود دنقلة ، ثم العودة مرة أخرى إلى أسوان ، والتوقف عند كل قرية من قرى النوبة ، خاصة القرى الكنزية الغنية بالمعابد للكتابة عن كل واحد منها بالتفصيل ، وترتيبها من حيث ضخامتها ودقة بنائها وروعة هندستها المعمارية ونقوشها وتمثيلها ... إنه لم يكتف بزيارته لهذه القرى وهو متجه ناحية الجنوب بل نجده يعيد الكرة عند عودته ؛ مما يدل على إيمانه بهذه الرحلة وأهميتها ، وأيضاً على قوة عزمته التى لا تغلها الصعاب التى لاقاها - سبق الإشارة إليها - طالما كانت لخدمة العلم الذى يهون من أجله كل شئ ، وهنا ثار سؤال ألح كثيراً على ذهنى : ما بال شبابنا فى هذا العصر (القرن الواحد والعشرون) قد تقاعسوا وتكاسلوا وارتكنوا إلى الدعة والتواكل والاهتمام بتوافه الأمور ، وتقليد الغرب فى أرذل خصاله وسلوكه؟ ربما لعدم توافر الحافز العلمى لديهم ، وربما لانعدام الطموح عندهم ، وربما لئسهم فى مستقبل أفضل ، وربما لإحساسهم بعدم جدوى ما يُحصّلونه من علوم ، وربما كل هذا ، وربما أيضاً القصور الشديد فى المناهج المدرسية المقررة ، خاصة مادتى التاريخ والجغرافيا اللتين أغفلتا أجزاء كثيرة من الوطن مثل سيناء وسيوة والواحات والنوبة ، فانعدم بالتالى التعرف عليها ، لقد انتابنى الحزن طويلاً عندما سمعت محاضراً يقول أمام جمع غفير من المستمعين له فى معرض حديثه : إن الجالية النوبية

وقبل أن يسترسل فى كلمته سمع همهمة من بين صفوف الحاضرين ؛ فعرف أنه أخطأ فأسرع بالاعتذار ، فكيف إذن يمكننا إعادة الثقة لدى شبابنا وتحفيزهم لجبوى العلم وما يُسهم به فى مسيرة التقدم ...؟ إن ذلك لن يتحقق إلا بتكاتف كل مؤسسات المجتمع ، خاصة وسائل الإعلام المختلفة التى لها تأثير فعّال على سلوكيات هؤلاء الشباب ، وإنها للفتة طيبة من المجلس الأعلى للثقافة أن أخذت على عاتقها إعادة طبع هذا الكتاب القيم الذى يتضمن معلومات قيمة عن جزء عزيز من مصرنا ، على أمل أن يستفيد منها شبابها الواعد .

حسن نور

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

رِجَالُ بُرْكَهَاتٍ فِي بِلَادِ النُّبُوَّةِ وَالسُّودَانِ

تأليف

جون لويس بوركهات

ترجمه : فؤاد اندراوس

قدمه بمقدمة تحليلية نقدية : محمد محمود الصياد

حقق أعلامه : الشاطر بصيلى

أشرف على نشره : محمد شفيق غربال

هذه ترجمة كتاب

TRAVELS IN NUBIA;

BY THE LATE

JOHN LEWIS BURCKHARDT

PUBLISHED BY THE
ASSOCIATION FOR PROMOTING THE DISCOVERY
OF THE
INTERIOR PARTS OF AFRICA

WITH MAPS, & C.

LONDON

JOHN MURRAY, ALBEMARLE STREET.
1819.



جُون لَوِيسْ بَوْرُكْ هَارْت

محتويات الكتاب

صفحة	
(١١)	مقدمة بقلم الدكتور محمد محمود الصياد
١	الرحلة على ضفاف النيل من أسوان إلى المحسّ على حدود دنقلة
٦٥	البوذة من دار المحسّ إلى أسوان
١٣١	الرحلة من صعيد مصر إلى بربر وسوا كن هجر صحارى النوبة ومن ثم إلى جدّة ببلاد العرب (فى سنة ١٨١٤)
١٩٢	(الرحلة من بربر إلى شندي)
٢٨١	(الرحلة من شندي إلى التاكة)
٣٦٥	(الرحلة من سوا كن إلى جدّة) .
٣٨١	فهرس الأعلام



بورکھارت ورحلاته
(۱۷۸۴ - ۱۸۱۷)

مکتبہ سید الأرقیۃ
www.books4all.net

مقدمہ بقلم

محمد محمود الصّیاد

لم تكن النوبة هدفه ولا جزيرة العرب وجهته ، ولكن شامت الأقدار
أن يرتبط اسمه بما كتب عن هذه الأقطار .

أرسلوه ليكشف عن سر النيجر ، فإذا هو يدفن على ضفاف النيل بمد
أن يطوف في أراضي الوطن العربي ثمانية أعوام طوال .

لقد أدرك جون لويس بركهاردت John Lewis Burckhardt منذ
البداية أن الرحلة الجغرافية لا بد لها من أدوات ... إنها ليست سياحة للتمتع
وجمع النواذر ، بل هي دراسة عميقة تحتاج إلى استعداد طويل ، وتتطلب خبرات
متعددة ، ومن ثم أنفق خير سني صباه بتأهب لمهمة لم يحمله المرض حتى يقوم
بها فيحقق أحلامه ويبلغ أمانيه .

ولكن هذه السنوات الطويلة لم تذهب عبثاً ، فقد وهب الشاب قوة
الملاحظة والقدرة على سبر أعماق الأمور ، فامتازت كتابته عما شهد في هذه
السنوات بالدقة ، وكان لها رونق وفيها عذوبة ، ومع أنه لم يزر أرضاً جديدة
مجهولة لم يطرعها أحد من قبله ، فإن مذكراته عن رحلاته لم تخل من طرافة ،
وحسب بركهاردت أنه كان من الرحالة القلائل في عصره ، الذين قاموا برحلاتهم
خدمة للعلم ... لم يكن تاجراً ، ولم يكن داعية حرب ، ولم يذهب في سبيل
راية ، أو من أجل التبشير بدين ، وإنما دفعة حب الاستطلاع والبحث عن
الحقيقة إلى أن يرحل وأن يسجل ما رأى في هذه الرحلات .

وكانت إفريقية حتى أوائل القرن الثامن عشر لا تزال في نظر الغرب قارة
شبه مجهولة ، إذ تحسكت ظروفها الطبيعية في حركة الكشف عن أجزائها .
إن ساحلها لا يشجع أبداً على اختراقها ، فأجزاء طويلة منه يكاد لا يوجد بها
مكان واحد تستطيع السفن أن تلجأ إليه ، ولهذا كانت موانئها الطبيعية قليلة
إلا في الشمال . وتظاهر الصحارى وأشباهاها نصف سواحل القارة تقريباً ،
وتظاهر الغابات الكثيفة معظم الجزء الباقي ، وهي غابات يصعب اختراقها ،
بل ربما استحال في بعض الأحيان .

وقال من الأنهار الأفريقية هو الذى يصلح للملاحة ، إما لأن مجاريها تزدحم بالجنادل والشلالات ، وإما لأن مصباتها تسدها الحواجز ، أو تنتهى إلى البحر فى أخاديد تنحرفها الغابات ، ومن ثم كان الوصول إلى الداخل عن طريق الماء أمراً لا سهولة فيه ولا يسر .

ولم يكن الانتقال بطريق البر قبل وسائل النقل الميكانيكى أقل صعوبة ، إذ أدى انتشار ذباب تسمى إلى تعذر استخدام الخيل أو الماشية أو أى نوع آخر من الحيوان دابة للنقل فى مساحة واسعة من القارة ، ولهذا كان لا يوصل إلى الداخل إلا سيراً على القدم ، ولا يستخدم للعمل والنقل سوى الإنسان . وكان مناخ القارة باستثناء أطرافها الشمالية والجنوبية مما لا يلائم الأوربيين ، بل وكان قاضياً عليهم فى كثير من الأحيان حتى عرفت الطرق الحديثة للملاحة ما توطن فى المناطق الحارة من أمراض .

أمام هذه المصاعب لم يكن غريباً أن يتأخر كشف الأوربيين لإفريقية إلى عهد حديث . . . لقد كان العرب يعرفون الكثير عن القارة الفارضة منذ العصور الوسطى حين كانت قوافلهم تعبر الصحراء من بلاد المغرب إلى تمبكتو ، وقد كتب ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر الميلادى وصفاً مفصلاً لهذه المنطقة ، ولكن هذه المعلومات المربية ظلت مجهولة خارج نطاق العالم الإسلامى ، وكان أثرها ضئيلاً فى رحلات الكشف التى تمت بعد ذلك . واقتصرت معرفة الأوربيين بإفريقية على الاستكشافات التى قام بها المصريون والإغريق والرومان . وكان الرحالة القدماء يسلكون طرقاً ثلاثة رئيسية تسير مع السواحل الشرقية أو السواحل الغربية أو تصعد فى حوض النيل . وشملت معلوماتهم عن سواحل إفريقية الجزء الغربى منها حتى مكان « سيراليون » ، كما عرفوا حوض النيل حتى منطقة السدود . وقد اجتذبت منابع النهر اهتمام القدماء ، ولم يكن هذا غريباً إذ أن النيل هو النهر الذى غذى الحضارة المصرية وعلى أساسه قامت واستقرت ، وهو يجرى لمسافة طويلة عبر الصحراء دون أن ينصب فيه رافد واحد يحدد من حيويته ، وهو بعد أطول الأنهار التى عرفها إنسان ذاك الزمان .

(١٣)

وبأى العصر الحديث وتبدأ محاولات جديدة للكشف عن أسرار القارة النامضة ، وتتم هذه المحاولات فى أربعة أدوار لكل منها خصائص ومميزات . ويمتد الدور الأول من القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وفيه يقوم رحالة غرب أوروبا بزعماء البرتغال بالكشف عن بقية سواحل القارة ، ويجمعون قسماً من المعلومات عن أحوالها الداخلية ، وهي معلومات تحتاج إلى تمحيص واستقصاء .

ويمثل الدور الثانى أهم فصول قصة الكشف الجغرافى فى إفريقيا ، وقد افتتحه « بروس » برحلته التى قام بها فى سنة ١٨٦٨ وينتهى بوفاته « لفنجستون » (١٨٧٣) بعد ذلك بمائة وخمسة أعوام .

أما الدور الثالث فهو مرحلة الكشف السياسى ، ويشمل بصفة عامة الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ويبدأ برحلة ستانلى إلى الكونغو فى سنة ١٨٧٤ وينتهى بتقسيم القارة بين الدول الأوروبية .

ويمتد الدور الرابع حتى اليوم ، وهو يمثل مرحلة للكشف العلمى المفصل كخطوة أساسية فى سبيل التطور السياسى والاقتصادى للقارة ، وهو دور بدأ الاستعمار لخدمة أغراضه وحماية مصالحه ، وجدير بإفريقية المستقلة أن تواصل السير على الدرب حتى تكشف عن شخصيتها ، وحتى تعرف بنفسها مكانها من العالم ، وحتى تستخدم إمكانياتها ومواردها فى تقوية بنائها ورفع مستوى شعوبها .

(٢)

وبركهارت من رحالة الدور الثانى وإن لم يوفق فى الكشف عن مجهول من القارة ، فقد خرج من إنجلترا ليتجول فى داخل إفريقيا ولكنه مات وهو على الاعتاب ، وحينما بدأ هذا الدور لم يكن الأوروبيون قد زاروا سوى أجزاء محدودة من القارة ، وحتى هذه الأجزاء لم تكن قد وصفت بعد الوصف الدقيق ، بل ولم يكن الساحل قد عرف كما يجب ، ولم يرسم رسماً قريباً من الصواب إلا عند ما قام بمسحه كابتن أوون Owen فى المدة من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٢٥ .

وكان من أهم العوامل المشجعة على الاستكشافات في هذا الدور أن بدأت الحملة للقضاء على تجارة الرقيق ، وتركزت الأنظار على إفريقية المصدر الأول للسلعة الأدمية ، وزاد اهتمام الرأي العام بهذه القارة النامضة ، وكان من مظاهر هذا الاهتمام أن تكونت في سنة ١٧٨٨ الجمعية الإفريقية African Association تحت رعاية السير « جوزيف بانكس » Joseph Banks .

ولم يتجه اهتمام الجمعية الإفريقية إلى نهر النيل بل اتجه إلى مشكلة جغرافية أخرى هي مشكلة نهر النيجر الذي أصبح أمره محيراً للاذهان أكثر من منابع نهر النيل . ولم يكن النيجر قد عرف كنهر مستقل حتى ذلك التاريخ . . . لقد رآه ابن بطوطة قبل ذلك بأربعة قرون فظن أنه النيل وكتب في رحلته : « ثم سرفنا من زاغري فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو ، والنيل ينحدر منها إلى كاره ثم إلى زاغة . . . ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ثم إلى كوكو ... الخ » (*) .

وهكذا لم يكن أحد في أوائل القرن التاسع عشر يعرف من أين ينبع النيجر ولا إلى أين ينتهي ... أينتهي إلى البحر أم إلى بحيرة كبيرة في الداخل ؟ بل لم يكن أحد يعرف في أي اتجاه يسير . . . أيمن أن يكون هو النيل الأعلى ؟ أم يكون أحد نهري الغرب — غمبيا والسنگال — هو مصبه ؟

لقد قامت الجمعية الإفريقية لتجيب عن مثل هذه الأسئلة . . . وكانت محاولاتها الأولى فاشلة لسوء الحظ . . . لقد أرسلت أربعة رحلات تحت رعايتها الواحد تلو الآخر وهم « ليدارد » Ledyard و« لو كاس » Lucos ، و« هورنمان » Horneman ، و« هوتن » Houghton ولكنهم جميعاً لم يصادفوا سوى الخيبة ، ولقى ثلاثة منهم حتفهم في إفريقية ، ووقع اختيار الجمعية في المرة الخامسة على « منجوبارك » Mungo Park وكان أسعد حظاً من زملائه فوصل فملاً إلى نهر النيجر ، وأذاع حقيقة جريانه

(*) « مهذب رحلة ابن بطوطة السمتة تحفه النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار »

إلى الشرق ، وعاد بوصف الجغرافية النهر كما يتصورها سكان البلاد ، ولكنه لم يستطع أن يعرف من أين ينبع النهر ولا في أى مكان يصب ، وحاول مرة أخرى - على حساب الحكومة لا على حساب الجمعية - أن يركب النهر باطاً فيه ليصل إلى مصبه ولكنه لقي حتفه عند « بوسا » في أوائل سنة ١٨٠٦ . وفي السنة التالية وصل إلى الجمعية نبأ وفاة مبعوث آخر من رجالها هو هنرى نيكولز Henry Nicholls هند خليج بنين وهو يمد نفسه لرحلة استكشافية في داخل البلاد .

(٣)

في هذا الوقت الذى سيطر فيه اليأس على الجمعية أو كاد ، وفد على لندن شاب غريب عنها في الخامسة والعشرين من عمره ، وجاءها يبحث عن عمل بعد أن ضاق بالأوضاع في بلده وفقد المال والجاء

كان هذا الشاب هو الولد الثامن ، لجون رودلف بركهارت ، الشهير باسم بركهارت كرشجارتن Kirshgarten نسبة إلى قصره في بازل . وقد استهل الأب حياته في أحسن الظروف ، ولكن سرعان ما تغير الحال بقيام الثورة الفرنسية ، فبدأ يواجه منذ اللحظة الأولى لقيامها سلسلة من المتاعب والأخطار أوشكت أن تصل به إلى المفصلة في يوم من الأيام . لقد حكم عليه الحزب الفرنسى في بازل بالإعدام بتهمة الخيانة وممالة الأعداء بتسليمه حصن هنتجن Hunengin للمموسيين في سنة ١٧٩٧ . وظهرت الأدلة واضحة فيما بعد على أن بركهارت برىء مما نسب إليه ، وأدى هذا إلى الإفراج عنه ، ولكن الرجل وجد أن ليس من الحكمة أن يظل تحت رحمة الفرنسيين ، خصوصاً وقد تجمعت لديه الأدلة على أنه لا بد مقضى عليه ، فهو في رأس قائمة الشخصيات التى تقرر التخلص منها بأى وسيلة في السراو في المان ، ولهذا نجده يلتحق بالفرقة السويسرية التى تعمل في خدمة إنجلترا ، ويترك زوجته وأطفاله في بازل عسى أن ينقذ بقاؤهم فيها الأسيرة من تدمير تام .

في هذا الجو الخائى وفي مدينة لوزان ولد الطفل « جون لويس » وفيها نما

وترعرع وهو يرى بعينه كل يوم مظاهر الشقاء التي تعانيها أسرته تحت الحكم الفرنسي الجمهورى . . . لقد ضاع كل شيء ، الثروة والجاه ؛ ولم يمد للأسرة من مجدها القديم سوى ذكريات تجترها كلاً ضاقت منها النفوس . وفقد الطفل وهو لا يزال في فجر حياته كل ثقة في الحكم الفرنسي ، واحتقر المبادئ التي ينادى بها الفرنسيون ، وقر في ذهنه ألا يمشي أبداً تحت سلطانهم ، وتماقت آماله بأن يخدم في جيوش الدول التي تحارب فرنسا حينما تسمح له السن أن يكون من حملة السلاح ، ولكن لا بد له من أن يتم تعليمه أولاً فهو صبي طموح لا تموزه القدرة ولا ينقصه الذكاء ، وكانت موارد أسرته لا تزال تسمح له بأن يتعلم على يد معلم خاص يزوره في بيت أبيه ، ولهذا لم يلتحق بدراسة نظامية إلا لمدة سنتين، قضاهما في معهد بنويشاتل .

ويبلغ الصبي السادسة عشرة من عمره في سنة ١٨٠٠ فيجمله أبوه « الزعيم بر كهارت » إلى جامعة ليبرج وفيها يقضى أربع سنوات ثم ينتقل إلى جامعة جوتنجن ، وفي كلتا الجامعتين كان « جون لويس » طالباً مثالياً أكسبته مواهبه المتنازة ، ورغبته الصادقة في المعرفة ، وتمسكه بقواعد الشرف ، تقدير أساتذته واحترام زملائه ، وأصبح له مجموعة كبيرة من الأصدقاء يحبون فيه صراحته الكاملة ، ومرحه الممتدل ورقة حاشيته وصفاء طبعه .

وترك بر كهارت جوتنجن في سنة ١٨٠٥ ليلحق بأبيه ، ومضت عليه فترة لا يعرف أى خطة رسمها لمستقبله . . إنه يريد أن يعمل ولكن بعيداً عن فرنسا والفرنسيين . ويتعذر عليه أن يجد في القارة دولة لا تربطها بفرنسا رابطة . لقد أصبحت كل الدول الأوروبية إما خاضعة لفرنسا أو متحالفة معها ، ولهذا يرفض غير آسف وظيفة في السلك السياسى يمرضها عليه البلاط الألمانى .

وأخيراً ينتهى به التفكير إلى أن يرحل إلى إنجلترا عسى أن يجد الباب مفتوحاً فيد خل في خدمة هذه الدولة التي لم تخضع بعد لفرنسا أو تتحالف معها . ويصل إلى لندن في يولية سنة ١٨٠٦ مزوداً بتركية كثير من الرجال المتنازين ومن بينهم

بلومنباخ Blumenbach أستاذه في جامعة جوتنجن الذي حمله رسالة إلى
السر جوزيف بانكس يزكي فيها تلميذه ويوصيه به خيراً .

ويتعرف بركهارت بكثير من أعضاء الجمعية الإفريقية البارزين ، ويعلم عن
طريقهم أن الجمعية بدأت تعتقد أن الأفضل لرحلاتها الذين تبعثهم للكشف عن
داخل إفريقية أن يحاولوا الوصول إليه من الشمال لا من الغرب كما كانوا يفعلون .
وتلقى أهداف الجمعية هوى في نفس بركهارت الذي تميز برجاسة العقل وحب العلم
وروح المغامرة ، فلا يمضي طويل وقت حتى يتقدم إلى السير جوزيف بانكس
والدكتور هاملتون أمين صندوق الجمعية وكاتم سرها بالنيابة ، عارضاً خدماته ،
ويرحب الرجلان بالسويسرى الشاب لما يعرفان من خلقه وشجاعته . ويعرض
هاملتون طلبه على الجمعية الإفريقية في اجتماعها السنوى العام في مايو سنة ١٨٠٨
فتوافق عليه ، ولا شك أن هذا الأمر قد أثلج قلب بركهارت ، فقد أرضى
طموحه ، وفتح أمامه الباب واسماً للمغامرة طويلة قد يكون من ورائها ذبوع
شهرته وضم اسمه إلى سجل النابهين من الرحالة والمستكشفين .

ولم تصل موافقة الجمعية رسمياً إلى بركهارت إلا في ٢٥ يناير من سنة ١٨٠٩ ،
ولكنه بدلا من أن يقضى هذه الشهور الثمانية يستبد به القلق ، ينتقل إلى كبردج
ليتعلم اللغة العربية وفروع العلم الضرورية لشخص يوشك أن يقوم بمهمة كهيمته ،
فيحضر محاضرات في الكيمياء والتمدين والفلك والطب والجراحة ، فإذا ما فرغ
من دروسه أخذ يتأهب لما هو مقبل عليه من مغامرة .

ولو كنت ممن يتجولون في ريف مقاطعة كبردج في صيف سنة ١٨٠٨
لاسترعى انتباهك شاب وسيم قد أطلق لحيته الكثة السوداء وهو يسير
على قدميه طارى الرأس لمسافات طويلة وبخاصة في الأيام الصاحية التي تشرق
شمسها وترتفع درجة حرارتها ، فإذا ما أنهكه الجوع أخرج من غلابة صغيرة
يحملها قليلا من الخبز والخضر يسكن بها صراخ بطنه ، وربما استبد به التعب
فنام في ظل شجرة أو على ضفة نهر . . . إنه « جون لويس بركهارت » يدرّب

نفسه على تحمل الشاق قبل أن يبدأ المفامرة التي سعى إليها ووافقت الجمعية على أن يقوم بها .

وتفصى التعليمات الصادرة إلى بركهارت بأن يسافر إلى سورية أولاً حتى يتقن اللغة العربية ، فقد أصبحت أهم المؤهلات مادام يريد أن ينفذ إلى داخل القارة عن طريق الشمال ، وحتى يستطيع أن يعيش في مجتمع لا تختلف عاداته وتقاليده عنها في البيئة التي سيتخذها قاعدة يطرق منها أبواب الداخل النامض المجهول ، وبذلك يسهل عليه تجنب الأخطار التي قد تنشأ عن اكتشاف أمره في المستقبل . وكان عليه بعد أن يقضى عامين في بلاد الشام أن يرحل إلى القاهرة ليصحب إحدى القوافل التي تسير منها إلى واحة مرزوق التي سيتخذ منها بداية لرحلته داخل إفريقية .

وفي ٢ مارس سنة ١٨٠٩ يستقل بركهارت باخرة تجارية تقلع بحمولتها من ميناء كاوس Cowes في جنوب إنجلترا متجهة إلى ميناء البحر المتوسط ، ويصل إلى مالطة في أواسط إبريل فيسارع بكتابة رسالة إلى السير جوزيف بانكس مؤرخة في ٢٢ إبريل يخبره بوصوله إلى الجزيرة الصغيرة وأنه علم من أحد تجارها أن طبيباً ألمانيا يدعى دكتور سيتزن Dr. Seetzen وصل إلى القاهرة منذ عام ونصف وأنه يستعد للقيام برحلة إلى داخل افريقية .

ثم يبعث إليه مرة أخرى بخطاب مؤرخ في ٢٢ مايو يخبره بأنه سيسافر من مالطة إلى حلب كتاجر هندي مسلم اسمه إبراهيم بن عبد الله يحمل رسائل من شركة الهند الشرقية إلى قفصل بريطانيا الذي هو في نفس الوقت وكيل الشركة في حلب ، ويذكر له أنه نجح في أن يظهر بالمظهر الشرقي الصحيح في أثناء إقامته بمالطة وأنه تدرب قدر استطاعته على الحديث باللغة العربية ، ويؤكد اعتقاده في أن سره لم يقف عليه أحد . ثم يسترسل في خطابه فيترك الحديث عن نفسه لينتقد الرأي الذي يقول بأن سقلية هي مصدر التربة التي تغطي أراضي مالطة، ثم يتحدث عن الحكومة المالطية وسياساتها .

وتنقطع أخبار بركهارت عن الجمعية لمدة أربعة شهور ، ثم يكتب لها من حلب في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٠٩ رسالة طويلة يقص فيها أخبار رحلته من مالطة حتى استقر به المطاف في حلب ، فيتحدث عن أصحاب المراكب وعدم تمسكهم بكلمتهم ، وعن رفاقه في الرحلة وأستلهم الكثيرة التي وجهوها إليه من الهند وسكانها ولغاتها ، وإلحاحهم في أن يذكر لهم نماذج من اللسان الهندي ، وكيف كان رد عليهم يحمل ألمانية ينطقها بأسوأ اللهجات السويسرية ، ويصف الطريق الذي سلكه في البحر والبر والبلاد الذي نزل بها وأنماط الحياة السائدة فيها والأشخاص الذين قابلهم وأحاديثه معهم ؛ ولا يجد حرجاً في أن يذكر أن ما جمعه من المعلومات عن بعض البلاد لا يكفي لكي يصدر عليها حكماً سليماً ، ويصلح مواقع بلاد أخرى على الخريطة ؛ فيذكر مثلاً أن طرسوس التي ترى على كثير من الخرائط بلداً ساحلياً إنما تبعد في الواقع عن البحر بأكثر من ثلاثة أميال .

ويتحدث في نهاية خطابه عن الحمى التي أصابته عقب وصوله إلى حلب بصفة أيام ويذكر أنه يمتزم البقاء في حلب حتى نهاية الصيف التالي وأنه وفق في الحصول على معلم كفء للغة العربية ، وسوف يقوم بزيارة البدو في صحرائهم ليقضى بينهم عدة شهور وذلك حينما يصبح في مقدوره أن يتحدث إليهم بلهجاتهم .

وعاش بركهارت في سورية عامين ونصف عام يضيف كل يوم جديداً إلى معلوماته في اللغة العربية وإلى خبراته بأخلاق أهل الشرق وطباعهم وأحوال المجتمع الإسلامي وعاداته . واتخذ من حلب المركز الرئيسي لإقامته ، وظل يحمل اسم « إبراهيم بن عبد الله » الذي أطلقه على نفسه في مالطة ، ولكنه إيماناً منه بأنه لا يزال قليل الخبرة والتجربة في تمثيل دور المسلم ، واعتقاداً بأنه ليس هناك ضرورة ليمش متخفياً في حلب ، لم يكن حريصاً على أن يخفي أصله (م ٢ - مقدمة بركهارت)

الأوروبي ، واكتفى بأن يلبس الملابس التركية كما كانت عادة أمثاله من الرحالة الأوروبيين ، لا رغبة في التخلي وإنما اتقاء لما يمكن أن يوجه إليهم من إهانات ، ومن ثم يستطيع أن يختلط بالمسلمين في حلب ويستطيع في نفس الوقت أن يتصل بالأجانب إذ لم يمد هناك ما يحول بينه وبين هذا الاتصال ، وقد ساعده هذا على أن يستفيد بحماية مستر باركر فنصل بريطانيا والمستر ماسيك (Masseyk) فنصل هولندا السابق وغيرهما من أعضاء الجالية الأوروبية التي تعيش في حلب .

وقضى بركهارت معظم وقته في مدينة حلب يتلم اللغة العربية ، وكان مقررا ألا تطول إقامته في الشام لأكثر من عامين . ولكنه بعد مضي سنة يكتب إلى الجامعة بأنه وإن يكن يبذل كل ما في وسعه لإجادة اللغة العربية إلا أنه يحس بأن سموعيتها تجعل المدة الباقية لا تكفي لتحقيق رغبته ، ويلتمس من الجمعية أن تسمح له بسة مشهور أخرى يقضيها في بلاد الشام . وتجيبه الجمعية إلى طلبه ويقبل بركهارت على دراسته ويحاول أن يكتب قصة عربية مقتبسة من قصة روبنسن كروزو مستعينا في كتابتها برجل من الأفرنج ولد في حلب لا يكتب العربية ولا يقرأها ولكنه يتكلم بها كأحد الوطنيين . ويطلق على قصته عنوان « در البحور » ويرسل بها إلى السير جوزيف بانكس .

ويتمرف على أحد شيوخ التركان الريحانية ، ويتفق معه على زيارة المنطقة التي تسكنها قبيلته كطبيب يبحث في خواص الأعشاب الطبية ، فيترك حلب ليقم أسبوعين من شهر مارس سنة ١٨٠٩ مع هذه القبيلة الرحالة التي تنجيم على مسيرة يوم من حلب في فصل الشتاء والربيع . . . ومرة أخرى يرافق في سبتمبر سنة ١٨١١ قافلة إلى السخنة ومنها إلى ضفاف الفرات ، ولكن وصف هذه الرحلة لا يصل إلى الجمعية كما هي عادة بركهارت دائما ، وأغلب الظن أنه بحث بتقريره ثم ضاع في الطريق .

ويترك بركهارت حلب في صيف سنة ١٨١٠ ليزور تدمر وحوزان وينتهي

به المطاف إلى دمشق فيقضى فيها ثلاثة شهور ويقوم منها برحلتين تستغرق إحداها أسبوعين يطوف فيهما بحبال لبنان الساحلية والداخلية ويזור رحلة وبمليك ووادي البقاع ، ويזור في الرحلة الأخرى منطقة حوران التي آخر زيارته لها تنمير الحكومة في دمشق وما تبع ذلك من اضطراب .

ثم يعود إلى حلب وقد غاب عنها ستة شهور ليواصل تعلم اللغة العربية وليتم استعداده لرحلته الإفريقية . ويواصل كتابة الرسائل إلى السير جوزيف بانكس والدكتور هاملتون ، وهي رسائل مفصلة يتحدث فيها عما يدور حوله وما يجمعه من معلومات . فيتحدث عن تاريخ حلب المعاصر ، وعن إغارات السعوديين على بلاد الشام ، وعن عزل يوسف باشا وإلى دمشق وتولية سليمان باشا حاكم عكا مكانه ، وعن إغلاق الوهابيين لطريق الحج الشامي والمحاولات التي يبذلها الولاة الأتراك لإعادة فتحه . ويتوقف الأخبار من جميع مصادرها الممكنة ، فيتعرف إلى دروبشين فارسين يصلان إلى حلب وكانا قد قضيا عامين في بلاط آل سعود في الدرعية ، كما يتعرف بشيوخ القبائل الذين يفدون إلى حلب للتجارة والميرة ، ويرسل إلى الجمعية بدراساته وملاحظاته ، فيبحث إليها بتصنيف للقبائل العربية في بادية الشام ، ويبحث عن عادات البدو وشمائلهم ، وبيعض ملاحظات من جغرافية الصحراء ، هذا بالإضافة إلى التقارير التي يكتبها عن الرحلات التي يقوم بها في بلاد الشام .

وفي فبراير سنة ١٨١٢ يغادر حلب نهائياً فيصل إلى دمشق ويقع بها فترة يزور خلالها حوران مرة أخرى ، ثم يغادر دمشق في ١٨ يونية في طريقه إلى مصر ، فيزور طبرية والناصرية ويمكث بها أياماً حيث يلتقي ببعض التجار من السلط فيصحب قافلهم ويهبط إلى إقليم الغور قرب بيسان فيزور السلط ومنها يزور خرائب فلادلفيا (عمان) وينتهي به المطاف إلى وادي موسى أحد أودية جبال الشراة حيث يسره أن يرى بقايا مدينة أثرية تتكون من عدد كبير من المباني والتماثيل المنحوتة في الصخر . ويكون بذلك أول أوربي يزور خرائب مدينة « بتر » عاصمة بلاد العرب الحجرية . ثم يتجه إلى الغرب سالكاً وادي عربة ومخترقاً صحراء التيه ، ومن السويس يسلك طريق الحج حتى يصل إلى القاهرة .

وصل بر كهارت إلى القاهرة في الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٨١٢ ، وكان أول عمل له بها أن يكتب وصفاً مفصلاً لرحلته من دمشق إلى عاصمة مصر ولم يلبث أن بعث بهذا الوصف إلى الجمعية .

وحدث عند وصوله إلى القاهرة أن سمع بخبر قافلة صغيرة توشك أن تترك مصر إلى القسم الشمالى من الصحراء الكبرى ، وكان طريقها هو نفس الطريق المفروض أن يسلكه بر كهارت قاصداً بلاد النيجر ، وفكر رحالتنا الشاب في الموضوع واستقر رأيه على التخلف في القاهرة بمض الوقت . . . إنه لا يريد أن يعرض آماله للأخطار بالاشتراك في قافلة لا يدري من شأنها سوى القليل . . . إنها فرصة ما في ذلك شك ، ولكن النجاح فيها غير مضمون ، وإذا لم تكن الفرصة السانحة فيها كل عوامل النجاح فمن الأفضل أن يؤجل تنفيذ مشروعاته ، وخير له أن يبقى في مصر عدة شهور ليتعود الحياة فيها . وهي لا شك تختلف عن الحياة في بلاد الشام ، ويكتب إلى الجمعية فتقره على رأيه فليس هناك أخطر من الاستعداد الفج في رحلة خطيرة كنتلك التي يعتزم رحالتها القيام بها .

ويكتب بر كهارت في ١٣ نوفمبر سنة ١٨١٢ رسالة إلى الدكتور هاملتون سكرتير الجمعية الإفريقية يبر فيها عن مشاعره نحو هذا الموضوع ، ويتحدث عن اغترامه القيام برحلة برية إلى مصر العليا وبلاد النوبة بمجرد أن تسمح حالة النهر بذلك ، وأن في نيته أن يتجاوز الشلال الثالث إذ أن المنطقة التي تقع فوق الدر لم يزرها أحد من الرحالة من قبل ، وهي كما علم من بعض الوطنيين غنية بالمعابد القديمة والآثار التي تشبه آثار الأقصر وجزيرة فيلة ، ويشجعه على القيام بهذه الرحلة ملاحظته من استتباب الأمن في مصر ؛ ولو لم يكن المالك الذين استقروا في دنقلة يسيطرون على النوبة لكانت زيارة دنقلة ضمن خطته ، « ولكنى لن أعرض نفسى لطغيانهم وسأكون سعيداً لو وصلت إلى ما يبعد عن دنقلة بمسيرة خمسة أيام أو ستة ، واستطعت أن أقوم ببعض رحلات هامشية في الصحراء النوبية » . وكان بر كهارت يأمل أن تجعله هذه الرحلة ملماً بطبيعة الأمم الإفريقية وسلوك تجار الرقيق فإن هذا

كما بهل عليه مهمة جوب داخل القارة ، وقد قدر أن تستغرق رحلته نحو خمسة شهور ، ولا ضير في ذلك إذ لا ينتظر وصول قافلة من فزان إلى مصر قبل شهر يونية التالي ، ومن ثم فسيكون لديه من الوقت ما يمكنه من الالتحاق بها عند عودته إلى القاهرة .

وقد حقق بر كهارت القسم الأول من خطته على الصورة التي وصفها ، ولكن « رحلاته الهامشية في الصحراء النوبية » كانت أوسع مما تملقت به آماله ، فقد قادته إلى أن يصل إلى ضفاف نهر استابورس (عطبرة) ومن هناك عبر الصحراء إلى سواكن على ساحل البحر الأحمر . وكانت هذه الرحلة في صحراء النوبة ورحلته الأولى على طول النيل حتى دنقلة هما الرحلتين الوحيدتين اللتين أراد له القدر أن يقوم بهما في إفريقية المهدف الأول لرحلته ، ولكنهما ادتا لرحلة إلى بلاد العرب نتج عنها كثير من الدراسات التي لم تكن أقل إثارة وجدة من الدراسات التي قام بها بر كهارت في بلاد النوبة .

ومع أن بر كهارت أقام فترة طويلة في مصر العليا بين رحلتيه النوبيتين ، وأنفق ما يقرب من عامين في رحلاته الأفريقية الآسيوية ، فإن هذا لم يكن سبباً في ضياع أى فرصة للوصول إلى هدفه الأساسى ، فلم تقم من مصر أى قافلة تسلك الاتجاه الغربى إلى ليبيا الجنوبية خلال مدة تنبيهه من القاهرة .

ويواصل بر كهارت كتابة رسائله إلى الجمعية ، فيبعث في ٢ مايو سنة ١٨١٣ رسالة من إسنا كانت أولى رسائله منذ مغادرته القاهرة في ١١ يناير . وكان قد عاد لتوه من رحلته الأولى في بلاد النوبة . فيتحدث عن الرحلة وعن نجاحه في الخطة التي رسمها لنفسه ، ثم يكتب من أسيوط في ١٢ يولييه يبدى أسفه لعدم تمكنه من مصاحبة قافلة سنار بالسرعة التي كان يتوقعها . وفي رسالة من إسنا بتاريخ ١٤ أكتوبر يبرر تأخره عن مواصلة أسفاره بانتشار الجاعة في بلاد النوبة مما اضطر القوافل إلى التجمع في بلدة « دراو » انتظاراً لموسم الذرة الجديد ، ويشير إلى أنه ينوى حينما تسمح الظروف أن يتجه من الدامر إلى مضوع ومنها

بمن البحر الأحمر إلى ساحل بلاد العرب ليعود إلى القاهرة عن طريق الحجاز ،
ويأمل أن تقره الجمعية الإفريقية على ذلك ... إنه لم ينس هدفه الأول وسوف يبدأ
رحلته الإفريقية حينما يعود إلى القاهرة ، ولكنه يرى أن رحلة إلى داخل بلاد
النوبة تستحق ما ينفق عليها وما تتطلبه من وقت ، وأن امتداد الرحلة إلى بلاد
العرب سيجعله أقدر على محاربة ما قد يتعرض له من أخطار في رحلاته المقبلة في
أحباء العالم الإسلامى .

وخلال الفترة المضجرة التي كان محتوما على بر كهارت أن يقضيها في
مصر لمعيا استمر متخفياً في زى تاجر مسلم بسيط ، وكان شديد الحرص على
ألا يكشف أمره أو تعرف أغراضه ، ولم يستطع أن يغادر إسنا إلا في ٢ مارس
سنة ١٨١٤ ليبدأ رحلته النوبية الثانية . وكان من الصعب عليه بعد أن ترك دراو
أن يجد الفرصة الكافية لكتابة مذكراته وتسجيل ملاحظاته . وكان أكثر
صعوبة من هذا أن يبعث برسائله إلى الجمعية حتى وصل إلى سواكن ومنها عبر البحر
الأحمر إلى بلاد العرب ، ومن جدة أرسل إلى السير جوزيف بانكس بخطاب
مؤرخ في ٧ أغسطس سنة ١٨١٤ يصف فيه الطريق الذي سلكه وأهم المعلومات
التي جمعها خلال رحلته النوبية الثانية ، تلك الرحلة التي لم تصل المعلومات المفصلة
عنها إلى الجمعية إلا في سنة ١٨١٦ وهي التي تكون الجزء الأكبر من هذا الكتاب
الذي بين أيدينا .

واقضى ما يقرب من عام قبل أن تصل إلى الجمعية أى أخبار من رحلاتها ،
فقد كان الخطاب التالى مؤرخاً من القاهرة بعد عودته إلى مصر من بلاد العرب وقد
حالت أحواله الصحية السيئة دون أن يذكر في هذا الخطاب كثيراً من تفاصيل
رحلته في بلاد العرب ، ولكنه أرسل في السنة التالية إلى الجمعية أجمل قصة عن
الحجاز ، ووصف المدينتين القدسيتين مكة والمدينة أحسن وصف ، فقد ساعده
معرفته الجيدة للغة العربية ووقوفه على عادات المسلمين على أن يمثل دور المسلم بنجاح
حتى لقد استطاع أن يقيم في مكة طول موسم الحج وأن يؤدي مع الحجاج جميع
المناسك دون أن يحوم حوله أدنى شك .

واراد محمد على ذات مرة أن يختبر إسلامه ؛ وكان في مركز قيادته بالطائف ، ولم يكن يجهل أن بر كهارت على صلة بالجلترا ؛ فدفع باثنين من أكبر علماء الحجاز في ذلك الوقت ليمتحناه وليعرفا مدى علمه بالقرآن ومبلغ فهمه للشرعة الإسلامية . وكانت النتيجة اقتناع المتحنيين أو على الأقل إقتناع المستمعين بصحة إسلامه .

وحمل بر كهارت لقب « حاج » وهو لقب كان يعتقد في أهميته لرحلاته المقبلة في قلب إفريقية ، وجمع من المعلومات من بلاد العرب ما لم يتح لرحلة آخر قبله . ولكنه دفع الثمن غالياً في سبيل الحصول على هذه المعلومات ، فليس من شك في أنه لم يسترد عافيته أبداً بعد إقامته في الحجاز ، ولم يبرأ من الآثار التي سببها جو الحجاز . لقد كانت هجمات الحمى والزحار التي بدأ يعانيها في بلاد العرب هي السبب الأول الذي أدى إلى وفاته بعد سنتين من عودته .

وقد بعث من القاهرة في ١٥ يونيو سنة ١٨١٥ بخطاب إلى السير جوزيف بانكس يذكر فيه : أنه مضى زمن طويل منذ كتب إليه رسالته السابقة في أغسطس سنة ١٩١٤ ، ويخبره بوصوله سالماً إلى جده ؛ ويشير إلى صعوبة إرسال الخطابات من الحجاز ، وإلى أن الأطباء لا يسمحون له بأن يكتب كثيراً ، ومن ثم فهو يكتفي بإعطاء صورة بسيطة عن رحلاته في الحجاز . ويمال تدهور صحته في الحجاز بسوء المناخ ورداءة الماء . والماء الرديء في نظره هو السبب المباشر فيما يحس به من اعتلال

وفي يولية من نفس السنة يكتب للدكتور هاملتون سكرتير الجمعية فيقول : « لن أقول شيئاً الآن من رحلتى إلى داخل إفريقية عن طريق الصحراء الليبية ، ولا بدلى من وقت حتى أسترد صحتى وأنتم كتابة تقاريرى ، وآمل حيناً أفرغ من هذا العمل ألا يكون هناك ما يحول بينى وبين الإسراع في القيام برحلتى الأخيرة التي أحس أنني الآن مؤهل لها كل التأهيل » .

وفي خلال الشهور التسعة التالية كان كل اهتمام بر كهارت موجهاً إلى استرداد عافيته وإلى اعداد مذكراته عن رحلاته إلى النوبة وإلى بلاد العرب ليقدمها إلى

(٢٦)

الجمعية وينتقل الى الإسكندرية عسى أن يكون جوها أكثر ملاءمة له من جو القاهرة فيراً من علته ، ثم يتركها بعد ثلاثة أسابيع عائداً الى القاهرة من طريق دمياط وقد أمضه طول الانتظار لقافلة تأتي من بلاد العرب فيعود معها ، ولكنه يتدبر بالصبر ويتعلق بواسم الآمال ويفرغ من إعداد مذكراته عن رحلاته في بلاد النوبة وبعث بها إلى الجمعية في ٨ فبراير سنة ١٨١٦ .

(٦)

ويتفشى الطاعون في القاهرة ويتوقع بركهارت أنه لا شك منتقل إلى أراضي الوادي والدلتا فيعزم الرحيل إلى الصحراء ليمش مع البدو في شبه جزيرة سيناء إذ أنه لا يريد « أن يتصرف تصرف الوطنيين بالاستسلام للقضاء والقدر ، ولا تصرف الأفرنج بأن يحبس نفسه في منزله شهوراً » ، ويترك القاهرة في ٢٠ أبريل سنة ١٨١٦ فيزور دير سانت كاترين وخليج العقبة ويتجول في أنحاء متفرقة من شبه الجزيرة ، فإذا ما عاد إلى القاهرة في ١٤ يولية سارع فكتب إلى الجمعية في أول يولية خطاباً يصف فيه رحلته بإيجاز ويذكر « أنه لا يزال قليل الأمل في بدء رحلته الإفريقية في وقت قريب » ويشير في هذا الخطاب إلى مشروع بدأ يفكر فيه بالاشتراك مع مستر هنري صولت والمستر بلزوني لنقل رأس ممنون من الصعيد إلى الاسكندرية ثم إلى لندن لضمها إلى مقتنيات المتحف البريطاني . .

وكانت رحلة سيناء هي آخر رحلات بركهارت . . وطاش بعدها في القاهرة ينتظر القافلة المرتقبة عاكفاً على ترتيب أوراقه وإعداد مذكراته عن رحلاته وقد يسمح له الوقت فيقوم بدراسات تفصل بالأدب الشعبي أو يسهم في الترتيبات الخاصة بنقل رأس ممنون إلى الاسكندرية ومنها إلى إنجلترا ، فيرسل إلى الجمعية في ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٦ بحثاً عن « بدو الجزيرة العربية » وآخر عن « تاريخ الحركة الوهابية وحملة محمد علي إلى الحجاز » . ثم يرسل إليها في ٢٠ فبراير ١٨١٢ مذكراته عن « رحلاته في الحجاز » مع بعض ملاحظات جمعها من داخل إفريقية ، وترجمة لما كتبه المقرئ عن جغرافية بلاد النوبة وتاريخها ،

ويرسل مع السكابتين جامبير Gambier يونية سنة ١٨١٧ مجموعة من الأمثال القاهرية ليوصلها إلى الدكتور هاملتون ويجعل عنوانها « الأمثال العربية : أو شمائل وعادات المصريين المحدثين كما تصورها الأمثال العربية القاهرية » وقد جمع فيها ٧٨٢ مثلاً تعطى صورة صادقة للمجتمع القاهري في ذلك العهد . وكانت هذه هي أول محاولة جدية يقوم بها رحالة لدراسة المصريين المحدثين ، ووضع بذلك الأساس لما قام به لين فيما بعد .

ويرسل مذكراته عن رحلته في سيناء ويفهم من خطابه إلى السير جوزيف بانكسي المؤرخ في ١٨ مايو سنة ١٨١٧ أن هذه المذكرات تكون مجلدًا ضخمًا ولكنه يترك للجمعية حرية حذف ما تشاء عند نشرها . ويمتدح بركهارت أنه كان لديه الفرصة للكتابة في هذه الرحلة أكثر مما كان له في أي رحلة أخرى ، ويدكر أن هذه البلاد الصغيرة ذات الأهمية البالغة في تاريخ البشرية لم تلق بعد ما هي جديرة به من العناية . ويلحق بمذكراته تعليقاً على الطريق الذي سلكه بنو إسرائيل عند خروجهم من مصر .

ويواصل بركهارت كتابة رسائله إلى الجمعية ، وهي رسائل تشتمل على كثير من الملاحظات عن أحوال مصر وحكومتها ، وعن الموضوعات التي كانت الفرض الأساسي لرحلته كبعوث للجمعية الإفريقية ، وقبلما تخلو رسالة من هذه الرسائل من إشارة لما يشعر به من الألم لعدم تمكنه من إنجاز مهمته ، ولكن اليأس لا يتطرق إلى نفسه برغم الحرج الشديد الذي يشعر به . . . « لقد مضى على سنتان لا أفعل سوى التعليق على رحلاتي السابقة أو التحدث عن رحلاتي المستقبلية . . إني أقدم وعوداً بدلاً من أن أؤدي أعمالاً . . ومع ذلك فلا أزال غير قادر على التحرك من مصر ، فلم تصل بمدى قافلة من الغرب ، ومنذ زمن طويل ونحن نتوقع وصولها ، وقد حال الانتظار بيني وبين القيام بأي رحلات أخرى . . ولو أن هناك طريقاً آخر يصلني إلى داخل إفريقيا غير طريق غزان لما تأخرت عن سلوكه لما أشعر به من ألم خوفاً من أن يظن بي السلسل أو يفهم أن روحي قد ضعفت . . . لقد مضى على ثمانية أعوام . ولكني

بذلت كل ما في وسعى لاكتساب المؤهلات التي تلزمى في مشروعى ... فإذا فشلت فإن خفى سيحتاج إلى سنوات طويلة يتدرب فيها ليبلغ أبواب ليبيا بنفس الثقة التي أستطيع أن ألقها بها الآن ...» ويملل بركهارت تأخر وصول القوافل من فزان باشتداد الطلب على العبيد السود في ساحل بلاد المغرب ليحل محل العبيد البيض الذين حررتهم حروب الرقيق ، ويتوقع أن تصل القوافل إلى مصر بمجرد أن يستوفى السوق المغربى حاجاته من هذه التجارة الآدمية خصوصاً وقد قضى الطاعون على كثير من العبيد فى مصر إذ هم فريسة سهلة له ، وأصبح السوق المصرى فى حاجة إلى وارد جديد .

وجاء موسم الحج لسنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) وقرر بركهارت أن يترك القاهرة فى صحبة الحجاج المائدين إلى ديارهم فى الغرب بدلاً من أن ينتظر قوافل التجار . وكان يتوقع أن يبدأ فوج الحجاج المغربى رحلة العودة من القاهرة فى شهر ديسمبر . وكان قد أرسل إلى إنجلترا كل الأوراق الخاصة برجلاته السابقة ، فمقد العزم على أن يبدأ مهمته الأساسية التي غادر إنجلترا من أجلها . وأحس أنه قد أصبح مسلحاً بالدراسات الكافية والخبرات العديدة حتى ليستطيع أن يتجول وهو مطمئن من فزان إلى النيجر وأن يلقى جزاء صبره الجليل ومثابرته الطويلة .

ولكن القدر أراد له أمراً آخر . فى الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٨١٧ عاودته أعراض الزحار ، واشتد به الألم ، حتى لقد استدعى أعياده الدكتور « ريتشاردسن » وهو طبيب بريطانى كان لحسن الحظ موجوداً بالقاهرة فى صحبة اللورد بلور . وأسرع إليه الطبيب يسهر عليه ويرعاه ، وبذل كل ما يستطيع عسى أن ينقذ الرحالة الشاب من علته أو يخفف عنه آلامه ، ولكن المرض كان أقوى من كل دواء ، وأخذت حالة المريض تسير من سيء إلى أسوأ .

وأحس بركهارت فى صبيحة اليوم الخامس عشر من أكتوبر بأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من منيته ، فاقترح أن يستدعى صديقه مستر هنرى صولت فنصل بريطانيا فى مصر ليكون بجانبه ، ووافقه الطبيب على اقتراحه . ويقول مستر صولت فى خطاب أرسله إلى الدكتور هاملتون سكرتير الجمعية الإفريقية « لقد ذهبت فى

التو ، ولا أستطيع أن أعبر عن الصدمة التي واجهتها حينما رأيت التغيير الكبير الذي طرأ عليه في مثل هذا الوقت القصير » . . . ورغم شدة الملة ظل المريض محتفظاً بكل حواسه وهو يعل على مستر صوت وصيته الأخيرة ، وهي وصية نبيل تقاضيلها على ما كان يتحلى به بركات من صدق الوفاء والاعتراف بالجميل .

ولم تمض ساعات حتى أسلم الروح وهو يتحدث عن الرحلة التي كان يرمع القيام بها خلال شهرين مع القافلة المائدة من مكة إلى فزان ثم إلى تمبوكتو . لقد كان صراعاً بين الآمال الغاربة والآذار الغالبة ، وانتهت في هدوء حياة رحالة شاب عقدت عليه أوسع الآمال . وكانت جنازته إسلامية كما رغب ، وكانت جنازة حافلة تتفق مع المركز المحترم الذي كان له في عيوز المصريين . واستقر في ثرى الأرض الطيبة الجسد الذي عاش صاحبه خمسة أهوام على ضفاف النيل .

(٧)

وتعرف بركات في القاهرة باثنين من الزملاء هما هنرى صولت Henry Salt وجيوفانى بابتستا يلزوني Giovanni Baptista Bilzoni ، وعاش الثلاثة في مصر في وقت واحد ، وعاون كل واحد منهم زميليه في تحقيق أهدافه ، وعملوا أكثر مما عمل غيرهم من رحالة العصر ، وكان أسبق الجميع وصولاً إلى القاهرة جون لويس بركات حيث أقام بها من سبتمبر سنة ١٨١٢ حتى وفاته في أول أكتوبر سنة ١٨١٧ .

وقد عين هنرى صولت قنصلاً عاماً لبريطانيا في مصر سنة ١٨١٥ . ولم يكد يصل إليها حتى بدأ في سنة ١٨١٦ في تكوين مجموعة من الآثار لحساب « إيرل مونتروس » ، واستمر اهتمامه بالآثار المصرية حتى وفاته في سنة ١٨٢٧ . وكان يجمعها بنشاط ويدرسها بعناية ويرسم لها لوحات بقلمه . وقد استخدم هو وبركات في سنة ١٨١٦ جيوفانى يلزوني لنقل رأس ممنون إلى الاسكندرية بقصد إهدائها للمتحف البريطاني . وقد أوصى بركات وهو على فراش الموت بأن يدفع نصيبه في هذا المشروع ، ويذكر صولت كاتب وصيته . « أنه كرر هذا مراراً خوفاً

من أن أظن أنه قد دفع فعلا ما يكفى كما لحت إلى ذلك مرة . . . وقد جمع صولت أثناء إقامته في مصر كثيراً من التحف الأثرية وكان لديه أحسن مجموعة من البرديات حتى ذلك العهد . وكان أقصى أمانيه أن يكتب كتاباً عن مصر . ويقال إنه فرغ فعلا من تأليف هذا الكتاب ولكن أصوله ضاعت وكان كل ما خلفه أشعار عن مصر طبعت في الاسكندرية .

أما الرحالة الثالث فهو « جيوفانى بابستازى بلزوني » ، وهو إيطالى عاش في بريطانيا لمدة تسع سنوات ووفد على مصر هو وزوجته الإنجليزية في سنة ١٨١٥ ، وقد استخدمه محمد علي بمضى الوقت لينشئ له محطة هيدروليكية ، وحينما فشل في هذا المشروع قدمه بركهارت إلى مستر صولت واستخدماه في نقل رأس رمسيس من طيبة إلى الإسكندرية . وقد أدى نجاحه في هذه المهمة إلى أن واصل عمله في الآثار المصرية لمدة أربعة أعوام . ويحكى الكتاب الوحيد الذى ألفه بالإنجليزية قصة حياته في مصر ، وقد نشره جون مرى في سنة ١٨٢٠ . وكان بلزوني يختلف من زميله فلم تكن له روح العالم ولا دقة الباحث ، ومع أنه نجح في فتح هرم الجيزة الأوسط والكشف عن معبد أبى سمبل فلم يكن يحمل للآثار ولا لأصحابها أى احترام ، وكثيراً ما أحرق العظام وبقايا الموميات حينما كان يموزه الوقود . . . لقد كانت قصة بلزوني بحثاً عن الشهرة فحسب ، وتصيداً للآثار بطرق غير علمية وبوسائل غير مشروعة .

وقد عرض الجبرى مؤرخ مصر الحديثة لموضوع الآثار واهتمام الأجانب بها ، وتحدث عن زيارة قام بها المنزل هنرى صولت فنصل بريطانيا في حجة بركهارت فذكر في حوادث شهر ذى الحجة سنة ١٢٣١ هـ : « أن طائفة من الإفرنج الإنجليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة الكائنة بئر الجيزة غربى القسطنطين لأن طبيعتهم رغبتهم الإطلاع على الأشياء المستغربات والفحص عن الجزئيات وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان والتصاوير والتماثيل التى فى المقارنات والبرابى بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض ويصرفون لذلك جملاً من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومواجريهم حتى أنهم

فذهبوا إلى أقصى الصعيد وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وتصاوير ، وواويس من رخام أبيض كان بداخلها موتى بأكفانها ، وأجسامها باقية بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا . ووجه القبور مصور على تماثيل صورته التي كان عليها في حياته ، وتماثيل آدمية من الحجر السماقي الأسود المنقط الذي لا يعمل فيه الحديد جالسين على كراسي . واضمين أيديهم على الركب ، ويبد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى ، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة أطول من قامته الرجل الطويل ، وعلو رأسه نصف دائرة منه في علو الشبر ، وم شبه العبيد (المشوهين) الصورة ، وم ستة على مثال واحد كأنما أفرغوا في قالب واحد يحمل الواحد منهم الجملة من المتالين ، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة .

« وأحضروا أيضاً رأس صنم كبير دفموا في أجرة السفينة التي أحضروه فيها ستة عشر كيساً فيها ثلثمائة وعشرون ألف نصف فضة وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها . وذلك عندهم من جملة التجارة في الأشياء الغريبة .

« ولما سمعت بالصور المذكورة ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى بكير المعروف بالساعاتي وسيدى إبراهيم الهدى الإنجليزي (بر كهارت) إلى بيت القنصل يدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأربكية وشهدت ذلك كما ذكرته وتمجينا من صناعتهم وتشابههم وصقالة أبدانهم الباقية على مر السنين والقرون التي لا يعلم قدرها إلا إلام النيوب .

« وأرادوا الاطلاع على الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة ، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا القملة والمساخين والفلقان وعبروا إلى داخلها وأخرجوا منها أربة كثيرة من زبل الوطواط وغيره ونزلوا إلى الزلاقة ونقلوا منها تراباً كثيراً وزبلأ ، فأنهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك ، هذا ما بلغنا عنهم . وحفروا حوالى الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام التي تسميها الناس رأس أن الهول فظهر أنه جسم كامل عظيم مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه

نقوش شبه قلم الطير وفي داخله صورة سبع مجسم من حجر يدهون يدهان أحمر وأبيض باسط ذراعيه في مقعد الكلب ، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ورأيت يوم ذاك ، وقيس المرتفع من جسم أبي الهول من عقد صدره إلى أعلى رأسه فكان اثنين وثلاثين ذراعاً وهي نحو الربع من باقى جسمه وأقاموا في هذا العمل نحواً من أربعة أشهر (*) .

(٨)

أقد لفتت الحملة الفرنسية الأنظار إلى مصر وخاصة بعد أن ترجم كثير مما كتبه علماء الحملة إلى الإنجليزية وأصبح لما يكتبه الرحالة أهمية خاصة ، ولو فحصنا الكتب التي تركها الرحالة الإنجليز عن مصر لوجدنا أن ما ظهر منها في النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر مما ظهر في أى وقت آخر ، ومعظم هذه الكتب مدكرات تردح بالمعلومات عن مظاهر الحياة المختلفة ، وهي في الغالب معلومات جمعت في سرعة وبدون تبصر لتحمل أكبر قسط من المعرفة دون أن يكون هناك رابط بينها أو جمال في اتساقها

وأدى استقرار الحال في مصر واستتباب الأمن إلى أن يكثر عدد الرحالة الذين يزورون مصر العليا وبلاد النوبة . وكان معظم اهتمامهم موجهاً إلى آثار البلاد ، فلم تفض سنوات حتى كان في استطاعة إنجلترا أن تنشى متحفاً خاصاً بالآثار المصرية في سنة ١٨١٢ . ومع كثرة عدد الرحالة في الربع الأول من القرن التاسع عشر فإن الذين نشروا مذكراتهم لا يزيد على الخمسة وعشرين رحالة ، كان بر كهارت بلا شك من أكثرهم دقة وأحسنهم وصفاً .

وبالرغم من أن رحلات بر كهارت في بلاد النوبة والمعلومات الشفوية التي جمعها من المناطق الداخلية من إفريقية التي تقع إلى الغرب من وحدها التي تتصل بأغراض جمية هدفها تشجيع اكتشاف المناطق الداخلية من إفريقية ، إلا أن

(*) راجع الجيرى . « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » المطبعة الأميرية الجزء الثالث صفحة ٢٨٣ وما بعدها .

دقة ملاحظاته وطرافة معلوماته عن الأجزاء المختلفة من بلاد الشام وجزيرة العرب دفعت بالجمعية الإفريقية إلى أن تهتم بها جميعاً . فنشرت مذكراته عن بلاد النوبة في مجلد هو الذى بين أيدينا ونشرت كتاباته عن بلاد العرب في مجلد آخر نتممه أن ترى ترجمته العربية النور في وقت قريب .

وقد نشرت « رحلات في النوبة » في سنة ١٨١٩ وأعيد طبعها في سنة ١٨٢٢ والطبعة الثانية هي التي اعتمد عليها الأستاذ فؤاد أندراوس صاحب هذه الترجمة . وتشير مقدمة هذه الطبعة إلى أن بر كهارت وإن يكن موهوباً بطبعه ، وعنده قدرة على الملاحظة ودقة فيها ، إلا أنه كتب رحلاته بلغة لم يتعلمها إلا وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يكن قد تدرب على الكتابة بها قبل سفره إلى تلك البلاد البعيدة حيث لم يجد لديه الفرصة ليسمها أو يتحدث بها ، ولم يكن لديه الوقت ليلى بأصول الأساليب الإنجليزية ويحذفها . وبالإضافة إلى هذه الصعوبات كتب مذكراته عن رحلاته التي يشتمل عليها هذا المجلد في ظروف غير مواتية ، كتبها كما يقول هو « في زاوية من فناء مكشوف أو بجانب إبله تحت حرارة الصحراء وفي رياحها السافية وهو يشكو من رمد بعينه » ومن الضروري أن تناول مخطوطة بر كهارت بشيء من التعديل في الأسلوب ، وكان من اللازم في بعض الأحيان أن يمد ترتيب المعلومات الموزعة في يوميات الرحلة حتى تجمع الملاحظات الخاصة بموضع واحد مع بعضها البعض . ولكن حرص على أن يكون هذا في أضيق الحدود حتى تعرض أفكار الرحلة كما هي على القراء دون تغيير أو تعديل .

ولكن مها يكن من أمر ، فإن لرحلة بر كهارت قيمها العلمية . إنها تعطي صورة صادقة إلى حد كبير عن المجتمع النوبى وعن حياة العباد والشاريين في أوائل القرن الماضى ، ولا يدعى بر كهارت أنه قد ألم بكل شيء بل يذكر في تواضع وهو يتحدث عن النوبيين (ص ١١٦) . « كانت إقامتى من القصر بحيث لا يتيح لى تناول هذا الموضوع تناوفاً مفصلاً ، وكان فى مشاهداتى قصور سببه جمل بالغة النوبية التى كان يستخدمها النوبيون فى حديثهم فى أثناء وجودى بينهم . . . » وينقد من سبقه من الرحالة ليلهم إلى المبالغة فى وصف ما صادفهم من متاعب ولكنه لا ينمطهم حقهم

فيقول من بروس (ص ١٦٥) . « وأرائى مضطراً إلى القول إن الرحالة بروس قد غالى كثيراً في وصف ما وقع له من حوادث في الصحراء . وواجبى يدعو إلى تقرير هذه الملاحظة ، ولكفى في الوقت نفسه أقررها وأنا الخبير بخلق النوبيين أنه لا يسمنى إلا التنويه بما كان عليه بروس من دراية عجبية باخلاق الناس وما أوتى من نبات وحزم وسرعة خاطر . . . الخ » .

ويصف بركهارت كثيراً من آثار النوبة ومعاييدها التي أغرقت مياه خزان أسوان بمضامنها وتحاول الجهات المختصة أن تنقذ ما بقى منها قبل أن تغمره مياه السد العالي . ولم يكن بركهارت عالم آثار بل أن علم الآثار المصرية كان لا يزال في فجره ، ومع ذلك فإن الأوصاف التي تركها الرحالة لم تموزها الدقة أو ينقصها كمال التصوير . وربما قسا الرحالة في بعض أحكامه على المجتمع الذي تنقل فيه والناس الذين قابلهم ، ولكن يخيّل لنا أنه لم يكن يقصد الإساءة لذاتها ، ولم يكن من صفاته الاتعامل والتجنى ، وعلينا أن نقرأ رحلته في ضوء الظروف التي كانت تحيط به . . . رحلة متكررة في لباس غريب ، يتكلم لغة ليست لغته الأصلية ، ويسافر في قوافل ليس فيها من بدانيه في ثقافته وعلمه ، وعلى طرُق لم تكن قد رسمت على الخرائط بعد ، وفي ظروف مناخية قاسية لم يألفها أليس من بين هذه الظروف ما يقوم بالعدر عن بركهارت حينما يشط به قلمه في بعض الأحيان ؟!

وبالرجوع إلى نشر آثار بركهارت ، فنشرت « رحلات في سوريا والأراضي المقدسة » في سنة ١٨٢٢ وترجمت إلى الألمانية في سنة ١٨٢٤ . و« رحلات في بلاد العرب » في سنة ١٨٢٩ . وقد ترجمت هذه الرحلات إلى الفرنسية والأسبانية والإيطالية . و« ملاحظات عن البدو والوهابيين » في سنة ١٨٣٠ . ثم « الأمثال العربية » في سنة ١٨٣٠ ، وقد أعيد طبعها في سنة ١٨٧٥ . ونشرت مترجمة إلى الألمانية في سنة ١٨٣٤ ، وكانت آخر ما نشر من آثار الرحالة الشاب .

لقد كان بركهارت شخصية فذة حقاً ، كان لديه من المواهب والاستعدادات ما يجعله من الطراز الأول من الرحالة والمستكشفين ، ولكن الظروف لم تكن

مواتية ولم يكن الحظ في صفه . ويزيد في قيمة مواهب بر كهارت ما امتاز به
 كإنسان ... كان لديه العقل البقظ الذي شجعه على أن يكرس حياته لخدمة العلم في
 ميدان الكشف الجغرافي ، وكان لديه الجلد الذي جعله قادراً على مجابهة الصعاب
 والتغلب عليها في مهارة ، ولم تكن حرية تفكيره وتمسكه بمبادئ الشرف الرفيع ،
 وتقديره للصفات الطيبة في الآخرين ، وكرهه للظلم والخذاع ، وعرفانه بالجليل ،
 لم تكن هذه الصفات النبيلة أقل وضوحاً من حرارة قلبه وفشاطه في عمل الخير ..
 وكثيراً ما أنفق المال مساعدة للبحاثين برغم ضيق موارده ، ولعل أبلغ مثل على
 رقة سموره وسعة عقله تلك الأسس التي كانت تجول بخاطره وهو على فراش
 الموت . فقد كان اسم أمه ، وفشلته في تحقيق الهدف الأسمى لرحلاته ، والآمال
 الغاربة التي امتلأ بها قلبه ، هي الأمور الوحيدة التي كان يتردد طويلاً إذا ما تناولها
 بالحديث .

لا جرم كان موت بر كهارت وهو في الثالثة والثلاثين من عمره خسارة كبيرة
 للجمعية الافريقية التي لم يكن في استطاعتها أن تملأ الفراغ الذي خلفه بسهولة ،
 وكان صدمة المهتمين بشئون القارة العنيفة ، وسيظل اسمه يذكر بما هو جدير به
 من التقدير .

وشكر الله للجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن أتاحت لقراء اللغة العربية
 أن يطلعوا على بر كهارت في ترجمة أمينة وأسلوب رصين .

محمد محمود الصبيار

١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٩

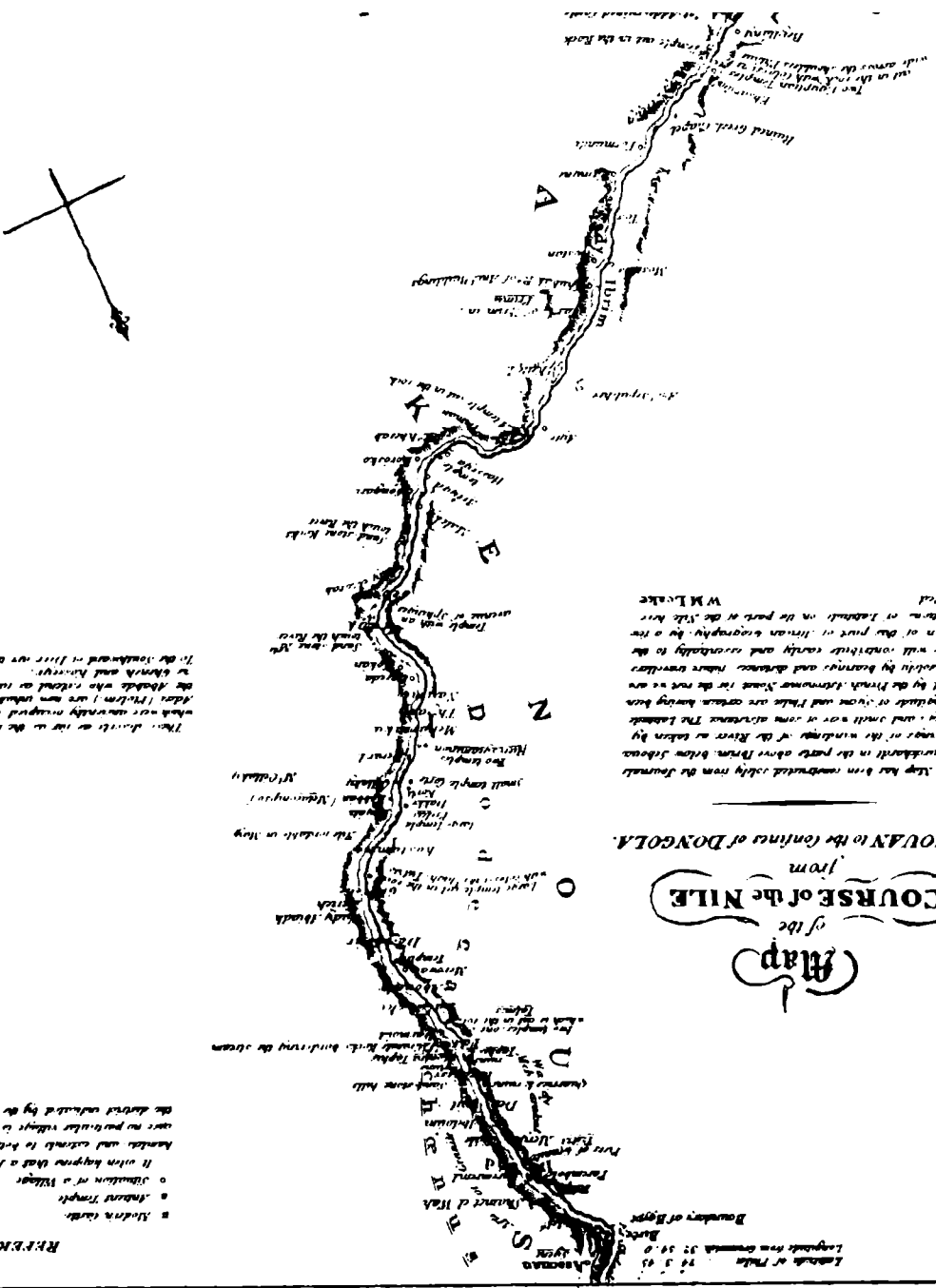
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٩

ASSOUAN to the confines of DONGOLA.

Map
of the
COURSE of the NILE
from

[illegible][illegible]

REFERENCES



الرحلة على ضفاف النيل
من أسوان إلى المحسّ على حدود دُنقله

بلغت أسواره في الثاني والعشرين من فبراير سنة ١٨١٣ بعد أن زرت معظم آثار وادي النيل ، وكانت تحذوني الرغبة القوية إلى مواصلة الرحلة مصحداً مع النهر إلى أبعد ما أستطيع دون أن أعرض نفسي لخطر قريب . وكنت إبان الأسبوع الذي مكثته بإسنا — وهو آخر بلد هام في صعيد مصر — قد جمعت طائفة كبيرة من المعلومات عن أحوال بلاد النوبة ورتبت رحلتى معتمداً عليها . ومن بين الترتيبات التي لم يكن لي عنها مندوحة شراء هجينين كريمين لي ولن استأجر من الخبراء(*) في شتى البلاد التي أزمعت المرور بها في النوبة . لذلك بعث الحمارين اللذين جلبتهما من القاهرة إلى إسنا ، واشترت هجينين بائنين وعشرين جنيتها . وقد أثبتت التجربة أنهما من أقوى الإبل وأصلبها هوداً ، فإني لم أرحهما سوى يوم واحد طوال الرحلة من أسوان إلى المحسّ وبالعكس ، وهي رحلة استغرقت خمسة وثلاثين يوماً ، وكنت أنا ودليلي تركهما بمعدل عشر ساعات في اليوم .

وفي إسنا سوق للإبل اشتهرت في مصر كلها لأن عرب البشارية والعبادية يختلفون إليها ، ومعروف أنهم يقتنون أعرق الإبل في هذه الأصقاع من إفريقيا . وقد زودني حاكم إسنا التركي حسن بك — وهو رجل قبرصي الأصل — بتوصية قوية رجوته أن يوجهها لأبناء سليمان كاشف الثلاثة الذين يحكمون النوبة فيما بينهم . وكنت أعلل نفسي بأن ما يتمتع به والي مصر محمد علي من نفوذ متزايد خليف بأن يضيف على هذه التوصية الموجهة من أحد كبار موظفيه شيئاً من الأهمية والخطر . وكنت إلى ذلك قد حصلت من الباشا نفسه على فرمان ولكنّه كان مكتوباً بالتركية — وهي لغة لا يقرؤها النوبيون — وكان فرماناً عاماً لا تخصيص فيه ، لذلك لم أركن إليه كثيراً ولم يهمني منه سوى اشتماله على اسم قلعة إبريم وأسم حاكمها ، والامتحان واضحاً يستطيع أن يتبينهما حتى من لا يعرف سوى العربية .

(*) الخبراء « الأدلاء » متوفرون في النوبة والحصول عليهم يسير ، ولكن قل منهم من يرضى أن يركب دابته في رحلة محفوفة بالخطر .

أما الكتاب الذى عقدت عليه الآمال فى نجاح الرحلة فسكان من آل حبار — عيون
تجار إسنا — وقد أوصاهم بى صديق فى القاهرة . وبكاد آل حبار يَحْتَسِرُونَ تجارة
البلح النوبية ، وهم وكلاء للحكام النوبيين فى كافة صلاتهم السياسية بمصر ،
يضاف الى ذلك أنهم من الأشراف ذوى الثراء العريض ، لذلك كانوا يتمتعون
بسمعة طيبة واسعة ، وقد تجدد توصياتهم بالتجار والمسافرين على طول الطريق
الصاعد مع النيل حتى سنّار .

وصلت أسوان بعد رحلة سهلة من إسنا اقتضتني أربعة أيام . وأسوان أبداع
بلاد مصر قاطبة ولكنها لا تستحق هذا المديح الذى يَكِيلُهُ لها بعض الرحالة من
أجل آثارها وآثار جزيرة الفنتين المجاورة لها . وكنت أحمل من حسن بك
حاكم إسنا كتابا إلى أغا أسوان ، فرجوت الأغا أن يزودنى بخبير بصحبتى إلى
الدر حيث يقيم حسن كاشف أحد حكام النوبة . وشرهان ما جاء إلى بخبير
عربي عجوز من أصل نوبى ، وقد رضيت بعد لآى أن أنفجه ربالاً إسبانيا نظير
مرافقته إياى فى رحلتى إلى الدر ، وهو أجر كاف لرحلة طولها مائة وأربعون ميلا .
ثم خلفت بأسوان خادى ومعه متاعى القليل . وبعد أن تزودت قمت مع خبيرى
فى الرابع والعشرين من فبراير وأنا لا أحمل غير بندقيتى وسيفى ومسدسى ،
وحقيبة للزاد ، وحرأماً مغربياً من الصوف يصلح فرشاً أو غطاء . وارتديت
الزعبوط الأزرق الذى يابسه تجار الصعيد بعد أن تركت بإسنا ثياب السفر التركية
التي كنت ارتديها . وبعد أن قدرت نفقاتى المحتملة فى النوبة ، ألقيت فى كيسى
ثمانية ربالات إسبانية جريا على المبدأ الذى لا أحيد عنه فى أسفارى ، وهو أن
السائح يكون فى مأمن من العثار والفشل كلما اقتصد فى مصروفه وتخفف من حمل
النقود فى أثناء رحلته . ولقد هدت الى أسوان بثلاثة ربالات بعد رحلة قطعت فيها
أربعمائة وخمسين ميلا فى سفرى جنوبا ومثلها فى العودة ، فلم تتجاوز جملة
ما أنفقت خمسة ربالات ، يدخل فى ذلك كافة النفقات باستثناء الهدية التي قدمتها

الحسن كاشف(*) . ويجب ألا يعزى هذا إلى الشح أو التقدير ، إنما هو جزء من خطتي التي أنتهجها في أسفاري ، أسوقه على سبيل النصيحة لكل مسافر في أصقاع الشرق المجهولة المخوفة بالخطر .

٢٤ فبراير ١٨١٣ — غادرت أسوان مع الظهر ، ومرت بجذاء جبانة مدينة أسوان العربية القديمة على الجانب الشرق من النيل ، حيث أقام الفرنسيون بقيادة ديزيه طابية تقوم إلى جوارها قبة عالية من الآجر شيدت تذكراً للولي التركي الشيخ ونس . وتنتشر المقابر التركية على مساحة يحيطها ثلاثة أميال تقريباً ، وقد دفن فيها عدد كبير من الأولياء ذوى الكرامات الذين يحج الأتقياء لقبورهم من شتى أنحاء مصر . وشواهد القبور المكتوبة بالخط الكوفي لا يحصى عددها ، ولكن ما كتب عليها حديث العهد ردى الخط . ويرى القريزي المؤرخ المصري أن ٢١٠٠٠ شخص ماتوا بالطاهون في أسوان عام ٨٠٦ هـ

(*) هذا بيان بشئ تفقأت في أثناء الرحلة :

بارة	قرش
٢٠	٦ لتخير من أسوان للدر .
١٠	٠٠ هدية للتخير .
٣٠	١ ثمن ذرة مشتراة بأسوان .
٢٥	٠٠ ثمن خبز وبصل مشترى بأسوان .
٠٠	١ هدية لحادم الوالى بالدر .
٠٠	١ « لا كاتب ليكتب خطاباً لسكوت ، وقد أغرته الهدية بكتابة توصية قوية .
٠٠	٦ ثمن زاد من الذرة اشترى من الدر إلى المحس .
٠٠	١ ثمن تبغ اشترى في الدر .
٥	٠٠ أجرة تصليح حذاء بالدر .
٠٠	١ دفعت في الطريق للتخير الذى رافقنى للمحس .
٢٠	٦ أجرة التخير في رحلة العودة للدر .
٠٠	٢ هدية للتخير .
١٠	١ مدفوعة للتوبيين لمرافقتي في زيارة الآثار من الدر لأسوان .
١٠	٠٠ أجرة معدية في دبوت .
٢٠	٦ مدفوعة للتخير من الدر لأسوان .
٢٠	٠ هدية للتخير .
١٠	٣٦ أو جنيه انجليزى و ١٥ شلناً .

الأمر الذى يدلنا على أهمية المدينة فى ذلك العهد . ويبدأ حيط العجّور ، وهو سور الآجر الذى ذكره دينون Denon ، على نحو ميل من الجبانة ، ويمتد على طول السهل الرملى بين الصخور الجرانيتية حتى قرب جزيرة فيلة .

ويزعم الأهالى أن الحائط بناه ملك يدعى عجورا . ولعله قصد به أن يكون حصناً يدفع غارات بدو الجبل الشرقى حين كانت تقوم بين فيلة وسيناء تجارة برية نشيطة . ويقول الوطنيون إنه كان فى الأصل جسراً لقناة ، ويرى نوردن أن النيل كان يجرى قديماً فى هذا الجانب ، ولكنه فرض يبدو لى مستحيلاً لأن الأرض تملو من فيلة صوب أسوان بشكل واضح . ويرى الناظر إلى الصخور الجرانيتية القائمة على طول الطريق نقوشاً هيروغليقية تزداد كلما دنونا من الجزيرة . كذلك يرى بعض نقوش إغريقية مطموسة ، ولعلها سجلت فى يوم ما أسماء رحالة من الإغريق دفعهم حب الاستطلاع إلى زيارة هذه الأنحاء . وبين أسوان وفيلة طريق آخر أطول من هذا يحاذى شاطئ النهر ماراً بالجندل .

وبعد أن ركبنا أربعة أميال من أسوان ، بلغنا سهلاً مكشوقاً خالياً من الصخور ، يجرى النهر فى جانبه الغربى . وهنا لاحظت لى أطلال جزيرة فيلة (أنس الوجود) ، ولما لم أجد قارباً يحملنى إلى الجزيرة — وكنت أعلم أننى سأمر بها فى رجوعى لأسوان — لم أطل وقفى إلا ربّما ألقى نظرة على الصخور الجرانيتية القائمة على ضفاف النهر ، والتي يسترعى النظر من بينها المقعد المشهور الذى رسمه كثير من السائحين . والقرية الصغيرة الواقعة مقابل فيلة تدعى البريا وهى الحد الجنوبى لمصر . والقرى المدينة القائمة منها إلى أسوان شمالاً هى جزء من إقليم البريا الذى أعفى من شتى أنواع الخراج بمقتضى فرمانات قديمة صادرة من الباب العالى . وتبدأ أملاك الأمراء النوبيين جنوبى البريا ، وتدخل فى أملاكهم فيلة . والأهالى فى الأنحاء المحيطة بالشلال سلالة مستقلة ، يمتزجون بالمتاعاة التى أكتسبها إياها طبيعة بلادهم ، ويسكن كثير منهم الجزائر ، وجل اعتمادهم فى قوتهم وقوت أسرهم على صيد السمك من النهر .

واتفق في أثناء رحلتى أن كان النوبيون من أهل أسوان في حرب مع جيرانهم أهل الجنوب . وقد نشبت الحرب لأن الجنوبيين استولوا على مركب يحمل بالبلح وهم يعلمون أنه ملك لتاجر أسوانى . وقبل وصولى بأيام قلائل دارت رحى معركة تجاه جزيرة فيلة ، قتلت فيها امرأة حبلى برمية من حجر ، ولا غرابة فساء النوبيين يشتركن في القتال أينما نشب ويهاجم بعضهم بعضاً في ضراوة ووحشية وهنّ مسلحات بالمقاليع . أما الجنوبيون من ذوى القتيلة فيطالبون أعداءهم بدية ، لا عن المرأة القتيلا فحسب ، بل عن الجنين الذى كان في بطنها وقت موتها . وقد أنكر خصومهم عليهم هذا الطلب . ولما كانوا أقل نفراً ، ولما لم يكن فى أسوان حامية يستعينون بها ، فقد رأى الرجال أن من الحكمة الانسحاب من الميدان . فأخلوا القرى الملاصقة لفيلة ، ولم يتركوا بها سوى نساءهم وبناتهم ، ونزحوا إلى أسوان هم وبنوهم . ولما عادت من المحس لم يكن الصلح قد تم بين الفريقين ، وكان النوبيون لا يزالون فى أسوان ، وكانت تصالهم كل يوم قافلة من النساء تحمل الزاد لأزواجهن .

عبرنا السهل الذى ذكرت آنفاً مرة أخرى تجاه الجزيرة ، ولاحظت كثرة الشقف فى هذا السهل . ثم ارتقينا الجبل جنوب الجزيرة لعدم وجود طريق بخذاء النهر صالح لسير الإبل ، وسرنا زهاء الساعتين فى فجاج الجبل العميقة . وفى صخور الجبل أنواع لا تحصى من الجرانيت أجملها الوردى اللون . وتتكون هذه السلسلة من صخور من السيانيت والفلسبار الأحمر والجرانيت . ثم هبطنا ضفة النهر ثانية على مقربة من كفر صغير من الكفور التى يتألف منها إقليم سبمة الواح . وبحرى النهر هنا خال من الصخور والجزائر ، ولكن جسوره على الجانبين تضيق فلا يكاد عرض الأرض الصالحة للزراعة يبلغ المائة ياردة . وبعد مسيرة نصف ساعة بلغنا قرية سالى الجبل من أعمال وادى دهور وأنحنا بعيرينا تجاه بيت شيخها حيث قضينا ليلتنا . وفى بيت الشيخ ذقت لأول مرة هذا الصحن الذى يعيش عليه أهل الإقليم والذى أصبح طعامى الدائم طوال الأسابيع الخمسة التى استغرقتها رحلتى ، وهو فطائر رقيقة من الذرة ، غير مختمرة ، ومخبوزة خبزاً خفيفاً ، تغمس فى لبن حلو

أو جاميض(*) . وهذا الطعام خشن جداً نظراً لرداءة طحين الذرة ، ولولا فرط الجوع لما أفريت بتذوقه .

٢٥ فبراير — واصلت سفري ملتزماً ضفة النهر الشرقية . والطريق إلى الدر مأمون لا خوف فيه على المسافرين ما دام في صحبة أحد الوطنيين . ولقد وجدت في الأهالي أننا سرت فضولاً لم ألحظه في غيرهم من قبل . كنا نمر بالقرية عدواً في أكثر الأحيان فيخرج الرجال من بيوتهم أو من حقولهم ويمجرون خلفنا ليسألوا الخبير من أنا ، وما غرضي من رحلتي . فكان يجيبهم بأنني قادم من إسنا ، منطلق إلى الدر ، أحمل خطابات من والي إسنا إلى الأمراء النوبيين . فيسألون عن فحوى هذه الخطابات ، ويلحون عليّ في الترحل والإفطار معهم ليوصلوا استجوابي على مهل . وبلغنا وادي الميالة بعد ساعة ونصف ، ووادي هبروبه بعد ساعتين ونصف ووادي دهميت بعد أربع ساعات . ولفظ «الوادي» يطلق هنا على كل قرية في هذه النواحي حتى دنقلة . ويشمل الوادي الواحد مجموعة من ثلاث قرى أو أربع . فوادي دهميت مثلاً يمتد نحو أربعة أميال على ضفة النهر ، ويشتمل على أكثر من ست قرى لكل منها اسمها الخاص . لذلك يقع السائحون الذين يدونون أسماء القرى في هذه النواحي في الخطأ بسهولة إذ يخلطون بين الاسم العام لمجموعة القرى ، واسم كل قرية على حدة . وثمة قرى كبيرة قليلة العدد ، ولكنك أنى سرت صادفت نجوعاً من خمسة بيوت أو ستة تقوم أينما نبت النخل على ضفة النهر أو سمح عرض الوادي بالزراعة .

وفي دهميت وجدت داود كاشف ، بن حسين كاشف ، معسكراً في نفر من رجاله في أخصاص من البوص . وأنخت بميرى عند خصه ، وتناولت معه الفطور وأخبرته أنني مبعوث لأبيه وأعمامه في مهمة . وحكام النوبة دائماً الثقيل في أملاكهم ليجبوا الخراج من رعائهم ، ويرافقهم على الدوام حرس من أربعين رجلاً أو خمسين ليجمعوه قسراً إذا اقتضى الأمر ، وليكونوا في هذا النفر أقدر على السلب والنهب .

(*) تعرف هذه القلائد مجالياً بالكاييده (الترجم) .

وفي الليلة السابقة لوصولي دهميت ، جاءني نوبى في ساق الجمل يشكو إلى ظلم داود وطفليانه . ذلك أن داود نعى إليه أن الرجل وأمرته ينعمون سرّاً بأكل خبز من دقيق القمح ، فاعتبر هذا دليلاً كافياً على ثرائه المريض . ومن ثم حاصر أعوان داود بيت الرجل ليلاً ، وطلبوا منه بعبيراً لسيدهم ، ولما أبى هاجموا بيته ، وإذا لم يكن له جيران أقربون ، فقد أخفق في الدفاع عن نفسه ، فأخذوه تجريحاً وأخذوا ماله غنيمة . ورأيت داود فقير المظهر يرتدى الجلباب الأبيض الذى يلبسه النوبيون . وقد سألتنى أن أعطيه بارودا ، ولكننى اعتذرت بأن ذخيرتى من البارود لا تكاد تكفينى (*) ، فلم يبد عليه أى امتناع لرفضى إجابة سؤاله ، وكان مثاث من الفلاحين مجتمعين حول معسكره ومعهم قطعان البقر والغنم التى يذفمون منها الخراج .

وغادرنا دهميت ، وبعد رحيلنا من وادى دبود بخمس ساعات وصلنا وادى قرناس ، حيث مررت بأطلال معبد صغير لم يبق منه غير ركن جدار ، ولم أر بقايا أعمدة ، ولكننى رأيت على بعض الأحجار المتناثرة نقوشاً هيروغليفية تكرر فيها فرص الشمس الممجنج . وهناك خرائب واسعة تنجاه هذا المكان على الضفة الغربية . وقد ذكر لى الخبير أن فى الجبل الشرقى ، على مسيرة يوم كامل ، توجد خرائب مدينة تدعى قومه . وبلغنا نجع الجامع بعد خمس ساعات ، وقفنا بعد ست ، والقريتان تقومان على ضفتى النهر . وعرض الوادى بين ضفة النهر وسفح الجبل ربع ميل . وهنا توجد خرائب بنائين قريبين من بعضهما البعض لم يبق منهما غير الأساس . وهما مبنيان بالحجر الرملى بناء بدائياً جداً ، ومساحتهما أربعون قدماً مربعة . وليس هناك بقايا أعمدة ولا أحجار منقوشة من أى نوع . كذلك توجد بمض الخرائب على الجانب المقابل من النهر . ولا شك أن هذه الخرائب هى بقايا (Contra Taphis , Taphis) طافية . وإلى الجنوب من هذه الأطلال مباشرة

(*) منذ تقهر الماليك إلى دنقلة حظار محمد على باشا وإلى مصر بيع البارود فى جميع أرجاء الصعيد ، وبذلك منع وصول الذخيرة إلى أعدائه الذين يضطرون الآن إلى شراء كل دست من الخرطوش بمبد.

تحول الجبال القائمة على ضفتي النهر دون السير عليهما ، فلا سبيل للمسافر إلا أن يخرق الجبل ساعة . وقد لاحظت مرة أخرى أن الجبل يتألف هنا أيضاً من الصخور الجرانيتية . والسلسلة الجرانيتية لا تنقطع من أسوان إلى دهميت . أما في جنوب دهميت فالجبل الذي يكتنف النهر قوامه الحجر الرملي ، ويظل كذلك حتى الشلال الثاني عند وادي حلفا . فيما خلا الصخور الجرانيتية الشرفة على تيفة ، والتي تمتد إلى كلابشة .

وهبطنا ضفة النهر بعد ساعة ، ومررنا بقرية دارصوت (دار موسى) ، وبمضها مشيد على جزيرة صخرية ، وبمضها على الصخور العالية الشرفة على الضفة الشرقية . وليس أبهى وأروع من منظر الشمس القاربة على الجزائر الجرانيتية السوداء تحيط بها مياه النهر الصافية (*) والشطآن المكسوة بالخضرة . والجزائر الكثيرة ترصع مجرى النهر من هنا إلى تيفة . وبعد مسيرة سبع ساعات وثلاثة أرباع الساعة بلغنا وادي كلابشة وهو أكبر الوديان أو القرى التي مررنا بها حتى الآن . وعلى الرغم من ضيق الوادي هنا توجد تلال كبيرة من الأنقاض وحطام الأواني الخزفية على طول سفح الجبل ، مما يشير إلى موضع مدينة قديمة كانت تقوم في المكان . وبما أن هناك أطلالا كبيرة على الضفة المقابلة ، فإن المرء يستطيع أن يخلص مطمئناً إلى أن المكانين هما Contra Talmis, Talmis . وليس ثمة أنقاض متخلفة من أى بناء في الضفة الشرقية ، والبيوت التي تتألف منها القرية القائمة على هذه الضفة — وعددها مائتان — تشغل مساحة يقطعها المسافر في نصف ساعة ، وبلغنا السقيف بعد ثمان ساعات ونصف ، وأبو هور بعد ثمان ساعات وثلاثة أرباع الساعة . وقد مررت خلال رحلتى في هذا اليوم بعدة مجار للسيول . والسيول تندفع إلى النهر حين تهطل الأمطار غزيرة على الجبل ، ولكنها لا تسير أكثر من يومين . وهذه السيول هي السبب في الزيادة الطارئة

(*) نصفو مياه النيل من مارس إلى يونيو . وقد استنكر قولنى كدرياه النيل، وإيكنه لم يرها إلا في الحريف والشتاء .

على مياه النيل في مضر في أثناء الشتاء حين تبلغ التحاريق أقصاها . ولا يسقط المطر على وادى النيل في النوبة ، فيما خلا شآبيب خفيفة ، ولكن هناك فصلا منتظما للمطر على الجبال الشرقية حتى السويس ، وتنمو على هذا المطر الأعشاب البرية الوفرة والمراعى التى تنتجها ماشية البدو القاطنين تلك الأصقاع . وقد ذكرت في يومياتى عن فلسطين ظاهرة شبيهة بهذه في جبال شرق فلسطين ، فعلمنا يسقط المطر على وادى الأردن أو النور ، في حين أن للجبال على ضفتيه فصلا مطيراً منتظماً . وقدم لنا مضيفنا في أبو هور هذا المساء « العصيدة » وهى سنابل خضراء من الشعير مسلوقة فى الماء ومخلوطة باللبن .

٢٦ فبراير — يقطع المسافر وادى أبو هور فى نحو ثلاثة أرباع الساعة . ومررنا بقرية ونمرور بمد مسيرة ساعتين ، وبوادى أبيض بمد ثلاث ساعات ونصف وما زال السهل على ضيقه الشديد . وقد أقام سكان النوبة الأقدمون جسوراً من الحجر تمتد عشرين أو ثلاثين ياردة فى عرض النهر ليفتروها منه رقعة من الأرض . وهذه الجسور تكسر من حدة التيار فتتخلف شالها مساحة صغيرة من الأرض لا تغمرها المياه . وكثير من هذه الجسور لا يزال باقياً ولكنه مهتم . وقد لاحظت وجود جسور مماثلة على الضفة الغربية للنهر تجاه الجسور الشرقية تماماً . ومررنا بماربة (مريم) بمد أربع ساعات ونصف ، وبقرية بعد خمس واجتازت خرائب مدينة قديمة أرجح أنها مدينة عربية ، بعضها مبنى بالأجر وبعضها بالحجارة الصغيرة . ويروى الأهالى أن ملكاً يدعى دبقورا كان يملك فيها . والوادى عند فرشه أعرض منه فى أى مكان جنوبى أسوان ، ويبلغ الميل عرضاً . وقرشة فقيرة فى السكان كسائر القرى التى مررت بها حتى الآن ، فثلثا منازلها مهجور . وقد خرب الإقليم المالىك الذى سكنوه شهوراً أثناء تفهمهم أمام جيوش محمد على التركية ، والقليل الذى أبقوا عليه أنى عليه الجنود الترك الذين يقودهم إبراهيم بن محمد على ، الذى أفلح أخيراً فى طرد المالىك من النوبة فمروا الجبال إلى سهول دنقلة ، وقد فشت بمد تفهمهم جماعة رهيبة هلك فيها ثلث سكان النوبة من الفاقة والحرمان ، أما الباقون فلا ذواب مصر ، وأقاموا بالقرى الواقعة بين أسوان وإسنا حيث هلك منهم بالجدرى خلق كثير . ولم يمد السكان

الحاليون لسقط رأسهم إلا قبل رحلتى لهذه الأنحاء ببضعة شهور ، فبدأوا يزرعون الأرض عقب انحسار مياه الفيضان ، ولكن كثيرين من بنى جلدتهم ما زالوا مقيمين بمصر . ولعل في وفرة القبور الجديدة على مقربة من قرى الإقليم أصدق دليل على صحة الروايات المفجعة التى قصها الأهالى على .

وبعد ست ساعات بلغت وادى كشمته وهى قرية جيدة المبانى وفيها اشتبك المماليك مع جيوش ابراهيم بك فى معركة انتهت باندحار المماليك ، فتقهقروا للجبال الشرقية واعتصموا فيها شهوراً حتى رجع أعداؤهم لأسوان . وهبط معظم البكوات إلى ضفاف النيل فى مايو ١٨١٢ ، وكان منسوب الماء فى النهر منخفضاً جداً ، فاجتازوه عند مخاضة قريبة من كشمته^(١) ، ومعهم نساؤهم ومتاعهم . وواصل فريق من المماليك السير جنوباً على ضفة النهر الغربية وهم ينهبون القرى التى مروا بها — الدر ووادى حلفا وسكوت والحس . أما الأمراء من البكوات فقد اصطحبوا مماليكهم ، واتخذوا أقصر الطرق عبر الصحراء الغربية . والتأم شمل الجميع ثانية على ضفاف النيل قرب أرقو وهى من أهم القرى الداخلة فى أملاك ملك دنقلة^(٢) . وبلغ عددهم جيماً نحو ثلاثمائة من المماليك البيض ، ومثلهم من العبيد المسلحين ، أولئك هم البقية البائسة التى تخلفت من نيف وأربعة آلاف رجل ، وهو عددهم يوم بدأ محمد نضاله معهم فى سبيل السيادة على مصر . ولا حاجة بى لتكرار القصة المعروفة ، فقد دبح منهم فى القاعة ألفاً ومائتين على رأسهم زعيمهم شاهين بك مع أنه أمنهم على حياتهم بأغلظ المهود والموائيق . ولكن هناك مذبحه أخرى شبيهة بهذه وإن تسكن أقل منها شهرة وقعت فى إسنا ، ولا بأس بذكرها هنا دليلاً على غفلة المماليك وفساد مشورتهم . فقد اعتصم هؤلاء الفرسان الأشداء بالجبال التى يسكنها عرب العبادة والبشارية ، ونفقت خيلهم جوعاً ،

(١) ليس لنهر مخاضة إلا هذه فيما أعلم .

(٢) وصل أخيراً إلى القاهرة اسكتندى كان قد أسر فى حادث رشيد المشؤوم

(١٨٠٧) وانضم بعد ذلك إلى المماليك . ثم تركهم فى دنقلة وعاد وحده مجتازاً النوبة والصعيد على الرغم من جواسيس الباشا .

واضطر حتى أغنى بكواتهم إلى بذل آخر فلس لإطعام جندهم ، لأن العرب كانوا يبيعونهم الزاد بأخس الأثمان . ولما حرموا أسباب النعيم والترف التي كانوا يتقبلون فيها بمصر منذ صباهم ، رأى إبراهيم بك الفرصة مواتية لاقتناصهم في الفخ كما فعل أبوه بإخوانهم في القاهرة . وإذا صحت عزيمته على ذلك أرسل إليهم يؤمنهم ويقطع لهم أوثق المهود إذا هم نزلوا من الجبل ، ويتعهد بتقليدهم وظائف في حكومة محمد على تتفق ومراتبهم . ولا يكاد المرء يصدق كيف انطلى هذا المرض الكاذب على أكثر من أربمئة مملوك على رأسهم عدد من البسكوات ، مع علمهم بعذبة القاهرة التي وقعت في العام السابق . وهبط المالك الجبل في جماعات صغيرة ، وبينما هم في الطريق جردهم الخبراء الخوة من ثيابهم ، فوصل الجميع ممسكين إبراهيم بك — قرب إسنا — عراة باستثناء ثلاثين منهم تقريباً . وبعد أن التأم شملهم ولم يعد ينتظر وصول هذه القلة صدرت الإشارة بذبحهم ، فذبحوا عن بكرة أبيهم ، هم ونحو مائتين من العبيد السود ، ذبح النعاج في ليلة واحدة ، ولم يترك منهم على قيد الحياة سوى مملوكين فرنسيين إجابة لرغبة طبيب إبراهيم بك . ومثل هذا الفسك للمهود يقع بين الترك كل يوم ، وأعجب العجب أنك لا تزال تجد من الناس من بلغت بهم الغفلة مبلغاً يوقعهم في فخاخ كهذه .

وبلغنا جبل هباني بعد ثمان ساعات وربع ، وكوبان بعد ثمان ونصف ، وتقع كوبان تجاه معبد الدكة الجميل الذي يقوم على الضفة الغربية .

٢٧ فبراير — وعلى مقربة من كوبان أطلال مدينة قديمة يحيط بها سور من اللبن كثير الشبه بسور بلدة السكاب Eleithias الواقعة شمالاً أدفوا . ويبلغ طول ضلعه المستطيل نحو مائة وخمسين خطوة ، وعرضه مائة ، وصمكه يزيد على عشرين قدماً ، وارتفاعه في عدة مواضع أكثر من ثلاثين . وتشتمل المنطقة التي يحيط بها السور على خرائب مساكن مبنية بالحجر والآجر . ورأيت تيجاناً لأعمدة صغيرة من الطراز المصري ملقاة هنا وهناك . وفي ظاهر الركن الجنوبي

الشرقي للسور أطلال معبد مصرى صغير جداً . بدائى البناء لم يبق فوق أساسه غير قليل من الأحجار ، وعليه رسوم هيرو غليفيه . وتدل العجلة الحربية المنقوشة على أحد أحجاره على أن قصة معركة حربية قد كتبت عليه . ويبدو أن هذا السور الملاصق للنهر قد بنى ليكون حصناً ، وتلال الأنقاض الكبيرة المتخلفة من المدينة القديمة تمتد على الطريق مسيرة خمس دقائق بعد ذلك . ووصلت بعد ذلك إلى العروقي بعد أن مررت بقناة عريضة تجري إلى جوار القرية . وأمثال هذه القنوات كثير فى النوبة ، إذ لابد من الرى الصناعى حيث تترامى أطراف الوادى وتماو الضفة كثيراً عن مستوى الماء فى النهر . ولكن هذه القنوات لم تعد تلقى عناية من أحد ، وهى لذلك تسد شيئاً فشيئاً . وعرض الوادى هنا ميل .

ويطلق اسم العلاقى أيضاً على سلسلة من الجبال تبدأ شرقى القرية ، وتخترق التلال العالية فى الصحراء الشرقية فى اتجاه شواطئ البحر الأحمر . وفى ظنى أن « بروس » مر بهذه السلسلة . ويحتوى هذا الجبل على مناجم للذهب فيما يزعم الوطنيون ويجمع الجغرافيين العرب . على أننى أميل إلى الاعتقاد أن مصدر هذه الروايات ، وهم البدو الذين يرتادون هذه النواحي دون غيرهم ، قد ظنوا الميسكا الصفراء ذهباً ، فالنهر يحمل معه قدراً كبيراً من الرمل المختلط بالميسكا فى مجراه النوبى كله . ولقد قرأ حسن بك والى إسنا — وهو رجل يستهويه علم المعادن من حيث اتصاله بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة — قرأ عن مناجم العلاقى فى أحد الكتب ، وأراد التحقق من صحة هذه الرواية ، فأرسل أربعة من جنده يحرسون رجلاً يونانياً يزعم أنه خبير بالأحجار ومعهم إذن بالتنقيب فى الجبل . فوصلوا قرية العلاقى ثم ساروا منها نحو ساعتين إلى الشرق ولكنهم روعوا حين سمعوا أن جماعة كبيرة من المالك تهبط الجبل ، فعادوا أدراجهم وهم يبتشون الرعب بإذاعة النبأ فى الإقليم كله . ولقد لقيتهم فى دهيت فألحوا على أن أعود معهم مؤكدين لى أن المالك سيضرّبون عنقى بلا ريب لو علموا أننى أحمل رسائل من حسن بك . ولم يكن النبأ بخلو من الصحة ، ذلك أن

اثنين من بكوات الماليك - وهما إبراهيم بك الجزائري وعثمان بك بهنس - كانا قد تخلفا معتمدين بهذه الجبال ومكثا مع العرب بعد رحيل زملائهم من البكوات إلى دنقلة ، معللين النفس بالعودة إلى مصر إذا تغيرت الحال بها غير الحال ، ولكنهما اضطرا في النهاية ، تحت ضغط الفاقة ، أن يأخذا خمسا من نساءهم وخادمين فقط(*) ويأخذا بأخوانهم . وكان العرب قد ابتزوا منهما كل ما يملكان من مال ومتاع ثمنا لما يبيعونهما من زاد . وكانت خيولهما قد نفقت ، وماليكهما تولوا عنهما ، وثيابهما ومعداتهم قد بليت وتمزقت . فلما انتهيا إلى هذا المصير أطلقا فكرة الكر على مصر من جديد وخرجا من المكان الذي اعتصما به أقرب شواطئ البحر الأحمر تجاه جدة ، واتخذا ومن معهم الطريق إلى الدر ، ولكنهما ارتدا إلى الجبل مسيرة يوم حين سمعا بنبا هذا اليوناني والجند الأربعة الذين ذكرت آنفا ، حتى إذا أخبرهما جواسيسهما برحيلهم استأنفا السير ، فبلغا الدر قبل أن أبلغها بيوم واحد .

وسرت من ساعتين إلى ثلاث بجذاء شاطئ صخرة تجاه جزيرة ضرار ، وهذه الجزيرة مزروعة بعناية ويقطعها المراء طولاً في ثلاثة أرباع الساعة . وعلى الضفة الغربية قرية قورم ويمتد وادي المحرق من ثلاث ساعات إلى أربع ، ويمتد وادي السبان في أقصى الجنوب من أربع ساعات إلى خمس . وهنا أسعدني الحظ بقاء سائحين من الإنجليز هما مستر لي ومستر سملت ، ورجل أمريكي هو الكبتن بارتود ، وكنت قد شاهدت الأولين من قبل في القاهرة وأسيوط ، وكانا قد غادرا القاهرة على ظهر سفينة ريفية بعد رحيل عنها بيومين ، ولما بلغا أسوان استأجرا زورقا كبيراً لينقلهما للدر ، ومنها زارا إبريم ، فكانا بذلك أول الأوربيين الذين بلغوا هذا البلد وفحصوا الآثار التي بينه وبين جزيرة فيلة ، لأن

(*) أكد لي بعد ذلك خادم من خدم هؤلاء البكوات لقيته بالدر - وهو مسيحي يوناني من بروسة بآسيا الصغرى - أن أفراد هذه الجماعة ، حين عجزوا عن الإقلاع عن التدخين ، وانعدم التبغ في الجبال ، كانوا يحشون قصباتهم بروث الغزلان الجاف .

« نوردن » لم ير هذه الآثار إلا بمنظاره المقرب . وقد استوقفتهما في زورقهما وأنا راكب جلى بجذاء النهر . وقضينا بضع ساعات سويا ، ثم استأنفا رحلتنا شمالا إلى أسوان . ووصلت وادى نعمت بعد خمس ساعات ونصف ، وباردة بعد ست ساعات ، وكوقاه بعد ست ونصف . وهنا رأيت عدداً كبيراً من التماسيح ، وهذا أول ما رأيت منها بعد رحيلى من القاهرة ، لأن طريقى فى مصر قلما كان يلاصق النهر . وهنا أيضا لاحظت وجود الجسور الحجرية فى النهر فى مناطق عديدة . وبلغنا وادى النصر بعد سبع ساعات ونصف . وإلى الجنوب من كوقان بساعتين تحدى الجبال بالنهر فلا يتسع الشاطئ لا للمرور ولا للزراعة طبعاً . ومررنا بعدة مجار للسيول ، وبعد سفر ثمانى ساعات ونصف وصلت وادى المضيق حيث قضيت الليل .

٢٨ فبراير — وعلى مسيرة ساعة من وادى المضيق يقع وادى السبوع . ويطلق عليه هذا الاسم نسبة لتماثيل أبى الهول التى لها أجسام السباع ، والتى تقوم أمام المعبد المتهدم المشيد على الضفة الغربية تجاه وادى السبوع . والزرع فى هذه البقعة أزكى منه فى أى بقعة مررت بها من أسوان إلى الدر . وسكان وادى السبوع ، وسكان وادى العرب إلى الجنوب منهم ، تجار نشيطون أغنياء . وهم يسلكون الجبل إلى بربر حيث تقع « الفوز » التى ذكرها « بروس » وتبعد عنهم مسيرة ثمانية أيام ، ومنها يجلبون السلع المختلفة التى تحمل بها أسواق سنار . والطريق مأمون جداً حتى إن جماعات منهم تصل كل أسبوع تقريباً ومعها أربعة جمال أو خمسة محملة بالبضائع . ولكن أخلاق هؤلاء التجار منحطة ، فهم غادرون محتقرون لبخلهم . وأهل وادى السبوع ووادى العرب لا ينتمون لقبيلة الكنوز كجيرانهم ولكنهم من العليقات الذين أتوا أصلاً من الحجاز (*) .

(*) زرت بعد ذلك جبال سيناء فوجدت فيها قبيلة أخرى من البدو تسمى العليقات ، تقيم فى وديان سيناء الجنوبية . وقد أكدوا الى أن عرب العليقات بالنوبة بنو جلدتهم ، وأنهم فى الأصل شعبة منهم . ومنذ سنوات عقد عربى من عليقات سيناء النية على زيارة عرب النوبة ، وجمع بعض الهدايا منهم . وقد لقي حفاوة فى وادى السبوع بحكم القرابة ، وعاد بعدد من الإبل اشتراها بما جادت عليه به كل أسرة .

ويضرب بعضهم في الجبال الشرقية كالبدو . وهم لا يتكلمون إلا العربية ، وجلهم يجهل لغة السكندوز . ويجبي أمراء النوبة الضرائب على كل البضائع التي يستوردونها عرب العليقات من الجنوب ، ولكنهم قلما يستطيعون أن يبتزوا منهم ضرائب إضافية لأن عددهم كبير ، ولأنهم مسلحون خير تسليح ، ولذلك استطاعوا أن يقتنوا ثروة طيبة . وهم يبيعون في الصميد العبيد والبلح والصمغ العربي وريش النعام والإبل التي يجلبونها من بربر ، ويشترون منه السلع التي تلزم لأسواق الجنوب (*) .

وعلى مسيرة ساعتين ونصف من وادي المضيق يقوم وادي العرب ، حيث تجد فضلا عن عرب العليقات عرباً من قبيلة « الغربية » سكنوا الوادي من أيام الفتح الإسلامي للنوبة . وشاطئ النهر زكي الزرع في كل أحواله . وتكتنف الصخور النهر مسافة يقطعها الراكب في ثلاثة ساعات ونصف إلى خمس ، ولا تترك الصخور من الضفة سوى شقة ضيقة لا تصلح إلا للسير على القدم ، أما طريق الإبل فتخترق الصخور الرملية الخشنة والفجاج العميقة في بطن الجبل . وبلغت وادي سنقاري بعد خمس ساعات ونصف ، وكركسكو بعد ست ونصف . وهنا يمرض الشاطئ ، وتبدأ أحراج من النخيل تحف ضفتي النهر حتى إبريم . ويرى المسافر مجموعات من البيوت على كل مائة ياردة ، مما يصعب معه تعيين الحدود الدقيقة لكل قرية . وتقوم بئر بئرقة على مسيرة سبع ساعات . وسفحة على مسيرة سبع ورابع ، وضراب على ثمان . وهنا توجد كوام من الحجارة المنحوتة ، وهي خرائب متخلفة من مبان قديمة اشتقت منها القرية اسمها .

(*) تسير في كل شتاء قافلة من ثلاثين أو أربعين بعيراً محملة بالبضائع من وادي السبوع إلى القاهرة . وقد اعتاد تجار السبوع أن يشتركوا في التجارة مع النوبيين الساكنين ، بفرضهم مبالغ من المال لفروهم بالسفر إلى بربر للتجارة ، وعند عودتهم يقاسمونهم الأرباح . وهناك أسر تشغل بهذه الشركة من عبود سحيقة . والمسافة بين السبوع ومقرات على النهر شمالي بربر تبلغ سبعة أيام من السفر الهين . وعلى مسيرة ثلاثة أيام من السبوع عين ماء كبيرة تدعى (ربت) وعلى مسيرة خمسة أيام عين أخرى .

وتقوم وادى عسرا على مسيرة تسع ساعات ، ووادى دهنوانه على تسع ونصف ،
والدر على عشر ونصف . والدر أهم بلد بين مصر ودنقلا ، ولست أذكر أننى
رأيت حقولا تلقى الزراعة فيها من العناية ما تلقى الحقول بين كرسكو والدر .
كذلك لاحظت أن بيوت الفلاحين هنا أوسع وأنظف من بيوت الفلاحين
المصريين .

أول مارس --- وصلت الدر بعد الغروب ، وأنحت بميرى عنددار حسن كاشف
حيث ينزل وجوه المسافرين ، وحيث نزل الأميران المماوكان اللذان أشرت إليهما
آنفا . ولما كان الحاكم قد خلا إلى جناح الحريم ، فإننى لم أذهب لأراه ، بل مضيت
إلى فراشى بعد أن أبيت إشباع فضول قومه ، وفضول خدم الأميرين ، الذين
أمطرونى وإبلا من الأسئلة . ولكن ما أصبح الصبح حتى فاجأتى حسن قبل أن
أستيقظ ، وأقبل إلى فناء الدار حيث قضيت ليلتى ، بعد أن زار الأميرين . ثم سألتنى
عن غرضى من رحلتى ، وهل أنا تاجر أو رسول موفد إليه من والى مصر . وكان
فى نيتى قبل أن أهرم بوصول الأميرين أن أزعم أننى موفد من الباشا فى مهمة سرية
للنوبة ، لأننى علمت من أهل الصعيد أن أمراء النوبة يخشون بأس محمد على ، فهم
لا يحبون إذن على مسئى بسوء . ولكنى حين علمت بوصول المملوكين — وكان
حديثى مع الفلاحين الذين بت فى بيوتهم فى أثناء رحلتى إلى الدر قد أقتضى بأن الأمراء
النوبيين يرهبون الممالك جيرانهم فى الجنوب كما يرهبون جارهم فى الشمال — حين علمت
هذا رأيت أن من الخطر على أن أخفى غرضى الحقيقى من رحلتى . أما وقد شجعتنى
مالقى مسترلى ومسترسملت من توفيق فى رحلتها ، فقد صارحت حسن كاشف
بأننى إنما جئت النوبة سائحا كما جاءها السيدان اللذان سبقانى إلى الدر ، وقدمت
إليه فى الوقت نفسه خطابات التوصية التى أحملها . ولكن صراحتى لم تغنى قليلا ،
فقد حبل هذا الإفصاح عن نواياى على محمل الخديعة والنش ، وأبى الجميع أن يصدقوا
أننى سائح قدمت بلدىم للفرجة فحسب . وكان فى إلماى بالعربية ، وخبرتى بالمادات
التركية ، ما همل كاشفاً على الاعتقاد بأننى تركى ، وأننى مبعوث حسن بك والى
إسمنا للتجسس عليه . وقد زاد فى سوء ظن كاشف فى تحريض المملوكين له ، مع

أنهما كانا معاً في غاية التلطف والأدب حين زرنهما . وأنفقت اليوم كله وبعض
الغد في مفاوضات مع الحاكم للحصول على خبير يصحبنى للجنوب . وكانت الهدية
التي قدمتها له ، وهي صابون (*) . وابن وطربوشان أحمران (وكلهما تساوى نحو
ستين قرشاً) ، خليفة بالقبول لو قدمت في وقت آخر ، ولكن الهدايا التي قدمتها
إليه مسترلى ومسترسمت بلغ ثمنها نحو ألف قرش ، مع أنهما لم يتجاوزا في رحلتهما
إبريم . قال لي الحاكم « وهأنت تعطيني أشياء نافهة مع أنك تريد أن تتجاوزها
إلى الشلال الثاني » . قلت صحيح أن هديتي لا تناسب مكانته ، ولا توفيه حقه ،
ولكنها في الواقع فوق طاقتي ، وأنتى كنت إخالني ميمراً على صاحبي بما أحمل من
خطابات توصية من حاكم إسنا . وأخيراً بلغت منه ما أريد بفضل مصادفة من
المصادفات الطيبة ، فقد نمتي إلى أن قافلة كبرى قامت من المحس فاصدة إسنا ، وأن
جانباً كبيراً من السلع التي تحملها ملك لكاشف نفسه ، بنوى بيعه بأسيوط
والقاهرة . فذهبت إليه ، وخلوت به ، وقلت له إنني نودت لإسنا وعلم واليهما
بما لقي خطابه الذي زودني به من إغفال تجلي في معنى من تجاوز الشلال الثاني مع
أنه طلب السماح لي بذلك صراحة ، لوجد في هذا مسوغاً لفرض غرامة على القافلة
حين وصولها إلى إسنا ، أولمعهما من المضي إلى أسيوط . ووجم كاشف طويلاً
ثم قال لي « مهما تكن هويتك ، وسواء أكنت إنجليزية كماصحيك اللذين
سبقاك أم جاسوساً للبasha ، فلن أردك خائباً . فامض في رحلتك إن شئت ، ولكنك
إن تكون في مأمن بعد تجاوزك سكوت . فلتكن هذه البلدة نهاية رحلتك
ومنها تعود » . فطلبت إليه أن يزودني بخطاب توصية لسكوت ، ففعل دون تردد .
كذلك جاءوني بخبير من البدو . واشترت زاداً لرحلتي من الذرة والتمر ، وغادرت
الدر قبيل ظهر ٢ مارس ، بعد أن فشلت محاولات المملوكين لمرقلة سفرى . ويجدر
بي قبل أن أمضي في وصف رحلتي أن أصف هنيئة لأصف في شيء من التفصيل الأهالي
والنواحي التي اجتريتها حتى الآن منذ قمت من أسوان .

(*) الصابون هدية يقدرها الناس تقديراً كبيراً في جميع هذه النواحي ، لأنه لا يصنع
بمصر ، ما خلا نوعاً رديئاً جداً تصنعه أسيوط . وهو يستورد من الشام ، وعلى الأخص فلسطين .
ويساوى رطل الصابون في إسنا شللاً ونصفاً .

يتجه النهر في مجراه من أسوان لسكرسكو من الشمال إلى الجنوب عموماً ، ثم ينحرف إلى الغرب ، ويحفظ بهذا الاتجاه الجديد طوال مجراه إلى دنقلة . وصفة النهر الشرقية في هذا الجزء من الوادي أصلح للزراعة من صفته الغربية ، وتراها أبنها كان لها عرض يذكر مكسوة بطبقة خصبة من الغرين الذي يرسيه النيل فوقها . أما في الضفة الغربية فإن رمال الصحراء تجتاح الوادي في غير هوادة حتى تبلغ جرف النهر نفسه ، وتحملها الرياح الشمالية الغربية التي تسود الإقليم في فصلي الشتاء والربيع . ولا يتيح السهل الضيق قيام الزراعة عموماً إلا في الجهات التي تصعد الجبال فيها الرياح الرملية العاتية . لذلك كانت الضفة الشرقية أكثر عمراً من الغربية ولكن الغريب أن كل الآثار الهامة تقوم على الضفة الغربية . ولعل قدماء المصريين كانوا أشد تديناً وتعبداً لآلهتهم الكريمة في البقاع التي يخشون فيها شدة بطش إله الشر « تيفون »^(١) (الذي يمثل الصحراء) ، المدو للدود للإله الخبير أوزيريس (الذي يمثل مياه النيل) .

ومجرى النهر هنا في مجلته اضيق كثيراً منه في أى أجزاء مصر ، واعتراض الشطوط الرملية لسير المياه هنا أقل . وما إن ينتهى الفيضان حتى يزرع النوبيون الفقراء في الوادي الضيق الذرة والدخن (الذى يصنع منه الخبز)^(٢) . ولكن جل اعتمادهم في الغذاء على محصول الذرة ، كذلك تصلح سيقان الذرة الجافة طعاماً لماشيته طوال الصيف بدلاً من التبن . وبرسيم مصر لا يعرف هنا ، ولا في صميمها جنوباً . وبعد أن تنحسر مياه الفيضان وينتفى محصول الذرة ، تروى التربة بالسواقي التي تديرها الأبقار ، فترفع الماء إما من النهر أو من آبار مخفوفة على الشاطئ ، لأن الماء الباطني موفور في كل مكان بعد الفيضان على عمق خمس عشرة قدماً أو عشرين . ومثل هذا تجده في الصعيد صيفاً ، ولكن مياه هذه الآبار كريهة المذاق ضاربة إلى الملوحة ، وأفضل أنواعها عسر المضم^(٣) . ولكي تشرب التربة المياه

(١) إله الشر عند المصريين هو ست (وهو تيفون عند اليونان) ، وست أخو أوزيريس وقتله ، وعدو هورس بن أوزيريس (المترجم) .

(٢) لا يزرع الدخن في مصر ، ولكنه طعام أساسي في دارفور وسنار وساحل البحر الأحمر من جدة إلى اليمن .

(٣) للشرقيين ذوق مرهف يميزون به الماء ، وهم يصفونه عادة بالحقة أو الثقل . وكذلك كان الإغريق يميزون بين النوعين .

جيداً قسمت الحقول مربعات صغيرة — مساحة كل منها عشر أقدام — رفعت حوافها لتحتفظ بالماء الذى تحمله إليها مساق جانبية ضيقة . ثم تزرع الحقول ثانية شميراً وفولاً من نوع يدعى « كشر نقيق » وتبغاً من أردأ الأنواع ، ولوبياء فرنسية (وأوراق هذه اللوبيا إذا سلقت كان منها حساء يستطيه النوبيون) . ولم أر القمح إلا نادراً . وعلى مقربة من الدر حقول يزرع فيها العدس والحمص والبطيخ . وعلى جرف النهر — وهو أشد من السهل رطوبة وأقل تعرضاً للشمس — يزرع الترمس المر الذى لا يحتاج لرى . والترمس معروف فى مصر ، وهو المعروف عند الإيطاليين بـ « اللوبينى » . وينضج القمح والشعير فى منتصف مارس . وبعد حصاد الشعير فى نهاية إبريل تزرع الأرض أحياناً ذرة زرعة ثالثة ، وتروى بالسواق . ويسمى هذا الزرع زرعاً صيفياً ويكتمل نموه فى شهر يوليو ، ولكنه لا يكون إلا فى أخصب البقاع .

وتنمو على ضفاف النهر أنواع برية مختلفة من الأشجار الشوكية من فصيلة الليموزا (السنط) ، بالإضافة إلى النخل والدوم (*) . كذلك تنمو شجيرات السنامكى القصيرة برية من إسنا إلى المحس فى كل مكان غمره الفيضان . على أن الناس قلما يفقهون مزايا هذه السنامكى ، ولا يستعملها غير الفلاحين الذين خبروا فوائد الطيبة . وتمتاز السنامكى الصعيدية على السنامكى النوبية والجبلية بكبر أوراقها . وبين الكثبان الرملية التى على الضفة الغربية تنمو أشجار الطرقاء ، وهى نفس الأشجار التى تحف بأطراف الفرات فى صحارى الجزيرة .

ولم أر من الحيوان فى رحلتى على ضفاف النيل فى النوبة إلا القليل . وماشية النوبيين البقر والضأن والماعز والجاموس أحياناً ، ويقتنى وجوه القوم الحمير ، والإبل قليلة إلا عند تجار السبوع ووادى العرب . وتوجد الثياقل (الماعز الجبلى) فى الجبل الشرقى ، وقد رأيت منها تبتلا فى أسيوط ، ويسمونه « البدن » فى إقليم البطراء . وحدثنى عرب البشارية عن فصيلة من الأغنام البرية ذات القرون المستقيمة

(*) الدوم شجرة منتشرة فى مصر حتى دندرة شمالاً

تقطعن جبالهم . والبلاذ حافلة بالقرلان الشهباء المعروفة ، وليست الأرانب البرية بالحيوان النادر فيها ، ويصيد بمض عرب القرايش القرلان والأرانب بكلاب سلاقية يرعونها خصيصاً لهذا الغرض .

أما طيور النوبة فتتوزع من الحجل أحمر الساقين كدت أحياناً أن تأكله عشاء . عجباً إلى نفسي ، وإوز برى من أكبر الفصائل ، وفصائل من اللقلق ، والرخم ، وجحافل من الغربان ، وطير القطا في أسراب صغيرة ، وجيوش من المصافير الدورية التي يخشى النوبيون أذاها لأنها تنهم ثلث الحصاد على الأقل . كذلك تجد نوعاً من الزقراق الشامي واسع الانتشار ، ورأس هذا الطير هو الذي تجده مرسوماً بالهيروغليفيه على عصا الرئاسة (فكذلك كان يحوّل إلى كلما رأيت به ينشر عرفه) . وثمة طائر مائي أبيض في حجم الإوز الكبير ، يطلق عليه الأهالي اسم « الكوك » يسكن الجزائر النيلية الرملية في أسراب قوام السرب منها مئات ، ولكنني لم أتمكن قط من الدنو منها دنواً يتيح لي تأملها . ولا يزور النوبة الزقراق الذي تراه كثيراً في صعيد مصر ، والذي يقال إنه يتسلل إلى قم التمساح ويأكل الطعام المهضوم الذي يخرج هذا الحيوان من جوفه . كذلك لم أر بالنوبة أى طائر من فصيلة أبى قردان .

ومن الخنافس (الجمارين) المختلفة الأحجام والأشكال ما لا يحصى على الضفة الغربية الرملية . وكثيراً ما وجدت آثار أقدامها تنطلي الطريق الرمل على هذه الضفة تماماً . ويطلق النوبيون على الجمران اسم « الكافر » ، وهم يخشون الخنافس لاعتقادهم أنها سامة ، وأنها تنفث السم في كل طعام تمسه . ولونها في الغالب أسود وأكبر ما رأيت منه كان في حجم نصف الكراون . ولعل عبادة إدماء المصريين لهذا الحيوان نشأت في النوبة أولاً ، وهو جدير بأن يتخذ رمزاً للخضوع للفضاء والتسليم بأحكام القدر ، إذ يستحيل على هذه الخنافس أن تذوق الماء وهي تسكن تلالها الرملية ، والطعام الذي تعيش عليه ضئيل ناه ، ومع ذلك تراها لا تفتأ مصممة فوق الرمل في همة لا تعرف الكلال ولا الوهن .

وليس لدى النوبيين اعتقاد من أى نوع لصيد السمك اللهم إلا من سكن منهم

مناطق الشلال الأول والدر والشلال الثانى ، حيث يصاد السمك أحياناً بالشباك .
ويبدو أن أكثر أنواع السمك انتشاراً هنا هما الدوغان اللذان يطلق عليهما الأهالى
اسمى الدبس والمسلوق .

ويقسم السكان الإقليم الذى عبرته من أسوان للدر قسمين : أولهما وادى
الكنوز — ويعتمد من أسوان إلى السبع ، وثانيهما وادى النوبة — ويشمل
كل الإقليم الواقع جنوبى السبع حتى الحدود الشمالية لدنقلة . وسأفصل الكلام
عن وادى النوبة وسكانه فيما بعد^(١) . ويسكن وادى الكنوز عرب كنوز
(واحد كنى) الذين يزعمون أنهم قدموا فى الأصل من صحارى نجد ،
واستوطنوا هذا الإقليم حين انتشرت بمصر القبائل البدوية العظيمة القادمة من
الشرق^(٢) . ومن بين هؤلاء أيضاً يدومن كانوا يسكنون بجوار بغداد ، يعرف
أحفادهم إلى الآن باسم « البغدادية » ويسكنون وادى دهميت ووادى الأميركاب
على ضفة النيل الغربية . وينقسم عرب كنوز إلى عدة عشائر أطلق اسمها على
النواحي التى يقتطونها ، فوادى النصرلاب وأبوهور وغديرها تسكنها عشائر
النصرلاب وأبوهور . وبين هذه القبائل تحاسد وتناحر يؤدىان أحياناً إلى
نشوب القتال .

ويبدو أن المستعمرين الجدد ما لبثوا أن اختلطوا بالوطنيين المغلوبين على أمرهم
واتخذوا لغتهم وما زالوا يتكلمونها . وليس فى هذه اللغة أصوات عربية على
الإطلاق ، ويتكلمها الأهالى من أسوان شمالاً حتى السبع جنوباً ، فى كل قرية
شمالى أسوان حتى أدفو ، لأن أفواجا من عرب كنوز استوطنوا الصعيد حديثاً .
ومن الحقائق التى تسترعى النظر ، أن تعمر لغتا الكنوز والنوبة الغريبتان هذا

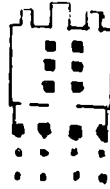
(١) يطلق المصريون على سكان وادى النوبة ووادى الكنوز حتى دنقلة اسم « البرابرة »
ولكن هذا اللفظ قلما يستعمله الوطنيون أنفسهم حين يتكلمون عن أمتهم . ولعل اللفظ مشتق
من اسم إقليم بربر الواقع فى اتجاه « القوز » التى ذكرها الرحالة بروس . ويعتبر أهل بربر
أحياناً نوبيين .

(٢) ينتشر أسلال البدو فى كل أنحاء مصر تقريباً شمالاً إلى الجنوب . ومعظم فلاحى الصعيد
من أصل بدوى ، بل إن من القبائل الشامية عشائر عديدة استوطنت شواطئ النيل .

الزمن الطويل ويمتنع استعمال العربية امتناعاً يكاد يكون تاماً في إقليم محصور بين دنقلة جنوباً ومصر شمالاً ، وكلاهما لافئة له سوى العربية وحدها . ولا يتسكلم العربية من السكنوز سوى من زار مصر ، ومعظم نساءهم يجهلونها تماماً . كذلك مما يسترعى النظر أن يحتفظ عرب المليقات في السبوع ووادي العرب بلقنهم العربية الخالصة ، وهم على وضعهم من حدود السكنوز والنوبة . ورجالهم يمرفون اللغتين ، ولكن نساءهم لا يفقهن سوى العربية .

ولما كانت معيشة النوبة والسكنوز وعاداتهم متشابهة ، لذلك ساجل الكلام عنهما معاً بما بعد أن أصف الطريق الذي سلكته .

وأرباض الدر هامة لاحتوائها على معبد يقوم على منحدر في تل سخرى وراء القرية . ويدل بناء المعبد على أنه موغل في القدم ، ويلوح أن أهل هذه المنطقة كانوا يعبدون الآلهة المصرية قبل أن تستقر هذه الآلهة بزمان طويل في معابد الكرنك والقرنة الضخمة التي توحى الظواهر كلها بأنها أقدم المعابد المصرية إطلاقاً . ومعبد الدر منحوت كله من الحجر الرملي بما فيه بهو الأعمدة الخارجى والمهيكل وقوس الأقداس . ويتألف بهو الأعمدة من ثلاثة صفوف من الأعمدة المربعة ، في كل صف منها أربعة . والأعمدة القريبة من الهيكل — وكان السقف يصلها بصاب المعبد أصلاً — أكبر حجماً من سائر الأعمدة ، فربيع العمود منها



يقرب من أربع أقدام وارتفاعه أربع عشرة قدماً ، وما زالت أعمدته سليمة في حين تهدمت أعمدة الصفيين الخارجين ولم يبق منها سوى قطع من أبدانها . وأمام كل عمود من الأعمدة الأربعة ساقاً تمثل ضخم كالتماثيل التي يراها الزائر لمعبد القرنة بطيبة . وقد سقط جانب من الصخرة المنقورة التي كانت تقوم جداراً من جدران

التيجو ، وعلى حطامها نقوش تمثل معركة يظهر فيها البطل راكباً عجلته بطارد
عدوه المهزوم وهو يتقهقر إلى الأحرش حاملاً جرحاً معه . وفي أسفل هذا الجدار
عينه صور الأسرى وقد غات أيديهم خلف ظهورهم يساقون إلى الجلال وهو يضرب
عنق أحدهم . والنقوش كلها مشوهة ، وعلى الجدار المقابل صور للمعركة أشد
تشوهاً ، ويبدو الأسرى فيها وقد سيقوا أمام الإله أوزيريس (وله رأس صقر) .
وعلى جانبي المدخل الرئيسي في الجدار الأمامي للمهيكل صور « برياريوس » يقتله
غريمه وقد رفع أوزيريس ذراعه يستوقف الضربة المسددة إليه . وهذه المجموعة
تراها بعينها مرسومة على كثير من المعابد المصرية ، ولكن لبرياريوس في هذا
المعبد رأسين وأربع أذرع فقط ، في حين ترى له رؤوساً وأذرعاً عديدة في معابد
مصر الأخرى . وعلى العمدة الأربعة القائمة أمام قدس الأقداس صور أشخاص
مختلفة أزيائهم ، وهم يبدون اثنين اثنين ، ويد كل منهم في يد صاحبه . ومن المناظر
المتكررة منظر السكبش المصري مندس (Priapus) . أما الهيكل فحجرة
مربعة ثلاث عشرة خطوة لا يدخلها النور إلا من البوابة الرئيسية ، وحجرة
صغرى بجانبها . ويمتد من البوابة إلى قدس الأقداس صفان من الأعمدة المربعة
في كل صف منها ثلاثة . وشكل الأعمدة شاهديان مشيديها كانوا مبتدئين في المعمار ،
فأما إلا كتل مربعة منجوتة من الصخر لا قواعد لها ولا تيجان ، وهي في قاعها
أوسع قليلاً منها في قممها . وجدران الهيكل الداخلية وأعمدته الستة تغطيها الصور
الدينية التي تراها في سائر المعابد ، ولكن في صناعتها حاجة لم أرها في معابد
مصر . وتدل آثار الألوان الحائلة على أن هذه الرسوم كانت في أصلها ملونة . وعلى
جدار جانبي من جدران الهيكل رسم لأشخاص خمسة حلقى الرؤوس طوال
الثياب يحملون على أكتافهم قارباً يسند من وسطه أيضاً رجل يلبس على كتفه
جلد أسد . وفي الحائط الخلفي للمهيكل باب عليه رسم القرص المجنح ، وهو يؤدي
إلى القدس الصغير ، وفيه مقاعد لتماثيل أربعة ، والقاعد منقورة في الحائط الخلفي (*)

(*) يرى الزائر هذه التماثيل في هياكل جميع معابد النوبة القديمة المنجوتة في
الصخر ، وتوزع الحجرات في هذه المعابد شبيه بتوزيعها في هذا المعبد الذي وصفت .

وعلى جانبي القدس حجرات صغيرة لها أبواب خاصة تفتح على الهيكل ، وفي حجرة
منها حفرة عميقة بغالب على الظن أنها كانت تستعمل مدفناً .
وعلى جانب الجبل بقرب المبدء مقابر منقورة في الصخر . وقد نسخت هذين
النصين من مقبرتين منهما .

✠ ⲕⲭⲣⲡⲣⲏ . ⲏⲥⲟⲛ
ⲧⲱⲛⲧⲟⲩⲥⲟⲩ
ⲁⲛⲧⲟⲛⲓⲟⲩ

✠ ⲁⲛⲟⲕⲡⲁⲩⲗⲟⲥ ⲉⲓⲥⲃⲁⲓⲛⲁⲓ

ولما كانت الدر أم بلد في النوبة ، ومسكننا للحكام حين لا يقومون بجولاتهم ،
فقد كانت مقصد الأعراب وسوقاً تقوم فيها بعض التجارة . ونمر الدر وإبريم
يلاقى تقديراً كثيراً في مصر ، ويشحن منه تجار إسنا وأسوان شحنات كبيرة
من هنا في الخريف حين يساعد ارتفاع منسوب الماء في النهر على سرعة الملاحة
شمالاً . كذلك تنقل من هنا فسائل النخيل إلى مصر ، لأن الأشجار التي
تستنبت في مصر من الدوى لا تلبث أن تنحط سلاتها الطيبة . ويؤدون ثمن
التمر ذرة وأقشة خشنة من البكتان وملايات من صنع إسنا وأسيوط . أما
إذا كان محصول الذرة في النوبة وافراً فإن ثمن التمر يؤدي ريبالات أسبانية
على أن حالة التجارة في هذا الإقليم يرئى لها ، وأذكر على سبيل المثال أن التمر الذي
يشترى من الدر ، ولو نقداً ، يفل يبعه في القاهرة ربحاً صافياً نسبته ٤٠٠٪
على الأقل . أما الذرة المنقولة من أسوان إلى الدر فتقل ربحاً نسبته ١٠٠٪ .
والقنطار الإنجليزي من البلع يساوي في الدر نحو ثمانية شلنات . والعملة المتداولة
هي المد أو المكيال الصغير من الذرة تقدر به كل السلع الرخيصة ، أما الريال
فسلعة يقايض بها ، لا عملة للبيع والشراء . ولم يعرف القرش والبارة هنا إلا منذ
فتح المهاليك .

وتقوم قرية الدر وسط حرج من النخيل ، وتتألف من سائقي بيت

أو نحوها، ولحسن كشف وأخويه بيوت حسنة بها . وكثرة سكان الدر
أترك المحدروا من جنود البوسنة (البشناق) الذين أرسلهم السلطان سليم للاستيلاء
على البلاد .

٢ مارس — غادرت الدر بصحبة شيخ من الأعراب يدعى « محمد
أبو سعد » من قبيلة القارارش . وبدوا القارارش — وهم شعبة بعيدة من المبادنة —
بالتجمع شواطئ الهر غير الآهلة وجزائره من الدر حتى المحس ودنقلة جنوباً ،
حيث يقال إن عددهم هناك يفوق عددهم في النوبة . وهم رفاق الحال ، وخيامهم
من الحصر المجدول من سمف النخل ، لها فواصل في وسطها لمزل الحريم ،
ولكنهم رغم فقرهم يأبون تزويج بناتهم للنوبيين ، وبذلك احتفظوا بسلالتهم
نقية ، وهم يفخرون صادقين بما امتازت به بناتهم من جمال وفطنة . ويشغل
معظم عرب القارارش في خدمة أمراء النوبة حرساً وخبراء يرافقونهم في رحلاتهم
داخل أملاكهم . وفي غياب الأب وكبار الأبناء تبقى الأم وبناتها في خيمتهن المنعزلة
لأنهم يعيشون عادة في أسر منفصلة لا في مضارب مجتمعة . ويتلقى هؤلاء البدو
بين الحين والحين نفحات من أمراء النوبة ، ويعنى زراع الجزائر منهم من الضرائب
وهم على قدر كبير من الأمانة وكرم الضيافة ، وأرق شمائل من سائر من اقيمت
من سكان النوبة . وغير المشتغلين منهم بخدمة الأمراء يكسبون معاشهم إما بالعمل
تجراً ، أو بجمع السنامكي من الجبل الشرق وبيعها لتجار إسنا بسعر جنيه للحمل
(والحمل يعادل من أربعة إلى خمسة قناطير إنجليزية) . ومنهم من يسافر من
وادي خلفا الواقعة على النيل مسيرة ثلاثة أيام في الصحراء الغربية لجمع الشب
أو النطرون ، وهم يقايضون عليه هؤلاء التجار بالذرة بواقع مكيالين من الشب
لقاء ثلاثة مكاييل من الذرة . ويجدون النطرون إذا حفروا عليه على عمق بوسات
قليلة منبسطة أميالاً . على أنها تجارة محفوفة بالمسكاره ، فسكان الكوبانية (وهي
قرية تقع على اثني عشر ميلاً شمالي أسوان) يشتغلون بها أيضاً ، وتستغرق رحلاتهم
إلى آبار النطرون أحد عشر يوماً ، والتقاء الفريقين يعقبه حتماً نشوب معركة
دائمة . وبين وادي خلفا والشب توجد عين ماء تجمد يوماً واحداً عن الشب ،

ويقوم عليها بعض السكّال وتنبؤ بمض أشجار الدوم . وإلى شمال الشب ، على رحلة يوم في الطريق إلى الواحة الكبرى ، عين أخرى بسمونها الناري ، وينمو حولها نخل كثير .

ركبنا زهاء نصف ساعة بعد مغادرتنا الدر بمحذاة أحراج من النخيل وبموت للفلاحين حسنة البناء ، ثم ارتقينا الجبل الشرقى ، لأن الطريق الممتد على ضفة النهر تقطعه الصخور . وعلى قمة الجبل سهل فسيح ، تغطيه شظايا من الحجر الرملى المسكك ، ويحفه من الشرق على مسيرة نحو ساعتين سلسلة عالية من الجبال . وواصلنا السير على هذا السهل ميممين غرب الجنوب الغربى ، حتى إذا قطعنا رحلة ساعتين ونصف من الدر هبطنا ضفة النهر ثمانية بقرب قرية قتر ، وهناك عبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النيل . وأنحننا بعيرينا على جزيرة ، عند خيمة دلبلى ، فقضيت الليل هناك . ويتكلم القوم العربية والنوبية على السواء ، ولهم بشرة سواده ولكن ليس لهم قسما الزنوج . والرجال عادة عراة إلا من وزرة يلقونها على الخاصرة ، أما النساء فيلقين على أجسامهن قمصانا من نسيج خشن . ويرسل الرجال والنساء شعور رؤوسهم ، ويقصونها من فوق العنق ، ويقصونها صفائر رفيعة على طريقة عرب سواكن الذين صورهم مسرسلات في كتاب «أسفار لورد فالنتشيا Lord Valentia's Travels» . وشعرهم كث ولكنه ليس صوفى القوام . ولا يمشط الرجال شعورهم قط ، أما النساء فيمشطنها أحيانا . وتلبس النساء فى مؤخرة رؤوسهن عقوصا أو حلما صغيرة من الودع أو الخرز المصنوع من الزجاج البندقى . ويدهن الرجال والنساء شعورهم بالسكركار إذا تيسر ، ولهذا فائدتان ، ترطيب الجلد المتهب من القيط أولاً ، وإقصاء الحشرات عنه ثانياً ، وصبيانهم عراة ، أما الفتيات اليافعات فيشددن حول خصورهن مناطق من الشراريب الجلدية ، كثيرة الشبه بالريش الذى يلبسه سكان جزائر البحار الجنوبية للفرض نفسه

٣ مارس — رددت الخبير إلى الدر ليشتري مزيداً من الذرة ليقدم بمضه غداء لبعيرينا فى هذه الأصقاع التى لا تنمو فيها الأعشاب البرية . واستأنفنا رحلتنا

بعد رجوعه . وكان طريقنا يحاذى حرجا من النخيل وصفا من البيوت لم ينقطع مسيرة ساعتين . ثم ألقينا الصخور الرأسية تكسنتف النهر حتى تلاصقه . وقد لمت وأنا في أسفل الجبل مدخل حجرة منحوتة في الصخر على ارتفاع ستين قدما أو ثمانين ، ولكنى لم أجد سيلا لبلوغ هذا المدخل ، فالصخرة هناك رأسية ، وقد رأيت مثل هذا قبورا منحوتة في صخرة وادى موسى في إقليم البطراء ، لا يمكن بلوغها إلا إذا ارتقى المرء سلما طوله أربعون قدما أو خمسون . وبلغنا حصن إبراهيم بعد ساعتين ونصف ، وقد أصبح الآن خرابا يابا ، فقد اعتمد به الماليك في العام الماضي حين حاصروا ، ثم حاصروا بدورهم جند إبراهيم بك ، وفي غضون هذه العمليات الحربية ضربت الأسوار بالمدافع القليلة التي وجدت في الحصن ، ودك كثير من بيوت القرية دكا .

وتقوم إبراهيم على ربوة صخرية منعزلة تشرف على النهر ، وتحيط بها جبال جرداء لا تصلح لزراع ولا لحث . وعلى قمة هذه الجبال كثير من مقابر أولياء الأتراك القديمة . والبيوت مبنية بالحجر الرملي ، ومثلها السور الحديث الذي يكتنف المدينة . وعلى الجانب الغربى أطلال تخلفت من السور الأثرى المبنى بأحجار صغيرة منحوتة لمت بغاية الدقة والعناية ، ويبدو أن السور شيد في عصر الدولة الحديثة . وفي نطاق المدينة خرائب بنائين من الأبنية العامة ، ولعلهما كنسيتان إغريقيتان بنيتا على طراز السور القديم . ويدور المرء حول الحصن في نحو خمس عشرة دقيقة ، ولم أجد فيه من الآثار القديمة سوى عمود صغير من الجرانيت الأشهب .

وحصن إبراهيم والإقليم الذي يتبعه ، والذي يبدأ جنوبي الدر بنصف ساعة وينتهى عند توشكى — ملك لأغا إبراهيم ، وهو مستقل عن أمراء النوبة ، ولما كان الأهالى معفين من دفع الضرائب سواء لهؤلاء الأمراء أو للأغا نفسه ، فقد استطاعوا بمضى الزمن أن يقتنوا من بيع بلحهم عامما بعد عام ثروة طائلة من النقود والماشية . ولكن الماليك أنوا في أسابيع قليلة على كد قرن من الزمان ، وذلك في أثناء تهقرهم في العام الماضي . فقد أخذوا من وادى إبراهيم نحو ألف ومائتي بقرة ، واستولوا على جميع ما فيه من غنم وماعز ، وأودعوا السجن وجوه إبراهيم وسرايتها ، وأخذوا منهم

خدية تجاوزت مائة ألف ريال أسباني ، ثم أعدموا الأفا قبل مغادرتهم المدينة ، بعد أن أنى جثثهم على ما وقع تحت أيديهم من زاد . فلا عجب أن اجتاحت الإقليم في أعقاب هذا النهب والسلب المجاعة المروعة التي ذكرتها آنفا .

وأهل إبريم لا يقتلون في حرب مع أمراء النوبة ، وهم على قلة عددهم أكفاء ، لخصومهم لأنهم جميعاً يقتنون الأسلحة النارية . وهم بيض اللون إذا قيسوا بالنوبيين ، مازالوا يحتفظون بلامح أجدادهم البشناق الذين بعثهم سليم الفاتح ليحتلوا إبريم . ولباسهم الجلباب من السكتان الخشن ، وأغلبهم يغطي رأسه بما يشبه العمامة . وهم يقولون «نحن ترك لانوبيون» . ولما كانوا لا يدينون إلا غا بالخضوع المطلق ، وليس لأحد سلطان عليهم ، فقد كثر بينهم التشاحن والتناحر . ولهم قاض يلي وظيفته بالورثة . ويثأرون من القاتل بقتله ، وإذا أدى المدوان إلى الموت فلا سبيل إلى قبول دية الدم ، أما إذا أدى إلى الأصابة بجراح فهناك غرامات مقررة على كل إصابة تتفاوت بتفاوت الأعضاء المصابة . ومثل هذا القانون منتشر بين بدو الشام . وإذا تزوج تركي من أتراك إبريم أهدى عروسه نوب العرس وسندا بثلاثمائة قرش أو أربعمائة يؤدي لها نصفها إذا طلقها . على أن حوادث الطلاق بينهم نادرة جداً . وفي العرس ينحدر العريس بقرة أو عجلاً ، فإذا نحر كبشاً كان ذلك فضيحة الفضاخ .

واست أذكر في كل ما طفت به من بلاد الشرق بلداً كإبريم يطمئن فيه الناس على مالهم ويأمنون عليه من السرقة . فالأهالي يتركون الذرة ليلاً في الحقول أو كواماً بلا حارس ، وما شيتهم ترعى الكلاب على ضفة النهر دون راع يرعاها ، وخير أمثال البيت بيت الليل كله تحت الدخل المحيط بالمنزل . وقد أجمع أهل الإقليم على القول بأن السرقة رذيلة لا يعرفها إقليمهم . ويحذر بي أن أضيف أن النوبيين في جملتهم لم تلوثهم هذه الرذيلة .

وعبرنا الجبل من إبريم ، وبعد مسيرة ساعة هبطنا ضفة النهر عند وادي السالك ، وهي القرية التي لجأ إليها أكثر أهل إبريم بعد أن اجتاحت المالك واديهم .

وبقنا ليلتنا هنا في نيت لأبناء الأغا الذى قتله المالك . وكنت أينا حططت أرى
الفلاحين يجتمعون في المساء عند البيت ، فكنت أزعجهم أننى قادم في مهمة رسمية
تتصل بالأميرين النوبيين المقيمين جنوبى سكوت ، ولما كنت في صحبة رجل
معروف بصلاته بأمره كاشف فإن أحداً لم يجرؤ على عرقلة رحلتى . والواقع أنه لاخوف
من الفلاحين على المسافرين في النوبة ، وهم خليون بأن يطمئنوا إلى نواياهم بوجه
عام ، وإذا كان هناك خطر عليهم فصدره جشع الحكام وشرهم للمال .

٤ مارس — يمتد حرج النخل جنوبى الشباك . وقد وجدت كثيرا من
البيوت مهجوراً ، وفي كل خطوة كنت أصادف قبوراً منبثة . ويضع النوبيون
بجانب كل قبر إناء من خزف يملؤونه ماء في اللحظة التى يلحد فيها الميت
ويتركونه هناك . أما القبر فيغطونه بحصى صغير مختلف الألوان ، وفي كل طرف
من طرفيه يفرسون سمفتين كبيرتين من سمف النخل ، وهكذا أصبح رمزا لاتنصار
رمزا للموت عند النوبيين . وتقوم إلى جوار الشباك أكوام من أحجار منحوتة هي
أطلال بناء قديم . وبعد ساعة من إبريم بلغنا وادى بسانه . والأرض الصالحة
للزراعة هنا ضيقة جداً . ويعد الجبل الشرقى مسيرة ساعة تقريباً ، وبينه وبين
المهل ربوة تسكسوها الحجارة الرملية المفككة . وشكل الجبال المنعزلة التى
يتألف منها هذا القسم من السلسلة يسترعى الأنظار ، فمعظمها شبيه بالمخروط قد
استوى عند القمة أو بالهرم الكامل . وإذا رأيتها من بعيد بدت لك منتظمة جداً
حتى اختالها من صنع الإنسان . وبعد مسيرة ساعتين بلغنا قرية توشكى ، وهى
الحد الجنوبي لوادى إبريم . وفي السهل الصخرى إلى الشرق من توشكى تقوم
صخرة منعزلة مهشمة نحتت فيها عدة قبور تحملها من الداخل أعمدة مربعة قصيرة
وفي أحد هذه القبور دهليز مقبب يؤدي إلى مدخل خفى . وصناعة هذه القبور
بدائية خشنة ، وليس على جدرانها من نقوش سوى رسم الصليب .
وبقرب الصخرة تلال عديدة من القارة . ومن عجب أن تكون هذه
القبور هى الوحيدة التى يصادفها المسافر فى التلال الشرقية من أسوان إلى

هنا ، فقد كان من السهل نحت القبور في الحجر الرملى كما نحتت في أماكن عديدة بمصر . وتتصل توشكى زهاء الساعة . وبعد ثلاث ساعات ونصف عبرنا الجبل ، وبعد أربع ونصف بلغنا أرمنة وهي قرية جميلة تدخل في أملاك النوبة . وكانت طريقنا حتى الآن يتجه إلى الجنوب الغربى تماماً ، أما بعد ذلك فقد انحرف غرباً . وبعد خمس ساعات ونصف عبرنا الجبل المسكتنف للنهر مرة أخرى . وبعد ست ساعات بلغنا فرقمى وهي قرية حقيرة تمتد أميالاً . ويزرع النوبيون هنا قليلاً من القطن . ويرى المسافر حقولاً صغيرة من القطن منبثة على طول الطريق من قنا إلى دنقلة . وينسج النساء من القطن قصائناً خشنة أو يبعنه لتجار الدرقاء الذرة . وبعد سبع ساعات ونصف مررنا بأطلال كنيسة إغريقية استعملت مسجداً في عصور حديثة ، وجدرانها إلى النصف مبنية بالحجارة الصغيرة ، أما أعلاها فن اللبن ، وعلى الملاط الأبيض كتبت أسماء عديدة للزائرين ، والكتابة بخط آخر فترة من حكم الدولة الحديثة . وتسكث التواءات النهر هنا وانحناءاته ، ويروى عن هذا القسم من مجراه أنه مرتع للتماسيح . وقد رأيت بنفسى ستة منها راكدة إلى جوار بعضها البعض على شط رملى . والنوبيون جميعاً يأكلون لحم التماسيح أنى أتيح لهم صيده ، شأنهم في ذلك شأن أهل الصعيد ، ولكنهم قلما يوقفون في اصطياده (*) .

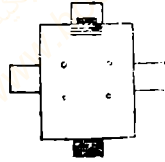
وبعد الكنيسة الإغريقية يخترق الطريق الجبل ثانية ، وعلى الجانب الآخر لهذا الجبل يوجد وادى فربى على مسيرة ثمانى ساعات ونصف . وكل وادىنا فيه من مجموعة القرى يفصله عن الواديين شماليه وجنوبيه جزء ناتئ من الجبل قريب من النهر يكون بمثابة حد طبيعى له . وترجلنا بعد الغروب عند بيت إحدى زوجات حسن كاشف بعد مسيرة تسع ساعات ونصف ، وهناك قضيت الليل . وإذا قدرنا الساعات التى قطعناها بطول النهار ، فلا بد أننا قطعنا في يومنا هذا

(*) لم أسمع النوبيين يتكلمون قط عن تماسيح ذات حجم مائل ، وأظن أن أكبر ما رأيت منها كان طوله نحو خمسة وعشرين قدماً ، والتماسيح التى بحجم التماسيح المحفوظ بالمتحف البريطانى لا يصادفها المرء في إلا النيل في عروض شندى وسنار .

عشر ساعات ونصف على الأقل . وكانت ساعتى لسوء الحظ قد تطلعت لتسرب الغبار إليها ، لذلك لا سبيل إلى حساب الوقت في مسيرى بالنهار إلا بارتفاع الشمس في الأفق وبطول النهار . وقد أخطئ لهذا السبب في تقدير الزمن الذى قضيته في السفر من قرية إلى قرية ، ولكن مجموع ما قطعت في اليوم كله صحيح في مجملته .

٥ مارس — بعد نصف ساعة بلغنا عقبة (*) فمريوى ، أعنى حد الجبل بين

وادي فريق والوادي الواقع جنوبيه . وأرسلت دليلي بالبعيرين فوق الجبل ، أما أنا فسلكت طريقاً ضيقاً للمشاة يلتزم الجرف الذى يكاد ينحدر انحداراً رأسياً . وبعد ساعة من تركى فريق وصلت إلى معبد قديم منحوت في جدار الجبل الصخرى . ولا سبيل إلى هذا المعبد سوى هذا الطريق الخطر ، وليس هناك أثر لطريق قديم يؤدي إليه . ودخلت من بوابة ضيقة عالية إلى معبد مصرى صغير منحوت كله في الصخر ، وكان سليماً محتفظاً بروائه كأن النحاتين قد زلوا عنه الساعة ، ويتكون من هيكل طوله عشر خطوات وعرضه سبع وارتفاعه زهاء الاثنى



عشرة قدما . وفي داخله أربعة أعمدة ذات تيجان مصرية ، وعلى كل جانب من جانبي الهيكل حجرة لا يصلها النور إلا من الباب الذى يفتح على الهيكل . وعلى طول جدران الهيكل مدت مقاعد حجرية واطئة ، وهى ظاهرة غريبة لم أر لها نظيراً في أى معبد مصرى آخر ، وهناك ثلاث درجات منخفضة تصعد بك من الهيكل إلى قدس الأقداس . وفي القدس حفرة عميقة للدفن ، وفي الهيكل أيضاً أخرى شبيهة بها وإن صغرت عنها . وجدران الهيكل والقدس تكسوهما النقوش المألوفة ، ولكن الحجرين الجانبيين عاطمان منهما . وقد حول

(*) لفظ «عقبة» شائع في جغرافية البلاد العربية ، وهو يدل عادة على إقليم جبل أو مهبط صخرى يقع عليه الطريق .

(٣ م — رحلات بوزكهارت)

الإغريق هذا المعبد كنييسة وبيضوا جدرانها ليرسموا عليها صورهم التي لم يزل كثير منها باقية ، وأظهرها صورة «مار جرجس» وهو يقتل التنين . وتحمل الجدران آثار أسماء كثير من الرحالة الإغريق . وبناء المعبد برمته فيج لا صنمة فيه ، ونقوشه الهيروغليفية شبيهة بنقوش معبد الدر . وعلى الضفة المقابلة يقوم إلى الشمال قليلا معبد أبو سمبل والمناثيل الضخمة التي سيأتى الكلام عنها فيما بعد .

والتقيت بدليل بعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة من مغادرتى فريق ، هند سفح تل منمرل قريب من النهر يقوم عليه حصن يشبه حصن إبراهيم ضخامة وشكلا ، واسمه قلعة أروا ، وقد هجر من سنوات عديدة لأن الصخور الجرداء تكثتفه من كل صوب . ولا يزال جزء من سور القديم قائما ، وهو يشبه فى بنائه سور إبراهيم . والبيوت مبنية بالحجر والطوب . وعلى قمة القرية توجد ثمانية أو عشرة أعمدة صغيرة من الجرانيت الأشهب ملقاة على الأرض ، وإلى جوارها فيجان إغريقية من الحجر الرملى الأحمر بدائية الصنعة . وصخور هذا التل من أفضل أنواع المجمعات من الطران والمرو والحجر الرملى الأحمر ، وهو فى هذا فريد بين التلال التى شاهدها فى النوبة . ويكون النهر أمام الحصن جزيرة كبيرة تسمى جزيرة بعلآس ، نسبة إلى القرية القريبة منها على الضفة الغربية . والجبل فيما حول أدا يتألف من تلال وعرة مشوهة ، ويبدو أن هزة أرضية عنيفة قد هشمها . وإلى الجنوب من هذا المكان يتجه النهر فى سيره غرب الجنوب الغربى . وبعد ساعتين ونصف من فريق يتراعى الجبل الشرقى إلى الشرق البعيد ، ثم يلتقى بالنهر ثانية بعد الشلال الثانى الواقع هند وادى حلفا . ويكثر هنا نمو شجيرات برية تسمى العُشُر ويسمىها عرب البحر الميت عشيراً . ولهذا النبات ثمرة فى داخلها ألياف حريرية تغلف فولة صغيرة ، وقد وصفه «نوردن» . وهو ينمو فى كل أنحاء الصعيد جنوبى أسىوط على البقاع الرملية المجاورة للنهر ، ولكنه لا يبلغ من الكبر ما يبلغه فى النوبة . ويسميه المصريون الفتنة ، وهو أهم الحشائش البرية التى يصادفها المسافر فى طريقة من السلسلة (جنوبى إدفو) إلى إقليم المحس ، وأوراقه سم زعاف للإبل . كذلك يكثُر الحنظل حيث ينمو

العشر ، ويصنع النوبيون منه الصوفان كما يصنعه البدو في بلاد العرب . وبعد ثلاث ساعات مررنا في السهل الرملى بمسد من الكيمان المختلفة الأحجام تنطيطها الرمال ، وقد أحصيت منها قرابة خمسة وعشرين في نطاق ميل ونصف . وانتظام شكلها الذى يماثل تماماً شكل الكيمان الموجودة في صحارى الشام وسهل نروادة بسكاد يقطع بأنها من صنع الإنسان (*) . وبعد ثلاث ساعات ونصف بلغنا قرية تسمى قسطل ، وبعد أربع ساعات بلغنا قرية كبرى هى أودناده . وفي الطريق دعتنا أسرة من أغارب الأمراء النوبيين لتناول الطعام في ما تم رب الأسرة ، وكان قد توفى منذ أيام في الدار ، فلما سمع ذووه بالخبر نَحَرُوا بقرة ووزعو لحمها على الجيران . وعلى مسيرة ساعتين من القرية لقيت نسوة يحملن على رؤوسهن أطباقاً حلن فيها نصيبهن من هذا اللحم . ولا ينحر البقر إلا وجوه القوم إذا مات قريب لهم ، أما عامة الناس فيقنمون بذبح شاة أو غنزة يوزعون لحمها بالقسطاس ، وأما الفقراء فلا يوزعون غير الخبز على قبر الميت . وعلى مسيرة أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة مسجد قديم مهدم يقوم على التل في الطرف الجنوبي لوادى أدندان ، تحاة قرية فرس ، على الضفة الغربية للنيل . وبعد خمس ساعات ونصف مررنا بجزيرة فرس الجميلة . والأرض هنا مكشوفة ، ولكن السهل على الضفتين تكسوه الرمال . وعلى

(*) أنبت حفائر مصلحة الآثار المصرية التي بدأتها عام ١٩٣١ صخرة رأى بوركهارت الذى كان أول من فطن إلى أن هذه الكيمان ليست طبيعية ، ولكن هذه الظاهرة ظلت طويلاً رغم هذا لا تثير اهتمام المشتغلين بالحفر والتنقيب . والكيمان التي أحصى منها بوركهارت خمسة وعشرين هى جبانة قسطل التي اشتهرت بكيمان ججا ، ومثلها جبانة كلابشة وإبرم وبلانة وأدندان وجاى وفركة وصاى وواو . ومقابرها الكومية للملك البليس Blemyes وأشرفهم ، وكانوا يحكون أكثر النوبة العليا والسفلى فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين . وحضارتهم تالية للحضارة المروية ، وكانوا وثنيين يعبدون آلهة مروى ومصر . وقد اشتبكوا في حروب مع حكام مصر من الرومان على حدود إلفنتين . وفي منتصف القرن السادس قضى عليهم (سلكو) ملك النوباناي المسيحي ، فهدم بهذا آخر معقل للوثنية في النوبة ، وسجل نصره باليونانية على معبد كلابشة (أنظر تقرير مصلحة الآثار المصرية) .

(Royal Tombs of Ballana and Qustul.)

(المترجم)

مسيرة سبع ساعات توجد قرية سرّة غرب على الضفة الغربية ، وعلى سبع ساعات ونصف أطلال مدينة عربية صغيرة قريبة من الماء يحيط بها سور سميك من الآجر . وبلغنا سرّة بعد ثمان ساعات ، وهي قرية جميلة ، ثم دبرّة بعد ثمان ساعات ونصف ، وهناك بت ليأتى . وكان دليل يمشى بى دائماً إلى بيت كبير القرية ، وإلا لما لنا حظاً من الطعام قبل النوم . وكنا حينما نزلنا يفرش لنا حصير على الأرض أمام باب الدار الذى لا يدخله غير الأهل والأخصاء . وكان المشاء الذى يقدم لنا عادة هو خبز الذرة باللبن ، يضاف إليه البلح أحياناً . ولا يأكل رب البيت مع ضيوفه قط إلا إذا ألحوا عليه فى أن يفعل . ولم يكن مضيفونا يقدمون العلف لبيمرينا دائماً ، وكانوا يمتدرون عن ذلك بنقاد المحزون من سيقان الذرة . وإذا أرادوا الاحتفاء بالغريب هنا قدموا له عند شروق الشمس قبل رحيله فطوراً من اللبن الساخن والخبز ، أما العشاء فبارد فى المائدة . ولكن قلما كان الحظ يحالفنا فنظفر بفطور ، وكنا فى العادة نركب اليوم كله دون أن نصيب من الطعام غير التمر القليل تتناوله من جيبتنا ونحن واقفان ببيمرينا عند بقعة ليقضنا من أشجار الطرفاء أو السنط .

٦٠ مارس — كان طريقنا يسلك سهلاً خصباً ينتشر فيه النخيل والمساكن إلى إشكيت . وكان النيل منخفضاً جداً فى العام الماضى فلم يغمر فيضانه السهل . ورأى شيخ من أقارب أمراء النوبة أمر بداره فدعانى للنزول عنده وبالف فى الحفاوة بى . وكان فى شبابه حاكماً لسكوت ، فطنى وتجبر ، ولكن يبدو أنه تاب وأصبح أول المحسنين فى إشكيت . وقد اغتبط بالهدية التى قدمتها له ، وكانت حفنة من البن المحمص ، فألح علىّ فى المكث عنده يوماً ، واعدأ بذبح شاة إن فعلت ، ولكنى لم أجد فى ذلك ما يغربى إغراء كافياً بتأخير سفرى .

وبينما كنت فى إشكيت مرت على ضفة النيل الغربية قافلة العبيد التى أشرت إليها آنفاً قادمة من المحس . والطريق المألوف لهذه القوافل التى تختلف إلى مصر عادة مرتين كل عام يشق الصحراء من المحس إلى الواحة الكبرى ، وتستغرق الرحلة ثلاثة وعشرين يوماً ، ومن ثم إلى أسيوط والقاهرة . ولم يجرؤ تجار

الريق على السير على ضفة النيل بقوافلهم — وهو طريق لم يرتادوه من أمد بعيد —
إلا هذا العام ، وذلك حين علموا باستتباب الأمن والنظام في النوبة والصعيد .
وإلى الجنوب من إشكيت سهل رملي . وبعد ثلاث ساعات بلغنا دروسة .
وتتجه الطريق إلى الجنوب الغربي بأحراف إلى الجنوب . وبعد أربع ساعات بلغنا
سقوى ، وبعد خمس ساعات وادى حلفا . وإلى الشرق منها ينتهى الجبل الشرق
بتلال منخفضة لا تلبث أن تعلو ثانية وتتألف منها جبال جنوبها بنحو ثلاثين
ميلا . وتقوم بمض التجارة في وادى حلفا ، وكثيراً ما ترسو فيها المراكب
القادمة من أسوان لتشجن بالتمر وبالشب الذى يجمعه العرب من الصحراء
الغربية على مسيرة ثلاثة أيام من وادى حلفا . والملاح في الصيف من الدر إلى
وادى حلفا شاقة على المراكب — اللهم إلا الصغيرة منها — في مواضع
كثيرة بسبب الشطوط الرملية . وقيم هنا رجل من أقارب أمراء النوبة يجمع
لهم الضرائب .

وبلغنا الطرف الجنوبى لوادى حلفا بعد مسيرة ست ساعات . ويكون النهر
هنا عدة جزائر تقوم على إحداها أطلال مدينة قديمة مبنية باللبن لها سور عال
من اللبن . وبعد أن سرنا سبع ساعات أصبح السهل وعراً تنتشر فيه مجموعات
من الصخور منمذلة لا تبدو غير أطراف قممها من فوق الرمال . وإلى الغرب
يوجد الشلال الثانى . وبعد مسيرة ثمانى ساعات وقفنا للمبيت في الصحراء إلى
جوار إحدى الجزائر التى كونها النهر . وكنا نسمع في جوف الليل خرير الماء
في الشلال على بعد نصف ساعة . والبقعة رائحة الجمال ، فإذا انحسرت مياه الفيضان
تخلفت البحيرات الصغيرة الكثيرة بين الصخور ، وبدت ضفافها المكسوة بأشجار
الطرفاء بدية المفطر وسط الصخور السوداء والخضراء . وتشغل هذه البحيرات
والبرك مساحة يزيد عرضها على ميلين . واصطدت بيندقيتى إوزة برية تناولنا منها
عشاءنا ، وكنا الآن ثلاثة ، أما ثالثنا ففتاة مسكينة من دروسة جرت خلفنا
وتوسلت إلينا أن نأخذها في رعايتنا إلى وادى مرشد وراء الشلال . ومن وادى
حلفا إلى سكوت برية صخرية تسكن فيها الجنادل في عرض النهر كما هي الحال

في أسوان ، وتشتمل الملاحه مسافة تبلغ مائة ميل . تسمى هذه البقعة الصخرية دار الحجر أو بطن الحجر .

٧ مارس — بعد أن سرنا ساعة التأم الروابي والآكام المبعثرة ، وتألفت منها سلسلة منخفضة من التلال ، والطريق بينها سهل رملي خالص . وبعد مسيرة ساعة ونصف بلغنا وادي عبكه . وفي بطن الحجر بقاع قليلة تصلح للزراعة ، ولكنها ليست إلا شريطاً ضيقاً جداً من الأرض يمتد إلى جوار النهر ، ولا تستطيع مياه الفيضان أن تدمره لارتفاع ضفتي النهر ارتفاعاً كبيراً ، لذلك لم يكن مندوحة عن رى الأرض بالسواقي . وهذه السمبول الضيقة — وتسمى الوديان هنا أيضاً — كانت تزكو فيها الزراعة من قبل . ويؤمن أكثر سكانها أنهم من أحفاد أشراف مكة ، وأنهم قدموا هذا الإقليم في فترة الغزوات التي شنتها القبائل العربية . ولهم زعيم يدعى عبد الله بن إمهيد ، وهو يقطن وادي عطار ، ويلقب « ملكا » تشريفاً له ، كما يلقب سائر رؤساء القبائل من هذا المكان فصاعداً . وهؤلاء الأشراف (وهم قبيلة أم شريف) يدفعون للملكهم خراجاً قليلاً . ويدين الملك بالتبعية للحكام النوبة الذين يسلمون بدورهم من مال هؤلاء العرب ما وصلت إليه أيديهم كلما اجتازوا بطن الحجر . على أن معظم الأشراف قد تزحوا الآن عن وطنهم بسبب الغارات التي لا يفتأ يشنها عليهم عرب الشايقية الذين ينزلون ضفاف النهر جنوبي دنقلة على مسيرة ثمانية أيام من سكوت عبر الصحراء ، والذين أوقعوا بالأشراف من الخسائر في هذه الغارات ما حمل معظمهم على الالتجاء إلى سكوت أو دنقلة . ولا يكاد الذكور في إقليم بطن الحجر بأمره يبلغون أكثر من مائتين عدداً ، نصفهم من الأشراف ونصفهم من قبيلة القراريش البدوية . ولا يزال بعض العرب مقيمين في عبكه ، وهناك قرية صغيرة شيدت على جزيرة صخرية ، حيث أطلال برج كبير من الآجر ، ومنها يعبر العرب فرع النهر كل صباح على جندع نخلة مستخدمين أيديهم بنحاذيف ليزرعوا حقولهم الممتدة على الشاطئ ، ثم يعودون في المساء بنفس الطريقة . وكما امتد الطريق رأيت الصخور والجزائر تملأ النهر ، وبدأت الأرض برية وعرة .

ولم أر شيئاً لبطن الحجر ووديانه إلا الطريق المحاذى للنيل من أسوان إلى الشلال الأول ، فالساحل الصخري الذى إمتاز به هذا الطريق ، وما تنأثر عليه هنا وهناك من شريط الأرض الزراعية الضيق ، تجده بعينه على طول بطن الحجر ، من وادى حلفا إلى سكوت .

وعلى مسيرة ساعتين ونصف يقع وادى مرشد . وتفصل الوديان المناطق الصخرية التى تكثف النهر . وفى وادى مرشد يعود ظهور الجزائر العديدة فى النهر ، وعلى جزيرتين منها خرائب من اللبن ، وبرج قديم ، وأكواخ قليلة للعرب . وكان طريقنا من وادى حلفا إلى مرشد يتجه غرب الجنوب الغربى . والنهر بعد مرشد يخلو من الجزائر ، وتقل فيه الصخور ، ولكن مجراه يخفق ، وشطآنه ترتفع . ورمت حجراً فوصل إلى الضفة المقابلة . وبعد أربع ساعات ونصف بلغنا ست الحاجة ، وهى بقعة من الأرض صالحة للزراعة تكثفها الصخور وفيها مساكن قديمة من اللبن . ولا يسكنها غير أعرابى عجوز يقيم فى كوخ بنى على ضريح الشیخة المدعوة ست الحاجة ، ويعيش على صدقة المسافرين . وقد وجدته ممدداً على حصير وإلى جواره قلة ماء وإناء من الخرف ألقیت فيه حفنات من التمر . والنهر جنوب هذه المنطقة كثير المنطفات . وترتفع التلال القائمة على الضفة الشرقية ارتفاعاً مطرداً ، حتى إذا بلغنا وادى سرس بعد ثمانى ساعات ونصف عادت فأصبحت سلسلة منتظمة من الجبال ، وعليها يمتد الطريق من وادى ست الحاجة . وقد أسرع بى دليلى الأعرابى الشيخ واستحثنى فى السير خشية أن يهاجمنا اللصوص من عرب الشايقية الذين لا يفتأون يمحسون الأرض ليسكنوا للمسافرين فى طريقهم . ولم نصادف فى الطريق إلا شرادم من الحجاج السودانين ، أو التسكرانه (واحد هم تکرورى) ، لا تزيد الجماعة منهم على خمسة أشخاص أو ستة . وهؤلاء الحجاج البواسل يقصدون دارفور من جميع أنحاء السودان [الغربى] ومنها يسبرون إما بطريق كردفان إلى سنار ، وإما رأساً إلى دنقلة . ومن النيل يسلك بعضهم طريق سواكن ويمبرون البحر الأحمر إلى جدة ، ويتبع بعضهم طريق النيل مخترقين دنقلة والمحس ، ويؤذون فريضة الحج مع الحجاج

المصريين بعد أن يقيموا حيناً بالأزهر الشريف يتلون القرآن ويقرءون الكتب الدينية . وقد علمت بعد التجري أن معظم هؤلاء الحجاج من أهالي دارفور وبقو . ولم أجسد من نيف وأربعين حاجاً تحدث إليهم بأسنا واحداً قدم من كاتسينا [في نيجيريا] في أقصى الغرب ، ولكنني وجدت منهم نفرأ قدموا من ونقارة . ولعل لفظ « تكروري » الذي يطلق على الواحد منهم نسبة إلى إقليم تكروور في السودان . ويعرف الذين يقرءون ويكتبون بينهم « بالفقراء » ، وهو لفظ يطلق بصعيد مصر على العلماء كافة ، ويقصد به حفظ القرآن ، ممن يعرفون كتابة الأحراز والتمائم التي تبطل السحر وعمل الشيطان .

وبعد تسع ساعات ونصف وقفنا بالجرس الجنوبي لوادي سرس ، عند كوخ لبعض عرب القراريش ، وكانوا يقومون هم وأسرة من الأشراف على زراعة حقول قليلة من القطن والفل . فقدموا لنا عشاء من اللبن ، وأكدوا لنا أنهم لا يملكون خبزاً ؛ بل إنهم لم يذوقوا طعمه من شهرين . فوزعت عليهم مكياً من الذرة ، مشروطاً ألا يقايضوا عليه بشيء آخر ، بل يصنعوا منه خبزاً لهم ولنسائهم ، فقلنا ينعم النساء بهذا الترف الذي يكاد يختص به الرجال من أزواج وإخوة . وما لبثت النسوة إثر هذه النفحة أن انطلقن جميعاً بطحن الذرة بين حجرين من الجرانيت ، إذ لا يملك الرحي التي تدار باليد والتي يستعملها بدو جزيرة العرب غير سراة القوم . ثم صنعن خبزاً كثيراً ، وظلت الفتيات يأكلن ويفخين طوال الليل ، وكثيراً ما كن يشاركننا حديثنا وسمرنا ، لأنه لم يكن يفصلهن عنا غير حاجز من أغصان الطرفاء . وغذاء القوم أوراق الفول وبذور الكركدان السوداء ، وهي في حجم بذور الكزبرة . وينمو الكركدان برياً في بطن الحجر ، ويزرع في أنحاء من شمال النوبة . ويصنعون من بذوره المحمص نوعاً من القهوة لا بأس بطعمه ، ولكن العرب يؤثرون أن يصنعوا هذه البذور خبزاً . كذلك تنتشر هنا السمكة ، وهي شجيرة قرنية تصالح غذاء طيباً للإبل ، وتثمرها فروع كالبازلاء تحوى حبوباً وردية مسندرة قد تؤكل خضراء ، ويجمعها العرب ويجففونها ، ثم يفلونها جيداً ليستخلصوا منها زيتاً يستعملونه بدل الزبد دهاناً لشمورهم وأجسامهم .

وأشراف بطن الحجر شديدو السمرة ، وقمماتهم جميلة وأجسامهم بديعة .
ويمشى رجالهم ونساقهم عراة ، ولكن النسوة يلبسن ثماث من الجلد حول أعناقهن ،
ودمالج وأسوار من نحاس وحلقائاً من فضة ، وبشكلم معظم القوم قليلا من
العربية . .

٨ مارس — ارتقينا من سرس جبلا عاليا . وتغير طبيعة الصخر هنا ،
وقد كان حجراً رملياً حتى وادى حلفا ، فأصبح العنصر الغالب عليه الآن هو
الحصى الأثهب grauwacke والحجر الأخضر grunstein . وتنتشر هذه
الصخور الأولية في كل أنحاء بطن الحجر . وفي الجبل الواقع خلف سرس
صخور جرانيتية وصخور هائلة من المرو (السكوارتز) ، كذلك نجد طبقات من
المرو تمتاز الصخور الخضراء في كل مكان . وعلى ثلاث ساعات أو أربع إلى
الشرق من طريقنا تمتد سلسلة عالية من الجبال عمادية لجرى النهر ، ويطلق عليها
اسم جبل بلنكو وهي غير مأهولة . وتهطل عليها أمطار الشتاء بانتظام ، وتظل المياه في
الشقوق والأغوار طوال الصيف . وبعد ساعتين ونصف بلغنا سهلاً على قمة الجبل يدعى عقبة
البنات . وفي هذه البقعة ابتكر الخبراء العرب طريقة فذة يبتزون بها عطاء صغيراً من
المسافرين الذين يصحبونهم في هذه الجبال ، ذلك أنهم يترجلون في أماكن معلومة
في عقبة البنات يسمونها قبضة أو مقبضة ، ويسألون المسافر عطاء ، فإن أبى جمعوا
كومة من الرمل وشكلوها على هيئة قبر صغير ، ووضعوا عند كل طرف من
طرفيه حجراً ، ثم قالوا للمسافر إن قبره قد أعد ، وهم يمتنون بذلك أنه لن يكون بمد
اليوم في مأمن أثناء سفره في هذه المقاعة الصخرية . ويؤثر معظم المسافرين دفع
مبلغ تافه عن أن يروا قبورهم تهمد لهم أمام أعينهم ، ومع ذلك فقد رأيت قبوراً
بهذا الوصف مبثرة في السهل . ولما كنت راضياً عن دليلي ، فقد نفحته بقرش
قنع به وسكت . والصخور الرئيسية على السفح الجنوبي لعقبة البنات من الشست
الميسكي والسكوديت ، ويصادف المرء عند قاع الجبل ناحية وادي أتيري صخوراً
من الحجر السماقي البديع . ولم أر غير أنواع قليلة من السماقي الأخضر تتخللها

الوحد حرء من الفلستار ، ومظم السماق أحر أو مغلط بالشت ، وقد احتفظت بنادج من هذه الصخور كلها . وبعد سرس أنجه طررقنا جنوب الجنوب الغربى وبلغنا وادى أتىرى بمد أربع ساعات ونصف ، وهو أهم قرى بطن الحجر . وهنا تعود الجزائر تنتشر فى النهر ، وعليها خرائب مساكن قديمة من الطوب وأبراج عتيقة . ويبدو أن ضفاف النهر لم تكن مأمونة حتى فى المصور القديمة ، فإننى لم أصادف أى مساكن خربة على الضفة الشرقية لبطن الحجر . ويلوح أن السكان القدامى قد آثروا الجزائر وحدها مسكناً . وهناك جندل آخر فى النهر عند وادى أتىرى ومثله بين هذا الوادى وبين سرس مقابل سمته ، على الضفة الغربية . وواصلنا سيرنا أكثر من ساعة فى وادى أتىرى ، وينمو بعض النخيل فى هذه الوديان ، ولكن أشجار الدوم أكثر انتشاراً . وبعد خمس ساعات يبدأ ممر وعري يخترق الجبل ، ويدعى عقبه جبل روستة . وقد استمتعت من قته بمنظر بديع لجبرى النهر فى الجنوب ، ولكن شطآنه الخضراء الضيقة تكاد تغل فى هذه الغياق الصخرية الشاسعة التى تحمل العين صخورها الجرداء المقفرة فتلتبس مياه النهر الزرقاء ، ولكنها لا تجدها إلا بعد عناء لأن مجرى النهر كثيراً ما تخفيه الجزائر فلا يبدو منه إلا بعضه . وبعد سبع ساعات هبطنا من الجبل إلى وادى أمبقول . وبعد ثمانى ساعات صادفنا جندل يجرى عندها النهر فى غير هوادة قافراً فوق الصخور دافماً مياهه الرفعية المزبدة مثات الأقدام . على أنك إن تجد فى هذه الجهة ما يمكن أن تسميه شلالاً بمعنى الكلمة . وكل هذه الجندال شبيهة بجندال أسوان ، ولكن الصخور تخنق النهر هنا أكثر مما تخنقه فى أسوان . وهو يجرى مجراه كله فى بطن الحجر بسرعة فائقة تعتمد معها الملاحه . وبعد تسع ساعات وقفنا بكوخ من أكواخ عرب أم شريف .

٩ مارس - تقوم جبال عالية إلى الشرق من أمبقول ، وإلى الجنوب منها تنخفض السلسلة الشرقية . ويبدو أن جبال أمبقول هى أعلى قم بطن الحجر قاطبة . وكان طررقنا يلتزم ضفة النهر تارة ، ويخترق الصخور تارة أخرى . ولم أر فى هذا

الإقليم الوعر أى أثر لدرب قديم . وبعد ثلاث ساعات بلغنا وادى أمم قناصر حيث يوجد برج حراسة صغير من الحجر قائم على تل . ومن هنا سرنا فى طريق جبل حتى وادى لاموله فبلغناه بعد خمس ساعات . ويمتد النهر هنا بمض الجنادل والجزائر الصخرية ، وقد رأيت عليها التماسيح تصطلى فى الشمس . وبعد خمس ساعات ونصف ارتقينا الجبل ، وبعد ست بلغنا قمة عالية تدعى جبل لاموله تقابلها قمة مثلها على الجانب الغربى . وفى قاع هذا التل يكرر العرب عادتهم التى أشرت إليها آنفاً ، وهى حفرهم قبر المسافر . ولما لم أكن أدري كم من المرات قد يتدفع دليلي بهذه الحيلة ليطالبني بمطاء جديد ، فقد أبيت أن أنفجه شيئاً حين طلب ، وما إن بدأ يحفر الرمل على هيئة قبر حتى ترجلت عن بعيري ، وصنعت قبراً نظيره ، وقلت له إن هذا قبره ، فإن من الإنصاف أن ندفن فى صعيد واحد مادمننا أخوين . فأخذ يضحك ، ثم هدم كلانا ما صنع صاحبه ، وركبنا بعيرينا وهو يتلو الآية السكرية « وما تدري نفس بأى أرض تموت » . وبعد سبع ساعات بلغنا سهلاً رملياً فى الجبل المسمى زورسك ، وسنك واد واقع أسفل هذا الجبل . ولما كان الطريق المؤدى لبلاد الشايقية يتفرع هنا ، كانت هذه البقعة مطروقة أكثر من سواها فى هذا الإقليم الصخرى ، واشتهرت بالسرقات الكثيرة التى يرتكبها هؤلاء العرب ، وقد أرانى دليلي المكان الذى قتل فيه ابن عمه وهو إلى جواره فى عراق مع عرب الشايقية ، ثم هرول بي حثيثاً فوق السهل . وبطن الحجر كله إقليم خطر على المسافر وحده ، ولكن التوفيق حالفنى فلم يصادفنى قاطع طريق . ويستطيع الأوربي الذى يبنى السفر إلى هذا المكان أن يحصل فى الدر على أى عدد من الخبراء يرافقونه ، على أن يرتب ذلك مع الحكام النوبيين قبل خروجه فى الرحلة .

وخرجنا من الجبال بعد ثمانى ساعات ونصف ، وعبرنا سهلاً منحدراً فوصلنا إلى ضفة النهر بعد انقضاء تسع ساعات ونصف . وهنا تنفرج الأرض ، وتستمر السلسلة الشرقية على مياين من النهر . وبعد عشر ساعات ونصف توقفنا للمبيت

في حرج كثيف من الطرفاء تجاه جزيرة مستطيلة تقوم عليها خرائب وبرج من الطوب . وعلى الضفة الشرقية أطلال قرية صغيرة ، اسمها وادي أكمة . وهنا تبدأ أملاك حاكم سكوت ، وإن يكن الوادي يمد تابعا لبطن الحجر . وبجانب البقعة التي بتنا فيها ضريح وليّ هو الشيخ عكاشة ، وله عند النوبيين منزلة كبيرة . وقد انتشرت داخل سور الضريح وحوله هبات من الأواني الخزفية والحجر وقطع القماش الصغيرة . وأهل سكوت يحجون كثيراً إلى هذا الضريح ، ولم يسمح لي دليلي بأن أضرم ناراً برغم البرد القارس ليلاً ، وذلك لشدة خوفه من عرب الشايقية .

١٠ مارس — بعد أن ركبنا ساعتين فوق تلال منخفضة متجهين جنوب الجنوب الغربي وصلنا مقابل جزيرة كواب ، وهي الطرف الشمالي لسكوت ، ومقر حاكم الإقليم (*) وتستغرق الجزيرة مسيرة ساعة طويلاً ، وتكتنف الشاطئ على الجانبين جلاميد هائلة من الجرانيت الأشهب . وهنا تبدأ بعض الزراعة المنتظمة ، وكنت أحمل خطاب توصية من حسن كاشف إلى الحاكم ، وهو شيخ يدعى داود كرايمت بصلة القرى البعيدة إلى حكام النوبة الثلاثة الذين يحكم إقليمه تحت إمرتهم . ولما كنت أرغب في زيارته للحصول منه على معلومات عن الحالة في الجنوب فقد تركت دليلي يلاحظ البعيرين ، وهبرت النهر على رمث أو طوف مع بعض العرب الذين وجدناهم حيث ترجلنا . ويتألف هذا النوع من « المعديّة » من أربع سيقان من النخيل مربوط بعضها إلى بعض رباطاً غير محكم ، ويسير بجذاف طوله نحو أربع أقدام لطرفه الأعلى شكل الشوكة ، وقد شد إلى الرمث بحبال من الليف ، وبشبه الرمث كل الشبه تلك الأطواف المنقوشة على جدران المعابد المصرية . والذين يطمثون إلى ركوب هذه الناقلات الواهية لا بد أن يكونوا على دراية بالسباحة . فهؤلاء القوم لا يستعملون المجاذيف الصغيرة العادية ، بل بجذافاً واحداً من النسوع المذكور الرمث ، يجذفون به ، واجهين الريح تارة

(*) ليس هناك قرية باسم سكوت ، إنما هذا اسم الإقليم .

ومتقيها تارة أخرى بحيث لا يتجه الزمّت تجاه الشاطئ رأساً . وقابلني الحاكم الشيخ في برود ، ثم قال لي « ليس الجنوب بالإقليم الذى يسلكه مثلك فى غير قافلة » وسألته أن يزودنى بخطاب توصية لولده ، وكان يحكم جنوب سكوت ، فأمر كاتبه(*) أن يخط بضمة سطور على طرف خطاب قديم ، وهو ما تيسر من ورق . . وقد سألنى عن مهمتى مراراً فأجبت بأننى أحمل خطابات من إسنا لولدى كاشف بالحس . وبعد أن بقيت معه ساعة من الزمان انصرفت وعبرت النهر عائداً أدراجى واستأنفت رحلتى . وكنا نركب فوق أرض جبلية عاد فيها الحجر الرملى يظهر بين الحصى الأشهب والفلسبار . حتى إذا سرنا ساعتين ونصفاً من كولب بلغنا وادى وال الذى يمكن أن نعدّه الطرف الجنوبى لبطن الحجر . وعند دال تقطع النهر جلاميد ضخمة من الجرانيت فتأخذ عليه مجراه فى غير نظام ، وينشأ عنها جنادل يرغى الماء عندها ويزيد ، ويتكون فيها عدة جزائر صخرية يقوم على إحداها بناء كبير متهدم من الآجر . وهنا انفرجت الأرض أمامنا فسرنا نصف ساعة على شاطئ تربته صالحة للزراعة ، يزخر بنخيل تقوم فى وسطه مدينة خربة تدعى الداية . وبعد أن سرنا ساعة أخرى على السهل ملتزمين النهر بلغنا قرية سركاماتو وفيها قضينا الليل . ويحب أهالى سركاماتو الملح الصخرى من [واحة] سليمة التى تبعد يومين ونصفاً فى الصحراء الغربية ، وهى محطة لقافلة دارفور فى طريقها لأسىوط . وكلما مرت القافلة بسليمة خف إليها النوبيون ليبيعوا المسافرين التمر وغيره من الزاد . ويوجد الملح الصخرى أيضاً فى كل أجزاء الجبل الشرقى جنوب فنا ، ويجمعه فلاحو مصر والنوبة ؛ ولكن مذاقة كربه لأن فيه حلاوة تمتزج بالمرارة .

(*) يتعلم النوبيون القلائل الملون بالكتابة والذين يعملون كتاباً للحكام على يد فقراء الدامر ، جنوبى القوز [بربر] الواردة فى خريطة بروس ، وهؤلاء كلهم علماء يختلفون إلى القاهرة كما ذكرت ليجاوروا فى الأزهر ، وفى طريقهم إلى مصر ينزلون على بيوت ذوى اليسار من الأهالى ، ويعلمون أبناءهم القراءة والكتابة . كذلك يوفد كثير من أبناء سكوت والحس لمدرسة عرب الشايقية حيث يطلون عشر سنين أو يزيد يأكلون ويتلقون العلم مجاناً على يد علماء هذه القبيلة

١١ مارس — اتجه طريقنا من الدابة جنوباً بغرباً، وكنا نلغزم ضفة النهر ،
ويبلغ عرض السهل هنا نحو الميلىن ، ولكنه فى معظم أنحاءه مقفر . ولا يزال
النهر غاصاً بالجزائر المنخفضة والصخور . وبعد ساعة ونصف بلغنا مجموعة من
النبوع تسمى فركة . وفى السهل كيان من التراب لا شك فى أنها من
صنع الإنسان كمنظارتها التى رأيتها عند قسطل . ويقم ابن حاكم سكوت ،
الذى كنت أحمل إليه خطاب التوصية ، على جزيرة عند فركة . ووقفنا تجاه
الجزيرة ليرعى بعيرانا أغصان الطرء . ولما كان حسن كاشف قد أندرني بأن هذا
المكان يجب أن يكون نهاية رحلتى فى الجنوب ، وأنه أفصح ما يسمح فيه للخبير
بمراقبتي ، فقد أصر الخبير على أن يصعد بأمر سيده . على أن وعداً منى بأن
أنفحه بقرشين ، وبغلاية من الصوف تساوى قرشين آخرين ، كان كافياً لجله على
مخالفة أمره ، فرضى أن يصحبني للحس قائلًا « إن لامننى حسن كاشف
فسأخبره بأنك أصررت على المضى فى طريقك برغم تحذيراتى ، وبأننى لم أدم
المروءة أن أتركك تسير وحدك » . وكانت خطتى أن أصل إلى تينارى أهم بلد
فى الحس ، ومنها أعبر إلى ضفة النهر الغربية ، لأننى علمت أن لولدى كاشف
النازلين هناك مركباً تحت تصرفهما . وكنت أنوى فى رجوعى أن أزور صاى
وكل الأطلال الموجودة على الضفة الغربية .

ولما لم يكن لى بما كى فركة حاجة ، فإننى لم أعرج عليه . ولكن الرجل
رآنا راكبين فعدا خلفنا على فرسه مع أحد عبده ليسألنا من نحن ، وأصر على
أن نعود معه لبيته . والامتنال فى مثل هذه الحالة أجدى من المقاومة التى لا طائل
تحتها . لذلك عبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النهر حتى بلغنا الجزيرة ، وهناك
وجدنا أهل القرى المجاورة مجتمعين فى بيت الحاكم ليصيبوا حظهم من لحم بقرة
ذبحت على روح الميت الذى دعينا لنا كل فى مأتمه فى أدندان . وكان مع النسوة
طبل صغير ، أنشدن على دقانه ورقصن إشادة بذكرى الميت . وكان مضيفنا
يتلف على سبب بعيرى ، ولولا خطاب أبيه لافعل ، ولأعطاني بدلها بعيرين
هزيلين . وقد اعتذرت له عن ركوبى رأساً دون أن أمر عليه بقولى إننى ظننته

يسكن في أقصى الجنوب . وألح علينا في البقاء عنده الليل كله ، ولما كنت أعلم أنه لا يرعى من وراء ذلك إلا لابتزاز هدية مني ، فقد نفجته بقطعة صابون كبيرة ، فسمح لنا بالرحيل . والطريق إلى صاى يتجه غرباً بجنوب ، وبعد ساعتين بلغنا عكركة ، وبعد أربع ساعات كنيسة . ولا يزرع من السهل هنا إلا أقله ، وتسكن السنامكى الجيدة ، ولكنها لا تبلغ جودة السنا التى تنمو في الجبل الشرقى . ويجمعها عرب القراريش كلما اشتد عليها الطلب في إسنا^(١) . وحدود النهر الغربية رملية مقفرة . وبعد خمس ساعات وصلنا السبخى مجردة وهو نبع مبنى حول ضريح ولى . وفي هذا المكان كثيره من بلاد النوبة يحد المسافر الظمان ، على مسافات متقاربة ، أزياراً من الماء على جانب الطريق تحت سقيفة منخفضة ، وتدفع كل قرية راتباً شهرياً صغيراً لشخص يملأ هذه الأزيار صباح ومساء . وهى شائعة في صعيد مصر ، ولكن على نطاق واسع ، وكثيراً ما يحد المرء إلى جوار البئر خاناً صغيراً يزود المسافرين بالماء^(٢) . وبعد خمس ساعات ونصف بلغنا عمارة وهى نهاية إقليم سلكوت ، ويبدأ جنوبها إقليم صاى .

وفي سهل عمارة أطلال معبد مصرى جميل ، تخلفت منه أبدان أعمدة ستة كبيرة من أعمدة البهو مصنوعة من الحجر الجيرى ، وهى الوحيدة التى رأيتها من نوعها ، فكل المعابد المصرية هنا مبنى بالحجر الرملى . ونقوش هذه الأعمدة تقليد لنقوش فيلة ، وصناعتها متوسطة الجودة ، ولكنها أفضل كثيراً من

(١) يحتكر السيوروزنى تجارة السنامكى منذ سنوات كثيرة ، وله في إسنا وأسوان عملاء . ولما كان محمد على قد أجر بالالتزام كل السلع التجارية تقريباً ، الأجنبية منها والوطنية ، فقد دفع السيوروزنى عن احتكاره السنامكى ١٥٠ كياً فى السنة ، أعنى نحو ٣٥٠٠ جنيه (انجليزى) .

(٢) ذكرت أن مياه الآبار فى الصعيد من أردأ أنواع المياه مع أن الآبار محفورة قرب النهر ، وهو الذى يعمدها من غير شك بالماء الذى يتسرب فى جوف الأرض بعد الفيضان ويتجمع على عمق يتراوح بين عشرين قدماً وثلاثين .

نقوش معبد الدر ، ويتكرر عليها رسم أبي منجل ، وفوق كل طائفة من الرسوم لوحة مربعة فارغة يبدو أنها أعدت للنقش عليها . ومثل هذه اللوحة يراه الزائر لمعابد الدكة وكلايشة وفيلة ، ولكنه لا يرى في المعابد الموجودة شمال فيلة . والأعمدة خلو من تيجانها ، ولم يتخلف من المعبد سوى تلال من الأنقاض ، باستثناء أسفل الجدران ، وأسسها الحجرية التي ترتكز على قواعد من اللبن . وأمل الجدران كانت مشيدة بمداميك متعاقبة من الطوب والحجر . وحول المعبد سور سميك من اللبن على قرابة خمسين ياردة من الأعمدة . وي لوح أن المعبد شيد في بدء انحطاط العمارة المصرية . أما أروع نماذج هذه العمارة ففي فيلة والدكة . وينفرج من عمارة سهل فسيح ، إذ تلتف سلسلة الجبال الشرقية مكونة دائرة عريضة . أما الجبال الغربية فتنتهي . وعرض الأرض الصالحة للزراعة على الضفة الشرقية ميل ونصف تقريباً ، وتقوم بينها وبين الجبل مفازة جرداء تكسوها شظايا من الحصى والظران شبيهة بمفازة السويس : وهنا تكثر منطقات النهر . وبعد سبع ساعات بلغنا عمري ، وقضينا ليلتنا في بيت إحدى زوجات أخى حسن كاشف . ولأمراء النوبة زوجات عديدات موزعات في كل أملاكهم ليجدوا راحتهم حيث نزلوا أثناء طوافهم وأسفارهم التي لا تنتهي . فلحسن كاشف هذا نحو عشرين زوجة ، لكل منهن بيتها الخاص . وقد وجدنا في الفناء الداخلى لبيت هذه السيدة التي أقنأ بها بئراً وساقية تديرها الأبقار لرى الحقول المجاورة . وهذه السواقي يجدها المرء أنى سار هنا ، بيد أنى لم أر ساقية غير هذه داخل جدران البيت . وكان بعيرانا يسيران طيلة يومنا سيراً خفيفاً .

١٢ مارس — كان طريقنا يجتاز سهلاً من صخور الكوارتز ، ويتجه جنوباً بشرق . وبعد ساعة بلغنا تلالاً عالياً يقوم بمنزل في السهل ، واسمه جبل العموقى ، وهنا تبدأ جزيرة صاى . وبعد ساعة ورعب رأيت حصن صاى قائماً على الجزيرة ملاصقاً للماء ، وهو مبنى بمداميك متعاقبة من الحجر واللبن ، وله أسوار عالية . وقد انتزع المالك ما كان فيه من مدافع قليلة . ولصاى وأقليمها حاكم أو أغا مستقل عن أمراء النوبة ، شأنها في ذلك شأن إبريم وأسوان ، فقد احتلتها

كما احتلت هاتين المدينتين حامية من المسكر البشناق أرسلها السلطان سليم، ومازال أحفادهم أحياء . والجزيرة غنية بالزرع على ساحلها الشرقى . حيث يجرى فرع النيل الرئيسى ، أما ساحلها الغربى فقد لاح أجرد ، مقفرا . ويبلغ عرضها ميلين ، وفى وسطها تل عال أو جبل . وفى جانبها الغربى مغاضة يعبر منها النهر فى هذا الفصل . وكان فى نيتى أن أعبره عند رجوعى من المحس لأرتاد الجزيرة ، ولكننى منيت بالفشل كما سيزى القارىء . ذلك أنه لا يوجد بالجزيرة رمت أو معدية ، وإذا اضطر النوبيون للمبور إلى ضفة النهر سبحوها إليها رابطين على رؤوسهم مزاريقهم أو حراهم . على أن عندى ما يحملنى على الظن بأنه ليس بجزيرة صاى آثار من أى نوع خلا هذا الحصن الذى ذكرت ، ولعله رجع إلى نفس العهد الذى شيد فيه حصن إبريم .

وبعد ساعتين ونصف من عبْرِى يتجه الطريق جنوبا بغرب ملتزماً النهر تجاه صاى ويحف بالشاطىء حرج كثيف من النخيل . وبعد ثلاث ساعات بلغنا قوس . وتنطى السهل هنا قبور الأولياء النوبيين . وبعد أربع ساعات بلغنا وادى حميدة (*) ويقع أمامه الطرف الجنوبى لجزيرة صاى . ولوادى حميدة ملك من قبيلة حميدة العربية ، وهو تابع لأمرأء النوبة . وعلى الضفة الشرقية للنهر رصيف كبير صنع من قطع ضخمة من الحجر الرملى كوّم بمضها فوق بمض بغير نظام . وعلى الجانبين مساكن كثيرة وأحراج من النخيل . ويخيل إلى أن وادى حميدة أكثر عمراناً من أى بقعة صادقتها جنوبى إبريم . وبلح سكوت وصاى يفضل البلح الإبريمى ، بل يفضل كل أنواع البلح الذى ينمو على ضفاف النيل من سنّار إلى الاسكندرية شمالا ، وهو كبير الحجم إذ يبلغ طول البالحة منه عادة ثلاث بوصات . ولا يصل من هذا البلح إلى شمال النوبة إلا القليل الذى يرسل على سبيل الهدية ، لأن السفن لا تستطيع أن تمخر النيل فى بطن الحجر إلى الشمال . يباع هذا القليل لمرب الشايقية الذين يأتون هنا فى قوافل كبيرة ويقايضون عليه بالذرة (بواقع كيل من الذرة لقاء

(*) فى الجبال الواقعة إلى الشرق من البحر الميت يدو يسمون بى حميدة .

(م ٤ — رحلات بوركهارت)

كيل من الملح) ، وبالسمن والدرق المصنوعة من جلود أفراس النهر ، ولها هند النوبيين قيمة كبيرة . وليس في إقليم الشاقية إلا تحييل قليل ردى النوع . وبعد خمس ساعات بلغنا وادى عبور ، ويقوم تجاهه على السهل الشرقى تل عال منعزل . وهنا يتجه النهر للجنوب الشرقى بانحراف للجنوب ، ويستمر سهل الرمال والمرو ، ويمد الجبل الشرقى على النهر مسافة تتراوح بين اثني عشر ميلا وخمسة عشر . وبعد ست ساعات بلغنا إرو ، وكثير من بيوتها مهجور ، والزراعة فيها قليلة ضئيلة ، وهي الحد الجنوبي لإقليم صاي . ولغظ صاي وإن كان علما على الجزيرة ، إلا أنه يطلق عادة على كل الإقليم الواقع ما بين سكوت والمحس . ومن هنا تبدأ دار المحس جنوبا . ويتجه الطريق الآن جنوبا غرب . وفي الغرب تألف التلال المنخفضة فتكون سلسلة أخرى تعلو كلما سرنا جنوبا . وبعد سبع ساعات بلغنا إسمه ، وبعد ثمان ونصف بلغنا الواوى ، وهي قرية كبيرة ينمطف النهر عندها غربا . وعبرنا السهل من أقصر طرقه . وبعد تسع ساعات ونصف وقفنا عند أكواخ لعرب القراريش لتقضى الليل . وقد انشرفت صدورهم حين وزعت بعض الذرة عليهم ، وجنا إلى جوارى رجالان منهم وبدءا « تسكيس » جسمى وساقى وذراعى ، على نحو ما يفعلون فى الحمام التركى ، ليمرنا عن شكرهما . وعملية التسكيس هذه تعيد إلى الدم دورته فى جسم المسافر الذى يكاد يشل حركته طول الركوب ، وتمنحه النوم الهادى المريح بعد ما عانى من وعناء السفر .

١٣ مارس — تحدى الجبال الشرقية مرة أخرى بالنهر ، وقوامها هنا الصخور النارية الخضراء كما هى الحال عند الشلال الثانى . وقد التزمنا السهل الساحلى الضيق متجهين شرقا ، ومررنا بعدة قرى من إقليم المحس . ولا تصنع الأكواخ إلا من الحصر المجدولة من سعف النخل ، والشدودة إلى أعمدة عالية ترتفع أطرافها فوق السقف . ووجوه الأهالى لا تنم عن الطيبة التى تجدها فى وجوه النوبيين ، ولونهم أسود خالص ، وشفاهم أشبه بنساء الزنج ، بعكس أنوفهم وعظام وجناتهم . وكثير من رجالهم عراة بل إننى رأيت من أصبايا من

لا يستر عوراتهن شيء . ولا شك أن اللغة النبوية هنا قد أقصت العربية التي لم يعد يفتقها أحد من الفلاحين .

ورأيت وأنا أدنو من معسكر الأميرين الفويين عدة قرى مهجورة ، آثر أهلها ترك حقول القطن التي زرعوها ، وما يرجون من محصولها ، على الرضوخ لطفينان أتباع هؤلاء الحكام الذين رأيت جيادهم وإبلهم ترعى حقول الشعير ، والذين انتزعوا الحصر من البيوت المهجورة وحملوها إلى المعسكر لتستعمل وقوداً . وبعد أربع ساعات بلغنا معسكر محمد كاشف تجاه وادي تيناري ، وهو مجموعة من الفجوع تقوم حول حصن تيناري المبني بالطوب ، وهو أهم بقعة في المحس . وكان هذا منتهى رحلتي في الجنوب ، وكنت قد أوصيت دليلي أن يتوخى الحذر في الجواب عن أسئلة محمد كاشف ، فإذا سئل في أمرى فليجب بأن حسن كاشف قد أمره بمراقبتي ، ولكنه لا يعلم عن مهمتي شيئاً . وهو قول حق ، لأنني لم أتح له قط رؤيتي أدون مذكراتي في أثناء رحلتي .

كان الأخوان حسين ومحمد كاشف قد قدما المحس ليحاصرا حصن تيناري الذي استولى عليه ثائر من بني عجمية ملك المحس . ولما كان الملك حيا حسين كاشف فقد وجبت نجدة علي حسين ، فذهب في نحو ستين من رجاله . ووجدتهم جميعاً معسكرين في أكوأهم على ضفة النهر الغربية تحت أسوار الحصن ، بينما احتل أخوه محمد الضفة الشرقية بعدد مماثل من الرجال . وكان الأخوان يحاصران الحصن من أسابيع ، وقد طلبا من الحامية التسليم غير مرة فأبى رجالها مع أنهم لم يعدوا الخمسة عشر رجلاً . وأخيراً فكروا في قطع الماء عنهم ، فأرسلوا في طلب زورق من أرقو ، ووقف الزورق على ضفة النهر تحت الحصن مباشرة ، وعلى ظهره رجال مسلحون بالبنادق يحميهم من نيران الحامية غطاء صفيق من جذوع النخيل التي صفت على ظهر الزورق . واستطاع هؤلاء الرجال بينادقهم أن يمتنعوا المحاصرين من استقاء الماء من النهر ، فاضطرت الحامية إلى طلب الصلح . وتمهد لهم بمحاصروهم بالعفو وسلامة الإياب ، وسلم الحصن في الليلة السابقة لوصولي .

ولما وصلت معسكر محمد كاشف لم أخذه لأنه كان مشغولاً مع أخيه بتسلم الحصن . والتف قومه بي وبالخبير يسألونني فيم قدمت بلادهم ، ظانين أنني من حاشية المملوكين الذين علموا بوصولها إلى الدر . وبعد قليل أقبل محمد بحاشيته من الضفة الأخرى ، فمضيت إليه فوراً لأحييه . وكانت أمه جارية من أهل دارفور ، فكانت لوجهه قسبات السودانيين ، ولكنه خلا تماماً من هذه الرقة التي تتسم بها وجوه الزنج ، بل قرأت في سحنته الشراسه وحدة الطبع . ودحرج عينيه وهو ينظر ناحيتي نظرة مجنون ، ولم يكن يقوى على الوقوف على قدميه لفرط ما تعاطى في الحصن من عرقى البلح . واجتمع قومه داخل خصه المفتوح ومن حوله ، وكذلك وفد عليه الثوار المهزومون ، وحيء بقربتين كبيرتين من العرقى وقدم الشراب للحاضرين في أكواب صغيرة مصنوعة من القرع صنماً متقناً . وكان منهم قلة تتكلم العربية ، أما كاشف فلم يكذبين . على أنه ظهر لي بخلاء أنني كنت محور حديثهم . ولم يكن كاشف في سكره قد سألني بعد من أنا وما مهنتي . وبعد نصف ساعة كان الجميع قد ثملوا بالخمير ، ثم جرى بالبنادق وأطلقت الأعيرة النارية في الكوخ ابتهاجاً بالنصر . وأعترف أنني في هذه اللحظة ندمت على مجيئي للمعسكر ، فقد كان من السهل أن تسدد إليّ إحدى هذه البنادق أو تصيبني منها رصاصة طائشة . وقد حاولت النهوض للانصراف غير مرة ، ولكن كاشف كان يحتجزني وهو يلح علي في الشراب حتى أثمل معه . غير أنني لم أصب من الشراب إلا أقله ، فما كان أحوجني الآن إلى الصحو . وما انتصف النهار حتى كان جميع من بالمعسكر يغطون في سبات عميق . وبعد ساعات كان كاشف في حال من الصحو تمكنه من التحدث إليّ وهو مالك زمام نفسه ، فأخبرته أنني جئت النوبة لأزور حصني إبراهيم وصاى الأثريين بوصفهما من آثار دولة السلطان سيم ، وأنني أحمل له ولأخويه توصيات من إسنا ، وقد جئت الحسن مسلماً عليه وعلى أخيه ، لأنني لم أر من اللياقة أن أهود أذراحي من صاى دون أن أقوم بواجب التحية لهما . ولكن لسوء الحظ كان حسن كاشف قد احتفظ بخطابات التوصية التي أحملها من إسنا ، والموجهة للأخوة الثلاث ، فقد أبى أن يعيدها إليّ حين غادرت الدر

قائلاً إنه ما دام قد حُظر على السفر إلى ما بعد سكوت فلم تعد لي بها حاجة .
ذلك لم يصدق محمد قصتي ، وقال لي كاتبه العربي « إنك من جواسيس محمد علي ،
ولكننا هنا في المجلس نبصق على لحيته ونقطع رأس كل عدو للماليك » . فأكدت
له أنني لست عدو للماليك ، وأنني زرت الأميرين المملوكين بالدر ، وأنهما استقبلاني
بمنتهى اللطف . وهكذا انقضت العشيّة بين أسئلة حادة من طرف ، وإجابات رواغة
من الطرف الآخر . وظل كاشف ساهراً مع أخص أصحابه يتشاورون فيما
يصنعون بي ، وأنا منتظر بيمبري تحت سقيفة وراء كوخه . ولم يدرب بخلد واحد
منهم أنني أوري . ولم أعلن أنا بالطبع عن هويتي مباهاياً أو نفوراً ، فقد كنت
عازماً على عدم الكشف عنها إلا إذا أحرق بي خطر داهم . وفي الليل أوفد رسول
إلى حسين كاشف ، فعبر النهر إليه ليستشير في أمري .

١٤ مارس - في الصباح الباكر أقبل حسين كاشف في نفر من أصحابه
ليزور أخاه ويلقي على نظرة . وأعيدت على مسمي الأسئلة التي سمعتها في الليلة
الماضية ، وأجبت عنها بالإجابات عينها ، ولكن حسناً كان أرق من أخيه متى
كان محمد يهدد بإرسال رأسي إلى إبراهيم بك زعيم الماليك ، أما حسين فقد اكتفى
بالإذن لي بالإياب ، راجياً مني أن أترك له بيمبري وبندقيتي . أما غدارتاي فقد
كنت خبأتها تحت زهيوطي . وأخيراً صارحت الأخوين بأنه لو أصابني سوء
لكان هذا وبالا على تجارتهم بإسنا ، وأنهما إذا شاءا التحقق من صدق روايتي
فما عليهما إلا أن يرسلوا للدر ، وأنني حتى لو كنت جاسوساً لمحمد علي كما يزعمان ،
لما رضى الباشا أن يقتل أحد رجاله غيلة دون أن يثار له . أما وأنني لست إلا سائحاً ،
فلا عذر لهما ألبتة في حجزتي أو الإساءة إلى شخصي . وبعد لأي استطعت بهذه
الحجج ونحوها أن أقنع الأخوين ببعض الإقناع ، ولكنني في شك كبير مما كان
ينتظرني على يديهما آخر الأمر لولا أن قيس الله لي شخصين من أبناء أخي حاكم
سكوت ، قدما في زيارة لقربيهما ، فأمنّا على ما قلت ، لأنهما كانا قد رأيا التوصية
القوية التي كنت أحملها من حسن كاشف لعمهما داود كرا . وهنا تغير أسلوب
الأخوين في الحديث إلي ، ولكنني بقيت برغم ذلك موضع ريبة وتوجس شديدتين

لأن الزائرين لم يستطيعوا أن يملأوا وفودي إلى هذه الأصقاع النائية تعاملاً مقنعاً .
وعاد حسين كاشف إلى الضفة المقابلة واعدأ إيأى بأن يرسل الزورق ليحملنى
وبعيرى إلى الضفة الأخرى . ولكننى ما عتمت أن رأيت الزورق بقلع شمالاً ،
وأثبت أن المعسكر سينفض فى الغد ويعود الرجال إلى سكوت على مهل .

وبرغم ما شعرت به من أسف بالغ اقشلى فى زيارة الضفة الغربية للنبيل ، فقد
رأيت من الحق أن أحاول المضى جنوباً إلى أبعدما ذهبت . وكنت الآن بغير صاحب
ولا ولى يحمينى فى إقليم لا يبعد سوى يومين ونصف عن الحدود الشمالية لدنقلة ،
وهى المملكة التى فتحتها أخيراً المالك الذى اتهمت بالتجسس عليهم ، والذين
كان أمراء المحس يظاهرونهم . وكنت أعلم كذلك أن الأميرين المملوكين اللذين
لقيتهما فى الدر يتقدمان حثيثاً نحونا ، وحلنى ما سمعت عنهما على الظن بأنهما
قد يعترضان سبيلى فى إيأى . لهذا كله قررت أن أقفل راجعاً إلى الشمال فوراً ،
لأننى لم أر من الحكمة أن أسافر فى صحبة أتباع محمد كاشف . ولكننى حين
سالت بين يدى هذا الحاكم لأستأذنه فى السفر ، طلب إلىّ فى جفاء أن أمسك إلى
الغد وأن أسافر فى صحبته . ولما كنت قد ظفرت بالسلامة — وهى هدفى الأهم —
ولم يكن الفضل فى ذلك إلا لتوجس الحاكم من الإساءة إلى والى مصر ؛ فقد
فكرت فى أن أغامر بطلب آخر ، فقلت إننى تواق إلى بلوغ الدر بأسرع ما أستطيع ،
وأننى لهذا السبب لا أريد أن أتقيد برحلة جنده البطيئة . ولكنه ألح علىّ فى
تأجيل سفرى — ولعله فعل ذلك أملاً فى إبراز بعض الهدايا منى فأخبرته فى
صراحة أننى أعد نفسى منذ الساعة أسيراً فى معسكره لأننى منعت حرية التصرف .
فأجابنى فى فظاظته المبهودة « امش يا ! » ، فصعدت بأمره تواء . ولم تمض
خمس دقائق حتى كنت قد تواريت عن هذا المعسكر الذى قضيت فيه يوماً من
أنكد الأيام التى مرت بى فى سنوات أربع من الرحلات . وبت ليأتى فى كوخ
مهجور يبعد أربع ساعات من تيفارى قرب معسكر القراريش الذى نزلنا عنده
قبل ذلك بيومين .

وقد يتساءل القارىء هنا : لم لم أتجهل صفة التاجر فى أثناء سفرى بالنوبة ؟

وجواب أن التجار لا يبلغون إلى المحس في رحلاتهم إلا إذا سافروا في قوافل الرقيق . زد على ذلك أنهم يضطرون للبقاء طويلاً في الأقاليم التي يجتازونها ، وهو عكس خطي . كنت أستطيع أن أحمل معي للمحس تجارة تكفي لشراء عبد أو عبيدين ، ولكن القوم كانوا في هذه الحالة يقولون إن الصفقة لا تستحق الرحلة إلى المحس ، لأن ما تجلبه من ربح لا يعمد نفقات الرحلة من إسنا وإليها ، وكنت لا أنجو من توجس الناس وظنهم أنني قادم في مهمة مرية . ولو حملت معي بضاعة تساوي ثمن ستة من العبيد مثلاً لفرض الحكام على الإتاوات واحتجزوني أطول مما أبغي .

ويزعم المحس أنهم من نسل قريش - قبيلة الرسول - وكان رجالها بدواً وزراة كما هو معلوم . ويروون أن جماعة كبيرة من قريش استولت على الوادي حين غزا البدو القادمون من الشرق مصر والنوبة . وزعيمهم ملك المحس ، أو «ملك الدار» ، من عشيرة جامع ، وهو يجبي إيراد مملكته ، ويدفع كل سنة لأمرأئ النوبة عن كل قسم من أقسامها السمة خمسة جمال أو ستة ، ومثلها من البقر ، وعبيدين ، ونحو أربعين شاة بالإضافة إلى المطالب الاستثنائية . وقد تشرفت برؤية ملك المحس ، فإذا هو أسود دميم ، تحيط به حاشية من ستة عبيد عراة يحملون الدروع والمزاريق . وفي الإقليم الممتد على النيل من هنا إلى سنار -- ويستغرق قيامه نحو خمسة وثلاثين يوماً -- ما يزيد على عشرين ملكاً ومملكة ، فكل رئيس مستقل يلقب ملكاً . وسلطة هؤلاء الملوك الصغار مطلقة في فرض الضرائب على رعاياهم ، ولكن الملك لا يجزؤ على قتل أحد من رعاياه ، ولو فعل جلب على أمرته انتقام أسرة القتل .

والتجارة مهنة كل رجل محترم في المحس . وهم يشترون الرقيق من دنقلة وبربر وإقليم الشايكية ويرسلون قافلة للقاهرة مرتين في العام . والمحس أقرب بقعة في السودان يسافر منها الجلالة إلى القاهرة ، والمسافة بينهما قرابة ألف ميل ، والمبد في المحس يساوي من خمسة وعشرين دولاراً إسبانياً إلى ثلاثين ، أما الجارية فمن ثلاثين إلى أربعين . ويباع الرقيق في القاهرة بربح يبلغ مائة وخمسين في المائة ،

وتنل التجارة التي يحملها التجار في عودتهم ربها يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ٪
إن لم يكن أكثر في الظروف الحاضرة بفضل تهافت المالك على شرائها . والريال هو
العملة المتداولة في السلع النالية ، أما في الصفقات الصغيرة فالمد أو كيل الذرة الذي
أثرت إليه آنفا ، وذراع القماش من السكتان الذي تحاك منه القمصان ، هـ أداة
العاملة ؛ وثوب القماش ثلاثون ذراعا ، وثمانه ريال ، وثمانه في أسبوط قرشان ، أى
سبما الريال . ولا يتجر النوبيون من الدر إلى دنقلة مع أهل دارفور أو بورنو .
وقد أخبرني عربي في المحس أن الرحلة إلى بورنو تستغرق من خمسة وعشرين يوما
إلى ثلاثين ، ولكنه درب لا يكاد المسافر يجد فيه للماء أثراً .

ويعتد وادى المحس مسيرة يومين بعد تينارى ، وأهم بلاده التي يعاصدها المسافر
جنوباً هى : ولفو وتبعد عن تينارى من ساعتين إلى ثلاث ، وتقع على الضفة النيل
الشرقية ، ثم كوكه على الضفة الغربية ، وعندها آخر جندل في هذه المنطقة .
وعلى مسيرة يوم من تينارى تقوم نوري على الضفة الشرقية ، ثم برمه وفربو
على الضفة الغربية ، وعلى يومين من تينارى تقوم هانك وعندها تنتهى الجبال التي
تكتنف النيل في وادى المحس . وعلى مسيرة نصف يوم جنوبى هانك تبدأ جزيرة
تسدى مسو ، وعلى الضفة الغربية قرية بنفس الاسم ، وإلى جانب هذه الجزيرة
جزيرة أرقو ويقطعها المراء في يوم كامل ، وهى من أعمال دنقلة . ويقوم عليها حصن
من الطوب لا تجد بناء كبيراً سواء جنوبى المحس . ومشو حد دنقلة الشمال . وبين
أرقو ودنقلة قرية أو مدينة الخنوق التي رأيتها على مصورات أفريقياسا .
ولا بد أن منطقات النهر في وادى المحس كبيرة ، لأن المراء يستطيع الوصول
من تينارى إلى مشو في يوم ونصف إذا سلك دربا في الجبل ، وإذا لم نخي الذاكرة
فإنى أعتقد أن المرسلين اليسوعيين زاروا مشو في طريقهم من دنقلة إلى الواحة
الكبرى .

ووادى دنقلة الذى عنده ينتهى الكلام باللغة النوبية يمتد مسيرة خمسة أيام إلى الجنوب على جانبي جزيرة أرقو وغيرها من الجزائر الكثيرة التى تتكون فى النهر . وتبدأ جنوبى حانك سهول دنقلة الشاسعة . ولقد علمت من ثقة أن الإقليم خلو من الصخور ، وأنه فى زمن الفيضان يغمره الماء فى مسطح يبلغ عرضه من اثنى عشر ميلاً إلى خمسة عشر . ولا تزكو التجارة فى دنقلة كما تزكو فى الأقاليم الواقعة جنوبها ، لأن التجار فيها يلقون عنتاً كثيراً من الملوك ومن شيوخ القرى المستقلين تقريباً عن الملوك . وتقدر ثروة الفرد هنا كما فى النوبة بعدد ما يملك من السواقي ، ويجبى الخراج من هذه السواقي . ومنذ استولى حرب الشايقية على شطر من الخراج اعتادوا أن يجلبوا على الأرض التى تروىها كل ساقية أربعة مهوريات(*) من الذرة ، وشاتين أو ثلاثاً ، وثوباً من الكتان يساوى ريالين . ويجبى الملوك الوطنيون مثل هذا الخراج . وتشتهر دنقلة بفصيلة من الخيول يستورد أهل المحس المدد الوفير منها ، ومعظمها من الفحول لأن الوطنيين قلما يركبون الأفراس . والفصيلة عربية الأصل ، وهى من أنجب ما رأيت من فصائل الخيل ، فقد اجتمعت لها كل الخصال الرقيقة التى تتسم بها الخيول العربية ، وزادت عليها الحجم الكبير والعظم المريض . وكل الخيول التى رأيتها هنا بيض القوائم إلى الركب ، وقيل لى إن قليلاً جداً من خيل هذا الإقليم يخلو من هذه العلامة المميزة . والفحول الأصيلة غالية يتراوح ثمن الواحد منها من خمسة عبيد إلى عشرة . ولا تزكو هذه الخيل فى مناخ المروض الشمالية ، بل ولا فى مناخ القاهرة ، وإن كان محمد على أهدى أخيراً للباب المالى جواداً منها دفع فيه ٧٥٠ دولاراً إسبانياً . وعلف أكثرها هو التبن الخالص عشرة شهور فى السنة ، وفى الربيع الشعير الأخضر . ومنذ أغار المماليك على دنقلة أخذوا مطاياهم من هذه الخيول .

وليس فى دنقلة فيلة ، ولكن أفراس النهر كثيرة الانتشار فى النيل ، ويسمى الواحد منها بالمربية « البرنيق » أو « فرس البحر » ، وبالنوبية

(*) المهورى مكىال يعادل اثنى عشر مدأ (وهو السكىل المستعمل بالقاهرة) أو ثمانية بوشلات تقريباً .

« الإرد » ، وهو نكبة كبرى على الإقليم بسبب شراسته ، وعجز الأهالي عن القضاء عليه . وكثيراً ما يسبح في النيل شمالاً حتى شكوت . وقد أخبرني الفلاحون في مروى أن في النهر بين المحس وسكوت ثلاثة من هذه الأفراس . وقد مر عدد منها في العام الماضي ببطن الحجر وظهرت في وادي حلفا والدر ، وهو حدث لم يعمد مثله حتى أكبر شيوخ الإقليم سنّاً . وقد قتل عربي فرساً مها برصاصة أصابته فوق عينه اليمنى . وأكل الفلاحون لحمه ، وبيع الجلد^(١) والأسنان لتاجر أسيرطي . وواصل فرس آخر رحلته في النوبة شمالاً ، وقد شوهد في دراو وراء الشلال الأول ، على مسيرة يوم شمالاً أسوان .

ومدينة دنقلة التي يسميها الأهالي « دنقلة العجوز » ، أو على الأصح « تنكل » ، تعادل الدر مساحة . وتسكن الإقليم قبيلة من البدو تسمى الكبابيس ، ويشن رجالها على دارفور غارات لا تنقطع ، ومنها يجلبون العبيد . كذلك استوطن دنقلة كثيرون من قبيلة العبابدة التي تسكن الجبل الشرقي ، وأصابوا فيها مالا كثيراً ونفوداً كبيراً ، فلما انبت الممالك في أنحاء الإقليم كما سافصل ، ارتدوا إلى مصر مع رئيسهم حي .

ويمر المسافر جنوب دنقلة بهذه القرى الواقعة على ضفة النيل : أطار قرب دنقلة ، ورفار وحيثاني وكنات وأسبقول التي تبعد عن دنقلة ثلاثة أيام وعن أرقو^(٢) سبعة أيام أو ثمانية . وهنا ينتهي إقليم دنقلة الذي يفصله عن أملاك عرب الشايقية مفازة من جبال وصخور ، تقطع عرضاً ساعتين ، وتحقق بالنهر مكونة سلسلة جديدة تنتهي عند حانك . وفي جنوب هذه المفازة ، أو على الأصح في شرقها — لأن النهر هنا يجري من الشرق للغرب — يبدأ إقليم الشايقية . وأول بلد أو واد هو قورص الذي تقطنه قبيلة

(١) تصنع الكراييج من جلد فرس النهر ، وهي من السلم التي تحمها قوافل سنار ودارفور .

(٢) تناقض تقديرات الأهالي للمسافات تناقضاً كبيراً والطريقة الوحيدة عندهم لحسابها هي حساب المراحل ، واسكن مراحل الإبل تتفاوت تفاوتاً كبيراً . إذا لم تكن مسافرة في قوافل .

العربية ، وبإيه حائل الزبير الذى تقطنه قبيلة بهذا الاسم ، ثم دار السوارب
و كبرير ، وقرى ، وأبرصار ، ووسطه ، وتنفسى ، والكرو ، وغوشابى ، و مروى ،
والمجيب أن يتفق نطقها ونطاق « مروى » القديمة ثم البركل ، ونورى ، والطاسجر ،
و الحمراب ، وأولى ، وزوارة ، ورفقو ، وعندها ينتهى إقليم الشايقية الذى يقطع
طولا فى خمس وثلاثين ساعة إلى أربعين . وأهم هذه البلاد قرى غوشابى و مروى ، ويقع
البلدان على النيل بواجه الواحد منهما الآخر . وتعد مروى عاصمة الشايقية أو أهم مقر لهم ،
ولها حصن من الآجر . وبين دنقلة و مروى وادى عرب البيريرية ، وكان شيوخهم
إلى عهد قريب خاضعين للشايقية . وبين دنقلة و مروى درب قصير يمتد إلى الصحراء ويقطع
فى يومين ونصف . والطريق الجبل من المحس إلى مروى يستغرق سبعة أيام إلى ثمانية
من السفر الهين ، ولكنه خلو من الماء (*) . وعرض وادى النيل فى إقليم الشايقية
لا يتجاوز ثلاثة أميال فى أى جزء منه . وهناك جنادل صغيرة تنتشر فى مواضع
كثيرة من النهر تسكاد عندها تتعانق الجبال القائمة على الضفتين . وليس فى هذا
القسم من النهر إلا تماسيح قليلة ، أما أفراس النهر فلا ترى . والأشجار المنتشرة
على ضفاف النهر هى السنط ، أما النخيل فنادر . وأهم الحاصلات الزراعية الذرة
والدخن ، وتروى الحقول صيفاً بالسواقي . والإقليم آهل بالسكان كأهم بقاع مصر .
وعرب الشايقية ، الذين لم أر منهم فى المحس غير رجل واحد ، يثيرون اهتمام
الباحث بلا ريب . فهم أقوى الدويلات شمالى سنار ، وتقول رواياتهم إن جد هم كان

(*) تبعد مروى مسيرة سبعة أيام من الدامر (انظر خريطة بروس) . وبين مروى
والقوز الواردة فى خريطة بروس يقوم إقليم مقرات ورئيسه قاطع طريق اسمه نعيم ، وكثيراً
ما يهاجم القوافل المسافرة من القوز لمصر ، إلا إذا كانت من الكبر بحيث يخشى بأسها . وتبعد
مقرات ثلاثة أيام عن القوز ، واسم القوز هذا لا يعرفه الإفريقيون فى المناطق التى مررت بها ،
ولكنهم يعرفون « بربر » جيد المعرفة ، وهى على يوم واحد شمالى الدامر ، فهى لذلك تتفق
و « القوز » التى ذكرها بروس . وتصل قوافل بربر كل شهر تقريباً إلى الصعيد .

يدعى شايق ، وقد أنجب أربعة أبناء انحدرت منهم القبائل الرئيسية . وهم ينقسمون الآن عشائر كثيرة أقواها عشيرة العرولاب لأنها عشيرة شيخهم الأكبر . أما العشائر الأخرى فهي الحمدانية والسلمانية والعراب ، يضاف إليها عشائر العونية والزبير (التي يجب التمييز بينها وبين الأسرة المالكة في أرقو ، وهي لا تمت لهم بقرابة) ، وعرب المناصير الذين يسكنون وادي المناصير شرقي إقليم الشايقية ، والذين وإن كانوا لا ينتمون للشايقية على وجه الدقة إلا أنه يجوز أن نسلكهم في عشائرهم لما لهم بهم من صلة وثيقة . وهذه القبائل في حرب متصلة مع بعضها البعض ، يخرج شبانها في حملات للنهب والسلب تبلغ دارفور غربا ووادي حلفا شمالا ، وكلهم يحاربون على خيولهم لا بسين دروعا يشترونها من تجار سواكن وسنار . وهم لا يستعملون الأسلحة النارية ، فسلحهم الوحيد الرمح والدرة والسيف . ويقذف المقاتل منهم رمحه مسافة بعيدة بمهارة فائقة ، ويحمل دائما في يسهام أربعة رماح أو خمسة وهو يكر على العدو ، وكلهم يتعطون خيولا دنقلية ، ويشتهرون بالفروسية كما كان يشتهر بها مماليك مصر ، ويدربون جيادهم على القفز العنيف بقواها الخلفية وهي تمدو . وتذكرني سروجهم بما رأيت من رسوم لسروج الأحباش ، وهم كفرسان الأحباش لا يضعون في ركاب السرج غير إبهام القدم . وعرب الشايقية هم الذين يزودون المحس بما يحتاجونه من سروج . والشايقية مستقلون استقلال تاما ، ولهم ثروة طائلة من الدرة والماشية ، وهم كبذو جزيرة العرب لا يدفعون ضريبة لسيوخم الذين لا تبلغ سلطتهم مبلغ سلطة شيوخ دنقلة . وهم مشهورون بكرم الضيافة ، وشخص الضيف أو الرفيق مقدس عندهم . وإذا قطعوا الطريق على مسافر وسلبوه ماله ثم اتضح أن بينهم صديقا له ، ردوا إليه ماله حتى ولو كان ملكهم هو الذي غنمه . ولا يتكلمون سوى العربية ، وكثيرون منهم يكتبونها ويقرءونها . وعلماءهم موضع التبجيل والتعظيم ، ولهم مدارس تدرس فيها كل العلوم الإسلامية . باستثناء الرياضة والفلك ، وقد رأيت كتباً منسوخة في مروي بخط لا يقل جمالا وروعة عما يكتبه خطاطو القاهرة وكبير

العلماء يوزع الصبيان الوافدين من البلاد المجاورة التماساً للعلم على معارفه فيقيمون
ويأكلون في بيوتهم ماشاءوا .

وينغمس الجند منهم — لا العلماء — في شرب عرقى البلح ، ويروى أن نساءهم
على جانب من سوء الخلق ، ويسافر التجار منهم إلى دارفور وسنار وسواكن ،
وحين يصيب القحط جزيرة العرب يصدرون القمح والذرة إلى سوق جدة بطريق
سواكن . وتسافر قافلة من الحجاج كل عام إلى هذين البلدين ، وتبعد سواكن
مسيرة اثني عشر يوماً من حدود إقليم الشايقية .

والآن وقد فرغت من هذا الموجز لدقلة وما يحف بها من أقاليم أود أن أضيف
إليه نبذة عن علاقاتها السياسية أثناء غزوة المالك وعن نتائج هذه الغزوة على قدر
ما تكشفته عند زيارتي للمحس . يروى العرب أن أسرتى الزبير والفوحي
كانتا تحكمان دقلة من أجيال سحيقة ، فكانت الأولى تحكم الولايات الشمالية
والثانية الولايات الجنوبية . ولكن نفوذ هاتين الأسرتين تقلص بعد ذلك لأن
السلطة الفعلية استقرت في يد عرب الشايقية . فقد اعتاد هؤلاء العرب أن يشنوا
غارات لا تنقطع على دقلة ، ويدمروا أحياء بأسرها . وأخيراً ، وبعد أن قتل
زعماء الفوحي ، اضطروا شيوخ دقلة تحت ضغط رعاياهم ، أن يصطلحوا مع
الغزاة ، وتخلوا لهم عن نصف الخرج ثمنا لكفهم عن غاراتهم . وعاش الفريقان
بعد ذلك في صفاء . ولكن زعماء الشايقية كانوا ينتقلون بين دقلة والحدق
وأرقلو ليجمعوا نصيبهم من الخراج ، لذلك تيسر لهم بسط نفوذهم على كل
أنحاء الإقليم ، وسرعان ما بدأت قوتهم ترجح . فلما وصل البكوات المالك
أرقلو بعد هروبيهم من مصر كما ذكرت آنفاً ، استقبلهم كبير الشايقية محمود المدلاني
بما هو معهود في القوم من حسن الضيافة . ولما أعلنوا أن في نيتهم الإقامة
في سنار أجزل لهم الهدايا من الخيل والإبل والمبيد والزاد . ولكن هؤلاء
اللاجئين القادمين لم يرض عنهم بأرقلو شهر من الزمان حتى انقلبوا على ولى نعمتهم
مبتلين بأثفه اللل ، فقتلوه هرونراً من حاشيته . ثم انتشروا في الأرض
ينهبون أموال الشايقية ويستولون على الخراج . وفي هذه الظروف انحاز ملك من

أسرة الزبير إلى المماليك ضد الشايقية ، في حين قصد مصر أخوه المدعو طبل بن الزبير ملتصقاً بمدداً من الجند والعتاد ليحارب الغزاة الجدد^(١) الذين انضمت إليهم جماعة أخرى من الشايقية يبلغون الثمانين فارساً وكانوا أعداء ألداء لقبيلة محمود العدلاني . ومنذ ذلك الحين أصبح المماليك وعرب الشايقية في حرب متصلة ذهب ضحيتها من الفريقين نفر كثير . وفي يناير الماضي خرج المماليك بكامل قوتهم في حملة قاصدين مروى ، وفيما هم في طريقهم إلى الجنوب عبرت الجبال جماعة من الشايقية وانقضوا على مؤخرة المماليك وقتلوا الأنباغ القلائل الذين خلفوهم في أرقو والخندق ، ونهبوا ما بق من ثروتهم . تلك كانت حال البلاد حين بلغت تيناري . وكان الشايقية لا يزالون في أرقو ، ونتيجة الحملة على مروى بمجوعة ، وأنصار الفريقين يذيمون عنها أشد الروايات تناقضاً . وكان واضحاً أن المماليك الذين رأيتهما في الدر لا يستطيعان في هذه الظروف أن ياحقا برفاقهما ، وكان الرأي أنهما سينتظران ما تسفر عنه المعركة في قلعة حانك بالمحس ، وهي حصن حصين^(٢) .

ويبدو لي أنه ليس أمام المماليك في الحالة الراهنة إلا إحدى اثنتين ، فإما أن يوجهوا للصعيد ضربة يائسة أخيرة إذا واتتهم أقل فرصة — واحتمال نجاحهم في هذا ضئيف نظراً لبقطة محمد علي وسهره ، وإما أن يحاولوا الاستيلاء على ميناء من موانئ البحر الأحمر ، وهناك يمززون قواتهم بأمداد جديدة من رقيق جورجيا — لأنهم لا يقبلون بين صفوفهم غير هؤلاء . ومصوع خير مكان يصلح لمثل هذا المشروع ، وهي تبعد عن مقرهم الحالي مسيرة اثنين وعشرين يوماً ، أربعة منها عبر الصحراء إلى شندى ، وثمانية عشر من شندى إلى مصوع أكثرها على ضفاف العطيرة المزروعة . وأعتقد أن المماليك يبيتون فتح الحبشة ، ولو حاولوا تنفيذ المشروع وأفلحوا فيه لانفتح منفذ تجارى جديد على جانب كبير من الأهمية أمام شركة الهند الشرقية .

(١) رأيت هذا الزعيم في أسبوط ، فإذا هو أسود عارى الجسد ليس عليه من مظاهر الملوك شيء.

(٢) حين عدت لإسنا في شهر يونيو لقيت أشخاصاً من دقلة أنبأوني أن المماليك فشلوا في هجومهم على مروى وارتدوا إلى دقلة .

ولسكن يا ويل بلد بختنه هؤلاء المبيد العتاة المستبيحون ! صحيح إنهم الآن مملقون ،
ولسكن لهم من المبيد العدد الوفور ، وبهم يستطيعون أن يشتروا ما يشاءون ؛
فالعبد ضرب من العملة في أصقاع الجنوب . وفي الصيف الماضي مات كثير من
الماليك بحمى هفنة تنتشر دائماً في دنقلة صيفاً وتقضى على كثير من الأهالي .
ولما لم يطق الماليك الحر وهم في ثيابهم الصوفية السمكة التي أبوا أن يغيروها ،
صنعوا أطوافاً قصوا عليها الصيف كله متقين الشمس بسقوف من الحصر يرشها
عبيدهم بالماء بلا انقطاع لتحفظ برطوبتها .

مكتبة سور الأربعة
www.books4all.net

الْعَوْدَةُ مِنْ دَارِ الْمَحْسِّ إِلَى أُسْوَانَ

١٥ مارس — يلوح أن دليلي تلقى أمراً سرياً بمراقبة سفري، فقد طلعت علينا الشمس ولما نزل يغط في نومه ، وليس هذا من عادة النوبيين الذين ألفوا أن يستيقظوا مع الفجر . وما إن بدأنا السير حتى زعم لي أن ببعيره عرجا يعجزه عن المشي الحثيث ، وتبينت أنه يرمى من وراء هذا الإبطاء إلى أن يتيح لجند محمد كاشف أن يلاحقوا بنا ، فقلت له إن في وسعه أن يترجل عن بعيره إن شاء لأنني خير بالطريق إلى الدر ، ولأنني معترزم أن أنطلق إليها بأسرع ما أستطيع . فلما سمع مني هذا ظل راكباً ببعيره ، ولكنه كان غير مرة يتخلف مسافة ميل ظاناً بذلك أنه يلزمي بانتظاره .

وهضينا إلى الواوي بحذاء النيل بدل أن نعب الصحراء ، وبعد ساعة ونصف وصانا تجاه صلب ، وهي قرية جميلة على الضفة الغربية ، رأيت فيها أطلال معبد كبير كان في نيتي أن أزوره بعد عبوري النهر عند تيناري ، ورأيت بعض الفلاحين يروون الأرض في جزيرة مقابلة لصلب ، فطلبت إليهم أن ينقلوني إلى الضفة الأخرى ويميدوني ثانية ، وعرضت عليهم أجراً هو كل ما أحمل من ذرة ، وهو أجر باهظ يعدله ، في تقديري ، أن تنقد ملاحاً لندنيا جنيتها على قيامه بمثل هذه المهمة . ولكنني لم أجسد طوفاً ، بل ولا قرية من هذه القرب التي يمكن أن يعبر عليها المرء النيل إذا نفخت . ولم أر من الحكمة أن أركن إلى ذراعيّ وحدهما في السباحة إلى الضفة الأخرى ، فلم أجده بداً من استئناف رحلتي دون أن أشبع فضولي . وقد لاح لي المعبد في ضخامة أكبر المعابد في مصر ، كاملاً لم يتهدم من جسمه شيء ، وفي بهوه من الأعمدة الضخمة عشرة أو اثنا عشر . ولعل الحظ يحالف غيري من الرحالة فيوفق إلى فحص هذا الأثر الذي أعتقد أنه أقصا ما يوجد جنوباً من أمثلة العمارة المصرية ، فقد أثبتت عن ثقة بأنه ليس في جنوب المحس ولا في دنقلة أبنية أثرية . ولعلني كنت موفقاً كل التوفيق في عدم عبوري النهر عند تيناري وسيرى شمالاً على الضفة الغربية ، ولو فملت لالتقيت بالملوكين اللذين كانا منطابقين حثيثاً إلى الجنوب ، ولعل لقاءنا في هذه البقعة كان يختلف عن لقاءنا الودّي يوم زرتهما في الدر من قبل .

وبلغنا الوادى بعد ساعتين وإسمنه بعد ساعتين ونصف ، ووادى عبور بعد أربع ونصف ، ودار صهجرة بعد ست ، وقويس بعد سبع . ويتجه من الوادى صوب الشمال الشرقى بانحراف إلى الشمال جبل منفرد يسمى جبل عروقى . أما الجبل الغربى الذى قد تعد نهايته التلال الرملية المنخفضة القائمة فى أقصى جنوب بطن الحجر فيبدأ من جديد غرب جزيرة صاى ، ومنها يدور فى قوس كبير إلى الغرب ، ثم ياتقى بالنهر ثانية قرب صاب . ومن قويس عبرنا السهل الصخرى الذى تنطيه أحجار من الجزع والمرو والعقيق ، وخلفنا النهر وقرية عبرى إلى أقصى اليسار ، سالكن درباً مستقيماً حتى وصلنا قرية الشيخ مجدرة من أعمال وادى عمارة ، وهناك بتنا ليلة عند رجل كان أبوه دمشقى الأصل ولكنه تزوج من هذه النواحي .

وتفسيراً للتفاوت بين المسافات المدونة فى يوميتى عن الرحلة جنوباً ، ونظائرها فى العودة شمالاً ، ألقت نظر القارىء إلى أننى كنت أسير حثيثاً طوال رحلتى من أسوان إلى الدر (باستثناء المفاطى التى كانت تعمق سيرى فيها طبيعة الأرض الصخرية) ، وكان معدل سرعتى فيها أربعة أميال فى الساعة على الأقل . أما من الدر إلى وادى حلفا فيخيل إلى أننى كنت أسير بسرعة ثلاثة أميال ونصف فى الساعة ، وهبطت السرعة إلى ثلاثة أميال فى بطن الحجر . وعادت إلى أربعة من سكوت إلى المحس . وأما فى رجوعى من المحس إلى سكوت فكانت سرعتى ثلاثة أميال فى أثناء عبورى البقاع الرملية فى الضفة الغربية من سكوت إلى الدر ، أما من الدر إلى أسوان فلم تزد سرعتى على ميلين فى الساعة ، خشية منى على البعيرين أن تؤذيهما مشقة الرحلة وعناء السير الحثيث .

١٦ مارس — ركبنا اليوم من شروق الشمس إلى غروبها ، ولم نعب من الراحة غير ساعة واحدة قضيناها تجاه جزيرة فركه ، مستظلين بنخيلة من خيام عرب القراريش ، وقد سبق لى وصف هذا الطريق . وشاطئ النيل الغربى من دال إلى البقعة المقابلة لمهارة صحراء رملية تسكاد تغفر من كل شىء . وتعالى الصخور النهر حتى عمارة ، حيث يوجد جندل صغير ، ومن ثم إلى الجنوب يخالو النهر من

الصخور . وإلى الشرق من فرقة وسركامتو يقوم جبل عال يدعى جبل صاماء ،
وفي سفحه تلك الكيمان التي سبق أن ذكرتها ، ويمكن أن يعتبر هذا الجبل
نهاية بطن الحجر على الضفة الشرقية . أما على الضفة الغربية المقابلة ، فإن جبال
هذا الإقليم تنتهى بتلال منخفضة تسمى قنفقور . وعبرنا الجبال ثانية من الدابة إلى
كولب متجهين إلى الشمال الشرقي بانحراف إلى الشرق . فوصلنا تجاه جزيرة كولب
عند الغروب . وأهم الصخور التي يصادفها المسافر في هذا الجبل هو الفلصبار ،
وقرب النهر يرى الجرانيت والشست الجرانيتي . وأردت أن أعبّر النهر عند كولب
ولكنني وجدت الوقت قد تأخر بي ، والليل قد هبط ، فأوفدت دليلي إلى داود كرا
ليبلغني تحيتي ورجائي أن يبعث إلي بمشاة ، وأن يرسل إلي في الندرجين ليساعداني
في نقل بعيري ومتاعى القليل إلى ضفة النهر الغربية . وسرعان ما عاد الدليل يبلغني
استجابة الرجل لما طلبت . وفي الليل وصل عبد يحمل إلينا حساء الشعير . وبتنا
بين الصخور إلى جوار الماء . وكان دليلي الأعرابي قد أنبأ أن الأميرين المملوكين
قد اجتازا كولب من يومين قاصدين المحس ، فاعتبطت للنبا أيما اغتباط .

١٧ مارس — برّ داود كرا بوعد ، فأرسل إلينا عبيد ليساعدانا في عبور
النيل . ووضعنا على الطوف الرجلين والفرارتين ، وجلس أحد العبيد في مقدمته
ليجذب ، في حين قبض زميله بإحدى يديه على المقودين وبالأخرى على مؤخرة
الطوف ، وشدت إلى عنق كل بعير قرية منفوخة لتعينه على السباحة ، واسكنما لم
نستطع إغراءهما بنزول الماء إلا بشق الأنفس ، لأن الإبل المصرية لم تألف عبور
النهر على هذا النحو . ونجرد دليلي من ثيابه ، وقبض بإحدى يديه على ذيل بعيره ،
وبالأخرى على عصا يستحس بها على السباحة . وأشاروا على بالجلوس على الطوف ،
ولكنني وجدته على وهنه مثقلا بما يحمل ، فخذوت حذو دليلي ، ووضعنت ثيابي فوق
الطوف ، ثم سبحت ببعيري إلى الضفة الأخرى بالطريقة نفسها . ويخشى الناس في
المحس عبور النهر بهذه الطريقة لوجود التماسيح ، لذلك لا تجد اتصالا منتظما بين
الضفتين . ولم يكن بالمركب الذي جلبه ولدا كاشف إلى تيناري ملاح يعرف كيف
يسحبه من برّ لبرّ . فإذا كانت الريح مواتية نشر عليه شراع من قطع مهلهلة يكفي

للدفع المركب إلى البر ، وإذا كانت الريح مضادة شد إلى المركب جوادان بالجمال ،
ثم دفعا في الماء فجذب المركب خلفهما وهما يسبحان .

وكان حالكم سكوت قد غادر كولب في الصباح الباكر سعيًا وراء بقرة . كان
من حقه أن يقتضيها خراجاً من شيوخ عرب أم شريف ببطن الحجر ، فتناولت
الطور مع عبيده ثم واصلت رحلتى . ويلوح أن كولب جزيرة لم تصنعها يد الطبيعة ،
ففي غربها تجرى قناة عميقة لا يمكن أن تكون من عمل الطبيعة لشدة انتظامها ،
وتجف القناة في الربيع ، لذلك استطعنا أن نخوضها . وعلى الجانب الغربى من القناة
فرجة في الجبل ، تنبسط سهلاً تخلفت فيه آثار زراعة ماضية . وعلى الجزيرة قرية
صغيرة ، وأطلال أبنية من الآجر ، دخلت بناء فيها فراعى أن أجده كنيسة
إغريقية صورت على جدرانها رسوم القديسين وطلبت بألوان زاهية وكتبت عليها
أسماء كثير من الزوار والحجاج . والألوان محتفظة بروائها تمام الاحتفاظ ، ولعل
ذلك راجع إلى ما يمتاز به جو النوبة من جفاف شديد . وكثرة الأبنية الأثرية من
الآجر التي يراها المرء في جزائر بطن الحجر دليل على أن مشييدها لم يقووا على
قطع الحجر من الجبال المجاورة لهم لشدة صلابته . وسرت إلى الحدود الشمالية
للجزيرة فوجدت بئراً عميقة واسعة أحيطت من داخلها بجدار من الحجر الكبير
يصل إلى قمة البئر . والصخور السائدة على هذه الضفة صخور جرانيتية تشغلها
طبقات من المرو سمكها ثلاث بوصات أو أربع .

وركبنا من كولب ساعتين ونصفاً حتى بلغنا وادى أكمه إلى الشمال الشرقى
بانحراف إلى الشمال ، وفي بطن الحجر يطلقون اسماً واحداً على الوادين الوافين على
ضفتى النهر . وواصلنا السير في الوادى أربع ساعات لم نر فيها سوى بضعة منازل
خربة . ثم يخترق الطريق تلالاً رمالية عالية ، وبعد ست ساعات ونصف بلغنا وادى
سنكى . وهنا وجدنا الرمال تنثال إلى النهر كأنها السيول ، وكانت ريح الشمال تسقى
الرمال في وجوهنا فتضايقنا أشد المضايقة . وفي وادى سنكى تمشيناً في كوخ
أعرابية فقيرة كان زوجها قد انطلق إلى الدر لبيع غزرات وبشترى بشمها ذرة
ليسته . وبزرع في هذه الناحية وفي نواح أخرى من بطن الحجر نبات الخروع

الذى ينمو فى صعيد معتز أيضاً ، ويمتد إلى أربع أقدام أو خمس ، ومن ثماره يستخرجون زيتاً طيباً يدهنون به شعورهم . وموقع أكثر هذه الوديان التى تقوم وسط الصخور وبين أشجار الطرفاء رائع لاسيما حيث يكون الماء بركاً صغيرة ، ولكن البعوض يقد على هذه البرك . زرافات لم تدعنا هنا بشيء من الراحة ، فغادرنا مكاننا حين طلع القمر ، وحططنا بعد نصف ساعة على رمال السهل الأعلى هند سفح جبل لاموله ، وكنا نسمع من موضعنا هذا خريف النهر وهو يندفع فوق الصخور عند سفح لاموله الغربى .

١٨ مارس — سرنا فوق سهل رملى عال متجهين شرقاً بشمال . وتقوم وسط السهل تلال صخرية منعزلة تتألف منها سلسلة أشد انخفاضاً من السلسلة الشرقية . وبعد مسيرة ساعتين بدأ وادى فرمك على ضفة النهر إلى يميننا ، وكان يبعد عنا أميالاً . وبعد ثلاث ساعات وصلنا وادى أم قناصر ، وعلى جزيرة صخرية فيه تقوم أطلال بيوت وبرج متوسط الارتفاع وكلاهما من الآجر . ويسكن هذا الوادى عرب قلائل من قبيلة أم شريف يزرعون بضعة أفدنة . وقد رجوت أن أعطيهم شيئاً من البارود ليقتلوا به الغزلان التى تأكل محصولهم . ذلك أن الجبل الغربى تقطنه قطعان كبيرة من الغزلان ألقت أن تهبط ليلاً إلى ضفاف النهر انتجاعاً للكل الذى ينمو هناك . وكنت أرى رمال الشاطئ ، كل صباح تغطيها آثار أقدام نحيلة تركها هذا الحيوان الجليل . ولا يجد العرب سبيلاً إلى حماية حقولهم منه إلا بنصب أشكال تروعه ، وكثيراً ما رأيت ضبماً قبيحاً صنعوه من قش وركبوه فوق أرجل من خشب . ويسكن الضبع الجبال على الضفتين ، وهو ألد أعداء الغزال . ولم أسمع بوجود وحوش كالسرة غيره فى هذه النواحي . وبعد خمس ساعات وصلنا وادى أمبقول ، وتتبعه جزائر كبيرة فى النهر . ويتصل السهل الرملى العالى الذى تتخلله التلال المنعزلة على هذا الجانب من النهر ، وتكثر المنطقات فى النيل ، وكنا عادة نختصر الطريق بسلك الجبل من أقصر دروبه . وسرنا من أمبقول متجهين شرق الشمال الشرق ، حتى طويينا الوادى بعد ثمانى ساعات ونصف ، ورأيت جبل روس يقوم على الضفة الشرقية . وأكثر الطريق يخرق سهلاً يغطيه ما يسمى بالحصى المصرى . وتتألف التلال

والآكام على جانبي الطريق طوال ثلاثة أميال من السماق الأحمر . وبعد عشر ساعات وصلنا وادي أتيرى ، ومررنا ببيت من الحجر للملك أم شريف . وقد أغار عرب الشايقية في العام الماضي على هذا الملك وغيره من الأهالي وسلبوهم ما يملكون ، فغارات الشايقية لا تقتصر على الضفة الشرقية ، وكثيراً ما يعبرون النيل وينهبون الأهالي على البر الغربي . وبعد عشر ساعات ونصف حططنا لقضاء الليل تجاه كوخ لأسرة من عرب القراريش تسكن إحدى الجزائر ، فجاءونا بزبد ولبن ، وأخذوا منا فدية عوضاً عنهما . وجاءتنا في الليل صبية تسألنا قليلاً من الذرة لها ولأمها ، لأن الرجال كانوا يختصون أنفسهم بالخبز دونهما ، فأعطيتها بسخاء لم تحلم به ، وعادت إلينا في الصباح الباكر تحمل قدرًا من اللبن هدية من أمها . ويجدر بي أن أذكر أن دليلي كان من معارف هذه الأسرة ، وإلا لما اطمأنت الفتاة إلى الحضور بمفردها لزيارة أغراب لا تعرفهم . وتنتشر في هذه الناحية شجيرات شوكية عالية تسمى الواحدة منها سيالة ، وتثمر ثماراً حمراء يأكلها العرب .

١٩ مارس — بدأنا السير على درب ضيق يخرق صخوراً من الجرانيت المرو والفلسبار ، وكانت وجهتنا الشمال . وعدنا إلى ضفاف النهر بعد ساعة ونصف ، قرب الطرف الشمالي لوادي أتيرى تجاه عقبة البنات على الضفة الشرقية . ولا نجد السائر في بطن الحجر سوى قليل من النخيل مبعثر على البر الغربي ، بعكس الحال في البر الشرقي . ويستطيع المسافر أن يجمع الثمر من هذا النخيل لأنه بغير صاحب يدهى ملكيته . ثم عبرنا الرمال ثانية من وادي أتيرى ، وبعد ثلاث ساعات بلغنا وادي سمنه ، وبقربه جندل في النهر ، ترى النيل عنسده بقتحم طريقه وسط خانق لا يتجاوز عرضه خمسين خطوة ، كونه صخرتان مائتان من الضفتين . ويرى المسافر أطلالا من الآجر على تل قائم فوق الجندل على البر الشرقي ، تقابلها على البر الغربي أطلال شبيهة بها ومعبد قديم شيّد فوق قمة التل . والمعبد مشيد بالحجر الرمل ، ويختلف شكلاً عن سائر المعابد المصرية وإن كان هناك بعض الشبه بين تصميمه وتصميم معبد الفتين الصغير . ويتألف المعبد من مبنى رئيسي طوله اثنتا عشرة خطوة ، وعرضه لا يزيد على ثلاث . وكانت تقوم

فى كل جانب من جانبيه أربعة أعمدة صفار بقى منها اثنان فى جانب وثلاثة فى الجانب الآخر . وأحد العمودين مضلع البدن ، أما سائر الأعمدة فربع ، وجميعها



ملأى بالنقوش . وتربط الأعمدة بالبناء الرئيسى كتل من الحجر تؤلف سقف المدخل . وللمعبد بوابتان صغيرتان ، وجدرانها الداخلية تكسوها النقوش الهيروغليفية والصور الدينية التى تمثل عبادة الآلهة . وعلى الجانبين رسم مركب حلويل بداخله أوزيريس ، ويتكرر رسم الأشخاص أزواجاً أزواجاً ، وكل شخص منهم يضع يديه على كتفى صاحبه . والسقف مطلقاً باللون الأزرق ، وعلى كثير من رسوم الأشخاص بقايا ألوان قديمة . ورأيت تمثالاً مانحاً على الأرض بجوار الحائط الخلقى تجاه المدخل الرئيسى ، ورأس التمثال مقطوع ، وارتفاعه حوالى خمس أقدام ، وتتقاطع ذراعه على صدره ، وفى إحدى يديه سوط وفى الأخرى صولجان . وقد تبينت على حائط المعبد الخارجى رسوماً للسكيش مندىس (برياوس المصرى) . والنقوش كلها لغة الصنعة ، وفى بعض العطور التى خُطت عليها النقوش الهيروغليفية اعوجاج كأنها من عمل صفار لم يحدقوا فهم بعد . وقد تركت بعض نقوش الأعمدة ناقصة نقصاً ظاهراً ، وما كمل منها كان خشن الصنعة رديئها . وفى الجدار قسم يبدو أنه بنى فى عهد غير العهد الذى بنى فيه سائره ، فأحجاره أكبر حجماً وأدق نحتاً . ويلاحظ أنه كان يقوم إلى جوار هذا المعبد معبد آخر نظيره ، فقد رأيت على الأرض تيجاناً لأعمدة وكتلة ضخمة من الجرانيت تملؤها النقوش الهيروغليفية . وحول المعبد أكوام من الأنقاض ومبان خربة من الآجر لاشك عندى فى قدمها السحيق ، وتنتشر المباني فوق قمة التل المشرفة على الضفة يحيط بها سور مزدوج ، وأعلى الأصح سور داخل متراس .

والسور من الآجر سمكه من ثمانى أقدام إلى اثنتى عشرة ، ويتجاوز ارتفاعه فى أجزائه السكاملة ثلاثين قدماً . أما المتراس فعن الحجر ، وعرضه عشرون قدماً ، وجوانبه تميل صوب منحدر التل . وأحجاره مكومة بعضها فوق بعض بغير نظام وبلا ملاط ، ولكن أحجار الجوانب المائلة إما منحوتة أو موضومة بعجارة ، بحيث تجعل السطح أملس مصقولاً لا يمكن تسلقه يوم كان هذا البناء يلقي رعاية واهتماماً . وأمثال هذه الأبنية الحصينة دليل على وجود الأعداء الأقوياء فى ذلك العهد ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف على التحقيق من هم هؤلاء الأعداء . فهل كان أجداد البلجيس مصدر قلق لحكام مصر كما كان أحفادهم للولاة الرومان ؟

وصلنا بعد أربع ساعات تجاه أطلال برج من الآجر ، أو حصن صغير ، قائم على جزيرة صخرية . وهنا بداية وادى سرس . وكنا نسير شمالاً بشرق ، فوق رمال كثيفة مستوية لا تعترضها سوى بضعة تلال واطئة منعزلة . وبعد خمس ساعات وجدنا السهل ينفرج غرباً والنهر يدور منعطفاً إلى الشرق . وسرنا متجهين شرق الشمال الشرقى ، وبعد سبع ساعات عدنا ثانية إلى جوار النهر ، ووصلنا بعد ثمانى ساعات إلى الحد الشمالى لوادى سرس . ورأينا قلعة عتيقة من الآجر تسمى إسكر ، تقوم على جزيرة ، وحططنا بعد تسع ساعات على شاطئ النهر المرتفع أمام جزيرة صغيرة رأينا عليها كوخاً للعرب . وناديننا من به ، فسبح أحدهم إلينا ، ونفحناه بشيء من الذرة صنعت منه النسوة خبزاً لنا . وتكثر أشجار الدوم هنا ، وقد تم نضج ثمارها ، وكذلك تنتشر أشجار الطراف والسقط .

٢٠ مارس — مضينا فوق سهل رملى متجهين شرق الشمال الشرقى ، وبعد ساعتين ونصف عدنا إلى النهر عند وادى صمى . وسطح الأرض هنا أقل وعورة ، ويخلو النهر أميالاً من الصخور والجزائر ، ويحف بالشاطئ شريط ضيق من

الأرض الصالحة للزراعة. ورأينا أعرايبا يحفر في التلال الغربية ليستخرج الملح . ويوجد الملح قطعاً بيضاء صغيرة تشوبها الرمال والحجارة ، ويغلى العرب هذه القطع فإذا ذاب الملح صفوه بقمصانهم واحتفظوا به في قدور كبيرة من الفخار يصبون منها على طعامهم كلما أرادوا تملّحه . ومن هنا اتجه الطريق المحاذي للنهر شمال الشمال الشرقي . والصخر هنا كله من الحجر الأخضر . وبعد ثلاث ساعات ونصف بلغنا وادي مرشد . ويقوم بناءان منفصلان من الآجر على البر الغربي تجاه الجزيرة التي أشرت إليها في رحلتى جنوباً ، أحدهما دير إفريقي صغير ، والآخر كنيسة ، وعليهما بمض رسوم للقديسين لا تزال ظاهرة على الجدران . والسهل هنا أعرض منه في أى بقعة من بقاع بطن الحجر ، وبه آثار زراعة قديمة ، ولكنه اليوم مهجور ، وإن كان به نخل كثير . وكلما اتجه المسافر شمالاً خفت وعورة الأرض وانخفضت السلسلة الشرقية انخفاضاً محسوساً . وبعد أربع ساعات بلغنا ثلاثاً أو أربعاً من الكفائس الصغيرة أو الأديرة ، وهى متقاربة ، ولكن كلها منها قائم بذاته . ولماها كانت مسكناً لربان طموحين أقصاهم التمسب الحزبى أو الطائفى عن القسطنطينية وقذف بهم إلى صحارى التوبة . وبعد خمس ساعات ونصف بمخفق مجرى النهر ثمانية بالصخور والجزائر ، ويظل على هذه الحال حتى شلال وادى حلفا . وهنا يبدأ وادى سور ، ويصعد الدرب التلال الرملية التى تكثف السهل الساحلى الضيق . وفوق قمة هذه التلال ينبسط سهل فسيح تنبت فيه آكام منعزلة لبعضها أشكال منتظمة حتى ليحسبها الرأى من صنع البشر . وبعد ست ساعات بلغنا حدود السهل الأعلى . وتشرف على النهر خرائب سور كبير سميك من الآجر مساحته ثلاثمائة قدم مربعة ، ولعله كان برجاً للحراسة ، وليس بداخل السور آثار أبنية من أى نوع . ويستطيع الواقف فى هذا الموضع أن يرى ببصره بعيداً فيحيط بمنظر النهر وجزائره . وعلى إحدى هذه الجزائر ، تحت الماء مباشرة ، أطلال من الآجر . وعدنا إلى النهر بعد سبع ساعات ونصف متجهين شرق الشمال الشرقى . وبعد

ثمانى ساعات مررنا بشلال وادى حلقا ، وهو الشلال الثانى المشهور ، والذى تراه على مصورات النوبة تحت اسم The Cataract of Jan Adel ،^(١) وقد كونه جزء من النهر فقط عرضه عشرون ياردة على الأكثر . وينحدر الماء فوقه فى سرعة وهدير ورغاء لا تجسدها فى أى بقعة أخرى من بقاع بطن الحجر حتى ولا فى شلال أسوان . على أنه غير جدير باسم الشلال^(٢) ، فليس فيه سوى ثلاثة مساقط أو صخور منحدره يسقط منها الماء بسرعة كبيرة . وينشر العرب الذين يسكنون الجزائر القريبة منه شبا كههم على المساقط فيصيبون سمكا كثيرا . والتل العالى القائم على البر الغربى قرب الشلال هو نهاية الصخور الأولية فى بطن الحجر . ومن ثم إلى الشمال لا يجد المرء غير الحجر الزملى حتى يبلغ الشلال الأول .

كانت الشمس توشك أن تغرب بعد أن رأيت الشلال ، وكان ما معى من زاد قد نفذ فيما خلا الذرة ، فأردت أن أبلغ مكانا أهلا بالسكان قبل هبوط الليل . لذلك سرت حثيثا ، ومررنا فى طريقنا فوق التلال الرملية بالبقعة المواجهة لوادى حلقا ، وبعد عشر ساعات وصلنا ضفاف النيل أمام سقوى ، ورأيت هناك آثار معبد متهدم جداً . والبناء كله مدفون تحت تلال من الرمل والأنقاض ، ولا تبدو منه غير قطع من أطراف الأعمدة . وأعمدة الأركان الأربعة مربعة الشكل ، وكذلك عمودان من الأعمدة الجانبية . أما سائر الأعمدة فمستدير ، وقطرها يقرب من قدمين

(١) أطلق مؤرخو العرب وجغرافيوهم على شلالات النيل اسم « الجنادل » أو الشلالات وقد أخذ الأوربيون اللفظ الأول وكونوا منه اسم علم هو Jan Adel فصوروه فى مصوراتهم على شلال وادى حلقا دون غيره .

(٢) روى لى دالى وغيره من الروايات ما شوقنى لرؤية هذا الشلال الثانى الذى قيل لى إن ماءه « ينحدر كأنه ساقط من السماء ! » ولما رأيته على حقيقته ووبخت دليلى على غاوه فى وصفه ، قال لى « وهل رأيت أروع منه من القاهرة إلى المحس ؟ » على أن المرء يجب أن يشكك فى روايات هؤلاء القوم تشككه فى روايات عرب الشام ، بل أكثر . فقد أخبرنى كثير من أهل النوبة أن المسافة من الدر إلى المحس بطولها المسافر فى ستة عشر نهرا و ليلا ، ولكنهم تستغرق منى غير عشرة . كذلك كانوا يحاولون مرارا تضليل كمالا وجهت إليهم أسئلة تبدو لهم خارجة عن موضوع أحاديثهم المألوفة ، والى لا تدور إلا حول أثمان البلح والذرة ، والمكوس المفروضة على السواقى ، والشكوى من جور الحكام وعسفهم .

ونصف ، ولا يبدو عليها نقش ولا كتابة هيروغليفية ، والأحجار بالية مهشمة .
وكان يحيط بالمبد سور طال من الآجر بقيت بعض أجزاء منه . ومضينا حينئذ حتى



:

بلغنا النهر ثانية تجاه دروسه بعد إحدى عشرة ساعة ونصف ، وعبرنا مجرى جافاً
لفرع من فروع النهر يُسمى شطر جزيره ضرب بعض عرب القراريش عليها
خيامهم ، فحططنا عندهم في الليل بعد مسيرة اثنتى عشرة ساعة . واحتفلت بمودتى
سائلاً إلى شمال النوبة ، فابتعت من العرب حملاً بثلاث كيلات من الذرة ، وأصب
منه عشائى مشويًا . والجزيرة أشجار كثيفة من الطرفاء ، تنمو برياً فيها وفي أشباهها
من الجزائر التى تكسو تربتها الرواسب الفرينية لا الرمال . وعلمت في أثناء وجودى
تلك الليلة أن قافلة قوامها ستون حملاً من جمال عرب الشايقية وصلت وادى حلفاء
طالباً للتمر . وتجار الشايقية الذين يقدون على قرى النوبيين بوصفهم أصدقاء
لا يلقون منهم أى أذى أو إهانة ، وذلك على الرغم من العنت الذى لا يفتأ يلقاه
النوبيون من غارات المغيرين من عرب هذه القبيلة .

٢١ مارس — كنا نعب الماء من الجزيرة إلى البر ، فتردى بيمرى فى الوحل ،
ولم أستطع إنقاذه إلا بشق الأنفس . وفى استطاعة هذه الإبل أن تسير بخطى
ثابتة وسط رمال تملو إلى ركبها ، ولكن قليلاً من الوحل يُمثرها . وبعد
نصف ساعة مررنا بقرية أرقين والبر الغربى من الشلال إلى هذه القرية وإلى
الشمال منها أجرد قاحل تغطى السهل فيه رمال كثيفة . وبعد ساعة ونصف جزنا
أمام إشكيت . وبعد ساعتين ونصف رأينا قرية دبيرة على البر الشرقى ، وبينها وبين
سرة على ذلك البر حرج متصل من النخل . وأتجه طريقنا للشمال الشرقى ، وبلغنا
سرة بعد أربع ساعات ونصف . وهى تكاد تواجه القرية المسماة بهذا الاسم على
لبر الشرقى . وبعد خمس ساعات مررت بأطلال معبد صغير ، يقوم غير بعيد عن

النهر وسط تلال رملية منخفضة، ومبناه الرئيسي يبلغ أربعاً وعشرين قدماً، وقد سقط سقفه ولم يبق من الجدران الأصلية سوى أسفلها، وفوقها شاد الإغريق جدراناً من اللبن وحولوا المعبد المهدم إلى كنيسة، وحوات الكنيسة هي الأخرى إلى مسجد. وليست هناك آثار لأعمدة في المعبد، وما رأيت على الجدران من نقوش هيروغليفية فاق في رداة صنمه كل ما رأيت حتى في معبد سمته الذي وصفته من قبل. وفي وسع الناظر أن يتبين على الجدار آثار صورة لموقمة حربية، ومجموعة لبرياربوس تمتاز بالرشاقة برغم رداة صنمها، وتمثله وقد ظفر غريمه بناصيته وشهر عليه سكينه ولكن ذراع أوزيريس المبسوطة تحميه. ويختلف الرسم عن نظائره من الرسوم التي تراها معادة مكرورة على جدران المعابد المصرية، فبرياربوس هنا ليس وحشاً متعدد الرؤوس ولكنه آدى الوجه يمسك في ذراعيه صديقاً يعالج سكرات الموت، وكلاهما يلبس في أذنيه قرطاً، وشعر رأسه مخلوق على طريقة عرب هذا الجزء من إفريقيا بشكل اختلط على بعض السياح — ممن وصفوا الطاقية التي رأوها مرسومة على المعابد المصرية — فظنوا هذا أيضاً طاقية.

وتجاء هذا المعبد في الشرق قرية صغيرة تدعى أرثينوق تقع إلى الشمال من سره الشرقية. وبعد خمس ساعات ونصف بلغنا فرس، وتقع تجاه الجزيرة الحصينة التي تحمل هذا الاسم نفسه. وتستمر تلال سره الرملية حتى تواجه أدندان، وينبسط إلى الغرب منها سهل فسيح تقوم وسطه تلال صخرية منعزلة. وعلى مسيرة سبع ساعات يرى المسافر كنيسة إغريقية مهتمة بنيت جدرانها إلى النصف بالحجر ثم بالآجر. ومررنا بعد سبع ساعات ونصف بثلاث مقابر منجوتة في الحجر الرمل الذي تتألف منه سلسلة منخفضة من التلال. والمقابر خشنة الصنع، وبداخلها نقوش إغريقية من عهد متأخر. وسرنا الآن متجهين شرق الشمال الشرق. وتنتهي سلسلة الجبال الغربية تجاه أدندان، وتستمر إلى الشمال تلال واطئة يفصلها عن النهر أرض رملية مرتفعة. وبعد تسع ساعات بلغنا البر تجاه قسطل، وبعد تسع ساعات ونصف عبرنا مجرى جافاً لفرع من فروع النهر قبلنا جزيرة بلانه، وحططنا عند كوخ من أكواخ عرب القراريش في طرفها الشمالي أمام قلعة أدنه.

بعد أن سرنا إحدى عشرة ساعة في يومنا هذا . وأشياء هذه الجزيرة يهجرها الناس إبان الفيضان .

٢٢ مارس — عدنا إلى البر سيراً فوق الرمال التي تتخلف عند انحسار الماء ، ومررنا بقرية بلانة . وبعد ساعة ونصف ارتقينا جبلا رمليا قائم المنحدر . والنهر في هذه البقعة يكتنفه الجبلان على ضفتيه . وفي الشرق وادي فويق ، ويسمى الجبل الغربي إسمبل [أبو سمبل] ، ولعلها كلمة يونانية مقطعتها الأخير « بل » تحوير لكلمة Polis أى مدينة . وحين أدركنا قمة الجبل تركت دليلي بالعميرين وهبطت شقاً قائماً مغمماً بالرمال ، لأنطلق إلى معبد أبو سمبل الذى طالما سمعت بأوصافه الرائعة . وليس هناك درب يسلكه اليوم قصاص هذا المعبد الذى يقوم فوق ضفة النهر تماماً ، ولعل تغيراً طرأ على مجرى النهر ، ولعله كان هناك درب قديم محاذ للنهر يسلكه الراغبون فى الوصول إليه . ويرتفع المعبد نحو عشرين قدماً فوق سطح الماء ، وهو منحوت بأكله في حائط الجبل الوعر ومحتفظ بروائه تمام الاحتفاظ . وأمام المدخل ستة تماثيل ضخمة لشبان واقفين ، على كل جانب ثلاثة ، وهى موضوعة فى كوى ضيقة وجهتها النهر ، وكلها من حجم واحد ، وترى التمثال منها يقدم رجلاً على رجل ، وبصحبتها تماثيل صغيرة سيأتى وصفها . وارتفاع التمثال من الأرض إلى الركبة ست أقدام ونصف ، وهى على الترتيب كما يلي :

(١) أوزيريس الشاب ، وله لحية صغيرة وعلى رأسه تاج وعلى كل جانب منه تمثال صغير قائم ارتفاعه زهاء أربع أقدام (٢) إيزيس تحمل بين ذراعيها هورس ، وعلى كل جانب من جانبيها تمثال صغير أيضاً . وعلى وجه إيزيس — برغم خشونة الصنمة — سياء الجلال والسماحة (٣) شاب يلبس على رأسه اللبدة المائلة المعروفة ، وقد تدلت ذراعه ، وعلى جانبيه تماثلان صغيران كالتماثيل السابقة . هذه التماثيل كلها تقوم على أحد جانبي الباب ، أما على الجانب الآخر فنمة (٤) تمثال للشاب نفسه (٥) تمثال لإيزيس وعلى رأسها القرص تحيط به الحيتان (٦) تمثال

ثالث للشباب ذاته . وكل تمثال من هذه المجموعة يرافقه أيضا تمثالان صغيران . وبعض التماثيل الصغيرة على هذا الجانب من الباب يختلف عن سائرهما ، إذ ترى شعر رؤوسها ينسدل من اليمين في خصلة كثيفة على الكتف اليمى ، في حين ترى شعر الجانب الأيسر مخلوقاً . وتملأ النقوش الهيروغليفية الفراغ المتخلف بين كوى التماثيل الكبيرة . وللمعبد باب صغير يؤدي إلى بهو الأعمدة الذى تسنده ست أعمدة مربعة ، مربع كل منها أقدام ثلاث ، وطول البهو ثلاث عشرة خطوة وهرضه سبع . وتمثل تيجان الأعمدة رؤوس إيزيس كما ترى في أعمدة معبد دندرة ، إلا أن الحفر هنا أعمق ، وأسلوبها شبيه بأسلوب النقوش التى على جدران المعبد . وحلية هذه الرؤوس على شكل معبد ، وينسدل الشعر في غدبرتين كثيفتين ، وهو في هذا أيضا يختلف عن رؤوس معبد دندرة . وتدخل من البهو إلى الهيكل الضيق من باب كبير وباين صغيرين . وعمق الهيكل لا يتجاوز خطوات ثلاث ، وعلى كل جانب منه حجرة مظلمة . أما قدس الأقداس فربه سبع أقدام ، وعلى الجدار الخلفى بقايا تماثيل منحوت من الصخر ، وفي الأرض مقبرة عميقة . وجدران الحجرات الثلاث تكسوها النقوش الهيروغليفية والرسوم المقدسة التى تراها عادة في المعابد المصرية . ويلوح أن رسوم الأشخاص كانت كلها مدهونة بالأصفر فيما عدا شعر رؤوسها ، فهو يبدو في كثير منها أسود ، أما شعر إيزيس فقد وخطه الشيب ، ومن المناظر المتكررة منظر القرايين من اللوتس وسمف الدوم تقدم إلى أوزيريس ، وكذلك النظر الذى تراه على جميع المعابد النوبية ، أعنى برياريوس ومن فوقه يد قاهره ، وهو هنا أيضا آدمى الوجه ، ويلوح أن معبد أبوسمبل كان المثال الذى على غرارته بنى معبد الدر ، وهو في رأى أقدم منه كثيراً . ولا شك في أنه كان مكرساً لمعبدة إيزيس ، وينبئ أسلوب نقوشه بمراقته في القدم . وعلى خطوات إلى الشمال من المدخل ترى على الصخرة القائمة فوقه رسماً غائراً لأوزيريس جالساً ، وقد جثا أمامه أحد عباده رافعاً ذراعيه أمام الإله ، وتحيط النقوش الهيروغليفية بالمعابد والمعبود . وقد قيل لى بعد ذلك في الدر إن على شاطئ النهر قرب المعبد تمثالاً للرجل يزيد قليلاً على الحجم الطبيعى ، وقد حمل تحت إبطه مسكيات القمح المصرى ، وإن التمثال يغمره الماء تماماً زمن الفيضان .

وبعد أن خلقتى شاهدت كل آثار أبو سمبل كدت أهبط السطح الرملى من حيث ارتقيته ، وإذا أنا أعر — بعد أن أوغلت جنوباً لحسن الحظ — على أربعة تماثيل ضخمة ، أو قل على مابقى ظاهراً غير مطمور من هذه التماثيل الهائلة المنحوتة فى الصخر على مائتى ياردة من المعبد . والتماثيل فى فجوة عميقة منقورة فى الجبل ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن الرمال التى تسفيتها الرياح هنا كأنها السيول الدافقة قد طمرتها أو كادت . ويظهر اليوم فوق الرمال رأس تمثال منها وجزء من صدره وذراعيه ، أما جاره فلا تكاد تتبين منه شيئاً لأن الرأس مكسور والجسم تغمره الرمال إلى ما فوق الكتفين . وأما التمثالان الباقيان فلا يبدو منهما غير اللبدين . ويصعب الحكم على وضع هذه التماثيل ، أهى جالسة أم واقفة ، فظهورها ملتصقة بقطعة ناتئة من الصخر قد تكون جزءاً من مقعد وقد تكون مجرد عمود تستند إليه . والتماثيل لا تواجه النهر كتماثيل المعبد التى وصفتها من قبل ، وإنما تغلفت إلى الشمال صوب أصقاع مصر الحصينة ، فيكون الخط الذى تنظم فيه زاوية مع مجرى النهر . ورأس التمثال الظاهر فوق الرمال قوى التعبير بآدى الفتوة ، وهو أقرب إلى مثل الجمال الإغريقية من أى تمثال مصرى قديم وقع عليه بصرى ، ولولا لحيته المستطيلة الرقيقة لظنه الناظر رأساً لبالاس* . ويلبس صاحب التمثال اللبدة العالية التى تسمى عادة بالمسكيال ، وفى مقدمتها نقوش عليه مقياس النيل ، وتجد مثل هذا فى لبدتى التماثيل الآخرين . وعلى الذراعين نقوش هيرغليفية حفرت فى الحجر الرملى جفراً عميقاً دقيقاً . وعرض التمثال فيما بين الكتفين سبع ياردات ، فلا يمكن إذن أن يقل ارتفاعه واقفاً عن خمسين وستين قدماً إلى سبعين . وطول أذنه ياردة وأربع بوصات . وعلى جدار الصخرة فى وسط التماثيل الأربعة رسم لأوزيريس ، وله رأس صقر يملوه قرص الشمس . وفى ظنى أنه لو أمكن إزاحة الرمال عن المكان لتكشفت عن معبد كبير حلى مدخله — على الأرجح — بهذه التماثيل الضخمة كما حلى معبد إيزيس المجاور له بالتماثيل الستة . ويحملنى وجود رسم أوزيريس الصقرى الرأس على الظن بأن

المعبد كان مكسراً لأوزيريس . وتكسوا النقوش الهيرغليفية جدار الصخرة الذى سوى من خلف التماثيل ، وعليه صف من أشخاص جلوس يزيدون على العشرين نحتوا كالباقين من الصخرة ولكن معالمهم طمست فلم أستطع وأنا فى موضعى تحتمهم أن أفهم الحكمة فى وجودهم . وارتفاع الواحد منهم زهاء ست أقدام . وفى وسمى أن أحكم — استناداً إلى ملامح التمثال الذى ظل رأسه ظاهراً فوق الرمال — بأن هذه التماثيل صنعت فى أرقى عصور النحت المصرى ، ولكن النقوش الهيرغليفية التى على سطح الصخرة خشنة الصناعة ، ولعلها ترجع إلى العهد الذى حفرت فيه نقوش معبد الدر . وعلى بضع خطوات إلى الجنوب من التماثيل الضخمة الأربعة فجوة منقورة فى الصخر يرقى إليها الرأى بدرجات صاعدة من شاطئ النهر ، وتتلأ جدرانها النقوش الهيرغليفية ورسوم إيزيس وأوزيريس الصقرى الرأس . وأهل بلانة وجيرانهم من العرب يمتصمون بمعبد أبو سمبل من الفارات التى تشنها قبيلة من بدو المغرب على هذه النواحي بالنظام كل عام ، وهؤلاء ينتمون إلى القبائل المقيمة بين الواحة الكبرى وأسيوط . وحين يبدئون غاراتهم يقصدون أولاً أرقو ، ومنها يخرجون فى رحلتهم ينهبون ويسلبون القرى الواقعة على ضفة النيل الغربية . ثم يعضون إلى المحس وسكوت وبعطن الحجر ووادى حلفا والقرى المواجهة للدر ، وأخيراً إلى الدكة ، ومن ثم يرتقون الجبل ويعبرون الصحراء ميمين صوب أسيوط . وتتألف الجماعة منهم عادة من نحو مائة وخمسين فارساً ، ومثلهم على ظهور الإبل . وليس فى النوبة من يجزؤ على الوقوف فى وجههم ، لا بل إن الحكام يزورونهم ويقدمون إليهم الهدايا حين يصلون نجاء الدر . وغارات هذه القبيلة من الأسباب الهامة التى جعلت الناس يهجرون معظم الضفة الغربية للنيل ، وأهالى بلانة يمتصمون بمعبد أبو سمبل هم وماشيئهم كلما زحف صوبها هؤلاء المغاربة ، وقد حاول المغاربة فى العام الماضى أن يقتحموا هذا الحصن عنوة ، ولكنهم ارتدوا عنه خائبين بعد أن مات منهم كثيرون .

وسرنا من أبو سمبل على شاطئ رملى قاحل متجهين شرق الشمال الشرقى . ومضت ثلاث ساعات ونصف على بداية رحلتنا فى الصباح ، قررنا بأطلال كنائس إغريقية صغيرة .

ثم وصلنا أمام فرقندى (الواقعة على البر الشرقى) بعد ست ساعات ونصف ،
فأخذنا بميرينا عند كوخ من أكواخ العرب ، وجدنا به شابا وفتاة جميلة هي ابنة
عمه . وكان أهلها يسكنون البر الشرقى ، وقد أوفدوها ليلاحظا زرعاً لهم .
فسألت الفتاة ألا تخشى البقاء وحدها مع ابن عمها فأجبت « ليش أخاف ، ما هو
ابن عمى » . وأبناء العم عند البدو يمدون فى مقام الأخوة والأخوات تقريباً .

٢٣ مارس — يستمر الشاطئ رمليا مرتفعاً . وقد خلفنا النهر إلى يميننا
واختصرنا المسافة بشق طريق قصير فى السهل يتجه شرق الشمال الشرقى . وبعد ساعتين
ونصف مررنا بقرية توشكه الواقعة على ضفتى النيل ، وكانت تبعد عنا مسيرة ساعة إلى
اليمين ، وبعد خمس ساعات وصلنا مصمص على الضفة الغربية أمام وادى البستان ،
وبعد ست وادى الشباك على الضفة الشرقية . ومن ثم سرنا للشمال الشرقى منحرفين
شرقاً فوق سهل فسيح محصور بين الجبال الغربية والنهر . ورأينا إلى يميننا قرية
قته بعد تسع ساعات . ويقوم على ميلين من النهر تل بمنزل من الحجر الرملى نحتت
فيه حجرة دفن صغيرة طولها سبع خطوات ، وعرضها ثلاث ، وارتفاعها خمس
أقدام ونصف ، وفى وسطها حفرة المقبرة ، وألحقت بها حجرة صغيرة فى أسفلها
تمثال نصفى قائم بين ممددين لملها أعدا لوضع الجثث المحنطة عليهما . وعلى جوانب
الحجرة الرئيسية رسوم احتفظت بألوانها كما احتفظت بها مقابر الملوك بطيبة وإن
لم تضارعها فنا ، وأهم هذه الرسوم يمثل تقديم القرابين لأوزيريس وأيبس وعبادتهما .
ورأيت على ناحية صورة تمثل قرداً بوجه كلب Cynocephalus يحنط جثة مدت
على منضدة أمامه ، وعلى الناحية الأخرى رأيت القرد نفسه تمسكا بميزان
فى يده وقد وقف أمامه أبو الهول . وعلى جدران الحجرة الصغيرة رسوم
تمثل موضوعات زراعية كالحرث وبذر الحب والعزق الخ . . وليس
بالمكان مقابر غير هذه ، ومما يثير العجب ألا يجد المرء فى جبال النوبة الكثير
من أشباه هذه المقبرة مع كثرة ما فى جبال مصر منها بجوار جميع المدن
القديمة . وعدنا إلى النهر عند قرية تدعى عافية بعد إحدى عشرة ساعة ، ثم سرنا
نصف ساعة أخرى فبلغنا توماس ، وفيها حططنا عند بيت من بيوت حسن كاشف .

وتوماس قرية كبيرة ، وجل سكانها من سلالة عرب الغربية الذين احتلوا النوبة قديماً .

٢٤ مارس — بعد مسيرة ساعة ونصف من توماس وصلنا تجاه الدر ، وفيها « معدية » لنقل الناس من بر إلى بر ، وانتظرت الراكب برهبة ، وكان على البر الآخر ، ثم رأيت حسن كاشف نفسه يركبه ليعبر النهر ، فلما بلغ الشاطئ لقيني بفتور شديد ، وقال لي « ما كان لك بالمحسن شأن ، فلم تعد بعد بلوغك سكوت ؟ » ثم سألتني عما قدمت من هدايا لأخويه ، فأجبتني أنني لم أقدم لها شيئاً لأنني لا أملك شيئاً . قال « إني لأعجب إذن كيف أخليا سبيلك وأنت لا تحمل لها خطابات توصية » . قلت إنهما أكرما مشواي ، لا بل ذبحا لي شاة . ولم يكن هذا صحيحاً ، وإنما قصدت به التعريض بحسن كاشف لأنني لم أذق اللحم في أثناء مكثي ببيته ، ثم دخلت المركب ، وجره عبيد الحالك على البر إلى توماس حيث أراد كاشف التفتيش على بعض الحقول ، وهنا شهدت مثلاً قاسياً من أمثلة الطغيان والاستبداد المألوفة في بلاد الشرق ، ذلك أن حسن كاشف كان يطوف بحقل كبير في نحو ثلاثين من أتباعه وعبيده : فأخبر صاحب الحقل أنه أخطأ بزرع حقله شعيراً ، لأن البطيخ كان يزكو أكثر منه . ثم أخذ من جيبه شيئاً من بذور البطيخ وأعطاهما للرجل وهو يقول « خير لك أن تطلع الشعير وتزرع هذه البذور عوضاً عنه » . ولكن الشعير كان قد قارب النضج ، فاعتذر الرجل بطبيعة الحال عن عدم تنفيذ ما أمر به كاشف . وهنا قال كاشف « إذن فسأزرع أنا الحقل بطيخاً نيابة عنك » ، ثم أمر رجاله فوراً بتقليع الشعير وتمهيد الحقل لزراعة بطيخاً . وحمل المركب بعد ذلك بالشعير المقطوع . وهكذا نكسب الرجل وأفراد أسرته ليوفروا الجياد الحالك وجماله عايقاً من سيقان الشعير يكفيها ثلاثة أيام .

وعدت إلى الدر مع حسن كاشف ، ولكنني لم أقم فيها غير ساعات . وصرفت دليلي القراريشي الأمين محمد سعد ، بعد أن نفجته بملاية صوفية طالما تاهف عليها . وكان رجلاً طيباً ، لولا أن فيه عيباً واحداً ، ولكنه في الدليل يمد عيباً كبيراً . ذلك أنني ما كنت أستطيع حملة على إخباري بطول المسافات التي

سقطهما أو بذكر الأماكن التي يجب أن نخط فيها للمبيت . وكنت إذا سألته عن ذلك أجابني بقوله « الله يسهل علينا ! » فإذا ألححت عليه طالباً منه جواباً حريحاً قال « الله أكبر ! إن الله قادر على أن يطيل المسافات أو يقصرها » . فهو يظن أن من التناول على قدرته تعالى أن يتحدث عن المستقبل في شيء من الجزم واليقين ، وأن هذا قد يكون مجلبة للشؤم على الرحلة ، وهو اعتقاد كثيرين من العرب ، لذلك قل منهم من يتحدث إليك في ما ينبغي عمله دون أن يضيف إلى حديثه عبارة « إن شاء الله » . ولكن دليلي الشيخ لا يرضى بالتورط ولو إلى هذا الحد ، وكان دأبه التهرب من الحديث عما نحن مقبلون عليه . قلت له وهو يسألني الملائية الموعودة قبيل افتراقنا « الله يسهل لك » ، وهي عبارة تقال عادة للسائل إذا أريد صرفه في رفق . قال « لا ، إني أسألك أنت هذه المرة أن تسهل لي » . فنفحته بالملائية وبشيء من النقود ، وأنا واثق أن أبا سمد لن ينساني قط . وقدمت غدارق هدية لحسن كاشف وأنا استأذنه في الرحيل ، لأنني وجدتني على الجسلة راضياً عن مسلكه معي . ولكنه كان معكر المزاج ، فأخبرني أنهما لا تليقان برجل من آل كاشف ، وأنه يريد غدارتين طويلتين مما يحمله المالك في مروجهم . فوعده بزوجهما ، وافترقنا على هذا الوعد . وقد كتبت إلى القاهرة منذ قليل في طلب الغدارتين ، وسيد هاشم كاشف حين يتلقاها ، فليس من المألوف في بلاد الشرق أن يذكر الناس فضلاً لأمري . أصبحوا في غنى عن خدماته (*) .

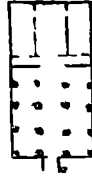
ويستطيع السائحون في النوبة أن يسافروا مطمئنين حتى وادي حلفا على الأقل مادامت مصر تتمتع بحكومة مستقرة يحترمها حكام النوبة . ولو أن في مصر حكومة لا يخشاها أبناء كاشف لما استطاع السافر أن يتجاوز الدر ، ولجردوه هناك من ماله وردوه على عقبه . ومهما يكن من أمر ، فلا غنى للمسافر عن التزود قبل سفره بالهدايا لاسيما إذا اتفق وجود الإخوة الثلاثة في الدر ،

(*) وفي أكثر بلاد الدنيا ، بل ربما كان من أهل الشرق من هو أكثر وفاء من غيره (غربال) .

فهم شديدو الغيرة والتحاسد ، ولو أنه اختص أحدهم بهدية دون أخوية لمنعاه
حتمًا من مواصلة سفره في النوبة .

واستخدمت خبيراً جديداً يصحبني إلى أسوان ، ثم عبرت النهر ثانية ، وبت
على مسيرة ساعة ونصف من الدر أمام المربوانه تقريباً ، في كوخ بناء بعض العمال
قرب ساقية .

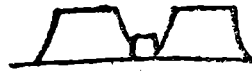
٢٥ مارس — على مسيرة ساعة ونصف من مبيتى توجد بقعة على مقربة من
النهر تسمى الحصانة كانت تقوم عليها فيما مضى قرية . وهنا توجد خرائب معبد
صغير ، طول بهو أعمدته ست عشر خطوة ، وفيه ثلاثة صفوف من الأعمدة



المربعة ، وفي كل صف أربعة أعمدة مربع كل منها قدمان . وثمة صف آخر من
أربعة أعمدة مستديرة ملاصقة للهيكل . وجميع الأعمدة بنير تيجان ، ونقوشها
المهيرغليزية رديئة ، ورسم الدبور أكثر رسوماً تكراراً . ويحيط بالبهو سور
يملأ ما بين الأعمدة الخارجية من مسافات . ومن البهو يدخل الزائر الهيكل
ماراً بحجرة صغيرة ، وعلى كل جانب من جانبي الهيكل حجرة في طول الحجرة
السابقة ولكنها أضيق . وليس للهيكل قدس أقداً . وجدان الهيكل
مكسوة بطبقة كثيفة من الملاط رسمت عليها صور القديسين الإغريق . وقيمة
المعبد في سلامته ، إذ أنه لا يكاد ينقص شيئاً ، ولكن الرمال تراكت حول
جدرانه وأعمدته . وعلى سقف الهيكل شرفة مبلطة ، وقد بنى الإغريق قبة على
البهو . وفي رأي أن هذا هو المعبد الذي ذكره نوردن Norden وقال إنه يقع قرب
عموما . وعلى عشرين باردة منه تجاه النهر ترى أساس بناء آخر من الحجر .

وعلى مسيرة ساعتين ونصف قرية السريقة تجاه شقة على البر الشرق .

وبستطيع المسافر أن يسلك درباً قصيراً في الجبل من الدر إلى أسوان، ولكنني آثرت السير مع النهر، ورأيت الشاطئ لا يزال رملياً جداً. وكان الفلاحون قد حفروا فيه حفرة بحثاً عن كنز، فظهرت تحت الرمال طبقة غرينية خصبة يصل سطحها إلى علو لا ترقى إليه المياه اليوم حتى في أعلى الفيضانات. وقد أتيت لي أن ألاحظ هذه الظاهرة نفسها في أماكن أخرى، مما يدل على إحدى اثنتين: إما أن قاع النهر، أو فيضانه، كان فيما مضى أعلى بكثير منه اليوم في النوبة؛ لأنه من الواضح أن هذه التربة من رواسب النهر. والشاطئ من الرقة إلى الشمال أجرد قاحل. وبعد أربع ساعات مررنا تجاه سنقارى، وبعد خمس وصلنا قرية صغيرة تسمى المالكي، وهي تقابل الطرف الشمالي لوادي سنقارى، وبعد ست ونصف وصلنا أمام الطرف الجنوبي لوادي العرب، وشاطئ النهر هنا أجرد لا ترى فيه غير تجمع صغير. وبلغنا البر تجاه وادي السبوع بعد عشر ساعات، وهنا تقوم أطلال المعبد الجميل الذي أشرت إليه في وصف رحلتي جنوباً. وتقوم هذه الأطلال على سفح تلال منخفضة يفصلها عن النهر سهل ضيق. وأمام المعبد بوابة شبيهة ببوابة معبد القرنة بطيبة، وطولها ثمان وعشرون خطوة، وبين جناحيها الهرمين باب صغير يؤدي بك إلى فناء بهو الأعمدة الذي طمرت الرمال نثنيه. وللهو خمسة أعمدة بنير تيجان في كل جانب من جانبيه الطويين. وترى أمام كل عمود تمثالاً ضخماً ملتصقاً به كتمثيل معبد القرنة، ويبلغ ارتفاعه ست عشرة قدماً وبشباك ذراعاه على صدره، ويحمل في يده سوطاً وفي الأخرى يحمل صولجاناً. وكل



هذه التماثيل مشوهة. ولما كانت جدران البوابة وبهو الأعمدة مبنية بالكتل الصغيرة من الحجر الرملى الهش فقد عفا عليها الزمن حتى لا تكاد تتبين شيئاً من الرسوم التي كانت تغطيها أصلاً. على أنك تستطيع أن تميز على حائط البوابة الخارجي

رسماً لبراريوس ومعه جتقان . وأمام المدخل ألقى على الأرض تمثال ضخيم لإنسان طمر رأسه وصدره في الرمل ، ولعله كان في الأصل يقوم على جانب البوابة كتماثيل الأقصر الضخمة . والتمثال لرجل يقف في نفس الموضع الذي تقف فيه التماثيل القائمة أمام معبد إيزيس بأبوسمبل . ويقوم أمام البوابة ، وعلى ثلاثين ياردة منها ، تمثالان علو الواحد منها عشر أقدام ، ويبعد الواحد عن أخيه سبع خطوات ، ووجهاهما إلى النهر ، ويتصل ظهرهما بممود من الحجر بالارتفاع نفسه . وليس في التمثالين دقة رلا إتقان ، والدليل على عدم مراعاة النسب فيهما أن طول الأذن يبلغ نصف طول الوجه . ويلبس كل منهما اللبدة العالية ، ويمثل ذكراً غير ملتج . وبين النهر والمعد طريق من تماثيل أبي الهول ، ولكن أكثرها مطمور ، وقد بقي منها أربعة إلى جوار التمثالين سألني الذكر ، ولها — على اختلافها حجماً وشكلاً — أجسام السباع ورءوس الشبان فضلاً عن اللحي الصغيرة التقليدية . ولاحظت أن في قه رءوسها المستوية ثقباً لمل الغرض منه تهيئة مكان لتمثال صغير . وعلى مقربة من المعبد تلال من الأنقاض والشقف ، ويلوح لي أن المعبد كله موغل في القدم ، وأن المهندسين المصريين المتأخرين شادوا المعابد المصرية على غرارهِ ، وآية ذلك أنك تجد نظير هذه البوابة التي وصفت ، ونظير هذا البهو — بتماثله الضخمة — في القرنة ولكن بحجم أكبر . أما التمثالان القائمان أمام البوابة فهما مصغر تمثال ممنون . أما تماثيل أبي الهول فترى أشباهها في الكرنك . ولم أستطع الفراغ من زيارة هذا المعبد إلا بعد الغروب بكثير ، لذلك لم نواصل السير بعد ذلك غير نصف ساعة ، ثم حططنا عند كوخ رجل من عرب العليقات .

٢٦ مارس — بعد ساعة ونصف جئنا وادي المضيق ، ويقوم على ضفتي النهر . وبكثر نحو السنامكي هنا . ولم يعد بعد كثير من أهالي المضيق الذين لجأوا إلى إسنا بعد مرور المالك بهذه الأنحاء ، وكثير منهم مات هناك بالجدري (*) . وبعد ساعتين ونصف مررنا بنجاء وادي النصرلاب .

(*) من الحقائق الغريبة التي أكد هالي كثيرون أن الجدري لم يقد قط على وادي السكوز أو السهل الساحلي الضيق من الشمال إلى كرسكو . والمرض معروف في الدر حيث يجثم الناس كثيراً .

وبعد ثلاث ساعات ونصف بلغنا النوايا، وهي قرية خربة تواجه سيالة الواقعة على البر الشرقي . وشاطئ النيل في هذه البقعة شقة شديدة الضيق ، والتلال الغربية واطئة رملية . وبعد خمس ساعات ونصف رأينا على التلال أطلال عدة كفنائس إفريقية . وبعد سبع ساعات بلغنا المحرقة الواقعة على البرين . وتقوم على التل الصخري المشرف على النهر مدينة صغيرة خربة بنيت بيوتها بالحجر الصغير وبالبن ، وهي أبنية هربية . وبلغنا الطرف الشمالى لوادى المحرقة بعد ثمانى ساعات ونصف ، وانبسط السهل انبساطاً ملحوظاً ، فهو في هذه البقعة أعرض منه في أى بقعة شمالى الدر ، وإن اقتصررت الزراعة اليوم على أجزائه الملاصقة للنهر . وقد رأيت هنا أطلال معبد يتألف من رواق به أربعة عشر عموداً ضخماً ذات تيجان تنوعت حجماً وشكلاً بتنوع الذوق في المارة المصرية القديمة . ويحيط بالأعمدة سور يرتبط بالدعائم المرسكة على الأعمدة فيؤلف بذلك بهواً مسقوفاً . وقد سقط الجدار القبلى بفعل هزة فجائية عنيفة فيما يبدو ، لأن الأحجار ملقاة على الأرض مداميك كما رصت على الجدار وقت بنائه ، مما يدل على أنها انهارت فجأة . ورأيت نقوشاً هيرغليفية على أحجار متناثرة . ويصل الأعمدة في الجانب القبلى — فيما عدا عمودى الوسط — حائط منخفض لا يبدو ارتفاعه نصف ارتفاع الأعمدة ، وهذا يشبه ما تراه في أعمدة معبد أوزيريس الصقرى الرأس



في فيلة . وللمعبد مدخل كبير ومدخلان صغيران ودرجات ترقى بك إلى القمة . وعلى الجدران كثير من رسوم القديسين الإغريق ، ولكنك لا ترى عليها آثاراً لنقوش هيرغليفية أو لرسوم كائنة ما كانت ، بل ولا قرص الشمس الذى لا يخلو منه معبد مصرى . وكذلك عطلت الأعمدة من النقوش . وقد بلغ بناء الجدران غاية الإتقان ، وعليها الكثير من النصوص الإغريقية المكتوبة بالداد الأحمر ولكنى لم أتبين منها سوى النص التالى :

ΓΕΜΙΝΙΟΣ ΦΡΟΝΤΩΝ . . .
 ΠΡΟΣΕΚΥΝΗΣΑΤΗΝ . . .
 ΡΙΩΝ ΤΜΟΝΕΙΣΙΝ ΚΑΙ ΤΟ .
 ΗΛΙΟΝ ΣΑΡΑ ΠΙΝ ΚΑΙ ΤΟ ΠΡΟ .
 ΚΥΝΗΜΑ ΕΠΟΙΗΣΑΤΩΝ ΕΜΩ
 ΠΑΝΤΩΝ ΚΑΙ ΤΟΥ ΑΝΑΓΩ
 ΝΩΣ ΚΟΝΤΟΣ Ὁ ΗΜΕΡΟΝ
 ΕΠ-ΑΘΩ

كذلك نسخت النص التالي من على الجدار ، ولكنى أجهل كنه الحروف
 التى كتب بها ، ولا تتيج لى ظروفى الحالية فرصة التحقق من أمرها .

٤٠١١٤٨-٤٢٨٧ ٤٢٨٧-٤٠١١٤٨
 ٤٠١١٤٨-٤٢٨٧ ٤٢٨٧-٤٠١١٤٨

كذلك شاهدت نصوصاً عديدة بالخط الشعبى الذى تراه على البرديات
 المصرية .

ويقوم الرواق كله على شرفة من الأحجار الضخمة ترتفع ثمانى أقدام صوب
 النهر . وعلى هذا الجانب البوابة الكبرى ، ولما لم يكن هناك سلم يودى إليها
 فإنى أرجح أنها لم تكن تستعمل إلا زمن الفيضان حين تستطيع السفن أن ترسو
 تحتها ، أما اليوم فلا يبلغ الماء المعبد فى موسم الفيضان . وطول الرواق خمس
 عشرة خطوة وعرضه تسع ، وليس فى بنائه ما يشعر بمصريته سوى بعض النخل
 المنقوش على تيجان الأعمدة ، ومع ذلك فإن فيه بساطة تروع الناظر ، وهو فى ظنى
 يرجع لأخريات عهود المارة المصرية . وثمة أطلال بناء آخر بجوار سور الرواق ،
 ولعل هذا البناء معبد آخر شبيه بالأول لا جزء منه ، لأنى لم أجد تطابقاً فى أجزاء
 البنائين ، ولم يبق من هذا المعبد الثانى سوى جدار وأساس البناء الرئيسى ، وعلى
 الجدار عدة نقوش ترى فى واحد منها إيزيس جالسة تحت شجرة تتقبل القرابين .
 والنقوش بارزة لم أر لها نظيراً فى معابد مصر ، وهى إلى النقوش الإغريقية أقرب .
 وهذا الاعتبار — بالإضافة إلى البساطة الإغريقية التى تظالمك فى شكل الرواق —

يحملنى على الظن بأن البنائين من صنع البطالة الذين شادوا المعابد للآلهة المصريين في بقاع كثيرة من مصر مقلدين فيها الممار المخصص لعبادتهم . ولم أر على الجدار المذكور أى نقوش هيرغليفية .

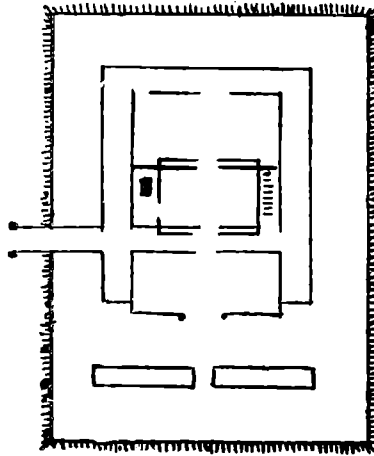
ورأيت بالمكان تلالاً كبيرة من الأنقاض والشقف . وبدهش كثير من السائحين حين يرون هذه الأكوام الهائلة من الأنقاض التى يكثر فيها الفخار منتشرة في خرائب المدن المصرية القديمة . وهى فى الحق مثار للدهشة لو أنها عللت بتكدر حطام الأواني الفخارية التى يستعملها السكان فى بيوتهم ، ولكنى أعزو وجودها لسبب آخر ، ذلك أن بيوت الفلاحين فى صعيد مصر كثيراً ما تبنى أجزاء منها بالقواديس من الفخار يصف بعضها فوق بعض وتملط بالطين ، فجدران الحظائر ونحوها مما لا يحتاج لسقف ثقيل تبنى أجزاؤها العليا عادة بهذه الأواني الفخارية . كذلك تجد مدامكين أو ثلاثة منها مبنية حول سطح البيت كأنها جدار واطىء يخفى الحریم حين يمشين عليه . وهم يؤثرون الفخار على اللبن لأن الجدران المبنية بالفخار أخف ولأنها أسرع بناء ، وأجل مظهراً . زد على ذلك أنه ليس فى الإمكان نقبها ليلا دون أن يحدث تساقط الفخار ضجة توقظ أهل الدار ، على حين يستطيع لصوص الليل أن ينزعوا اللبن واحدة واحدة دون إحداث ضوضاء . فإذا فرضنا إذن أن جدران الفخار كانت شائعة عند المصريين القدماء أمكننا أن نعلم وجود هذه التلال الهائلة من الفخار المحطم تعليلاً معقولاً . أما الحجر فكان فيما وبب قليل الاستعمال فى بناء المساكن عندهم كما هو شأنه اليوم .

وتبدأ جزيرة ضرار قرب وادى المحرقه ، وعلى ثمانى ساعات وثلاثة أرباع الساعة قرية قورته ، ويقوم على مائتى ياردة من النهر معبد خرب هو أصغر ما رأيت من المعابد المصرية ، وتستطيع أن تسميه نموذجاً مصغراً للمعبد مصرى ، فطوله لا يتجاوز عشر خطوات ، وبدن المعبد قائم وحجرة رئيس الكهنة باقية ، ولكن البهو مدفون تحت الرمل فيما يبدو . ويتبين الناظر بين النقوش أشكالا قليلة لم تزل بعد ، وقرص الشمس الممنح قائم فوق البوابة ، وفيما عدا ذلك فالمعبد فى حالة

عطب شديد . وبعد تسع ساعات ونصف وقفنا ببيت شيخ في الطرف الشمالى
لوادى الدكة .

٢٧ مارس — سرنا ساعة ثم رأينا أطلال معبد من أروع ما يرى السائح من آثار
وادي النيل . ففي الواجهة بوابة كبيرة طولها ثلاثون خطوة ، في وسطها باب كالذى تجده
في بوابة معبد إدفو ، وأمام الباب قطعة تحطمت من جسم أبي الهول . وليس على
حائط البوابة الخارجى نقوش هيرغليفية ولا رسوم أيا كانت ، وعلى جناحيها
درجات ترقى إلى القمة ، وهى شديدة الشبه في بنائها بدرجات بوابة معبد فيلة .
وتصل الجناحين شرفة تمتد فوق الباب ، وفي كل جناح عدد وافر من الحجر
الصغيرة يقع بعضها فوق بعض من القاع إلى القمة ، وهناك رسوم ونقوش هيرغليفية
على الجدار المواجه لباب المعبد وعلى جانبي المدخل .

وعلى ست عشرة خطوة من البوابة يدخل الزائر إلى البهو الخارجى ، ومدخله
بين عمودين مرتبطين بمجدار يملأ إلى نصف ارتفاعهما . وللعמודين تاجان شبيهان



بتيجان معبد فيلة المكشوف التى لا نظير لها في غير هذه البقعة من مصر ، والتي
وصفها « دينون » في رحلاته وذكر أنها تدانى التيجان الإغريقية رشاقة وجمالا .
وعلى أعمدة معبد الدكة رسوم عديدة لفت نظرى من بينها رسم لمازف على القيثارة .

وطول البهو عشر خطوات وعرضه سبع ، وسقفه من الكتل الحجرية الضخمة التي لا يقل طول الكتلة منها عن خمس عشرة قدما ، وثمة باب يؤدي من البهو إلى حجرة ضيقة لا يزيد عرضها على أربع خطوات (*) ويصلها بقدس الأقداس باب آخر حافل بالزخرف . وعلى أحد جانبي القدس حجرة صغيرة مظلمة فيها مقبرة عميقة رسم على الجدار من فوقها مباشرة أسد كبير ، وعلى جانبه الآخر من خلف جداره دهايز يتصل بالبهو الخارجى ، وفيه درجات ترقى إلى قمة البناء . ويبلغ مربع قدس الأقداس ست خطوات ، ومن خلفه حجرة أخرى أكبر منه قليلا ، وتصلها بوابة صغيرة بدهايز ضيق يقع بين حائط المعبد وحائط حجرى سميك كان يحيط بالبناء من نواح ثلاث ، ولكن لم يبق منه اليوم سوى أساسه . ورأيت على أرض هذه الحجرة كتلة ضخمة من الجرانيت ، وهذه من الحالات القليلة التي نجد فيها الجرانيت في معابد النوبة ، وعلى قاع الجدران ترى رسوم اللوتس المزدهر والقرايين المقدمة أمامه .

وليس في المعبد نقوش تاريخية ، ولكن جدرانه الخارجية وغرفه الداخلية كلها حافلة بالرسوم الدينية ، وبعض رسوم الجدران الخارجية يرتفع إلى أربع أقدام . ورسوم الحجرات جميعها متقنة تضارع في فنها أروع ما يستهوى السياح هرمونيتيس [أرمنت] وقيلة بل إننى لأفضل رسوم الحجرة الواقعة خلف قدس الأقداس على أى رسوم في معابد هاتين البقعتين ، فدقة الرسم وجمال التصميم لا نظير لهما في المعابد المصرية قاطبة ، وما أجدر بعض هذه الرسوم بأن يزين جدران بناء يونانى . وعلى كل جانب من جانبي الحجرة الضيقة الواقعة خلف البهو الخارجى بوابة صغيرة تفتح على الدهليز المذكور ، وأمام بوابة منهما طريق يفضى إلى النهر ، وعلى ظاهر البوابة الثانية خط سطران طويلان أحدهما بالهيرغليفية ، والآخر بالخط المصرى الدارج الذى تقرأه على أوراق البردى ، ويقع هذا أسفل ذاك مباشرة ، ويبدو أن كاتب الخطين واحد ، وفى ظنى أن السطر الثانى ترجمة للأول ، فإذا صدق هذا فلعل للنص بعض القيمة .

(*) اختصت بعض معابد النوبة بهذه الحجرة الضيقة الواقعة خلف البهو ، والتي لم أر لها نظيراً في معابد مصر ، ولست أدري أصواب أم خطأ اعتبارها هيكلاً للمعبد .

ويلوح أن البوابة وسائر المعبد كان يحيط بهما سور من الآجر ما زالت أجزاء منه ظاهرة ، ويستطيع الناظر أن يتبين آثار الأجزاء الباقية من تحت أكوام الرمال ، وقد اتخذ المسيحيون الإغريق من هذا المعبد كنيسة لهم ، وآية ذلك رسوم القديسين التي ما زالت ظاهرة على جدرانه . وعلى البوابة وعلى حائط المدخل يرى النصوص الكثيرة إغريقية ومصرية ، وهي نصوص كتبها زوار دفعهم حب الاستطلاع إلى زيارة المكان . وقد نسخت من النصوص الإغريقية ما يلي :

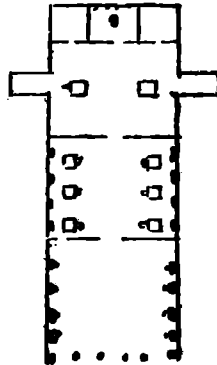
ΚΑΛΛΙΜΑΧΟΣ ΕΡΜΗΝΟΣ ΣΥΝΗΛΘΟΝ
ΚΑΙ ΠΡΟΣΕΚΥΝΗΣΑΤΟΝ ΑΥΤΟΝ ΘΕΟΝ
ΕΤΟΥΣ ΛΒ ΚΑΙΣΑΡΟΣ ΦΑΟΦΙ
ΑΠΟ ΛΩΝΙΟΣ ΑΠΟ ΛΩΝ
ΣΤΡΑΤΗΓΟΣ ΟΜΒΕΙΤΟΥ ΚΑΙ
ΠΕΡΙΕΛΕΦΑΝ ΤΗΝ ΗΚΑΙ ΦΙΛ
ΗΛΘΟΝ ΚΑΙ ΠΡΟΣΕΚΥΝΗΣΑΘ
ΕΡΜΗΝ ΜΕΓΙΣΤ
ΔΟΜΙΤΙΟΣ ΑΡΡΙΑΝΟΣ
ΣΤΡΑΤΙΚ ΠΕΙΡΗΒΙΤΟΥΡΑΝ
ΦΗΛΙΚΟΣ ΚΑΙ ΔΟΜΙΤΙ-
ΟΥΙΟΣ ΜΟΥΟΥΝΤΩ ΠΑΝΤΑ
ΟΙΚΩ ΠΡΟΣΕΚΥΝΗΣΑ
ΘΕΟΝ ΜΕΓΙΣΤΟΝ ΕΡΜΗΝ
ΙΚΑΔΡΙΑΝΟΥ ΚΑΙ ΚΑΡΟΣ
ΤΟΥ ΚΥΡΙΟΥ ΤΥΒΙ ΙΗ

وفي ظني أن معبد الدكة مبني على غرار معبد فيلة ، بل إن بناءه يبدو لي أدق من بناء فيلة وإن يكن أصغر ، وهو على جانب عظيم من الأهمية لاحتفاظه بجميع تفاصيله كاملة . ولعل الدكة هي Pselcis القديمة ، أمام معبد كوبرا الصغير الواقع شرقي الهر فاعلمه

Contra-Pselcis . وقد احتفظ معبد قورته باسمه القديم Corti . ولا بد إذن أن رواق معبد المحرقة قائم على الموضع الذى كانت تشغله Hiercsycaminon . وعلى ذلك لا تجسد ذكر المابد السبع والحماية وأبو سجيل وبلادها فى دليل المسافرين لأنطونينوس Antoninus .

وفى شمال المعبد ترى خرائب مدينة عربية تبين من بينها شواهد قبور كتبت بالخط الكوفى كتلك التى رأيتها فى مقابر أسوان . وتكسو السهل تلال كبيرة من الأنقاض . وبين الدكة وبنباره — وهى قرية تقع أمام دراو على خمسة وعشرين ميلا شمال أسوان — درب يخرق الجبل الغربى ويقطعه المسافر فى ثلاثة أيام من السفر الهين . وعلى الدرب بئر يسمونها كركر ، وينمو النخيل على مقربة منها .

بلغنا وادى كشتمنة الواقع على الضفتين بمد قيامنا فى الصباح بثلاث ساعات . وبلغنا وادى قرست بعد خمس . وفى أقصى شمال هذه القرية معبد منقور فى الصخر هو نقيض واضح لمعبد الدكة الذى يجاوره ، فمعبد قرشة يرجع إلى طفولة فن العمارة حين كان الفنان يتذرع بالضخامة لا بالجمال للتأثير على الناظرين . والمعبد قائم على قمة تل تنطى سفحه المربض أنقاض وقطع تناثرت من تماثيل ضخمة . وفى واجهة المعبد رواق على كل جانب من جانبيه خمسة أعمدة مربعة قادت من الصخر ، وأمامها صف من الأعمدة المستديرة المبنية من الكتل العديدة ،



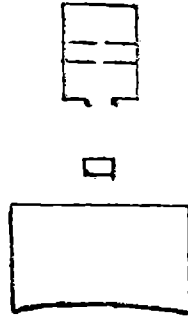
وكانت في الأصل تحمل فوقها دعامة مرتكزة عليها . ولم يبق اليوم من هذه الأعمدة سوى اثنان . وأمام كل عمود من الأعمدة المربعة تمثال ضخيم من الحجر الرمل يبلغ ارتفاعه ثمانى عشرة قدماً ، ويمسك صاحب التمثال سوطاً بإحدى يديه ويرسل الأخرى إلى جانبه . والتماثيل كلها لذكور لكل منهم لحية الصغيرة ولبدته المالية ، وعلى أكتافهم نقوش هيرغليفية . وعلى كل جانب من جانبي الرواق عمر مكشوف نحت من الصخر ، ولعل أحجار الأعمدة الأمامية قد انقطعت منه . ويبلغ مربع بهو الأعمدة ثمانى عشرة خطوة ، وبينه وبين الرواق بوابة كبيرة وبه صفان من الأعمدة الضخمة — أو الدعائم بتعبير أصح ، لأنها بغير تيجان — وفي كل صنف ثلاثة منها ، ومساحة العمود في الأصل خمس أقدام في سبع . وأمام كل عمود تمثال ضخم يزيد ارتفاعه على عشرين قدماً ، ويمثل الشاب الذي تراه عادة في هذه التماثيل وعلى رأسه اللبدة ويدها تقاطعان على صدره وقد حمل في إحداها السوط وفي الأخرى الصولجان ، ورغم ما في صناعة هذه التماثيل من خشونة وعدم تناسب (إذ فيها من الأخطاء في تصميم الجسم ما يفوق حتى أخطاء تماثيل معبد السبوع ، وسيقاتها ليست إلا كتلا غليظة مستديرة) فإنها تروع المتأمل لها في هذا البهو الصغير نسبياً . والحق أنني رغم ما ألفت من جلال المعابد المصرية — وقد سبق لى أن رأيت منها الكثير مما لا يضارع روعة وجلالا — فقد تملكنى شعور الإعجاب حين دخلت هذا البهو المظلم وأبصرت هذه التماثيل الهائلة واقفة أمامى في صمتها الرهيب ، وقد ذكرتني من فوري بما رأيت من رسوم الكهوف المجاورة لسوراط ، وبغيرها من المعابد الهندية التي كشفت عنها الحفائر ، فهى من وجوه عديدة شديدة الشبه بمعابد النوبة . وفي الجدارين الجانبيين للبهو أربع ملاقات أو كوى في كل منها ثلاثة تماثيل بالحجم الطبيعي للذكور والأنثى الرمزيتين الذين ترأى على جدران المعابد المصرية . والتماثيل الوسطى تكتسى أثواباً طويلة ، أما الباقية فعمارية . وهذه وتلك يعلوها غشاء صفيق من الجص ، وكانت في الأصل ملونة ، فلا بد أن منظرها يومئذ كان نخباً رهيباً . وثمة باب يؤدي بك من البهو إلى الهيكل ، وفي وسط الهيكل عمودان ضخمان ، وعلى كل جانب من جانبيه حجرة صغيرة

لعلها كانت حجرة الدفن . وعلى أرض كل من الحجرتين مقاعد حجرية عالية ربما كانت توضع عليها جثث الموتى ، أو لعلها كانت مناضد لتحنيط الجثث المودعة في المعبد ، وقد حطم اللصوص أرض الحجرات بحثاً عن النفائس فأصبحت اليوم تكسوها الأنقاض . وخلف الهيكل يقع قدس الأقداس ، ويصلها بمضمار باب ، وعلى كل جانب من جانبي القدس حجرة صغيرة لها باب يصلها أيضاً بالهيكل شأن حجرات معبد الدر . وفي حائط القدس الخلفي تماثيل أربعة لأشخاص جلوس بحجم يزيد على الحجم الطبيعي ، ورأيت وسط أرض القدس حجراً مخروطياً كبير الحجم لا أعرف الحكمة في وجوده ، وجوانبه ملساء ناعمة لا أثر فيها لنقش أو كتابة ، ولعله كان قاعدة لتمثال ، أو لعله تابوت مقلوب . وقد اعمى أكثر الرسوم والنقوش الميرغلفية التي كانت تغطي جدران هذا المعبد فلم تعد العين تتبين منها إلا القليل ، وذلك لأن الحجر الرملي هش سريع البلى ، زد على ذلك ما كسا الجدران من سواد بفعل الدخان المتصاعد من النيران التي يشغلها الرعاة المجاورون للمعبد ، والذين يبيتون فيه أحياناً هم ومواشيهم . على أن في القليل الباقي من هذه النقوش ما يحكم برداء صفتها . والتماثيل الضخمة سليمة ، خصوصاً ما كان منها في بهو الأعمدة ، أما تماثيل الرواق فشوهة .

وبينما كنت ألخص الحجر الداخلية في المعبد على ضوء شمة - لأن الضوء لا يصلها إلا من الباب الخارجى - لحق بى شيخ قرشة فى حجرة رئيس الكهنة ، وكان قد أسرع خلفنا حين رأانا ميممين شطر المعبد . وسألنى أن أقاسمه الكنز الذى عثرت عليه ، أو على الأقل أن أعطيه حفنة منه ، ولكنه قنع بشمة نفخته بها . وأرأى المكان الذى زعم أن الإنجليزيين (مسترلى ومسترسملت) قد عثرا فيه على كنز عظيم نقلاه على مركبهما ، وأكد لى أن أحد الفلاحين قد رأى الذهب بعينه ! ومثل هذا يروى وبذاع ، ويقسم على صدقه كل فلاح . والعجيب أن المصريين ، على الرغم من طول مكث الفرنسيين فى بلادهم ومرور السائحين بهم باستمرار ، مازالوا يعتقدون أن المعابد القديمة لا يقصدها الزائرون إلا بحثاً عن الكنوز الدفينة فيها .

ولست أدري هل قرشة ، أو دمرور التي تقع شمالها ، هي Tutzis القديمة
ويسمى الأهالي البقعة التي يقوم عليها المعبد المذكور **جرف صين** .

وإلى الشمال من قرشة يضيق الشاطئ كثيراً ، وقد ركبتنا فوق الجبل الصخري
الذي يكتنف النهر قبلتنا مارية بمسدت ساعات من الدكة ، وهنا قضينا
ليلتنا . وليس في مارية غرب سوى بضع أسر ، أما قرشة غرب فأهلة بالسكان .
٢٨ مارس — بعد أن ركبتنا ساعة ونصفاً على الشاطئ الضيق جئنا وادي
غربي دمرور وقد أدهشني أن أرى فيه أطلال معبد آخر ، لأن الشاطئ هنا
من الضيق بحيث لا يحتمل قيام مدينة ذات شأن ، فمضت من سطح التلال الصخرية
إلى حافة النهر لا يمدو ثلاثين خطوة .



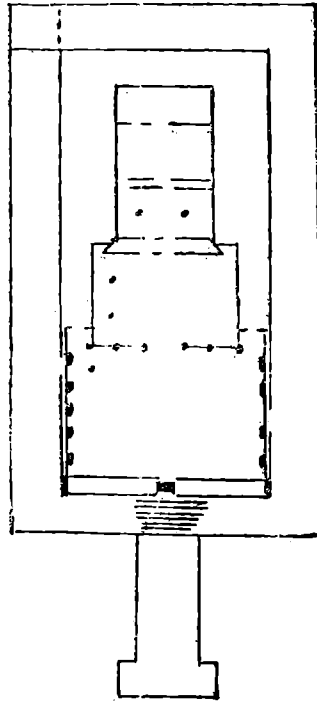
وأمام هذا المعبد بوابة صغيرة ذات إفريز عال بارز شبيه بما ترى في معبد دندرة .
ووراء البوابة بهو الأعمدة ، وبواجهته عمودان كعمودي معبد الدكة ، وطوله سبع
خطوات ، ثم يدخل الزائر إلى الهيكل ومنه إلى قدس الأقداس ، وعلى جدران
القدس نقوش قليلة . وقد لفت نظري بين نقوش جدران البهو رسم نبات اللوتس
المزدهر — الذي تراه على معبد الدكة — وأشخاص يقدمون أمامه القرابين .
وعلى جدار المعبد الخارجي رسوم شبيهة برسوم معبد دندرة ، وقد أعجبني منها
رسم جميل لهورس وقد وضع أصبعه على شفثيه . وبناء هذا المعبد في مجلته في غاية
الإنقان وإن تأخر عهده في ظل عن المعبد الذي بنى فيه معبد فيلة ، لأن في عمارته
ونقوشه قصوراً ظاهراً عن عمارة معبد فيلة ونقوشه . وأمام البوابة سوب النهر

فناء ذو سور حجري طوله خمس وثلاثون خطوة وعرضه خمس عشرة ، وأحجاره خشنة من الظاهر مصقولة من الداخل . وارتفاع الحائط المواجه للنهر خمس عشرة قدماً ، ويمتد بانحناء خفيف . وأرض الفناء التي تغطيها اليوم الأحجار والأقراص أكثر انخفاضاً من المستوى الذي بنيت عليه البوابة والمبعد . ولست أدري أكان هذا الفناء مخصصاً للمواكب الدينية أم لأشغال النحت ، فإنني لم أر له نظيراً في جميع المعابد المصرية . ووجود الأحجار والأقراص فيه يحمل على الظن بأنه كان في الأصل مسقوفاً . وخلف المبعد مباشرة ترى منارة منقورة في الصخر .

وبعد ساعتين وصلنا مروا ، ولا يتجاوز عرض الشاطئ في أي جزء من أجزاء هذا الوادي خمسين ياردة ، ولكنه زكي الزرع . ومروا يتبع وادي غزبي دندور . وبعد أربع ساعات ونصف وصلنا أبو هور وقد قطع في الصخر جنوبي هذه البقعة بقليل خزان له مخرج ينحدر منه الماء إلى حوض منخفض صغير . ويحار المرء في الغرض المقصود منهما مع أن النهر قريب جداً إليهما . ويرى السائر أرضاً كثيرة تمتد في النهر ، وهي دليل على حرص السكان القدمين على المحافظة على الأرض الصالحة للزراعة وزيادتها في هذه البقعة . وفي النهر هنا جزائر صخرية ، وفي سفوح التلال القريبة الملاصقة لمروا وأبو هور محاجر صغيرة وأسس أبنية حجرية أثرية . ويبنى النوبيون اليوم أكواخهم الحجرية ، كما كان يفعل أجدادهم القدمون ، على سفوح الجبال إذا ضاق للشاطئ خشية أن يجوروا على الأرض الزراعية . أما في البقاع التي ينبسط فيها السهل فإنهم يبنون مساكنهم من اللبن ويقيمونها وسط السهل . وتنمو على طول الشاطئ أشجار النخيل والسنت بشتى أنواعه . وهو يثمر في الربيع ثماراً مرة تشبه الخروب في شكلها ، يجمعها العرب ويبيعونها للتجار المصريين الذين يستعملونها في دبغ الجلود ، واسمها القرض . وينمو الكثير منها في أرباض أسيوط ، وهو من نوع أجود ، ومن أجله اشتهرت مداينها شهرة كبيرة .

ركبنا وتبدأت ساعات قبلتنا كلاشنة ، وهي أكبر القرى القريبة بين أسوان والدر . وفي أسفل التل القائم وسط القرية أطلال معبد هائل تمتد إلى النهر . وتتألف واجهة الدخول من بوابة كبيرة هي في غاية الجمال والبساطة ، وفي

وسطحها باب ينفذ منه الزائر إلى الرواق ، وكان على طول حائطه الجانبي صف من الأعمدة لم يبق منه غير عمود واحد قطره ثلاث أقدام وثلاث بوصات ، أما الأعمدة الأخرى فبقاياها ملقاة على الأرض ، وعلى كل جانب من جانبي الرواق دهليز مظلم ضيق متصل بالرواق ، وله باب يفتح على المنطقة المحيطة بالمعبد ، وهو يواجه بوابة كبيرة في حائط السور الخارجى . أما واجهة بهو الأعمدة فتحليلها أربعة أعمدة جميلة ودعامتان ، ويصل الأعمدة بعضها ببعض حائط يماو إلى نصف ارتفاعها على نحو ما ترى في مبادئ المحرقة والدكة وندور وقرناس ودبود ، ويبدو أن هذا الطراز من العمارة كان فاشياً وقت بناء معبدى دندرة وقيلة . وقد سقط سقف البهو ، وأحجاره اليوم منتشرة على أرضه ، ولم يبق من الأعمدة التى كان يرتكز عليها سوى اثنتين ، ولم أر على البوابة ولا على بهو الأعمدة نقوشاً أياً كانت ، اللهم إلا على حائط البهو الخلقى ، أو قل حائط الهيكل الأمامى ، وأهم ما عليه رسم لبرياربوس ذى الرأسين ، ومن فوقه يد خصمه الظافر ، وأوزيريس يحميه .



وطول الهيكل خمس عشرة خطوة وعرشه تسع ، ويعتد أقداماً فى البهو مكوناً

ما يشبه الحجرة القائمة بذاتها في وسط المعبد ، وهو أسلوب في العبارة لخطته في معبد الدكة ثم في معبد فيلة . وفي داخل الهيكل عمودان واطشان . ورأيت في قدس الأقداس حطام أعمدة ملقاة على الأرض ، ولم أر مثل هذا في قدس أى معبد مصرى . وفي جدران القدس فجوات مظلمة واطئة ، ونوافذ أو كوى كتلك التى تراها في معبد دندرة ، وسقفه من كتل حجرية تمتد بعرضه ، وسطحها يزيد على ثلاث أقدام . وخلف القدس حجرة شبيهة بما في معبد الدكة ، ويصلها به بابان . وقد سقط سقف الحجرة ، ولكن الزائر يستطيع الحكم بأن هذه الحجرة كانت أو طاماً من القدس ، وأن حجرة أخرى كانت مبنية فوقها . وفي جدران هذه الحجرة فجوات عديدة تؤلف الفجوة منها خلوتين واحدة وراء الأخرى ، ويفصلها باب ضيق ، ولا تتسع الخلوة إلا لشخص واحد ، والخلوتان تتلقان من أمام بحجر يمكن رفعه عند الحاجة . ولعل هذه الحجر المنيرة كانت زرنانات يحبس فيها المتمردون من القساوسة ، أو ضوامع يوضع فيها الراغبون في احتراف الكهانة تحت الاختبار . وشاغل الحجرة فيها كان رهين محبسها بكل معنى الكلمة ، فإنك لن تجد فيها - بعد أن تثبت الحجر الخارجى في موضعه منها - ما يشعر بوجود فجوة خلف الحجر . وقد لحظت داخل حجرة منها حجراً مجوفاً لعله تابوت ، ولكننى لست واثقاً من هذا .

وجدران الهيكل وقدس الأقداس تكسوها الرسوم التى ما زالت ألوانها محتفظة بروائها أكثر من رسوم معبد فيلة ، والفضل في هذا راجع إلى طبقة الملاط التى كسا الاغريق بها الجدران ليرسموا عليها صور قديسيهم ، ولكن أكثر هذه الطبقة تساقط . والألوان النالبة في رسوم المعبد هى الأحمر والأزرق والأخضر والأسود . وقد نون أوزيريس الصقرى الرأس ، الحامل العكاز في إحدى يديه ، بلون أخضر فاتح ، وطلبت نسوة ممسكات بأزهار اللوتس بلون أسود ، أما الثياب المخططة الملونة التى يرتديها أوزيريس ذواتاج فزاهية براقه . والشعر في كل هذه الرسوم أسود اللون وإن يكن في بعضها أزرق . وتملأ النقوش الميزغلفية الحمراء اللون ما بين هذه الرسوم من فراغ . وفي أسفل جدران القدس الجانبية رسوم لأفراد بجانب كل منهم حيوان ، وهو إما ثور أو غزال أو إوزة . وعلى جدران المعبد

الخارجية رسوم لأشخاص بالحجم الكبير ، وهى شبيهة برسوم دندرة وأدفو وإن لم تبلغ ضخامتها ، وصنعتها خشنة لا تتناسب مع جمال النقوش التى تراها فى داخل الحجر وتبرز رموس أبى الهول من جدران المعبد على نحو ما ترى فى معبد دندرة ، ولعل الكهنة كانوا يذيعون منها نبوءاتهم على الناس .

هذا وقد مدت جدران الرواق بطول المعبد كله ، ويقطعها جدار مستعرض فى مؤخر الحجرة الواقعة خلف قدس الأقداس ، فقام بذلك سور عال يحيط بالمعبد ، وعلى نحو عشرين قدم منه سور خارجى يحتوى البناء كله بين جدرانها ، ويصل هذا السور الخارجى إلى سفح التل الذى نحت تحت رأسياً ليكون الحائط الخلفى للسور . وفى الزاوية الجنوبية الغربية من المنطقة التى تخلفت حول المعبد بهذه الطريقة مربع تؤلف ضلعاً من أضلاعه ثلاثة أعمدة ، ويؤلف الضلع الداخلى المجاور لهذا جداراً قصيراً يقطع المنطقة عرضاً . وهذا نحت فى الصخر العمودى منارة أو مقبرة — على نحو ما رأيت خلف معبد دندور — هى حجرة واحدة لا يحلبها من النقوش غير رسم الشمس المموجة على بابها . ويهبط الزائر من البوابة بضع درجات إلى شرفة مبلطة تمتد إلى أساس بناء مستطيل يقع فوق النهر مباشرة ، وترى فيه بقايا أعمدة . ولعل زوار المعبد زمن الفيضان كانوا ينتقلون من سفنهم إلى هذا البناء مباشرة . وهذا المعبد ، هو ومعبد الدكة ، من أثمن آثار مصر القديمة . ومعبد كلا يشبه شبيه ويمتد فى موقعه بمعبدى دندرة وأدفو ، وقدبنى فى أزهى عهود العماراة المصرية ، وإن كان ببعض أجزائه آثار إهمال وهجلة لا نجد لها فى المعبد المذكورين . وبناء الجدران فى غاية الإتقان ، وتحمل العمود المتخلفة تيجاناً كتيجان معبد فيلة ، لكنها دونها أناقة ودقة .

وقد حول الإفريق هذا المعبد كنيسة ، ولا تزال الجدران تحتفظ بصور كثيرين من قديسيهم . وقد نسخت النص التالى من رواق المعبد .

وعلى ربيع ساعة من المعبد يقوم فى شماليه الغربى معبد صغير منحوت فى الصخر . والطريق إليه وسط أطلال المدينة القديمة وبين تل من الأنقاض والحجارة

ΕΠΑΓΑΘΩ ΚΥΡΙΕ
ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗΜ. ΟΔΕ
ΤΑΙΟΥ ΚΑΣΙΟΥ ΚΕΛΕΡ
ΟΣΙ ΠΠΕΟΣ ΧΩΡΤΗΣΑ
ΘΗ ΒΑΙΩΝ ΠΠ ΚΗΣ
ΤΥΡΜΗΣ ΚΑΛΛΙΣΤΙΑΟΥ
ΚΑΙ ΤΟΥ ΠΑΙΔΙΟΥ ΑΥΤΟΥ
ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΒΑΣΚΑΝΤΩΝ
ΑΔΕΧΦΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΥΤΟΥ
ΠΑΝΤΩΝ ΠΑΡΑ ΤΩ ΚΥΡΙΩ Α-Ν
ΔΟΥΛΙΚΑΙ ΤΟΥ ΠΠ ΠΟΥΛΑΥΤΟΥ
ΣΥΜΕΡΟΜ.

يُعتد ميلاً وربع الميل على شاطئ النهر. وأمام المعبد ساحة مكشوفة — تحت هي أيضاً من الصخر — ومنها تدخل إلى الهيكل، وطوله ثلاث عشرة خطوة ومرضه ست، ويرتكز سقفه على عمودين مضلعين، وفي جدرانها مائتان صغيرتان في كل منهما ثلاثة تماثيل. وبجانب الهيكل قدس الأقداس، وهو حجرة صغيرة يحيطها تماثيل أقدام. والرسوم والنقوش الهيرغليفية الجدارية شبيهة بنقوش معبد الدر في خشونتها. وتكرر مجموعة برياروس على جانبي المدخل (*). وعلى جدران الساحة الأمامية المكشوفة نقوش تصور موضوعات تاريخية على جانب عظيم من الأهمية، فترى على جانب الجدار معركة تدور رحاها، ويزى القائد المظفر يركب عجلة يجرها جوادان مطهمان ينهيان الأرض نهياً — وهو المنظر الذي تراه في معبد الكرنك. — وهو يسوق أمامه أعداءه المدحورين الهاريين إلى بلد يزخر

(*) يلاحظ أن شعر برياروس — في رسومه الموجودة على معابد النوبة — مخلوق على طريقة العرب والنوبا، وأنه يلبس قرطاً في أذنيه كما يفعل النوبا والجنس تماماً. ولعل الأصل في برياروس هذا شيخ كبير من شيوخ القبائل الصحراوية أوقع به فرعون الهزيمة ثم صوره الكهنة وحشاً متعدد الرؤوس، وهذا يطابق قولاً يردده الشرقيون في معرض الكلام على لصوص البندو، وهو «أقطع رأس الواحد تطلع مائة عوضه».

بأشجار الفاكه مختلفة الأشكال والحجوم ، ولبعض هذه الأشجار أوراق كبيرة مستديرة ، وتتدلى فيها عناقيد الفاكه وتفقر القردة بين أغصانها ، وخلف عجلة القائد المظفر عجنتان على غرارها ولكنهما أصغر ، يجر كلا منهما جوادان منطلقان كالريح ، وفيها امرأة واقفة منتصبه القامة وأمامها سائق ممسك بأعنة الجياد ، وفي جانب آخر من هذا الحائط موكب النصر يمر أمام أوزيريس الجالس على العرش ، فتري أولاً رجالاً عمراء الأجساد يحملون على مناكبهم كتلاً كبيرة من خشب لعله الأبنوس(*) ، ويسوق أحدهم تيساً برياً ، ويحمل ثان نعامة ، ويمسك ثالث درهماً كبيرة في يد وغزالاً في الأخرى ، ويأتى رابع بقرد أمام الحضرة الملكية . ثم على هؤلاء رجل يحمل كتلة من الخشب الثمين كالكتل السابقة ، ويسوق أمامه جاموستين كبيرتين . ويحتم الموكب بزرافة طويلة معها سائقها ومن خلفهما أسيران عريانين إلا من جلد وحش يلفانه على الخاصرة . وفوق هذا القسم مباشرة قسم آخر من الحائط ترى عليه رسم أسد كبير وحارسه ، وتري حيواناً آخر في حجم التيس الكبير وله قرنان مستقيمان طويلان ، ثم زوجاً من الجاموس ونجاء هذين القسمين ترى الملك وبين يديه أكوام من الكنافات والسهام وأسنان الفيلة وجلود الوحوش وفرائها ، وصف من القرع لعله كان يحتوى على دهن ومطورثينة . وعلى شطر من الحائط المقابل رسم الملك جالساً ، وقد جرى بين يديه بأسرى ملتجئين منلولي الأيدي ، وتستطيع أن تميز بينهم صفاً من الجوارى لباسات أردية طويلة وغطاء عالياً للرأس كهذا يطرحن الرداء من فوقه . وفي جانب آخر من الحائط ملاصق لهذا ترى أسيراً يضجى به ، وعلى مسافة منه لوحة لمركبة صور فيها الهجوم على قلعة المدو والاسيلاء عليها ، فتري رجلاً ممسكاً ببليطة يحاول أن يفتح نفرة في الأسوار ، وتري بعض جنود الحامية يلقى بهم من فوق الأسوار ، بينما يوثى بالباقيين أسرى . وقد نقشت كل هذه الموضوعات نقشاً غامراً دقيقاً لم أر له ضرباً بين النقوش التاريخية التي شهدتها في معابد وادي النيل ، بل

(*) رأيت في إحدى الحجرات الصغيرة بمقبرة من مقابر الملوك بطيبة ، بين رسوم الأثاث المصورة على الجدران ، كومة من الكتل المشبية شبيهة في شكلها بهذه ، مما يدل على أنها كانت تستعمل في صناعة أفراس الأثاث .

إنها تبدو أكثر حيوية من نقوش طيبة ، وتتميز صور الحيوان على الأخص بالأمانة والدقة ، وتتضح أهمية هذه النقوش حين يتأمل المرء الموضوعات التي صورتها ، فهي سجل الحقيقة التاريخية لم يرد ذكرها في أى معبد مصرى آخر . فقد حمل فرعون أوبته إلى بلد تسكنه الأسد والزراف والفردة والفيلة ، وهى حيوانات لا تعيش في النوبة أو دنقلة ، فالفيل والزراف يسكنان ضفاف النيل عند سنار والغابات الواقعة على حدود الحبشة وضفاف عطبرة^(١) والنيل الأزرق^(٢) التى تجلب منها اليوم أيضاً لمصر أجل الجوارى وأغلاهن ثمناً ، فهذه الثنائم كلها تشير إلى أن المارك لا بد قد دارت في البلاد الواقعة جنوب إقليم مروي القديم المتخضر ، لأن الأسرى اللابسين جلود الوحوش دليل على أن المدوامة متوحشة . أما مناظر المصارك التى تراها على معابد طيبة - سواء في الأقصر أو الكرنك - فيبدو أنها تشير إلى ميادين حربية أقرب من تلك . أفلا يجوز أن تكون القلاع المرسومة على هذا المعبد ذات صلة بجزائر بطن الحجر التى كان بها حصون ترى من خلفاتها الأطلال الكثيرة من الآجر ؟ ومظهر رؤوس الهاربين (التي اختلطت على البعض فحسبوا شعورها المحلقة طواقى) ، ولحام القصيرة الرقيقة المرسلة تحت ذقونهم .. كل هذه سمات يتميز بها أهل نوبا الذين لم تبلغ سميرتهم درجة السواد ، إنما هى سمرة نحاسية قائمة بؤثر الرسام الذى لم يحدق مزج ألوانه أن يعبر عنها بالحرة الداكنة لا بالسواد . وليس من العسير أن يتصور المرء أن سكان المناطق الجذباء في النوبة وبطن الحجر كانوا يتطلعون إلى خيرات مصر وثرائها بعين الحسد ، فكانوا يغيرون الفينة بعد الفينة من حصونهم على أقاليم مصر المجاورة جالين عليهم بذلك سخط ملوك طيبة ونعمتهم .

والمعبد الصغير الذى أوردت وصفه يسميه الأهالي ببيت الوالى ، ويتمذر على المسافر في النيل أن يراه إلا إذا استفسر عنه . وفي التل المجاور له الحاجر التى اقتطعت منها الأحجار لبناء المدينة ومعبدى كلابشه . ولاريب في أن هذه المدينة هى نلعميس

Asabōras (١)

Asabus (٢)

Talmis القديمة ، وتدل تلال الأنقاض القائمة على البر الشرقي على آثار المدينة القديمة المواجهة لها Contra-Talmis ، ولابد أن تلمس هذه قد أثرت من التجارة لا من الزراعة ؛ فالوادي بقربها لا يتجاوز عرضه الأربعين ياردة ، ولعل تجارة البلع كانت في القدم — كما هي اليوم — مورد رزق هام يعتمد عليه النوبيون الساكنون وادي النيل من حافا إلى فيلة . كذلك كان من اليسير جنى أرباح طائلة من مرور السفن المحملة بالبضائع من مروي ، ولعل أصحاب هذه البضائع كانوا يفرغونها في سكوت ويحملونها على ظهور الإبل في بطن الحجر ، على أن الراح أن الجانب الأكبر من البضائع التي كانت تحمل من هذه المدينة القديمة إلى مصر كان ينقل براً بالطريق الذي تسلكه اليوم قوافل سنار . ولو أنه كان ينقل بالنيل لوجدنا في ظني بقايا مدن تجارية عند طرفي بطن الحجر لتفريغ البضائع وشحنها ثانية ، وذلك لاستحالة الملاحة في هذا الإقليم الوعر . وإذا ذكرنا الجنادل التي تمتد في النهر في بلاد الشايقية ، وفي جنوبي دنقلة ، وفي كوكا والحس ، وفي وادي دال وبطن الحجر ، وذكرنا أن المسافة من القوز إلى الدر ، بطريق دنقلة سيرا مع النهر يستغرق قطعها خمسة وعشرين يوماً في حين لا يستغرق الطريق الذي تسلكه قوافل المبيد عبر الجبل سوى ثمانية أيام ، لظهر لنا أن القوافل القادمة من الجنوب كانت على الأرجح تهبط وادي النيل تجاه أبو سمبل ، حيث يمكن استئناف الملاحة في النيل شمالاً (*) .

وقفنا بعد بيت الوالي بقليل لنقضي الليل في قرية تابعة لسكلا بشه ، تجاه جزيرة دارموت ، واسمها خرطوم ، بعد أن ركبنا في يومنا ست ساعات ونصف . وأمطرت السماء وأبلا في الليل ، فأصابني أنا ودليلي برد شديد ، واشتد علينا قيظ النهار بعد أن كان الجو معتدلاً جداً في زحلتى صوب الجنوب ، وأثرت فيما تلك الطفرة التي أحدثها هطول المطر في الجو ، فنقلتنا فجأة من وقعة الصيف إلى زمهرير الشتاء .

(*) النقل البري رخيص رخيص النقل البحري في البلاد التي تكثر فيها تربية الإبل . فنقل حمل من البضائع وزنه من ستمائة رطل انجليزي إلى سبعمائة ، من بغداد إلى حلب — وهي مسافة تبلغ ستمائة ميل — يكلف أربعة جنيهات إنجليزية . فكيف يكلف شحن سبعة فناطير بحراً ، من لندن إلى هل ؟

٢٩ مارس — ارتقينا الجبل الذى يقطع الطريق الهاذى للنهر . ورأيت على قته حطام أعمدة وتيجان مصرية صغيرة جداً على مقربة من بعض المباني المزيبة ، ولم أر بحوارها أى بناء أثرى . والصخور فى السفح الجنوبى للجبل من الجرانيت والفلسبار ، أما فى السفح الشمالى فمن الحجر الرملى . وبعد ساعتين عدنا إلى النهر ثانية عند قرية طافية ، قرب البقعة التى عندها يبرز الصخر عمودياً فى الماء . وهنا توجد أطلال معبدين صغيرين . ويتألف أحدهما من حجرة مربعة عشر خطوات تهدم سقفها وأحد جوانبها ، وما زال بالحجرة عمودان قائمان قطر كل منهما قدمان ، ولهما ناجان يمثلان سقف النخل . وكان يجاور هذه الحجرة قدس الأقداس الذى تهدم فلم يبق منه غير أساسه ، وترى على مدخله قرص الشمس المنحى الذى لم أرسوا من رسوم أو نقوش هيرغليقية . وقد رسم الإغريق قديسيهم على جدران هذا المعبد كغيره من المعابد ، كذلك ترى عليها تقويماً إغريقياً ، نصوصاً رديئة الخط .



أما المعبد الثانى فحجرة مربعة صغيرة ، وهى سليمة لم تهدم ، وبها ستة أعمدة شبيهة فى حجمها وشكلها بممودة المعبد السابق . وليس بالمعبد نقوش سوى قرص الشمس المنحى . وإلى جوار المعبد انتشرت أطلال بيوت السكان الأقدمين ، وجدرانها مميكة مبنيه بالحجر بناء جيداً . وقد أكر النوبيون من استعمال الحجر فى بنائهم هوضاً عن الآجر لأنه كان فى متناولهم .

ويرى فلاحوطافية (ولابد أنها Taphis القديمة) أنهم سلالة المسيحيين القلائل الذين كانوا يسكنون المدينة ، والذين اعتنقوا الإسلام حين فتح المسلمون البلاد ،

أما معظم إخوانهم فقد لا ذوا بالفرار أو قتلوا . وما زالوا يدعون « أولاد النصارى » إلى اليوم وعلى الضفة الشرقية أطلال تخلفت من طافية شرق Contra Taqhis ومن طافية إلى دهميت شمالا يطلق على الوادى اسم وادى أمبرطاب . وعرب أمبركاب عشيرة من السكنوز . وتنفر السنامكى فى الحقول غير المزروعة فى هذا الوادى . ومزرنا مهنراو بمد ثلاث ساعات ، وبقرناض بمد أربع . وهنا يرى المسافر بحوار النيل سوراً حجرياً كبيراً يبلغ طوله مائة وثلاثين خطوة وعرضه مائة . وتنتشر فى نطاقه أكوام من البيوت الحجرية التهدمة . ويدخل المرء إلى هذا الفناء من بوابة كبيرة شبيهة بالبوابة التى تقوم على واجهة المبد القريب من مرواو . ويبلغ سمك الأسوار نحو عشر أقدام ، وعلى سطحها من الجانبين أحجار منحوتة ، أما وسطها فقد حشى خائطاً من النقارة لا يسكه ملاط ، ولا شك أن هذه الأسوار بنيت دفاعاً عن البلاد ، ولعل هذه كانت محطة من محطات الرومان التى أقاموها ليدفموا هجمات البلطيس . وقد حاولت عبثاً أن أجِد عليها آثار رسوم أو نقوش هيرغليفيه . وعلى نحو ميل إلى الشمال ترى على قمة تل أنقاض معبد شبيه فى بنائه بمعبد أوزيريس الصقرى الرأس فى فيله . ولم يبق من المعبد إلا الرواق ، وكان يتألف أصلاً من ثمانية أعمدة بقى منها ستة ، وهناك حائط يربط هذه الأعمدة بعضها ببعض ربطاً جزئياً ، وارتفاع الحائط نصف ارتفاع الأعمدة ، وهو يحيط بها جميعاً . ولم يبق من أحجار السقف غير حجر واحد لا يقل طوله عن ست عشرة قدماً ، ويمتد بعرض المبد كله ، ويرى الزائر أربعة من هذه الأعمدة ما زالت محتفظة بعتبها من فوقها ، وتاجا العمودين الباقيين عبارة عن أربعة وجوه لإيزيس وعلى رأسها الغطاء الذى تراه فى دندرة بدانه ، ولكنها تبدو هنا أصغر سناً وأقل وجوماً ، ولها آذان غربية



المنظر هذا شكلها ، وهناك رسم محفور على عمود واحد فقط . أما الأعمدة الباقية فتحمل آثار نقوش هيرغليفيه حائلة .

وهناك محاجر واسعة للحجر الرملى إلى الجنوب الغربى من التل الذى شيد عليه المعبد المذكور ، وهى ملاصقة للنهر ، ولعل هذه المحاجر هى التى اقتطعت منها الأحجار التى بنيت بها معابد فيلة ودبود Parenbole المشيدة بالحجر الرملى ،

فالصخور في هاتين المنطقتين جرانيت خالص ، وفيما أنا أنتقل بين المحاجر اقيت موضعاً اقتطعت فيه من جانب الصخر المسوى كوة فيها مقعد حجري لعله كان قاعدة لتمثال ، ومن فوق الكوة نقشت أفراص الشمس المجنحة ، ويبدو أن الكوة قد استخدمها المصريون الأقدمون أولاً ، ومن بعدهم الإغريق الوثنيون ، ثم الإغريق المسيحيون ، مزاراً يؤمنونه لرفع صلواتهم لله ليحافظ عليهم وعلى أسدانهم . وعلى جانبي الكوة نقشت رؤوس القديسين الإغريق على الصخر . كذلك رأيت رسوم أشخاص كاملة ، ورءوساً لأبي الهول لا يزيد طولها على ثلاث بوصات وأربع ، ولعلها تمثل رؤوساً من الذهب أو الفضة كانت تقدم قربانا للالهة الوثنيين . والصخرة المجاورة للكوة تحمل بالنصوص المصرية والإغريقية . وقد اخترت من بين النصوص الإغريقية - وهي أكثر من المصرية - هذه النصوص التالية لأهمية مضمونها أعماعها :

ΕΤΟΥΣ ΓΕ ΤΩΝ ΚΥΡΙΩΝ
ΑΥΤΟΚΡΑΤΟΡΩΝ ΕΞΟΥΝΤΟΥ
ΚΑΙ ΑΝΤΩΝΙΝΟΥ ΕΥΕΛΒΩΝ
ΣΕΒΑΣΤΩΝ

ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗΜΑ ΣΗΜΕΡΟ
ΤΑΙΟΥ ΔΙΟΣΚΟΡΟΥ ΜΑΚΡΕΙΝΟΥ
ΕΥΕΥΣΤΟΜΟΥ Η ΕΤΑ ΤΗΣ
ΣΥΜΒΙΟΥ ΚΑΙ ΤΩΝ ΤΕΚ
ΝΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΦΙΛΟΥΝ
ΤΩΝ ΚΑΙ ΠΕΤΕ ΤΑΙΣ ΕΝ

ΧΥΑΚΙ ΕΠΑΓΑΘΩ

ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗΜΑ ΑΥ
ΤΗ ΔΙΟΥΣΕΩ ΓΗΡΟΣΤΟΥ
ΚΑΙ ΤΟΥΣ ΤΟΥ ΕΥΕΥΕΓΕ
ΤΗ ΔΕΙΣΥΠΟ ΤΗΣ ΚΥ
ΡΙΑΣ ΜΗΤΡΟΝ ΗΜΟΥ
ΙΣΙΔΟΡΘΕΑΣ ΜΕΓΙ
ΕΤΗΣ ΚΑΙ ΕΥΕΥΣΤΟΜΟΥ ΕΥΕΥΤΙ
ΚΒ ΦΑΡΜΟΥΘΗ ΕΠΑΓΑΘΩ

ΕΤΟΥΣ Α // ΑΝΤΩΝΙΝΟΥ

ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗΜΑ ΑΠΟΛΛΩΝΙΟΥΣΩ
ΤΗΡΟΣ ΒΟΥΔΕΥ ΤΟΥ ΚΑΙ ΤΗΣ ΜΗΤΡΟΣ
ΚΑΙ ΤΗΣ ΣΥΝΒΙΟΥ ΚΑΙ ΤΩΝ ΤΕΚΝΩΝ
ΚΑΙ ΣΩΤΗΡΟΣ ΠΟΥΙΕΡΩΣ ΓΕΝΟΜ
ΕΠΕΜΟΥ ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΔΕΛΦΩΝ ΚΑΙ Τ-
ΚΤΗΡΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΕΡΓΩΝ ΜΟΥ ΠΑΝ
ΤΩΝ ΑΓΛΩΣ ΚΑΙ ΠΑΜΕΧΗΜΙΟΣ
ΠΡΟΣ ΤΑ ΤΣΗΓΟΜΟΥ ΚΑΙ ΤΙΘΟΗΤΟΣ
ΦΟΙΒΗΤΟΥ ΦΙΛΟΥ. ΦΑΜΕΝΩ ΒΧΖ

ΕΤΟΥΣ C // ΤΩΝ ΚΥΡΙΩΝ
ΗΜΩΝ ΦΙΛΙΠΠΩΝ ΕΒΑΣΤΩΝ
ΠΑΧΩΝ ΚΣ ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗ
ΜΑ ΤΕΝ ΤΟΥ ΑΣΙΟΣ ΤΟΥ ΚΑΙ
ΠΑΝΟΥΡΙΟΣ ΔΙΣ ΠΕΡΕΣ ΤΟΥ
ΤΟΜΟΥ ΚΑΙ ΤΗΣ ΣΥΜΒΙΟΥ ΚΑΙ
ΤΩΝ ΥΙΩΝ ΚΑΙ ΤΩΝ ΑΓΟ ΤΟΥ
ΤΟΜΟΥ ΚΑΙ ΤΩΝ ΦΙΛΟΥΝΤΩΝ
ΑΥΤΩΝ ΓΩ ΠΡΩ ΓΩ ΕΟΜΩ
ΕΙΚΟΣΙ ΧΡΥΣΑΤΩ ΒΧΡΥΣΑ
ΤΡΙΑΚΟΝΤΑ

ΕΤΟΥΣ Β // ΓΟΡΑΙΑΝΟΥ

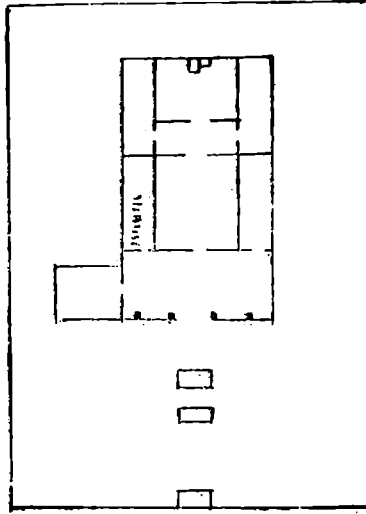
ΤΕΝΘ' ΑΝΕΙΣ ΓΑΙΩΝΑ
ΤΟ ΕΛΕΓΟ ΠΕΜΑΟΥΤΟΣ
ΤΟ ΠΡΟΣΚΥΝΗΜΑ ΑΥ
ΤΟΥΣ ΗΜΕΡΩΝ ΜΕΤΑ
ΤΗΣ ΣΗΜΒΙΟΥ ΚΑΙ ΤΕΚΝ
ΗΣ ΠΕΡΕΥΚΤΟΜΟΥ

كذلك رأيت نصاً لاتينياً لم أستطع أن أثبت منه غير كلمتين هما FABIO. CVM وهناك كوى صفرى فى أجزاء أخرى من صخور هذا الحجر ، وعليها رسم القرص المجنح ، ولكنى لم أر نصوصاً إلا على السكوة السابقة .

وبعد أربع ساعات ونصف مررنا بوادى مريمر ، ويقع تجاهه على البر الشرقى وادى سهزاب وهنا يقوم على تل صخرى محمود منفرد ، تحلف وحده من معبد صغير انتشرت خرافته فى المكان . وقد نحتت فى سفح النيل مقابر صغيرة عديدة تشير أكوام الأنقاض إلى موضع مدينة قديمة . وبعد خمس ساعات وصلنا بمررة ، والوادي منها إلى طافية جيد الزرع . وبعد خمس ساعات ونصف وصلنا دهميت حيث ينتهى وادى أمبر كاب . ودهميت شرق أزكى زرعاً من دهميت غرب . وهنا يجد المرء أساس بناء مربع صغير مشيد بالأحجار الضخمة ، وحائطاً سميكاً من اللبن يمتد موازياً للتلال ويجرى النيل مسافة خمسين ياردة ، ولعله أقيم حاجزاً يصد رمال الصحراء وبعد ست ساعات ونصف وصلنا مريس ، ويقع تجاهها على البر الشرقى قريبة السيالة . وفى النهر هنا جزيرة عليها أطلال أبنية من الآجر . والصخور هنا من الجرانيت ، وتظل كذلك طوال الطريق إلى أسوان . ويقع الطريق من السيالة على سهل رملي فيه تلال منمزة من الجرانيت تفصله عن النهر . وعلى الضفة الشرقية إلى الشمال من السيالة تقع قرية عبوروه . وعلى سبع ساعات ونصف تقوم دبود ، وتتألف من عدة قرى قائمة على ضفتى النهر . وعلى سبع ساعات وثلاثة أرباع الساعة يقوم تل مشرف على الشاطئ ، هو جزء من وادى دبود ، وعليه أطلال مدينة غربية بيوتها من الآجر ، ويبدو أنها كانت نيونارحية حسنة البناء . وفى النهر عدة جسور جرانيتية كبيرة . وحططنا عند تجمع لنقضى الليل بعد أن سرنا ثمانى ساعات فى يومنا هذا . وقد مكث المالك فى هذه النواحي شهوراً حتى أكرههم زحف إبراهيم بك على التمهقر ، وقد عزّ العلف فى أثناء إقامتهم فاضطروا إلى إطعام جمالهم بسمف النخل ، فجردوا النخل كله من سقمه ، من هذه البقعة حتى وادى حلفا جنوباً ، وهكذا حرم النوبيون محصول نخيلهم سنة كاملة .

٣٠ مارس - ركبنا نصف ساعة فوق سهل جيد الزرع ، ثم جئنا معبد دبود الذى يقوم على مدينة Paremboule الأثرية .

وللمعبد ثلاث بوابات منفصلة عالية ذات أفاريز كالمعبد القريب من مرواو . وبين البوابة الأولى والثانية ، عشرون خطوة ، وبين الثانية والثالثة عشر ، وبين الثالثة والبهو الخارجى للمعبد خمس عشرة . وأمام البهو أربعة أعمدة يربط بعضها البعض جدار يملو إلى نصف ارتفاعها . وفي وسط ثلاثة من جدران البهو الداخلية يمتد إفريز من النقوش ، وفيها هذا هذا ترى الجدران عاطلة من النقوش ، وهي ظاهرة لم أرها في غير هذا المعبد . وإلى يسار البهو حجرة مربعة تبرز جدرانها متجاوزة جانب المعبد فتشوه بذلك تناسقه . ولم أر على جدران هذه الحجرة نقوشاً أبداً كانت .



أما الهيكل فحجرة مستطيلة تملأ جدرانها الرسوم والنقوش الهيرغليفية ، وعلى أحد جانبيها حجرة مظلمة لها باب يصلها بالبهو ، وفي الآخر سلم يصعد إلى قمة المعبد ، وتحت السلم عدة غرف صغيرة . أما قدس الأقداس الذى ندخل إليه من غرفة ضيقة عرضها ثلاث خطوات ؛ فطوله عشر أقدام وعرضه تسع ، وعلى جداره الخلقى معبدان بديمان كلاهما من قطعة جرانيتية واحدة ، وارتفاع أكبرهما ثمانى أقدام وعرضه ثلاث ، وعلى كليهما رسم قرص الشمس المجنح . وربما كانا مستودعين لبعض الحيوانات الصغيرة (واماها الخنافس) ، وترى مواضع المفصلات التى يدور

عليها باب المستودع . ويشبه هذان المبدان من الجرانيت نظيرين لهما في فيلة ،
ولكنهما مختلفان عن معبد قاو Antaeopolis الذى يكبرها كثيراً (*) كذلك
ليس في داخل المبدن نقوش هيرغيفية ، أما معبد قاو فداخله حافل بالرسوم والنقوش
وبعض هذه النقوش يمثل الجمارين . وعلى كل جانب من جانبي القدس في معبد
دبود غرفة صغيرة تتصل بالحجرة الضيقة الواقعة خلف الهيكل . وجدران الغرفتين
عاطلة من النقوش ، ولكنها تحتوى على كوى خفية كتلك التى تجدها في معبد
كلابشة ، ولعل الغرض منها هو نفس الغرض المقصود من كوى معبد كلابشة .
وكان لإحدى الغرفتين طابق علوى كحجرة معبد كلابشة ، ولكن هذا الطابق
تهدم . أما سائر حجرات المبدن فسليم ، ونقوش الجدران الداخلية مشوهة ، ولكنك
تستطيع أن تتبين آثاراً ضئيلة من ألوانها الحائلة ، أما الجدران الخارجية فقد خلت
من النقوش . وكان يحيط بالمعبد كله - بما فيه البوابات الثلاث التى تقوم على
واجهته - سور هو اليوم مهدم . ولحظت في أرض البهو المحطمة أساساً حجرية
عميقة بنى عليها المعبد ، ولن أستغرب إذا أسفرت الكشف في هذا المعبد وفي
غيره من المعابد المصرية عن حجرات تحت الأرض ، فهذا يستقيم تماماً مع الروح
التي اتسم بها الكهنوت المصرى القديم .

ويحيل إلى أن معبد دبود قد بنى في بدء اضمحلال الفن المصرى ، فأعمدته
ونقوشه تحكى أعمدة فيله ونقوشها ، ولكن شتان بين جمال الأصل والتقليد . ويبدو
أن معبد مرواو الصغير يرجع إلى هذا العهد نفسه وإن كانت صنمته أدق . وهكذا
تقدم لنا أرض النوبة نماذج من شتى عصور المارة المصرية ، والحق أنك لا تستطيع
تقصي تاريخ هذه المارة إلا في النوبة ، إذ يبدو أن ما تخلف من معابد في أرض
مصر (فيما خلا معبد القرنة) قد بنى كله في عهد بلغ فيه فن المارة الغاية أو ما يقرب
من الغاية . ولو طلب إلى أن أرتب المعابد النوبية حسب عصور بنائها لرتبتها كما يلي .
(١) أبو سمبل ، (٢) قرشة . (٣) الدر (٤) سمته . (٥) بلاثة
(٦) الحصاية . (٧) السبوع . (٨) المارة وكلابشة . (٩) الدكة والمحرقه

(*) بالقرب من طريق الكباش الذين بالكرنك معبد من كتلة حجرية واحدة ماني
على الأرض ، وهو شبيه بمعبد قاو ولكنه أصغر .

(١٠) قرتاس . (١١) مرواو (١٢) دبود . (١٣) قورثة . (١٤) طافية .
وارتقينا الجبل الرملى بعد قليل ، وبمدمسيرة ساعة عدنا إلى النهر ثمانية عند وادى
شعبة الواح . وهنا معدية صغيرة أردت أن أعبر عليها إلى البر الشرقى لرغبتي
فى زيارة جزيرة فيلة ، فليس على البر الغربى طريق صالح لسير الإبل ، والطريق
المعروف من دبود يخترق الجبل حتى يبلغ البر المواجه لأسوان . ولما لم يكن لدينا
قرب منغوخة نشد إليها عنق البعيرين ، فقد شدنا حبالاً حول جسميهما ، وقطرناهما
للبر الشرقى إلى جوار القارب . ولكن القارب كان مثقوباً ، ولم يكن به خير
صبيين يجذفان ، فأنفقنا أكثر من ربع ساعة فى العبور ، ووصل أحد البعيرين
إلى البر وقد أشرف على الهلاك . وليس هناك أكثر من ستة قوارب للعبور فى
المسافة بين فيلة والدر ، وتجدها عند دبود وكلا بشة ودهميت وقرشه والدكة
والسبوع . أما فى جنوب الدر فلن تجد قارباً واحداً حتى تبلغ حدود دنقلة . ويدفع
كل فلاح للمداوى حفنة مما يحمل من زاد ، أو ملء ذراعه تبناً أو نحوه ، أما
النسوة فيعبرن مجاناً . ورسونا عند ساق الجبل ، وهى القرية التى بت فيها ليلة
رحيلى عن أسوان ، ومن ثم هبرنا الجبل ثانية قاصدين فيلة من نفس الطريق الذى
سلكناه من قبل .

كان الوقت ظهراً حين زرت هذه الجزيرة المشهورة . ولأهالى البربا (وهى
قرية صغيرة على البر الشرقى) قارب ينقلون به زوارها السكثرين ، فقل من يمود
من التجار المصريين ، الذين يقصدون أسوان فى تجارة ، دون أن يزور الشلال
وفيلة . ولما لم يكن فى هذه الناحية حكومة منتظمة ، فقد استغل أهالى البر باضطراب
الأغراب من الزوار لاستخدام قاربهم ، فاشتطوا فى الأجر الذى يتقاضونه منهم .
فما إن يدنو الزائر من القارب حتى يطبق عليه ستة منهم يزعمون له أنهم أصحاب
القارب ، ويطلبون أجرة عبوره فيه ، فى حين يطالبه ستة آخرون ، يزعمون أنهم
سادة الجزيرة ، بمبلغ آخر نظير سماحهم له بزيارتها . ودخلت القارب ، وكان الأهالى
يحسبوننى رسول الباشا فى طريقى إلى الدر ، فتسكثروا علىّ ، وطالبوا منى ستة
قروش لقاء عبورى للبر والسماح لى بزيارة الجزيرة ، وهوبلا رب أجر زهيد لمشاهدة
أعمن أطلال مصر القديمة . ولكنى صممت هذه المرة على ألا يغربنى هؤلاء اللصوص ،

فلم أقدم لهم سوى قرش واحد يتقاسمونه فيما بينهم (*) . ولما أبوا أن يقبلوه ، خلعت ثيابي وسلمتها للدليل ، ووضعت محفظتي في عمامتي ، ثم سبحت إلى الجزيرة . وما إن وطئتها قدمي حتى أسرع القارب خلني . وما كان أشد اغتباطهم بعد ذلك بأن يعيدوني بالقرش . ولما زرت الجزيرة ثانية بعد يومين ، وجدتهم أقل شططاً في مطالعهم . وقد أنبئت بحالات ابتزوا فيها من الزوار أكثر من عشرين قرشاً ، وذلك بهديدهم ليأثم بالعودة إلى البر وتركهم وحدهم على الجزيرة . والبربا خاضعة لحكام النوبة ، أما زمام أسوان الخاضعة لمصر فيبدأ شمال فيلة .

وليس في نيتي أن أعلق بشيء على زيارتي فيلة أو جزيرة البحيرة المجاورة لها ، فقد تناول هذه الآثار كلها الكتاب الفرنسي العظيم « وصف مصر » تناولاً لا يترك زيادة لمستزيد .

وعدت إلى أسوان في العشية ، فوجدت خادمي وقد تطرق إليه اليأس من رجوعي . ولم أكن أصبت من الراحة في رحلتي التي غبت فيها خمسة وثلاثين يوماً سوى يوم واحد قضيته بالدر حين بلغتها أول مرة . وكان طوال السفر أضناناً وأضنى بعيري ، فعزمت على الاستحمام أياماً ، واستأجرت غرفة في الوكالة ، ومكثت خمسة أيام زرت في أثناءها أرباض المدينة على مهل ، وكان مجرى النهر بين أسوان وجزيرة الفنتين ، التي كنت أقضي فيها صباحي ، جافاً تقريباً . وسوف يمي السائحون طول البحث عن مقياس الفنتين ما دامت الأنقاض تغطي ضفاف النيل العالية . أما المقياس الذي بناء معاوية فما زال موجوداً ، وهو كوة منخفضة في مستوى النهر في قاعها درجات ، كانت تقاس بها زيادة الماء بسهولة ، وتقع قرب حarf الرصيف الذي يكون مرفأ أسوان . وليس هذا الرصيف جسراً رومانيا كما خاله بعض الرحالة ، وإنما هو بناء عربي .

وعلى الضفة الغربية إلى الشمال قليلاً من أسوان دير قديم يقوم على سفح التل الرمل الذي بنيت على قته مقبرة القديس المشهورة باسم « قبة الهواء » . وفي الصخور الواقعة تحت الدير عدة معابد ومقابر أثرية منحوتة في الصخر لم يشر إليها أحد من الرحالة . وهي طريقة لمراقبتها في القدم ، ويتألف المبد منها من حجرة

(*) أجرة المعدي في مصر هي عادة بارة واحدة .

مربعة تكسوها النقوش الهيرغليفية ، وتقوم بها أعمدة مربعة لا يتجان لها ، ومحيط أكبرها قدمان ونصف ، وعلوها خمس عشرة قدماً ، وصناعتها كلها فجة . وفي بعض المعابد أربعة أعمدة ، وفي غيرها ستة أو ثمانية ، وقد قلب الإغريق معظم هذه المعابد إلى كنائس ، ولا يزال في كثير منها حفر الدفن الواسعة .

ومعبد القديس لورنس التهدم على البر الغربي ، تجاه أسوان ، غير جدير في رأيي بالوصف البالغ الذي أغدقه عليه دينون . وقد قرأت النص التالي على شاهد قبر ملقى على أرض حجرة من حجره . نسخته لرداءة حروفه وغرابة مظهرها .

IC + XC
π ε ε ο ο υ
M Π P. Π M E E V E
M Π M K K P S
I W X N N O V
Π X N O R X E V
I N Δ I K I S I I E N
M E X E I P S . II .

وفي التاسع من إبريل قفلت راجعا إلى إسنا ، وإلى القاريء ملاحظات عامة على النوبيين وتاريخهم (*) أضيفها إلى ماسبق . وكانت إقامتي بينهم من القصر بحيث لا يتيح لي تناول هذا الموضوع تناولا مفصلا ، وكان في مشاهداتي قصور سبيه جهلى باللغة النوبية التي كان يستخدمها النوبيون في حديثهم في أثناء وجودي بينهم . قلت إن النوبة قسمان ، وادى الكفور ووادي النوبة (وكثيراً ما يطلق على الأخير وحده اسم الصعيد) ويمتد الأول من أسوان إلى وادي السبع ، ويشتمل الثاني على الأصقاع المحصورة بين السبع والحد الشمالى لدنفلة . وسكان القسمين تفصلهم اللغة ، ولسكنهم في عاداتهم وطبائعهم متماثلون .

(*) أخبرني أمين الحاكم « حسن كاشف » بالدر أن هناك أخباراً عن تاريخ النوبة وردت في تاريخ مدينة البهنسا ، وهذا الكتاب من المخطوطات العربية التي أرسلتها لإنجلترا من حلب . وأفضل من كتب عن النوبة من مؤرخي العرب هو « ابن سليم الأصواني في أخبار النوبة » ولكنني لم أركتابه لا في الشام ولا في مصر .

ويقول روايتهم إن النوبيين الحاليين أصلهم من بدو جزيرة العرب^(١) الذين غزوا هذا القطر بعد انتشار الإسلام أما معظم الأهالي المسيحيين الذين رأيت كنائسهم منتشرة في النوبة حتى سكوت ، فقد هربوا من وجههم أو قتلوا^(٢) وقليل منهم من اعتنق دين الفزاة كما ذكرت آنفا ، وترى اليوم أحفادهم في تيفه ونمره شمالى وادى حلفا . واستولت قبيلتا الجواربة والغربية (وهى نخدمن أنفا زرنانه) على الإقليم من أسوان إلى وادى حلفا ، ونشر عرب القبيلتين بعد ذلك سلطانهم على كثير من العشائر الصغيرة التى سكنت ضفاف النيل أيام الفتح ، ومن بين هذه العشائر الكنوز ، وأصلهم من نجد والمراق . واحتلت قبيلة الجعافرة الكبيرة ضفاف النيل من إسنا إلى أسوان ، وسكنت بطن الحجر أسر قليلة من الأشراف ، واستولت عشيرة من عشائر قريش على المحس . وظل هؤلاء العرب يحتلون النوبة قروناً لاتنقطع فيها حروبهم ومناوشاتهم . وفى غضون ذلك استطاع ملوك دنقلة أن يفرضوا عليهم سلطانهم وأن يكرهوهم فى النهاية على دفع الجزية . وكان الجواربة قد أوشكوا على هزيمة الغربية وإخضاعهم ، فاستمات هؤلاء بالسلطان سليم الأول فى القسطنطينية ، فأرسل إليهم بضع مئاة من الجنود البشناق تحت إمرة قائد يدعى حسن ، قوسى واستطاع هؤلاء أن يكرهوا الجواربة والدناقلة على الجلاء عن النوبة والارتداد إلى دنقلة . ومما هو جدير بالذكر أن سرقة دنقلة اليوم أصلهم من قبيلة الجواربة . على أن بعض أسر الجواربة ظلت فى موطنها تعيش مسالمة ، ومازال أسلافهم الذين يسكنون الدروادى حلفا يعرفون بهذا الاسم إلى اليوم .

وقد بنى الجنود البشناق القلاع الثلاثة ، أو على الأصح أصاحوا هذه الأبنية الثلاثة الموجودة فى أسوان وإبريم وصاى . وحصلت حاميات هذه القلاع على امتيازات لهم ولأبنائهم وأحفادهم الذين احتلوا بمدم القلاع والأراضى الملحقه بها . ومن بين هذه الامتيازات إعفاؤهم من شتى ضرائب الأرض التى فرضها السلطان سليم على أملاكه كلها . كذلك رؤى أن البلد لا يستطيع أن ينتج ما يكفيهم من

(١) كذلك ينحدر معظم فلاحي مصر — إلى الشمال من بنى سويف — من قبائل مغربية أو عربية . بل إننى لقيت فى مصر قوما أصلهم من بدو الشام .

(٢) ينقض هذا الزعم ما ثبت فى كتابات الباحثين المحدثين من الأوربيين من أن انتشار الإسلام والعروبة حدث بفضل استيطان العشائر العربية بين الجماعات النوبية وقيام المصاهرات بين القادمين وأصحاب البلاد الأصلية — (غربال)

طعام ، فأجرى عليهم معاش سنوى من خزانة السلطان بالقاهرة . وكان يدفع للحامية إبراهيم أربعة أكياس ، تعادل اليوم مائة جنيه فقط ، ولعلها كانت تساوى في ذلك الوقت أربعة أمثال هذا المبلغ . كذلك جمعت هذه الحاميات مستقلة عن ولاية مصر . وكان معاشها يدفع لها مادام للولاية سلطان على مصر ، إلا أن المالك كانوا يحبسونه عادة . وقد حكم حسن قوسى النوبة بجنده ، ومعظمهم من الفرسان ، وكان دائم الحركة في أرجائها ، وكان يدفع لوالى مصر « الميرى » كل سنة ، ولكنه كان فيما خلا ذلك مستقلاً عنه . وما زال أحفاد هؤلاء الحند البشناق الذين ساهروا عرب الغربية والجوابة يحتلون الأرض التى منحت لأجدادهم في أسوان وإبريم وصاى ، وما زالوا يتمتعون بالإعفاء من شتى الضرائب والالتزامات ، وهم يسمون أنفسهم « قلعنجية » أو أهل القلاع ، أما النوبيون فيسمونهم « العمانلية » . وقد طال نسيانهم لقتلهم القومية ، ولكن قسما وجوههم تنبئ بأصلهم الشمالى ، ولون بشرتهم أسمر فاتح ، أما بشرة النوبيين فأقرب إلى السواد وهم مستقلون عن حكم النوبة الذين يحسدونهم أشد الحسد ، وكثيرا ما يشتبكون معهم في حرب سافرة . ويحكمهم أغواتهم الذين يعتزون إلى اليوم بالفرمانات التى لم تجعل لهم سيدا سوى السلطان . وحدث قبل خمسين عاماً أن شيخ عرب الرهوارق ، واسمه همامم بسط سلطانه على الإقليم من أسىوط إلى أسوان ، ثم مد نفوذه على النوبة التى زارها مرات ، وبلغ نفوذه المحسّ . أما اليوم فحالة البلاد السياسية يمكن أن تشبه ، من الناحية الشكلية على الأقل ، حالتها يوم بسط حسن قوسى سلطانه عليها . والحكام الثلاثة الحاليون (*) — حسين وحسن ومحمد — هم أحفاده ، وكان أبوهم يدعى سليمان ، وقد اشتهر أمره لحزمه وسطوة حكومته . ولقب كاشف الذى اتخذ الإخوة الثلاث بمنح في مصر للحكام الأقاليم . ويدفع الإخوة ضريبة سنوية قدرها ١٢٠ جنيه إلى مصر ، وهو ما قدّر به ميرى النوبة الذى يحاسب عنه الباشا أمام الباب العالى . وقبلما كانت تدفع هذه الضريبة في عهد المالك ، ولكن محمد على يتسلمها بانتظام منذ ثلاث

(*) حين احتلت الصاكر التركية التى يعود لها إبراهيم بك النوبة حتى وادى حلفا ، بعد أن طردت المالك إلى الجبال الغربية ، تقهر الحكام الثلاثة هم وأتباعهم إلى دنقة وظلوا بها حتى انسحب الترك إلى أسوان ، فعاد الحكام إلى الدر .

سنوات ، ويستخدم الإخوة الثلاث نحو مائة وعشرين فارساً معظمهم من ذوى قرباهم أو من العبيد . ولا يتقاضى هؤلاء الجنود مرتبات ثابتة ، ولكنهم يتلقون الأعطية بين الحين والحين ، ولا يلتزمون بأعمال وظيفتهم إلا حين يطوف سادتهم بالبلاد . ومقر حكام النوبة هو الدر ، ولكنهم دائبو الحركة والتنقل فى أرجاء البلاد لجمع الضرائب من رعاياهم الذين لا يدفعونها إلا حين تسكرهمهم على ذلك قوة قاهرة . ويرتكب الإخوة الثلاث فى طوافهم بالبلاد أبشع أعمال الجور والظلم حيثما كانت المقاومة معدومة ، وكثيراً ما تنعدم . ويقسم الثلاثة إيراد البلاد بالتساوى ، ولكن كلهم جشع يحسد أخاه ويختلس لنفسه ما وسعه من مال . وإيرادهم السنوى ، حسب تقديرى ، يبلغ ٣٠٠٠ جنيه لسكل منهم ، أو من ٨٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ جنيه للثلاثة معاً . ولا تتجاوز نفقات الواحد منهم ٣٠٠ جنيه فى العام . ومعظم ثروتهم من الريالات والعبيد . وهم يصطنعون فى طباعهم ومسلكهم غطرسة كبار الأتراك وعجرفتهم ، وهو تكلف يفضحه ما يرتدون من لباس زرى بأنف من ارتدائه حتى صغار الجند من الترك .

وفى النوبة لا يقدر الإيراد على مساحة الأرض أو عدد الأفدنة كما يفعلون فى مصر والشام ، وإنما يكون التقدير على السواقى التى يستخدمها الأهالى للرى بمد الفيضان وفى أثناء الصيف . وهذه الطريقة منتشرة على ضفاف النيل حتى سنار . وفى القرى الفقيرة تجمد الساقية الواحدة يمتلكها ستة من الفلاحين أو ثمانية ، أما المزارعون فيملكون سواقى عديدة . ويتراوح عدد السواقى المنبثة من أسوان إلى وادى حلفا ، أى من الشلال الأول إلى الثانى ، بين ستمائة وسبعمائة ، وتروى الساقية الواحدة من ثلاثة أفدنة إلى خمسة ، وتحتاج إلى تشغيل ثمانى أبقار أو عشر بالتناوب . وحين يزكو الزرع تغل الساقية من قح الشتاء أو شعيره من ثمانين إلى مائة أردب . ونسبة ما يزرع من هذين المحصولين هى الربع قحاً ، والثلاثة الأرباع شعيراً(*) . وتتفاوت الضريبة فى الجهات المختلفة ، وفى وادى حلفا

(*) فى شهر نوفمبر ١٨١٣ وصل إسنا محمد كاشف فى طريقه إلى أسبوط ليزور إبراهيم باشا حاكم الصعيد ، وهو الذى يضمن للنوبة نوايا سيئة كاهو معلوم . وكان شديد الرغبة فى استرضاء الباشا ، فجاب معه هدايا من العبيد والجمال والحيل الثقيلة . ولكن قصده الأهم من هذه الرحلة كان =

مثلاً ، يدفع سنوياً عن كل ساقية ستة أغانام سمان وستة مدات من الذرة ، وفي المحس يجبي الملك عن كل ساقية ستة أغانام وأردبين من الذرة وثوباً من الكتان^(١) كذلك يجبي المحكام عن كل نخلة مهماً كان محصولها ، سباطتين من البلح ويتقاضون مكوساً عن المراكب المحملة ببلحاً في الدر^(٢) . على أن نظام الضرائب في جلته في غاية التمسك والفوضى ، وهو مجلبة للخراب العاجل على القرى الفقيرة التي تعجز عن دفع المطالب الجائرة التي تفرض عليها ، في حين يخف عبء هذه الضرائب على القرى الغنية التي يخشى المحكام إثارة أهلها واستفزاجهم . كذلك يقوم أبناء كاشف وظائف القضاء في النوبة فتغل عليهم إيراداً كبيراً ، لأن القضاء هندم لا يبدو أن يكون تجارة .

وإذا قتل نوبي آخر أكره على دفع دية لأمره القتل وغرامة للمحكام قوامها ستة جمال وبقرة وسبعة أغانام . فإذا أنقضاها المحكام قسراً من أسرته . ولكل

== الشكوى من أخيه الأكبر حسن الذي منح أخيراً وأديه الكبيرين ، داود وخليل ، نصيباً في حكم النوبة وأكره أخويه على قسمة الإيراد بالتساوي مع ولديه ، فجعل للنوبة بذلك خمسة حكام وفي إسنا لى محمد كاشف جيشاً قوامه مائة جندي جرده إبراهيم على النوبة . ورأى محمد أن من البعث المضى في رحلته لأسيوط . فعاد لوطنه مع الجنود الترك . وما إن اقترب الجنود حتى عرب أخواه إلى جزيرة أكنه ، بعد شلال وادى خافاً ، على الرغم مما وعداه من أمان . وبضى الترك في طريقهم إلى وادى خافاً ، يجمعون باسم إبراهيم باشا ضريبة من كل ساقية . وقد منحوا محمد كاشف جزءاً من اثني عشر من حلة الإيراد لمعاشه . وواضح أن هذه الحلة كانت تستهدف القبض على المحكام جميعاً ، ولكنها لم تحقق هدفها . وبعد أن مكث أفرادها زهاء العام في النوبة يجوبون ضريبة الأرض من محصول الزراعة الصيفية أيضاً عادوا إلى مصر . وفي عام ١٨١٥ رجع الجنود الترك إلى النوبة ثانية ، وأكرهوا الفلاحين على دفع الضرائب جهلاً بدلائل الغلال . وما إن رحلوا عن البلاد حتى عاد أبناء كاشف للندر ، وجمعوا الخراج ثم الآخرون من الأهالي الذين أصبحوا نهياً لجنح الترك والمحكام على السواء ، وكلا الفريقين لا يعرف شفقة ولا رحمة لأنه لا يعلم على التحقيق كم من الزمن يحتفظ بسلطانه على البلاد .

(١) بلغت الضريبة التي جبيت عن كل ساقية عام ١٨١٣ ثمانية أرداب ، يضاف إليها ضريبة إضافية من أربعة أغانام وأردب من الغلال تدفع إذا ذهب الحاكم بشخصه للقرية للحيابة ، وذلك لإطعام أتباعه وجياده .

(٢) يختلف مقدار البلح الذي يستورده مصر من النوبة بطريق أسوان بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ أردب كل عام حسب حالة المحصول . وأجرة الشحن من أسوان إلى القاهرة خمسة قروش للاردب يحصل حاكم أسوان لنفسه نصف فرش منها ضريبة مرور . وقد وضعت الحكومة يدها على معظم هذه التجارة الربحية .

جرح غرامة مقررة تدفع غنماً أو ذرة ، ولكنها متفاوت باختلاف المصنوع المصاب من الجسم ، وهي عادة بدوية قديمة تجددها منتشرة كذلك بين أهالي إبريم مع هذا الغارق ، وهو أن الغرامة يأخذها المجنى عليه لا الأغا . وإذا قتل نوبي أحداً من قبيلة الحاكم ، أو من القُزّ (وهو لقب الماليك في مصر والنوبة) أو من أهل إبريم ، فإنه لا يدفع لأسرة القتيل دية لأنه يمد جندياً لا هريباً ، ولكن الحاكم يقتضى غرامته رغم ذلك . وبين الكنوز والنوبيين ، جيرانهم الجنوبيين ، عداة شديدة . ويرى النوبيون الكنوز بالبخل والحرص والغدر ، أما الكنوز فيدعونهم عبيداً قذرين لا يفضلون الزوج في مبيعتهم . وكثيراً ما تلتمح القرى المتجاورة في معارك دموية نتيجة لهذا العداة ، فإذا قتل أحدهم الفريقين كان لأسرته أن تقتضى الغرامة المقررة في مثل هذه الحالات ، أو تنأى للقتيل من أسرة القاتل . وأهل إبريم يشارون لقتلهم عادة ، ولكنهم لا يقتنمون كما يقتنع بدو جزيرة العرب بالثأر من أى قريب من عصب القاتل ، في حدود المرتبة الخامسة من القرابة . فلن يقوم مقام القاتل في عرفهم غير أخيه أو ولده أو ابن عمه ، لذلك كثيراً ما تكون النتيجة أن تلوذ الأسرة كلها بالفرار .

ويبرز حكام النوبة الأموال الطائلة بأساليب مختلفة كما قلت ، ولكن جورهم يقتصر على أملاك رعاياهم دون حياتهم ، فهم لا يضربونهم ولا يقتلونهم إلا إذا شقوا عصا الطاعة وجهروا بالثورة عليهم ، وكثيراً ما يفعلون(*) . وإذا هرب نوبي يريدون ابتزاز ماله حبسوا زوجته أو أبناء الصغار حتى يعود ، وهو إجراء يضح الأهل بالشكوى منه ، ولا يلجأ إليه حتى القضاة من ولاية مصر والشام ، فهو لاء يحترمون نساء أعدائهم وأبناءهم . وثمة طريقة فذة ابتدعها حكام النوبة لا ابتزاز أموال رعاياهم ، ذلك أنهم إذا عرفوا أن لأحد سراهم فتاة بلغت سن الزواج طلبها الحاكم لنفسه عروساً ، وقلما يجرؤ أبوها على رده ، بل إنه ليزهر أحياناً بهذا الشرف . ولكن هذه المصاهرة سرعان ما تنجر عليه الخراب والإفلاس ، لأن صهره القوى يسلبه كل ما يقتنيه بحجة أنه يقدمه هدية لابنته . وهكذا تجد للحكام

(*) اشتهر عن القبيلة العربية التي يسميها النوبيون أملا ب [عون اللاب] — وأهلها أمة اللاب ، لأن ناطقهم لا يفردي — والتي تسكن القرى المجاورة لقرشة ، مقاومتها للحكام وخروجها عليهم ورجالها أكثر عرب الكنوز استقلالاً ، وهم بأبون تزويج بناتهم لاتباع الحكام .

جميعهم أزواجاً منبذات في معظم القرى الكبيرة . ولحسين كاشف أربعون ولد تقريباً ،
عشرون منهم تزوجوا بهذه الطريقة .

ولا يحرق سكان وادى النيل من الشلال الأول إلى حدود دنقلة حقولهم بعد
انحسار مياه الفيضان كما يفعل أهل مصر . لأن المياه بعد الشلال لا ترتفع إلى علو
يغمر الوادى . وفي الجهات القليلة التى تبلغ الأرض الزراعية فيها بعض الاتساع —
كما هو الحال فى قستمنا وقرشة ووادى حلفا الخ . . شقت قنوات تحمل الماء إلى
الحقول المجاورة للجبل . ولكن الماء فى هذه القنوات لا يبلغ ما يبلغه ماء القنوات
فى مصر من ارتفاع يتيح رى الأراضى الواطئة المجاورة للتلال . لذلك كان الرى
فى النوبة يقوم كله على السواقي والنواعير . فإما إن يهبط منسوب الماء فى النهر
حتى تروى الحقول بالسواقي . وتزرع الزرعة الأولى ذرة ، وتحصد فى ديسمبر
وفبراير . ثم تروى الأرض ثانية وتزرع شعيراً . وقد تزرع الأرض بعد حصادة
سرة ثالثة محصولاً صيفياً . ويباع الشعير بالذرة ، أو يؤكل فربكاً مسلوقاً . ويصيب
الحصول أذى بالغ من أسراب المصافير الدورية التى تمير عليه أفواجا لا تقوى على
دفعها جهود صبيان القرى مجتمة . ومن الآفات الزراعية دودة صغيرة تتسلق ساق
النبات ، وكثيراً ما تفتك بحصول الذرة والشعير فى حقول بأسرها . وزراعة
التبغ منتشرة فى أنحاء النوبة وهو يحتفظ بلونه الأخضر حين يحرق ، ويشبه تماماً
تبغ الجبال الواقعة إلى الشرق من البحر الميت . وهو أهم ترف يستمتع به الناس
هنا من شتى الطبقات ، وهم إما يدخنونه أو يستحبونه ، مخلوطاً بالنطرون ، بين
اللثة السفلى والشفة .

وبيوت النوبيين من اللبن أو الحجارة . وقد قلت إن البيوت الحجرية تقوم
عادة على سفوح التلال ، وهى تتألف من بنائين مستديرين منفصلين ، أحدهما
للرجال والآخر للحريم . وبيوت اللبن منخفضه حتى ليشق على المرء أن يقف فيها
بقامته منتصبه . ويسقف السقف بسيقان الذرة التى تبقى حتى تأتى عليها الماشية ،
وعندئذ يوضع بدلها جريد النخل . ومنازل الدر ، وبيوت الأثرياء من سكان
القرى الكبيرة ، حسنة البناء ، فلها حوش كبير فى وسطها تحيط به الحجرات
من حوله ، وبين حجرات الرجال والحريم فاصل . أما الأوانى والأدوات التى

تستعمل في بيوت النوبيين فهي نحو ست قدور من الفخار الخشن ، قطر الواحدة منها قدم أو قدامان وارتفاعها خمس أقدام ، يحفظ فيها زاد الأسرة وطعامها كله . ثم يضع صحاف من الفخار ، وطاحونة يد ، وبلطة صغيرة ، وعمى مستديرة يمد عليها النول .

ويلبس الأهالي شمال الدر جلباباً من الكتان لا أكثر ، ولونه أزرق عند سراتهم ، أو الزعبوط الصوفى الذى يرتديه أهل الصعيد . أما لباس الرأس فطاقية من القماش بيضاء صغيرة يلفون عليها أحياناً خرقة تعطيها شكل الممامة . وأولادهم وبناتهم عراة ، وتلتف النسوة بقطع من القماش أو بُرد صوفية سوداء ، ويلبسن أفراطاً وأساور من زجاج ، وفقراؤهن يصنمن أساورهن من السف . أما شعورهن فيرسنهن غداير فوق أعناقهن ، ويلبسن على رؤوسهن من الخلف شراريب قصيرة مزركشة من الزجاج أو الحجر تقوم مقام الحلية والتميمة معاً . ونساء الأعيان يتحلين بالخللاخيل من النحاس أو الفضة . وإلى الجنوب من الدر ، ولا سيما في سكوت والمحس ، يمشى الرجال عراة إلا من وزرة تستر العورة ، هي شبيهة بما يرى على جدران المعابد المصرية . ولأهل المحس شعور كثرة ولكنها ليست صوفية القوام . ويلبس جميع الشبان قرطاً واحداً في الأذن اليمنى فقط ، أما الرجال فيحملون في أعناقهم مسبحة لا تفارقهم . كذلك يربطون على إحدى الذراعين فوق المرفق عدداً من التائم يكسوها جلد عرضه ثلاث بوصات أو أربع ، وهي أحجية وأدعية يبيعهما إياهم الفقراء .

وقلما يعطل النوبيون من السلاح . فما إن يشب الغلام عن الطوق حتى ينفذو همه الأول شراء مديّة معقوفة صغيرة يلبسها الرجال مشدودة إلى المرفق الأيسر تحت ثيابهم ، ويستولونها في أتفه المشاجرات . وإذا انتقل نوبي من قرية لأخرى حمل معه إما « نبوته » المسكس طرفه بالحديد ، أو رمحه ودرقته . وطول الرمح خمس أقدام بما فيها سنّه الحديدى ، أما الدرق فتتفاوت أحجامها ، فمنها المستدير ذو السرة في وسطه ، ومنها ما يشبه الدروع المقدونية القديمة ، فهو مستطيل يبلغ طوله أربع أقدام ، وله طرفان مقوسان يكادان يغطيان البدن كله . وتصنع هذه

الدراقات التي يبيهما حرب الشايقية من جلود أفراس البحر ، ولا تؤثر فيها رمية رمح أو ضربة سيف . كذلك يقتنى السيوف القادرون على ثرائها ، وهي شبيهة بسيوف الفرسان في القرون الوسطى لها نصل طويل مستقيم عرضه بوستان ، ومقبض على شكل صليب ، وقرابها من الطراز الذي يمرض أسفله ويدق رأسه . وهذه السيوف المانية الصنع ، ويبيها تجار مصر للتوبيين بأسماء تراوح بين أربعة ربات وثمانية للسيف . أما الأسلحة النارية فنادرة ، ويملك الأغنياء بنادق من نوع بدائي ، وليس عند حسن كاشف نفسه غدارة . وذخيرة هذه الأسلحة النارية نادرة غالية الثمن ، لذلك يحذر بالسائحون في النوبة أن يحملوا معهم من الرصاص ما يقدمونه هدايا تلقى من التوبيين أحسن القبول . وأذكر أنني بعد أن رحلت عن معسكر محمد كاشف في تيناري جرى ابن أخيه خلق ميلين على الأقل ليلحق بي ويسألني رصاصة قاتلا إنه أطلق في حفلة بالأمس الرصاصة الوحيدة التي كانت معه .

ذكرت للقاريء شيئا عن طعام النوبيين المؤلف . فهناك خبز الذرة ، وهو في غاية الخشونة ، ويصنع بنير ملح (*) ويخزنونه على الصباح كبندو جزيرة العرب ولما كانت عمالية الطحن والمعجن والخبز لا تستغرق كلهما أكثر من عشر دقائق ، فإنك تستطيع أن تحكم مطمئنا بأن هذا الخبز لا يمكن أن يكون ناضجا . ويطحن النسوة زاد كل يوم في الصباح ، فالنوبيون لا يخزنون الدقيق . وفي سكوت والمحس يصنعون الخبز رقائقا مستديرا يوضع بعضه فوق بعض حين يقدم على المائدة . ولما يذوق النوبيون اللحم ، بل إن الحكم لا يتناولونه كل يوم . وشراب البلح [الشربوت] شائع الاستعمال في القرى الكبيرة ، ولا بأس بطعمه وإن كان فيه حلاوة وغلظ لا يستطيع الشارب مهما أن يصيب منه كثيرا . وطريقة صنعه أنهم ينقعون البلح بعد نضجه في قدور كبيرة من الفخار ملئت ماء ، ثم يفلونه على النار يومين كاملين بلا انقطاع ، ثم يصفى الشراب ويحفظ الرائق منه في زلع من الفخار تسد وتدفن تحت الأرض

(*) يستخرج الأهالي المجاورون للتل الكفيرة والبانى القديمة مادة تسمى بها «ماروق»

يضعونها في الخبز عوضاً عن الملح .

عشرة أيام أو اثني عشر حتى يختمر الشراب فيكشف عنه ويمكن غندها تعاطيه .
ولكن لأجله لا يطول عن الحول ، ولا يتمدى محصول البلح التالى ، وإلا شابت
طعمه حموضة ، كذلك يصنع النوبيون شراباً يسمى البوطة ، وهو شديد الشبه
بالجعة أو البيرة ، ويستخرجونه من الذرة أو الشعير . وأفضله من الشعير ، ولونه
كدر ، وهو عظيم القيمة الغذائية . وفي القاهرة وسائر المدن والقرى الكبيرة في
الصحراء كما كان لبيع البوطة أصحابها من النوبيين وخدم . وتستهلك في الدرمقادر
كبيرة من الشربوت وعرق البلح المقطر : ويبيع الخمر في مشارب خاصة ويتعاطاها أفراد
الطبقة العليا ويشملونه كل مساء ، وتصنع تخور البلح وتباع علانية في كل أرجاء الصعيد
من أسبوط فصاعداً ، ويفرض الباشا ضريبة على تجارها . ويستخرج من البلح
أيضاً ضرب من المادة الهلامية كالمسل يأكله الأغنياء كالحلوى . وليس في النوبة
فاكهة غير البلح وقليل من العنب رأيت في الدر .

ومناخ النوبة صحى جداً على شدة قيظه في الصيف ، لا سيما في البقاع الصخرية
الضيقة ، ولعل السر في ذلك جفاف الهواء . ولست أذكر أنني رأيت فرداً واحداً
في الأسابيع الخمسة التي أنفقتها هناك يشكو مرضاً من الأمراض . وقد يفد
الجدري أحياناً على النوبة فيفتك بالناس فتكا ذريعاً في كل أرجائها وادى الكنوز .
ولا يعرف الناس التطعيم ، أو قل إنهم لا يمارسونه ، سواء في النوبة أو في صعيد
مصر ، وقد فشلت المحاولات العديدة التي بذلت لإدخال نظام التطعيم في الصعيد ،
أو على الأصح لتثبيته ، وزعم بعض الرحالة أن هذا الوباء يفد على مصر من الجنوب ،
وهو زعم خاطيء لأنه لا يبلغ في انتشاره في النوبة الشلال الثانى ، ولا يعرف في
دققة ولا على طول الطريق إلى سنار .

والرجال في النوبة على العموم ذوو أجسام قوية مفتولة وتقاطيع وسمية ، وهم
أقصر قليلاً من المصريين ، لا شوارب لهم ، ولحام صغيرة لا تتجاوز أسفل
ذقونهم ، كلحى الأسرى الذين ترى صورهم على لوحات الممارك المرسومة على
المابيد المصرية . وكثيراً ما لاحظت في أثناء رحلتى في قرى النوبة أن هناك على
العموم تناسباً بين قامة الأهالى وبين عرض الأرض الزراعية ، فأينما كان الوادى

عريضاً والزراعة ميسورة والأهالى على شىء من سعة الرزق وجدتهم أطول قامات وأصح أبداناً . أما فى البقاع الصخرية التى لا يتجاوز عرض الوادى فيها هشرين ياردة أو ثلاثين فترى أجسام الناس قيئة هزيلة ، يكاد الرجل منهم فى بعض القرى أن يكون هيكلاً يخطو أو شبحاً يترامى .

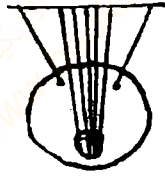
أما النساء فلهن قامات بديمة ، ووجوه طليقة حلوة وإن لم تكن جميلة ، وطباع لطيفة غاية اللطف ، بل إننى رأيت بينهن حسناً بارعات الجمال ، ولست أشك فى أن دينون قد غمطهن حقن . ولكن العمل الشاق الذى يقمن به منذ طفولتهن يفضلهن ، فشتون البيت كلها موكولة إليهن ، أما الرجال فنقطعون للزراعة . ونساء النوبة أعف نساء الشرق قاطبة ، وعفتن أجدر بالإشادة لما كان ينتظر من تأثرهن بحيرة صعيد مصر الذى يشتد فيه تأثير الفريضة الجنسية . وفى أثناء مكثي بإسنا كان الفتيات يأتين إلى مسكني كل صباح ليبيعنني اللبن ، فكانت المصريات منهن تفتحمن فناء الدار فى جرأة وتسفرن عن وجوههن ، وهو مسلك يفهم منه هذا أنهن يعرضن أنفسهن ، أما النوبيات - وكثيرات منهن يقمن مع أمرهن فى إسنا - فكن يقفن بعتبة البيت متأدبات لا يتجاوزنها بحال من الأحوال ، ويأخذن ثمن ما بمن من لبن وهن مقنعات .

ويبتاع النوبيون نساءهم من والديهن ، ويدفع الكنزي عادة اثني عشر محبواً ثمناً لعروسه ، وهو ما يعادل ستة وثلاثين قرشاً ، وكثيراً ما يتزاجون مع عرب العبادية ، وبعض هؤلاء زراع مثلهم . ومهر الفتاة من العبادية ستة جمال تعطى لأبيها ، فيرد منها ثلاثة لابنته تكون ملكاً لها ولزوجها ، فإذا طلقت أخذ الزوج ثمن نصفها . وإذا أصرت امرأة فى الصعيد على أن تطلق من زوجها كان له أن يستولى على جهازها وأن يخلق رأسها ، فلا يتزوجها غيره حتى يطول شعرها . والنوبي شديد الغيرة على عرض امرأته ، فإذا خامرته أدنى ريبة فى وفائها له حملها ليلاً إلى شاطئ النهر وأغمد مديته فى صدرها ، ثم قذف بها إلى النهر طامعاً للتاسيح على حد قوله . وقد حدث فى أسوان أخيراً حادث من هذا القبيل .

والبغاء غير مباح فى النوبة ، فلن تلقى فيها العاهرات اللاتى تجد عدداً كبيراً

ممن في كل أرجاء مصر، وذلك باستثناء من يوجد منهم في الدر، وهؤلاء لسن من الأهل، بل هن إماء معتوقات دفعتهن الفاقة إلى احتراف الفحشاء. ويستعجن النوبيون أشد الاستعجان تلك الرذائل والشهوات البغيضة التي نشرها المالك في مصر وأذاعوها حتى بين فقراء الفلاحين، ولا يستثنى من أهل النوبة في هذا غير أفراد أسرة كاشف الذين يحاولون جهدهم أن يحكوا المالك في كل شيء حتى في أبغض ما يقارفون من آثام. والأنوال الصغيرة شائعة في بيوت النوبيين، ويفضل عليها النساء عبااءات من الصوف خشنة، وقاشامن القطن يصنعون منه القمصان. كذلك يصنعون من سعف النخل الحصر وكثوس الشراب، والصحاف الكبيرة التي يقدم فيها الخبز على المائدة — وكلاهما مصنوعة باليد، ولكن في صناعتها أناقة وإتقان يوهان بأنها مصنوعة بالآلات. ولا تنتج النوبة سوى هذه المصنوعات، أما ما عداها فيستورد من مصر.

ولم أر من الآلات الموسيقية في النوبة سوى ضرب من «الطمبورة» المصرية ذات أوتار خمسة وغطاء من جلد الغزال هذا رسمها :



وللغنيات غرام بالغناء، وألحان النوبيين عذبة شجية. ولعبة المنقلة شائعة في الدر، كذلك يلعب النوبيون اللعبة التي يسمونها «بياض» والتي وصفتها في يومياتي من البطراء في معرض الحديث عن عرب كرك. وقد رأيت في معظم النوبيين رقة ولطفاً وعزوفاً عن السرقة، وهي رذيلة معروفة في مصر، أو على الأقل في الأقاليم الواقعة إلى الشمال من أسبوط. والحق أن السرقة تكاد تكون معدومة بينهم، فإذا ثبت أن منهم من اقترف هذا الجرم طرد من قريته بالإجماع. ولم يضع في أثناء رحلتي في النوبة شيء مما أهل مهماته، مع أنني كنت أنام في العراء أمام البيت الذي أحط عنده. وفي النوبيين عموماً كرم وحسن خيافة للطارق، وأقلهم في ذلك الكنوز وأهل سكوت. ويغلب على طباعهم الفضول، فهم يطمرون الغريب وإبلا من الأسئلة عن البلد الذي قدم منه والمهمة التي أتى النوبة فيها.

ولولا طغيان الحكومة واستبدادها لكان النوبيون جيراناً خائرين على مصر فهم يمتازون عن المصريين بالجرأة وحب الاستقلال وشدة التعلق بأرضهم . ويفد على القاهرة منهم كثيرون كل عام ، فيشتغل معظمهم بوابين ، وهم في ذلك مفضلون على المصريين لأنهم ، وبعد أن يقيموا بها ست سنوات أو ثمانية يعودون إلى مسقط رؤوسهم بما أصابوا من مال قليل ، مع علمهم بأنهم لن يظفروا في وطنهم بغير خبز الذرة وجلباب الكتان عوضاً عما ينعمون به من أطايب القاهرة . والذين لا يهاجرون منهم لمصر قلما يتجاوزون حدود قراهم ، فمادة النوبيين زاهدون في المفامرات التجارية . وقد لقيت في إبريم شيخين أكداً لي أنهما لم يريا الدرقط مع أنها لا تبعد عنهما غير مسيرة خمس ساعات . والذين أقاموا منهم في مصر وتعلموا العربية تجدهم في الغالب مسلمين أتقياء يؤدون الصلوات كل يوم ، أما من يجهلون العربية فلا يعرفون من الصلاة إلا التهليل والتكبير . ويحج بعضهم إلى مكة بطريق سواكن .

وسكان النوبة من أسوان إلى حدود المحس الجنوبية — وهو إقليم طوله نحو خمسمائة ميل ومتوسط عرضه نصف ميل — يبلغ عددهم ، حسب تقديري ، مائة ألف نسمة .

* * *

وإلى القارىء نبذة أشيفها عن البدو الذين يقطنون الجبال الواقعة بين النوبة والبحر الأحمر . هؤلاء البدو قبيلتان رئيسيتان ، العبابرة والبشارية . أما العبابدة فيسكنون الإقليم الواقع جنوبي القصير حتى عرض الدر تقريباً ، وأما البشارية فيجتأون الجبال من ثم إلى الجنوب حتى سواكن ، وهناك يجدون لإبائهم وماشيهم الكلاً الذي ينمو في مجارى السيول الشتوية . ويقيم كثير من العبابدة في صعيد مصر على ضفة النيل الشرقية من قنا إلى أسوان ، ومن أسوان إلى الدر ، ولكن أغلبهم ما زال يعيش عيشة البداوة ، ويشتهقون خبراء أو أدلاء لقوافل سنار التي تقوم من دراو ، وكانوا من قبل أدلاء أيضاً للقوافل المسافرة من القصير إلى قنا ، ولكن أعداءهم

من عرب المعازة والقطاوى الذين يسكنون شمالى القصير أفلحوا فى حرمانهم من الأرباح التى يفلها هذا العمل ، والتزموا به من والى مصر . والمبايدة أتراب ولكنهم سيئو السمعة يرميهم كل من اتصل بهم بالخيانة والفدر ، فهم غير جديرين بالانتساب إلى الأصل العربى الذى يعتزون به . ولا يتورع الرجل منهم عن الخث بأى يمين أو قسم ، بيد أنى علمت أنهم يخشون الخث بعودهم إذا شفعوها بقولهم « وحياة العافية » . ويشتهرون فى الصعيد بما يقتنون من كرام الإبل ، ومن الهجن الخفاف على الأخص ، ولهم تجارة واسمة فى السنامكى وفحم السنط ، وكلاهما مستخرج من الأشجار المنتشرة فى جبالهم ، ويصدرون الفحم حتى القاهرة شمالا . ولا يقتنى المبايدة من الخيل إلا القليل ، فهم إذا التحموا مع غيرهم من القبائل العربية حاربوا على ظهور جبالهم مسلحين بالدرق والرماح والسيوف . وأهم عشائرهم الفقراء ، والعشائى ، والمليطاب . ولما ينزل عرب العشائى من الجبل إلى ضفاف النيل ، ولكن كثيرين منهم استوطنوا ضفاف النهر قرب مقرات والرامر على طريق سنار ، وتزوجوا مع الأهالى هناك . والذين يجيمون منهم مع البشارية يتكلمون لغتهم .

أما البشارية ، الذين قلما ينزلون من جبالهم ، فيقوم أبعد ما يكونون عن العمران الحضرى ، وهم أسوأ سمعة من المبايدة . ولا يقتنون غير الإبل والغنم ، وطعامهم الوحيد اللحم واللبن ، ويا كلون أكثر اللحم نيئا . وقد روى لى كثير من التوبيين أن هؤلاء البشارية شديدو الغرام بشرب دم الخراف المذبوحة ساخنا ، ويقال إن أحب شئ إليهم وأمنهاه أكل نخاع الجمل نيئا . ومنهم من يذهب أحيانا إلى الدر أو أسوان ليبيع السنا والغنم وريش النعام ، فالنعام شائع فى جبالهم ، والسنا التى تنتجها جبالهم من أفضل الأنواع . وهم يقايضون على هذه البضائع بأثواب الكتان والذرة التى يهتمون حبائنها نيئة لم تدخل النار ويمدونها طعاما شهيا ، وهم لا يصنعونها خبزا قط . ولا يطول مكث هؤلاء التجار فى الوادى ، إذ سرعان ما يروهم الجدرى فيفزعون إلى خيامهم . وعرب البشارية لصوص عريقون ، لا يتورعون حتى عن سرقة مضيفهم . ويخرج فتيانهم فى غارات للنهب والسلب (م ٩ - رحلات بوركهارت)

فيلتفون دققة وطريق سنار ، ومن تختمهم إبل لا تضارعهما في سلايتها إبل من شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد الحبشة . ولا يتكلم العربية من البشارية إلا القليلون . ولا يخشون من أعدائهم غير العبادية الذين يعرفون منتجعاتهم من الجبال ويأخذونهم في مضاربهم على غرة . ويستطيع المرء أن يميز جبال البشارية في صحبة عبادى إذا صفا الجو بين القبيلتين كما هي الحال اليوم ، ولكن يجب ألا يركن إلى هذا العبادى إلا إذا حجز فرد من أخص أقرباه رهينة . وقد وقع كثير من المالك الشردين فريسة لغدر هؤلاء العرب ، ولم ينج غيرهم إلا بسفرهم في جماعات كبيرة .

ويضرب البشارية خيامهم على حدود الحبشة الشمالية . وساحل البحر من سواكن إلى مصوع أهل بمشارم ، وأهمها : الحمرب ، وبطران ، والعلباب وعمراب ، وعمرتاب ، ومحموراب ، وأرباب ، والخلة ، والمرواب ، والسحبوب ، والشرار ، وكلهم يعيشون في مضارب منفصلة ، وبينهم خصام وعراك كثير . ولا يقتنى البشارية الأسلحة النارية . وتستعمل بمض القبائل الضاربة إلى جوار حدود الحبشة السهام والقسي ، ويتكلمون الحبشية أو قل يفهمونها على ما علمت ، فالأحباش يجدون مشقة كبرى في فهم لغة البشارية . ولعل اللاتين مشتقتان من أصل واحد ، شأنهما في ذلك شأن غيرهما من اللهجات الكثيرة السائدة عند الحدود الشمالية للحبشة .

وبين أفراد البشارية تراحم وجود وأمانة . وأسأؤهم لا يحجبون ، ويقال إنهم جميعات كالحبشيات ، وإنهم سيئات الخلق . وقد فُتت بعد بحث طويل شاق على شاب بشارى قدم إسنا ليبيع سيور الجلد التي اشتهر قومه بصنعها . وأعريته بالذهاب إلى مسكنى ، وذلك بمساومته على بضاعته ، وحملة على الإفطار معه ، وما إن بدأت بسؤاله عن لغته حتى أبى أن يكلم ، مع أننى أعديته قيصاً . فقد توهم أننى أشتغل بالتعاويد والرق ، وأننى أبغى استعمال لغته للإضرار بقومه ، فانطلق مقتحماً فناء الدار لا يلبى ، ولم نجد معه كل المحاولات التي بذلتها بعد ذلك لخلطه على الرجوع .

الرحلة من صعيد مصر إلى بربر وسواكن
عبر صحارى النوبة
ومن ثم إلى جدة ببلاد العرب
(فى سنة ١٨١٤)

في ربيع عام ١٨١٣ عدت من رحلتى التى سافرت فيها على ضفاف النيل حتى دنقلة، فأقمت بصعيد مصر أترقب الفرصة للخروج مع قافلة للرقيق في رحلة إلى مناطق التوبة الداخلية مشرقاً عن رحلتى السابقة . وآخر القوافل التى خرجت في هذه الرحلة سنة ١٨١٣ قافلة كبيرة قامت من أرباض أسوان قبل هودى إليها بأيام قلائل .

في هذه الفترة بدأ قاطع طريق يدعى نعيماً* شيخ عرب الرباطاب (٢) المقيمين في بلاد مقرات ، ومقرات هذه على ضفاف النيل ، وتبعد رحلة ثلاثة أيام إلى الشمال الغربي من القوز « بدأ نعيم هذا يقطع الطريق على القوافل ، وكان قد سلب جماعات من التجار بضاعتهم ، وحل بالقافلة المذكورة ما حل بهؤلاء في عودتها لمصر في أكتوبر ١٨١٣ . وفي شهر ديسمبر استطاعت قافلة كبيرة مساحة من سنار أن تقتل نعيماً ، فعدت الطرق مأمونة بعد موته . ولكن التجار مع ذلك أجلوا سفهم للتوبة ، فقد نعى إليهم أن سكان الأقاليم الجنوبية الشرقية على النيل يتضورون جوعاً لما طرأ على محصول الذرة من هبوط سببه الفيضان الشحيح ، وروى أن الزوجات التمساء برحت بهم الجماعة تبريحاً ، فكان الواحد منهم يقتل ضاحيه من أجل حفنات من الذرة . ورأى تجار الرقيق أن تكاليف إطعام المبيد ستأتى على كل ما يرجون من وراء الرحلة من ربح ، فأرجأوها إلى المحصول التالى .

وكنيت في أثناء ذلك قد اتخذت إسناً مستقراً ، وهى تبعد ثلاثة أيام من دراو محطة قيام القافلة . ولما كنيت أوثر ألا يعرف الناس من أمرى كثيراً ، لذلك لم أكن أخالطهم إلا في الضرورة القصوى ، وارتديت أحقر ما يرتديه أهل مصر من ثياب ، ولم أنفق من المال إلا أقله ؛ فنفقتى اليومية على نفسى وعلى خادى وبميرى وحارى لم تزد على شلن وستة بنسات ، أما جوادى فكان يكلفنى ستة عشر بنساً في الشهر . ولكنى برغم كل هذه الحيلة لم أقو على دفع الظنون والشبهات ، فخالنى بمضهم ذا ثراء هريض ، وحسبني غيرهم رجلاً محظوظاً هداه حسن الطالع إلى كثر دفين . وكنيت أخشى الاشتغال بالتجارة لئلا يلجئني ذلك إلى الاختلاط بالتجار فيشتهر أمرى بين الناس . ولكن القوم في مصر لم يألفوا أن يروا رجلاً

(*) لم يكن نعيم شيخاً للرباطاب بل قاطع طريق من هذه القبيلة التى تسكن مقرات ، وقد حنق عليه العابدة لسطوه على قوافل العثمانيين التى كانت تحت سلطانهم وقتلوه عام ١٨١٢ وحلوا رأسه إلى مصر وأرسلت أذناه إلى والى مصر في المجاز . (الترجم)

يمش من دحلته دون أن يكون له عمل أو مهنة ، فهو إما زارع أو تاجر أو موظف حكومة . فإذا استطاع إنسان أن يمش دون أن يكون أحد أولئك ، أو دون أن يستجدي ، كان ذلك في نظرهم مبعثاً للدهشة والمجب ومثاراً للشبهة في أن الرجل يحق صدق من الريالات المقدسة .

وأملت صرات بدراو أستطلع أمر القافلة وأتصرف إلى وجوه القوم . وفي منتصف فبراير تقريباً بعث مراسلي بدراو رسولا إلى ياسنا ينبئني بأن القافلة على أهبة الرحيل ، فانطلقت إلى دراو ، ولكنني وجدت التجار يسوفون ويؤجلون . وانقضى أسبوعان قبل أن يصدر الأمر بقيام القافلة .

ودراو قرية كبيرة على ضفة النيل الشرقية تبعد عشر ساعات إلى الشمال من أسوان ، وأهلها من فلاحي مصر ومن عرب العبادة الذين نزل كثير منهم القرى المصرية ، جنوب فقط حتى أسوان وبقي بعضهم بالجبل . وهم يعيشون في الجبل عبثاً البداوة طوال الفصل الذي لا تقتضي فيه الزراعة بقاءهم على ضفاف النيل ، أما فيما بقي من شهر السنة فهم يسكنون القرى شأنهم في ذلك شأن الفلاحين المصريين .

وللقبيلة شيخان يقيم أحدهما في إقليم الواقعة على ضفة النيل الشرقية على نحو أربع ساعات من دراو شمالاً ، ويقيم الثاني في دراو .

وقد اشتغل العبادة من عصور سحيقة خبراء للقوافل التي تمر بحراء النوبة ، وقيم كثير من كبار تجار الرقيق . ويتقاضى شيوخهم ضريبة على كل رقيق وكل حمل يحمل يحتمل الصحراء ما لم يكن ملكاً لبدوي من قبيلتهم .

أما غير العرب من أهل دراو فهم فلاحون تزوجوا نساء من العبادة ، وجاهلهم يشتمل كذلك بتجارة الرقيق . وقد ألفتهم بعد خبرة مؤسفة سمائيك ثملقن يمشون في ضنك وفاقه على كثرة ما تدره عليهم تجارتهم من ربح يبدونه في السكر والفجور .

وكنت قد أخذت عدتي للرحلة وأنا ياسنا . ولكنني ما وصلت دراو حتى

وجدتني مضطراً لتغيير خططى . كنت قد جلبت معي بئراً وحماراً لأحمل أولهما المتاع والزاد والماء ، ولأمتطى ثابتيهما جرياً على عادة التجار النوبيين الذين يسافرون إلى بلاد الزنج على حمار يبيعونها فيها ثم يعودون راكبين جمالهم . ولم أصطحب معي خادماً هذه المرة ، فقد بعثت بالفلاح الذى كان يخدمنى أصدق خدمة طوال إقامتى بالصعيد إلى القاهرة وأنا مفادرسنا وحملته طائفة من الخطايا ، لأننى عقدت العزم على أن أجرب حظى فى هذه البلاد وحيداً بغير خادم . ولقد تعلمت بالتجربة أن الأجراء الذين لا يحفزهم للخروج فى الرحلات الشاقة الخطرة إلا ما يصبون من أجر شهرى ، يكرهون فى العادة ركوب الخطر ويحفلون من المشقات مهما هانت ، فيصبحون كغلاً على سادتهم لا عوناً لهم ، بل إن منهم من يمرض حياة سيده للخطر بجهله أو غدره . ولما كنت موفور العافية فإنى لم أحجم عن تحمل العبء الإضافى الذى كان يحمله عنى خادى لو أنه رافقنى فى الرحلة . وفى دراو أتيج لى أن أرى ما أعدده المسافرون من عذرة للرحلة ، وأن أثبت أننى لم أئوخ ما توخوا من اقتصاد شديد . ذلك أن متاعى وزادى كانا يزنان زهاء قنطارين ، فى حين يطيق جملى حمل ستة قناطير . أما مثونتى من الماء فكنت سأحملها فى قربتين صغيرتين أحلقهما على بردعة حمارى . وعلى ذلك يستطيع جملى أن يحمل أربعة قناطير آخر يبلغ أجر نقلها عشرين ريالاً بواقع خمسة ريالات للقنطار . فلو أننى استهنت بهذا المبلغ لتعرضت لنقد رفاقى ، ولحمتهم على الظن بأننى ترى أمثل . وسرعان ما عرض على بعضهم أن أنقل لهم أربعة قناطير عبر الصحراء إلى القوز لقاء الأجر المذكور ، ولكنى رأيت أن تحميل الجمل بهذا الحمل ثم إزاله عنه سيجشمنى عناء كبيراً ، لذلك استصوبت أن أبيع الجمل ، وما لبثت أن وجدت له مشترىاً يقدنى فيه خمسة وعشرين ريالاً لأن الإبل كانت عزيزة بصعيد مصر فى ذلك الحين ، وتسكفل الرجل فى هذه الصفقة بنقل متاعى عبر الصحراء .

ذهبت إلى دراو متنكرراً فى زى تاجر فقير ، وهو المظهر الوحيد الذى أحسبنى كنت أوفق فيه . ولست أرى بأساً من أن أسوق إلى القارىء هنا بياناً مفصلاً بما كنت أحمل من متاع وزاد ، فأنا شخصياً كنت إذا قرأت كتب الرحلات أتوق إلى جمع هذه المعلومات للإفادة منها .

كنت أرتدى « الزعبوط » الذى يرتديه أهل الصعيد ، وهو عباءة صوفية فضفاضة بنية اللون ، وأرتدى معه قميصاً وسراويل من الكتان الأبيض الخشن ، وعلى رأسي لبدة من الصوف الأبيض ألفها بمنديل عادى لتتخذ شكل العمامة ، وفى قدامى خفان . وكنت أحمل فى جيب زعبوطى يومية صغيرة وقلماً وبوصلة جيب ومبراة وكيساً للتبغ وزناداً من الصلب أقدح به النار . أما زادى فكان أربعين رطلاً من الدقيق ، وعشرين من الكمك ، وخمسة عشر من البلع ، وعشرة من العدس ، وستة من السمّن ، وخمسة من الملح ، وثلاثة من الأرز ، ورطلين من البن ، وأربعة من التبغ ، ورطل فلفل وبعض البصل ، يضاف إلى ذلك ثمانون رطل ذرة عليقاً للحمّار . وكان معى حلة وصحن من نحاس ومحضّة للبن ، وهاون من الفخار لصحن البن ، وفنجانان للقهوة ، وسكين وملقعة ، وسلطانية من الخشب للشرب وللماء قربى ، وبلطة وعشر ياردات من الحبال ، وإبر وخيط ومسلة ، وقيص احتياطى ، ومشط ، وإكليم ، وحرام مغربى للغطاء ليلاً ، وحزمة صغيرة من الأدوية ، وثلاث قرب احتياطية .

كذلك كنت أحمل بين متاعى مصحفاً صغيراً للجيب ابتعته فى دمشق (ولسكنى فقدته فيها بعد يوم حجّجت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨١٤ وأنا بين جموع المصلين فى عرفات) ، ويومية احتياطية ومجبرة وأفرخ ورق أكتب عليها التعاويذ للزئوج . أما ساعتى فقد كسرت وأنا بصعيد مصر ولم أستطع الحصول على سواها . ومن ثم فساعات السير التى سجلتها فى يوميتى هى نتيجة تقديرى وملاحظتى لمسير الشمس .

وأما ما حملت من بضاعة قليلة فمئثرون رطل سكر ، وخمسة عشر رطل صابون ، ورطلان من جوزة الطيب ، واثنان عشرة شقرة للحلاقة ، واثنان عشر زناداً ، وطربوشان أحمران ، وعشرات من السبح الخشبية التى يمكن التعامل بها بسهولة فى أقاليم الجنوب بدلاً من القرد . وكنت أحمل إلى ذلك بندقية معها ثلاث دست من الرصاص وبعض الرش الصغير ، ومسدساً ونبوتاً صفيح طرفاه بالحديد فأصبح سلاحاً المقتال ومدقاً للبن على السواء ، وكنت أحمله معى أنى مرت جرياً على عادة

أهل البلاد . أما كيس نقودى الذى حملته فى حزام أتعطى به تحت الزعبوط ، فكان يحتوى على خمسين ريالاً إسبانياً تدخل فيها الخمسة والعشرون التى قبضتها تمنا لبعيرى ، يضاف إلى هذا المبلغ جنبيان بندقيان (*) دسستهما فى حجاب جلودى صغير شدته إلى صرقي لأننى رأيت هذا خير وسيلة لإخفائهما . حولاً لأننى تعطلت طويلاً فى بدء رحلتى من مصر لحملت معى من النقود أكثر من هذا ، ولكنى - وقد بلوت من أمر الرحلة بعد ذلك ما بلوت - أقول إننى فى شك كبير مما كنت أكتبه من وراء هذه الزيادة من نفع . وكنت فى بداية الأمر قد رسدت لهذه الرحلة مائتى ريال حملتهما معى من أسبوط إلى إسنا فى سبتمبر من عام ١٨١٣ ظناً منى بأنى مستطيع القيام مع القافلة دون إبطاء . ولكنى بعد ذلك وجدتني مضطراً إلى أن أجور على هذا المبلغ ، أقتطع منه مصروفي اليومى ، وأشتري منه بعيرى ، إلى غير ذلك من مطالب . وكنت قد أرسلت فى طلب مبلغ آخر من المال ، ولكنه لم يسفنى بالوصول قبل قيام القافلة .

ولما كان انتظارى للقافلة قد طال ، فقد كرهت أن أفوت هذه الفرصة التى واثقتى - فرصة الخروج معها فى الرحلة - لالشيء إلا لضيق يدي . ثم إن الأنباء التى جمعتها عن الحالة فى بلاد النج خلتنى على الظن بأننى قد أوفقت فى رحلتى إليها ولو بهذا المبلغ الزهيد مادام مكنتى بها لن يطول . زد على ذلك أننى كنت على استعداد للتعبيض عن قلة المال بالتقشف وبذل الجهد ، واجتنابهما هو أهم دواعى الإسراف فى مثل هذه الأسفار . وحزمت متاعى وزادى كله فى خمس فرائر أو « جربان » من الجلد درج على استعملها تجار الرقيق ، أما ما كنت فى حاجة دائمة إليه من الأدوات فقد أودعته حقيبة صغيرة شدتها إلى ظهر محارى .

لم يكن الزاد الذى يحمله أغنى تجار القافلة يختلف عما أحمله ، ولم يزد بعضهم من الأطايب إلا السمك المجفف والشهد والخبز . والخبز طعام يطيب المسافرين من غير شك ، ولكنه لا يناسب المسافرين فى الصحراء حيث يجهد بالمرء أن يحتجب من الطعام ما يثير ظمأه . وكان لدى بعض المسافرين فى القافلة نوق مرضعات كانوا يملكون منها كل يوم مقداراً من اللبن اللذيذ .

وفي أول مارس اجتمع شمل التجار في دراو ، وفي فجر الهند حملت البضائع المختلفة التي ستنقلها القافلة إلى ميدان مواجه للقرية يدعى برزة الجلابة .

ولما انتصف النهار سقيت الجبال (*) وأنسخ كل بمير إلى جوار حمله . وقبيل التحميل أقبلت نسوة العبايدة يحملن أوعية من الفخار ملئت جمرأ فوضعهما أمام كل حل ورششن الملح على الجمر ، فلما تصاعدت منه اللهب الزرقاء عند احتراق الملح طلبن للرجال السلامة ودعورن لهم بالتوفيق في الحل والترحال . وهن يزعمن أنهن بطردن بذلك الشيطان وكل روح شرير .

ورافقتنا نساء القرية وأطفالها زهاء نصف الساعة بعد خروجنا من القرية . وكان أحسن أصدقائى في دراو - وهو رجل يدعى الحاج حسين العالوان أقمت في بيته وأعدت عليه الهدايا الكثيرة اعتقاداً منى أنه ينوى السفر معى بشخصه ، مما يحمله رقيقاً عظيم النفع - كان هذا الرجل قد أعلن في اليوم السابق لرحيلنا أنه باق بدراو . ولكن أخاه وابنه علياً انضما إلى القافلة ، وكانت جماعتهما أكبر جماعات التجار المصريين بيننا وأغناها . وتبعنا الشيخ ونساؤه مسافة بعد القرية ، وأخذ يوصى قريبيه بى خيراً ونحن نفارقه ، وكان يقول لابنه وهو يفتح صدريته ويضع يده على قلبه « إنه أخوك ، فليكن هذا مكانه منك » . وهذه المادة شائعة في صحراء العرب كذلك ، ولها هناك مغزى ودلالة ، أما بين هؤلاء المصريين فليست سوى عبارة جوفاء تلو كها ألسنتهم . ثم سرنا في سهل رملى فى شىء كثير من الفوضى التي تنتشر عادة فى بداية الرحلات . وكان كثير من الإبل محملاً أسوأ تحميل ، وألقت بعض الإبل أحمالها عنها لطول ما ألفت من البطالة ، واضطررنا أن نبيت ليلتنا فى واد ممشوش بعيد عن دراو ساعتين ونصفاً إلى الجنوب الشرقى ، وهناك نعمنا بأكل ما أعدته نساء دراو من طعام شهى طيب ، وأشمل المسافرون نيرانا كبيرة وأنفقوا الليل فى الغناء والضجيج .

٣ مارس - غادرنا الوادى مبكرين ودخلنا وادى أم ركة ، وهو وادعريض

(*) قبل أن يقوم التجار حملهم يغطون إبلهم ثلاثة أضعاف عليها اليوم من النرة ويحشون حلقها أياماً متوالية ، وإذا بدأت الإبل الرحلة أخذت تجتر هذا الطعام المختزن أياماً .

طيب المرعى سرنا فيه أكثر من ساعتين ، ثم ارتقينا تلالاً قائماً ، وهبطنا . وصعدنا مرات قبل أن يحط رجالنا في واد قريب من عين ماء اسمها أبو كبير ، ولم تقطع في يومنا غير ست ساعات كان سيرنا فيها بطيئاً جداً . وفي الوادي بعض الشجر ، وقد تجد الماء في أى أرجائه إن حفرت عليه في الرمل . واجتذبت عين أبو كبير الشحيحة بعض البدو من العباددة فأقاموا حولها ، وقد اشتريتنا منهم بعض قنمهم . وصخور الجبال التي اخترقناها اليوم كلها من الظران .

٤ مارس - سلكنا هذا الصباح أودية رملية زهاء أربع ساعات ، ثم بللنا عقبه تنهت عندها الرمال وتلال الظران . وعبرنا القبة - وهي من الجرائيت والشتت - وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا مكاناً اسمه أبو عجاج ، فيه مستودع طيب لمياه الأمطار هيأته الطبيعة بين الصخور الجرائيتية ، وكانت طريقنا تيمم جنوب الجنوب . انغرنى والمسافة من هذا المكان إلى أسوان ست ساعات . وبدأ خلف مستودع المياه المذكور مباشرة درب ضيق بين الصخور لا تمر فيه الجمال المحملة إلا بشق الأنفس . وفي منعطف من منعطفات الجبل في هذا الدرب وجدنا طلائع القافلة مشتبكة في شجار ساخب مع جماعة قوية من البدو المسلحين ، وقبل أن أعلم تفاصيل النزاع رأيت عابدة قافلتنا يتقلدون سلاحهم ويتقدمون لمهاجمة خصومهم . وكان هؤلاء من العباددة كذلك ولكنهم من عشيرة أخرى ، وقد تراءى إليهم أننا رحلنا عن دراو فخرجوا من بيوتهم في المطاردة - وهي قرية قريبة من أسوان - ليكنوا لنا في هذا الدرب الضيق ويتقاضوا منا ضريبة المرور . وكانت عدتهم ثلاثين رجلاً ، وكذلك كان أصحابنا العباددة ، ونضا الجميع ثيابهم لأن من أصول القتال عديم أن يتخففوا فيه من الثياب إلا من وزرة يلفها الرجل منهم على خصره (*) . وكان سلاحهم السيوف الطويلة ذات الحدين ، والرماح القصيرة والدق التي استخدموها على الأخص في اتقاء وابل الأحجار التي قذفهم بها الخصوم في بداية المعركة . ولما رأينهم يحملون على بعضهم البعض ثم يلتحمون بالسيوف وهم يتصايحون تصايحاً منكراً

(*) يقاثل النوبيون عراة على الصورة نفسها

ظننت المهاجمين من اللصوص ، فتهيأت للانفهام إلى أصحابنا العباددة . وما إن صوبت بندقيتي إلى شيخ المهاجمين حتى صاح بي رجل من جماعتنا يستحلفني بالله ألا أطلق النار أملاً منه في حقن الدماء . ورحب التجار المصريون بالوقوف في المؤخرة ليدافعوا عن أمتعتنا عملاً بنصيحة الخبراء . وكان القوم يحملون سيوفهم ، ولم يكن غيرى يحمل بندقية ، وقل منهم من كان يحمل غدارة ، وكان العباددة يتوقون إلى تسوية النزاع بحمد السيف . وانقضت مشرون دقيقة وهم يقاتلون قتالاً بخالطه الإحجام والتردد ، ثم أمسك الجميع بمد تدخل الشيوخ من الفريقين ، وزعم كل فريق أنه المنتصر . ولم تزد الحسائر في المعركة على جرح ثلاثة منهم بجراح طفيفة وقلع درقة من درقاتهم نصفين . على أن أصحابنا ظفروا بما أرادوا ، فقد مررنا دون أن نؤدى ضريبة مرور . ولقد طابت نفسي بما رأيت من إمكان الاعتماد على رفاقنا العرب إذا تعرضنا لهجوم آخر في أثناء رحلتنا . أما من كان في القافلة من التجار المصريين فقد ظهر إحجامهم واضحاً جلياً برغم تشدقهم وجمجمةهم . ولبعض شيوخ العباددة حق في إتاوة يجبونها من القوافل ، ولكن غير هؤلاء كثيرون ينتحلون لأنفسهم هذا الحق الذي ليس لهم ، وواجب الخبراء أن يحموا القافلة من هذا الابتزاز . وليس في استطاعة قافلة من القوافل أن تمر الصحراء آمنة مطمئنة دون أن يرافقها بعض العباددة ، ولا يقدم التجار المصريون على هذه القامرة وخدمهم مع أن كثيرين منهم عليهمون بمسالك الصحراء .

وانسحب المهاجمون بمد أخذ وردّ مستفيضين عقب المعركة . وكنا نوى المبيت أول الأمر في أبو عجاج ، ولكن الخبراء استصوبوا الآن السير قدما خشية أن يرسل الخصوم ليلاً في طلب المسدد من قريتهم . لذلك سرنا ثلاث ساعات آخر فوق أرض صخرية حتى وصلنا وادياً عريضاً يدعى وادى هود . ومنه حططنا . وقد رأينا أرجالا كبيرة من الجراد بين الأحجار الجرانيتية الجرداء طوال مسيرنا بمد ظهر اليوم .

٥ مارس - ووادى هود واد عريض يحفل بالشجيرات والأعشاب ، وتحف به من الجانبين صخور جرانيتية بديمة شبيهة بصخور أسوان والشلال . وعضينا نضرب

في الوادى ساعتين ، وبعد أن أكملنا مسيرة ثلاث ساعات بلغنا سخوراً رملية تقطعها طبقات من المرو . ثم صعدنا سهلاً هيناً ، وبعد أربع ساعات جئنا وادياً رملياً فسيحاً سلكناه ساعات ووجهتنا جنوب الجنوب الغربى ، حتى إذا أتممنا مسيرة سبع ساعات بلغنا وادياً ضيقاً يدمى أسم الجبال (وسمى كذلك لكثرة ما به من منطفات) ، وهناك حططنا بعد أن سرنا فى يومنا هذا نحو سبع ساعات ونصف . ويحفل هذا الوادى بالأشجار الشوكية من فصيلة السنط ، وتنسجهم أوراقها الخضراء الداكنة انسجاماً رائماً مع الصخور الجرانيتية المحيطة بها ، وسطح الصخور مصقول براق ولونها أسود قاحم . وفى مواضع قليلة يتجاوز عرض الوادى ستين ياردة ، وقد يبلغ ارتفاع أعلى قمم سخوره - وكلها ربي قائمة - مائتى قدم أو ثلاثمائة فوق الأرض المستوية . واستخدمنا وقوداً للنار التى أشعلناها هذا المساء الروث الجاف الذى خلفته جمال بركت من قبل فى هذا الموضع . والحق أننا قل أن حططنا مساء بموضع دون أن نجد هذا الوقود ، وذلك لأن التجار قلما يشدون عن الدرب المطروق ، وهم لا يحطون فى موضع اعتباطاً ، إنما هم مقيدون بالمواضع التى يجدون فيها مرعى من الكلال أو الشجيرات ، أو على الأقل من السنط تقضم إبلهم أوراقه وغصونه ساعات فى المساء . ولم أجد فى مضارب هذه القافلة من النظام ما وجدت عند بمض القوافل التى تجتاز الصحراء الشرقية . كانت عدتنا تسعة وثلاثين بغيراً محملاً ، وخمسة وثلاثين حاراً ، ونحو الثمانين رجلاً ، وكنا مقسمين إلى اثنتى عشرة أسرة ، يؤلف كل منها جماعة منمزلة قائمة بذاتها . وكان بيننا رجلاً من أسوان ، أما الباقون فن من دراو وإقليم وإسنا ، وقليل منهم من قوص وفرشوط . وأهل أسيوط قلما يتخذون هذا الطريق فى رحلاتهم . وكان شيخ العبادية رئيساً للقافلة يرضى الجميع ، بيد أن التجار المصريين كانوا فى الغالب يحطون ويرحلون وفق هوامم وكما يطيب لهم (*) ، فكانت لا تخلو عشية من شجار حول الوضع الذى نمط فيه .

(*) يعامل العبادية التجار المصريين بشيء من الاحترام ويكرهون أن يفضيهم لأنهم يحطمون فى عطائهم . ولكن العبادية يحطون فى كل مكان بما لا يحظى به الفلاحون [أى المصريون] من ثقة ، ولا بد أن ينقاد هؤلاء لرأى العبادية فى جميع المسائل الخطيرة .

ولم يكن التجار يحملون خياماً ، فكان مبيتنا جميعاً في المراء ، ولكن أحداً منا لم يكن يغمض له جفن قبل أن يضع متاعه في وضع يتعذر فيه على المصوص السطو عليه دون أن يتنبه لهم . ولم نكن نخشى لصوصاً من الخارج ، بل كنا على يقين من أن في نفر من أصحابنا جنوحاً إلى السرقة ، وقد سطا هؤلاء على متاع بعضنا المرة بعد المرة خلال الرحلة برغم كل ما اتخذنا من حيلة وحذر .

٦ مارس — طفقنا نضرب في وادي أم الحبال ثلاث ساعات حتى وقفنا عند فج في سلسلة التلال الغربية ، وهنا ألفينا بين الصخور مستودعاً طبيعياً كبيراً لمياه المطر ، وكان مأوّه صافياً عذباً زلالاً . واسم السكان دحيت ، وبطريقه العرب كثيراً لأن ماءه قلما ينضب ، وموقعه في شق من الجبل يبدو أنه من فعل زلزال عنيف . ويوجد الداخل إليه أكواماً من الكتل الجرانيتية الكبيرة ، تزايد كلما ارتقى التل إلى ارتفاع كبير ، وهناك مستودعان آخران الماء في سعة الخزان السفلي وإن كان المرتقى إليهما عسيراً . أما الوادي نفسه فلا يخلو من جمال وروعة أضفتها عليه الطبيعة ، وعرضه أربعون ياردة ، وهو حافل بشجر السنط ، ونخفه على الجانبين جروف قائمة من كتل الجرانيت المهشمة ذات الأشكال الغريبة . وحين يهطل المطر الغزير — وما أكثر ما يهطل في هذه الأرجاء — تتجمع المياه المنحدرة من سلسلة التلال الغربية فتؤلف سيلاً كبيراً قيل لي إنه يصب في النيل قرب قرية دهميت على ثمانى ساعات من أسوان صوب الجنوب ، وعلى نحو أربع ساعات من دحيت ناحية الجنوب الغربي نبع ماء صاف يدعى المويلح ، وترتاده القوافل الخارجة من أسوان . ومكثنا هنا اليوم كله ، فقد درجت القوافل في الصحراء الشرقية على أن تسير هوائاً في الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى من الرحلات الطويلة حتى تألف الإبل مشقة الرحلة شيئاً فشيئاً بعد شهور الراحة التي نعمت بها ، وهم يبطنون على الأخص حيث الكلال الطيب والمرعى الجيد . وليس للوقت وتضييعه على هذا النحو أهمية عند تجار الشرق عموماً وعند العرب خصوصاً ، وقد روى لي في دمشق أن القوافل الخارجة منها إلى بغداد قد تستغرق في طي البادية ثلاثة شهور في الربيع . وصادفنا هنا أيضاً أرباباً كباراً من الجراد .

وقد استفحل أمر هذه الأرجال الشرهة فكانت تنتشر في الجبال أحياناً انتشاراً واسعاً فتأتى على كل أخضر مورق ، وكثيراً ما تصل ماشية البدو إلى حالة يرى لها إذا نكبت بغارات الجراد .

٧ مارس — خرجنا من الوادى بعد ساعتين واثنيًا بعض العرب البشارين وهؤلاء البدو الذين ذكرتهم من قبل في معرض الحديث عن رحلتى لدنقلة يقضون الشتاء في الجبال القريبة من البحر الأحمر ، وهى جبال تحفل بالكلا عند سقوط الأمطار الشتوية ، فإذا أقبل الصيف اضطرتهم قلة الآبار والعيون إلى الهجرة إلى قرب النيل حيث الآبار موفورة. وكنا الآن نضرب في سهل رملي مكشوف أجرد تقوم إلى شقيه الجبال الشاهقة وعلى كسب منه إلى الغرب تلال منخفضة. ووادى أم الجبال كله من الجرانيت . ولكنى لقيت في هذا السهل الحجر الرملي والرو مرة أخرى . وقضينا زهاء خمس ساعات في عبور هذا السهل المسمى بركز وغانه .

وبعد رحلة سبع ساعات من السير الوثيد صوب الجنوب الشرقى وقفنا عند مدخل سلسلة من الجبال الواطئة وجدنا فيها مرعى طيباً وفيراً . ويكثر في هذا السكان نمو أعشاب تدعى الطويلة ، وهى طعام جيد للإبل ، ومنذ رحلت عن دراو لم ينقطع الخلاف بينى وبين الرجل الذى ابتاع جملى وحمل عليه بضاعتى . ذلك أنه أخذ على عاتقه نقل بضاعة أخرى لم يكن للجمل بحملها طاقة ، فكان يريد التخفيف عنه بمحاولة وضع بضاعتى على حمازى مع أنه تسلّم ثمن نقلها . وأعيا الجمل عن السير هذا المساء ، فرماني الرجل بأننى غششته وبعته ببيعاً مهزولاً ، وأصرّ على أن أرد إليه نقوده ، ولكنه ما لبث أن عدل عن هذا الطلب . وكان العدل ، والعرف السائد حتى بين التجار أنفسهم ، يقضيان بأن يتحمل الرجل أجر نقل بضاعتى من هذه اللحظة ، ولكنه راح يحلف ويندب حظه على مسمع من الجميع ، وزعم أن الخراب والإفلاس قد حلا به ، وأخذ يحشر التراب على وجهه حزناً وتفجعاً حتى رقت له قلوب شيوخ القافلة فأنحازوا لصفه ، واضطرت آخر الأمر للاتفاق مع أحد العرب العميابة على حمل بضاعتى من جديد ، ولما كنا قد سلخنا من سفرتنا ستة أيام فقد خف ثقل الزاد وأخف منه حمل الجمل يوماً بعد يوم ، وهذا ما يتمد عليه التجار دائماً فلا

يأخذون معهم إبلا احتياطية من مصر كما جرت عادة القوافل الأخرى ، فإذا أعيث بعض الإبل وخارت قواها وزعت أثقالها على غيرها لقاء أجر عادل ، ولا يستطيع رجل في القافلة أن يرفض تحميل جملة بحصة من هذه الأثقال مادامت الضرورة تدعو إلى هذا الإجراء وما دام جملة يطبق هذا الحمل الجديد . ثم استأنفنا السير بعد الغروب ، وقضينا ثلاث ساعات آخر نضرب في الوديان حتى جئنا جبالا واطئة تدعى أم حريزل فخططنا عندها .

٨ مارس — وجمال أم حريزل من الجرائيت الأشهب الداكن ، وبعد أن جزناها اخترقنا سهلا رملياً عميقاً لا أثر فيه لمشب أو شجر ، وكنا نتجه إلى الجنوب الشرق ، ورأينا أشلاء الجمال وعظامها مبعثرة على الطريق ، ذلك أنه قل أن تقوم قافلة بهذه الرحلة دون أن تلتقي بعض جمالها حتفها في الطريق ، وعلى الأخص في المناطق المحجرة التي يشق فيها السير ، أو على مقربة من الآبار حيث تهرع الجمال المنهكة القوى إلى الماء تمب منه عبأ يضيف من قدرتها على مقاومة التعب واحتمال أثقالها . ومررنا في الطريق بكثير من التلال الجرانيتية الصغيرة المنزلة ، ورأينا كثيراً من الكتل الجرانيتية القائمة وسط الرمال . وحططنا قرب الظهيرة عند مدخل سلسلة من الجبال تمتد من الجنوب الشرق إلى الشمال الغربى ، واسمها جبل هزربة . وقد درجت القوافل على الراحة في ساعات الظهر لتناول الغذاء والقبولولة ساعتين ، فإذا كانت القافلة عائدة من السودان ، وكانت الإبل فيها موفورة وكل مسافر فيها راكباً ، فإنها تطيل المراحل وتسرع السير . أما في حالتنا هذه فقد كان ثلثا القوم راجلين . واستأنفنا السير حوالى الساعة الثانية ، ثم وقفنا قبيل الغروب . وفي عصر هذا اليوم جزنا هزربة ومررنا في نفس الاتجاه حتى أدركنا صخوراً تدعى بيبان وبذلك أكلنا مسيرة تسع ساعات لم يبق بصري فيها على عشب أو شجر . والصخور التي حططنا إلى جوارها جرانيتية اختلطت بها كتل كبيرة من الفلسبار .

٩ مارس — اضطررنا حاجتنا إلى المياه للرحيل بعد منتصف الليل بقليل ،

فمسرنا خمس ساعات وصلنا بعمدها وادى نقيب وبه آبار لها هذا الاسم ، وهو حافل بأشجار السنط ، وعند طرفه بئران عميقتان لأبأس بجانها .

كانت معاملة رفاقي لى مسد رحلتنا عن دراو تنطوى على الإغفال بل قل على الامتهان والازدراء . ولست أشك فى أنه لم يدبر بخلدكم قط أننى أوربى ، بل حسبونى تركى الأصل — من تركية أوربا أو من الأناضول — وهو رأى يكفى فى ذاته لحمل العرب على الإساءة إلى وتحقيرى ، لأنهم يكونون للعثمانيين أشد ضروب البغض والكراهية . وكنت أحمل معى فرماناً من حاكم الصعيد إبراهيم باشا بن محمد على باشا ، مشفوعاً بخطاب توصية وجهه إلى كل ملوك السودان فى طريق سنار ، وقد سميت فى فرمان الخطاب بالحاج أو الشيخ إبراهيم الشامى . على أننى لم أطلع رفاقي على شئ من هذا كله لأسباب لا تخفى ، وكل ما فهموه عنى هو أننى حليى المولد ، وكانوا يعلمون أننى صديق حميم لحسن بك والى إسنا الذى تدخل دراو وفى نطاق ولايته ، وصديق لآل حباتر الإسماعيليين ذوى التجارة العريضة ، وهم الذين أوصوا بى مراسل الوالى فى دراو . ورأى رفاقي أننى لم أجلب من البضاعة إلا أقلها فحسبونى هارباً من مصر بسبب ديونى . ولكنى زعمت لهم أننى أبحث عن ابن هم لى مفقود كان قد غادر أسيوط من سنوات قاصداً دارفور وسنار فى تجارة أودعت فيها كل مالى . وكانت هذه الحجة التى بررت بها رحلتى تلائم عقلية القوم كل الملاممة ، فإن ما كنت أحمل من بضاعة ضئيلة لم يكن ليبرر خروج رجل يتمتع بقواه العقالية فى رحلة كهذه لا يبنى منها غير السكسب ، فقصارى ما يرجوه من ورائها مهما فسح أمله وعظم تفاؤله هو أن يعود برأس ماله سليماً بعد أن يؤدى كل نفقات الرحلة ، لذلك وجدتني مضطراً إلى اختلاق عذر أبرره به خروجى فيها ، فرحت أردد على مسمع رفاقي أننى كبير الأمل فى العثور على ابن عمى المفقود ، أو على الأقل فى القصد فى النفقة فصدأً يجنبنى الخروج من الرحلة خاسراً . ولعل أصحابى لم يكذبوا قصتى ، ولعلهم كذلك لم يستبمدوا أننى خرجت من مصر هروباً من الدائنين ، على أننى تبينت فى الوقت نفسه أنهم لم

(م ١٠ --- رحلات بوركهارت)

يستطيعوا أن يخلوا أنفسهم من الغيرة والحسد ، ولعلمهم رأوا أنني إن عدت من هذه الرحلة مقتنماً بما تدره التجارة من ربح فقد لا أعدم وسيلة لرحلة ثانية أخرج فيها للسودان برأس مال كبير . وأحسب أن هذا هو الذي حملهم على إساءة معاملتي حتى أعدل من أية محاولة أخرى من هذا القبيل . ولقد حاول أراك كثيرون من الأناضول أو من تركية أوربا — في السنين العشر الأخيرة — أن يشتغلوا بهذه التجارة ، ولكن أهل دراو ما فتئوا يجدون أن وسائل لتغييرهم تنفيراً يزهدهم في إعادة الكرة من جديد . كان لدى التجار إذن من الدوافع ما يحملهم على الإساءة إلى ، ولما تبينوا في فوق هذا كل مظاهر الإملاق ، ورأوني أقطع الخشب وأطهو طعامي وأملأ قربي بيدي ، لم أفضل في نظرهم أجيراً من الأجراء الذين يستخدمهم التجار لقاء عشرة ريالات ينقدونها الواحد منهم في الرحلة من دراو إلى القوز أو شندى ثم إلى دراو ثانية . وكنت حريصاً على الإبقاء على العلاقات الطيبة بيني وبين آل علوان وكانوا وجوه التجار المصريين في القافلة ، وخيّل إلي أن وسطايتهم قد تنفعني في بلاد الزنج . ولكنهم حين رأوني بالماً في الإملاق مبلغاً لا يطعمون معه في الحصول على أى عطاء مني ، نسوا كل ما أغدقت عليهم قبل رحيل القافلة ، وخالت معاملتهم لي من كل أدب واحترام . فبدأوا يفتابون حسن بك وإلى إسنا ويسبونونه بأفزع الألفاظ وراحوا يقولون : أما وقد صرنا الآن في البادية ، فإن جميع البكوات والباشوات لا يساؤون في نظرنا قلامة ظفر . فلما لم أبال كثيراً بما يقولون راحوا يخاطبونني بمبارات ملؤها الزراية والتحقير ، وكانوا لا ينادونني إلا بـ «أنولد» . وكانت إهاناتهم لي تزداد يوماً بعد يوم ، ولكنني كظمت غيظي ولم أرد على الإهانة بمثالها ، فغاية ما كانوا يشبهون هو استفزازي حتى إذا رددت على شتمهم وجدوا تسكناً تبرر اعتداءهم علي بالضرب ، وكنت في بداية الرحلة أنضم إلى آل علوان حين تحط القافلة مساء ، وإن كنت أطهو طعامي مستقلاً عنهم . على أنهم سرعان ما أقصوني عن جماعتهم ، واضطرت إلى اعتزال الجميع بعد أن أذاع الدراويون أن أشياء سرقت من متاعهم وأنهم يشبهون في . لست أريد أن أسرد كل ما أتاه القوم ، ويكفي أن أقول إنه لم تكن تنضي على ساعة دون أن ألقى

الإهانة منهم بل من أحقر خدمهم ، فقد نهج الخدم نهج ساداتهم ، بل يزوم في هذا المضمار . ولما وصلنا بئر النقيب ومضت الإبل والحمار للشرب وحملنا القرب لنملأها نزل بعض رجال القافلة إلى البئر جرياً على عادتهم ليملاً والدلاء ، في حين ظل البعض فوقها سحب الدلاء . ولما لم يكن لي صاحب ينزل البئر ليستقي لي فقد اضطررت للبقاء عند البئر طوال العصر حتى جنحت الشمس إلى الغروب ، مما كان باعث سرور وتسلية لرفاقى ، ولولا أن أخذ الخبراء أعاننى أخيراً وسحب دلوى بعد أن ملأته من البئر لما استطعت التزود بحظى من الماء .

وانضمت إلينا في النقيب جماعة صغيرة من التجار كانوا قد تعجلوا الرحيل من دراو فقادروها قبلنا بثلاثة أيام ، ولكنهم رأوا من الخرق أن يعبروا الصحراء وحدهم ، فانتظروا أياماً في هذا المكان حتى لحقنا بهم .

١٠ مارس — بلغنا وادى هيهور بعد أن سرنا ثلاث ساعات في إقليم صخرى وعمر سلكنا فيه طريقاً يحفل بالحجارة المتفتتة . ووادى هيهور مجموعة آبار ذات شهرة دائمة في هذه الصحراء . وقبيل بلوغنا هذا المكان مررنا بقبرميت من وجوه المالك لقي حقه هناك فأودع أصحابه جثته الدارية بين جدران واطئة بنوها بالأحجار الصغيرة ، ثم غطوا القبر بحجر كبير . وساعد جفاف الجو على حفظ الجثة من العطب ، وتطلعت إليها من خلال شت فوق الحجارة المحيطة بها فبدت لي أسلم من أى مومياء رأيتها في مصر . ورأيت الميت فاغراً فاه ، وروى الخبير أنه مات ظمأً مع أن مورد المياه كان قاب قوسين منه وأدنى . وتفصيل ذلك أن البقية الباقية من المالك — يقودهم إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن — كانوا قد رحلوا عن ضفاف النيل قرب إبريم سنة ١٨١٠ فراراً من جنود الباشا الذين كانوا يتعقبونهم أينما حلوا ، فاعتصموا بهذه الجبال وحلوا على عرب العباددة ضيوفاً فأنزلوهم مضاربهم ولكنهم لم يتركوا وسيلة إلا للتجأوا إليها لينزوا منهم كل ما يحملون من مال . فباعوه الزاد بأفحش الأمان ، ولما نصبت الآبار لكثرة ما استفت منها جماعة المالك الكبيرين ، اضطروا لما كرون إلى أدلائهم العباددة إلى التفتل منهم من يت

إلى بئر . وكثيراً ما كان العباددة في هذه الجولات يطوفون بضيوهم في طرق دائرة ليخلقوا أزمة ماء مؤقتة ، فيبيعونهم قرب الماء بأهبط الأثمان بعد أن يملأوها سراً من نبع قريب . وفي أزمة من هذه الأزمات المفتعلة قضى المملوك المذكور نحبه ، وقضى معه آخرون دفنوا بقربه . أما سائر الجماعة فقد ظلت أسابيع بوادي حيمور ثم أمروا خدمهم وحشمهم الذين لم يكن لهم بهم حاجة بالرحيل ، وكان من هؤلاء راقصات مصريات بارعات الجمال ، وكان عن مفاتهن قد ارتفع في الجبل بنسبة ارتفاع كافة السلع ، فأصبحت بذلك حظاً موفوراً من المال في أمد وجيز . وآلاف هؤلاء الأتباع والخدم الذين صرفهم سادتهم قافلة ، وأخذت القافلة سمتها إلى أسوان بإرشاد خبراء من العباددة ، وإذا الخبراء يخفقون ليلا قبل أن يبلغ الركب النيل بيوم ، حتى إذا انبلج الصباح هاجمتهم فئة كبيرة من العباددة ، فسلبتهم ما يملكون وجردتهم من ثيابهم ثم أذنت لهم بمواصلة رحلتهم إلى مصر . ويرر العباددة غدرهم في هذا الحادث وفي غيره من الحوادث التي سطوا فيها على كثير من المماليك الضالين وفتكوا بهم بأن المماليك كانوا البادئين بالمدوان ، وبأنهم أثبتوا أنهم ليسوا أهلاً للثقة ولا للرعاية التي هي حق من حقوق الضيف ؛ فقد ذبحوا ماشية البدو واستباحوا نساءهم . ولعل بعض هذا قارفه المماليك ، ولكنه لا يرى العباددة الذين يعلم القاصي والداني ما في طبعهم من غدر وخيانة . وتنبع آبار وادي حيمور وسط سهل رملي صغير يقوم بين التلال الصخرية . والماء في بئر منها أو بئرين لا بأس بمذاقه ، ولكنه في معظمها زقاق كريه وإن كان يتدفق مدراراً . وعلى حواف الآبار طبقة من النطرون ، وقد رأينا الأرض حول الآبار منقطعة بروث الإبل والحيل المتخلف منذ عسكر المماليك بهذا المكان ، وانتشرت فيه النمل العتيقة وقطع الخيام وخرق الثياب القديمة وسهل حيمور تؤمه جماعات البدو البشارين انتجاعاً للكلأ ، ولكنهم يلتزمون بدفع ضريبة سنوية لرؤساء العباددة لأن الآبار تدخل في نطاق أملاكهم . وكثيراً ما ياتجهم الفريقان لهذا السبب ، ولكن العباددة أصبحوا اليوم أقوى من خصومهم وأشد خطراً ، وهم كذلك أوفر مالا مما بينهم وبين مضر من تجارة . ولا

يحتك العبادة إلا بالشمالين من البشاريين . ولم نجد بوادى حيمور من الأمر البشارية إلا القليل ، ومررنا بالسهل مرور الكرام لأننا كنا ملأنا قربنا من ماء النقيب وهي أعذب بالقياس إلى ماء حيمور . وبدأ بعد وادى حيمور إقليم صخرى وهرة لقيت الإبل في اجتيازها كل مشقة . فصعدنا في صخور الجرانيت والحجر الرملي زهاء الساعة ، ثم هبطنا إلى السهل ثانية بعد أن سرنا في يومنا خمس ساعات ونصف ، وكان اتجاه سيرنا جنوباً بشرق . وتدهى الجبال التي عبرناها عقبة حيمور ، ويراها المسافر مشرفة من بعيد ، والسهل الواقع خلف العقبة سهل رملي يتخلله الكثير من الصخور الجرانيتية المنعزلة . ولم أتبين في صخوره طبقات منتظمة ؛ فقد كانت الصخور مهشمة مدببة الأطراف تحمل طابع هزة عنيفة انتابت الأرض في هذا المكان . وبعد ساعة دخلنا وادياً طيباً يدعى وادى نخدير أو غمبر (ويشق على التحقق من اسمه الصحيح لأن خطى في اليومية غير واضح) . والوادي حافل بأشجار السنط ، وكنا نأمل أن نثر فيه على ماء متخلف من الأمطار التي تحتفظ بها خزان كبير صنعته يد الطبيعة هنا ، ولكننا وجدنا الماء قد نضب ، ودلنا روث الإبل المنتشر حول الخزان على أن جماعة من العرب قد نزحوا قبلنا . وعلى ذلك مضينا قدماً ، وبعد أن أكلنا مسيرة ثمانى ساعات ونصف حططنا عند طرف الوادى .

١١ مارس — سرنا ثلاث ساعات فوق تلال محجرة ودروب صخرية حتى بلغنا بئر الحفرة ، والبئر جذيرة باسمها حين يقارن ماؤها بجاء النيل العذب ، ولكن عرب الصحراء الشرقية قلما يبالون بحرارتها لكثرة ما ألفوا من مياه مرة لم يعتدها النوبيون والمصريون . وبئر المرة واسعة يتجاوز عمقها أربعين قدماً ، وقيل لى إن ماءها لا ينضب قط . وينبسط وادى المرة مسيرة ساعتين أو ثلاث صوب الشرق . وبعد أن تزودنا بقليل من الماء استأنفنا السير من فورنا حتى وصلنا وادى عمرقى

بعد خمس ساعات . ووادي علاقي واد طيب يمتد من الشرق إلى الغرب ، وينتهي
أحد طرفيه قرب البحر الأحمر فيما روى لي وطرفه الثاني قرب النيل . وفي موسم
الأمطار تتجمع السيول الغزيرة فيه وتصب مياهها في النيل ، والوادي عامر بالسكان
النضر والشجر الكثير ، وهذه المزايا النادرة تجعل له في نفوس البدو منزلة أي
منزلة . وقد حياه الخبراء حين دنوا منه تحية إكبار وإجلال ، وحمدوا الله على أن
بلغوه سالمين « السلام عليك يا وادي علاقي الحمد لله الذي جيناك بالسلامة » .
وفيما كنا نعبّر الوادي — وعرضه زهاء مائة وخمسين ياردة — أخذ كل منهم حفنة
من الذرة وبذرهما على الأرض قربانا للروح الطيب الذي يظل الوادي في اعتقادهم .
وبعد ست ساعات دخلنا وادي أم قات وبه خزان لماء المطر تستريح عنده القوافل
ولكننا وجدناه جافاً . ولم نمرّ للآن بواد حفل بأشجار السنط كما حفل بها هذا الوادي ،
ورأينا أرجال الجراد وقد تكاثرت على الأوراق والأغصان الغضة تلثمها التهاما .
أما الأرض فكسوة بالحنظل ، وهو نبات شائع في كل أرجاء هذه الصحراء . وأخذ
المسافرون يتلهون بقذف كرات الحنظل وصدها بدرقاتهم في مهارة عجيبة . أما
أنا فلم أكن لسوء الحظ أملك درقة فظل أصحابي الدراويون يصوبون كراتهم إلى رأسي
في إسراف اضطررتني آخر الأمر إلى أن أستجير برئيس القافلة ليحميني ، وقد أنقذ
هذا الإجراء أني من إصابة لا ريب فيها ، ولكن القوم لقبوني بـ « بالواد الخواف »
وعلق بي اللقب أياماً حتى خلعوا عليّ شرأمنه . وكانت وجهتنا اليوم جنوباً بغرب .
وتربة وادي أم قات رملية خالصة ، أما التلال فيزول عنها مظهرها الوعر الشائه
وتتخذ شكل السلاسل المنتظمة . ورأيت معظم الأشجار جافاً لأن الأمطار لم تهطل
عليه ثلاث سنين تقريباً ، وقد أدهشني ألا أرى في الرمل آثار أقدام حيوانات
متوحشة ولا في الجو طيوراً خلا بمض الغراب . وصادفنا كثيراً من البشاريين
ومعهم جمالهم المحملة بالسنمكي يقصدون بها الدر ليبيعوها أو يستبدلوا بها ذرة .
ولبثنا المشية كلها نضرب في الوادي ثم حططنا بعد مسيرة تسع ساعات .
١٢ مارس — قنا قبل الشروق ، فبلغنا نهاية وادي أم قات بعد ثلاث ساعات
وتلال هذا الوادي كلها من الجرانيت ، ودخلنا هنا سهلاً رملياً فسيحاً ، ثم سرنا

ساعتين من بعده مخترقين سلسلة من الجبال صخورها من الحجر الأخضر . وبعد ست ساعات وصلنا وادي الطواسي ، وهو منسوب لأحد هؤلاء الخصيان من سدة الكعبة الشريفة ، وقد قتل هنا وسرقت منه العطايا التي منحها إياه ملوك دارفور وسنار (*) . ولم أستطع أن أعلم على التحقيق في أية سنة لقي هذا الرجل حتفه ، ولكن أحد الخبراء ذكر لي أن أباه يذكر هذه السنة جيداً . لذلك لست أشك في أن هذا الخصى هو الذي ورد ذكره في رحلة بروس تحت اسم محمد طواش ، وهو الذي وجد هذا الرحالة جثته في هذه البقعة ذاتها بعد أن أسر بدويا من البشاريين القتلة بثلاثة أيام .. وقارئ القصة قد يلاحظ التلفيق في تفاصيلها ، ولكنها صحيحة في جوهرها . على أن قتلة الرجل لم يكونوا من البشاريين ، بل كانوا الخبراء الذين رافقوه ، وهم جماعة من المباددة ينتمون لعشيرة حميداب ، وهي إحدى عشائر عشاباب ، ومقرهم بحيرة القريية من أدفو على الضفة الشرقية للنيل . وقد لامهم أصحابهم أشد اللوم على ما اقترفت أيديهم ، ومنذ ذلك العهد سقطت عشيرة حميداب من عيون الناس وذهبت ريجها . وقبر الطواشي يقوم على سفح الجبل في البقعة التي سقط فيها صريعاً ، وله عندهم مقام أضرحة الأولياء والشهداء . والضريح مبني بالحجر بيد قبيلة أخرى من العرب . وقد وجدناه مغلي بقليل من الحصر ، وقصدته الجماعة كلها وصى كثير منهم ركبتين إلى جواره . وفيما هم يحلون عنه نثروا عليه قربانا من الذرة وغيرها ، وملأوا جرة ماء كان قد تركها عند القبر مسافر قبلنا ، وقامت إلى جوار الضريح عيدان علقت عليها خرق ملونة جرياً على عادة العرب ، ورأيت على الأرض رحالا للجنال كان قد وهبها بمض المسافرين إكراماً لولي . وأنفقنا ساعات الظهيرة في الوادي الفسيح إلى جوار الضريح الذي سمى الوادي باسم صاحبه ، ثم استأنفنا السير فوق أرض وعرة من الحجارة والرمال . وكان اتجاهنا طوال اليوم إلى الجنوب بانحراف قليل للشرق . وحططنا

(*) كان خصيان مكة والمدينة إلى عهد قريب يخرجون إلى السودان في رحلات لاستجداء المحسنين . من ذلك أن أحدهم خرج إليه في رحلة عام ١٨١١ فلقى من الإجلال والاحترام — بسبب صلته بالأراضي المقدسة — ما أتاح له جمع الأنباغ وتأليف طائفة قوية استطاع بفضلها الاستيلاء على إقليم يحكمه اليوم بوصفه ملكاً عليه .

وحالنا بوادى أبو بروس بعد مسيرة عشر ساعات . وتقوم هنا سلسلة جبال تمتد صوب الشمال الغربى . وفى رمال هذا الوادى الجرداء تنمو بعض أشجار السلم، وهى ضرب من السنط يطربه العرب لشدة صلابته فيصنعون منه القنا ، ومن أغصانه الرفيعة عصياً فى غلظ إبهام اليد، طول العصا منها ثلاث أقدام، وهم يثنون طرفها فى النار وخشبها ما يزال أخضر ، ثم يدعكونها صراراً بالشحم حتى تغدو قوية ثقيلة ، ويحمل الرجل منهم عصا من هذه العصى التى يسمونها سكمة (*) . ويؤثر البشاريون فى صنع هذه العصى شجراً آخر غير السلم يدعونه الدشنة ، وينمو على مقربة من البحر الأحمر . وفى وادى أبو بروس لقينا أول فوج من الغزلان مذبذباً درأوا ، ولا يتوقع المرء أن يكثر الحيوان البرى حيث لا يكون الماء إلا فى الآبار العميقة .

١٣ مارس — استأنفنا السير قبل شروق الشمس ، وبعد ثلاث ساعات بلغنا وادى أم برد ، وهو واد فسيح طيب بزخر بالشجر . وحلقت فوق رؤوسنا أسراب كبيرة من طيور بيض ، فى حجم الإوز كانت تتجه صوب الشمال . ويسمى العرب هذا الوادى «أم برد» لأن الهواء فيه يهب بارداً حتى فى الصيف ، وهو مفتوح صوب النيل ، ومنه تهب الريح عادة فى هذا الفصل . ووجدنا الوادى حين مررنا عليه فى الصباح الباكراً قارس البرد حتى اضطربنا عند وقوفنا به نهاية أن نستدفئ بنار أشعلناها فى بعض الأشجار الجافة التى تنتشر فى الوادى . قضينا فيه ساعتين ، ، وعبرنا سلسلة من التلال ، ثم وقفنا بواد آخر لنستريح ساعة الظهيرة . وكانت هذه الوقفات مثار النزاع والشجار طوال الرحلة ، ذلك أن فتيان القافلة كانوا إذا علموا أن شيوخها يزعمون الوقوف بواد ساروا إليه حينئذ ليسبقوا غيرهم إلى أكبر شجرة أو صخرة معلقة يتفياون ظلها هم وجماعتهم . وكانوا كل يوم يختلفون فيما بينهم أيهم سبق صاحبه إلى الشجرة ؟ أما أنا فطالما أقصوني عن الظل الوارف لأصلى نار الشمس المحرقة ، وكنت فى العادة أقضى ساعات الظهيرة فى كرب شديد وألم ممض : ففضلاً عن تمرضى للقيظ كان على أن أطهو طعامى ، (*) السامة معروفة فى كافة أرجاء النوبة والناكة وسواكن ، وقل أن نجد رجلاً لا يحمل سله إن لم يحمل ربحاً .

وهي مهمة لم أفالج في إقناع أحد الرفاق - حتى أفقر الخدم - في أن يتولاهما عني ولو لقاء إشراكه في طعامي البسيط ، فإذا أتى النساء رأيتني مضطراً لإعادة الكرة وأداء هذه المهمة الشاقة من جديد وأنا مضنى بعد رحلة اليوم ، وهي رحلة كنت أسير فيها على قدمي أربع ساعات أو خمساً لأخفف العبء عن حمالي ، وما كان أحوجني بعدها للراحة والاستجمام . ولكن الجوع كان أشد من التعب وأقوى ، لذلك لم يكن لي مندوحة عن البحث عن الخشب وقطعه ، وإيقاد النار ، وطلهو طعامي ، وإطعام حمالي ثم تجهيز قهوتي التي لم يكن لي من سبيل لاسترضاء رفاقي الدراويين إلا تقديم فنجان منها لهم وهم أشوق الناس إلى ارتشافه . على أن راحة الليل كانت كفيلة برد قواي ، ولم أعرف من قبل رحلة كهذه كنت فيها موفور المافية جم النشاط على ما تكبدت فيها من مشقات فاقت ما كنت أنتظر . وكان غذاء المسافرين جيماً الفطيرة ، وهي دقيق يمزج بالماء ويمجن ثم يخبز على الصاج ، ويصب عليه السمن أو الشهد أو المرق المطبوخ من السمن والبامية المجففة . أما العشاء فعدس مطبوخ أو خبز بلع يخبز على الصاج أو الرماد ، ثم مرق من البامية أو البصل يصب على العدس أو الخبز بعد تفتيته . وفي الصباح الباكر يفطر الكل على كمكة ببصلة نيئة أو ييمض التمر . وفي العصر هربنا أرضاً جبلية ثم سهلاً رملياً ينتهي بواد انتشرت فيه أشجار الدوم فأشاع منظرها البهجة في أفئدة المسافرين . وزلنا بالوادي بعد مسيرة تسع ساعات ، وحططنا قرب آبار ناه ، وفيما كنا نمبر السهل التقينا بقافلة صغيرة قوامها ثمانية من العبادة كانوا عائدين من بربر إلى دراو ، وكان معهم زهاء ثلاثين عبداً وعدد من الجمال المحملة ، وهم ينوون بيع بضاعتهم في صعيد مصر . وحمل إلينا هؤلاء العبادة أبناء لا تسر ، فقد ذكروا أنهم لم يجدوا ماء يذكر في بئرين على طريقنا ، فأما بئر سفرة - إحدى البئرين - فقد نجد فيها بعض الماء ، وأما بئر النجم البعيدة فالأمل في ماؤها ضعيف . وقد روعت هذه الأبناء بمض القوم ففكروا في العودة مع قافلة العبادة ، ولكن الباقين ثنواهم عن هذا العزم . واشترى الدراويون بغيراً قوياً من القافلة الأخرى ليحملوه ماء ، وأنفقنا الليل كله نتشاور فيما ينبغي أن نعمل . وبوادي ناه آبار خمس أو ست قريبة من بعضها البعض ، والماء

في ثلاث منها ضارب إلى الملوحة ، وماء بئرين منها لا بأس به ولكن شحيح ، وقد استنفدناه حين ملأنا القرب . وفي الصباح اشتجر القوم حول الماء الذي فاض من البئرين في أثناء الليل ، فكانت كل جماعة تريد لنفسها .

١٤ مارس — إن الظل الوارف الذي تبسطه أشجار الدوم على وادي نابه ، وما بالوادي من آبار فياضة الماء ، قد جعله أهم موقع على الطريق بعد حيمور وشقرة . وقد درجت القوافل الصغيرة على أن تنزل بهذا الوادي أياما وهي في طريقها إلى بربر لتسترد الإبل قوتها ، وهم يزعمون أن مياه الوادي تنعش الإبل وتشدها ، وهي من غير شك ذات خواص مسهلة . أما القوافل الكبيرة فيستحيل عليها المكث بالوادي أكثر من ليلة واحدة لقلة مائه المستساغ . وظل شيوخنا طوال الصباح يتشاورون ، فقد كان أمامنا مسيرة يومين إلى شقرة ، ومنها رحلة خمسة أيام لبربر على النيل . وكان تحميل الجمال بثلاثة من الماء تكفي الرحلة كلها أمراً مستحيلاً ، ولم يكن يرجى العثور على ماء جنوب شقرة ، وما نرجوه في شقرة نفسها ضئيل قليل . وهناك مورد آخر للماء يدعى نواريك ينبع في الجبال صوب الجنوب الشرقي على مسيرة أربعة أيام ونصف من نابه لو أمثلها من بربر ، وكان الأصوب أن نتخذ هذا الطريق لولا جهل القوم به ، اللهم إلا بشارياً كرهوا أن يركنوا إليه في إرشادهم . وذكروا لي أن هناك طريقاً ثالثاً يخرج من نابه متجهاً للجنوب الغربي بالمحرف للجنوب وينتهي إلى النيل بعد رحلة حثيثة تستغرق ثلاثة أيام ونصفاً ، ولكن هذا الجزء من النيل يسكنه عرب مقرات ، وهم خصوم لقومنا . وقد قتل زعيمهم نعيم مؤخراً بيد أحد شيوخ العباددة . وقد درج المسافرون في ظرف كهذا على أن يدلي كل منهم برأيه . وكان رأي أن تقتل حيرنا الخمسة والثلاثين التي كانت تستنفد من هائنا كل يوم خمس عشرة قرية على الأقل ، وأن نحمل الإبل أقصى ما تطيق من الماء ، ثم نشق لنا طريقاً مستقيمة إلى بربر دون أن نميل على شقرة ، وقد نستطيع بهذه الوسيلة أن نتم رحلتنا في خمس مراحل ضوال . ولكنك إن نستطيع أن نحمل العرب في مناسبات كهذه على اتخاذ قرار جرىء حاسم ، فهم لا يفتأون يمللون النفس بعبارتهم المألوفة « الله كريم » . وعلى ذلك فقد قرر القوم أن

يسلكوا الطريق العادى ، وأصلح كل منا قربه وخفّيه ، واغتسلنا بماء الآبار البارد فاثمّعشنا ، ثم اشتأنفنا الرحلة من جسد يد والهواجس ثعبت برأسى ، فلم تسكن دوابنا تحمل من الماء أكثر من مئونة ثلاثة أيام أو أربعة ، ولا سبيل بعدها للهروب من المواقب الوخيمة التى يجرها الظمأ . ورفعت عن حمارى القربتين الصغيرتين تخفيفاً عنه ، ونقدت أحد المبادء أربعة ريالات ليحمل لى أربع قرب صغيرة إلى بربر ، وقلت فى نفسى لو استطاع الحمار حملى لتحملت العطش يومين على الأقل ، أما إذا خارت قواه وسقط إعياء فسأعجز حتماً عن السير يوماً كاملاً دون أن أشرب فى هذا الجو القاطظ . وأنفقنا هذا المساء ساعة سلكنا فيها الوادى ، وساعتين هربنا فيهما أرضاً صخرية ووجهتنا الجنوب الشرقى ، ثم نزلنا لنبيت فى واد ضيق . وكان الإعياء قد بلغ منى مبلغه ، وكنت أشكو التهابا فى عيني منذ بضعة أيام ، وأرقى التفكير فى موقفنا الأليم . وقد سقط هذا المساء جل محل بقرب الماء فانكسرت ساقه وتمزقت القرب وانسكب ماؤها ، ونحر القوم الجمل بالطريقة الشرعية فوجهوا رأسه صوب القبلة وقطعوا حلقومه . وتخلف بعضهم ثم لحقوا بنا ليلا وهم يحملون شرائح من لحم الجمل المذبوح .

١٥ مارس — قمنا قبيل الفجر وأنفقنا ساعة ونصف سيراً فوق إقليم صخرى ، ثم بلغنا سهلاً رملياً فسيحاً يدعى قب الجبل ، وفى السهل كثير من الصخور الجرانيتية المنمذلة ، وهى شبيهة فى شكلها بالصخور التى وصفتها فى ٦ مارس . وبعد مسيرة أربع ساعات حططنا عند مدخل وادى طرفاوى ، وهو منسوب لأشجار الطرفاء التى تنمو به . ورأينا الأرض مكسوة بشجيرات السنامكى الجميلة التى بدت لنا فى خضرتها ونضارتها منظراً طريفاً لا عهد لنا به ، ورأينا ثمر السنامكى قد أنبع واكتمل نضجه فأنهالت عليه أسراب الجراد تلتهم . كذلك ينمو بالوادى كثير من الطرفاء الشوكية وبعض أشجار الدوم ، مما محله أطف وديان هذا الطريق وأشرحها للصدر .

ولقد وجدت بالخبرة أن الصحارى النوبية التى يخشى الناس ارتيادها هى على العموم أقل وحشة من بادية الشام ، ومن صحراء السويس والتيه على الأخص ،

وذلك حكى عليها حتى شجرة على الأقل . فقل أن مر بنا يوم لم نصادف فيه شجراً وماء قبل شجرة ، والشجر في هذا الطريق أوفر منه في طريق القوافل من حلب إلى بغداد أو من دمشق إلى المدينة المنورة . وقد لا يبعث انبساط بادية الشام في النفس من الرهبة ما تبعثه صخور الصحراء النوبية الجرداء الوعرة ، ولكن لصحراء النوبة ميزة التنوع على الأقل . ولما كنا قد بكرنا في الوصول إلى محطنا بوادي طرفاوى ، فقد أرسلنا الجبال إلى واد جانبي يقع على مسيرة ساعة ونصف لاستقاء بعض الماء من بركة بالمكان ، وماء البركة ضارب إلى الملوحة ، ولعله لم يتخلف عن المطر فحسب بل نبع من عين في قاعها . وعادت إلينا الإبل بعد الظهر بقليل . وذبح القوم اليوم بغير آخر أيقنوا أنه عاجز عن متابعة السير ، وسرعان ما تكاثرت حول جثته النسور التي يسمونها الرخم لتصيب حظاً من لحمه . واشتجر اليوم خبراؤنا العبادة مع الدراويين طمعاً في ابتزاز مزيد من المال منهم ، ولم يسؤنى هذا الشجار ، ورجوت من ورائه توطيداً للعلاقات بيني وبين العبادة ، وعلت نفسي بأننا قد نتحالف معاً على هذا الخضم المشترك . واستأنفت القافلة السير حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وفيما نحن نرحل عن المكان أقبل الأعراى الذى يحمل قرني الأربعة ، وسلمنى أكبرها وهو يزعم لى أن جملة عاجز عن حملها فوق ما حمل . فأعددت قربتين صغيرتين أفرغت فيهما ماء القرية الكبرى وربطتهما بالحبال ثم وضعتهما على ظهر الحمار . وما إن فرغت من هذا كله حتى كانت القافلة قد سبقتنى شوطاً بعيداً ، فافتفت آثارها في الرمال ، ولم أستطع اللحاق بها إلا بعد الغروب . فى مأزق كهذا تمس الحاجة لخادم أو رفيق ، لأن الجلالة قوم لا يعرفون العطف على رفيق يعانى ضيقاً أو شدة . وصرنا فى المساء ست ساعات فوق أرض محجرة ، ثم نزلنا ليلابوادمعشوشب يدعى وادى كوع ، وكان سيرنا جنوباً بشرق .

١٦ مارس - استرحنا بالوادي ساعات ثم عاودنا السير فوق سهل رملي ، وكانت الجبال الشاهقة تتراءى فى أقصى الشرق . وبعد ثلاث ساعات نزلنا بوادي صفيحة ، ولا تستطيع أن تسميه وادياً إلا تجوراً ، فها هو إلا شريط من أرض منخفضة تمتد فى عرض السهل حيث يتجمع ماء المطر ، فيقوم فيها بعض الشجر ولا

والعشب . ومثل هذا يدعى غديرًا في الصحارى العربية . ومضيفنا في السهل بعد الظهر ، وكانت تحيط بنا من كل صوب طوال يومنا بحيرات السراب ، وكان لون السراب أزرق خالصاً ، وبلغ من صفاء لونه أن انعكست عليه ظلال الجبال التي تحف بالأفق انعكاساً دقيقاً غاية الدقة ، حتى ليخيل للرائي أنه صفحة الماء ما في ذلك شك . ولقد طالما شهدت السراب في الشام ومصر ، ولكنه كان يضرب إلى البياض كأنه ضباب الصبح ، وكان دائم التذبذب والاهتزاز لا يستقر له على السهل قرار . أما السراب هنا فيختلف عن هذا كل الاختلاف ، وهو شبيه كل الشبه بالماء ، ولعل الخلاف راجع إلى شدة جفاف الهواء والترربة في الثوبة . كذلك لاحظت أن السراب هنا يبدو أقرب للناظر مما يبدو سراب الشام ومصر ، فهو لا يتجاوز المائتي خطوة بعداً ، ولم أره قبل ذلك على مسافة تقل عن نصف الميل . وعددت مرة نحو اثني عشر سراباً حرلنا ، كل منها قائم بذاته ، وجلها في المنخفضات . وبعد مسيرة ثمانى ساعات وقفنا بوادى أم روم . واسم الوادى يدل على وجود شجر الدوم به ، ولكنى لم أءثر فيه على دوم ولا على غيره . وقد لاحظت أن الوديان جنوبى أم قات تمتد في الغالب من الشرق إلى الغرب ، في حين تمتد الوديان الشمالية موازية لطريقنا . وكان اتجاهنا لا يزال جنوبياً شرقياً .

١٧ مارس — بارحنا الوادى في الصباح ودنونا من جبال شقرة الشاخمة ، وهى الجبال التي تراءت لنا من بعيد طوال الأمس . وبعد مسيرة ساعتين دخلناها ، ثم ملنا شرقاً فجئنا وادياً طيباً يزخر بأشجار الدوم وتحفه على الجانبين صخور قائمة لا سبيل إلى ارتقاها . ومشينا مع الوادى تسلك منعطفاته أربع ساعات حتى جئنا عين شقرة فخططنا عندها رحالنا . والجبال المحيطة بنا كلها من الجرانيت ، وتتألف من كتل مختلفة الحجم مكدس بعضها فوق بعض في فوضى عجيبة . وتأملت الصخر قرب مدخل الجبل ، حيث ينبع الماء ، وعلى مسافة تحت أعلى القمم ، فوجدته من السماق الضارب إلى الحمرة ، دقيق الحبيبات ذا هروق صغيرة من الفلسبار ، وهو شديد الشبه بالسماق الذى شهدته في العام الماضى بوادى لامولة بعد الشلال الثانى . والطريق إلى العين شاق لأنه في نهاية درب ضيق جداً في فلة

من الصخر وجدنا فيها فضلاً عن العين خزاناً للماء المطر . والماء هذب زلال ،
ولكنه للأسف ليس غزيراً . على أى حال لم نجد نحن إلا النزاليسير منه . وكان
يحوم حول العين بعض الحمام . وعين شقرة ذات صيت ذائع في هذه الصحراء كلها ،
وكثيرا ما يضرب البشاريون خيامهم في الوديان القريبة منها ، ولأحد أوليائهم
خرج بجانب العين ، ويقدم المسافرون المطايا والذبايح عند الضريح ، فإذا وجدوا
بدوا ضاربين بقربه ابتاعوا منهم الخراف وذبحوها إكراما للولى . وقد عثر أحد
جماعتنا خلف صخرة بقرب الضريح على صندوق فارغ جديد من صنع مصر ،
ولم تاجرأ أودعه هذا الخبأ بعد أن عجز بعيره عن حمله مؤملا أن يأخذه معه
في إيايه . وقد طالب الخبراء العبايدة بالصندوق زاعمين أنهم سادة الصحراء ، وأن
كل ما يعثر عليه فيها فهو لهم . ونزلنا على نصف ميل من العين ، وكان همنا أن
نملا قربنا أولا . وتلطف العبايدة فسمحوا للتجار المصريين بملء قريهم قبلهم ،
ولكن المصريين استغلوا هذا اللطف فسقوا إبلهم أيضا ، فلما بارحوا البئر كان قد
نضب الماء أو كاد ، فأعلن العبايدة أنهم مضطرون إلى البقاء حتى تمتلئ البئر ثانية ،
وعلى ذلك بننا الليل كله والعبايدة نيام على فم البئر ليحولوا دون سرفة الماء ليلا .

وفي صباح ١٨ مارس ملأ العبايدة عشرين قرية ولكنهم لم يقنعوا بها ، فآثر
التجار أن ينزلوا عن بعض قريهم بشرط الرحيل فوراً عن أن يطيلوا المكث
بالمكان ، يروا مئونتهم من الماء تتناقص ساعة بعد ساعة . أما أنا فقد استطعت
بعد لآى أن أملا قربتين كبيرتين ، وكنت ما أزال محتفظاً بصُباية من الماء في
قربي ، فقدرت أن نصيب من الماء سيكون على الأقل مساويا لنصيب أى فرد في
القافلة . بيد أن هذا الذى قدرت لم يتحقق ، فقد حملت إحدى القريتين على كتفى
إلى مضربنا وتركت الأخرى بقرب البئر على أن أعود بالحمار لآخذها . فلما عدت
ألفيتها فارغة ، فقد صلبها رفاقي الدراويون في إحدى قريهم ، واعتذروا بأنهم فعلوا
ذلك خطأ ولكنهم أبوا أن يملاوا قربتي من البئر ، والواقع أن ما تخلف الآن في
البئر من الماء كان كدرا عكراً لا يصلح للشرب بسبب ما يكسو القاع من طبقات
الطفل الأزرق . وقد عرضت عليهم ريالين ثمنا القرية ملأى بالماء ، ولكنهم لم

يحفلوا بى وضحكوا منى قائلين إن هذا الثمن الذى عرضته باهظ حقاً ، ولكن أحداً منهم لن يفرط فى مائه ، وأنهم لم يألفوا هذا التفريط من قبل . فلم يكن لى مندوحة عن مبارحة البئر والأسى يملأ قلبى ، لأن مثنوتى من الماء لن تكفينى أنا وحمارى إلا يومين على أكثر تقدير . ويجدر بى أن أذكر بهذه المناسبة أنه لا يجدى السافر فى الصحراء أن يحمل من الماء القدر الوفور ، لأن رفاقه سيأخذونه منه عنوة واقتداراً إذا نفذ ماؤهم ، فالقاعدة التى يجرون عليها هى أن الخبز والماء مشاعان للجميع ، أى أن القوى ينصبهما من الضعيف . وعرب الصحارى الشرقية يسمحون للفقراء من المسافرين أن يقاسموهم ماءهم مهما كان قليلاً ، ولكنك لا تجد هذا الكرم عند الإفريقيين ، وقصارى ما يستطيع السافر معهم أن يفعل هو أن يزود من الماء بما يكفيه الفترة التى يكنى كبار التجار فيها ماؤهم ، فإن أحداً منهم لن يُسمفه بالماء ، أما هو فاضطر للنزول عن كل ما يفضل عن حاجته منه ، بل أحياناً عن كل مثنوته ليسد حاجة رفاقه الأشداء . وتطلعت حول البئر على أجد معالم بناء قديم ظنا منى بأن هذا الموضع كان معروفاً مطروقا أيام ازدهار تجارة مروي كما هو شأنه اليوم ، ولكنى لم أجد أثراً لبناء ، ومع ذلك فإن الموقع كان يصلح لأن تشاد عليه قلعة . والطريق المؤدى للكهف الذى فيه البئر تسكد تسده الكتلة الضخمة من الحجر ، وعلى مقربة منه عين أخرى سقط فوقها وخرأ نتوء فى الجبل فطمرها .

ولما علم رئيس القافلة — وهو شيخ من العبادلة — بما أصابنى من ضر أرسل إلى ونحن بهم بالرحيل ، وبعد أن أنحى باللائمة على قسوة المصريين فى معاملتى أهدانى قدراً من الماء يملأ قربة من القرب الصغيرة . وقد شكرت له بالطبع صنيعه وأنيت عليه ثناء صادقاً ، وإن تبينت أن رغبته فى الزاوية بالمصريين كانت أشد من غيرته على مصلحتى . وبارحنا شقرة فى الضحى ، وقضينا أربع ساعات نطوى سلسلة جبال شقرة وقد بدت لى أعلى جبال النوبة القريبة ، على أن أعلى قممها لا يزيد ارتفاعها عن السهل على ثمانمائة قدم أو ألف . والجبال كلها من الجرانيت ، وهى فى كل أرجائها وعرة مهشمة كالجبال المحيطة بالمين . وبعد أربع

ساعات خرجنا من الجبل وسرنا فوق منحدر هين فبلغنا سهلا رمليا تكسوه الصخور المدببة . وكان اتجاهنا إلى الجنوب بانحراف قليل للغرب . وبعد خمس ساعات مررنا بوادى قبقة ، وبعد سبع بوادى زيناتيب ، ويندرعو الشجر في هذه الوديان ، وهي لا تعدو أن تكون منخفضات من الأرض تنتشر فيها بعض الشجيرات . ومضينا نضرب في السهل حتى أوغلنا في الليل ، ثم حططنا بعد إحدى عشرة ساعة تقريبا . والأرض التي جزناها بعد جبال شقرة سهل رملي كبير تخلله في بعض أرجائه بقاع فيها الحصباء والحصى من المرو ، وفي بعض أنحائه كثبان رملية متقاة . وكانت طريقنا منذ خرجنا من دراو حتى بلغنا سفرة طريقا عريضة مطروقة لا يمكن أن يضل عنها من خرج في هذه الرحلة من قبل . وقل أن تغير الطريق اتجاهها ، كذلك يستطيع المسافر أن يهتدى بمعالم الجبال الواضحة على الجانبين في المواضع القليلة التي لا تطمر فيها الرمال على آثار القوافل التي سلكتها من قبل . أما إلى الجنوب من سفرة فلم نجد دربا مطروقا ولا جبالا يهتدى بها ، لذلك لا تستغنى القافلة في سيرها هنا — لاسيما في أثناء النهار — من بصر البدوى الحديد وخبرته الطويلة .

١٩ مارس — سرنا صوب الجنوب الغربي فوق سهل فسيح تحفه التلال الواطئة في الأفق البعيد ، وبلغنا بعد ساعة وادى ديمولاب (وهو اسم بشارى) ، والوادى حافل بالشجيرات الجافة . وكان النهار شديد القيظ ، وخيل إلى أننى تبينت تنيرا ملحوظا في المناخ جنوب شقرة ، فالجنوب أدفا كثيرا من الشمال . وبعد ثمانى ساعات ونصف مررنا بوادى أبوضى ، وكل هذه الوديان تمتد من الشرق إلى الغرب . وبعد إحدى عشرة ساعة بلغنا آبار النعيم ، ومررنا في طريقنا إليها بعد العشاء بعدة قبور تدهى قبور أجواد الأرياب ، وذكر لنا أحد شيوخ القافلة إن هذه البقعة مدفن أبطال الأرياب ، يحمل رفاقهم جثثهم إليها رحلة أيام ليدفنوهم في ظل الآبار الظليل ، وليذكر فمالهم كل عابر بالطريق ويستمطر عليهم شآبيب الرحمة والرضوان . والأرياب قبيلة بشارية . وكنا قد أوفدنا رحلا سبقونا إلى الآبار

في الصباح الباكر ليطهروها عن الرمال ، لأن القوم لم يياسوا من إمكان الحصول على بعض المياه منها برغم الأنباء التي أتنفل بها القافلة التي أقيمتها في نابه . فلما جئناهم ألفيناهم جالسين إلى جوار البئر وأمارات الحزن والكتابة مرسومة على وجوههم ، فقد ظلوا يحفرون الساعات الطوال دون أن يوقفوا نشي . سوى الرمل المبلل . وربع القوم حتى البدو منهم لهذا النبا ، ولم يبق أمامنا من سبيل إلا محاولة الوصول إلى النيل في مراحل حثيثة مضنية ، وكان لدى كل منا صبة من ماء ولكنها لا تكفيه أكثر من يوم واحد . والنجم مجموعة من الآبار عددها ثلاث أو أربع ، يرشح ماؤها من الأرض ويتجمع في حفر رملية عمق الواحدة منها عشرون قدماً أو ثلاثون . وكثيراً ما تسقى الريح الرمال فتسد هذه الحفر ، فتضطر كل قافلة تقريباً إلى تطهيرها من الرمال . ولم نستطع أن نقرب من الآبار إلا واحدة ، أما الأخر فكانت غاصة بالرمل إلى حوافها . وتمييز مياه هذه الآبار إذا شح المطر كما شح هذا العام ، أما حين يسقط المطر غزيراً فإنها تخرج ماء عذبا يكفي تدفقه لتزويد قافلة متوسطة . وصخور التلال المنعزلة الواطئة التي تحديق بالنجم من الكلوريت والصوان .

٢٠ مارس — بات بعض القوم يحفرون البئر الليل كله ، واستطاعوا في النهاية أن يملأوا القرب بشق الأنفس . وبارحنا المسكان بعد منتصف الليل ، نخرجنا من التلال المحيطة بالآبار ، وتنكبنا الطريق المستقيم إلى بربر سالكين بدله سهلاً أجرد تكسوه الرمال المتحركة ، وكانت وجهتنا الجنوب الغربي .

وبعد أربع ساعات مررنا بوادي هلهب . وكل هذه الوديان الواقعة جنوب شقرة تصب مياهها في النيل سيولا متدفقة كما هطل المطر على جبال السلسلة الشرقية . وغدت الأرض الآن محسبة تكسوها القطع الصغيرة من الصوان الأسود والصوان الصخري ، وانبسطت الصخور داكنة اللون كبيرة الشبه ببعض أجزاء صحراء التيه . ولا ترى هنا أثراً لجبال أو تلال ، وقصاري ما نجد صخور صغيرة من الجرانيت أو المرو أو السيانيت تتبعثر في السهل هنا وهناك (م - ١١ رحلات بوركبازت)

فتغير قليلاً من رتافته المملة الوحشة . وحالفنا الحظ فهبت علينا ريح الشمال ، ولكننا برغم ذلك كنا نعاني شدة القيظ . ولم نشرب اليوم إلا مرتين ، ولم نسق الحمير إلا نصف نصيبها المقرر من الماء . ونزلنا وادياً بعد إحدى عشرة ساعة . وقد نشب اليوم شجار بيني وبين رجل من دراو أنهمنى بأنى فتحت قربه ليلاً لأسقى منها حمارى ، ثم سببى بأقذع الألفاظ وحصببى بالحجارة ، وبدأ لى أنه أفلح فى إقناع رجال القافلة ككاهم بأننى قارفت هذا الجرم حقاً .

٢١ مارس — قمنا بعد منتصف الليل وسرنا فوق أرض رملية حتى جئنا وادى عامور بعد ثلاث ساعات . وكانت الليلة فارسة البرد ، وزاد من تأثرنا ببردها ما عطينا من هجير الأمس . ووادى عامور حافل بأشجار السلم والسنط ، وكثير منها جاف يابس ، وقد أخذ القوم بمضها فأوقدوه التماساً للدفء . وانتشرت اللهب على الوادى وسطمت على وجوه المسافرين والدواب الوجلة فكان النظر رائماً أخذاً . وبعد أن خرجنا من الوادى جزنا سهلاً محصباً وأرضاً مستوية ، وبعد مسيرة سبع ساعات مررنا بواد زآخر بأشجار السنط ، وكان القيظ شديداً والريح جنوبية ، وسقط ستة من الحمير إعياء فاضطروا كبوها للسير فوق السهل المحرق . وأمسكت عن شرب الماء طوال اليوم ، ولكننى كنت أعطى حمارى الجرعة بعد الجرعة إبقاء على قوته ، وبعد مسيرة تسع ساعات صوب الجنوب الغربى بانحراف للجنوب وصلنا وادى أبو سلم الحافل بأشجار السلم ، فنزلنا عن دوابنا لأن الإعياء كان قد أخذ منها كل مأخذ ، وكان بعض الركب متخلفين ، ولومضينا قدماً لصلوا سبيلهم . وكنت منذ غادرنا شقرة لم أذق طعاماً مطبوخاً ، وإنما كان جل اعتمادى على السكك إبقاء على ما عندى من ماء . ولكننى جهزت الآن طبخة تناولتها ثم أطفأت ظمأى بجرعة كبيرة من الماء ، وبقيت لى بعد ذلك بقية منه تسكفبنى جرعة أخرى فى الند . وخيمت السكابة علينا جميعاً لأننا أيقنا أن الحمير ستنفق كلها غداً إن لم نحل حظها من الماء ، ولم يزد ما عند التجار على جرعات يحتفظ الواحد منهم بها لنفسه . وأخذ التجار يتشاورون فى الأمر طويلاً ثم استقروا أخيراً على رأى الوحيد الذى يرجى

من ورائه خلاصنا والذي كان الرئيس المبادئ قدأوصاهم به قبل ذلك بأيام. فاخترأوا من أشد الجمال عشرة أو اثني عشر ركبا من الرجال عدد مماثل ، ومضوا بها حثيثاً ليجلبوا لنا ماء من أقرب ضفاف النيل ، ولم تكن تفصلنا عنه سوى خمس ساعات أو ست ، ولكن القافلة لم تكن لتجرؤ على اتخاذ هذا الطريق لأن ضفاف النيل هنا يقطنها عرب من أعداء التجار ، وكان قيام الإبل في الساعة الرابعة عصراً ، وقد رنا لها أن تبلغ النهر ليلا ، وصدر الأمر إلى راكبها أن يتخيرأ من النيل بقعة غير أهلة بالناس، فيملأوا القرب ويقفلوا راجعين من فورهم. وأنفقنا نحن المشية نهياً للقلق والمهاجس ، فلو أن الإبل لم تمد لصناع أماننا في النجاة من الموت ظمأ أو قتلا بسيف العدو الذي سيقطن خطى الإبل في الصحراء إن رآها ويظفر بنا لا محالة. ولحق بنا بعد الغروب بمض من تخلفوا إلا اثنين ، ثم وصل أحد هذين في صباح الغد ، أما ثانيهما فقد انقطعت أخباره ، وكان خادما لأحد تجار دراو ، ولم يأبه سيده لما أصابه . وجاء في أثناء المشية كثير من الرفاق يسألونني جرعة من الماء ، ولكنني أحسنت إخفاء كثرى ، فكنت أريهم قربى الفارغة جواباً . وبتنا أكثر الليل نترقب نتيجة البعثة اليائسة التي أوفدناها ، وقد رانت على صدورنا الكتابة والصمت . وأخيراً طرق أسماعنا في الساعة الثالثة صباحاً هتاف رجالنا الذين استقوا لنا الماء ، وسرمان ما أطفأ كل منا غلته بجمرات موفورة من ماء النيل العذب ، وتميرت حال القافلة فجأة ، وحل التهليل والفرح محل الكرب والترج . وأعد القوم عشاء وفيراً وبات العرب يغنون أغانيهم حتى الفجر دون أن يلقوا بالا إلى مصير ذلك البائس الذي تخلف من القافلة . وموت المسافرين ظمأ بهذا الطريق أمر نادر الحدوث ، ويبعد أن تقع مثل هذه الكارثة إذا كان بآبار النجم ماء . على أن حادثنا من هذا القبيل وقع في العام الماضي ، وقد روى لى تفاصيله رجل ذاق عذاب العطش ورأى الموت رأى العين . ذلك أنه في شهر أغسطس أعدت قافلة صغيرة عدتها للسفر من بربر إلى دراو ، وكان قوامها خمسة تجار وزهاء الثلاثين عبداً ومعهم عدد مناسب من الإبل . وقرر التجار أن يسلكوا طريقاً شرقية تمر ببر أواريك خشية أن يسطو عليهم قاطع الطريق نعيم ، وكان في

تلك الفترة يكن للمسافرين حول آبار النجيم ، وكانت الأنباء تصله بانتظام عند قيام كل قافلة من بربر . واستأجروا دليلاً من العباددة قادم سالمين إلى البئر ، ولكنه ضل الطريق حين اتجهت القافلة شمالاً لأنهم كانوا يسلكون درباً غير مطروق . ونفذت مئونتهم من الماء بعد أن ساروا خمسة أيام في الجبل على غير هدى ، فصاح عزمهم على أن ييمموا غرباً أملاً في بلوغ النيل . وبعد أن انقضى عليهم يومان بغير ماء هلك منهم تاجر وخمسة عشر عبداً . وخيل إلى أحدهم — وكان من العباددة ، ومعه من الإبل ثمانية — أن الإبل قد تطفن إلى موارد الماء خيراً من راكبيها ، فطلب إلى رفاقه أن يشدوا وثاقه إلى رجل أقوى جماله لئلا يسقط عن ظهره إعياءاً ، وهكذا فارقهم ووكّل أمره إلى جماله تسير به أنى شاءت . ولكن أخباره هو وجماله انقطعت . وبعد أن غادرت القافلة أواريك بثمانية أيام ، رأى من ظل من رجاها على قيد الحياة جبال شقرة من بعيد فمرفوها لتوهم ، ولكنهم كانوا خائري القوى لا يملك الرجال ولا الدواب أن يسيروا خطوة واحدة . فتوسد الرجال الثرى تحت صخرة من الصخور وبمشوا خادمين يركبان جملين كانا أشد ما بقى من جمال ليبعثا عن الماء . ولكن قبل أن يبلغ الرجلان الجبل سقط أحدهما عن ظهر مطيته فاقد النطاق لا يستطيع إلا أن يوى لصاحبه أن يمضى ويدعه يلقي مصيره . ومضى الثانى في طريقه ، ولكن الظمأ كان قد أعشى بصره فضل طريقه على تمام خبرته به . وكثرة سفره فيه . وظل يضرب في الأرض على غير هدى ، ثم نزل عن بعيره تحت ظل شجرة شدة إلى غصن فيها . ولكن البعير شم الماء كما يقول العرب ، فقطع مقوده على مابه من خور وضعف ، ثم انطلق كالمجنون صوب المين ، ولم تكن تبعد إلا مسيرة نصف ساعة كما اتضح فيما بعد . وفهم الرجل السر في مسلك البعير فحاول أن يقتنى آثاره ، ولكنه لم يحظ بضع خطوات حتى تهاوى إعياءاً وقد أشرف على الهلاك ، ولكن العناية الإلهية قيضت له بدويًا من البشاريين الخيمين قرب المين عبر الطريق . فلما وجده رش على وجهه الماء فأفاق من غشيته . وهرول كلاهما صوب المين فلما القرب وعادا إلى القافلة فوجدا أهلها الممذيين لا يزالون على قيد الحياة لحسن الحظ ،

هو كوفى البشارى بميد من المبيد جزاء ما قدم . وكان الراوى — وهو من أهل
ينبع بجزيرة العرب — هو الرجل الذى كشف جملة العين ، وقد ذكر لى فيما ذكر
أمراً عجيباً ، وهو أن أصفر المبيد سنّاً كانوا أقوامهم على احتمال الظلم ، وأن الثلمان
الكبار ماتوا جميعاً فى حين وصل الصنار إلى مصر سالمين .

وفى عام ١٨١٣ وصلت إلى أسبوط قافلة كبيرة قادمة من دارفور ، وكانت
رحلة التجار فى أواخر الصيف ، فهلك الكثير من إبلهم فى الطريق وأكبرتهم
الضرورة على ترك جزء كبير من بضاعتهم ، وعدد وافر من سنار المبيد الماجزين
عن السير ، هند بئر الشب ، وتركوا معهم ما استطاعوا اقتطاعه من زادهم . ثم
استأجروا مئات الجمال وقفلوا راجعين إلى الشب ، ولكن المبيد قصار النظر أسرفوا
خلال ذلك فى استهلاك زادهم حتى فرغ ، فمات الكثير منهم جوعاً .

مثل هذه الحوادث قد يقع أحياناً ، وهو ينجم إما عن عسدم وجود الأدلاء
الخبيرين ، أو عن اضطراب المسافرين إلى اتخاذ طرق دائرة ، أو عن قلة الجمال المحملة
بالمال ، ولكن منشأها فى الغالب هو قلة التيقظ والحيلة . وأرانى مضطراً إلى القول إن
الرحالة بروس قد غالى كثيراً فى وصف ما وقع له من حوادث فى هذه الصحراء .
وواجبى يدعونى إلى تقرير هذه الملاحظة ، ولكننى فى الوقت نفسه أقرر هنا أننى وأنا
الخبير بخلق النوبيين لا يسمنى إلا التنويه بإعجابى الصادق بما كان عليه بروس
من دراية عجيبة بأخلاق الناس وما أوتى من ثبات وحزم وسرعة خاطر ، وكلها
صفات يسرت له السياحة أوربياً سافراً بين شعوب متوحشة لا ترحب بالأغرب .
نعم إن لسفرك كأحد الوطنيين متاعه ومشاقه ، ولكن المتاعب التى عايناها بروس
أعقد كثيراً من هذه وأخطر ، وهى متاعب لا يدلها إلا عقل راجح وقلب جرىء
صبور وحيلة واسعة .

٢٢ مارس — تناولنا فطوراً شهيماً ، ثم مضينا فى الضحى فوق سهل فسيح
محصب تقطعه الوديان المتجهة صوب النهر ، والتى نبت فيها الشجر القليل ، وكانت وجهتنا
الجنوب الغربى . وبعد خمس ساعات نزلنا بواد يدمى نقيض . وكانت أوراق السنط

التي تظللنا بها في الظهيرة من الضالة بحيث لا تنشر ظلا يذكر ، وما أصدق العرب حين يشبهون الثقة العمياء التي يضعها المغفلون في وعود كبار القوم بتلك المحاولات التي يبذلها المسافر لاتقاء الشمس المحرقة بالاستغلال بشجرة سنط ، فهم يقولون « كلامه مثل ظل السنط » . وينتشر النعام في كثير من أرجاء هذا السهل ، وقد رأينا هذا الصباح خطأ من بيض أثناءه ، كذلك رأيت عظاما كبيرة الحجم يبلغ طولها على الأقل قدماً من الرأس إلى الذيل . وظلت الريح تهب جنوبية . وسألت أصحابي غير مرة هل لهم عهد بريح السموم (وهذه الريح برغم اسمها هذا لا تمدو أن تكون ريحا جنوبية شرقية هوجاء) ، فأجابوا نعم ، ولكن أحداً منهم لا يذكر أن هذه الريح كانت فتاة قتالة ، وأسوأ آثارها أنها تحجب الماء في القرب فيمرض المسافر لخطر العطش . على أن القرب في هذه الأقطار الجنوبية تصنع من جلد البقر الغليظ الذي لا تكاد تقوى السموم على تخله . أما في شبه جزيرة العرب وفي مصر فيستعملون جلود الغنم والماعز في صنع القرب ، وقد تبينت ما تفعله بها السموم وأنا في رحلة برية من الطور إلى السويس في يونيو ١٨١٥ ، حين رأيت ثلث الماء في قرية ملأى قد تبخر في الضحى . ولقد تعرضت مراراً للحسور ببادية الشام وصحراء العرب وبصعيد مصر والنوبة ، ولقيت أعنفها وأشدّها أواراً في سواكن ، ولكني برغم تعرضي لعصفها في السهل المكشوف لم أضر بها كثيراً . وفي اعتقادي أن المسافرين وأهل مصر وسوريا يغالون فيما يروون عن فعل السموم ، ولم أسمع قط — من مصدر موثوق به — بحادث واحد فتكت فيه هذه الريح بإنسان أو دابة . أما حقيقة الأمر فهي أن البدو يروعون الحضر بقصصهم عن فتك هذه الريح بالناس بل عن قضاؤها على قوافل برمتها ، ولكنك تستطيع أن تستخلص منهم الحق إذا ضيقت عليهم السؤال وتوسموا فيك بمض الخبرة بالصحراء . ولم أر السموم تهب قريبة من الأرض قط كما يظن أغلب الناس ، وكنت إذا هبت أحس بالجو كله متقدداً ، وتسنى الريح الغبار والرمل عالياً في الهواء الضارب لونه إلى الحمرة أو الزرقة أو الصفرة حسب طبيعة الأرض التي يثور منها الغبار ، على أن الصفرة هي الغالبة عليه . وتستطيع أن تكون فكرة صحيحة عن منظر

الهواء كما رأيته. في عاصفة سموم يأسنا (مايو ١٨١٣) إذا نظرت للجو من وراء
نظارة صفراء فاتحة . وليس حتماً أن تكون السموم ، مسحوبة بالهبوب ، والمبتدل
منها قد يظل الساعات يهب هيناً وإن رافقه حر مرهق يزهرق الأنفاس ، فإذا أثار
الهبوب الغبار ارتفعت الحرارة درجات . وقد سجل الترمومتر درجة ١٢١° في الظل
أثناء هبوب ريح السموم يأسنا ، ولكن قل أن يظل الهواء على هذه الحال
أكثر من ربع ساعة ، أو أن تستمر حرارته عالية بعد انتهاء الهبوب . وشر
ما يتلى به المرء إذا تعرض للسموم هو احتباس المرق وجفاف الحلق وشعور الإعياء
والضيق ، ولم أر أحداً ينبطح على وجهه اتقاء لفحاتها المؤذية كما زعم بروس أنه
فعل وهو يعبر هذه الصحراء . على أن العرب كثيراً ما يغطون وجوههم بماءاتهم
في أثناء الهبوب ، وهم يركمون إلى جوار إبلهم خشية أن يدخل الرمل أو الغبار
عيونهم فيؤذيهم . وتضيق الإبل بهذه الريح أشد الضيق لا لما تجلبه من حر بل
لما تسفيه من رمال في عيونها الكبيرة الجاحظة ، وهي تدير وجوهاها تحاول إتقاء
الريح بخفض رموسها ، ولكنني لم أرها تفعل هذا إلا في الهبوب ، وهي فيما خلا
ذلك لا تبالى بحرارة الجو مهما اشتدت . وقد وقع لي وأنا مسافر من إسنا إلى أسيوط
عام ١٨١٣ أن هبت على سموم عاتية في السهل الواقع بين فرسوط وبرديس ،
وكنيت أمتطى هجيناً خفيفاً وأنا وحيد لا رفيق لي . وهبت الهبوب فجيت عن
ناظري كل شيء ، فلم أعد أرى بيوتاً ولا أشجاراً ، وفيما أنا أحاول إخفاء وجهي
بمندبلي جن جنون الهجين لكثرة ما دخل في عيني من تراب وما وفر في أذنيه من
عصف الهبوب وضجيجها ، فأطلق قوائمه للريح ، وأفلت زماءه من يدي فسقطت
سقطة مؤلمة ، ورأيتني عاجزاً عن تبين الطريق ولو إلى خطوات ، فلزمت مكاني
وأنا مدثر بماءاتي حتى هدأت الريح ، فقامت أتأثر خطوات البعير . وما لبثت أن
وجدته على بعد كبير واقفاً في هدوء إلى جوار شجيرة واطئة وجد في أغصانها
بعض الوقاية لعينية من الريح .

وقد ذكر بروس ما بهذه الصحراء من قيزان الرمل المتقلبة ، وأنا لم أرها
بنفسي في رحلتي ولكنني لا أعني التشكيك في صحة ما زعم فيها . وقد أخبرني

العرب أن الأعاصير الرملية كثيرة الهبوب ، وأنا نفسي مررت ببقاع فيها رمال متحركة تحركها أهون الرياح . وأذكر أنني رأيت قيرانا من الرمال تتحرك في الصحراء (على ضفاف الفرات) كأنها ميازيب الماء . وفي بافاريا ما نجم من أضرار بالغة سببها ريح فجائية . لذلك يسهل على أن أصدق أن هذه القيران قد تنثور في صحراء النوبة ، وإن كنت في ريب من أنها تعرض حياة المسافرين للخطر .

وكانت تغطي أرجاء السهل الذي عبرناه هذا الصباح صخور الجرانيت والكتل الضخمة من النيس . وصرنا جنوباً بغرب ملتزمين النيل تقريباً ، ولم يكن يبعد عن يميننا سوى أربع ساعات . ورأينا بعض التلال الرملية الواطئة على ضفاف النيل الغربية، وبعد مسيرة ثمان ساعات بلغنا واديًا قليل الشجر هو وادي الحمير فنزلنا به ، ويروى أن حمر الوحش ترى أحياناً بالصحراء القريبة من هذا الوادي، والتي يطلق عليها اسم حمار الوحش .

٢٣ مارس - مضينا جنوباً بغرب في هذه الأرض المنبسطة التي لا يرى فيها للجيال أثر . والسهل مكسو بالحجارة السوداء والحصى المصري والمرو . ولم أصادف في هذه الرحلة ضروباً من حجر الدم أو اليشب مذ خرجت من دراو . ومررنا بعدة وديان ولقينا بعض الأرانب البرية، وبعد أربع ساعات نزلنا بوادٍ زاخر بالشجر يدعى وادي بلم (أو سلم ؟) . وهنا أجبر الخبراء العبادة تجار القافلة على دفع نصف أجرتهم (*) ثم سبقنا بعض القوم إلى بربر يحملون أنباء وصولنا ، واستأنفنا السير عصرًا ، وكان السهل رملياً يتحدر انحداراً هيناً نحو النيل ، ولقينا ونحن ندنو من النهر أسراباً كبيرة من القطا ، وأشعرنا الهواء الرطب البليل بقربنا من النيل قبل أن نصله بساعتين ، وهلل العرب وكبروا حين شموا رائحة ماء النيل من جديد . وأخيراً وصلنا حوالي الساعة العاشرة مساءً إلى قرية النخيرة ، وهي أهم قرية في إقليم بربر بعد مسيرة تسع ساعات . وقد جرت القوافل على أن نجى هذا الموضع دائماً في

(*) يتقاضى العبادة من كل رجل خمسة ريالات ، ومثلها عن كل جمل . وفي العودة يتقاضون ريالين عن كل عبد وخسة ريالات عن كل حمل مجلوب من السودان .

الليل ستراً لبضاعتها عن الميون ، ومخافةً لموظفى الجرك عسى أن يستطيع التجار تهريب بضائع طفيفة دون أن يؤدوا عنها ما يجب من رسوم .

والطريق الذى سلكناه هو الوحيد بين بربر ومصر ، وهو الطريق الذى

تسلكه عادة قوافل سُرى وسار . وتمت طريق أخرى مغربة عن هذه من بربر إلى السبوع ، وهى قرية على النيل فى إقليم البرابرة لا تبعد عن الدرك كثيراً ، ويشتهل أهلها بتجارة الرقيق . فى هذه الطريق الثانية لا يجد المسافر من الآبار إلا بئراً واحدة فى منتصفها ، وتقع على مسيرة أربعة أيام من بربر ومثلها من السبوع ، واسمها المرة وماؤها متدفق غزير ولكنه خبيث الطعم . وما يضيق

به المسافرون فى هذه الطريق خلوها من الأشجار كبيرها وصغيرها ، لذلك لا تجد الإبل لها فيها طعاماً ، ويضطر المسافرون إلى أن يحملوا معهم خشباً يطهون عليه طعامهم ويستدفئون به فى الشتاء . واقتضت الرحلة من دراو إلى بربر اثنين وعشرين يوماً ، ولكن يلاحظ أن المراحل إلى حيمور ، بل إلى ناب ، كانت قصيرة جداً . والجبال القائمة إلى الشرق من أسوان وحيمور — التى تمتد مسيرة ثلاثة أيام

عن البحر الأحمر — أتم ما فى هذه البقاع فيما يروون ، واسمها جبال عتباى ، وقد يقصد بها كل السلسلة حتى بلوغك القصير ، وهم يعنون بها دائماً الجبال البعيدة عن النيل ، القرية من البحر الأحمر . وجبل عتباى ملك للعبادة وحدهم لا ينازعهم فيه منازع ، وأكثروا يمشون فى الصيف حين يعود إليه المقيمون منهم بصعيد

مصر فيسرحون فيه ماشيتهم . وبين عبادة جبل عتباى والبشاريين فى علبة اتصال كبير . ويقدر المسافة من حيمور إلى دراو بخمسة أيام ، ولكننا قطعناها

فى تسعة . ويقدر التجار عادة المسافة بين بربر ودراو بستة أو سبعة عشر يوماً ، ورحلة الإياب من بربر أسرع لأن الإبل تكون فيها كثيرة العدد ، ولأنهم يخرجون فيها وكلهم راكب ، ولأنهم يخففون عن الإبل بعض أحمالها كل يوم . وهم يقبلون ثلاث ساعات أو أربع ، ثم يسافرون أكثر الليل ، فيتمون الرحلة فى اثني عشر يوماً . وكثيراً ما قطع الرسل الرحلة من دراو إلى بربر فى ثمانية أيام على ظهور المحجن . وقد تستغرق الرحلة شهراً من الزمان إذا هطل المطر مدراراً وجرى الماء

على الطريق فلا البرك والمنخفضات وأنبت الكلال النضر في الوديان . أما نحن
فقد رنا للرحلة ثمانية عشر يوماً لا تزيد ، وهي هذا الأساس تزودنا ، لذلك لقينا
الأمير من شح الزاد والماء في أخريات الرحلة ، وعانت الدواب أشد مما عانينا ،
ولم أجد لحماري حليقاً سوى العدى طوال يومين كاملين . وعليق الجمل عند التجار
اثنا عشر رطلاً من الذرة في اليومين أو الثلاثة ، يزيدون عليها حليقاً إضافياً للجمل
الثقل الذى يحمل ستة قناطير أو سبعة . وكانت الدواب كلها قد أضناها السير ،
وظهوراً أكثر الجمال مشخنة بالجراح^(١) انقل أحمالها وجشع أصحابها وإهمالهم ،
فقد أرهقوا إبلهم حرصاً على دراهم معدودات يبتاعون بها رحلاً جيدة الحشو .
على أن في طاقة كثير من الإبل أن تؤدى هذه الرحلة ثلاث مرات في الحول
ذهاباً وإياباً .

ولما وصلنا النخيرة سعى كل تاجر في القافلة إلى بيت صديق لخلو القرية
من خان يأوى إليه المسافرون ، فلأمندوحة للتجار إذن عن أن يحلوا ضيوفاً على أهل
القرية . ومضى آل علوان الذين صحبتهم من دراو إلى بيت رجل من أقارب شيخ
القرية ، واسم الرجل إدريس حمص . وكنت لا أزال أنشد النغمة من وراء
صلى بالقوم ، وكنت أكره أن أختصمهم جهرة ، لذلك انضممت إلى جماعتهم .
واستضافنا إدريس هذه الليلة ، وفي الصباح توافد علينا الزائرون أفواجاً .

والقرية تابعة لإقليم بربر ، ويضم هذا الإقليم فضلاً عنها ثلاث قرى كبيرة
أخرى إلى الجنوب منها ، فهناك قوز^(٢) السوق وقوز الفونج ، ثم الحصا شمالاً ،
وتبعد زهاء ثلاثة أرباع الساعة عن النخيرة . وفي صعيد مصر والنوبة يقسمون
البلاد ودياناً يشتمل الواحد منها على عدد من القرى ، وكثيراً ما يطلق على كبرى
هذه القرى اسم الإقليم ، فإذا قالوا بربر عنوا النخيرة في الأغلب ، ولعل لفظ بربر

(١) هذه الجراح شديدة الخطر، والجرح منها أو الضربة كما يسمونه — يكون في كتف
الجمل أو ضلوعه الامامية وتسببها الرجال الرديئة . أما إصابات الجمل في غير هذه المواضع فتبترأ بعد
أيام من الراحة والاستجمام .

(٢) في بلاد الرنج يطلقون لفظ قوز على كل قرية مبنية في السهل الرمل .

هو الأصل في هذا الاسم الذى يطلق في مصر على النوبيين، أعنى «البرابرة»، وهو لفظ لا يستعملونه هم في بلادهم، فهم يسمون أنفسهم النوبيين والكنوز كإسلفت في يومئذى. ويبدو أن المصريين رأوا التجار القادمين من بربر ومن إقليم إبريم متشابهين لوناً فأطلقوا على الشعبين اسماً واحداً، ومثل هذا دعاهم إلى الخلط بين أهل بربر وأهل سنار، فهم يسمون البربرى سنارياً.

وأهل بربر عرب من قبيلة الميرفاب. وهم يردون أصلهم إلى الشرق (يمنون جزيرة العرب) كما ترد أصولها سائر القبائل العربية النازلة بوادى النيل، من صعيد مصر إلى سنار. على أن لفظ الميرفاب لا يبدو عربى الأصل، وهو بلغة البشاريين أشبه. وليس بين القبائل النازلة ضفاف النيل قبيلة كبيرة، ولا يبعد الإقليم عن أخيه أكثر من رحلة يوم طولا. وأكبر هذه الأقاليم إقليم حرب الشايقية. ولا تمتد مساكن قبيلة الميرفاب أكثر من ست ساعات أو ثمانية على ضفاف النيل، ولكن من رجالها نفرأ كبيراً يسكنون الأقاليم المجاورة أغراباً. وهم يزعمون أن في وسع القبيلة أن تسليح جيشاً عدته ألف من العرب الأحرار وخمسمائة من الرقيق، ولكنهم قلما يخرجون في محاربة جيرانهم بأكثر من أربعمائة محارب وخمسمائة. ويتزعم القبيلة أحد رجالها، ولقبه مك (اختصار للفظ ملك)، وهو لقب يحمله صفار رؤساء القبائل في هذه الأرجاء حتى دارفور وسنار. ومنصب الملك وقفة على الأسرة الحاكمة، ولكنه ليس منصباً وراثياً ينتقل من الأب إلى أكبر أبنائه. ذلك أن ملك سنار قد بسط نفوذه على ضفاف النيل شمالاً حتى الحدود الجنوبية لوادى الحبش منذ ارتقت العرش أسرة الفونج، وهو يولى هذا الإقليم من أعضائه أسرة تمساح من شاء، أو قل إنه يبيع العرش لمن يدفع فيه أغلى الأثمان بعد وفاة الملك السابق. وليس الملك سنار سلطان على بربر أكثر من حق اختيار مملوكه، ولكنه في كل أربع سنين أو خمس يوفد إليها أحد رجاله ليجمع منها جزية من الذهب والحياد والإبل قوامها عشرون جواداً وثلاثون بعيراً على التقريب. وكان ملوك دنقلة — إلى ما قبل اجتياح المماليك لإقليمهم — يؤدون جزية كهذه لسنار، كذلك كان يؤديها عرب الشايقية، ولكنهم أمسكوا عنها بعد أن اشتد ساعدهم

أخيراً . ومثل هذه الجزية يفرضها ملك سنار على القبائل الصغيرة بين الشايقية وبربر ، وهو يولى ملوكهم كما يولى ملك بربر . وينزل بربر أغراب كثيرون فضلاً عن عرب اليرقاب ، ففيها دناقلة وعبادة من صعيد مصر ، ومن هؤلاء من استوطن بربر ، ومنهم من تزوج من بربر وله بمصر أسرة أخرى .

وليس للملك القبيلة على أبنائها العرب - لاسيما أبناء الأسر القوية - ، إلا أضمت النفوذ وأوها ، وهو لا يفرض ضريبة على حقولهم أو محاصيلهم ، ولكنه لا يرحم الغرباء لأن جل إرادته مما يجبيه منهم من ضرائب وما يبتزّه من عطايا . والجزية التي يؤديها لسنار يجمعها من القبيلة كلها ، وهو جد حريص على ألا يخرج من هذه الصفقة خاسراً . أما المال الذي يؤديه ملك سنار نظير الاعتراف به خلفاً للملك المتوفى فيجمع في الأكثر بقرض إجباري يأخذه من أى قافلة يتفق مرورها إذ ذاك . والوصول إلى الحكم أمر ميسور لأى فرد من أفراد الأسرة الحاكمة أوتى من النفوذ والنفر والمال ما يكفل اختياره في سنار .

وتقع قرى بربر الأربع على حافة الأرض الزراعية على مسيرة ساعة من النهر الذي يشق الصحراء الرملية . وتتألف كل قرية منها من اثنتى عشرة تلة منفصلة على أبعاد متقاربة ، ويفصل البيوت عن بعضها البمض حيشان واسعة ، لذلك لا تجد في القرية شوارع منظمة ، وبنائها لا بأس به ، وتبنى باللبن أو الآجر ، وليست في منظرها دون بيوت الصعيد . وفي كل بيت حوش كبير له قسم خارجي وآخر داخلي . وحول الحوش تقوم غرف الأسرة وكلها في الطابق الأرضي ، ولم أر في هذه البلاد طابقاً أعلى أو سلماً . وهم يسقفون البيوت بالمروق يمدونها فوق الجدران ثم ينفطونها بالحصير ومن فوقه يرصون البوص ثم يسطون على هذا كله طبقة من الطين . وللسقف منحدر ينزلق عليه ماء المطر فيجري في أكثر البيوت في قناة تنتهي به إلى الحوش فيستحيل هذا الحوش وقت المطر بركة قدرة . وتسكن الأسرة غرفتين ، وتخزن الثونة في ثالثة ، وتستقبل الضيوف والأغراب في رابعة ، وكثيراً ما تؤجر خامسة للغواني . وقل أن تشتمل الغرفة من النوافذ على أكثر من طاقة صغيرة ، فإذا أرادوا مزيداً من الضوء فتحوا بابها . وأبوابهم من خشب

وللباب الضبة والمفتاح الحشيان المروفان في الشام ومصر ، ولكنهما هنا أخشن صنعة . ولست أذكر أنني رأيت في الغرف أئاماً ، اللهم إلا أربكة أو سريراً هيكله من الخشب وله قوائم أربع ، فإذا كان مقعده من الجريد فهو سرير ، وإذا كان من سيور رقيقة متعارضة من جلد الثور فهو عنقريب (والكلمة بشارية) . وأفضل صروب العنقريب ما جلب من سنار ، وكثير منه بصدّر للصميد وبلاد العرب ، واحتماله شائع في كل أرجاء السودان . وإذا أراد القوم الاحتفاء بفريق آتوه بعنقريب حال وصوله يضطجع عليه ليلاً ويتكئ به نهاراً . ولجلده رائحة خاصة تبعد عنه الحشرات فيما يقولون . ويفرشون بالحصير الجزء الداخلي من الغرف التي تنام فيها النساء ، وكذلك الحجر الأخرى التي يقبل فيها الرجال ، والقبيلة ترف لاغنى عنه في هذه البلاد . فإذا ناموا فرشوا تحتمهم بساطاً من قطع الجلد يخاط بعضها بيمض ، وآثروا النوم على غير وسادة شأن العرب ، فيكون الرأس في مستوى سائر الجسم . وتحفظ الذرة في غرفة المثونة ، إما أكواماً على أرضها وإما في صوامع من الطين وقاية لها من الفيران . على أن الدار تحفل بالفيران برغم ذلك ، وهي تمرح في الحيشان في وفرة تتيح للصبيبة أن يمرنوا على قذفها بالرماح فيقتلون عشرات منها كل يوم . وتحتوى غرفة المثونة على أشياء أخرى فضلاً عن الذرة ، ففيها بعض القرب المملوءة زبداء ، وفيها القدور من المعدن ، وفيها قرب الماء للمسافرين ، وفيها إلى ذلك اللحم المجفف إذا كان رب الدار مبسوط الرزق . ويغلب أن يخصص الحوش الداخلي للماشية من جمال وبقر وغنم ، وفي جانب منه تحفظ سيقان الذرة الجافة يقدمونها علفاً للماشية حين يشتد الصيف فيجفف النبات أو المشب الذي أنبته الفيضان . وبالحوش الخارجي في أكثر البيوت بئر ماءؤها ملح لا يصلح إلا للماشية . وفي هذا الحوش ينأى الذكور والأغراب في الصيف إما على مصاطب من الطين ملاصقة للغرف ، أو على عنقريبات أو على الأرض ، وفيه يعلف آثر الجياد عند رب البيت ، وفيه تصرف الأعمال كلها في المراء (*)

(*) في الصفحتين ٢١٤ و ٢١٥ من الأصل أورد بوركهارت عن البقاء في بربر تفصيلات لا تظن أن غريباً بكل معاني القرية كرحالتنا هذا يستطيع أن يكون لديه الخبر اليقين عنها ، وهذه التفصيلات تناقض في نفس الوقت ما أثبتته هو عن أخلاق القوم . ولهذا ، وحرصاً على ألا نصيب قوماً بجهالة ، آثرنا عدم إثبات تلك التفصيلات في هذه الترجمة . (غريبال)

ونساء بربر — حتى المتمدنيات منهن للطبقات العليا — عيشين سافرات ، وكثيراً ما ترى صغار البنات عرايا إلا من نطاق من شراريب جلدية قصيرة يلبسهن حول الخصر . ومن القوم من يكتحل — سواء منهم في ذلك الرجال أو النساء ، ولكن هذه العادة ليست منتشرة بينهم انتشارها بين المصريين ، ونساء الخاصة والتأقات من القواني يطرحن فوق قصصهن عباءات بيضا بحواش حمراء من صنع المحلة الكبرى . ويتدهن الرجال والنساء بالسمن الطازج كل يوم ، وهم يزعمون أنه منشط ومنعمش ، وأنه واق من الأمراض الجلدية ومنعم للبشرة ، وبضيف الرجال إلى هذه الفوائد فائدة أخرى وهم يذكرون معارفهم الكثيرة ، وتلك أنه يقوى الجلد ويشدده ويحمله أعصى على طعنات المدى . ولكنني أقرر عن خبرة إنني كنت أحس راحة كبرى في الحجير إذا دهنت بالسمن صدرى وذراعى وساقى أو قدسى بمد السير المفضى . ولا يعرف القوم هنا « حمو النيل » الشائع في مصر ، وكثيراً ما أهجبت بنمومة جلدهم وطراوته حتى مع طول تعرضهم للشمس ، وتلك هي الميزة التي يُبدلُ بها العرب على الزوج ، فإن لهم برغم سوادهم بشرة ناعمة كبشرة البيض ، أما بشرة الزوج ففيها خشونة وغلظ . وبد الزنجى بإبسة كالوح الخشب ، أما يد العربي من غير طبقة الفملة فرخصة غضة كأيدى أهل الشمال . والدهن المطر الذي لا يستعملونه إلا في المناسبات الخاصة مزيج من دهن النعم والصابون والمسك ومسحوق خشب الصندل والسنبل والحلب ، وللمزيج رائحة عبقة ، يزعم الرجال أنه منبه قوى ، ولكن الحقيقة التي يستشفها المرء هي أنهم يتدهنون به عادة قبل أن يغشوا خيلياتهم .

وأهل بربر سلالة جميلة ، ولون الخالص منهم أسمر داكن ، فإذا كانت الأم جارية حبشية كان لون أطفالها أسمر فاتحاً ، وإذا كانت زنجية كان لونهم أسود فاتحاً . ورجالهم أطول قامة من المصريين ، وهم أشد منهم أبداناً وأكبر أطرافاً ، وليست لهم قسبات الزوج إطلاقاً ، فالوجه بيضى والأنف في كثير منهم إغريقى خالص وعظم الوجنة لا بروز فيه ولا تنوء . بيد أن في الشفة العليا غلظاً خفيفاً ينحرف بها عن معايير الجمال عند الأوربيين ، ولكنها مع هذا بعيدة الشبه بشفاه

«الزواج . وفي سيقانهم وأقدامهم جمال قل أن تجده بين الزوج ، ولهم لحى قصيرة ولكنهم مرد الحدود ، وشواربهم رقيقة قصيرة ، وشعورهم كثرة قوية ولكنها ليست صوفية . فإذا كان الشعر قصيراً بدا مجمداً متلاصقاً ، وإذا أرسلوه تألفت منه خصل مريضة عالية . وهم يقولون «نحن عرب لازوج» ، والواقع أنه لا يسلكهم في عداد الزوج إلا من اكتفى في حكمه عليهم بالظفر إلى لون بشرتهم فحسب .

ويحرص عرب الميرقاب حرص غيرهم من القبائل العربية في هذه الأجزاء من إفريقية على حفظ سلالتهم نقية خالصة ، ولن تجد رجلاً من أحرارهم يتزوج بجارية من الحبش كانت أو من الزوج ، فهو لا يرضى بنفي عربية من قبيلته أو من قبيلة مجاورة ، أما أبناءه من جواربه فلا يعتبرون أهلاً للزواج إلا بالجوارى أو بنات الجوارى . ويشاركهم هذه المادة كل البدو الشرقيين ، أما أهل المدن في شبه جزيرة العرب وفي مصر فلا يجدون غضاظة في الزواج من الجوارى الحبشيات أو الزنجيات .

ويؤدى الزوج لحية صداقاً عن ابنته جرياً على عادة المسلمين ، وهو هنا أعلى مما يؤدى في سائر الأقطار التي يسكنها العرب ، وقد يصل صداق ابنة الملك إلى ثلاثمائة ريال أو أربع مائة يحفظها الأب مهراً للعروس . وقل منهم من يتخذ أكثر من امرأة ، أما القسادرون فلمهم جوار ممن ماسكت أيمانهم يقمن في بيوتهم أو في منازل مستقلة . ويسمون الخلية هنا رفيقة ، ونسبة الخليلات عندهم أعلى منها في أكثر العواصم الأوربية احتشاماً . ونادر من بين التجار من يمر ببربر دون أن يتخذ لنفسه خلية وإن لم يملك بالمدينة سوى أسبوعين . والذين يكثر من اتخاذ الإماء هم أيضاً ممن يدمنون الخمر وكأنه لا هم لهم في الحياة إلا هذين . وغيرهم البوطة ، ويصنعونه بتفتيت الخبز المحمر من الذرة ومزجه بالماء وترك المزيج ساعات على نار هينة ، ثم يرفعونه عنها ويصبون عليه الماء ويتركونه أسبوعين ليختمر . ويختلف أسماء هذا الشراب بتفاوت نسبة تخمره ، فهو إما مريسة ، أو بوطة ، أو

أم بلبيل ، وسمى أم بلبيل لأنه يطلق لسان شاربه بالفناء . والمريسة والبوظة لا يخلوان من فئات الخبز لأنهما يخمزان معه ، أما أم بلبيل فيصنقى بقماش يخرج من خلاله الشراب نقياً سائلاً . واقد ذقت ثلاثتها ، ووجدت لأم بلبيل حرافة لطيفة تجعله أشبه بالشميانيا الحامضة . ويقدم الشراب في برمة كرية واسعة مفتوحة عند قمتها عليها نقوش كثيرة متنوعة . وتسع البرمة لترين ، وشراب الرجل منهم برمة على الأقل في مجالسهم . فإذا وضعت البرمة على الأرض جيء إلى جوارها بوعاء آخر صغير مقسوم من نصفه في حجم فنجان الشاي ، ثم صب فيه الشراب وأدير على القوم واحداً واحداً ، وبين الدور والدور فترة من ست دقائق إلى ثمان . وفي بداية مجالس الشرب يدار عليهم عادة طرف من اللحم المشوى المتبل بالفلفل الكثير ، ولكنهم يزعمون أن في البوظة الكفاية من الغذاء . والواقع أن النوع المادى منها أشبه بالحساء أو الثريد منه بالراح التي تشرب جرعة واحدة . والقوم كلهم مولع بهذا الشراب ، وللنساء به كلف لا يقل عن كلف الرجال ، ولا يشذ عنهم في هذه العادة سوى رجال الدين أو الفقراء ، فهم لا يقربونه جهرة على الأقل . وتؤمن البرمة من البوظة كيلة من الذرة ، يستعمل ثلاثة أرباعها لصنع الشراب وبؤخذ الربع أجراً عن صنعه .

وأهل بربر ، فيما خلا هذا الولع بالشراب ، زاهدون في الطعام ، وقد يمسون عنه اليوم كله ليتسنى لهم الشرب والقصف ليلاً . وأهم غذاء عندهم خبز الذرة ، ولما كانوا لا يملكون طاحونا ولا رحي ، فهم يطحنون الذرة بنثرها فوق حجر أملس طوله قدمان وعرضه قدم ، يضعه الطاحن بميل أمامه ، وتحت طرفه السفلى ثغرة في الأرض فيها قدر مكسورة أو وعاء خشبي أو نحوه يتلقى دقيق الذرة ، أما أداة الطاحن فحجر صغير في القاع يمسه بكتا يديه ويروح به ويحجى على الحجر المائل وهو راكع . ولصنع أجود الخبز تغسل الذرة غسلاً جيداً وتجفف في الشمس ، ولكنهم في الأكثر يطحنونها دون أن يحشموا أنفسهم مشقة غسلها ، وفي أثناء الطحن تبلل الذرة باستمرار برش الماء عليها من حوض قريب ، فيكون الدقيق المتساقط في الوعاء أقرب إلى العجين المائل ، خشناً تشوبه الأقدار والتبن .

ويملأون من هذا المجين قدرًا تكفيهم مئونة يومهم ، وهم يتركونها من أربع وعشرين ساعة إلى ست وثلاثين بختمر المجين في أثنائها ويحرف طعمه دون أن يضيفوا إليه خميرة ، ثم يقرصونه بعد ذلك رغفانا صغيرة على لوح من الحديد موضوع على نار ، فإذا لم يتيسر فعلى حجر رقيق ناعم ، فإذا حمى الحديد أو الحجر تم خبز الرغيف منها في دقائق ثلاث أو أربع . ولما كانت الرغفان صغيرة ، ولما كان لا يوضع في المرة أكثر من رغيف ، كان خبز قدر كاف منها يتطلب وقتًا كبيراً . ومن طائفتهم أن يقدموا على المائدة عشرات منها ساخنة في وعاء خشبي كبير ، ثم يصب عليها اللبن أو الحساء أو مرق البصل (ويسمونه ملاح) . وهم لا يضعون في الخبز ملحاً وإنما يضيفون الملح إلى المرق . هذا اللون من الطعام هو ما يتناولونه في غذائهم ومشائهم ، وهو لون شديد الخشونة ولكنه ليس كره الطعم ، وحرافته الطفيفة تجعله سائغاً في ساطات المجير . وهضمه سهل ، وكنت على الدوام أجده يلائمني . على أن مذاقه يخبث إذا بات ، لذلك لا يخبزونه إلا قبيل الغداء أو العشاء ، وزادهم في السفر من رغفان كهذه ولكنها أرق [الكسرة] ، وعجينها يترك يومين أو ثلاثاً ليشتد خمره ، فإذا خبزت على النار تركت لتجف في الشمس ثم كسرت كسراً ووضعت في حقيقه من الجلد ويسمونهم الأبرية . وهذه الطريقة تحفظ الخبز شهوراً فيتناوله التجار حين لا يجدون طعاماً مطهواً . وقد يصبون على حفن منه السمن السائح فيكسبه ذلك طعماً شهيأً . وقد تنمس الكسرة في الماء فيشربونه حين يحرف طعمه ويسمونه «شربة الجلابة» .

وكثيراً ما يقدمون على موائدهم اللحم مسلوقاً أو مشوياً ، واللبن عندهم غذاء رئيسي ، أما البالح فترف عظيم ، ويجلبه تجار دنقلة من المحس ، ولا يؤكل إلا في المناسبات غير العادية ، وهو يسلق مادة مع الخبز واللحم واللبن . ولا يشرب القهوة إلا التجار وعلية القوم ، وحتى هؤلاء لا يتناولونها كل يوم . واللبن الذي يصنعونها منه ليس عربياً ولا يمنياً ، إنما هو بن ينمو برية في جبال الحبشة الجنوبية الغربية ، ويجلبه تجار سنار من هناك . وهذا النوع يباع في مصر أرخص من (م ١٢ — رحلات بوركهارت)

البن اليمني بثلاثين في المائة ، على أنك لا تسكاد تفرق بينهما ظهماً أو شكلاً^(١) .

وفي وسع أهل بربر أن يتأدبوا حين يرون التأدب البق وأجسدى . فإذا استقبلوا غريباً وأرادوا الاحتفاء به تسكفوا من الطيبة والبساطة الفطرية ما يندفع أكثر المسافرين حنكة ودراية . على أن هؤلاء المنافقين الذين حذقوا فهم قل أن ينطلى نفاقهم على من سبق له النزول ببربر . وتسمع حديثهم فإذا هو يفيض بمبارات التحية والمجاملة ، وهم يسألونك عن صحتك وحالك بشق الأساليب ، فإذا كنت عائداً من غياب طويل قبلوك وصاحوك في شوق وحرارة . ويسلم الرجل منهم على النساء باحترام وإجلال ، فيمس الرجل جبين المرأة بيمناه ثم يقبل أنامله التي مسها . وهم يسألونك عادة : شديد ؟ ، وأغرب من هذا عبارة لم أسمها من قبل ، فهم يقولون لك : لعلك طيب^(٢) ؟ ولعلمهم يريدون هل أنت من القوة بحيث تمشي على نعلك ما شئت أن تمشي ؟ وإذا لني أحدهم صاحبه أول مرة بعد موت قريب له جثا إلى جواره على إحدى ركبتيه ، وطق يردد متفجعاً « في سبيل الله ، في سبيل الله » ، وهو يعنى أن الفقيه مضى في سبيل الله القويم وأن له أجره ومثوبته . ثم أقام الشخص بيده — رجلاً كان أو امرأة — وبادله بعد ذلك التحية المألوفة .

وأدهشني ألا أرى القوم في هذا البلد الإسلامي العريخ يحيون بعضهم بعضاً بالتحية الشائعة بين المسلمين ، أعنى عبارة « السلام عليكم » . فهم لا يحيون عادة إلا بلفظ طيب ؟ يرددونه مرات . وقد يحيي رجال الدين بقولهم « سلام سلام » دون أن يضيفوا إليها كلمة ، ولكن القوم لا يردون تحيتهم بما يرد به المسلمون ، فلا يقولون « وعليكم السلام » ، بل « طيب ، أنت طيب ؟ » . ويحيون أعضاء الأسرة المالكة بعبارة « يا أرباب » ويلقيونهم بالروس ، فيقولون الراس إدريس ، والرأس محمد إلخ . وهو لقب شائع الاستعمال في هذه البلاد كلها ، ويبدو أنه انتشر منها إلى الحبشة^(٣)

(١) آثرنا حذف ما ورد في الصفحات من ٢٢١ إلى أول من ٢٢٥ لانيها من كليل

السباب جزافاً . (غريال)

(٢) نعل صيغة هذه العبارة « لعلك طيب » . (المترجم)

(٣) أصل اللقب من الحبشة . (المترجم)

ويطلقون على الحكومة لفظاً نفياً هو السلطنة ، ولا يراد به الحاكم بل الحكومة على وجه العموم .

ولم يطل مكثي بربر زمناً يتيح له أن يشهد عادات القوم في الأفراح والمآتم والختان وما إليها، ولست أشك في أنها تخالف العادات الإسلامية الأصلية كما نص عليها الشرع . ومن عاداتهم عند موت الميت أن يذبحوا شاة ، فإذا كانت أسرته في سعة فبقرة أو جملاً . وقد ذبح إدريس في أثناء نزولنا بداره بقرة ترحماً على روح قريب له مات قبل شهر ، وصادف موته مجاعة عزت فيها الأبقار . وأتى الرجل بأكثر فقهاء النخيرة ليقروا ما تيسر من آي الذكر الحكيم في غرفة منفصلة . واجتمع في غرفة أخرى جم غفير من النساء يندبن على الطار ويصحن صيحات منكراً أكثر الليل . وقدم الحساء ولحم البقر المشوى لفقراء كثيرين في فناء الدار ، أما أطيّب اللحم فقد جرى به إلى أصحاب إدريس .

حدثت القراء غير مرة عن الفقراء أو رجال الدين ، وقد يسمونهم الفقهاء ^(١) . وقل من الأسر المحترمة من ليس له ولد أو قريب ينقطع في شبابه لدراسة الفقه والشرعية . فيرسل الطالب وهو في الثانية عشرة أو الرابعة عشرة إلى مدرسة من المدارس المجاورة ، وأشهرها اليوم في الدامر على الطريق إلى سمرى ، وفي مقرات ^(٢) وعند الشايقية ، ويتعلم الطلاب في هذه المدارس القراءة والكتابة ويحفظون عن ظهر قلب ما وسمهم حفظه من القرآن وكتب الصلوات ^(٣) ، ويتلقون أسرار كتابه الأحراز والتمائم ، ثم يمودون إلى وطنهم في العشرين فيعيشون فيه متظاهرين بالتقوى والورع والتمسك الشديد بأهداب الفضيلة ، ولكن هذا في الغالب لا يمدو الزهد في التدخين ، وفي تماطى البوطة جهرة ، وفي غشيان بيوت الليل .

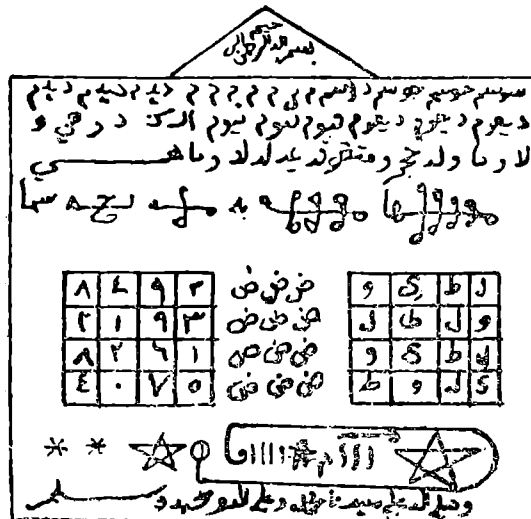
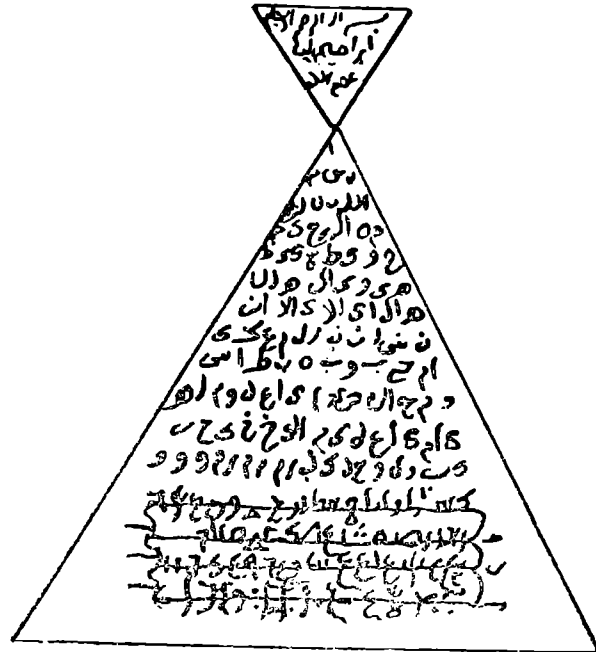
وقد يكتبون التمام على قطع من الورق ، فإذا ابتلع الحب الذي يشكو صدّه حبيبه ورقة منها رق له قلب الحبيب . ومن الفقراء من تخصص لكتابة أحجية

(١) في تكاكي بمقرات قبيلة من الفقهاء الأشراف يزعمون أنهم ينتسبون لبني العباس .

(٢) في قرية على النيل بمقرات تدعى وادى حصاد — وهي على نصف يوم من بربر — يعيش فقيه مشهور له عدد غفير من التلاميذ .

(٣) عرفت في بربر والدامر فقهاء كثيرين يحفظون القرآن عن ظهر قلب .

الحب ، أو التائب المضادة للحمى . وقد حصلت على حجابين أحدهما من بربر والثاني من الدامر . وزعم لى الفقير منصور - وهو الذى باعنى الحجاب الأول بسبعة من الخشب - أنه إذا كتب اسم العاشق على الحجاب الأول لن تقوى امرأة على مقاومة فعله ، ولكن الفرصة لم تواتنى بعد للتحقيق من مفعول هذا الحجاب . أما الحجاب الثانى فىق صاحبه من الإصابة بأى جرح .



وأهل بربر فيما يبدو قوم صحاح الأبدان يندر بينهم مملول أو مهزول . وهواء
البلدة صحي من غير شك لوقوعها على أطراف الصحراء . وذكروا لى نبأ حمى
يسمونها الوردة ، يلوح أنها مرض وبائى لأنها تفتك بالمرضى فى أغلب الأحيان .
ويستهدف الدناقلة لهذه الحمى ، وتتفشى فى الفيضان ، ولكنها لا تظهر كل
عام . أما الطاعون فلا يعرفونه ، ويحملنى ما جمعت من أخبار فى رحلتى السابقة
للنوبة على الاعتقاد بأن هذا الوباء لا يتجاوز شلال أسوان . أما الجدري فيفتك
بالقوم فتكا ذريماً حينما حلّ ، وقد جاءهم خلال مجاعة العام الماضى فكان ضغثاً على
إبالة ، وازداد عدد الضحايا زيادة كبيرة . وقد جلبه إلى بربر قوم من التاكة نقله
إليهم تجار سواكن . ثم انتشر فى أهالى النيل طولاً وعرضاً ، وكان يصاب به
الكبار والصغار على السواء ، بل إنه فى الصغار كان أخف وطأة وأسلم عاقبة .
وشفى من المصابين به ثلثهم ، ولكنهم ظلوا يحملون سماته على جلدهم ، فكنت
ترى أذرعهم ووجوههم تكسوها البقع والندوب التى لا حصر لها . وقل أن يعير
الوباء غارة خفيفة يترفق فيها بوجوه ضحاياها فلا يشوهها . والتطعيم أو «دق الجدري»
معروف فى هذه الأرجاء ، ولكنهم لا يقبلون عليه لأنهم ضعيفو الثقة فى جدواه ،
فاذا دقوا فى الساق غالباً . وقد فتك الجدري فى شهور قليلة بأثنين وخمسين شخصاً
من أسرة تمساح التى ضيفتنا . وأنبأنى بعض التجار بالقاهرة وأنا أكتب هذا
(فى ديسمبر ١٨١٥) أن وباء آخر قد ظهر هناك فأهلك الأسرة كلها تقريباً
ومنهم إدريس نفسه . وعلاج الجدري عندهم أن يدهن الجسم كله بالسمن مرتين
فى اليوم أو ثلاثاً ، وأن يلزم المريض غرفته لا يبرحها . ويظهر الوباء بينهم مرة
كل ثمانية أعوام أو عشرة ، وهم يفزعون منه أشد من فزع المصارقة من الطاهون ،
فيهرب الكثيرون من عدواه إلى الجبال . وقيل لى فى مصر إن الجدري أشد خطراً
فى بلاد الزنج منه فى سواها لما فى جلودهم من غلظ ، فقد تشتد الحمى لأن الجلد
الصفيق يقاوم جهود السم فى اختراقه . وقد يكون هذا صحيحاً فى حالة المبيد الزنوج ،
ولكنه ليس صحيحاً فى بربر حيث جلد القوم فى رقة جلد البيض ونعومته . ولم
أر من حالات الإصابة بالرمد إلا قليلاً ، ويقال إن الأمراض السرية منتشرة بين

أهل بربر فإذا صبح هذا فإن آثارها هنا ليست وبيلة كآثارها في مصر ، لأننى لم أرى منهم ما رأيت في شمال وادى النيل من وجوه مقروحة وأنوف شائبة .

وعرب الميرقاب رعاة زراع ، إذا انحسر الفيضان زرعوا الأرض ذرة وقليلاً من الشعير . وقبل أن يزرعوها يعرقونها بالغثوس ، أما المحراث فلا يستعملونه ، وقد استعمل مصري محراثنا للمرة الأولى في العام الماضى . وسواقهم تمتد على الأصابع ، فليس في قريتي النخيرة والحصا أكثر من أربع أو خمس منها . ويزرعون الأرض مرة في السنة ، ولا يغمر ماء الفيضان الكثير من الأرض الزراعية لأن ضفاف النيل تصل إلى ارتفاع كبير يجاوز ارتفاعها في مصر على العموم ، ولا يموض القوم في الغالب هنا العجز بالرى الصناعى كما يفعل أهل مصر حتى يأخذوا من الأرض عدة محاصيل ، ومن هذا يسهل على القارىء أن يدرك السر في كثرة تعرضهم للقيحط ، فقد بلغ سمرمد الذرة في العام السابق لرحلاتي نصف ريال إسباني . على أنه يلوح أن البلاد كانت إلى عهد غير بعيد أزهى حضارة منها اليوم ، فقد تبينت في الحقول آثار ترع عميقة تركت مهملة مع أنه قد يستعان بها حتى في زرع السهل الصحراوى المجاور للأرض الزراعية . وأهم المحاصيل الذرة ، وهى قوام غذاء الناس والبهائم ، أما القمح فلا يزرع في بربر ، وقليل منه يزرع فيما جاورها من بلاد . والذرة هنا من فصيلة الذرة الصعيدية ، ولكن سيقانها أطول وأقوى ، وقد تماو ست عشرة قدما أو عشرين . أما الخضر فلا يزرعون منها سوى البصل واللوبيا والبامية(*) والملوخية ، وكلها معروف في مصر . وهم لا يزرعون من الفاكهة شيئاً ، والنبق البرى هو الفاكهة الوحيدة التى يعرفونها فيما رووه لى .

ويربى أهل بربر الماشية الكثيرة من خير الفصائل ، وينتجعون بها الكلاب الذى ينمو في جبال البشاريين شتاء وربيعاً عقب هطول المطر ، وهناك يعيش رعاة في أكواخ وخيام كالبدو سواء بسواء . وفي أخريات الربيع تأكل الماشية الأعشاب البرية التى تنمو بين أعقاب الذرة غزيرة كأنها الحشيش في الروج .

(*) واسمها الويكة في هذه البلاد كلها .

فإذا جاء الصيف وجف العشب وعز الكلاً في الجبل علفت في البيوت بسيقان الذرة الجافة وأوراقها . وأبقار الرعاة وإبلهم هي عماد ثروتهم ، ويملكون فضلاً عنها الغنم والماعز ، ولكن أكثره استهلك في أثناء المجاعة . وأبقارهم متوسطة الحجم ضعيفة الجسم ، ولها قرون صغيرة وسنام من الشحم قرب الكتف . ولا تعرف هذه الفصيلة في مصر ، وهي تبدأ في دنقلة ولا ترى غيرها على ضفاف النيل حتى تبلغ سفار . وهذا السنام بعينه تلاحظه في الأبقار الرسومة في صور المارك الحربية على الماعز القديمة بصعيد مصر ، وقد رأيت هذه الفصيلة نفسها في الحجاز . وهم يربون البقر للبنه ، وأهم من لبنه عندهم لحمه ، وقليل منه يستخدم لإدارة السواقي .

أما إبلهم فن أنجب الفصائل ، بل إنها تفضل إبل الصعيد المشهورة سلاية واحتمالا . وهجنهم تفوق ما رأيت في صحارى الشام وبلاد العرب . ولإبلهم وبر قصير جداً ، وجسمها خلو من الخصل . ولا تختلف الهجن عن إبل الحمل فصيلة ، ولكن القوم هنا أحرص الناس على نقاء السلالة ، وإن العرب منهم ليتجشم السفر أياما كثيرة في سبيل الوصول إلى بكر أصيل معروف بفشى ناقته . وقد تكاثر اليوم الطلب على الإبل للسوق المصرية ، ويتنازعها الباشا ليرساها إلى شبه جزيرة العرب لتنقل ذخيرة الجيش ، ويسوقون منها كل شهر عبر الصحراء ثلاثمائة أو أربعمائة . ومع ذلك فثمن الحمل هنا لا يزيد على ثمانية ريالات إلى اثني عشر ، وإن كان يباع في دراو بثلاثين أو أربعين ، وفي القاهرة بخمسين أو ستين .

وأغنام هذه الأقطار الجنوبية لا صوف لها ، ولا يكسوها إلا شعر رقيق قصير كشم الماعز ، لذلك لا يرى القوم لها نفعا يذكر ولا يربونها إلا للحومها . أما الحمير فتقتنى كل أسرة تقريباً منها اثنين ، وهي من فصيلة قوية ، وأهم ما تستخدم فيه حمل المحصول من الفيط ونقل السبخة من الجبل . وينشر الأهالي هذا الثرى المحتوى على النترات على الأرض قبل أن يزرعوها ، ولم أعرف غرضهم من ذلك ، أهو تسميد الأرض أم التخفيف من خصبها الشديد . والطلب كثير على الحمير المصرية لأنها أسرع من النوية عدواً ، ويركبها وجوه القوم ، ويقبلون

على شرائها إقبالا شديداً كلما وصلت بلادهم فافلة ، أما الخيل هنا فوفورة العدد ،
والكل أسرة محترمة جواد على الأقل ، ومنها ما يملك جوادين أو ثلاثة . ولا يمتطى
عرب النوبة غير الفحول ، ويستعين عرب الميرقاب في حروبهم مع جيرانهم
بالفرسان الكثيرين ، والفرسان هم الذين يقررون مصير المعركة في الغالب ،
وخيلهم من الفصيلة الدنقلوية، وهي من أعرق الخيل كما ذكرت في رحلتي لدنقلة.
وعليهما الذرة ، وتقدم لها أوراقها المجففة بديلاً من التبغ أو الدريس ، وهم يطلقونها
أسابيع لترعى الشمر الأخضر في الربيع . وتؤمن الحصان منها خمسة عشر ريالاً
إلى أربعين ، ولا يسمونه حصاناً كالصربين بل « حافراً » . وهناك بعض
الشبه بين سرج الفارس الأوربي وسرج الفارس البربري (وهو بعينه السرج الذي
تراه في دنقلة وسنار والحبشة) فكلاهما له حنو عالٍ في مقدمته يميل إلى أمام على
عنق الجواد . وقبل أن يخوض الفرسان غمار معركة ينفطون ظهور الخيل وجوانبها
وأعناقها وسدورها بقمش من صوف مبطن بالقطن السميك لا تنفذ فيه الرياح
أو السيوف فيما يقال ، ويسمى « اللبس » ، وهو نفس الاسم الذي يطلقه البدو
الشرقيون على أعطية خيلهم ، ولكن اللبس الذي يصنعه عرب الميرقاب يمتاز
بالأناقة والخفة والثبات .

وجل أهل بربر — وهم زراع كما قلت — يشتغلون بالتجارة حين يفرغون من
زراعتهم، لذلك أصبح بلادهم سوقاً رئيسية لتجارة الجنوب ، وزاد من مكانته التجارية
ضرورة مرور جميع القوافل القادمة من سنار وشندى ببربر في طريقها إلى مصر .
ولبربر نفسها تجارة مع مصر ، وكثير من القوافل الصغيرة تحمل بضاعتها وتشد
رحالها منها دون انتظار بضاعة من أسواق الجنوب . وما من سلعة سودانية
— بما فيها الرقيق — إلا استطعت شراؤها في بربر بزيادة ١٥٪ إلى ٢٠٪ على
ثمنها في شندى . ولبربر سوق عامة ، ولكن العمل فيها تعطل مؤقتاً — وقد
وجدناه معطلا حين ألمنا بها — بسبب ما حل بالبلاد أخيراً من قحط ، وبفعل
الجدري الذي حصده أرواح الكثيرين .

والذرة والريال الإسباني هما العملة السائدة في بربر وسائر البلاد حتى سنار .

وتضمن السلع الرخيصة بالذرة ، ويكيلونها «بالبلقة» أو الحفنة ، وفي الدت ثمانى عشرة سلفة أو حفنة ، وعيار السلفة هو ملء راحة الرجل إذا بسطها . ويستطيع القارىء من هذا أن يستنتج ما يحدث عادة بين البائع والمشتري من نزاع لاختلاف حجم أيديهما ، وفي مثل هذه الحالات يطلب إلى شخص ثالث أن يكيل الذرة بيده . وعشر مدات من الذرة تساوى اليوم ربالا . وإذا أرادوا كيل كمية كبيرة من الذرة عبّروا سعة إناء من الخشب أو نحوه بالحفن أولا ثم استخدموه مكيالا . صحيح أن لهم مكايل خشبية ، ولكنهم لا يثقون بها ويؤثرون عليها الكيل باليد . وهناك بديل آخر عن العملة غير الذرة ، وذلك هو الدمور ، وهو قاش قطنى خشن ينسج قرب سنار ، وأهل هذه البلاد يحكيون منه قصصهم على الأخص ، و«ثوب» الدمور — كما يسمونه — يكفى قميصا للرجل منهم . وكان ثمن الثوبين وأنا ببربر ربالا . ويقسم الثوب «فردتين» ، تصلح الفردة منها فوطه طويلة يلفها المبد على خصره . وفي الفردة «فتقتان» ، ولا تنفع الفتقة إلا أداة للمقايضة ، وأذكر أننى اشتريت تبغا بفتقة منها . على أن القوم يؤثرون الذرة أداة للبيع والشراء . لأن البائع قد لا يأخذ الدمور بثمنه الحقيقى فى السوق ، وهو ثمن يتقلب كلما وصلت من الجنوب قافلة جديدة . وثن الرقيق أو الإبل أو الخيل أو سواها من السلع الغالية يدفع ربالات أو أثواب دمور ، ولكن الوسيط يقتضى عمولته ذرة لابلث أن يحولها ربالات . وللربالات أسماءها فى محيط التجارة ، ف «القسمه» ربالان ، و «المثقال» أربعة ، و «نصف الأوقية» ثمانية ، و «الأوقية» ستة عشر ، وهى أسماء منقولة فى الأصل عن هيارات الذهب ، لأن أوقية الذهب تساوى عادة ستة عشر ربالا ، ولكن هذه الأسماء أصبحت اليوم ثابتة وإن تغيرت قيمة الذهب ، فالسته عشر ربالا تسمى أوقية وإن كانت أوقية الذهب تساوى ثمانية عشر ربالا أو عشرين ، وتلك كانت قيمتها فعلا يوم كنت فى ببر .

ويتعامل الناس فى كردفان بمعملة أخرى فضلا عن الذرة والدخن ، ألا وهى القطع الصغيرة من الحديد يصنعون منها الرماح والمدى والبلط وما إليها . كذلك يتعاملون فى صفقاتهم الكبيرة بالأبقار فتراها دائمة الانتقال من يد لأخرى .

أما السلع المختلفة التي تشتمل عليها تجارة السودان فسيأتى تفصيل القول فيها عند الكلام على سوق شندى ، ويتجر البلدان بالسلم نفسها ، ولكن تجارة بربر أقل لأنها لا تتصل اتصالاً مباشراً بغير شندى من أقاليم الجنوب ، أما شندى فتتدفق عليها القوافل من كل فج ، وأملها اليوم أول بلد تجارى فى إفريقيا جنوبى مصر وشرقى دارفور . وكل ما يباع فى سوق بربر من رقيق أو سلع محبوب إليها من شندى . بيد أن التجار المصريين يؤثرون فى الغالب سوق بربر على الأسواق الجنوبية رغم ارتفاع أثمانها ، ذلك لأنهم يستطيعون أن ينجزوا أعمالهم فيها فى وقت أقصر ثم ينتهزون أول فرصة للعودة إلى مصر بطريق الصحراء . ويوم كنت ببربر خرجت منها قافلة قوامها مائتان وخمسون رجلاً وعشرون رقيقاً تقصد دراو ، فماد معها بعض رفاقى بعد أن باعوا بضاعتهم . ومع هذا فسوق بربر قليلة البضاعة لا تصلح إلا لأوساط التجار المصريين .

وفى صعيد مصر يسمون القوافل القادمة من بربر قوافل سنار . وعلم المصريين بالسودان ضئيل ، لذلك لا تمدد القوافل القادمة من الجنوب أن تكون آتية من دارفور أو سنار فى نظرهم ، وذلك حسب دخولها مصر من الصحراء الغربية أو الشرقية . ويدخل فى قوافل سنار ما يفد من سنار وشندى وبربر والحس والسبوع . وكل قافلة تفد على بربر من الجنوب تمسك بها وقتاً تختار فيه من يصحبها من خبراء وتمعد عتبتها للرحلة عبر الصحراء . ويقع ببربر كثير من العبادلة وهم على استمداد للقيام بهذه الرحلة فى أى وقت ، ولن يرفض الرجل منهم أن يصحب القافلة خبيراً وحارساً لقاء عشرين ريالاً . وبين التجار كثيرون ممن خبروا الطريق ولكنهم لو خرجوا إليه فى غير صحبة أحد العبادلة لسطا عليهم أى بدوى من هذه القبيلة يلقاهم فى الطريق فيسلمهم ما لهم وبضاعتهم . وعلى كل قافلة نفد بربر أن تؤدى للملك (أى الملك) ضريبة مرور يتطلب جمعها من كل فرد أياماً . ويقتضى الملك كل قادم من مصر خمسة أثواب دمور دون مراعاة لعدد أحواله أو جماله ، وبصرف النظر عن كونه سيداً أو خادماً . وعلى المسافر أن يدفع ثوب دمور لموظفى الملك ، وآخر لمبيده ، وثالثاً لرؤساء البشاريين من الأرياب

والعلياب أو أقربائهم إذا التقوا بالقافلة في بربر ، ويطلب البشاريون بهذه الضريبة لأنهم سادة الصحراء من بربر إلى آبار نابه ، أما البلاد شمال نابه فتدخل في نطاق سلطان العباددة ، وتستطيع على ذلك أن تمدّها جزءاً من مصر لأن العباددة تابعون لحكومتها . ويجمع الملك الأتواب السبعة ويعطى كل فرد من قومه نصيبه منها . أما البشاريون فيأخذون الثوب بأنفسهم ، فإذا لم يوجد منهم أحد أعفى المسافر من أداء هذا الثوب . ويأخذ الملك ضريبته ريات أو دموراً ، فإذا كانت جيوب رجال القافلة حال وصولهم بربر خاوية — وهو ما يحدث عادة لأنهم يكونون قد اشتروا بضاعة بآخر درهم معهم قبل خروجهم من مصر — حصل ضريبته حينئذ بأسمار يحددها هو . أما العباددة فمفنون من ضريبة المرور هذه لأنهم هم أنفسهم ، كما يقولون ، «أهل سلطنة» أى قوم مستقلون في جبالهم ، وليس من الرومة أن يتقاضى رئيس قبيلة ضريبة من رئيس قبيلة نظيره . أما حقيقة الأمر فهي أن أهل بربر يخشون بأس العباددة لأنهم يهبطون عليهم من جبالهم إذا خاصموهم ، ويفيرون عليهم وينهبون ماشيتهم وعبيدهم ليلاً . كذلك يعنى التجار البشاريون من ضريبة المرور ، ولكن عددهم قليل جداً ، ولا يرتاد هذا الطريق منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة .

ولا يفرض ملك بربر إتاوة ثابتة على القوافل القادمة من الجنوب والداخله في الصحراء عند بربر ، وذلك لأنها خارجة من عاصمة سيّده ، على أنه يأخذ من كل مسافر عطايا زهيدة تتناسب وعدد أحماله وعبيده .

وليس هذا كل ما يقتضيه الملك وحاشيته ، فهم يستفسرون عن نوع البضاعة التى جلبها كل مسافر من مصر ، ثم يطلبون بعضها هدايا فوق ما أخذوا من ضريبة . ويساعد التجار أنفسهم الملك فيما يقوم به من استطلاع ، فهم يشون بعضهم ببعض تودداً إليه . وقد أنفقنا الأسبوع الأول في بربر والملك لا يفتأ يحاول الحصول على شتى الهدايا من التجار ، والتجار لا يفتأون يروغون ويتملصون . ولما كنت في عيونهم رجلاً مملقاً فإن الملك لم يتقاضانى أول الأمر أكثر من ثلاثة ريات ، ولكنه أكرهنى بعد ذلك على دفع ريات رابع حين تراءى إليه أننى

أحمل في منطقتي نقوداً . ولولا خشيته من مك شندى القوى البأس ، ولولا خوفه من أن تعطل تجارة المرور بربر تعطلا تاماً ، لكان في مطالبه من التجار أشد تعسفاً وإرهاقاً . وفي ظني أن دخله السنوى من القوافل يناهز ثلاثة آلاف ريال إسباني أو أربعة ، وهو ينفقه على بيته الكبير الذى يضم المبيد والجوارى والخيول والهجن المتاق ، وهو يطعم كل يوم حوالى خمسين شخصاً من أسرته فضلاً عن الأغراب ، وكذلك عليه أن يمنح أقاربه وأتباعه الهدايا بين الحين والحين تدعيماً لنفوذه بينهم . وهكذا ترى أن هذه الوجوه التى ينفق فيها ماله لم تتح له ادخار شيء مذكور منه .

وأشاروا الى على أغنى رجال بربر بعد الملك ، وذكروا أنه يملك ألف ريال ربهما فى العام الماضى حين تفشت المجاعة بين الناس لأن مخازنه كانت تخرز بالذرة . ووجوه القوم هنا يملك الواحد منهم من ثلثمائة ريال إلى ستمائة ، يدخل فى ذلك ثمن الماشية والأثاث وما إلى ذلك .

وليس لبربر من منافذ تجارية ، فضلاً عن دراو وشندى ، إلا القليل . ذكروا لى أن القوافل كانت فيما مضى تسير منها إلى دنقلة مخترقة الجبال على ضفة النيل الشرقية لا محاذية لضفاف النهر خشية أن تسكره على الوقوف بكل قرية لتؤدى لها الإتاوة . على أن هذه الطريق تعطلت منذ بدأ حرب الرباطاب يسطون على المسافرين بعد أن نشبت الحرب بينهم وبين جيرانهم . ولا سبيل إلى الاتصال بدنقلة اليوم إلا من طريق شندى ، ومنها تشق القوافل فى الجبال طريقاً مستقيمة . ويسكن بربر كثير من التجار الدناقلة ، وقوام تجارتهم التمر والتبغ ، وقد اشتهرت نساؤهم وجواربهم بصنع أفضل أنواع البوظة . ويفد على بربر البدو البشاريون والزارع النازلون ضفاف نهر مفره — الذى يسميه روس مارب — ليشتروا حاجتهم من الدمور ، وليتاعوا من التجار المصريين الخرز والكحل وجوز الطيب وشتى العقاقير الداخلة فى تركيب الدهن المطر الذى سبقت الإشارة إليه . وكذلك تصلها بين الحين والحين القوافل القادمة من التاكة عبر الجبال الشرقية — وهى رحلة عشرة أيام أو اثنى عشر — لتشتري هذه السلع

أو تقايض عليها بجلود الثيران وبالجمال . كذلك تأتي قوافل صغيرة قوامها البشاريون من سواكن — وهي رحلة عشرة أيام — حاملة التوابل والأقشة الهندية وعلى الأخص النيل الرفيع (الكمبريت) . ولا يسلك التجار الأجانب هذا الطريق خوفاً من غدر البشاريين ، على أنهم كثيراً ما يتخذون هذا الطريق الموفور الماء إذا اتفق وجود الحجاج ببربر في طريقهم إلى مكة في أثناء عودة قافلة من هذه القوافل إلى سواكن . ويسلك الحجاج السودانيون عادة أحد طريقين ، فإما الطريق المحاذي لضفاف النيل وإما طريق التاكة الذي سافصل الكلام عليه فيما بعد . وقد راودتني شخصياً فكرة الرحلة إلى التاكة ، وكفت أرجو أن أصل منها إلى الحدود الشمالية للحبشة صوب مصوع . وكان ببربر كثيرون ممن وفدوا عليها من سنار ، فلما استفسر منهم أصحابي عن قريبي الذي زعمت أنه مفقود أجمعوا على أنهم لم يروا بسنار إذ ذاك رجلاً أبيض . لذلك لم يبق أمامي إلا أن أزعم لهم أنه لا بد قد بارح سنار إلى الحبشة ، وأمكنتني بذلك أن أستفسر عن الطريق الصحراوي إلى التاكة وسواكن دون أن أثير حولى الشبهات والظنون ، وكان أصحابي يحثونني على اتخاذ هذا الطريق والإقامة ببربر حتى تواتبني الفرصة للخروج في الرحلة . ولا شك أنه كان يسرهم أن أركب هذا الخطر ليستريحوا مني نهائياً إن لقيت في الرحلة حتفي ، ولعلمهم كانوا يخشون إن عدت إلى مصر أن أنتقم منهم لسلوكهم معي . على أنني بعد التحري والاستقصاء أيقنت أن هذا الطريق يجب ألا يتخذه غريب ، وأهل ببربر أنفسهم لا يتخذونه إلا في جماعة كبيرة منهم ، فهم لا يأمنون جانب البشاريين الذين لا يترددون في قتل الرجل منهم ولو كان موصى به من الملك نفسه ، ما داموا يرتجون من وراء قتله مغنا مهما يكن زهيداً . ولا بد للمسافر في هذا الطريق من أن يحمل معه بضاعة ولو قليلة ليقايض بها على الزاد في أثناء الرحلة ، وفي هذا ما يكفي لإثارة جشع البشاريين وحملهم على الفتك به . وعلمت خلال بحثي واستقصائي أنه قد قدم ببربر قبل خمس سنوات أو ست

رجل من مصر قيل إنه نصرانى لأنه كان يدون المذكرات عن رحلته(*) . وروى أن الرجل أهدى مك بربر هدايا سخية ، فأوصى به جماعة صغيرة من البشاريين توصية معززة مشددة ، وخرج صاحبنا إلى سواكن في صحبتهم ، ولكنهم فتكوا به في الطريق ، ولما عادوا إلى بربر صالحوا المك بهدية صغيرة .

وسمعت بعد ذلك بقصة مسافر كان يجهر بنصرانيته ولا يكاد يتكلم العربية ، مر بسنار قبل ثمانى سنين أو عشر قادمًا من الشمال — ولعله قدم من مصر — فقتله العرب في الجبال الواقعة بين سنار والحبشة لا في طريق القوافل . ولما كنت في شندى استفسرت عنه فلم ينبئني بنبئه أحد . ولو كان بجيئه بطريق القوافل الغربى القادم من دارفور وكردفان لأنبأونى بخبره ، لأن البيض — والرجل أبيض فيماروى — يسترعون الالتفات في هذه الأرجاء عنهم في الطريق القادم من مصر ، ولآآ بعض القادمين من كردفان ، وقد عرفت منهم كثيرين في شندى . ولم أسمع أنه كان يكتب يومية عن رحلته .

إن ما يصيبه المسافر في هذه الأصقاع من توفيق جله بل كاه رهن بأدلائه ورفاقه في الرحلة وما يضمرون له من نوايا طيبة . فإذا لم يكن خبيراً بلغته البلاد تعذر عليه اختيار أصلح الأدلاء أو الرفاق ، وتعذر عليه تجنب الفخاخ التى يوقعه فيها غدر القوم ولؤمهم . وإن يغنيه فتيل أن يركن للحظ لعله يقيض له قوماً أمناء طيبين ، إذ قل أن تجود هذه البلاد بنفر من هؤلاء يحسب لهم حساب في رحلة الغريب بين أرجائها ، ولا بد للمسافر أن يسىء الظن بمن حوله ، وليحسب نفسه سميماً إذا وفق إلى الكشف عن نفر بينهم يمكنه أن يثق بهم ويطمئن إليهم بعض الاطمئنان ويستعين بهم على بلوغ أهدافه ، وهو ما لا سبيل إليه إلا بالتوفيق بين مصالحهم وسلامته . وليحذر أول ما يحذر أن يروى يدون المذكرات ، وإنى لملئ يقين من أننى كنت أستهدف لأخبط الشائعات وأضرها ، وأن ما أرجو من نجاح كان مقضياً عليه القضاء المبرم ، لو أن رفاقى ضبطونى متابعاً

(*) أو « يكتب البلاد » كما يصف القوم هنا وفي مصر السائح الذى يدون المذكرات عن رحلته .

بيوميتى فى بدى . وقد وجدت تدوين المذكرات بالصحراء أيسر لى من تدوينها وأنا ببربر ، وكنت أسوق حمارى القوى حديثاً فأسبق القافلة ثم أنزل عنه وأجلس إلى شجرة أو صخرة وأظل تحتها غير ملحوظ ، لا يبدو على إلا أننى أدخن قصبتى ، حتى تلحق بى القافلة . أما فى ببربر وشندى فسكنت أحر فى طريقة أعزل بها أصحابى الذين نزلت الدار وإياهم ، وكان فى انطلاقتى إلى الحقول البعيدة تعرض للخطر ولفت للنظر . وشر ما ابتليت به أثناء مقامى فى هذه البلاد ملازمة الناس لى على هذا النحو ، ولملى كنت أستطيع أن أنجو من هذا البلاء بعض النجاة لو اتخذت لنفسى مسكناً خاصاً ، وكان ذلك أحبّ إلى وأشهى لولا أن مقامى فى بيت غريب كان يحرمنى من كل حماية — وقد يكون هذا الغريب شراً من رفاقتى — ولولا ما كنت أستهدف له من ثقل الزوار يرهقوننى سحابة يومى بطلب الهدايا ، ولولا ما كان يتعرض له مقامى القليل من السرقة . وعلى نقيض ذلك كان شخصى أقل لفتاً للنظر وأنا أقيم مع أصحابى الدراوين ، وكانت نفقتى أخف ، واستطعت بفضل مقامى بينهم أن ألم بأساليب التجارة ، وأمنت على نفسى بعض الأمن لمكانة هؤلاء الرفاق وجاههم برغم قلة حذبتهم على أو ميلهم إلى حمايتى .

ويؤثر التجار النزول ببيت وجيه من وجوه القوم ، أو بيت قريب من أقرباء الملك إذا تيسر ، لأنهم يكونون إذ ذاك فى حمى رب البيت ، وهو لن يرضى بأن توجه لضيفه إساءة أو إهانة ذات بال . أما أدلاؤنا المعبدة فقد نزلوا ببيت فقير من الفقراء رقيق الحال ، وكانوا فى مأمن من لجانة الميرقاب وإهاناتهم ، لذلك توفر لهم فى مسكنهم هذا من أسباب الراحة والحرية ما لم نظفر به نحن . وأزمنى أصحابى بدفع ريالين كانا حصتى فيما دفعوه لرب البيت ، كذلك دفعت لهم ريالاً هو نصيبى فى الهدايا التى قدموها لمن بعثوا لنا بصحاف اللحم فى أوقات مختلفة . واشترت ريال ذرة لحمارى وبمض التبغ . يضاف إلى هذا أربعة ريالات أديتها لملك ببربر ، وثلاثة لرئيس القافلة — وكان من حقه أن يقتضى خمسة — وخمسة لنقل بضاعتى ، وأربعة لنقل قربى فى الصحراء . وكان فى جسامه هذا المبلغ بالقياس إلى مواردى إذ ذاك ما جعلنى أتوجس خيفة من المستقبل .

وأخيراً آن لنا أن نرجل إلى شندى ، وإليها كان يقصد معظم التجار ببضاعتهم ، فجمعنا فيما بيننا طاء لإدريس رب البيت ، ولكننا لم نستطع إرضاءه بسهولة ، ناهيك بمطالب زوجه المعجوز . وبعد لآى ارتضى أن يأخذ بضاعة تساوى عشرين ريالاً لقاء تضييفه إيانا أسبوعين . وكنا اثني عشر رجلاً ، ولكنى لست أشك أن ما كان ينفقه علينا يومياً لم يزد على ثلث الربال أو نصفه ، فإن الرجل لم يقدم لنا — فيما خلا الشاة التى ذبحها لنا أول يوم — سوى لون واحد من الطعام هو خبز الذرة بالسمن نأكل منه صحناً كبيراً فى الظهيرة ومثله فى الليل . وكان رب البيت هو المتكفل بإطعامنا لأننا لم نكن إلا عابرين بالبلدة لانصحب معنا عبيداً ولا جوارى لتجيز الطعام ، أما حين يمود التجار إلى بربر فى طريقهم لمصر مصحوبين فى العادة بعدد من الجوارى ، فإن هؤلاء الجوارى يطهين طعام سادتهن ، فلا يدفعون لرب البيت إلا أجره عن السكنى .

وما ذكرته من تفاصيل عن بربر يصدق جله على شندى وعلى سائر الإمارات الصغيرة حتى بلوغك سنار فيما أعلم . والأرض الواقعة تجاه بربر على ضفة النيل الغربية أرض غير مزروعة ، ولكنهم ذكروا لى أن السائر بحذاء النيل يصادف عدداً لا بأس به من قرى العرب لاسيما فى بلاد مقرات التى يزورها عرب الرباطاب — وهم قبيلة مستقلة كقبيلة الميرقاب ، تمتد مسكنها مسيرة يومين أو ثلاثة على النيل . ومن أكبر قراها مجم وتقع على ثلاث مراحل طوال من بربر ، وهى اليوم مقر أبو مجمل شيخ عرب مقرات الذى خلف قريبه نعيماً قاطع الطريق الشهير السائف . ذكره وكان نعيم قد جمع ثروة طائلة مما غنمه من القوافل المصرية ، وقد أنفق جلها فى شراء الجوارى الصغيرات ، وكان يطيب له المفاخرة بما يلهو ويمث به فى حريمه . ودرج على أن يتربص بالقوافل بين بربر وآبار النجم ، ولكنه كان أحياناً يتمقها إلى شقرة . وكثيراً ما أطلقت عليه النار ، ولكنها لم تصب منه مقتلاً لأن درعه القوية كانت تقيه من رصاص البنادق البعيدة ، وهذا هو السر فى اشتهاه بالسحر . فقد زعم القوم أنه يحمل من التأمم والتعاوين ما يمصمه من الإصابة .

وأفتى فقيه من فقهاءهم بأن جسده لا يتمتع على العيارات الفضية لأن تمامه لا تقيه إلا من عيارات الرصاص ، فصهر نفر من التجار ربالات إسبانية وأصبوا منها عيارات عباؤها بنادقهم . أما تمام نعم التي حتمه من رصاص أعدائه فلم تكن في حقيقتها سوى بدمهم عن الهدف وضعفهم في الرماية . وكان إذا رأى القافلة أكثر منه نفراً وأقوى بأساً وقف بعيداً وأمر جماعة منها أن ينسلخوا عن بقية القافلة مؤكداً لهم أنه لا يقصد بهم سوءاً ، فإذا انفصلوا عنها استطاع أن يشتت شمل الباقين في غير عناء . وكان يوفى بوعده للمنفصلين عن القافلة ويتركهم بمضون يجهلهم الحملة دون أن يلحق بهم أذى ، ولكن هذا لا يمنعه من مهاجمتهم فيمن يهاجم في ظروف أخرى . ويمدّ نجاح هذه الخدعة أقوى دليل على جبن التجار وغدرهم لأنهم يتخلون عن رفاقهم على هذا النحو المشين ؛ ولو أن قبيلة من قبائل الصحارى العربية سلكت هذا المسلك لو صحها بمار لا يحصى .

ولم يقس نعم على ضحاياها العاجزين فسوة غيره من قطاع الطرق الإفريقيين . فكان إذا سلب قافلة سمح للركب أن يأخذوا من الإبل والزاد ما يكفيهم لبلوغ مصر أو العودة إلى بربر . وكان يعرف معظم التجار معرفة شخصية ، لذلك كان يرد للتاجر منهم عبداً أو عبيدين عند رحيله . وقد أحفظ إليه قبيلة العبابدة وحملها على الثأر منه قتله عدداً منهم في غارة من غاراته ، ولم يمض طويل وقت حتى واتتهم فرصة الانتقام . ذلك أن مئاة منهم كانوا يحرسون قافلة بارحت سنار إلى مصر سنة ١٨١٢ في صحبة رسل الباشا ، وأقاموا ببربر أياماً ليمدوا المدة للرحلة عبر الصحراء . وتلقى رئيس العبابدة في هذه الأثناء نبأ سرياً مفاده أن نعمياً قد اتخذ لنفسه عروساً جديدة وأنه سيدخل بها في يوم معلوم . وفي اليوم السابق للحرس صدر الأمر للقافلة بمبارحة بربر ، وكان الرئيس قد سار في الليلة البارحة على رأس مائة راكب مسلح محتجاً بأنه يقسم بذلك الجمال تسهيلاً لمهمة سقيها من عيون شقرة . ولكنه ما إن مضى في الصحراء قليلاً حتى عدل عن الطريق المستقيم إلى آخر مغرب ، وانطلق حثيثاً يعبر الجبال إلى مقرات . فلما وصل إلى بيت نعم حاصره وأشعل النار فيه ، وخرج إليه نعم فقتل في ستة من أصحابه ، وحملت عروسه لمصر وأرسلت أذناه (م ١٣ — رحلات بوكهارث)

إلى محمد على باشا وهو بالحجاز .. وأكرهت العروس المسكينة على الزواج بأحد قتلة زوجها ، وأتى الرجل بها إلى مصر ، ولكنهما استطاعت بعد ذلك أن تهرب إلى دنقلة ، وهي اليوم تعيش بين أسرتها بمقرات . على أن المصير الذي انتهى إليه نعيم لم يمنع قاطع طريق آخر من أن يعيد سيرته في هذه الجبال ، واسم الرجل كرار ، وهو شيخ العبادة من قبيلة المشاباب . وقد نهب عدة قوافل جلبها من بربر سنة ١٨١٤ وماد بما غنم إلى خيامه في جبال عتباى ، وحاول الباشا غير مرة أن يقبض عليه دون جدوى .

وليس هناك اليوم إلا أقل اتصال بين بربر ومقرات ، وهي نتيجة يستطيع القارىء أن يخلص إليها ، وكذلك بين بربر وبلاد الشايقية وهي أبعد من مقرات ، اللهم إلا بواسطة الحجاج السودانين الذين يسرون بحذاء ضفاف النيل الآهلة بالسكان في طريقهم إلى مصر ، فالحرب المستمرة بين الشايقية والماليك في دنقلة تضر بسير التجارة . وقد خاض الفريقان عدداً من المعارك راح ضحيتها مائة وخمسون من الشايقية وخمسون من الماليك ، وغنم الماليك بعض الخيل والعبيد ، ولكنهم سحبوا قواتهم من الحدود الجنوبية لدنقلة بعد أن أعيام قهر عدوهم وأضنتهم هذه الحرب المقيمة الزعجة ، ثم ركزوا هذه القوات في الولايات الشمالية حول أرقو حيث يقيمون إلى اليوم . وقد مات أكبر زعمائهم إبراهيم بك الكبير بالشيخوخة عام ١٨١٣ ، ويعتبر عبدالرحمن بك المنقوخ زعيمهم اليوم . وقد وفد من مصر عدد من الماليك اتخذوا طريق الصحراء إلى بربر بدل أن يذهبوا إلى دنقلة ، ونزل البيت الذي نزلنا سليم بك الطويل فأقام به شهوراً ، وأظهر له مك بربر منتهى اللطف والكرم خوفاً من بطش الماليك . وقد خالي بعضهم في بربر تاربا من أتباع الماليك هرب من مصر لألحق بهم . وكنت أكره أن يتناقل القوم عنى هذه الشائعة ، ولكنها كانت خيراً من أن يظنوا أنى أتمى لأسرة الباشا أولجيشه ؛ فقد توجس الناس شراً من إرساله مبعوثاً إلى سنار وظنوه يضمم لهذه البلاد سوءاً . وكان رؤساء القبائل ينظرون إلى سلطته المتزايدة على مصر نظرات الغيرة والحسد ،

أما التجار فكانوا يحقدون عليه غلوه في فرض الضرائب الباهظة على واردات الجنوب . لذلك حرصت أشد الحرص على دفع كل شبهة في ضلتي به أو إهمامه بأمري ، وخبأت مامعي من توصيات ، وعولت على عدم إبرازها أو الالتجاء إليها إلا إذا ألجأتني لذلك الضرورة القصوى .

وبين بربر والحدود الجنوبية لبلاد عرب الشايقية أربع مراحل طوال عبر الجبال على الضفة الغربية للنيل . وبعض هذه الجبال يؤلف إقليما يدعى الحوف فيه الشجر والآبار ، وقد اعتصم بهذه الجبال الهاشمي ملك كردفان الأسبق بعد أن اغتصب منه ملكه الملك الحالي ويسمونه المسلم ، وهو أحد موظفي ملك دارفور . وظل الهاشمي معسكراً في جيش من أتباعه شهوراً عدة حتى ضيق عليه عرب الشايقية الخناق فأجلوه عن الجبال وارتد إلى شندى فاحتفى بالملك نمر ، ولكن الهاشمي ما لبث أن ائتمر به مع إخوة نمر فقتله نمر انتقاماً منه .

الرحلة من بَرِّبر إلى شندى

بعد أن سويناً حساباتنا كلها في بربر بارحناها عصر الصباح من إبريل وقد تناقص عدد الركب إلى الثلاثين ؛ فقد عاد بمض التجار إلى مصر ، وظل بعضهم ببربر ليبيعوا بضاعتهم ، كذلك بقى بها بعض العبادة ممن كانت لهم بها أسر - ينتظرون رجوع القافلة من شندى . وركت بربر غير آسف ، فإن خلق أهلها بمث الريبة فى نفسى ، وأشار على كثير من وجوه البلدة أن أمكث بها مترقباً فرصة الخروج مع قافلة من قوافل التناكة ، ولـكننى قلت فى نفسى إننى إذا بقيت ببربر وحيداً كنت تحت رحمة الميرقاب وهم ينوون سرقتى ما فى ذلك شك ، لذلك صبح عزى على متابعة الرحلة إلى شندى لعل أظفر هناك بقافلة مأمونة أصحبها إلى البحر الأحمر .

وسرنا هذا المساء ميلين فى الرمال ثم وقفنا بقربة قور القورج من أعمال بربر ، وزلنا فى فناء بيت فقير من فقرائهم - وكان تاجراً معروفاً بمصر - فأكرم الرجل مشوانا ولم يطلب على ضيافتنا أجراً . وقد ألف هذا الفقير كلما زار مصر أن ينزل على معارفه بدر او ضيفاً لا يؤدى عن إقامة أجراً . وأتى مضيفنا السابق إدريس مودعاً فى الليل ، وألح فى طلب المزيد من الهدايا . وطال الأخذ والرد بينه وبين اقنوم ، واستطاع بعد لآى أن يظفر من تجار دراو بدرقة فاخرة تساوى ثمانية ريالات ، واضطرونا أن نسهم كلنا فى جمع هذا المبلغ لنسترد منه الدرقة .

٨ إبريل - فى القور أطلال مبان حديثة أصبحت اليوم خراباً يباباً ، وكانت القرية فيما مضى أهم قرى بربر ، وكذلك ذكرها الرحالة بروس . وفى مواضع عدة منها آبار عامة ماؤها ملح يسقى منها المسافرون دوابهم لأن شطآن النهر قائمة وعرة والهبوط إلى الماء عسير . ومضيفنا محاذين لحافة الصحراء فوق سهل مستو أو أرض زراعية عرضها ميلان تقوم بيننا وبين النيل . وكانت الأرض زاخرة بشجر العشر الذى ذكرته مراراً فى رحلتى على ضفاف النيل إلى دقلة وفى رحلتى السابقة فى البطراء . وكنا نسلك درباً مطروفاً هو أشبه بالطريق الرئيسى تشعب منه الدروب الصغيرة فى كل أنحاء الصحراء الشرقية . وبعد ساعتين وصلنا بقعة تحفل بشجر

السنط والسم . أما الأرض على ضفة النيل الغربية فقد بدت لى شديدة الاستواء على مرمى بصرى ، فلم أربها جبالا ولا تلالا ، وكل ما رأيته خط أبيض يتبينه الرأى وراء شريط الأرض الزراعية الضيق المحاذى للنهر ، وهذا الخط يشير إلى رمال الصحراء . وصادفنا فى طريقنا كثيراً من المسافرين يركبون الخيل أو الهجن ونساء وأطفالا على ظهور الخيل أو خلفها يسوقونها محملة . ويبدو أن هذا الطريق مأمون جداً لاخطر فيه على أهل البلاد ، ولكن القريب لايطمن إلى السير فيه دون دليل أمين . وكنا قد أخذنا من النخيرة رجلين يصحباننا إلى حدود وادى بربر .

وبعد ثلاث ساعات ونصف دخلنا إقليم راس الوادى ، وبعد أربع وصلنا قرية راس الوادى ، واضطررنا أن نقف بها لنؤدى ضريبة مرور يفرضونها هناك على التجار . ورأس الوادى قرية كبيرة تفوق النخيرة مساحة ولكنها دونها فى مبانيها ، وفيها أكواخ كثيرة من الحصير . ومضينا رأساً إلى بيت الملك وحططنا على الأرض الفضاء أمامه . هذا الملك - ويسمونه الملك حمزة - هو ابن عم الملك نور الدين فى بربر ، ولكنه مستقل عنه لأن راس الوادى إمارة قائمة بذاتها وإن كان جل أهلها فى ظنى من عرب الميرقاب قبيلة أهل بربر . على أنها كبربر تتبع ملك سناو وهو الذى يولى ملكها . ويخشى السافرون - ولا سيما المصريون منهم - بأس حمزة . وقد ظن التجار الدراويون أن الرجل قد يسىء إليهم بسببى ، وكانوا إلى ذلك مقتنعين بأنهم يمد لهم فى صحبتى نفع ولا منم لأننى كنت أدفعهم عن كل حفنة من الدرة يريدون غصبها منى ، لذلك صرح عزهم على التخلي عنى ونبذى نبد النواة . وكنا قد وقفنا دقائق فى السهل على مقربة من بركة ماء أمام القرية ، فإنا همنا بمعاودة السير حتى أمرؤى فى لهجة ملؤها الازدراء أن أنصرف عنهم ونهوى أن أقرب جماعتهم بعد ذلك . وأردف غلمانهم هذا الأمر بانتهارى كما تنهر الكلاب ، ثم ضربوا حمارى بمؤخر رماحهم وطاردوه إلى الصحراء .

وكنت طوال الرحلة أحاول جهدى أن أكون على صلة طيبة برفاقي العبايدة ، وكانوا على لؤمهم خيراً من الدراويين . فضضيت الآن إليهم أسألهم هل ينوون تركى تحت رحمة لصوص الميرقاب أو يستمخون لى بالانضمام إلى جماعتهم ؟ فارتضوا من فورهم

فإن أنضم إليهم ، وبذلك أصبح موقفي خيراً مما كان ، فإن رفاقي الدراويين دأبوا على أرذل المزاح وأسخف الميث طوال مقامنا في بربر للساءة إلى والغض من شأنى . ولما أيقنوا آخر الأمر أننى أصلبهم عوداً - وقد ثبت هذا حين صارت أقوام غير مرة فصرعته - حاول غلمانهم إرهابى بما كسات لا تنقطع ، ولم يكن من السهل على أن أردعهم عنها ، فرأيتنى مضطراً إلى احتمالها مخافة أن أعرض نفسى - إذا تركت جماعتهم نجاة - لشر مبيت لا أعرف مداه ولا أستطيع له دفعا .

واستقبلنا حمزة فى فتور شديد ، وظللنا بيباه سحابة يومنا قبل أن يرسل إلينا طمأناً ، وقال رفاقى إنه لو سمع أن أحداً منا أصاب حظاً من زاد فى أثناء مقامنا بيباه لمد ذلك منا إهانة له وتحدياً لأننا ضيوفه . ومضى إليه اثنان من أصحابنا التجار يفاوضانه فيما يؤدى له من إتاوة ، أما الباقون فقد شغلوا كلهم بالدود عن متاعهم وودفع الأهالى الجشعين الذين زاحوا حول المتاع أول الأمر يسألوننا عن حالنا متوددين ، ثم مالبثوا أن حشروا أنفسهم وسطه . على أننا لم نلتجئ بهم التحاماً صريحاً ، ولكن أشياء كثيرة فقدت من المتاع ومن بينها قصبتى . وأنبثنا آخر الليل أن الملك لا يرضى بأقل من عشرة ريات عن كل حمل وأربعة عن كل تاجر . وقد حسبت واحداً من التجار ، وأدينا الضريبة بعضها نقداً وبعضها عيناً . أما العبادة فقد أعفوا منها ، بل إنهم استطاعوا أن يعفوا بعض أحمال المصريين بحجة أنها أحمالهم لقاء بعض العطايا التى أخذوها منهم . وكنت أخاف أن يستولى الملك على بندقيتى ، وحملنى على هذا الخوف ما سمعت من استيلائه على ما يقع تحت يده من أسلحة نارية ، لذلك تظاهرت فى الليلة السابقة بأننى أساوم شيخ العبادة على بيعها له أمام رجال القافلة ، وكنت على يقين أننى إن لم أفعل هذا فسيشئ بى رفاقى للملك ، وأعلن الشيخ لأصحاب الملك أن البندقية ملكه ، ولم يستطع أحد أن يكذبه ، وهكذا أنقذت بندقيتى ، ولكن الشيخ ظفر منى بريال جزاء صنيعه .

وبقى الملك ببيتته طوال الليل فلم نلقه ، ولكن ابنه أقبل يطلب لنفسه بعض الهدايا فكان جوابنا الرفض الصريح . فطلب أن يرافقه منا إلى البوطة نديم مرح يسمر معه ، فتقدم إليه أحد المصريين ، وشرفه ابن الملك باصطحابه إلى ماخور قريب

جملاً يشربان ويقصفان فيه حتى مطلع الفجر .

٩ أبريل — هلت علينا هذا الصباح طلعة الملك حمزة . خرج من داره وسار في السهل ثم جلس على مصطبة من الحجر قرب أحد البيوت أمام متاعنا . وكان متجرداً من ثيابه لشدة القىظ ، لا يلبس إلا وزرة مشدودة إلى حقويه ، وشعره ملطخ بالدهن ، وفي ركابه من الرقيق ستة أو ثمانية ، يحمل أحدهم قربة ماء صغيرة مصنوعة من الجلد السنارى صنماً بديماً ، ويحمل ثان سيفه ، وثالث درقته ، وهكذا ظهر جلالته في كامل أبهته وخيلائه . وربع لظهوره أصحابنا التجار ، وكانوا قد عللوا أنفسهم بأنه سيأذن لهم بالرحيل في الصباح الباكر ، ولكنهم أوجسوا الآن من شر ضريبة جديدة قد تفرض عليهم . ومضينا إليه جميعاً قبلنا يده ، ووقفنا بين يديه في خشوع واتضاع . وقال جلالته إنه مختبئ برؤيتنا ، وإنه صديق صديق للتجار ، ولكنهم قد غدوا بخلاء مقترين . ثم أصر على أن نمطى ابنه هدية ، وتطلع إلى القافلة فإذا فيها حمار طيب فأمر ابنه أن يمتطيه . وعرض عليه صاحب الحمار ستة ريالات يفتديه بها ولكنه أبى ، وسبق الحمار إلى إسطبل الملك ، ثم أذن لنا في الرحيل . وتشاء المصادفة أن يكون هذا الحمار هو الذى طويت على ظهره الصحراء . وكنت في أثناء الرحلة قد أدركت ما للحمير المصرية من سمعة طيبة في الأقطار الجنوبية ، حتى ليتهافت الناس لاسمها وجوهمهم على اقتنائها ، وكان حمارى قد اشتهر في القافلة بصلابة عوده وعظم نشاطه ، فقدرت أننى لن أستطيع أن أدفع عنه جشع الأمراء والرؤساء ، لذلك قابضت عليه في الليلة السابقة لوصولنا بربر بحمار أصفر حجاً وأقل صلابة ، وكان الحمار لأحد التجار الدراويين ، وظفرت منه في هذه الصفقة بريال . ولست أشك في أنه كان بضحك من غفلتى بينه وبين نفسه ، ولم يدرك بخلافه أن الحمار قد يؤخذ منه عنوة وغصبا ، وكان يقدر أنه سيبيعه بعشرة ريالات أو اثني عشر . واستطاع الرجل في بربر أن ينقذ الحمار من برائن الملك نور الدين ، أما الملك حمزة فكان صلباً لاتلين له قناة ، وندم الرجل على الصفقة ولات حين مندم ، وطالبني في إلحاح برد حماره القديم ولكن العبايدة انحازوا إلى سفى ، بل إنهم امتدحوني — بيني وبينهم — لأنى ورطته في هذا المأزق .

وكانت تخيم على مقربة من راس الوادى جماعة كبيرة من البشاريين أتوا ليقبضوا زادهم من الذرة للصيف. وعلمت أن أبا الملك حمزة ذهب مؤخراً إلى سواكن في طريقه إلى شبه جزيرة العرب، وصحب معه عدداً من الرقيق والخيول المتناقة ليهديها إلى الشريف محمود أمير التين أملاً في الظفر ببعض الهدايا المناسبة بطبيعة الحال . وهذا الضرب من التجارة شائع في هذه البلاد .

وقد رأيت بعض هجن الملك حمزة فإذا هي من صفوة الهجن ، وكانت على الجمال ورجلها زينة براقه ، ويقتنى كل شيخ من شيوخ القبائل هنا هجينين من خير الفصائل يظهر بهما أمام الناس ليسترعى الأنظار ، ويركبهما عبدان من عبيده ويسيران في ركابه أنى سار .

وبارحنا راس الوادى فى الضحى يصحبنا رجلان من أسرة الملك إلى حدود أملاكه . وكان شطر من الطريق رمالاً جرداء ، وفي شطر آخر منه تفرقت أشجار السنط . وبعد ساعتين مررنا بعدد من الزلاات فيها الكثير من شجر الدوم وإلى جوارها جزيرة كبيرة ظهرت في عرض النهر . ويقال إن أهل هذه الزلاات من أعرق اللصوص ، ولعل هذا هو الذى حمل دليلنا على أن يقفنا هنا ويطالبانا بمشقة ريات أجرأ لاصطحابهما إيانا حتى هذه البقعة ، ولم ير التجار مفرأ من الإذعان فدفعوا الأناوة وأنفهم راغم . وكان الركب قد تناقص حتى بلغ المشرب ، فقد انسلخ عن جماعتنا بعض صغار التجار تفادياً لدفع ضريبة المرور وسبقونا عابرين الصحراء ليلاً شرقى راس الوادى ، كذلك استأجر غير هؤلاء ممن لا جمال لهم خبيراً من القوز صحبهم ليلاً في طريق خطر بحذاء ضفة النهر ثم انضموا إلينا ثانية بعد أن جازوا أملاك الملك حمزة .

وعلى مقربة من الزلاات أبصرنا عدداً هائلاً من شواهد القبور الجديدة التى تنطق بماحل بالبلاد من غارات الجدرى المدمرة ، وكان كل قبر مغطى بالحصى الأبيض وقطع المرو جرياً على عادة النوبيين ، وهى العادة التى لحظتها من قبل في بلاد البرابرة . وسهل الصحراء الشرقية تقطعه هنا بعض التلال من الرمل والحصاء . ومررنا بأحراج من السنط ، ثم وصلنا بعد أربع ساعات إلى نهر مقرن لا يارب كما يسميه

بروس ، فاسم مارب لا يعرفه القوم هنا ، وهبطنا جرفاً عالياً ثم سرنا زهاء الميل فوق رمال عميقة كست قاع النهر حتى جئنا بركة من الماء الآسن عرضها نحو عشرين خطوة وماؤها يصل إلى خلخال القدم ، وأمثال هذه البركة كثير في عرض النهر ولكن الماء فيها كلها راكد لا يجري . وقدرت علو الشاطئين بثلاثين قدماً ، أما ارتفاع الماء عن القاع فقد دل أثره على أنه لا يزيد على عشرين قدماً ، وواضح من هذا أن النهر لا يمكن أن يفيض على جانبيه ويغمر الأرض المحيطة به ، وقد أيدى لي هذا أصحابي فقالوا إنهم في أثناء فيضان النهر يعبرونه في قارب يجلب من الدامر لهذا الغرض ، وإنهم لم يروا هذه الأرض مغمورة من قبل بماء نهر سوى نهر النيل . وكان منظر ضفاف مقرن الخضراء تكسوها الأعشاب الياضنة وشجيرات الطرافاء الخضراء منظرًا بهيئاً رائعاً أجلت فيه الطرف ساعة كاملة ، وكنت في انتظار الركب الذي تمطل حين تمثرت بمض الإبل وهي تهبط جرف النهر القائم وسقطت عنها أحمالها .

ونهر مقرن هو الحسد بين إقليم راس الوادى والدامر . ورأينا السواق على ضفافه الجنوبية ترفع الماء من البرك . ودلنا ترتيب الحقول هنا ونظامها ، ووجود المساقى الصغيرة ، على أن الزراعة تلقى من العناية قسطاً لا تلقاه في الأقاليم التي جزناها من قبل . ويسكن العرب من بدو الجميلين ضفاف مقرن في مساحة تقطعها في يومين بعد التقائه بالنيل ، وهم مستقلون استقلالاً تاماً وعشائرم منبثة في هذه الأرجاء حتى بلوغك سنار . وهم أقوى القبائل العربية هنا شوكة وأشدّها بأساً ، ويزرعون الذرة على ضفاف النهر ويرعون الماشية الكثيرة .

وبعد أن عبرنا مقرن سرنا فوق سهل رملي قاجل تكسوه أشجار العشر التي بلغ ارتفاع بعضها عشرين قدماً ، ثم دخلنا الأرض الزراعية ثانية ، وهنا قابلنا شيوخاً من الدامر أرسلتهم إلينا طلائعنا ليحرسونا من لصوص الجميلين الذين كان بعض فرسانهم يحومون حولنا لشر يبيتونه بلاريب . ودخلنا الدامر في الأصيل بعد مسيرة ست ساعات ، والدامر بلد ذو صيت ذائع في هذه الأقطار ، وقد أثلج صدرى أن أرى أهله أنبل من جيرانهم أهل بربر ، ومضيت مع جماعة

المبادئة التي انضمت إليها إلى المنزل الذي نزلوا ، وكان بيت تاجر دنقلى من قدامى أصحابهم ، وكان الرجل غائباً عن داره ، ولكن زوجه رحبت بمقدمنا أيماءً ترحيب ، ونظفت لنا في الحوش غرفتين أودعنا فيهما بضاعتنا ومتاعنا . والتقىنا بتجار من كردفان كانوا قد قدموا من دنقلة حديثاً بطريق شندى ، فأتونا بآخر أخبار الماليك .

الدامر من ١٠ - ١٥ أبريل - الدامر قرية ، أو بلدة (*) كبيرة قوامها خمسمائة بيت . وهي نظيفة تفضل في شكلها بربر لما فيها من مبان جديدة ولخلوها من الخرائب . وفي بيوتها شيء من التنسيق ، وشوارعها منتظمة ، وتنمو في كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال . ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ، ويردون أصلهم إلى شبه جزيرة العرب ، وجلهم من رجال الدين أو الفقراء . وليس لهم شيخ يترعهم ، بل فقيه يسمونه « الفقى الكبير » ، وهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يفصل في خصوماتهم . ويشتهر آل المجذوب الذين أصبح هذا المنصب وقفاً عليهم من قديم عسانا تنجب عشيرتهم من سحرة وعرافين مهرة لا يحجب عنهم غيب ولا تقاوم لهم تيممة . ويروون عن سحرهم القصص التي لا حصر لها ، من ذلك أن أبا الفقيه الحالى - وكان اسمه عبد الله - جعل شاة تنفخ في بطن الالص الذى سرقها وأكلها . ويحكم القوم إلى الفقيه في سرقاتهم ، وليس عسيراً عليه أن يأتى بالعجب المعجاب في الكشف عن سر هذه السرقات لخوفهم من علمه الواسع الذى يخترق الحجب كما يزعمون . ويخيل إلى أن وظيفة الفقى الكبير وراثية ، ولا بد أن يتوافر فيمن يليها بطبيعة الحال الذكاء ورعاية العقل والتفقه في الشريعة لأن هذه كلها من مقومات وظيفته . على أن الفقى الكبير ليس ساحرهم الأواحد ، فقيره من الفقهاء الأقل شهرة كثيرون ممن يؤمن الناس بهم على قدر تقواهم وعلمهم ، وهكذا اكتسبت بلدة الدامر بأسرها صيتاً دائماً . وفي البلدة مدارس عدة يؤمها الطلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء السودان ليدرسوا الفقه دراسة تتيح لهم أن يكونوا في بلادهم فقهاء كباراً .

(*) لا يفرق أهل البلاد هنا بين القرى والمدن . فكل مكان مأهول يسمونه بلدة ، فإذا كان صغيراً فهو نزلة . أما لفظ المدينة فلا يستعمل قط في هذا الشطر من السودان .

ويقتنى فقهاء الدامر من الكتب الشيء الكثير ، ولكنها لا تتناول من
المواضيع غير الدين والشريعة . ورأيت فيما رأيت نسخة من القرآن لا يقل
ثمها عن أربعمائة قرش ، ونسخة كاملة من تفسير البخارى تساوى ضعف هذا
المبلغ فى مكتبات القاهرة . وقد جلب هذه الكتب من القاهرة الشباب من
فقهاء الدامر أنفسهم ، فكثير منهم يجاور فى الأزهر الشريف أو فى المسجد الحرام
بمكة ، ويظلون سنوات ثلاثاً أو أربعمائة يعيشون على الصدقات والجرايات .
فإذا عادوا إلى الدامر علموا الطلبة تلاوة القرآن وأعطوهم دروساً فى التفسير
والتوحيد . ولهم جامع كبير حسن البناء ولكنها بلا مثذنة ، وتسند عقود
من الآجر وأرضه مفروشة بالرمل الناعم . وجو الجامع ألطف أجواء المدينة
وأرطبها إليه ، وإليه يأوى الغرباء للتقيل بمد صلاة الظهر . ويلحق بالجامع مكان
مكشوف تحيط به حجرات الدرس . وكثير من الفقهاء زوايا صغيرة إلى جانب
بيوتهم ، ولكنهم لا يصلون فريضة الجمعة إلا فى الجامع الكبير . ويحيط كبار
الفقهاء أنفسهم بمظاهر الورع والتقوى ، ويميش الفقى الكبير عيشة العابد
المتقشف ، فهو يسكن بناء صغيراً يقوم وسط ميدان كبير من ميادين البلدة ،
وقسم من البناء مصلى والقسم الآخر حجرة مساحتها نحو اثنى عشر قدماً
يقم فيها ليل نهار لا يبرحها ، بعيداً عن أسرته ، وحيداً لا خدم معه ولا أتباع .
وهو يمشى على ما يرسله له أصدقاؤه أو أتباعه من فطور وعشاء .
فإذا كانت الساعة الثالثة عصراً بارح حجراته بعد اعتكافه سحابة نهاره
للقراءة والدرس ، ثم اتخذ مجلسه على مصطبة من الحجر أمام داره ، وألم به إخوانه
وأتباعه ، فجعل يصرف أعماله حتى الغروب بل بعده . وذهبت مرة لأقبل يده
فراعى منه محيا وقور وطلعة جلييلة ، وكان يلتف بمباعدة بيضاء تغطيه كله ، وسألنى من
أين أنا آت ، وفى أى مدرسة تعلمت القراءة ، وأى كتب قرأت ؟ وبدأ لى أنه
اقتنع بجوابى عن أسئلته . وكان يجلس إلى جواره شيخ مغربى من مكناس
قدم من مكة ليشتغل له كتاباً ، ويصرف له كل أعماله الرسمية . وذكروا لى أن
هذا المغربى استطاع أن يجمع من وظيفته مالا طائلاً .

ويلوح أن شئون هذه الدولة الدينية الصغيرة تصرف بمنتهى الحكمة والتعقل . وجيرانها يكونون للفقهاء أعظم الاحترام والإجلال ، فقد ألقوا الرهبة حتى في قلوب البشاريين الفادرين فلم يسمع أحد أنهم اعتدوا على دامرى بمر الجبال من بلده إلى سوا كن . وأخوف ما يخافه البشاريون أن يقطع الفقهاء عنهم المطر بسحرم فتهلك أغنامهم ومواشيهم . وتسير القوافل من حين لحن بين الدامر وسوا كن لأن من الفقهاء تجاراً كثيرين . ووجدنا خارج المدينة مضارب للبشاريين والجمعيلين الذين قدموها لبييموا غنمهم . وتوجد الآبار العامة في المدينة وفي الطرق المؤدية إليها على أبعاد متقاربة .

وجل تجارة الدامر مع دنقلة وشندى ، ولا تصلها ببربر إلا القوافل المصرية المارة بها . ويصنع القوم قاشاً قطنياً خشناً هو تقليد للدمور الذى تصنعه سنار ، ومعظم البضائع المصرية في متاجر الدامر . وليس في البلدة سوق يومية ولكن فيها سوقاً أسبوعية يعرض فيها كل تاجر بضاعته . وذكروا لى أن المبيع من الماشية فيها كثير ، وأن الحصر الدامرية المصنوعة من خوص الدوم تلقى رواجاً كبيراً في البلاد المجاورة كلها . وفي بلد كالدامر يخلو من السوق اليومية ولا يمرض البائعون فيه سلمهم لإلمرة في الأسبوع يعانى الغريب الأمرين في شراء ما يحتاج إليه من سلع بسيطة . من ذلك أنى احتجت لقليل من ذرة عليقاً لحمارى ، ولكن أقل عملة ممدنية يتعامل بها القوم هى الريال ، ومقدار ما يشتريه من الذرة يفوق كثيراً ما أستطيع حمله معى . لذلك اضطررت إلى أن أأخذو حذورفاقى ، فطفت بالبيوت أعرض على أصحابها مساج من خرز بسعر أربع حفن من الذرة للمسبحة . وجنيت من وراء هذه الطريقة ربحاً قدره ٦٠٪ من الثمن الأصلي ، وأنتج لى فوق ذلك أن أدخل كثيراً من البيوت . وأدهشنى أن أكتشف عدداً كبيراً من مشارب البوطة وبيوت اللهو منبثة في أرجاء المدينة برغم ترمت الفقهاء وصرامتهم . وأعدت طوافي بهذه البيوت يومياً في أثناء مقامى بالدامر ، وفي عصر يوم كنت أنادى على مسابحى فأقبل على ققيه وسألنى هل أفرا القرآن ؟ فقلت نعم ، فطلب إلى أن أتبعه إلى بيت قد أصيب فيه غداء طيباً ،

ثم قاذى لبيت وجدت فيه حشداً من الناس يحيون ذكرى قريب لهم مات حديثاً ، وكان هناك عدد من الفقهاء يقرءون القرآن في صوت خافت . ثم أقبل فقيه كبير فكان ذلك مؤذناً لهم بترتيل القرآن ترتيلاً طلياً على نحو مايفعل المقرئون في الشرق . وقد شاركتهم هذا الترتيل ، ومضينا فيه زهاء نصف الساعة حتى جىء لنا بالفداء ، وكان موفوراً لأن القوم نحروا بقرة لهذه المناسبة . واستأنفنا التلاوة بعد أكلة شبيهة ، وأخرج شيخ منهم سلة ملئت بالحصى الأبيض فقرئت عليها الأوراد . وينثر هذا الحصى على قبر الميت كما رأيت على كثير من القبور الجديدة ، وقد استفسرت من الشيخ عن هذه العادة التي لم أرها تمارس في أى بلد إسلامي آخر ، فقال إنها لا تعدو أن تكون عملاً طيباً مشكوراً ، وإنها ليست فرضاً محتموماً ، إنما يمتقد القوم أن روح الميت إذا زارت قبره سرها أن تبحر هذا الحصى فتستخدمه مسبحة تسبح عليها الخالق الصمد ، ولما فرغنا من التلاوة بدأ النسوة يولولن ويبعدن مناقب الفقيد . وهنا بارحت الحجرة ، وفيما أنا استأذن رب البيت الكريم في الرحيل فجنى ببعض ضلوع من اللحم المشوى لمشائى .

ويزين نساء الدامر غرف جلوسهن بعدد كبير من الصحن الخشبية الواسعة يعلقنها على الجدران فتبدو كأنها الصور الكثيرة ، أما الأرض فيمطعن بها بالحصر الجميلة مختلفة الرسوم والألوان ، ولا غرو فالقوم خبثون بصيف خوص الدوم . كذلك رأيت بيض نعام وريش نعام أسود معلقاً على الحائط فوق الباب للزينة .

وعلى ضفة النيل الغربية تجاه الدامر قرية صغيرة تدعى الدامر غرب ، وتصلهما معديّة بدائية الصنع هي جذع شجرة نبق منقور .

وتلقى الزراعة في الدامر من العناية ما لا تلقاه في أى بلد آخر من دنقلة إلى شندى . فيروى الفلاحون الأرض ربا صناعياً بالسواقي على أعناق البقر كما يفعل أهل مصر ، ويحصلون بذلك على محصولين في السنة ، ولم تقاس الدامر من أهوال الجماعة ما قاسته جاراتها ، ولسكن الجدرى فتك بأهلها فتكا ذريعاً . وأهم محاصيلها الذرة ، ويزرعون بعض القمح ولسكنهم لا يصدرونه ، إنما يأكله كبار الفقهاء الذين تعلموا هذا الترف في أثناء مقامهم بمصر . كذلك تزرع البامية والقادير الكبيرة

من الشطيطة الحمراء التي يصدر بعضها والتي يولع القوم ولما شديداً بتبديل طعامهم بها . وينتج هذا الإقليم القطن الكثير ، كذلك ينتج قليلاً من التبغ لسوق البشاريين ، وهو في أحط الأنواع ، أما الفقهاء أنفسهم فلا بدخون قط . وقد خيل إلى أن ماشية الدامر أجود وأمن من ماشية بربر ، وهم لا يربون من الخيل إلا القليل ، أما الحمير فكثيرة ، وقد اشترى أصحابنا التجار بعض الإبل وباعوا شيئاً من بضاعتهم . ولا يتقاضى الفقهاء ضريبة . رور فإن أهم مواردهم يأتيهم من الزراعة والتجارة ، وهذا هو السر في ازدهار الدامر وراثتها ، لأن القوافل لا تجد أى بأس من المكث بها أياماً . وكان مضيفنا في مطالبه منا معتدلاً بعيداً عن الشطط ، وشمرت وشمر أسجاني ونحن نفاذر البلدة أنا راضون عن أهلها كل الرضى . وأرسل المباداة أفاعاً من السكر للفقى الكبير ، ولكنهم أعطوها بحض اختيارهم .

١٥ إبريل - بكرنا في الرحيل بصحبة فقيهين يحرسنا حتى حدود إقليم شندى . وهذا الطريق خطر وأهله لصوص ، ولكن خوف الفقهاء تغفل في قلوب القوم بحيث كان مجرد رؤية فقيهين يسيرون أعزلين على رأس القافلة كافياً لبعث الرهبة في نفوسهم . وكثيراً ما أقبلوا نحونا ليأتموا أيديهم ثم يمردوا أذراجهم . ولولا معونة هؤلاء الفقهاء لاقتضى عبور هذا الطريق قوة مسلحة ، وقد درجت القوافل القادمة من الجنوب على الوقوف بحدود شندى الشمالية حتى يصلها فقيه من الدامر ليحرسها .

وعلى الرغم من وجود دليلينا كان كلهم نهبا للوساوس والمخاوف ، ولصق بعضهم ببعض خشية أن يفتك اللصوص بالمتخلف منا بين الأحراج . وعلت بندقيتي في يدي ، وكنت أعلم أنها خليفة بأن روع عصاة بأمرها ، ولكنني كعادتي في أسفاري لم أر ضرورة لتعبثها . وأقبل على كبير التجار الدراويين ، ولما علم أن البندقية فارغة أمرني في صلف أن أعينها بمقدوف ولكنني أبيت . وعلى إثر ذلك نشب بيننا شجار حاد ، فسبني بأقذع الألفاظ ورماني بالجبن ، وزعم أنني غير جدير بحمل السلاح ، فأجبت « قد يكون هذا صحيحاً ، ولكنني على أى حال ألفت حمله ، أما أنتم فتجدون المصا أو المنجل ألين لأيديكم من السيف » . ووجد الرجل في

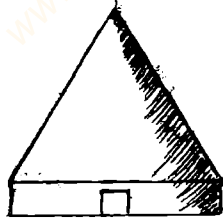
(م ١٤ - رحلات بروكهارت)

هذا الجواب ما يجرح كبريائه ، فأهوى على كتفى بضربة من عصاه كادت تصرعني ، وسدد إلى ثانية سددها بينديتي ، وطمعت بضربه بمؤخرها لولا أن أصحابنا حالوا بيننا وانزحوا السلاح من يدي . وقد اعتبطت بما فعلوا حين فكرت في الأمر ملياً ، فلو أنني ضربت الرجل لأصبته بجرح ولا استفحل الأمر . لذلك اكتفيت بقذفه بوابل من الشتائم تنفيساً لفضي ، وأنحى عليه الجميع باللائمة ، لا سيما العبادلة الذين جهروا بأنهم لن يسكتوا على أى إهانة توجه إلى بعد الآن . ولم أستطع أن أدون في هذه المرحلة ما درجت على تدوينه من مذكرات ضافية وافية ، وذلك لاشتباكي في هذه المشاجرة ولعدم إمكاني اعتزال الركب خشية أن يهاجمني اللصوص . وبعد أن بارحنا الدامر دخلنا حرجاً من شجر السلم ومضينا في طريق غير بعيد من الأرض الزراعية . وشهدنا على مقربة من النهر عدداً من القرى والقرى المنبثة بين أحراج الدوم ، ويسكن هذه القرى عرب المطارب ، وكانوا يخضعون لأمراء شندی ، ولكنهم استقلوا عنهم منذ زمن طويل ، وهم اليوم يعيشون من محصول أرضهم ومن السرقة . والحرب قاعة بينهم وبين جيرانهم أجمعين ، ويخشى هؤلاء الجيران بأسهم الشديد وما اشتهروا به من بسالة عظيمة ، ولا ينجو المسافرون من سطوهم ما لم يرافقهم فقيه أو أكثر من فقهاء الدامر .

وتركنا النيل بعد الدامر بست ساعات شاقين لنا طريقاً قصيراً عبر التلال ، فبلغنا هوابة بعد تسع ساعات ، وهذه القرية هي اليوم الحد الشمالي لإقليم سمرى . وتمتد حدود شندی قانوناً إلى نهر مقرر ، فتدخل في نطاقها الدامر ، ولكن فقهاء الدامر كما مربنا مستقلون . ونعمنا بأمنية بديمة بعد نهار شديد القيظ ، ومضينا جميعاً إلى النهر نسيج فيه ، وقد وجدت الحصى يكسو قاعة قرب الشاطئ . وكان مضربنا في ساحة مكشوفة وسط القرية ، وقيل لي إن القرية مأمونة ، فأخذت بمض المسابح لأفایض عليها بالخيز . وطوفت فيها دون أن ألقى توفيقاً ، حتى اتقني رجال فدعوني لبيتهم زاعمين أن نساءهم سيبتعن السابح . فضيت معهم حتى بلغنا زقاقاً ضيقاً مهجوراً ، وإذا هم ينقضون على ويختطفون مسابحي وعمامي ، ولما رأوني ما زلت أقاومهم

مع أننى كنت أعزل جردوا شيوخهم ، فما كان منى إلا أن أطلقت ساقى للريح ولحقت بأصحابى ، فلما رويت لهم ما حل بى ضحكوا منى وأشاروا على بأن أشكو أمرى إلى شيخ القرية وهو كفيل بالكشف عن اللصوص . ولقيت الشيخ آخر الليل فى مشرب من مشارب البوطة يحيط به جماعة من الشكارى ، ووصفت له اللصوص فلم يعض قليل حتى ردت إلى الساج والمامة . ثم ألح على الشيخ فى أن أحالته وأشار به ، فلما اعتذرت صحبى إلى قولى ، واضطرت آخر الأمر أن أنفجه بما يساوى ضعف ثمن السرقات . وقد سقت هذه الواقعة مثالا لما يتعرض له المسافر فى هذه الأنحاء من خطر السرقة إذا سار فيها وحيداً .

١٦ أبريل — بلغنا قرية قباني بعد مسيرة أربع ساعات من حوايه . ويبين القوم هنا قرام الكبيرة كما يبينها سكان المرتفعات فى عميد مصر ، أعنى على منحدر تلال الصخر غير بعيد من الأرض التى يزرعونها . ورأيت فى قباني بناء غريباً يقوم فوق ضريح أحد الأولياء ، والبناء مخروط منتظم يعلو نحو الثلاثين قدماً ، ويرتكز على قاعدة مربعة ارتفاعها خمس أقدام أو ست . وفيها باب منخفض .



والبناء كله من اللبن ، وقد وجدت بابه موصداً ، وقيل لى أنه لا يفتح إلا أيام الجمعة . وشكل البناء من بعيد كشكل الهرم بالضبط ، ولعل الإثيوبيين كانوا أول من استخدم هذه الأبنية قبوراً من قديم اليهود ، ولعلها الأصل فى مقابر منف العظيمة . ورأيت فى شندى بناء منها ولكنه أصغر حجماً ، وفيها خلا هذين لم أصادف لها مثيلاً على كثرة قبور الأولياء والمشايخ فى شتى القرى الكبيرة .

وسرنا من قباني على السهل الزراعى تارة وعلى التلال الرملية تارة أخرى . وأعرض ما يملأه السهل من التلال إلى النهر أربعة أميال . وكان القوم قد ضموا

محصولهم من أمد طويل ، ولكن سيقان الذرة كانت ما تزال تكسو السهل كله متفرقة فيه لا مزدحمة متقاربة كما ترى في مصر ، وهو دليل واضح على ما تلقى الزراعة هنا من إهمال شديد . وفي الحقول الكثير من أشجار النبق ، أما أطراف الصحراء فتكسوها أشجار العشر . ومررنا بعدد من الزلات في التلال القائمة إلى يسارنا ، وبعد مسيرة عشر ساعات جئنا قرية جبيل [أم علي] ليلاً ، فوجدناها قرية كبيرة جاثمة بين التلال ، وفيها عدد من المساجد الصغيرة والمباني الجيدة . ويحكمها قريب من أقارب ملك شندى الذى يمتد إقليمه إلى حواية . وحططنا في ساحة مكشوفة خلف القرية ، وبعد أن مضينا لنصيب حظنا من الراحة أيقظنا خدم فقيه القرية الكبير حاملين لنا من قبله عشاء طيباً . وفي أثناء سيرنا هذا النهار كنا نلقى كثيراً من المسافرين في الطريق ، وجاهمهم على ظهور الحمار ، كذلك التقينا بقافلة صغيرة قادمة من شندى قاصدة بربر . ورأيت سدوداً أثرية من الثرى لم ألمح فيها أثراً للحجر أو اللبن ، وقنوات كثيرة شقت لرى السهل ولكنها كادت تنفص بالتراب فلم يمد لها نفق . وتبدأ قرب جبل أم علي سلسلة من الجبال صخورها من الحجر الرملى ، وتمتد جنوباً محاذية للنهر .

١٧ أبريل — بعد أن غادرنا جبيل أم علي بساعتين مررنا في أثناء عبورنا الأرض الزراعية بتلال منخفضة من الأنقاض والآجر ، طول التل منها ثمانون خطوة تقريباً ، وتمتد بمرض الأرض الزراعية ميلاً على الأقل إلى الشرق ، وخيل إلى أنها تنحرف في نهايتها نحو الجنوب ، والآجر فجّ الصنعة لا يدانى ما يصنع منه اليوم في مصر . ويلوح أن هذه التلال كانت تستعمل سوراً وإن لم يبق منه آثار يكون منها الناظر رأياً فيه . وقد مررنا في شماله وجنوبه بأسس مبان متوسطة الحجم بنيت بالحجر النحوت ، وهذا كل ما رأيت من أطلال ، ولم أشهد — على قدر ما أسمعني بصرى — أثراً للحجارة مبمّرة بين تلال الأنقاض ، ولعلى كنت واصلاً إلى كشف أمتع من هذه لو أننى أنعمت النظر في المكان وأطلت فحسه ، ولكنى وأنا مقيد بالسير مع الركب — ما كنت لأستطيع الوقوف بأطلال لأفحصها ولو كانت عجائب طيبة . وجئنا قرية صغيرة تدعى دوا بعد مسيرة ثلاث ساعات ،

وعندها يزداد انحراف التلال شرقاً ، فتترك سهلاً عرضه لا يقل عن عشرة أميال .
والسهل يزخر بالنباتات البرية تحالطها كل ضروب السنط الشوكي ، وتنبت في
أرجائه الأكواخ والتزلات ، وهو منتجع العرب الجميلين ، تشرح فيه قطعانهم من
البقر والإبل والغنم . ولهؤلاء العرب بعض السواقى ويزرعون المقادير الكبيرة
من البصل يقدون بها سوق شندى ويصنعون أكواخهم من الحصر ، وقد طرقت
بعضها ولكنى لم أستطع أن أغفر من أهلها بقطرة من اللبن دون أن أؤدى الثمن
خزرة . وكانت الأعشاب البرية وأغصان السنط المتدلية تزحم الطريق وتمرقل سير
إبلتنا الحملة .

ومضينا ساعتين أو ثلاثاً وسط هذا الإقليم الخصب ، ثم دخلنا ثانية سهلاً
رملياً تكسوه أشجار السبال الضخمة ، فحططنا على ضفة النهر العالية ساعات
الظهيرة وسقينا الإبل . ومرت فوق رؤوسنا أسراب كبيرة من اللقالق ميممة شمالاً .
وطوينا هذا السهل الرملى بمد سبع ساعات من قيامنا فى الصباح ، ودخلنا بقعة
أقل منه اتساعاً تدعى بيوضة ، ولكنها فى خصوبة السهل السابق . وتشتمل بيوضة
على نزلات كثيرة بيوتها من غرفة واحدة تقى بجميع الأغراض . وهنا تقوم مصانع
الملح التى تفدى بهذه السلعة جميع هذه الأرجاء حتى بلوغك سنار ، ويجمع العرب
التربة أكواماً على جانب الطريق ، وهى فى هذه المنطقة وفى أميال حولها مشبعة
بالمح ، ثم يفصلون المح عن التربة بقلبيها فى قدور كبيرة من الفخار ، وينقلون الجزء
الملح مرة ثانية فى قدور أصغر ، ثم يقرصون المح المتخلف أقراصاً صغيرة مستديرة
تطرق القرص منها قدم وسمكه ثلاث بوصات ولونه أبيض ناصع ، وله مظهر المح
الصخرى ، ويباع اثنا عشر قرصاً من هذه الأقراص فى سلة ، وحولة الجمل أربع
سلال منها . والمح سلعة هامة فى تجارة شندى ، ويشترى تجار سنار المقادير
الكبيرة منه لأسواق الحبشة ، ويقايضون عليه بالذهب والقيق فى الجبال المحيطة برأس
الفيل . ومصانع المح هذه ملك لأمير شندى ، وكان على النارجين مررت بها عشرون
قديراً .

ووراء سهل بيوضة ، حيث يدخل الطريق مرة أخرى فى صحراء رملية جرداء ، تقوم

نحلة فازغة هي الوحيدة التي تراها في هذه البلاد ، ولا غزو فالنخل لا يزرع من دفلة إلى سنار . ويتهلل التجار لمراى هذه النحلة فهى بشرهم بختام موفق لرجلهم . وكان فى انتظارنا جماعة من أهل شندى جاءوا يحبون أصحابهم ويلقون على بضاعتهم نظرة . ولا يدخل التجار شندى نهاراً ، لذلك حط الركب حتى غربت الشمس ، ثم طودنا السير إلى المدينة هونا حتى بلغناها بعد مغادرتنا جبيل أم على بتسع ساعات تقريباً .

شندى من ١٧ أبريل إلى ١٧ مايو — نزلنا بيتاً فسيحاً لصديق من أصدقاء المبادلة ، وكان فى أطراف المدينة من ناحية الصحراء . إلا أن مك شندى أوفد إلينا فى الصباح عبداً ينبتنا بأنه يطلب البيت الجارية من جواربه الحبشيات ستطم بلقاح الجدرى ، وكان يريدنا أن نقضى فترة مرضها فى بيت منمزل خلوى متجدد الهواء . وأمر الملك بأن يمد لنا بيت آخر فى وسط البلدة ، ففضينا إليه فى الندى ، ووجدنا رب البيت غائباً ، ولكن امرأته احتفت بمقدمنا .

وسمى أكبر بلد فى شرق السودان بعد سنار وكوبى (بدارفور) ، ويقول التجار إنها أكبر من عاصمتى دفلة وكردفان . وتتألف من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها البعض الميادين العامة أو الأسواق ، وقوامها ثمانمائة بيت إلى ألف . وهى مبنية فوق السهل الرمل على نحو نصف ساعة من النهر ، وتشبه بيوتها بيوت بربر ، ولكنها أعمر منها بالمبانى الكبيرة وأقل منها خراف . ولا تكاد تجد لشوارعها نظاماً ، فالبيوت مبنية فوق السهل فى فوضى عجيبة ، ولم ألاحظ الآخر فى مبانها ، وتشتمل بيوت الملك وأقاربه على حيشان مساحة الحوش منها عشرون قدما مربعة تحيط بها أسوار عالية ، ويصدق هذا على سائر بيوت شندى . وعلى رأس الحكومة مك اسمه نمر ، وتنتمى أسرته للعشيرة التى تحكم سنار ، واسمها ودعجيب وهى من عشائر الفونج كما فهمت . وكان أبو نمر عربياً من قبيلة الجميلين ، ولكن أمه من عشيرة ودعجيب الجاكة ، ويبدو من هذا أن للنساء الحق فى وراثة العرش ، ويتفق هذا وقصة بروس الذى روى أنه وجد على عرش شندى امرأة تسمى ستينا . ومك شندى خاضع للملك سنار ، شأنه فى ذلك شأن ملك بربر ،

ولكنه في واقع الأمر مستقل كل الاستقلال إذا استثنيت ما يؤديه من إتاوة عند ارتقائه عرشه وما يرسل للملك ووزيره (*) من هدايا بين الحين والحين ، وهو مطلق التصرف في حكم إقليمه الذي يمتد مسيرة يومين إلى الجنوب .

وقد انصبت الحرب سنوات بين عمر وعرب الشايقية قبل أن يصل الممالك دققة ، فقتل الشايقية نفرًا من أقاربه وأغاروا مرات على أرضه وأملأه على ضفة النيل الغربية بفرق كبيرة من فرسانهم فتركوها خرابًا بيابا . ثم اصطلع حرب الشايقية معه ليفرغوا إلى قتال الممالك قتالا مجدياً ، فانقلب عليه أخوه الذي وكل إليه حكم الشاطئ الغربي وأشهر عليه الحرب ، واستمرت الحرب بينهما سجالات سنوات دون أن تنتهي بظفر أو هزيمة يؤبه بهما لأن النهر يقوم حداً بينهما فلا تستطيع عبوره من جيوشهما إلا شراذم صغيرة .

وحكومة شندى أقوى من حكومة بربر ، فملكها سلطة مطلقة لا أحد منها عصية الأسرة القوية التي لا هم لها في هذه البلاد إلا الإخلال بالنظام ، وهو لا يلجأ إلى ما يلجأ إليه ملك بربر من ابتزاز مال الفراء ابتزازاً يفزعهم من هذه البلدة ، ولعل الفضل في احتفاظه بهذه السلطة المطلقة راجع إلى تعدد القبائل العربية النازلة بشندى ، وإلى أنه ليس فيها قبيلة بلغت من القوة مبالغاً يتيح لها التصدى لقبيلة الملك ويطونها الكثيرة . وأكبر هذه القبائل السمراب والنافعير والجيلير ، وجاها مازال يحيا حياة البداوة . وطبقة التجار هي أجل طبقات الناس في شندى قدراً وأوفرها اعتباراً ، وبين هؤلاء كثير من التزلاء وفدوا عليها من سنار وكردفان ودارفور ودققة ، وأكثرهم نفرًا هم الدناقلة ، ويشغلون حياً كاملاً ولكنهم أقل هؤلاء التزلاء قدراً في عيون أهل شندى ، فهم ينعون عليهم شحهم ، وقد أصبح ولعهم بالمال مخرب الأمثال ، وزاد في تلويث سمعتهم اشتغالهم بالربا ، وهي تجارة تكاد تقتصر عليهم ، حتى إنك لو دعوت عربياً من أهل شندى بـ « الدنقلاوى » لمدّها منك إهانة لا تمتنفر ، فالدنقلاوى هنا كاليهودى في أوروبا .

(*) يقولون إن وزير سنار — وهو من أسرة عدلان — هو السيد المهين عليها . أما الملك فليس له من السلطة إلا ظاهراً .

وتزكو التجارة في شندى لأن الملك لا يبتز من التجار ضرائب ، وقد أكد
لى كثيرون أنه لا يجرو على هذا خشية أن يغضب وزير سنار . ولست أدرى مبلغ
ما فى هذا الزعم من صحة ، ولكن الواقع أن القوافل ممفاة من المكوس أيا كانت ،
ولا يقدم المسافرون للمك سوى هدية صغيرة ليسط عليهم مزيداً من حمايته الخاصة ،
ويضيفون إليها هدية أخرى لأحد إخوته ، وهو من وجوه المدينة . وقد أرسل
أصحابى العبادة الملك لغة صغيرة من الصابون والسكر أسهمت فيها بنصف ريال .
ولم أسمع بوجود وظائف أخرى أدنى من وظيفة الملك فى حكومة شندى ، ويبدو
أن ملكها قد جمع فى يده كل السلطات ، وأقرباؤه يحكمون القرى التابعة للإقليم ،
وقوام بلاطه ستة من الشرطة وكتاب وإمام وخازن وفرقة حرس جلها من
الرفيق . أما أخلاق أهل شندى فكأخلاق أهل بربر سواء بسواء . نعم إن الملك
يلزمهم بمض الحدود ، ولكن اللؤم والبنى لا يجدان رادعاً ، ولا غرو فهم يعلمون
أن القانون لا يملك إلا أن يحاول منع وقوع الجرائم ولكنه قلما يثزل بهم العقوبة
الرادة . وكثيراً ما يساق إلى الملك لصوص سطوا على الناس ليلا ، وسكارى
اعتدوا على الأغراب ، وسارقون ضبطوا فى الأسواق ، إلى غير هؤلاء من المجرمين ،
فيقتصر فى عقابهم على الحبس يومين أو ثلاثة ، وما سمعت قط أنه أمر بإعدام
مجرم منهم أو حتى جلده ، مع أن مثل هذه الجرائم كانت تقترب يومياً خلال مقامى
بشندى . وكان يؤذن لمقارفيها بالمودة إلى بيوتهم مطمئنين بعد أن يدفعوا غرامة
صغيرة للمك ورجاله . أما فى كردفان فمقاب السرقة الإعدام فيما سمعت .

وبيوت الليل ومشارب البوطة منتشرة هنا انتشارها فى بربر ، بل إن المشارب
أكثر انتشاراً . ولم تمر بى ليلة لم أسمع فيها أصوات السكارى يتصايحون بأغانهم
فى مجالس البوطة مع أن الحى الذى زلنا كان من أهدأ أحياء المدينة ، وهو حى
الدناقلة الذين يصممهم الحرص على المال من الانقاس فى اللهو وإدمان هذه الماصى .
وبينما كنت فى بربر أرى البغايا لا يختفين لم ألقاهن فى الطرقات بشندى إلا قليلا ،
وإن كنّ ، فيما يقال ، داخل البيوت يكدن يبلغن فى الكثرة أخواتهن فى بربر .
ولباس أهل شندى وعاداتهم وآدابهم لا تختلف عما وصفت فى غيرها من

البلاد التي مررت بها ، ويبدو أنها هي بعينها حتى بلوغك دارفور وسنار . وقد لاحظت أن نسبة المتأقين في لباسهم بشندى أكثر من نسبتهم ببربر ، كذلك كانت ثياب القوم أنظف . والذهب من السلع الكثيرة التداول في سوق شندى ، لذلك ترى بين نساءها من يلبس الأتراط في أنوفهن وآذانهن أكثر مما ترى بين نساء ببربر . والقوم هنا أيسر حالا ، ومن المألوف أن ترى الأسرة منهم تملك اثني عشر عبداً يخدمون في البيت وفي الحقل .

وأهل شندى كأهل ببربر رعاة وتجار وزراة . على أن القوم قلما يكثرثون للزراعة ، فهم يتركونها لزراة العرب المجاورين للمدينة . والأرض الزراعية القريبة من شندى ضيقة الزمام ، ولكن في شمالها وجنوبها بعض السهول الخصيبة . وسواقى الماء شائعة الاستعمال ، ومعظمها قائم على شطآن النهر العالية التي يمجز أعلى الفيضانات عن غمرها بالماء . وهي تتيح للزراة محصولاً سنوياً واحداً ، وفي إمكانهم أن يزرعوا محصولاً ثانياً وثالثاً كما يفعل أهل الصعيد في أراضيهم العالية التي قل أن يرق إليها ماء النهر ليغمرها بفيضانه ، ولكن في طبعهم من الكسل وفقر الهمة ما يقعد بهم عن بذل الجهد في رية ثانية أو ثالثة . والذرة أهم المحاصيل ، ويزرع القليل من الدخن والقمح ، فأما الدخن فيأكله التجار القادمون على شندى من الغرب ، وأما القمح فيسكاد يقتصر استهلاكه على الأمر الغنية . وتعرض السوق على الدوام المقادير الكبيرة من البصل ، وبعض الشطيطة المجلوبة من كردفان ، والبامية والحمص واللوخية والتمرس (*) وكأما أخضر أو مجفف . ويزرعون في موسم الفيضان شيئاً من البطيخ والخيار ، ولكن المزروع منهما لا يتجاوز حاجة حريم الملك .

وماشية شندى طيبة ، ويقول أهلها إنها تجود وتكثر كلما سعدت في النهر . ولم أر هنا من الحيوان الأليف ما لا يوجد مثله في مصر . وأول ما تلقى الفيلة في أبو هرار على مسيرة يومين أو ثلاثة شمال سنار ، ولم تر قط مجاوزة هذا الإقليم

(١) يستعمل دفاق التمرس في مصر بديلاً عن الصابون في غسل الرأس والجسم .

الذى تحده سلسلة من الجبال تقطع عرضاً في ست ساعات أو ثمان ، وهي سلسلة تمتد حتى تحديق بالنهر . وقد ذكروا الى أن النمر كثيراً ما ترى في الوديان الواقعة إلى الشرق من شندى ، أما الزراف فيعيش في جبال الزنبر ، وهو إقليم يقع في اتجاه عطبرة على ست مراحل أو ثمان من شندى جنوباً بشرق ، ويصيده عرب الشكرية والكواهلة ، وينشدون منه جلده الذى تصنع منه أمتن أنواع للدق . ورأيت كثيراً من التياكل الجبلية جلبت إلى سوق شندى ، وكانت من أوفر ما رأيت جماً ، ولها قرون طوال تثنى حتى تبلغ منتصف ظهورها ، ويطرى القوم لحما اللبذ إطراء شديداً . ويطلقون على التيتل هنا اسم الأريل ، وهو اسم يطلق على الطي الأخرى سوريا ، أما فى صعيد مصر فاسمه التيتل ، وفى سوريا البدن ، ويقتنصه البدو الجمليون فى غلاف على نحو ما يقتنصون النعام . والنعام كثير الذبوع أيضاً فى هذه الأرجاء ، على أن ريشه لا يبلغ فى الجودة مبلغ ريش نعام الصحارى القريبة . وأعلى الريش فى مصر ما جلب من كردفان ودارفور ، وتجلبه قوافل دارفور إلى أسبوط . ويحب فلاحو الجمليين ريش النعام إلى السوق حزمًا مختلط فيها الطيب بالردى ، ويقايضون عليه بالذرة . وكان ثمنه يوم كنت بشندى عشر ثمنه بالقاهرة التى كانت تباع فيها أجود أنواعه بسعر مائتين وثمانين قرشاً للرطل . وقد أدخل الباشا مؤخراً ريش النعام ضمن السلع التى يحتكر تجارتها .

وفرس البحر أو البرنيق قليل فى شندى وإن ظهر فيها حيناً بحد حين . واتفق وجود فرس فى النيل قرب بيوضة خلال مقامى بشندى ، وكان يغير على الجقول غارات مدمرة . ولم يكن يظهر فوق الماء نهراً ، فإذا هبط الليل خرج إلى البر وأتلف بأرجله الضخمة من الزرع ما أتلف ، وأتلف منه بنهم ما وسعه أن يلتهم . ولا يعرف القوم وسيلة لقتل هذه الأفراس . أما فى سنار حيث يكثّر عدها ، فيقتنصها الأهالى فى حفر يخفونها بالغاب فتسقط فيها الأفراس أثناء طوافها ليلاً . ويجمع القوم على أن الرصاص لا يصيرها إلا إذا أصابها فى مقتل ، ومقتلها فوق الأذن . وتصنع السياط أو الكرابيج المأخوذة من جلدها فى سنار ، فإذا صادوا فرساً منها قطعوا على النيل جلده سيوراً دقيقة ، طولها خمس أقدام أو ست ، مستدقة

الأطراف ، ثم يطوى كل سبر منها بحيث يلتصق طرفاه ويكونان أنبوبة تربط رباطاً وثيقاً وتترك في الشمس لتجف . ولا بد من ذلك هذه الكرايبج باليمن أو الشحم لتصبح لدنة طيبة . وتباع في شندى بسمراثنى عشر كرابجاً أو ستة عشر لاربال الإيباني . أما في مصر ، حيث يكثر استعمالها وحيث يبعث صرأها الفزع في أفئدة الخدم والفلاحين ، فثمن الواحد منها من نصف ربال إلى ربال . وهي في الأجواء الباردة - حتى جو سوريا - تصبح قسمة وتتشقق وتفقد لدونها .

وتكثر التماسيح حول شندى ، وقد لحظت على وجه الميوم أن هذا الحيوان يلزم من النيل مناطق خاصة قل أن يجلو عنها . فهو قد اختفى مثلاً من دلتا النيل اختفاء تاماً مع أنه لا يوجد عائق معقول يعوقه عن الانحدار إليها مع النهر ، أما في الصيف فآثر البقاع عنده اليوم إخم وندرة وأرمنت وأدفو ، وقل أن تراه فيما بين هذه البلاد . كذلك شأنه في بلاد النوبة حول دنقلة . وفي بربر لا يخفى أحد أن يلقى في النهر تمساحاً ، وكثيراً ما سيجنا فيه هناك وأوغلتنا إلى وسطه ، أما في شندى فالتماسيح تلقى الرعب في قلوب الناس ، فالمرب والعبيد والنسوة الذين يقصدون شاطئ النهر القريب من المدينة صباح مساء ليفسوا ملايهم يجب ألا تغفل لهم عين ، أما السباحون منهم في مياه النهر فيحذرون التوغل فيها . وقد شهدت غير مرة ظهور التماسيح على القوم ورأيت مبلغ ما يلقيه مرآه من هلع في قلوبهم فيرتدون جميعاً إلى البر في لمح البصر . وفي أثناء مكثي بشندى اقتنص التماسيح رجلاً أشاروا عليه بالسباحة في النهر بعد إبلاله من الجدرى ففتك به . وكثيراً ما يؤتى إلى سوق سنار بالتماسيح فيباع لحماً فيها . وقد ذقت هذا اللحم مرة بإسنا ، ولونه أبيض مريد لا يختلف عن لون لحم العجل ، وفي رائحته أثر من رائحة السمك . وقد صاد هذا التماسيح بمضي الصيادين بشبكة قوية ، وكان طوله يزيد على اثنتي عشرة قدماً . وأمر حاكم إسنا فجئ به إلى فناء داره ، وأطلقت عليه أكثر من مائة رصاصة دون أن تصيب منه مقتلاً ، وأخيراً طرحوه على ظهره وأفرغوا مروداً صغيراً من الرصاص في بطنه ، وهو أرق جلداً من ظهره . وقل أن يصطاد حرب شندى السمك ، ويبدو أنهم لا يعرفون الشباك ، ولكن أطفالهم يتلهون بصيد السمك بالسناير .

ومحصول حقول شندى وما جاورها لا يسد حاجة أهلها التى تزايد لو فود القوافل عليها وفوداً لا ينقطع . فتستورد الذرة من أبو حراز على الأخص ، وهى فى الطريق إلى سنار . وقد وصلت منها فى أثناء مكثى بشندى قافلة تحمل الذرة قوامها أكثر من ثلاثمائة جمل ، وكان ثمن الذرة يوم وصولنا ريالاً لكل اثنى عشر مكيالاً فهبط إلى ريال للعشرين . ويتقلب ثمن الذرة كل يوم تقريباً إذ تتأثر السوق بوصول كل قافلة من قوافل التجار الذين يتتبعون منها المقادير الكبيرة طامعاً للربح وعليقاً للابل . كذلك يحتكر الملك تجارة الغلال ما وسعه الاحتكار ، ويقال إن الذرة موفورة جداً فى أبو حراز وسنار ، فالأربعمون مكيالاً تباع بريال ، وهى فى شكلها وحجمها شبيهة بذرة شندى والصعيد ، ولكنها غبراء اللون ، وغذاؤها فى يروون أقل ، لذلك فهى أرخص بطبيعة الحال .

والخيل فى شندى أوفر منها فى بربر ، ويقولون إن فى وسع الملك أن يحشد فى شندى نفسها من مائتى فارس إلى ثلاثمائة . ويؤثر بدو الجميلين ركوب الأفراس على ركوب الفحول كمادة العرب الشرقيين ، أما سكان شندى فيؤثرون ركوب الفحول . ورأيت عند أخى الملك — وهو الراس سعد الدين — جواداً اشتراه من الجنوب بثلاثة عشر عبداً ، وهو أجمل ما رأيت من الخيل . وقد احتشد فرسان شندى عن بكرة أبيهم فى يوم مهرجان أقامه الملك نمر بمناسبة ختان ولده ، وطافوا المدينة مع أسرة الملك وحياضهم تنب وتخطر ، ولكنى لم أرى فيهم شيئاً من المهارة ، ولم يحاول أحدهم ضرباً من تلك الألعاب التى اشتهر بها فرسان الماليك ، وكل ما فعلوه هو الوثب أماماً وخلفاً ، ولم ألحظ بينهم فارساً مقدماً جسوراً . ومع ذلك فهؤلاء الفرسان هم عماد الملك ، وعليهم المدار فى جميع المعارك التى يكره على أن يخوضها مع أعدائه . وتشبه سروج الخيل ولجها ومهاميزها — التى لا يضمنون فيها غير كبرى أصابع القدم — نظائرهما عند أهل بربر وعند عرب الشايقية الذين يشتهرون بالفروسية فى هذه البلاد اشتهار الماليك بها فى تركيا فيما مضى . ويقتنى نمر زهاء اثنتى عشرة بندقية اشتراها أو أخذها من التجار المصريين ، وهو يسلح بها عبيده المقرين إليه ، ولكن قل منهم من تتوافر له الشجاعة الكافية لإطلاق النار ، وليس منهم من

يجرؤ على تسديد بندقيته بسندها إلى كتفه . على أن مرأى البندقية يكنى عادة لإرهاب العدو ، وهذا هو المطلوب ، ففاية ما يرجوه الفريقان المتناوشان أن تنتهى المركة دون أن يراق من الدم إلا أقله ، ولاغرو فإن لناموس الثأرين هؤلاء العرب سلطانا عظيما . وقد مرا بعض بنادق الملك نمر من التكسر أو الصدا ما أتلفها ، ولكنهم لم يجدوا من يقوم بتنظيفها وإصلاحها . فلما رأوني مرة أنظف بندقيتي حسبوني على دراية بهذه الصناعة ، واقترحوا على جادين أن ألتحق بخدمة الملك صانعا لأسلحته ، وعرض على الملك عبداً وجاريتين وما شئت من ذرة لإطعامهم ، ولم أستطع أن أقنع رسله بمجمل هذه الصناعة إلا بشق النفس . وعلى المسافرين فى هذه الأقطار أن يتجنبوا الإعلان عن درايتهم ولو بأتفة الأشياء التى قد يفيد منها الملوك أو يستمتعون بها ، وإلا أكرههم على خدمتهم . ولما يئس الملك من حلى على البقاء أراد على الأقل أن يستولى على بندقيتي ، فأرسل فى طلبها وحجزها عنده أياما ، وألححت أنا فى طلب ردها ، فبعث إلى بأربعة ريات إسبانية ، وأمر عبيده أن يقدموا إلى من مطبخه الخاص عدة صحاف من الخبز واللحم . ولما شكوت إلى بعض القوم هذه المعاملة أجابوا أننى قد صرت صديق الملك بمدان أكلت خبزه ، فعار على إذن أن أضع المراقيل فى سبيل حصوله على بندقيتي . أما أنا فقد كان أسنى عليها شديدا لا سيما حين جال بخاطرى ما أنوى ارتياده من أقطار . ولكن أربعة ريات لرجل فى ظروف لم تكن بالمبلغ الهين . ولما يئست آخر الأمر من استرداد البندقية أو الحصول على نمن أهلى ، قبلت الريات الأربعة التى عرضها الملك مردداً له عبارات الشكر والحمد .

وقد يدهش القارىء أن يرى الأسلحة النارية عزيزة نادرة فى هذه البلاد برغم سهولة استيرادها . ولكن الواقع أن التجار يخشون حملها لثلا يثيروا جشع الملوك ، وليس من المعقول أن يستطيع التجار عرضها فى الأسواق كغيرها من السلع أو أن يستطيع الراغبون شراءها بأسعار ثابتة إلا إذا كثر عددها . ويروع منظر البندقية الرقيقين الذين يلمون أحيانا بالمدن التى يفد عليها التجار ، وهى كفيلة بحمل عشرات منهم على الفرار . وأذكر أن عرييأمن الجمعين كان يحمل ريش نعام يئتنى

بيمه أتى الزل الذي نزلت ليبيع بضاعته لأصحابي ، فإ إن لح بندقيتي قائمة في ركن
الحجرة حتى هب واقفاً وطلب إليهم أن يخرجوها خارجاً لأنه يكره أن يظل قريباً
من هذا السلاح الفتاك .

وقد روى ميموث باشا مصر إلى سنار بعد عودته منها أن الملك عرض مرة
فرقة من الفرسان أمامه ، فطلب إليه الميموث أن يأذن له بعرض شيء من تمرينات
الدفعية التركية لأنه كان قد صحب معه مدفعين صغيرين محمولين على جملين ، وثلاثة
جنود . وما إن بدأوا يطلقون النار حتى فر معظم الأهالي ، وسقط كثيرون على
الأرض مستغيثين . ولم أصادف في هذه البلاد رجلاً جرؤ على مسّ بندقيتي إلا
إذا كان قد زار مصر أو بلاد العرب من قبل ، وكثيراً ما كان يلجأ فتيان القافلة
حين يريدون التخلص من الزوار المشاغبيين إلى بندقيتي بمسكون بها ويهددون
بإطلاقها عليهم . فإذا كان هذا حال القوم في هذا الإقليم الوثيق الصلة بالأملاك
العثمانية ، فما بالك بما ييمته مرأى الأسلحة النارية من دهشة وهلع في قلوب سكان
مجاهل القارة الذين لم تقع عيونهم على شيء منها ، بل لعلمهم لم يسمعوا بنبيها قط .
وهذا سبب من الأسباب التي تحملني على الاعتقاد بأن فرقة صغيرة من الجند
الأوربيين كفيلة بأن تشق لها طريقاً في هذه البلاد دون أن تلقى مقاومة إذا
تذرعت بالحكمة والصبر . وأحسب أن ثلاثمائة رجل مثلاً ، ممن مروا على احتمال
الناخ المدارى ، يستطيعون أن يوغلوا في شرق إفريقيا ، ولن تعرض طريقهم
عقبات قوية يؤهبها من أسوان إلى سنار . وإذا كان مائتان وخمسون من صعاليك
الماليك قد فتحو دنفلة وفرضوا عليها سلطانهم برغم مقاومة الدناقلة والشايقية
مجتَمعين ، فخليق بقوة مدربة من الأوربيين ألا تخشى بأس هؤلاء الإفريقيين
وهم على خالهم من تشدت وانقسام إلى إمارات صغيرة لا رابطة بينها ولا اتحاد .
أما ما تلقاه الحملة من عناء السير والحرمان وتقلبات الجو فذلك أمر يستعان عليه
بالصبر والتدبر ، وسبيل ذلك التزام ضفاف الأنهار - ولن يمدموا فيها الزاد
أو الإبل - ثم تخير المواطن الصحية العالية لقضاء الفصل المطير فيها ، وهو فصل
يخلو على أي حال من تلك الأضرار الويلة التي تحيق بالمسافرين في الأقطار البرية
من إفريقيا .

أما الذين يحاولون ارتياد نجاهل القارة وعدم والتغلغل في أقاليم لا يطرقتها
التجار الشماليون فأخشى أن يروحوا ضحية حماستهم وطموحهم النبيل . وإذا قدر
للمتابع البحر الأبيض [النيل الأبيض] أن تكشف ، فلن يقوم بهذا الكشف
إلا قوة مسلحة . ولقد سبقت انجلترا سائر الأمم الأوروبية فيما قامت به من
رحلات كشفية وما أوفدت من بعوث لارتياح الأقطار النائية ، ولا ينقصها اليوم
الإسحلة موفقة إلى مجاهل إفريقيا ليصبح تفوقها في هذا المضمار تاماً .

ولشئى سوق يومية وأخرى أسبوعية كبيرة يؤمها جميع العرب المحيطون
بها . والعملة المتداولة فيها هي عملة بربر ، أعنى الذرة والدمور . أما العبيد والجمال
فتشترى بالريالات ، وقد يقايضون على فرق من العبيد كاملة بمضاعة مصرية
أو سوا كنية . ولا يتداول القوم من الريالات إلا ما ضرب في إسبانيا ، ويسمونه
« أبو مدفع » على زعم أن ما يظهره صورة مدفع أو « أبو عمود » نسبة للأعمدة
التي عليه ، ولا يميزون من هذه الريالات الإسبانية إلا ما يحمل منها اسم كارلوس
الرابع ، ويسمونه « ريال أبو أربع » ولن يساوى الريال في نظرم قيمته الكاملة
إلا إذا كانت هذه الخطوط الأربعة واضحة عليه . أما الريال الذى يحمل اسم
كارلوس الثالث فهو في زعمهم أقل قيمة ما دامت خطوطه ثلاثة لا أربعة ،
ذلك فهو عندهم أقل من قيمته الحقيقية بالسدس . كذلك يفقد الريال الذى يحمل
اسم فرديناند تلك قيمته عندهم . أما الريالات النمساوية فلا سوق لها هنا . وقد
وجدت في أثناء مقامى بشندى حداداً يشتغل خفية بإضافة رقم I إلى ريالات كارلوس
الثالث ، وكان ربحه من وراء ذلك مكيا لين من الذرة للريال . ويقال إن البدو هم
أول من فرق بين أرقام الريالات على هذا النحو . على أن التفريق لا يسبب مضايقة
تذكر لأنه غير معروف في أوساط التجار . ولا يتداول القوم العملة الذهبية هنا ،
ولكنك تستطيع أن تحصل في أى وقت شئت على كتل صغيرة ، أو أقراط ،
من الذهب الخالص بسم السوق من تجار سنار . ولم أر في سياحى تاجراً يحمل
تبراً . وذات مرة أرسل المالك أحد خدمهم إلى شندى بمجنهات بندقية وتركية لبقايش
عليها بريالات ، فاشترى منه المصريون بنصف قيمتها ، ثم أسفوا حين ذكروا أنه كان

أجدى عليهم أن يشتروا بريالاتهم بضاعة يبيعونها في مصر بريح يربى على ٥٠٪ .
وتنصب سوق شندى على ساحة فسيحة مكشوفة بين الحيين الرئيسيين .
وفيها ثلاثة صفوف من التاجر الصغيرة المبنية باللبن صفّاً خلف صف على هيئة
السكرى ، وطول كل منها ست أقدام وعرضها أربع ، وهي منقطعة بالحصر ،
ويشغلها أغنياء التجار ، فيحمل كل تاجر بضاعته في الصباح إلى متجره ويمود
بها في المساء إلى بيته ، وذلك لأن هذه التاجر لأبواب لها تغلق لتصون ما بداخلها .
أما غير هؤلاء فيفترشون الأرض تحت مظال من الحصر تسندها ثلاثة أعمدة
طوال ، ويوجهون هذه المظال أى جهة شاءوا درءاً للشمس وطلباً للظل الكافى
للبيع وزبائنه سبحانه النهار . ومثل هذه المظال شائع في الحجاز ، أما السلع التى
يعرضونها في السوق اليومية فإليك بيانها :

للحم . تذبح الأبقار والإبل يومياً لتموين السوق ، أما الضأن فنادر .
ولم أسمع بأن القوم يخصصون ما يمدون للذبح من حيوان . وبيع فريق من التجار
الشحم فيفسلونه وينظفونه ليصبح دهاناً صالحاً للشعر والجلد . وإلى جوار محال
الجزارة تباع قطع الدهن المشوى ، وهي وقليل من البوظة غذاء بدو الصحراء إذا
قدموا المدينة . أما اللحم فلا يوزن ، إنما يباع أنصبة وزن كل منها رطلان
أو ثلاثة . ويفلب الأتجد الموازين إلا في بيوت التجار ، أما في السوق فاعتمادهم
على قطع من الحجر تتيح لهم فرصة الغش . والرطل الذى يستعملونه مساو للرطل
المستعمل في القاهرة .

اللبن . تحمل فتيات البدو في الصباح اللبن حليماً وحامضاً ويقابضن عليه بالذرة ،
ومعهن قصاع صغيرة من الخشب علأ المشتري إحداها ذرة ويأخذ نظيرها ثلاثة مكابيل من
اللبن كذلك تباع هؤلاء الفتيات الذرة والتمس (*) السلوقين ، وكلاهما فطور محبب
إلى القوم ، ويسمونه البليلة . أما الخبز فلا يباع في السوق ، ولكن في المدينة

(*) له يقصد اللحم (المترجم) .

كثيراً من النسوة يسكنن أكواخاً تخفية في شتى أحيائها ، وهن على استمداد لطحن الذرة وخبزها على الفور لقاء أجر زهيد . ومن عادات القوم الراسخة ألا يأكل أحدكم في السوق أو على ملأ من الناس ، بل ليس من حسن الأدب عندهم أن يرى الرجل يلوك طعاماً بعد خروجه من عتبة بيته « وعله هذا ما وقر في ذهن القوم من أن الأكل قد يتطلع إليه إنسان جائع فيجسده على اللقمة التي يأكلها ، وهم يقولون « الطعام المحسود مافيه ركة » . ولهذا السبب عينه تجد أحقر الفلاحين من المشاركة لا يتناول غذاءه من الخبز والبصل إلا بعد البسلة ودعوة كل عابر ليشاركه طعامه ، وهو يحسبه فضلاً منك أن تشاركه لقمة من رغيته ، وإهانة أن ترفض دعوته صامتاً ، فهو ينتظر منك على الأقل إذا لم تشأ أن تشاركه طعامه ، أن تقول له « هنياً » جرياً على عادة أهل البلاد . أما في تركيا فهذه العادة غير مرعية ، والناس هناك يأكلون في الأسواق وأمام بيوتهم . وكثيراً ما كنت أشتري اللبن من سوق شندی في الصباح الباكر ثم أخلو إلى نفسي في كوخ مجاور لأشربه ، ولكن هذا كان يكافئ حفنة من الذرة أنفخ بها صاحبة الكوخ لقاء إذنها لي بدخول كوخها .

التبغ . إن تجار التجزئة الذين يبيعون التبغ منبثون في جميع أنحاء السوق . ويدمن القوم التدخين عند تذوقهم التبغ ويمدونه رقاً . على أن شغفهم به لا يتخلطه صفاة أهل بربر الذين يأخذون قصبتك من بين شفقتك ليدخنوها . أما الفقراء فلا يدخنون قط . وأجود أنواع التبغ ما يستورد من سنار ، واسمه التابه ، وإذا جف استحال لونه أخضر داكناً ، وشابه التبغ المزروع في جبال البطراء مذاقاً وشكلاً . كذلك تستورد من سنار قصبات التدخين والمباسم من الفخار . ويعزج الكثيرون النطرون بالتبغ قبل أن يعضنوه . أما السموط أو الشوق فشائع الاستعمال ، ويصنعه من سحق التبغ دقيقاً وخلطه بثلك مقداره نظرونا . وعاب الشوق هي جوزات هند صغيرة مجلوبة من سنار ، أو قرعات صغيرة جداً . وهم كأهل الحجاز يضمنون الشوق على ظفر إبهامهم لابين السبابة والإبهام . ويحمل تجار سواكن الجمال الكبيرة تبعاً لبيعوه في أسواق جدة واليمن . ولأهل هذه البلاد عادة في التدخين لا تجدها (م - ١٥ رحلات بوركيارت)

عند العرب والأتراك ، فهم يمسقون بعد كل نفس يشدونه ، ويقولون إن من لا يفعل هذا لا يستطيع أن يكون شرب بوظة مغواراً ، ويبخون البصاق من بين أنفائهم ، وهي عادة ما كنت لأحفل بذكرها في هذه المناسبة لولا أنني لم أجد لها نظيراً عند سائر من لقيت من المدخنين المسلمين .

كذلك يبيع تجار التبغ النطرون المجلوب من كردفان ، وتستورده هذه من دارفور . ويبيعون الملح المجلوب من مناجم بيوضة ، ولكن هذا الصنف من الملح غال ، لذلك يستمض عنه الأهالي الفقراء بماء ملح يحصلون عليه من كتل من التربة الملحية الضاربة إلى الحمرة يذيبونها في ماء ساخن ، ويشربون هذه الكتلة المرة الكريهة المذاق من بدو الصحراء الشرقية ، ولعلها تحتوي على المغرة والشب . ويبيع فقراء التجار البامية المحففة والشطة والبصل واللوخية .

وتلقى البقالات والمطارات في هذه السوق أعظم إقبال ، وفي وسعك أن تجد منها ستة محال مفتوحة في أى وقت من أوقات النهار ، وهي تباع القرنفل والفلفل والجهان والتمر الهندي (ويسمونه المرديب) المجلوب أقراصاً صغيرة من كردفان . ويجهز المرديب بتمر يرض له وجهه للشمس إلى أن يوشك على التعفن ، ثم يمجنان أقراصاً . وأجود أنواعه ينمو في غرب دارفور وشمالها الغربي فيما بينها وبين دار صليح ، ولكنه موفور أيضاً في الأنحاء المجاورة لكردفان . ويذبح أهل شندى هذه الأفراس في الماء الساخن ويتخذون منها شراباً منعشاً . وتحمل الجمال الكثيرة بهذا التمر اللذيذ وتجلب لمصر ، ويسمونه في القاهرة التمر الهندي لأن بعضه يجلب إليها من جزر الهند الشرقية . وقد رأيت الكثير منه مع الهنود في جده ، ويسمى هناك الحمر ، ولكنه صنف أرخص لأنه فرط لا أفراس ، ونوعه أقل جودة . وينمو التمر الهندي في مكة (*) وبعض أرجاء الحجاز .

فصب الصنم . تجلب من الهند المقادير الكثيرة من هذا الخشب ، ويدخل في تركيب الطيب الذي يدلكون به بشرتهم ، وإذا كان عندهم مريض عطرت

(*) يقول ناشر الكتاب إنه رأى هذه الشجرة في جزيرة الفنتين .

غرفته بأريج هذا الخشب بعد إلقاء قطع منه على الحجر . ويباع قطعاً طول الواحدة منها ست بوصات . ويصدّر الكثير منه إلى سنار .

الحلينة . وتجلب من مصر ، ويصفها الأطباء هنا مقوياً لمرضاهم .

اللنان . وهو نوع من الصمغ يجمعه البدو ساكنو الصحارى بين كردفان

والسلك على طريق سنار . ويقال إنه يفرز من ساق شجرة على نحو ما يفرز الصمغ العربي . ويباع أقراصاً صغيرة رقيقة ، ولونه أغبر ، وهو قصم نفاذ الرائحة . ويستعمله الريفيون عطراً ولكنه غالى الثمن . ويلقى رواجاً عظيماً بين أهل التاكة وكافة القبائل النازلة بين النيل والبحر الأحمر . ويصدّر إلى سواكن ، ويتلقاه تجار القاهرة من جدة ، ويمتبر في القاهرة كالبخور . وهو صنفان ، أحدهما أخشن من الآخر ، ويجلب لجدة من السواحل كذلك ، وموقعها على ساحل إفريقية الشرقى وراء رأس غردفوى ، ومن بلاد الحبشة بطريق مصوع ، ولكن الصنف الحبشى ردىء .

الصمغ العربى . وتباع المقادير الصغيرة من هذا الصمغ في سوق شندى ، ولكنك تستطيع أن تحصل على أحمال منه من تجار سنار أو كردفان . وأغلى أسنانه — وهو الأبيض الناصع — يجلب من كردفان من الأقاليم التى يسكنها بدو فاضل . وقد قلت أهمية تجارة الصمغ التى تسلك هذا الطريق مؤخراً لأنها لا تنقل من الربح ما تغله تجارة الرقيق والإبل ، ولكن قوافل دارفور لا تزال تجلبه . على أنه أصبح اليوم في مصر نادراً غالى الثمن ، لذلك يحتمل أن يستأنف استيراد المقادير الكبيرة منه .

السُّم . يجلب السُّم من دارفور ، وحبائه صغيرة كحبات المدس الدقيقة حجماً وشكلاً ، ولونه حالك السواد لامع . ويسحق السُّم وتذلك به الجفون للاستدواء من أمراض العيون . وتنقل قوافل دارفور المقادير الكبيرة منه إلى مصر حيث الإقبال عليه أشد منه في الأقطار الجنوبية ، ففي مصر تستعمله كافة الطبقات واثقياً للعيون

أكثر منه علاجاً للرمد : ولست أشك في أنه ملطف مبرد للعين ، ولم يصل إلى علمي أن شيئاً منه يصدر من مصر .

الكحل . تباع مقادير كبيرة من الكحل لشتى الناس من مختلف أنحاء البلاد لتكحيل الجفون . وفي الريف يمكن أن تقايض بقطع الكحل الصغيرة بدل العملة ، فتنساء الفلاحين لا يترددون في المقايضة عليه بما يستغنون عنه من متاع البيت أو محتوياته .

وتمت عقارب دعى القرفة (*) أى اللحاء مجلبه التجار القادمون من الأقطار الغربية ، وهو قشور صفراء سمكة ذات نسيج ليفي ، ولا بد أنها مأخوذة من شجيرة أو من أغصان شجرة صغار لأن قطرها بوصة واحدة . ومغلي القرفة يستعمل قابضاً في حالات الحمى والدوسنتاريا ، وطعمه شديد المرارة . وقيل لى إن الشجيرة التي يؤخذ منها هذا اللحاء تنمو أيضاً في إقليم الشكزية على الجبال في الطريق إلى الحبشة .

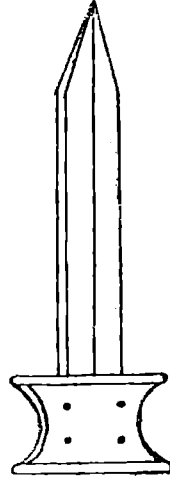
وقد جمعت من هذه المخاضيل والمواد عينات فقدتها للأسف بسبب إهمال رفاقي في الرحلة من سواكن إلى جدة ، وكان من بينها ثمار من فاكهة تسمى اللولوب جلبت من سنار وكردفان ، وهي في حجم بيضة الحمامة حين تكون جافة ولونها أصفر داكن ، ولها نواة كبيرة تحيط بها مادة لحمية رقيقة فيها حرافة لطيفة . ويأكلها القوم ويلتذونها كأطيب الفاكهة ، ويعتقدون أنها دواء لانتفاخ الأمعاء الذي يشكو منه الكثير منهم . ولها اسم آخر هو « تمر البر » أى تمر السودان . وهي ثمرة شجرة كبيرة فيما يقال ، ولأهل كردفان ولع شديد بها . وقد رأيت في القاهرة عينة من فاكهة تدعى الزقوم مجلوبة من سهول الرملة بفلسطين ، وقد خيل إلى أنها اللولوب بعينه .

ويؤم شندى يوم الجمعة والسبت — وهما موعد السوق الكبيرة — آلاف الناس من بلاد تبعد عنها أياماً ثلاثة أو أربعة ، وجاههم يحلب الماشية ليبيها .

(*) يطلقون هذا الاسم أيضاً على ال Cinnamon ، ويسمون بها القرفة الهندى .

ويلوح لي - بمد أن تأملت سحن رواد السوق - أن هؤلاء العرب جميعهم من سلالة واحدة ، إلا أن البدو الجميلين الخالص القادمين من الصحراء الشرقية أكثر بياضا من سكان ضفاف النيل ، ولعل ذلك راجع إلى تحاشيهم الاختلاط بالزنجيات أو اتخاذ التحليلات منهم ، وقد أدهشتني قسما الكثيرين من هؤلاء الجميلين ، فقد كانت شبيهة كل الشبه بقسمات بدو شرقى شبه جزيرة العرب ، ويزيدون عليهم قصر لحام وخفة شعرها . ورأيت في السوق أفراداً من قبيلة للجميلين تسكن الحدود الجنوبية للشكرية ، وكانوا يلبسون قبعات مصنوعة من القش ، عالية مدببة عريضة الحواف مربوطة برباط من الجلد تحت الذقن ، ويرتديها الرجال منهم والنساء على السواء .

وكان المروض ، البيع في يوم السوق الكبيرة زهاء خمسمائة جل ، ومثلها من البقر ، ومائة حمار ، وعشرين أو ثلاثين حصاناً . ويتخذ كل تاجر مكانه في أحد المتاجر المفتوحة أو في ساحة السوق ويمرض على المشتريين بعض بضاعته ، ولاغربة في هذا فإن أغنى تجارهم لا يألفون من الاتجار بأصغر السلع قيمة . ويؤلف التجار المصريون والسواكنيون والسناريون والكردفانون حلقات منفصلة يمرضون في وسطها هدداً كبيراً من الرقيق للبيع . ويجلب الريفيون للسوق الحصر والسلال وجلود الثيران وغيرها ، والفخار الخشن الصناعة ، ورجال الإبل ، والقصاع الخشبية ، إلى غير ذلك من مصنوعاتهم الوطنية . ويشتغل بالسوق نحو اثني عشر صانعاً من صانعي الأحذية أو على الأصح القادمين من الريف ، وفي وسع الصانع منهم أن يصنع لك زوجاً منها في ظرف ساعة . وأشغال الجلد بديمة الصنع ، وبدبغ الجلد بالقرص ، وهو ثمر السنط . ويقال إن البدو القيمين حول سفار أمهر الدباغين كافة ، كذلك يبيعون في السوق الجربان (جمع جراب) ، ويحمل فيها شتى المتاع والبضاعة فيما خلا الذرة والصمغ العربي والملح ؛ فهذا كله يحمل في المقاطف . ويؤم شندى الحدادون القادمون من الريف ، ويصنعون ويبيعون المدى الصغيرة التي يحملها القوم ، وطول المدى منها نحو ثمانى بوصات ، وتحمل في فم من الجلد مشدود إلى المرفق الأيسر ، ولها حدان كدوى البراة



وتكتظ السوق بروّادها ويشتد فيها القيظ ويشور الغبار وقت الظهيرة — وهي أحب أوقات البيع والشراء عندهم — حتى إنني كنت أعجز عن البقاء فيها ساعات متصلة ، وكنت أكل أحد رفاقي بما أحمل من بضاعة قليلة . وينبث في أرجاء السوق فلاحون جلسوا بجوار المساء يبيعون منه للظماء من روّاده ، وسعر الماء حفنة من الذرة لشربة شخصين ، ومن الفقراء من يحمل في فناء داره سييلا للماء يشرب منه من شاء مجاناً ، ومنهم من يلحق بيئته زاوية لأن البلد يخلو من المساجد .

ولم أر في شندى من مهرة الصنائع سوى الحدادين ، والصائغين الذين يصنعون الحلى الفجة للنساء ، والدباغين ، والخزافين ، والنجارين . وإذا أراد رجل منهم أن يبني بيتاً قام هو وأقاربه وعبيده بالبناء يماونهم بمض الفعلة ، ثم طلب إلى النجار أن يسقف البيت ويصنع أبوابه . ويصنع هؤلاء العرب بأنفسهم كافة ما يلزمهم في شتى مرافق الحياة المادية ، شأنهم في ذلك شأن بدو الصحراء .

وليس بشندى نساجون ، ولكنك ترى النساء والعبيبة وكثيراً من الرجال لا تفارق أيديهم المنازل ، وهم ينزلون خيوط القطن التي يبيعونها لأهل بربر . وتشبه منازلهم منازل أهل مصر والشام . ويزرع القطن في هذه الأرجاء ، وهو من المحاصيل التي تنتجها كل البلاد الواقعة على ضفاف النيل ، وإن كان إنتاجها منه ضئيلاً فيما عدا الدامر ومنطقة سنار .

ويقوم السماسرة بتجارة الجملة في شندى ، وأكثرهم الدناقلة ، ويبدو أنهم أذكى التجار وأخذتهم في هذا البلد . فإ إن تصل إلى المدنة قافلة حتى يتقاطر السماسرة على بيوت التجار . ولكن في الفريقين — باعة وسماسرة — من الجشع والحرص ما يمنهم من إبرام صفقاتهم في سرعة ناجزة . بل إن كل فريق منهم يحاول — حتى بعد إبرام الصفقة — أن يفس صاحبه قبل تسليم البضاعة وأداء الثمن . وإذا أراد فريقان أن يدخلوا في اتفاق تجارى ذى بال شاع الخبر وذاع في أرجاء البلدة ، وكثيراً ما حال حسد التجار الآخرين دون عقده . وليس للسلع ثمن محدد ، والأثمان الدارجة عبارة لا محل لها هنا ، فكل تاجر يبيع بضاعة بقدر ما يتاح له أن يفس المشتري ويرشو السماسر . وقد ألف القوم أن يؤدوا فوراً ثمن الشراء ، أو ما يوازيه بضاعة ، وأطول أجل للدفع رأبته كان يومين . وحين يرمون الصفقة يظهر لك في جلاء أن البائع والمشتري كلاهما يتشكك في ذمة صاحبه . وإذا أرادوا إكراه مدين على تسديد دينه استعانوا عادة بعميد الملك الذين يقومون بجمعة البوليس . على أن الرجل الذى لا يحميه قوى ولا يسنده أصحاب تضيع عليه معظم بضاعته لا محالة إذا تركها تخرج من يده دون أن يتسلم ثمنها فوراً .

وسأسوق إلى القارىء فيما يلى بياناً موجزاً بشتى السلع التى تتبادلها شندى مع مصر وكردفان وسنار وسواكن . على أن قصر مقامى بهذا البلد لم يتح لى جمع أوفى المعلومات وأصحها عن هذا الموضوع .

إن أهم ما تستورده شندى من مصر هو السنبل (*) والمحب ، وكلاهما يشتد عليه الطلب في السودان ، فيتمطر القوم بأولهما ويتطلبون ، ويتبلون طعامهم بالثانى وقد يتداوون به . ويبيعهما التجار مخلوطين معاً بنسبة ثلاثة أجزاء من السنبل إلى

(*) السنبل هو Valeriana Celtica أو Spiga Celtica عند الإيطاليين . ويزرع معظمه في الولايات الجنوبية من الأملاك النمساوية ويصدر من البندقية وتريستا . أما المحب فيجلب من أرمينيا وفارس ، ويصدر من أزمير وغيرها من موانئ آسيا الصغرى . ويبدو أنه ثمر فصيلة من فصائل التليا Tilia .

جزء من المحلب . واهل الجبل يشتمل عادة على نحو ٣٥٠ رطلا من السنبل و ١٢٠ من المحلب ، ولكنه قد يشتمل على مقادير متساوية من الصنفين . ويطلق على هذا الحمل — بصفة خاصة — اسم « زائلة » أى الحمل المقعم الكبير . ويجلب كل تاجر ذى شأن زاملتين من مصر ، وكانت القافلة التى صاحبها تحمل ثمانى منها موزعة على تسعة وثلاثين جملاهى مجموع الدواب . ومن اليسير بيع الزائلة منها جملة لشجار سنار الذين يؤدون ثمنها زبالات ودمورا وعيندا .

والطلب على هذين المقارين فى غرب إفريقيا أقل منه فى جنوبها ، وفى البلاد الواقعة إلى الشمال من الحبشة ، وإلى الجنوب من سنار ، وفى بلاد الحبشة نفسها ، يستعملهما الناس بصفة دائمة ، وتصدر منهما إلى سوق الحبشة المقادير الكبيرة بحراً من جدة إلى مضوع فضلاً عما يجلب لها براً . وثمنهما هنا أعلى منه فى القاهرة ٢٥٠٪ على الأقل . وقد يعضى التجار المصريون بأعمالهم قدماً إلى سنار إن لم يجدوا لها فى شندى تصريفاً عاجلاً .

الصابون . يصنع الصابون الذى يءون مصر كلها وبلاد العرب فى غزة وبأفا وحبرون (الخليل) والقدس . ولم تلتج مصر للآن صابونا جيداً ، وفى أسيوط عدة مصابن ولكن صابونها ردىة لأنها تصنعه من زيت الخس لا من زيت الزيتون . على أن الباشا أسس مؤخراً مصبنة فى الدلتا يشرف عليها إيطالى ماهر ، ويجلب إليها الزيت من جزر الأرخبيل ، أما القلى فمن بحيرات التطرون . والصابون سلعة موفورة الربح شديدة الرواج فى جميع أرجاء الجنوب ، ولكنها تعرض للتاجر الذى يحملها للجاجة السائلين من شتى الطبقات ، فهم يلحون عليه فى طلب قطعة من الصابون يفسلون بها ثيابهم ، وليس من الحكمة دائماً أن يصرفهم فارغين . ويبيع الصابون فى شندى بالقطعة دون نظر إلى حجمها ، وكذلك الحال فى السكر ، فالقمع الذى يزن أربعة أرتال تقريبا ، والذى يباع فى مصانع السكر بالصعيد بـ ٢٥٠ ريال ، يباع فى شندى برىال ، ويمزى هذا الغلاء إلى أن فى نقله مغامرة كبيرة ، فإن مطراً مفاجئاً يهطل فى الطريق قد يأتى على الشحنة كلها .

ويقبل القوم على السكر في هذه الأنحاء يهدونه إلى العظماء والنساء (*) .
وأيّما كلونه وحده دون أن يدخلوه في حلوى أو طعام .

ومن أهم السلع المستوردة من مصر التالط ، وهي « كبريت » خشن أزرق
الصباغ يبطن به النساء — لاسيما نساء البدو — أفضل ملاياتهن . ويبيع قطعاً صغيرة
كانت القطعة منها وأنا بشندى تساوى ريالاً . وهو أروج السلع الصغيرة ، ويشتره
تجار كردفان على الأخص . ويقبله القيم أداة للمقايسة أينما سرت ، وتستطيع أن تعطيه
للحكام المحليين عوضاً عن الريالات إذا أعوزتك . كذلك يستورد القماش القطنى الأبيض
ذو الإطار الأحمر وهو من صنع المحلة الكبرى بالدلتا ، ويرتديه عظماء القوم لاسيما في سنار ،
والملايات القطنية ذات الخطوط الزرقاء ، وتلتف بها الموسرات من النساء عند
النوم . وتحمل قوافل دارفور المائدة من مصر هدايا الملوك والعظماء من الأقمشة الحمراء
والخمل والساتان والنسيج الخفيف الموشى بالذهب من صنع ليون وفلورنسة ، ومعها
أنواع شتى من البقعة والكبريت الإنجليزى . والإقبال عظيم على الكتان
المنسوج فى أسبوط ومنفلوط ويصنع منه القوم قصصهم ، ولكنه أعلى من أن يروج
بين العامة . ومن السلع الهامة التى تجلب من مصر جلود الغنم المدبوغة بأصوافها ،
ويستعملونها فرشاً لسروج الخيل ورواحل الجبال وبرادع الحمير ، ويفرشونها فى
غرف نساءهم للجلوس عليها . وقد تصبغ باللون الأزرق أو الأحمر ، وتحمل إلى
أقصى البلاد غرباً وجنوباً . وما من شيخ لقبيلة أو كبير فى قرية إلا ويقتنى هذه
الجلود المدبوغة ، ومعلوم أن أغنام الجنوب لا سوف لها .

المساج والعقود . ذكرت أن المساج والعقود تستعمل فى هذه الأفطار
أداة للتمامل . وأدراجها مساج صغيرة من الخشب مصنوعة فى صعيد مصر ، ويقبل
عليها البدو والفلاحون على الأخص . وغير هذا نوع اشتهرت بصنعه دندرة ،
ويصنع من نوى الدوم ، ويحمله من يبتغون الظهور بمظهر التقى والورع . وتجلب

(*) تطلب ألمع غوانى شندى قمع سكر صلة من عشائهن .

من القدس أنواع شتى من الخرز الأحمر والأسود، ولا تسكاد تجدد واحداً من القوم — رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً — لا يحمل في عنقه أو ذراعه أو يده عقداً أو عقدين من الخرز. ولا يلتقى الخرز من الزجاج هذا الرواج الذى يلقاه في الحبشة ودارفور، وإن كانت السوق لا تخلو منه. وأفضل أنواعه البندق، ولكن معظمه مصنوع في الخليل (أو حبرون بجوار القدس) فهى التى تمون بالزجاج جنوب الشام كله وجل مصر وبلاد العرب. أما خرز بوهيميا الزجاجى الأبيض — ويسميه الإيطاليون Contaria d' Olanda — فسوقه دارفور. ويباع في القاهرة سنوياً من خرز البندقية الزجاجى من أربعمائة صندوق إلى خمسمائة، وزنة الصندوق منها عشرة قناطير، وثمان القنطار يتراوح بين خمسين بتسكاً ومائة، أى بين أربعة جنيهات وثمانية. وقد أتيج لى وأنا بجدة أن أشهد الخرز المزمع تصديره إلى أسواق الحبشة، فعددت منه على الأقل اثني عشر صنفاً، لكل منه اسمه الخاص، منها «أم شهير» و«مرج الملوك» و«عين القحبة» و«ألوان» و«خمس جنوس» و«حسن بك» و«عثمان بك» وهكذا، وكلها أنواع متباينة. فشكل إقليم في الحبشة يؤثر نوعاً من الخرز الزجاجى لا يلتقى إقبالاً في غيره. ويجلب التجار السواكنية إلى شندى ضرباً من الخرز يسمى «الريش»، وشراؤه وقف على تجار كردقان، وهو أهم سلعة يقايضون بها على الرقيق في بلادهم. كذلك يلتقى هذا النوع رواجاً في دارفور ودار صليح وبرقو غربي دارفور، ويجلب الريش من جزر الهند الشرقية، ولا سيما من سورات، وهو كرات مثقوبة من العقيق الملون في حجم الكراز الصغير، شديدة الشبه بالبلبل الذى يلعب به الأطفال في أوروبا. وكانت الألف ريشة منه تساوى في جدة خمسة عشر ريالاً إسبانياً، أما في شندى فتباع بثلاث أوقيات، أعنى بثمانية وأربعين ريالاً، وقيل لى إن الألف في كردقان تشتري ستة من الجوارى يُبعن في شندى بمائة وعشرين ريالاً. ويابس النسوة الريش عقوداً، وتمد تجارتهم من أربح ضروب التجارة لسهولة نقله واحتمال إفلاته من رقابة شيوخ القبائل والأمراء.

المرهبان. تجلب إلى سوق شندى مقادير يسيرة من المرجان الردى. ويجلب

أفراد القبائل الحاكمة أعناقهم به وبالكهرمان . ويجلب « الرجان الكداب » من البندقية ، وأهم سوق له الأفطار الغربية ، ولا يروج من الكهرمان هنا إلا نوعه الشفاف .

الورق . إن ورق جنوة ولجهورن ذا الخيطات الثلاث Papier de trois limes سلعة قليلة الرواج هنا ، والإقبال عليها أشد في الأقاليم الغربية التي تحملها إليها قوافل دارفور . على أنك تجد الورق في متاجر المصريين أنى طلبته . كذلك تجد المقادير الصغيرة من القصدير قضباناً رفيعة ، والنحاس الأصفر القديم ، لاسيما الخلل الكبيرة أو الدسوت والقذور التي يشتريها جلابو الرقيق ، والسلك الأصفر الذي يتهاف الناس عليه في هذه الأرجاء جميعها ليحلوا به الرماح بلفه على أجزاء من مقابضها .

أما السلع الحربية فأروجها أمواس الخلاقة ، ويساوى الموسيقى منها ثلاثة بنسات في ألمانيا موطن صناعتها ، وفي القاهرة يباع الموسيقى باثنى عشرة بارة بسعر الجملة . ثم البارود التي يقلب معظمها مدى ابتغاء الحصول على شفرات من الصلب مقبنة ، والكستبانات والمقصات والإبر من أحسن الأنواع المصنوعة في نورمبرج ، والسامير والزناد لقدح الشرر ، والسيوف من النوع الذي وصفت ، والذي يعم استعماله أرجاء السودان إلى شرق فزان ، وموطنها زولنجن بألمانيا ، ويبيع منها لتجار الجنوب في سوق القاهرة زهاء الثلاثة آلاف كل سنة . ويبيع الكحل كتلا

صغيرة ، والفطامه تطلي به قرب الماء لكي لا ترشح ، وتطلي به ظهور الإبل وقاية لها من الجرب أو علاجه ، ثم الحلي من الفضة تزين بها النسوة كالأساور والأقراط وما إليها ، وتشتري قوافل دارفور من مصر المقادير الكثيرة منها ، والأجراس الدقيقة التي يحلون بها لجام الجمال ورسنه في سنار ودارفور ، كذلك يجلب لهذين الإقليمين المركيز «روح التوتية» . ومن السلع الهامة التي يتجر فيها المصريون المرايا المذهبة الغطاء من صنع البندقية وتريستا ، ومساحة المرأة منها أربع بوصات مربعة ، وبعضها مستدير بنفس الحجم وبمقبض طويل ، ويصنع في

القاهرة ، ولا تزوج فتاة في هذه البلاد دون أن تزين حجرتها بمرآة من هذه المرايا .
ومنذ أسسوا الممالك دققة جرت القوافل المصرية على أن تجلب لشندى
بعض ما يرتدون كالأقمشة والأحذية وما إليها فيشتريها التجار الدناقة . وكان
الباشا إلى عهد قريب قد حظر التجارة المباشرة بين صعيد مصر ودققة ، فكان
التجار يؤثر هذه الطريق الطويلة على التمرض لمصادرة بضاعتهم . ولما نشبت
الحرب بين المالك وعرب الشايقية أرسل المالك جل نساءهم إلى شندى صوناً لمن
من مخاطر حرب سجال ، ثم ردوهم بعد ذلك إليهم ، ولكن رأيت بعضهم
مازلن باقيات بالمدينة حين جثتها ، وكن يثرن السخريه بصلافهن وغرورهن .

ويستخدم التجار المصريون رموس أموال صغيرة جداً في تجارتهم ، ولست
أظن أن أحداً منهم تساوى بضاعته أكثر من ألف وخمسمائة ريال إسباني . وأسرة
علوان التي جثت في صحبتها من دراو ، والتي خرج من أفرادها في القافلة نحو
اثنى عشر ، هذه الأسرة لم تستثمر في تجارتها هذه أكثر من ألف ريال . وأكثر
التجار لا يملك إلا مائتي ريال أو ثلاثمائة ، بل قل أن يكون هذا المبلغ ملكاً خالصاً
لهم ، فهم إما يقرضونه من الصعيد بفائدة باهظة ، وإما يشترون بضاعتهم نسيئة من
إسنا أو قنا أو القاهرة . وسبب ذلك أن التجار المصريين المحترمين حقاً يراون
بأنفسهم عن الاشتغال بمثل هذه التجارة . والناس — حتى في مصر — ينظرون
إلى الرحلة للسودان نظرهم إلى مقامرة يائسة لا يفتحنها إلا كل مفلس أو مشرف
على الإفلاس ، وهم يعدون تجارة الرقيق أو « التسبب في لحم بني آدم » كما
يسمون تجارة خسيصة لا تشرف صاحبها . على أن أهل دراو لا يعدمون من يقرضهم
المال ، ولولا انغماسهم في الرذيلة والفجوز ، ولولا تبديدهم أكثر أرباحهم وفي السكر
والمرردة ، لاقتنوا من وراء تجارتهم الثروة الطائلة . وهم يقرضون المال في صعيد مصر
بفائده تبلغ ٥٠٪ في الرحلة طالت أو قصرت ، ويرهنون عادة بيوتهم أو أطيافهم
ضماناً لسداد القرض ، كذلك يرفع ثمن ما يشترون في مصر من بضاعة مؤجلة
الدفع إلى هذه النسبة ، على أن يتمهدوا بإداء ثمنها حال رجوعهم . ويدرب التجار
الدراويون أبناءهم على هذه التجارة منذ نعومة أظفارهم ، وكان في القافلة التي

رحلت فيها من دراو عدد من النملان — لم يكدا الغلام منهم يبلغ العاشرة —
يضحجون آباءهم ، ومتى بدأ أحدهم هذه التجارة مرة ألف الخروج بعدها كل سنة في
رحلتين على الأقل حتى تتقدم به السن . وقد رأيت في دراو أفراداً كانوا يباهون بأن
أجداد أجدادهم كانوا تجاراً في قوافل سنار .

ويشتهر تجار دارفور في القاهرة بأنهم أسخى في الدفع ، إن تجار طريق القوافل
الشرقية ، وهم يودعون في تجارتهم رأسمالاً كبيراً ويؤتمنون على قروص أو فراسخا
في أسبوط حيث يبتاع الكثير منهم بضاعتهم . ومن اليسير على القاريء إذا راجع
ما ذكرت عن أثمان السلع المختلفة أن يدرك أن أرباح المصريين من وراء هذه
التجارة باهظة ، والواقع أنه ما من سلعة مصنوعة في مصر أو أوروبا إلا وتباع
في شندى بضعف ثمنها الأصلي في مصر أو بثلاثة أضعافه ، وكذلك تبلغ نسبة الربح
في حاصلات الجنوب حين تباع بمصر . نعم إن العقبات التي تترض سبيل التجارة
ثقيلة مرهقة ، فمن جشع الأمراء الذين تمر القوافل بأملأكمهم ، إلى نفقات النقل
بالصحراء ، إلى تكاليف إطعام العبيد ، إلى إتاوة العبايدة وما يفرضه باشا مصر (*)
من مكوس على التجارة ، ولكن أرباحها رغم كل ذلك عالية جداً ، ولست أشك
في أن مجموعة طيبة من السلع تشحن من دراو إلى شندى تغل من الربح الصافي
— بعد بيع البضاعة المحلوبة في العودة بدراو — ما نسبته ١٥٠ ٪ على أيسر
تقدير . بل إنني سمعت أن الزاملة من السنبل والحلب غلت في القاهرة فائدة قدرها
٥٠٠ ٪ بعد المقايضة عليها بالرقيق في سوق شندى . واقد وجد التجار المصريون
مؤخراً أن الريالات أربح السلع الأوربية لهم لأنهم يستطيعون أن يشتروا بها توأماً
ما شاءوا من إبل . على أن هذا الإيثار للريالات رهن باستمرار التهافت على الإبل
في مصر لاستخدامها في النقل من قنا إلى القصير وفي تموين الجيش التركي بالحجاز .
وقل من أغنياء التجار في مصر من رحل إلى شندى برأس مال كبير ، ومن

(*) تفرض الحكومة اليوم ضريبة قدرها ستون قرشا على كل عبد يجلب لصعيد مصر . ويحتكر
الباشا شراء أهم السلع كالزيت والورد وريش النعام والنطرون (من دارفور) ، فهو يدعم
فيها لتجار السودان ثمناً حدد أقصاه ، ثم يبيعها على هواه بربح باهظ .

هذه القلة بكير أغا وهو رجل أزيميرى المولد غادر مصر من ثمانى سنوات أو عشر وبصحبه عشرون راحلة محملة ، ولكنه مات بشندى فاستولى ملكها على ماله وبضاعته لقمة سائغة ، ولم يقدم بعده أحد على مثل هذه المحاولة . وجلة المال الذى يستثمره التجار المصريون فى تجارة السودان يبلغ حسب تقديرى من ٦٠ر٠٠٠ إلى ٨٠ر٠٠٠ ريال ، ولكن بما أن هذا المال ينفل ربحاً مرتين وأحياناً ثلاث مرات فى العام ، وذلك تبعاً لعدد الرحلات ، فإن مجموع قيمة الواردات إلى هذه البلاد من مصر يقدر بنحو ١٥٠٠ أو ٢٠٠٠ ريال فى السنة . أما الريالات فلا يصاد تصديرها من السودان ، فهى إما توزع أو يخزنها الملوك وسوام من الأفراد ، فالسودان إذن مستهلك دائم لشطر من فضة أوربا .

وفى الإمكان النهوض بهذه التجارة نهوضاً كبيراً ، وذلك بتنظيم قيام القوافل (مرة كل شهرين من دراو مثلاً) . وبإقامة المصانع فى بربر وشندى . أما اليوم فإن القوافل القادمة من شتى البلاد قد تظل المشهور فى انتظار غيرها من القوافل التى لا تستطيع بيع بضائعها إلا لها . صحيح أن الصحراء النوبية لا تخلو من جماعات صغيرة من التجار المغامرين يعبرونها كل أسبوعين تقريباً ، ولكن هؤلاء يتجرون فى كل بلد مروا به على الطريق ، وقل أن تجد من السلع المصرية فى سوق شندى — وكذلك فى سوق سنار فيما أظن — شيئاً مذكوراً إلا بعد وصول القوافل الكبيرة ، وهذه لا تبحر دراو اليوم فى مواعيد منتظمة . أما قافلة سنار فتخرج من الصعيد مرة فى العام وتعود إليه فى العام التالى . وهى تلم بربر والداير وشندى وقد تستغرق شهرين أو ثلاثة فى رحلتها من دراو إلى سنار . وعدتها ثلاثمائة رجل أو أربعمائة ، وبضع مئات من الجمال ، ويصحبها فى إيابها كثير من تجار سنار وعلى الأخص عملاء ملك سنار ووزيره وهما أكبر التجار فى هذا الإقليم . هذه القافلة هى التى خرج فيها فى العام الماضى مبعوث باشا مصر إلى سنار ، وقد أوفده فيها يقال ليحرض الملك على المهالك ، ولتجسس الأرض ويتعرف هل فى الإمكان غزوها بجيش تركى . وما من شك فى أن السفير لقى الإهانة والتحقير برغم ما تؤكده حكومة مصر من نقيض هذا ، وما من شك فى أنه لم ينجح فى الطريق من الأذى

إلا بشق النفس. وقد حمل من الهدايا إلى مك سنار الشيلان وقطع المسلمين والأسلحة وغيرها مما يقدر ثمنه بثلاثة آلاف ريال أو أربعة ، ورد مك سنار على هذه الهدية بإهداء الباشا ثلاث جوار قبيحات أو أربع ، وعدداً من جلود الفهود ، وقط زباد ، وقردين ، وشبل أسدمات في أثناء عبوره الصحراء ؛ والهدية كلها لا يتجاوز ثمنها في سنار ثمانين ريالاً . وقد علمت في أثناء مقامي ببلاد العرب أن بمشة أخرى أوفدها محمد علي إلى الحبشة لقيت مصيراً أسوأ من هذا ، ذلك أن محمد علي - بعد أن استولى على ثغر مصوع الذي كان لشريف مكة فيه قبل هذا جاب للكوس^(١) ، وبمدان أصبح بهذا الاستيلاء جاراً للحبش - رأى أن الضرورة تحتم عليه التودد إلى ملك غندار ليفوت بذلك على الماليك أى محاولة من هذا القبيل ، ناهيك بما يجنيه من ذبوع صيته إلى مجاهر إفريقية السحيفة فتطيب بذلك نفسه وترضى كبريائه . على أن الراس ولد سلاسى أوقف السفير في أكسوم على نحو ما أوقف مستر سوات قبل سنوات ، وأخذ سلاسى الهدايا المرسلة إلى الملك ، وأهدى الباشا عوضاً عنها قيصاً أبيض من الكتان (وهو رداء الحبش) ومائة ريال إسباني يعينه بها على نفقات الحملة الوهابية^(٢) .

وتصل القوافل السنارية إلى شندى كل ستة أسابيع أو شهرين ، فإذا جلبت القافلة الذرة كانت رواحلها خمسمائة أو ستمائة ، أما إذا جلبت البضائع والعبيد فقط فقل أن تعدو رواحلها المائة . وأهم ما يستورد من سنار الدبور الذى ينتشر استعماله بين الناس جميعاً لا على ضفاف النيل حتى دنقلة لحسب بل في كردفان ومعظم دارفور وفي الحبشة وجميع أرجاء النوبة شرقى النيل حتى تبلغ البحر الأحمر .

(١) يلقب باشا جدة بوالى جدة وسوا كن والحبش ، وإن لم يملك من أمر الحبشة شيئاً الاهم إلا المكوس التى نجى في مصوع وسلطة القضاء الاسمية في هذه المدينة . ومنذ أخضع الوهابيون الحجاز وانتزعوا جدة من الاتراك بالاتفاق مع غالب شريف مكة أخذ غالب مصوع لنفسه .

(٢) درج الشرقيون على أن تكون هديتهم كسوة ومعروفاً .

ويتهافت الناس على هذه السلعة ، لذلك يقايضون بها على أى سلعة أخرى تقريباً .
ومناسج القطن بسنار والباقير مى (غربى دارفور) تزود أكثر بلاد إفريقيا
الشمالية الشرقية بالقماش .

وتأتى السلع فى تجارة سنار هو الذهب ، ويتنازع تجار سنار من التجار
الأحباش ، ولكنى لم أتحقق بالضبط من موطنه فى غرب الحبشة . ويلوح أن أهم
أسواقه هى راس الفيل ، وهى محط على طريق القوافل من سنار إلى غندار ،
وتبعد عن سنار مسيرة أربعة أيام . ويتردد التجار السناريون اليوم كثيراً على هذا
الطريق ، كذلك تسلكه جماعة التجار الأحباش (واسمهم الجبرت) ويبدو أنهم
أهم من يتجر من الأحباش فى العبيد والذهب . ولم ينبئنى أحد بنبأ تاجر مصرى
واحد مضى فى رحلته قدماً حتى بلغ رس الفيل ، ذلك أنه وإن كانت الطريق غير
مخوفة بالخطر ، إلا أن الناس فى هذه البلاد يخشون الخروج فى رحلات نائية
ما لم يكونوا فى صحبة لفيف كبير من مواطنيهم . فالغيرة شديدة والتحاسد عظيم
بين طوائف التجار ، وما اشتهروا به من غدر وخيانة يمنع المغامرين من التجار أن
يطمئنوا - وهم فرادى - لحسن نواياهم .

ويلم الجبرت بسنار طلباً للعبيد السود على الأخص ، وعنفدى من الأسباب
ما يحملنى على الظن بأن من السهل على المرء فى وقت السلم أن يسافر فى الطريق
من سنار إلى غندار ماراً براس الفيل ، ومن غندار إلى الساحل دون أن يتعرض
للاخطار . ويشترى التجار السواكنيون على الأخص ما يجلب من سنار من ذهب ،
ويحملونه إلى جدة حيث يؤدى ثمناً للبضائع الهندية ، وقل أن يشتريه التجار المصريون
لقله ما يقله من ربح . وتساوى أوقية الذهب الخالص فى سنار اثنى عشر ريالاً ،
وفى شندى ستة عشر ، وفى سواكن عشرين ، وفى جدة اثنين وعشرين . وفى
وسع تجار سواكن أن يشتروا من شندى سلماً أربع لهم من الذهب ، ولكنهم
يؤثرونه عليها لسهولة نقله وإخفائه تهرباً من الكوس التى تجبى فى الطريق .

كذلك يجلب تجار سنار العبيد إلى شندى ، ولم يبق أمامهم سوى هذا الطريق

بعد أن قطع طريق القوافل المباشر من سنار إلى كردفان بفعل غارات عرب الشلك وسرقاتهم عند عبور القوافل للبحر الأبيض (النيل الأبيض) . وهؤلاء العبيد إما من الحبش أو النوبا (واحد من نوباوى) ، أما الأولون فجلهم جوار من شعوب الجبل ، وفيهم قليلات من الأمارا* . على أن مائتة شندى إلى الشمال من هؤلاء الحبشيات قليل على وجه العموم ، فإن الملوك يشترون أفضلهم لحريمهم . ويمكن الحصول على الجوارى الحبشيات في مصر وبلاد العرب بثمن أرخص ، وذلك بشرائهن من التجار الجبرت القادمين من مصنوع والذين يبيعونهن في جدة . وعدد الجوارى الحبشيات اللاتي يحملن سنوياً من سنار إلى سواكن أو مصر لا يزيد على المائة حسب تقديري . وقد اشترى المالك الكثيرات منهن مؤخراً ، ولا غرو فإنهن يمتزجن عن سائر السود بالجمال وحرارة الحب والوفاء لسيدهن متى استطاع أن يفرهن بحبه .

ويطلق لفظ النوبا على جميع السود القادمين من بلاد العبيد جنوب سنار . ويمتد إقليم سنار رحلة عشرة أيام بعد المدينة على ما علمت من تجارها ، واتجاهه جنوب وجنوب شرق ، وتسكنه كله قبائل حرة من العرب . وبغير هؤلاء العرب على الجبال الجنوبية ويسمون أطفال الوثنيين ، وهؤلاء العبيد النوباويون — ويجب أن نسلك في عدادهم أيضاً العبيد المولودين في إقليم سنار من آباء زنوج وأمهات حبشيات ، والذين يبيعهم بعد ذلك أصحاب آبائهم — هؤلاء العبيد وسط بين السود والحبش ، فلونهم أفتح من لون الزنج ، وهو ضارب إلى حمرة النحاس ، ولكنه أذكى من لون العرب الأحرار من أهل سنار وشندى . وفي قسمة وجوههم ما ينم عن أصلهم الزنجي في جلاء ، ولكن فيها كذلك شيئاً من التناسق . فانوفهم وإن صغرت عن أنوف الأوربيين لا تبلغ في انبساطها أنوف الزنوج ، وشفاهم أرق وعظام وجنتهم أقل بروزاً ، وشعور بعضهم صوفية القوام ، ولكنها في أكثرهم شبيهة بشعور الأوربيين ، غير أنها أقوى ، وهي دائماً

(*) هكذا يلفظ العرب هذه الكلمة . فهم لا يلفظونها أمهره Amhara كما زعم بروس . والاسم الذي يطلقونه على الحبش « تقطى » لا « حبشى » .

مجمدة . وفي باطن أيديهم مطراوة تميزهم عن الزوج الخالص الذين تحس بأيديهم قاسية كالخشب .

ويؤثر الناس في مصر وبلاد العرب عبيد نوباً هؤلاء على من سواهم في العمل البدنى ؛ فأخلاقهم طيبة ، ويزيد عنهم في شتى ومصر على ثمن الزوج عشرين في المائة . أما العبيد الأحباش فعروفون بعدم صلاحيتهم للعمل البدنى ، ولكنهم مطوبون لأمانتهم ، وهم من خيرة الخدم في البيوت ، وكثيراً ما يعملون كتاباً ، ولا غرو فهم أذكى من السود . والعبيد النوباويون أسلم أبداناً فيما يقال ، وهم أعصى على المرض وأقوى على احتماله من الحبشى ، وجههم يصدر إلى مصر ، ولكن بعضهم يرسل إلى سواكن .

الماج . يشتري التجار المصريون سن الفيل بتقادير صغيرة ، ولعل هذه التجارة كانت فيما مضى أروج منها اليوم ، أما اليوم فالطلب على الماج قليل في مصر ، وربما كانت هلة ذلك أن أوربا تجلب ما تريد منه بثمن أرهق من بلاد البربر وجزر الهند الشرقية . على أن جلب الماج من دارفور إلى مصر ما زال يحتفظ ببعض أهميته ، وإن كانت سوقه كثيراً ما تكسب في مصر كساداً تاماً .

ويحيل إلى أن الزوج لم يتعلموا قط استئناس الفيل ، فهم يوقعونه في الحفر أو يقتلونه بإطلاق وإيل من النبال عليه من فوق الأشجار التي يمر تحتها ، ويؤكل لحم الفيل قرب سنان فيما يقال .

قرنه الخرنيت . يسمى الخرنيت في بلاد الزنج «أسم قرنه» ، ومن الجلى أنه الأسل في وحيد القرن الخرافى unicorn . وقد وصف لى العرب الخرنيت مزاراً فقالوا إنه أشبه بالبقرة الكبيرة لها قوائم غليظة وذيل قصير وقرن طويل واحد في جبهتها (*) وجلد كالخراشف الكبيرة قاس كأنه الحديد . وكلما وصفت لهم وحيد

(*) إن عجز العرب عن التمييز بين المقادير والأبعاد لا يحتاج إلى بيان ، فهم قلما يتحرون الدقة في استعمال الألفاظ الدالة على الطول أو القصر ، وعلى التكبر أو التيسر . وعلى العاوى أو الانخفاض ، وعلى العمق أو الضحلة الخ ... وهم إذا وصفوا شيئاً نازقاً في تضخيمه أو تصغيره ناولوا غير معقول .

القرن وسألهم هل رأوا مثل هذا الحيوان ذى القرن الطويل ذكروا لي أنه الخريت أو « أم قرن » . ويسكن الخريت منطقة سنار ولكنه لا يرتاد أقاليم النيل شمال هذه المنطقة . ويبدو أن حده الشمالى الذى لا يتجاوزه — شأنه فى ذلك شأن الفيل — هو الجبل الواقع إلى الشمال من قرية أبو حراز على مسيرة يومين من سنار ، ويمتد هذا الجبل حتى يحدق بالنهر فيمترض المرور على ضفافه . ولا يعرف الخريت ولا الفيل فى شندى ولا الحلفاية ، وهى على يومين جنوبها . ويصنعون فى القاهرة من قرن الخريت زخارف يحلون بها مقابض السيوف والخناجر ويطعمونها بها على طريقة المالك . وتمن القرن غال ، وقد رأيت منه قطعاً طول القطعة منها زهاء بوصات أربع ، وسمكها بوصة ، وتمنأ أربعة ريالات إسبانية أو خمسة .

المسك . لا يباع مسك قط الزباد civet - cat فى شندى ، ولكن التجار السواكنية الذين يلمون بسنار يجلبون منه المقادير الصغيرة يبيعونها فى جدة . وأهم أسواق المسك مصوع ومكة إبان موسم الحج . ويجلبه إلى القاهرة تجار جدة .

السكرابيج . تجلب السكرابيج السالفة الذكر من سنار دون سواها .

الأبنوس . تجلب الأبنوس قطعاً صغيرة ، وأطول ما رأيت منها قدم واحدة ، ويقال إن هذا الشجر ينمو جنوب سنار ، ولكنى أحسبه ينمو على مدى بعيد منها لأنه غال جداً . وتجلب من سنار مقابض الذى المشغولة بالأبنوس شغلا دقيقاً ، وتركب فيها بمد ذلك الذى التى يحملها العرب فى هذه الأنحاء مشدودة إلى مرافقهم . ولا يحمل جلابو الرقيق الأبنوس إلى مصر ، فصر تستورده من جدة . على أننى فهمت أن شجره ينمو فى الصحارى الملاصقة لدارفور غرباً .

البن . يجلب من البن الذى تنتجه الحبشة وإقليم الجلا المقادير الصغيرة . ولا ينقل شيء منه من مصوع إلى جدة لأن شجرة البن لا تنمو إلا فى أقصى الغرب

من بلاد الحبش . والقهوة ليست شراباً شائعاً في هذه الأنحاء ، إنما هي ترف لا ينعم به إلا الملوك .

الجلد . في سنار خير مصانع الجلد قاطبة من دارفور إلى البحر الأحمر . ويظهر حذق صانعيه ومهارتهم في رحال الإبل (القمصنة) والحقائب والصنادل . وتصدر الرحال إلى مصر لتوضع على الجمال أو الهجن ، وتباع بمشرين ريالاً للرحل ، وتزين بالشراب من الجلد ، وهي تجمع بين سلامة الذوق والمثانة . أما الحقائب أو الجربان فيشتريها التجار السواكنية ويبيعونها لأهل اليمن يحملون فيها زادهم في السفر . وحياكتها غاية في المثانة والدقة ، ولبعضها أقال ، وكان أهل سواكن يبيعون منها المقادير الكبيرة للوهابيين في مكة . وجلدها من خير أنواع الجلد ، ويفضل كثيراً جلود مصر والشام ، ويكاد يبلغ في الجودة الجلد الروسي . وأما الصنادل السنارية فيلبسها كل من يعنى بلباسه من النوبيين رجالاً ونساء ، وإن المرأة منهم لتؤثر أن تمتشى بقميص ممزق عن أن تلبس صندلاً قبيح الشكل . وفي حياكة هذه الصنادل من الدقة والأناقة ما لا ينتظر من عرب غير متحضرين . وفي سوق شندى يساوى أفضل زوج الصنادل من ريالين . ولكل بلد في هذه الأقطار طراز منها يؤثره أهله ، وعلى ذلك تستطيع بقليل من الخبرة أن تنبئ عن موطن الرجل منهم بنظرة إلى قدميه . وكذلك الشأن في بلاد العرب ، وإني لأذكر أنني يوم وصلت جدة أول مرة منتعلاً بصندلاً ابتعته من سواكن كان كثيرون ممن لا يعرفون من أمرى شيئاً يشيرون إلى صندلي ويسألوني ما الذي ذهب بي إلى سواكن .

الرموزيات أو المطاهر من الجلد ، والاقبال عليها في مصر كبير

كذلك يدخل في الواردات المجلوبة من سنار المروى من جلد الخريت والزراف ، ويصنعه البدو من العرب ويبيعونه في سنار ، ويستعمله القوم على طول ضفاف النيل وهجر الجبال حتى القصير وقتنا في صعيد مصر .

النبيج . ويتزع لحم الثمرة عن النواة ويجفف في الشمس ثم يعبأ في حقائب جلدية صغيرة ويحمل حتى سواكن . وهو طعام لذيذ في الرحلات .

وأم السلع السنارية في سوق شندى الابل والذرة، ولولا اتصال ورود هاتين السلعتين إلى شندى لهددتها المجاعة . ونخرج قوافل الذرة في الرحلة وحدها مادة ، وقل أن يصحبها التجار فهم يخرجون في قوافل خاصة بهم . وهؤلاء التجار أيسر حالا من التجار المصريين ، ولا يندر أن ترى بينهم رجلا يملك عشرة أحمال من الدمنور وفرقة كاملة من العبيد . وقد ذكروا إلى اسم تاجر سنارى ابتاع في شندى كل ما حملته قافلة مصرية قوامها ثلاثون راحلة .

الشهر . وتجلب المقادير الكبيرة منه من سنار ، ويجمع العرب النازلون بإقليم سنار العسل البرى الكثير ، ولكنهم لا يهتمون بتربية النحل وتمهد خلاياه قرب مساكنهم .

ولم أسمع بنبأ ضرب مرور أو إتاوات تجبى على التجارة في سنار . والمقبة الوحيدة التى يقيمونها في سبيل التجارة هي أن الملك يفرض بضاعته دائماً على المشترين قبل أن يجرؤ غيره من التجار على عرض بضاعتهم والمساومة عليها، ويأخذ تجار سنار من المصريين ، لقاء بضاعتهم ، السنبل والحلب بمقادير كبيرة ، وكذلك السكر والصابون وكل سلعة تقريباً من السلع التى تعرضها أسواق مصر وسواكن ومنذ قطعت المواصلات المباشرة بين سنار وكردفان أخذ أهل سنار يشترون من سوق شندى الرقيق المجلوب من كردفان ، فهم يحصلون عليه بأسعار أرخص مما يتناعون رقيق النوباما من سوق سنار . وكان طريق النيل إلى سنار محفوفاً بالخطر في أثناء مقامى بشندى وذلك لما نشب من خصومة بين مك الحلفاية ومك أرجمي ومن ثم كانت القوافل تؤثر الطريق الصحراوى الموازى للنهر على رحلة يوم في الداخل حتى تبلغ أبو حراز ، ثم تلتقى بالنهر ثانية . وليس بهذا الطريق من الآبار سوى بئر واحدة ، وقد يتنكبها المسافرون لأن بدو الشكرية كثيراً ما يلون بها ، وأهل سنار يفزعون منهم ويخشون بأسمهم أشد خشية .

ووصول قوافل كردفان إلى شندى منتظم ، وهو رهن بمزاج حاكم كردفان الذى طالما منع التجار من الرحيل طمعاً في المزيد من أرباح تجارته . وقد تمضى

ثلاثة شهور لا تصل فيها قافلة ثم تأتى القوافل بعدها تترى . والطريق مأمون من الأبيض Obeydh (وايست lbeit كما كتبها براون) عاصمة كردفان إلى شندى، ويقطع في أسبوعين يجتاز المسافر في الأيام الخمسة الأخيرة منهما صحراء لا ماء فيها ويصل مع قوافل كردفان تجار من دارفور أيضاً ، ويقال إن التجاره نشيطة والطريق مأمون بين كوبي عاصمة دارفور وبين الأبيض . وليس بكردفان من العبيد سوى ما يجلب إليها من دارفور ، ويبدو أن أهلها لا يتجرون مع بلاد الزنج الجنوبية ، ولكن منذ أنى المالك دنقلة فتح طريق تجارى مباشر بين دنقلة وكردفان التى لا تبعد حدودها الشمالية عن حدود دنقلة أكثر من ستة أيام على ما علمت .

وإذا وصلت قافلة كردفانية إلى شندى حفلت سوقها بالرقيق وهو أهم السلع التى يجلبها تجار كردفان ، ويجلبون كذلك خير ما تنتجه بلاد الزنج من الصمغ العربى (*)، والعرديب أو التمر الهندى، واللبن ، والنطرون من دارفور ، والششم الذى يستعمل فى مصر علاجاً للرمم ، والشوشة وهى نوع من البازلاء الصغيرة التى تنمو فى كردفان ودارفور ، ولونها قرنفلى جميل بنقطة سوداء صغيرة فى نهايتها، ويسلكونها فى خيوط ويلبسونها كالعقود . ومن السلع التى يبيعونها الحبال من الجلد . وسكان البلاد الواقعة على النيل يصنعون حبالهم من ليف النخل أو من القاب الذى ينمو على ضفاف النهر ، أما سكان البلاد الغربية التى تخلو من النخل فحبالهم من سينور الجلد المفتولة ، وهى غاية فى المتانة والقوة ، ولهذا الميزة مقام الصدارة فى الرحلات الصحراوية على ظهور الإبل المثقلة بالأحمال . وتباع هذه الحبال للتجار المصريين والسواكنية ، وكذلك الجربان الكبيرة المصنوعة من جلود الثيران الغليظة بكردفان ودارفور ، ويحمل فى هذه الجربان دقيق الذرة فى

(*) كانت قوافل سنار تجلب إلى مصر سنويا ألفي قنطار من الصمغ العربى ، أما اليوم فعلى لا تحمل إليها أكثر من مائة قنطار . والصمغ المأخوذ من السنط فى صحارى الحجاز يعرف فى القاهرة بالصمغ النبعى (نسبة إلى ينبع) ، أما المأخوذ من صحارى السويس واليه وجبل سيناء فاسمه الصمغ الطورى (نسبة إلى الطور) ، ولا يصدر هذا إلى أى بلد أوربي غير فرنسا . وصمغ كردفان من خير أنواع الصمغ ، وحياته صغيرة ويأضه ناعم . أما صمغ سنار فالطلب عليه أقل .

الصحراء طعاماً للعبيد . ثم قرب الماء الكبيرة من جلود الثيران ، وتسمى القرية منها رياً ، ويستعملها التجار الذين يمشون الصحراء بحشد كبير من البعير ، وحولة الجمل قربتان منها . وهى تحفظ الماء خيراً مما تحفظه قرب الماعز الصغيرة ، وغلظ جلدها يمنع الماء من سرعة التبخر . وهذه القرب من السلع الهامة فى تجارة دارفور ومصر ، وتستخدم فى جميع المدن المصرية لاسيما فى القاهرة لحل المساء من النهر إلى المدينة سداً لحاجة أهلها منه . وكذلك يجلب تجار كردفان قرباً من جلده الغنم صنعت بمهارة فائقة لأن الجلد قد حفظ فيها كاملاً برمته . وسبيل ذلك أن يفصل الرأس عن الجسد ، ثم يسلخ الجزار الجلد بمهارة لم يؤثها البدو من العرب ، فيدخل يده بنصل صغير من فتحة فى الزور ، ويفصل الجلد عن اللحم دون أن يجرحه . وعلى ذلك لا ترى فى القرية الكردفانية آثار جروح فيما عدا مكان القوائم أما غير هذا من القرب العادية فملفوفة من جوانب ثلاث . ومن السلع المجلوبة من كردفان القصاع الخشبية الكبيرة ، وهى منقورة من أصل نوع من الشجر فيما يقولون ، وتدهن بالسمن ثم ترفع على النار لتسود . وكثيراً ما تقوم مقام الخزف والأواني والصحاف والأكواب الصينية التى يحلى بها بعض الأقوام الشرقيين المتحضرين غرف الجلوس فى بيوتهم بوضعها على رفوف مثبتة فى الجدران . وبعض هذه القصاع من الكبر بحيث يسع من الطعام ما يكفى اثنى عشر شخصاً ، وفى صنعها دقة لا تليح معها أثراً للآلة التى صنعت بها .

كذلك يلقى ريش النعام الذى يجلبه تجار كردفان إقبالاً عظيماً . وهؤلاء التجار متوسطو الثراء ، ولأن كثرتهم نساء فى شندى ودارفور وفى الأبيض أيضاً . ويشترى العبيد من دارفور ويلبسون ببيوتهم فى الأبيض ثم يؤمرون شندى بعبيدهم . ويعرف الناس فيهم أمانة ليست فى أهل سنار ، ولكن هذه السمعة الطيبة لا تفرى أحداً ببيعهم بضاعته نسيئة . ويحملون من سوق شندى السنبيل والمحاب والكحل والمقود والتوابل الكثيرة وعلى الأخص القرنفل ، وكلها يتهاافت الناس على شرائه فى أقاليم السودان الغربية . كذلك يحملون قليلاً من البضائع الحديدية والدمور السنارى والكتان المصرى ، وأقشة الهند القطنية المجلوبة من سواكن ،

والقليل من ثياب الحجاز الجيرية. وقماشه الذى يلبسه أمراؤهم المولعون بكل زاه
براق يشمر الناس بمكانهم ، وبعض البن ، وأهم من هذا كله «الريش» أو الخرز من
العقيق الهندى . ويقال إن العملة التى يتداولها أهل كردفان — فضلا عن الذرة —
هى قطع من الحديد صغيرة يشترى بها من السوق اللبن واللحم وخبز الدخن .
وتجمع هذه القطع وتصنع منها البلط ورؤوس الحراب. كذلك يتعامل القوم بالأبقار ،
فيشترون بها العبيد مثلا ، وطعام هذه الأبقار من الأعشاب البرية موفور وفرة
تتيح اقتناء أى عدد منها فى حيشان المنازل .

وأغنى من يؤم اليوم سوق شندى من التجار قاطبة هم تجار سوا كن المعروفون
فى هذا الجزء من إفريقية بالحداربة أو الحضارمة (نسبة لحضرموت موطنهم
الأصلى فى جنوب بلاد العرب) . ولنى لعدم فى شندى بمض هؤلاء التجار فى أى
وقت افتقدتهم . وحين كنت بها غادرتها إلى سوا كن قافلتان منهم ووصلتها
قافلة كبيرة ، ولا يمر شهر دون أن يصل بعضهم من سوا كن . كذلك يلم
الحداربة بسوق سنار ، فتتخذ قوافلهم طريق شندى أو الطريق الأقرب طريق
قوز رجب على عطبرة ، ومنها يممون سنار مباشرة عبر الصحراء ، ويلم
بعضهم أيضاً بالأبيض فاصمة كردفان ، ولكنهم ليسوا من الكثرة بحيث يؤلفون
قوافل قائمة بذاتها ، ومن ثم فهم يرحلون إليها فى صحبة التجار الوطنيين .
ويرحب تجار سنار وكردفان بقوافل هؤلاء الحداربة حين تصل شندى ، ولا غرو
فهم أسرع الناس شراء لبضائعهم ، ولكنهم يثيرون فى صدور المصريين — منافسيهم
فى تجارة كثير من السلع — أشد ضروب الفيرة والحسد . وأهم ما يجلبه تجار
سوا كن إلى شندى هو السلع الهندية ، فيها الكمبريت مختلف الأنواع من بفتة
إلى بنوه ويجلب من مدراس وسورات ، وفيها الموسلين الخشن المجلوب من بنغالة ،
وبعضه يستهلكه أهل شندى وسنار ، ولكن أكثره يعطى لتجار كردفان عوضاً
عن العبيد ، وفيها التوابل والأفاوية لاسيما القرنفل والزنجبيل ، وفيها السكر
الهندى ، والعقود اليمنية كما يسمونها — وإن كانت لا تصنع فى اليمن —
وخشب الصندل ، وهو سلعة هامة تتخذ طريقها من شندى حتى تبتدئ الأقاليم

التي في غرب دارفور وأقصاها الباقري ، كذلك يبيع الحداربة كل ما يجلبه
المصريون من بضائع حديدية ، ولكن هؤلاء أقدر على بيعها بأثمان رخيصة ،
ويبيعون لتجار سنار ودارفور « الضُفر » وهو قشر حيوان يعيش في البحر الأحمر ،
ويقطع قطعاً صغيرة تصلح بخوراً يفوح شذاه إذا أدنى من النار . ويقبل أهل
الحجاز ومصر على قطعه الخرزية الشكل ، فيلبسها النساء قلائد في أعناقهن ،
ولونها أسود أو أزرق قاتم بمروق فاتحة . ويصدر السوا كنية هذه القلائد
إلى جدة أيضاً .

ويحمل الحداربة عوضاً من سلمهم الذهب والعميد — وعلى الأخص من
الحبش — وطلع بلاد الزنج كافة فيما خلا الصمغ العربي ، وإن كانوا أحياناً
يحملون الصمغ أيضاً ويبيعونه في اليمن للتجار الإنجليز والأمريكيين . وفي شندى
تبتاع كل قافلة سوا كنية عدداً من الجياد الدقلاوية لتبييمها بثمان مجز في بلاد
اليمن ، سواء في المبررة أو اللحية أو في الجنوب حتى مح . وفرسان الشريف حمود
— الأمير الحالي لليمن — يمتطون جياداً تكاد تكون كلها مجلوبة من دنقلة
لأن الجياد العربية الأصيلة نادرة جداً في اليمن .

وتجلب القوافل السوا كنية التي تبلغ في رحلاتها سنار تبناً كثيراً من سوقها
لتبيعه في اليمن . ويتمتع التجار السوا كنية في شندى بثقة لا يتمتع بها غيرهم
لثرائهم وكثرتهم ، وكلهم من العرب الأحرار ، فهم ليسوا فلاحين كالتجار القادمين
من صعيد مصر ، ولا سوداً كتجار كردفان ، وجلهم من صفوة الأسر
السوا كنية ، وهم يبادرون إلى الثأر لأية إهانة توجه إلى أى فرد منهم . وبما ملهم
الملك بأدب جم ، وهم يتحفونه بهدايا لا ينالها من سواهم من التجار . على أنى
سأعود إلى الكلام على هذا في معرض حديثي عن سوا كن . وسوا كن اليوم —
باستثناء مصوع — والقاهرة أهم بلد لتجارة الرقيق في الشمال الشرقى من إفريقية
وراء حدود السودان .

وليس لتجارة دنقلة أهمية تذكر في شندى . ويجلب إليها الدناقلة البلح الذى

يشترونه من المحس ، والتبع الذى تنتجه بلادهم . ويرسل البلع إلى سنار وكردفان هدايا للفلوك ، ويعدده القوم هناك ترفاً لا يفضله غير السكر .

وإنهاقت التجارة على شراء الجوازي اللوانى سبقت لمن خدمة فى بيوت الدناقلة لما اكتسب من خبره فى الطهو والخدمة (*) . وقد أصبحت شندى — بفضل اتفاق هؤلاء التجار جميعاً — أول سوق سودانية للتجارة الرقيق المصرية والعربية ، والتجار تان على صلة وثيقة بمصنعيها ببعض وبالتجارة الحبشية أيضاً ، وقد يلتقى التجار القادمون من هذه الأقطار الثلاثة فى أقصى حدود البلاد التى يؤغلون فيها للتجارة ، ويجلبون لأسواق إفريقية من الشمال والشرق سلماً تكاد تكون واحدة . ويبدو أن أبعد الحدود التى يبلغها التجار هى داء صليح ، أو لعلمها الباقرى فى غرب دارفور وشمالها الغربى . أما الأقاليم الواقعة وراء هذين الإقليمين فعلى الرغم من اتصالها بدارفور لاستيراد السلع العربية والمصرية ، إلا أنها تقفل أبوابها فى وجوه هؤلاء التجار ، وعبثاً حاول التجار أن يؤغلوا وسط قبائل العرب والبدو المعادية التى تقطن بحر الغزال ، ووسط القبائل الإفريقية الوثنية التى تقيم بين الباقرى وغفزو ، مهما تكن أهمية السلع التى يحملونها . وتبدأ تجارة فزان أو تجارة زيلع — وهو الاسم الذى يطلقونه عليها هنا — فى الانتشار وراء بحر الغزال فى اتجاه حدود بورنو ، ومن هذا الإقليم تنتشر إلى أقصى الغرب عبر السودان . ولم أعثر على أثر لأى تجارة منتظمة بالقوافل تقوم بين شرق السودان وغربه على الرغم من استفسارى عن هذا المرة بعد المرة (وفى وسع المرء أن يوجه ما شاء من أسئلة للتجار السوددون أن يخشى توجساً منهم أو غيره) ، ولم ألق أى تاجر قادم من الأقاليم الواقعة وراء الباقرى . والذين يقصدون تلك الأقاليم يلحقون فى بورنو بقوافل فزان . أما القلة من أهل بورنو التى تسافر بطريق بحر الغزال إلى دارفور رأساً فحجاج يمشون على الصدقات . وجلّ الرقيق الذين تراه فى شندى مجلوبون من

(*) بعد أن استقر الماليك فى دقلة اضطروا إلى جلب ما يحتاجونه من مصر بطريق شندى . وأقصر الطرق يستغرق خمسة أيام ، ويخترق الجبال من كورنى فى حدود دقلة جنوباً ، ولكنه طريق غير مأمّن .

أقاليم الوثنيين المتاخمة لدارفور وبورقو ودار صليح . أما العبيد المجلوبون من بورنو — وبتعيزون بالوشم على جلودهم — فلا يذهبون إلى شندى قط ، والذين ترام منهم في مصر إنما جاءوها بطريق فزان . وقل من التجار الأجانب من يفد على شندى خلاف المصريين ، وقد يفد عليها أحياناً بعض عرب ينبع في قوافل سواكن أو في القوافل المصرية لأن للينبيين بصعيد مصر مساكن كثيرة في قنا وقوص . وحين نزلت شندى كان في كردفان ينبعيان وتركى من موهل . وقد ذهب إليها هذا التركى يحمل تجارة قليلة من مصر ، ولكنه أنفق ماله في الدعارة والفجور ولم يستطع أن يدبر مبلغاً يستعين به على العودة للشمال . وقد يسلك هذا الطريق التجار الأتراك^(١) القادمون من مصر إلى دارفور أو الأشراف القادمون من الحجاز للحصول من الملوك على المطايا بالإلحاح واللحاجة نزل شندى حين كنت بها عربى قادم من سواكن ، وكان من عشيرة رفاعه التى تنسب إلى قبيلة كبيرة تجاور ينبع هى قبيلة جهينة^(٢) . وأخبرنى الرجل أن من أبناء عشيرته رفاعه — فيما سمع — قوما نزلوا جنوب سنار ، وأنه ينوى أن يلم بهم طلباً لمطاياهم لأنهم كانوا يعطفون على دوى قرباهم بالحجاز ، لاسيما على الذين يتجشمون منهم مشقة الرحلة للسلام عليهم وكان على علم باسم أحد مشايخ رفاعه وبموطنه من شاطئ النهر على نحو ستة أيام من سنار ، وغادر الرجل شندى في قافلة سنار قاصداً هذا الشيخ .

ولم بشندى أحياناً أفراد قادمون من الحجاز ومصر إلى سنار طلباً لسنار القدة يدربونها على ألعاب يتلهم بمشاهدتها أهل المدن في بلاد العرب والشام ومصر . وكان القوم حين يتبينون في ملابسهم وأدوات رثاء لم يمهدها في التجار يسألوننى المرة بعد المرة ، أقدم أنا في طلب فردة ؟ وهؤلاء القرا دون محل الازدراء والتحقير لأنهم — على حد قول السود فيهم — ينفقون حياتهم كلها في إضحاك الناس عليهم .

(١) حين أستعمل لفظ الأتراك أقصد بهم العثمانيين أو مسلمى أوروبا وآسيا الصغرى .

(٢) لقيت في القاهرة أعراباً من قبيلة جهينة أخبرنى أن القبيلة قوامها بدو وزراع .

لقد أفغنت في الحديث عن التجارة لأنها عصب الحياة في هذه البلاد . ولن تجد من القوم امرأة واحدة لا صلة لها بفرع من فروع التجارة ، سواء تجارة الجملة أو التجزئة ، وتستطيع أن تسمى أهل بربر وشندى أمة من التجار بأدق ما في هذه العبارة من معنى . وبقيت لي ملاحظات قليلة أذكرها فيما يلي عن أهم فروع تجارتهم وأعني به تجارة الرقيق .

يبلغ عدد المبيع من الرقيق سنوياً بسوق شندى - حسب تقديري - قرابة خمسة آلاف ، يحمل التجار السوا كثيرون نصفهم والمصريون ألفاً وخمسمائة منهم ، أما مصير الباقين فدقيقة ومواطن البدو الواقعة شرق شندى تجاه عطبرة والبحر الأحمر . وقد أشرت في حديثي السابق إلى المواطن التي يجلب منها هؤلاء . فوطن المجلوين من كردفان إلى دارفور في الغالب بلاد ينما وباجه وفتقو وفرنبت الواقعة إلى الجنوب والجنوب الغربي من دارفور على مسيرة عشرين إلى أربعين يوماً من كوبي ، وهذه البلاد كلها وثنية ، ولكل منها لغتها الخاصة . ويتجر تجار دارفور مع فريت التي تبعد عشرين يوماً عن كوبي ناحية الجنوب ، وهي بلاد جبلية يجهل أهلها الزراعة جهلاً تاماً ولكنهم ذاقوا لذة الذرة والدخن ، وفي سبيل الحصول عليهما - إذا عز محصولهما - يبيعون حتى أطفالهم فيما يروى .

وجل العبيد المجلوين إلى شندى دون الخامسة عشرة . ويقسمهم الجلابون حسب أعمارهم إلى فئات ثلاث : الخامس (دون العاشرة أو الحادية عشرة) والسادس (فوق الحادية عشرة ودون الرابعة أو الخامسة عشرة) ، والبالغ (من الخامسة عشرة فصاعداً) . وأعلى هؤلاء عندهم السادس . وحين كنت بشندى كان العبد السادس يساوي خمسة عشر ريالاً أو ستة عشر ، هذا إذا كان جلده يحمل سمات الجدري ، وإلا فثلاثي هذا المبلغ لا أكثر . وكانت الجارية تساوي من عشرين إلى خمسة وعشرين ريالاً إسبانياً . وكان ثمن العبد الخامس اثني عشر ريالاً وثمان الجارية خمسة عشر . وقصارى ما يبلغه ثمن العبد البالغ ثمانية ريالات أو عشرة ، ونسبة العبيد البالغين ضئيلة لأن القوم في مصر وبلاد العرب لا يركنون إلى عبد لم يربيه سيده منذ صغره . لذلك تراهم يكرهون أن يشتروا العبيد الكبار لخدمة

البيوت أو حتى للفلاحة . وجل البالغين يشتريهم البدو ليستخدموهم رعاة . ويقتنى البشاريون العدد الكبير منهم في جميع مضاربهم . أما الجوارى الكبيرات فقد تباع الجارية منهن بثمان يرتفع إلى الثلاثين ريالاً — وإن جاوزت سن الصبا والجمال — إذا أثر عنها حذقها الخدمة والحياكة والطهو وما إلى ذلك من أشغال البيوت . وأهل الشام لا يقتنون من العبيد إلا قليلاً ، وجل من رأيهم هناك جلبتهم القوافل من بغداد ، وموطنهم سواحل موزمبيق .

وقل من العبيد المجلوبين لمصر من لم تتبادله أيدي السادة مرات قبل أن ينتهى به المطاف إلى أسرة من الأسر . فالعبيد المجلوبون من فريت مثلاً يجمعهم من حدود وطنهم أولاً صفار تجار الذرة ، فيبيعونهم لتجار كوبي الذين يقصدون فريت في قوافل صغيرة لهذا الغرض . وفي كوبي يبتاعهم تجار دارفور أو كردفان ويحملونهم إلى الأبيض بكردفان . وفي الأبيض ينتقلون غالباً إلى أيدي تجار كردفانيين آخر يمحضون بهم إلى شندى . والسبب في هذا هو أن تجار السودان يقصرون تجارتهم عادة على سوق واحدة ، ففريق من الكردفانيين يتجر مع دارفور وآخر مع شندى ، وفريق من المصريين يتجر مع شندى وآخر مع سنار ، وكذلك الحال مع السواكنية : ففريق منهم يتجر مع شندى وآخر مع سنار . وإذا جرى بالعبد إلى شندى ابتاعه من سوقها مصرى أو عبادى ، حتى إذا بلغ به صعيد باعه في إسنا أو أسيوط أو القاهرة . وفي إسنا وأسيوط يشتري التجار العبيد بالجملة ثم يبيعونهم بالتجزئة في القاهرة أو في بلدان الصعيد يلمون بالبلد منها أيما في رحلتهم هابطين مع النهر . وقد لا يباع العبد نهائياً حتى في القاهرة حال وصوله إليها . فوكالة الجلابة القريبة من الجامع الأزهر تفص بالبداين وصفار التجار يسامون تجار الصعيد على شراء العبيد حال وصولهم ، ثم يبيعونهم لآخرين ، قانعين من هذه الصفقة بربح قليل . يضاف إلى هؤلاء تجار من أزمير والقسطنطينية اتخذوا القاهرة مقراً لهم واشتغلوا بتجارة الرقيق دون غيرها . ويصدر هؤلاء التجار الرقيق من الإسكندرية ، وقد ينتقل العبد إلى أيدي سادة ثلاثة أو أربعة بمد ترحيله من الإسكندرية حتى يبلغ مستقره الأخير في ولايات تركيا الشمالية .

ذلك هو المصير الذى يلقاه هذا التمس النكود ، وفى حالات كثيرة تتناقله أيدي السادة بأسرع من هذا . فقد رأيت فى شندى وإسنا عبيداً يبعون واشتروا فى السوق مثنى وثلاث قبل أن ينقلوا منها نهائياً ، وقد يمرضهم سيدهم بعد ذلك للبيع مرة أخرى أو يستبدل بهم غيرهم إذا جربهم أياماً فالفاهم على غير ما يشتهى . والواقع أنه لا فرق بين الرقيق وسائر السلع ، وعلى ذلك لا يفتأ الأرقاء ينتقلون من تاجر إلى تاجر . والقوم يسمون الرقيق رأساً ، كأنه من الأنعام ، فيقولون فلان يملك عشرة رؤوس من الرقيق (*) ، كقولهم إنه يملك خمسين رأس غنم . وإذا طلبوا إلى المشتري أن يعضى بالعبد قالوا له « سوقه » ، وهو لفظ لا يستعملونه إلا للأنعام ، فيقولون مثلاً « سوق الغنم قدامك » .

وبين العبيد الذين شهدتهم معروضين للبيع بشندى أطفال كثيرون فى الرابعة أو الخامسة بغير والديهم ، وليكنك تجد بالسوق أيضاً أطفالاً فى هذه السن تصحبهم أمهاتهم . ويبدى الجلالة من الشفقة عليهم ما يمنهم من بيع الأطفال منفصلين عن أمهاتهم إلا نادراً ، فإذا أتى أحدهم هذا الأمر استحق لوم الجميع على قسوته .

ويحرص الجلالة حين يشترون العبيد على التأكد من جنسهم ، فقد تعلموا بالتجربة أن أفراد الجنس الواحد لا تختلف طباعهم إلا قليلاً . فعبيد نوبا المجلوبون من سنار أدمت العبيد طباعاً بعد عبيد الحبش والجلالا فيما يقال ، وهم أشدهم تعلقاً بسادتهم وإخلاصاً لهم . أما الحبش فالشماليون منهم — ويسمون القسطينيين — عرف عنهم الحبث والحيانة والفدر ، فى حين يؤثر عن الأمارة اللطف والوداعة ، وأعلى الزوج الغربيين عند الجلالة هم أهل بندا ، ويلبهم العبيد المجلوبون إلى دارفور من قطر إسلامى يدعى برقو يخطف أهله جيرانهم الوثنيين . ويقال إن العبيد المجلوبين من فريتيت متوحشون محبون للنار والانتقام ، ومرتبهم أحط مراتب العبيد .

وندر بين العبيد المجلوبين إلى شندى من لم يقض فى الرق أمداً طويلاً ، وآية

(*) فى إقليم سنار لا يسمون العبد عبداً بل رقيقاً .

ذلك أننى لم أر بينهم عاجزاً عن التفاهم بالعربية ، وجل الأرقاء المجلوين من دارفور
يركدفان على شئ من العلم بلهجات هذين القطرين فضلاً عن معرفتهم بلغتهم
القومية وباللغة العربية .

وإذا افتنى المسلم غلاماً ختنه وأطلق عليه اسماً عربياً . على أن العبيد قلماً يحظون
بشرف الأسماء الإسلامية الصحيحة كحسن ومحمد وسليم ومصطفى وما إليها ،
فجلهم يحمل أسماء كخير الله وفضل الله وفضل الواسع وجبر الواحد وأم الخير الخ ..
وقد تكون أسماءهم أغرب من هذا وأعجب ، كصباح الخير ، وجراب ، إلخ ..
وندر أن يجلب من الغرب غلمان غير مختونين ، ولم أسمع قط بغلام زنجى آثر اتباع
وتتية آبائه وأبى دخول الإسلام . ولست أرى سمعت عن كثير من الأرقاء الأحباش
ممن حولهم ساداتهم الأحباش المسيحيون من الوثنية إلى المسيحية ثم باعوه فيما
بعد إلى الجلالة المسلمين — أقول إن كثيراً منهم — لاسماً الجوارى — رفضوا
التحول عن دينهم ، ومن الجوارى من ثبات على الرفض وهن في حريم المسلمين
نباتاً حل ساداتهن آخر الأمر على بيعهن خشية أن يعقبوا من أمهات نصرانيات ،
وهى معرة تلتصق بالأب وذريته أبد الدهر . وأهل السودان لا يملكون العبيد القراءة
ولا الصلاة وإن سلكوهم في زمرة المسلمين بالحقان . وحتى في مصر وشبه جزيرة
العرب لا يعلم القوم من العبيد إلا آثرهم لديهم . ومع ذلك فإنك تجد في هؤلاء
العبيد تعصباً للإسلام لا تجده في أشد العلماء ترمناً ، والمسيحيون والفرنجة أكثر تعرضاً
للالهانة والسب على يد العبيد منهم على يد أية طائفة أخرى من طوائف المسلمين .
وسألت القوم في شندى هل بين العبيد المجلوين لها خصيان فقالوا إنه لم يرد
لمسوقها من الخصيان أحد أثناء مكثي بالمدينة ، وإن الإقليم الوحيد من أقاليم
السودان الغربى الذى يخصى فيه العبيد لتصديرهم هو برقو (غربى دارفور) . على
أن هؤلاء قلة لا تذكر ، ويؤخذ بعضهم من دارفور إلى مصر ، ويبحث ملوك الزنوج
بالباقين على سبيل الهدية للمساجد الكبرى بمكة والمدينة بطريق سواكن . وأكبر
« مصنع » يزود تركيا وأوربا جميعها وممظم تركية آسيا بهؤلاء الحراس القائمين
على عفة النساء تجده في قرية من أعمال أسيوط بصعيد مصر تدعى « زاوية البرير »

وأغلب أهلها من القبط . وكان يقوم بهذه العملية يوم ألمت بهذا البلد راهبان قبطيان قيل لى إلهما فاقا كل من سبقهما حذفاً لصناعتهما ، وكان لهما بيت يستقبلان فيه الضحايا . وهذه الصناعة يُمقتها القوم ويزدريها حتى سفلتهم ، ولكن الحكومة تبسط على الراهبين حمايتها لأنهما يؤديان لمن إتاوة سنوية . أما أصحاب العبيد فإنهم يمجدون في الأرباح الطائلة التي تدرها عليهم هذه العملية الوحشية ما يفرهم بالرضى عن عمل قد ينفر منه أكثرهم ويستمتعون به في دخيلة نفوسهم . والعملية على غرابتها وشذوذها يندر أن تقضى إلى موت العبد . وأنا أعلم على التحقيق أنه لم يمّت من بين ستين غلاماً خصوا في خريف عام ١٨١٣ سوى غلامين . وقد أكد لى كل من سألته بأسيوط أن هذه النسبة أعلى من المعدل ، إذ قلّ أن تزيد نسبة الوفاة على اثنين في المائة . ولم تتح لى فرصة مشاهدة هذه الجراحة لأنها تجري لأكثر الغلمان حال وصولهم أسيوط في قوافل دارفور وسنار ، ولكنى سمعت وصفها من فم شهود عيان كثيرين . ويتفاوت عمر الغلمان الذين يقع عليهم الاختيار بين ثمان سنوات واثنتى عشرة لأن المتقدمين عن هذه السن قد تقضى الجراحة على حياتهم (*) .

ولا يختار للخصى من الغلمان إلا أصلبهم عوداً وأوسمهم خلقة ، ولكن الجراحة تترك على قسماتهم أثراً يبدو واضحاً حين يكتمل نموهم . وحين تأملت الخصيّان الذين لقيتهم بالحجاز ألفت لهم وجوهاً تجردت من اللحم أو كادت ، وعيوننا غارت ، ووجنات برزت عظامها ، وسحنات عجفاء تستطيع بنظرة واحدة أن تحكم بأن أصحابها مخصيون .

ويبلغ ثمن الغلام بعد أن يجوز هذه الجراحة بسلام ألف قرش في أسيوط ، وقد يكون سيده ابتاعه بثلاثمائة قبل أسابيع ، وأدى للجراح القبطى أجراً يتفاوت بين خمسة وأربعين قرشاً وستين . وفي هذا الربح الفاحش الذى يصيبه الجلاب من صفقته هذما يكنى للقضاء على كل عاطفة للرحمة قد ينبض بها قلبه . ويخصى في كل

(*) أورد المؤلف في ص ٣٣٠ فقرة باللاتينية تصف الجراحة وقد حذفناها ، ونحيل من أرادها على الأصل . (غرابال)

ما يقرب من مائة وخمسين غلاماً . وقيل عامين أمر محمد علي بخصي مائتي غلام من دارفور أهداهم إلى الباب العالي . وقد ضعفت عادة اقتناء الخصيان في مصر والشام ضعفاً شديداً . ولست أحسبك واجداً في مصر كلها من هؤلاء الخصيان أكثر من ثلاثمائة ، إذا استثنين الموجودين منهم في حريم الباشا وحريم أبنائه ، أما في الشام فهم أقل من هذا . ذلك أن الناس في هذين القطرين يتعرضون لأشد الأخطار إذا أعلنوا ثراءهم وجهرأ بنعمتهم ، واقتناء الرجل منهم عدداً من الجوارى يتطلب خصياً يحرسهن أمر يثير جشع الحكام ويفريهم بابتزاز ماله . ومن أندر الأشياء أن تجد خصياناً بيضاً في أملاك العثمانيين ، وقد لقيت في شبه جزيرة العرب عدداً من الخصيان الهنود في وجوههم صفرة الموت ، وقيل لي إن العبيد في الهند كثيراً ما يخصون . وجل الفلما الذين يخصون بأسويط يرسلون إلى القسطنطينية وآسيا الصغرى ^(١) .

ويلقى العبيد من الجلالة معاملة هي أقرب إلى الرقة منها إلى العنف ^(٢) . والمادة أن يعلم العبد أن يدعو سيده « أبوى » وأن يعتبر نفسه ابنه . وقل أن يجلد الجلاب عبيده أو يرهقهم بالعمل ، بل إنه ليعطيهم طعاماً طيباً ويتلطف معهم في الحديث ، لا راحة لهم وبرا ولكن خشية من هروبهم إذا أساء معاملتهم . وهو

(١) كان القبطانيون - بحكم تحمسهم للوهابية التي اعتنقوها - يناوئون شريف مكة أشد المناوأة إبان حروبه مع سعود زعيم الوهابيين ، فأسر الشريف منهم مرة أربعين رجلاً ، وقال لهم إنه قد قتل من قبيلتهم ما يكفي ، ثم أمر بخصيمهم وردهم إلى أهلهم . ولما كانوا رجالاً لأحداثاً فقد فتكت المراحة بهم جميعاً إلا اثنين عادا لوطنهما وأصبحا بعد ذلك ألد أعداء الشريف غالب ، فقتل أحدهما بيده ابن عم لغالب في إحدى المعارك ، أما الثاني فقد قتل وهو يحاول في معركة ثانية أن يخترق صفوف الفرسان ليثأر من الشريف شخصياً . وقد لام الناس الشريف على قسوته أشد اللوم لأن فعلته هذه تجافي الرحمة التي طبع عليها العربي . وقد سقت هذا الحادث دليلاً على أن الناس لم ينسوا تماماً هذه المادة القديمة ، أعني معاملة الأسرى على هذه الصورة التي تراها ممثلة على كثير من المعابد في صعيد مصر ولا سيما في مدينة هابو . على أن هذا الحادث هو الوحيد الذي سمعت به من نوعه .

(٢) وردت في ص ٣٣١ وهامشها وفي ص ٣٣٢ وهامشها تفصيلات عن ختان البنات آثرنا حذفها ونحيل من أرادها على الأصل . (غريبال)

(م ١٧ - رحلات بوركهاتوت)

لا يجهل ما يلحقه بصحة العبد من أذى إذا هو حاول منعه من الهروب بحبسه والتضييق عليه ، لأن للعبيد الجدد غراما بالخلاء ، وهم لا يدخلون البيوت إلا كارهين ، فهي السجون بعينها في نظرهم . ولسكنهم ما إن يدخلوا الصحراء — في طريقهم إلى نهاية الرحلة — حتى يتنكر لهم سادتهم ويرخوا العنان لشراستهم وتوحشهم ، لأنهم يعرفون أن العبيد سدت دونهم سبل الهروب . وطالما سمعت رفاقي بشندى — وهم على فظاظتهم لم يكونوا أحط طبقات الجلالة ولا أسفلها — يحدث بعضهم بعضاً إذا أساء عبد من العبيد أدبه وخافوا مغبة عقابه ، فيقولون : صبراً حتى يجتاز بربر ، وبمدها يعلمه السكراباج الطاعة والامتثال . وقد رأيت مثل هذه القسوة في التجار السواكنية الذين سافرت في قوافلهم بمد ذلك ، فهم يتنكرون للعبيد إذا اجتازوا التاكة . على أن صحة العبد هي على الدوام محل عناية الجلاب ، فالعبد يصيب طعامه بانتظام ، ويأخذ حظه من الماء خلال الرحلة مع سيده . كذلك يسمح لصغار الفتيات ونحافهن بركوب الإبل في حين يقطع الباقون الرحلة راجلين ، سراء كانت وجهتهم مصر أو سواكن ، كما قطعوها من دارفور إلى شندى . وقد رأيت في صغار العبيد من شدة البدن وصلابة العود عجباً . كنت أجدهم ، بعد مسيرة أيام متوالية بمعدل عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، يلعبون ويمرحون عقب العشاء كأنهم قد نعيموا براحة طويلة . وتحمل النساء الأطفال على ظهورهن ماشيات خاف القافلة . وإذا أعيا حمل حمل الجلاب العبيد حمله ، ويكفي الفلام شئ من السمن يصيبه في العشاء مع خبز الذرة وقليل من الشحم يلطخ به جسده وشعره كل يومين أو ثلاثة ، فلا يشكو قط تعباً ولا نصباً . وثمت دافع آخر يحفز الجلالة إلى الترفق بالعبيد ، وأعني رغبتهم الشديدة في محو ما علق بأذهان الزوج أحمين من خوف وفزع مبعثهما مصر وسائر بلاد البيض . فالفكرة السائدة في بلاد الزنج هي أن « ولد الريف » (أى المصريين) يأكلون العبيد ، وإن هؤلاء يحملون إلى مصر لهذا

(*) الريف هو اللفظ الذى يطلقونه في هذه البلاد على مصر ، ومعناه الأرض المنخفضة الكثيرة المياه .

الفرض^(*) . لذلك لا يدخر الجلابة جهداً في نحو هذه الفكرة والقضاء عليها ، ولكنهم برغم ذلك لا يفلحون في اقتلاعها من رموس المبيد . وشيء آخر يفرع منه المبيد هو حيوان ضئيل وثاب يزعمون لهم أنه سيميش على جلودهم ويمتص دمهم ولا يدعهم ينعمون بالراحة ولو لحظة واحدة . وهم يمنون البراغيث ، وهي حشرات لا عهد للقوم في قلب السودان بها ، ويروون عنها أغرب الروايات حين يحصون الفضائل التي تميزت بها بلادهم على أرض مصر . غير أن بلادهم تحفل بحشرات أخبت من البراغيث وأشنع . وأخوف ما يخافه الغلمان أيضاً أن يطوَّشوا في مصر حين يبلغونها .

والغلمان المبيد مطلق الحرية في نطاق حيشان البيوت ، أما الكبار ممن لا يطمئن سادتهم إلى طباعهم أو ممن يجهلون أخلاقهم فيحبسون ويراقبون بل ويوثقون بالأغلال في كثير من الأحيان . ويربط العبد في أثناء الرحلة إلى قاعة طويلة يشد أحد طرفيها إلى رجل الجمل ويحيط طرفها الثاني — وهو على شكل شوكة — بمنقه من الجنين ويربط خلفه بحبل متين يمدمه من إخراج رأسه من حبسه . ثم تشد يده إلى القاعة على مقربة من رأسه ، فلا يبقى طليقا من العبد غير ساقيه ويسراه . وعشى خلف الجمل على هذا النحو سحابة يومه ، أما الليل فيقضي سواده راسقاً في الأغلال بعد أن يفك من القاعة . وقد رأيت في رحلتى إلى سواكن عبيداً كثيرين يساقون على هذا النحو ، وكان الجلابة يخشون أن يهربوا أو أن يثأروا لأنفسهم منهم . وهكذا يظل العبد حبساً مغلولاً حتى يشتريه سيد ليقته، فيترقى به اجتلاباً لمحبه وولائه . ويخشى الجلابة على العموم مغبة غضب العبيد وسخطهم ، وإذا أراد أحدهم أن يجلد فتى منهم وضع الأغلال في يديه ورجليه أولاً .

(*) حين كنت بصعيد مصر حدث حادث غريب أسوقه دليلاً على تساط هذه الفكرة على عقول السود . ذلك أن رجلاً من علية القوم اشترى بأسيوط فتاتين من قافلة دارفورية ، ثم دعا نفرًا من أصحابه ليقضوا معه عصر يوم في مغارة لطيفة الجو من مغارات الجبل الواقع خلف أسيوط . وأمر الرجل الفتاتين أن تصجبا ، ولكن ما إن دخلتا المغارة حتى توهمتا أنها المسكان المعد لدمجهما . ولما رأتا المدي الذي جيء بها لتقطيع اللحم الذي ساء كله القوم حاولت إحداها الفرار فأطلقت ساقها للريح ، ووقعت أختها على الأرض تصرع إليهم ألا يذبحوها . واقتضى إقناع الفتاتين بفساد هذه المخاوف وقتاً غير قليل .

وليس من المستغرب أن يبيع الجلاب أبناءه الذين ولدتهم له نساء زنجيات ،
وفي كل يوم تسمع عن جلابة باعوا جوارى قد حبلن منهم . وفي هذه الحالة يصبح
الطفل المنتظر ملكاً للمشتري بطبيعة الحال . ويقتنى معظم الجلابة عبيداً كباراً يكون إليهم
أمر صفار العبيد الذين يشترونهم ويفيدون أعظم الفائدة من خدماتهم في أثناء
السفر . ولكن رأيت الجلابة لا يبقون حتى على هؤلاء ، مع أنهم لطول مكثهم في
بيوتهم أصبحوا كالأهل والولد . ولا حافز لهم إلى بيعهم غير شهوة الربح .
فمن العيب إذن أن تلمس عند هذه الطائفة أثراً للمودة أو العطف أو عرفان الجليل .
وتمن الجوارى في كل مكان يزيد ثلاثين في المائة على ثمن آرائهم العبيد .
ويعودون هنا خادماً لا جوارى كما في مصر . وأجملين يقتنيه الجلابة أنفسهم ،
ويسمون الفتاة منهم « سرية » . وتتمتع هؤلاء السراى بقسط كبير من الحرية
كثيراً ما يستعملونه . ويزعم لك الجلابة في مصر - كاذبين - أن من عاداتهم
المرعية ألا يمتدوا على عفاف الجوارى الجميلات ، أما الواقع فهو أنهم في صلاتهم
بهن لا يرهون أدباً ولا لياقة ، وكثيراً ما شهدت في رحلتنا إلى سواكن
مناظر مخزية يندى لها الجبين ، وذلك حين كان الخوف من الخطر ياجئ المسافرين
إلى التخيم في حلقة واحدة واسعة ، وكان الجلابة ، وهم المسئولون عن هذه المناظر
قبل غيرهم ، يكتفون بالضحك منها . وإنى أقررها - أيا كانت مزاعم القوم في
القاهرة - أن القليل جداً من الجوارى اللاتي جاوزن العاشرة يصلن مصر أو بلاد
العرب عذاري . ويحرص وجوه القوم في هذين القطرين أشد الحرص على
ألا يشتروا من الجلابة جوارى بالغات إلا للخدمة ، وأكثر ما يشترون الفتيات
الصغيرات يربونهن بين نسائهم .

ويبتاع القوم صفار العبيد تحت التجربة . وللمشتري من سوق شندى أن يهرب
العبد يوماً ، أما في مصر فتلاثة أيام . وكثيراً ما يأخذ المشتري فتاة « لتجربة ليلة »
كما يقولون ، وله أن يردها في الغد دون أن يبدي لردها سبباً سوى نفوره منها ،
إذ قل أن يهتم هؤلاء المتوحشون بتربية جواريتهم على الشعور بالحياء أو الشرف ،
فلا غرابة إذا شبن فاجرات بعد بقاءهن زمناً في حوزة الجلابة . وقد يباع صفار
العبيد أحياناً يوماً بشرط فيه هدم ردم شرطاً صريحاً .

وهناك عيوب إذا شابت العبد كان من حق مشتريه أن يرده ولو بعد أسبوعين ، اللهم إلا إذا كان قد تنازل عن هذا الحق وهو يشتره . وأهم هذه العيوب : (١) الشخير بالليل ، وهو في نظرهم عيب كبير . (٢) التبول في النوم . (٣) تحريق الأسنان في النوم ، وهي عادة بغيضة لأنهم يمتقدون أن صاحبها لا يرجى منه أن يدين لسيده بحجة أو ولاء . (٤) أى مرض لم يبرأ منه العبد برء تاماً ، أو أى مرض قدبم يماوده وهو فى حوزة مشتره كالحى التقطعة أو الحكة أو نحوها . ويحرص القوم حين يشترون العبيد على التحقق من سبق إصابتهم بالجدرى . وغير المصابين بهذا المرض أرخص ممن أصيبوا به . وقد روى الجلالة أن نسبة الوفاة بالجدرى فى صغار العبيد بدارفور وكردفان تبلغ خمسهم فى المتوسط .

ويتجر كثير من الجلالة فى مغائن جواربهن ويقاصمونهن الریح فيما بعد ، وكان أحد رفاقى بالقافلة يؤجر إحدى جواربه جهرة بكيلين من الذرة يأخذ لنفسه منهما كيلا . وأذكر أن فتاة من جواربه الأثيرات لديه ماتت فى أثناء مقامنا بشندى ، فجردها من كل قطعة من الدمور تكسو جسدها ، ثم أمر فى غير اكتراث ولا مبالاة بأن تحمل الجثة على حمار إلى النيل وتدفن فيه . وقلما يدفن العبيد ، إنما جرت العادة أن تلقى جثثهم فى النهر .

ويحرص الجلالة على منع المخالطات النابية بين الرقيق ، فيفصلون الغلمان عن الفتيات فى الليل ، لا بدافع الفيرة بل الخوف من أن يهبط ثمن الجارية إذا حبلت . ولكن هذا الذى يخشون قد يقع برغم يقظتهم وحذرهم ، ويغلب أن يكون لكل فتاة محبوب تؤثره بين عبيد سيدها . ويعتقد القوم فى جميع الأقطار التى تنتشر فيها تجارة الرقيق أن الزنجية أسرع حملا من زنجى عنها من غريب . فإذا ثبت أن جارية من جوارى الجلاب حبلت لم بدخر جهداً فى إجهاضها ، فيسكرها على تماطى ألوان من المقاقير المجهضة فى زعمهم ، بل إننى شهدت غير مرة سادة يضربون جواربهن الحبالى ضرباً لا يترك مجالاً للشك فى أنهم يرمون من ورائه إلى اجهاضهن . ومن الملاحظ فى بلاد الشرق أن الجارية إذا حبلت اعترفت بالفاعل فى غير عناء . وقد

سمعت بحالات جلب فيها هذا الاعتراف عليهن الوبال ، مع أن توقيه كان يسيرا .
والإجهاض أعم في مصر حيث تقتنى كل أسرة تقريبا عبداً وجارية من السود ،
ولا يمدد القوم هناك جريعة على الإطلاق ، ويسمح السادة للآثيرات من أجوارهم
بمحضور مجالس البوطة ، وأكبر ما يلهون به في هذه المجالس إتهال الفتيات
بالشراب حتى يثملن .

ولقد كوَّنت من أخلاق الزوج وطباعهم أسوأ رأى لما رأيت منهم وما سمعت
عنهم . على أن الإنصاف يقتضيني أن أضيف إلى هذا الحكم أنني لم أرهم بمد
في أوطانهم قبل أن يقتنصهم طعام الجلالة ، وهم كفيلون بإفساد أطف الطباع
وأرقها . غير أنى لم أجد بين العبيد من أخلصوا الولاء لسادتهم إلا القليل ،
حتى ولو أحسن هؤلاء السادة معاملتهم . وأسوأ ما يشينهم عناد لا سبيل إلى
ردم عنه ، وخيلاء واصل في الطبع ، وفي كثير منهم حقد قتال وولع بالنار ،
ولسكنك لن تجد فيهم هذا الغدر الذى تجده حتى في أطفال العرب الأحرار
في وادى النيل وبلاد النوبة . وفي الزوج كسل وإهمال وبذاذة ، وهم لا يؤدون
أعمالهم إلا مكرهين . ويخيل إلى أنهم تجردوا من كل عاطفة سوى شهوة البطن ،
وهم لا يأبهون لما يصيبهم من ضرب أو سب ولعن إذا وجدوا الطعام الجيد
وأصابوا حظهم من السمن واللحم بانتظام وظفروا بقدر من الشحم يلطخون
به أجسادهم . ومن المبارات المأثورة عن الجلالة قولهم « لا تأمن العبد . اضربه
واطعمه تشوف الحاجة مقضية » . ولست أدري مبلغ الصواب في هذه العبارة ،
ولكننى أعلم على التحقيق أنها المبدأ الذى يستوحيه الجلالة إذا أمنوا هرب
عبيدهم . على أن هذه المعاملة لا تحدد من ولع العبيد بالمرح واللهو والطرب ،
وقد يكون مرجع هذا قوة في أذهانهم أو تبليداً في عاطفتهم . أما ذكاؤهم فلا
يقل مرتبة — فى رأى — عن ذكاء العرب الزوج ، ولعله دون ذكاء أهل
مصر والشام قليلا . ولست أرى في جموعهم ما يشينهم لولا ما يقترن به
في كثير من الأحيان من الحقد والكراهية . وقد أسأفت أن لشعوب السودان
المختلفة طباعاً مختلفة ، وكل ما عرفته منهم لم يزغزع عقيدتى في أن السود

قد يبلغون - إذا تهيأ لهم التعليم الصحيح - مرتبة تداني مرتبة البيض إن لم تساوها .

وأجسام العبيد على مغالبتها للتعبد ليست أشد من أجسام الأوربيين ولا أصلب ، بل إن الشواهد تحملني على الاعتقاد بأنهم في جلتهم أكثر تعرضاً للمرض من الأوربيين ، ولست أشك في أنهم أقل احتمالاً له وصبراً عليه حين يقومون فريسة له . ومن المبارات المألوفة عن الجلالة قولهم إن الضربة (أى المرض) التي لا تهز عربياً قد تصرع عبداً . وأكثر الملل تفشياً بينهم الحمى المصحوبة بالالتهاب ، ويستهدف لها كذلك أهل شندى . وهم يعالجونها بالحجامة على الساقين وبشرب نقيع النمر الهندى ، ولكنها تفتك بكثير من العبيد لاسيما الذين أعياهم طول السفر ووعثاؤه . وائل السبب الأول في هذا تعرضهم لتيارات الهواء وهم يتصبون عرقاً ونومهم الليل كله عراة . وسمعت منهم كثيرين يشكون مرض الصفراء ، وائل سببه الإفراط في تعاطى البوظة الشديدة التخمر . وتتفشى البواسير على نطاق واسع بين الأهالى ، وهى أقل تفشياً بين العبيد ، ولا دواء لها عندهم غير السكى بالحديد الحمى . وأول ما رأيت الفرنتيت (أو دودة غانة الأصلية) في شندى ، ولكنها معروفة أيضاً للعبيد وتجار السودان الذين يفدون على الصعيد . ويلاحظ لى أنها منتشرة في السودان ، وقد رأيتها في شبه جزيرة العرب كذلك . وهى حين تعلق بالجسم لا تتخير الساق دون غيرها ، فقد رأيتها تخرج من الذراع ومن الصدر ومن الركبتين ، ولكن أحب أعضاء الجسم إليها سمانة الرجل . والإصابة بها في شندى أقل منها في كردفان ودارفور ، ويصاب بها عدد كبير من العبيد والجلالة الوافدين من هذين القطرين . وهى وإن سببت للمصاب بها آلاماً مبرحة لا تمنعه من السير حتى يشرف على الموت . وقد أرونى نفرأ أصيبوا بها صرات ، ولكن الحظ حالهم فيها كلها ففطنوا إلى الدودة وهى تحاول اختراق جلودهم واستطاعوا بشيء من الأناة والصبر أن يستلواها . ولا تفتك الدودة بإنسان إلا إذا عاجز عن سلها من جلده أو مرقها وهو يحاول سلها ، ولكن

كثيرين يبرأون من الإصابة بها حتى ولو تمزقت منهم . وفي كردفان ودارفور
يمزق القوم الإصابة بالفرثيت إلى البقايا الحيوانية التي يحتويها الماء الذي يشربونه
عقب هطول الأمطار المبكرة .

ويندر في السودان أن يمتق العبيد ، أما الجوارى فكثيراً ما يمتقن . والحال
غير هذا في شبه جزيرة العرب ومصر ، فقل أن تجد فيهما عبداً خدماً أسرة محترمة
فترة من الزمن ولم ينل حريته ، وم إما بزواجه جارية من جوارى الأسرة أو يبقونه
بمحض اختياره خادماً للأسرة يتقاضى على خدمته أجراً . وقد درج القوم في هذين
القطرين على عتق الجارية إذا ولدت لسيدها طفلاً . ومما يشين السيد في هذه الحالة
— لا سيما إذا كان المولود ذكراً — ألا يقدم للأم « تذكرة النكاح » موقفاً عليها
من القاضي ، وهم يكتفون من مراسم الزواج بهذه التذكرة . فإذا مات الطفل بعد
الزواج لم يكن على الرجل من حرج أو لوم إذا طلق المرأة ، ولكن يكون زاماً عليه
أن يقوم بتفقتها . ولما كان الشرع الإسلامى يقصر عدد الزوجات على أربع ، فإن
أغنياء القوم قد يأخذون لأنفسهم — فوق أزواجهم — محظيات من هؤلاء المعتوقات .

والرق في بلاد الشرق ليس فيه ما يخيف ويفزع إلا اسمه . فالقوم في
كل مكان يعاملون العبيد كما يعاملون أبناءهم ، وهم يعاملونهم خيراً مما يعاملون
الخدم الأحرار . ومن الخسة عندهم أن يبيع الرجل عبده بعد عشرة طويلة . وإذا
أساء عبد سيره أرسلوه إلى الريف ليشتغل فلاحاً في حقل سيده . ولا يتمتع الجوارى
اللاتى يقمن بخدمة الأسر بمثل ما يتمتع به العبيد ، وذلك لما تجلبه عليهن غيرة
سيدياتهن من أذى بليغ . ولا يسمى معاملة العبيد غير الجنود الأتراك ، فهم
يبتاعون صغار العبيد في الصعيد ويربونهم في بيوتهم ، حتى إذا شبوا وتعلموا
ألبسهم لباس الجند وقلدوهم السلاح وسلكوهم في فرقهم التي يقودونها . وفي
هذه الحالة يتسلم التركي راتب عبده من الحاكم كما يتسلم رواتب غيره من الجند ،
فنظام الجيش العثمانى يقضى بأن يتسلم الضابط أو « الباشى » رواتب الجند الذين
يقودهم وأن يقوم بتوزيعها عليهم . ومن هنا كان تجنيده العبيد مصدر رزق له ،
ولا تمنع الحكومة قط في الانتفاع بخدماتهم ، ورواتبهم لا تدخل إلا جيبه ،

فهو لا يلتزم إلا بإطعامهم وكسائهم . وعلى هذا النحو دخل الجيش التركي في مصر عدد غفير من الجند السود . بل إن محمد علي فكر - فيما يقال - في تنظيم فرقة من السود وتدريبها على أساليب الحرب الأوربية ، ولكن بلوح أن نفور كبار ضباطه من هذه البدعة حمله على العدول عنها . ويشتري الضباط الأتراك في مصر من ستمائة عبد إلى ثمانمائة في كل عام .

وفي الأقطار الجنوبية درج العبيد - الذين اقتنأهم الأهالي في بيوتهم لا الجلالة - على أن يعتبروا أنفسهم أعلى مقاماً من كل فرد في الأسرة ، فيما خلا ربها . فيباح للعبد حضور مجالس الأسرة ، ويسمح له بالتجارة أو بالاستغفال بغيرها من الأعمال لحسابه الخاص ، وتطلق له الحرية في أن يفعل ما شاء إذا أثبت أنه شجاع مقدم يحسن الذود بسيفه عن سيده في ساعة الخطر . ولا حرج عليه بعد ذلك في أن يسيء أده أو سيرته ، وهو لا يخشى عقاباً ولا تأديباً . فإذا قتل رجلاً من الأحرار أدت سيده عنه دية القتل وإلا تمرضت أسرته لانتقام أهله ، لأنهم لا يرون في قتل العبد ما يكفي للتكفير عن دم الحر .

وفي مصر وبلاد العرب يخول القانون للعبد امتيازاً عظيماً . فله إن تبرم بسيده وصح عزمه على عدم الميئش في كنفه أن يطلب إليه عرضه للبيع في سوق العبيد ، فيقول له : « يميني في سوق السلطان » . وقد يأتي مولاه باديء ذي بدء أن يفرط فيه ، ولكن العبد - إذا ما تغلب على الخوف من إثارة سخط سيده - لن يعدم الفرصة لمطالبته بحقه هذا أمام شهود من وجوه القوم ، ثم يمضي في هذا ويلج حتى يظفر آخر الأمر بما يبنى . وقد يكون بعض العبيد أقل من غيرهم قدرة على الانتفاع بهذا الحق العام لأنهم محبوسون في الحرم لا يسمع شكائهم غير سادتهم .

وإذا توخينا غاية الاعتدال قدرنا عدد العبيد في مصر بأربعين ألفاً ، ثلاثم ذكور وثلاثم أناث . ولا تكاد تخلو قرية من عبيد ، ويقتنى كل ذى مال أو عقار عبداً على الأقل . وقد نيف عدد العبيد الذي فتك بهم الطاعون في ربيع عام ١٨١٥ ، وبلغت عن موتهم مكاتب الحكومة ، على ثمانية آلاف في القاهرة

وحدها . على أن ما يبعثه السودان منهم إلى مصر وبلاد العرب لا يعدو — في رأيي — أن يكون نسبة ضئيلة مما يقتنيه المسلمون في السودان نفسه ، أو مما يجمع سنوياً من مواطن الرقيق في قلب إفريقية سواء بالشراء أو الخطف . وقل أن نجد في بربر أو شندى بيتاً لا يقتنى عبداً أو اثنين ، وأكثرها يقتنى خمسة أو ستة يفلحون الحقل ويرعون الماشية الخ . . . ويقتنى الأمراء والأغنياء العشرات منهم . وهذا النظام نفسه تجده متبعاً في أعلى النيل حتى سنار ، وفي الغرب حتى كردفان ودارفور وبورنو ، كذلك تقتنى قبائل البدو المحيطة بهذه الأصقاع العدد الغفير من العبيد . . . وإذا قدرنا عدد هؤلاء الأرقاء — قياساً على عدد من يقتنهم السكان على ضفاف النيل (ولو أن الجلالة أكدوا لي أن الرقيق في هذه الأصقاع البعيدة أوفر عدداً منهم حتى في شندى) — ظهر لنا في جلاء أن الوارد منهم لمصر وبلاد العرب والمغرب قلة ضئيلة بالنسبة لمن يقتنهم أهل السودان نفسه . وأعتقد — استناداً إلى ما شهدته بعيني في بربر وشندى — أن عدد العبيد والجواري على ضفاف النيل من بربر إلى سنار لا يقل عن اثني عشر ألفاً . أما دارفور — وسكانها حسب تقدير مستر براون مائتا ألف نفس — فلعل العبيد فيها يبلغون عشرين ألفاً . وهناك إجماع على أن نسبة العبيد لا تتناقص عن هذا كلما أوغلنا غرباً في أقطار دارصليح وبورنو والباقرى ومملكتي هفنو وهوسا — وكلها بلاد غاصة بالسكان .

وما من شك في أن الجهود المشكورة التي تبذل في أوروبا — وفي إنجلترا على الأخص — للقضاء على النخاسة ستؤتي في أوانها ثمراً طيباً لبلاد الزنج الواقعة في غرب إفريقية وجنوبها الغربي ، وهي المواطن التي تزود إلى اليوم الجلالة الأوربيين بالعبيد . على أنني لست أرى بركة أمل في نحو النخاسة في قلب إفريقية نفسها . ولو أن منافذ السودان كلها سدت في وجه تجارة الرقيق ، ولو حظر على القوافل التي تحملهم اليوم إلى مصر وبلاد العرب والمغرب أن تحملهم ، لظلت النخاسة برغم ذلك شائعة في السودان ذاته . ذلك أنه مادام السودان ملكاً للمسلمين — ومعلوم أن دينهم يدفعهم إلى مقاتلة الزنوج الوثنيين ، وأن مطالب العيش عندهم تقتضى المدد المتصل

من الخدم والرعاة ، وأنهم يحاولون اقتناص الرقيق بوصفه أداة للمقايضة تقوم مقام العملة كما يلتمس غيرهم من الشعوب المعادن من المناجم الإفريقية — أقول مادام زمام السودان بيد السكان المسلمين فلا سبيل إلى عمو الفخاسة في قلب القارة ، ولن يقضى عليها القضاء المبرم إلا إذا تهيأت للزواج العدة رد غارات جيرانهم المسلمين ودفع طغيانهم . فالأمل في خلاص هؤلاء السود ليس معقوداً إذن بمعونة الشعوب الأجنبية ، بل إن السود أنفسهم هم الذين يجب أن تعمل كواهلهم عبء هذه المهمة العظمى ، ولا سبيل للاخلاص إلا سبيل النضال والمقاومة الناجحة . وتستطيع حكومات أوروبا التي تمتلك المستعمرات على شواطئ إفريقيا أن تعينهم على هذه المقاومة ، سواء بالتجارة معهم أو بتعليمهم الحرف والصناعات حتى يتم لهم آخر الأمر التفوق على المسلمين في الحرب . إذن فما لم يلحق بمشروع إلغاء الفخاسة في المحيط الأطلنطي — وخطها يسير إذا قيست بالفخاسة في قلب القارة — خطة حكيمه واسعة تستهدف تخضير القارة ، فلن تكون المعونة التي تقدمها أوروبا للسود ذات أثر يؤبه به . وخير خطة يرجى أن تؤتي أطيب الثمرات هي أن يضطلع الإفريقيون الذين تعلموا في أوروبا بتعليم إخوانهم في أوطانهم . على أن الأمل ضعيف في أن تهتم بهؤلاء الزنوج الناثين المزدرين بحكومات أوروبا ، وهي على ما عرفنا من أناة وخطل في السياسة يجعلانها لا تمياً بتعليم فقرائها هي بله الفقراء في غير بلادها .

وما ملت عن أخلاق أهل بربر يصدق بحذافيره على أهل شندي ، فهم لا يقولون عن إخوانهم انحرافاً . على أن لك شندي سلطاناً لا يدانيه سلطان ملك بربر ، لذلك استطاع أن يحد من شر رعاياه وجشعهم . وسكان الإقليم كلهم من العرب الأحرار ، وأعز هؤلاء نفراً هم عرب الجعليين ، ثم يليهم (أولا) العبابدة ، ويزعمون أنهم منحدرين من جدّ عابدة مصر ويدهى سلمان من عرب بني هلال ، وهي قبيلة شريفة عظيمة نزلت إلى الأصقاع الشمالية في إفريقيا حتى تونس بعد الفتح الإسلامي . (ثانياً) عرب البطامين (ثالثاً) الحمرة ، ويعترف بقرباتهم عرب الحمدة النازلون في أرباض الأقصر

والكرنك بصعيد مصر ، ومن هنا سميت الأقصر بالحديدية ، وهو اسمها الأشهر عند أهل الصعيد . وتتطاحن القبائل المختلفة لأسباب عدة أهمها الثأر للدم ، وهو ثأر يمرض له الأقربون من ذوى الرحم كما جرت عادة البدو الشرقيين ، ولكن يخيل إلى أن العرب هنا لا يراعون هذه الفوارق الدقيقة التي فصلت فيها القول عند وصفى للبدو . ودية الدم عند الجعليين ألف ثوب دمور ، وهي تعادل اليوم ثلاثمائة ريال إسباني أو أربعمائة ، ويؤديها القاتل على أقساط إذا رضى بها أهل القتيل ، ورضاؤهم لا يمرضهم الكثير من التشهير والتعير كما يمرض أمثالهم في شبه جزيرة العرب . وهم يحتفظون بحساب منظم للدية ، ويقيدون فيه للقاتل أو أهله ما يؤدي من دينه لأهل القتيل مهما قلّ أو تفرغ — حتى الخبز القليل أو حفنة الذرة . وقد تضى السنين الطوال قبل أن يسدّ الدين كله ، ولكن الفريقين يقضيان هذه الفترة متصافين .

وفي العرب الجعليين غدر وخيانة ، ولكنها خلق العرب جميعاً في هذه البلاد . ولم يبلغ بهم الانحلال والتسكر لماضيهم مبلغاً ينسبهم أن الوفاء أول فضائل العرب . وطالما سمعت الجعليين يتشدقون بوفائهم لمن ارتبطوا وإياهم بمهد الصداقة والإخاء ، ولكن رأى الناس جملة فيهم لا يقرهم على هذه الدعوى ولا ينسب لهم هذا الخلق الكريم (*) .

وأعدى أعداء هؤلاء العرب قبيلتان هما الشكرية والكواهلة (وهما اسمان عريان) ، وتنزل القبيلتان الأرض في جنوب الجعليين وجنوبهم الغربي ، وبغير أفرادهما على الجعليين المرة بعد المرة وينهبون بلادهم ويخطفون ماشيتهم . ويسكن بعض الشكرية ضفاف النيل قرب أبو حراز ، ولكن أكثرهم يعيشون متبدين في الصحراء الشرقية . أما الكواهلة فينتشرون حتى إقليم درر ، وينزل

(*) مات من الجعليين شيخ في شندى ، فرأيت النساء من أهله يحبن أهم الشوارع والطرافات معولات مولولات . وقد كدن يتجرذن من الثياب إلا أسنالا بالية ، أما رؤوسهن وجوههن وصدورهن فيحشون عليها التراب حتى أصبح منظرهن منكراً أشد النكر ، وكانت تمشي معهن صواحبهن ترددن العويل وتعقدن الأيدي . وفي العشية نحررت الأبقار وأرسلت أطباق صغيرة من لحمها لجميع التجار الزلاء .

بعضهم ضفاف عطبرة . وتفكلم القبيلتان العربية . وأيام كنت بشندى عاد الجمليون من حملة موقفة على القبيلتين غنموا فيها مائتي بعير من مضاربهم على مسيرة أربعة أيام من شندى . ومثل هذا التناحر بين القبائل تجده في بادية الشام وصحراء العرب ، إذ قل أن تصادف فهما قبيلة ذات شأن لا تناصبها العداء قبيلة أخرى تنافسها قوة وسلطاناً . وهذه النارات والحملات التى تشنها القبائل على بعضها البعض كفيلة بتأجيح الروح الحربية وروح المنافسة فى صدور شبابها . على أن هذه الحملات قل أن تشنها قبائل العرب على جيرانهم الأقربين ، وقد نشب الحرب بين الجيران ، ولكن سرعان ما يعقبها الصلح والتحالف .

وعرب الأقطار الجنوبية — فيما خلا النازلين منهم وادى النيل — يتحركون حركتين واسمتين كل عام بالإضافة إلى حركاتهم اليومية . فهم فى الصيف ينزحون إلى الجبال حيث عيون الماء وحيث الكلا الذى لا يجدونه فى السهول الجافة . وتجدهم هم وقطعانهم منبتين — فى الفصل المطير — فوق الرقعة الفسيحة الواقعة بين عطبرة والنيل ينتجمون مراعيها الوفيرة الكلا . والكواهلة — فيما يروى — أقوى من الشكرية وإن لم يدانوم عدداً . وكلا القبيلتين تدين بالإسلام ولو اسماً . ويقال إن الماشية التى يقتنونها ماشية ممتازة .

ولعل القارئ ينتظر أن أسوق إليه طرقاً من المعلومات الجغرافية عن الأقطار المحيطة بشندى مع أننى لم أمكث بها أكثر من شهر، ولم تكن ظروفى مما يمين على جمع مثل هذه المعلومات . على أن مستر براون قد سبقنى إلى تفصيل القول عن جغرافية هذه الأقطار. أما الأقطار الواقعة إلى الجنوب من شندى، وإلى الشرق منها وبينها وبين الحبش، فقد أخفقت لسوء حظى فى جمع أية معلومات عنها ، لا لتوان منى أو إهمال ، بل لأن تدوين المذكرات أيا كانت كان ضرباً من المحال وأنا فى الركب . وكنت على يقين — وأنا محوط من كل جانب بقوم فضوليين يأخذون على كل حركة وسكنة ، ومجرد من أية حماية تظللنى غير ما بى من خصاصة — كنت على يقين من أننى لو أثرت شبهة

القوم وريبتهم مرة لكان في ذلك حثفى آخر الأمر . ولم يكن في استطاعتي أن أجمع البيانات الدقيقة المفصلة عن المواقع الجغرافية وعن الأبعاد والمسافات إلا بتوجيه الأسئلة الصريحة إلى التجار ، ولكن أحداً منهم لم يشعرنى باستعداده للتفضل على بالجواب لوجه الله . أما شراء^(١) هذه الماومات فأمر كان من شأنه أن يجعلنى حديث أهل المدينة كلها وهدفاً للزبد من فضولهم وتساولهم وقد كنت بينهم ظاهراً ملحوظاً على غير ما أبغى . صحيح أننى حاولت مراراً أن أغرى بعض أهل سنار بالخوض معى فى الحديث الودى ، فكنت أجلس إليهم وأملأهم قصباتهم من تبغى ، ولكنهم سرعان ما كانوا يسأمون أسئلتى عن أقطار الجنوب ويؤولونها أعجب تأويل . والحاصل أننى ما كنت لأستطيع جمع هذه الماومات إلا من شوارد الحديث وأشتاته خلال مقام طويل بالإقليم . ولو أن القوم عرفونى أوربياً كما عرفوا بروس فى الحبشة وبراون فى دارفور لأفدت من فراغى أعظم إفادة دون أن أعرض نفسى لمزيد من الخطر . ولكن حالى كانت غير حالها ، فقد أفلحت فى كتمان أمرى ، وكان على أن أقطع رحلة مخوفة بالخطر ، ولم يكن لى أمل فى بلوغ البحر إن أنا أثرت رغبة القوم فى خطط أسفارى . تلك كانت عقيدتى الراسخة على أى حال . وأنا إذ أقرر أننى كتمت أمرى لست أزعم لنفسى قدرة خارقة على الكتمان ، إنما أدل القارىء على أمر كان يتوقف عليه نجاحى^(٢) ، وأضيف رجاء أوجهه إلى من سيتاح لهم السفر إلى هذه الأقطار ، فإذا سمعوا القوم يصفوننى بأننى من الإفرنج ، فلا يكن هذا داعياً يدعوهم لتكذيب سائر ما قصصت عن هذه الرحلة . فما من شك فى أن الدراويين سيكشفون آخر الأمر هوية هذا الصعلوك الذى رافقهم فى رحلتهم ، ولكن هذا لا يبنى أن أمرى كان مخفياً عنهم طوال الرحلة .

(١) زرت قسماً من حوران — جنوب دمشق — مع قسيس يونانى ، فكان يتقاضانى بارنين عن كل جواب يدلى به إلى عن أى موضوع غريب ، وبارة عن اسم كل قرية أو قبيلة عربية أدونها نقلا عنه ، وخمس بارات عن كل مخطوط إغريقى أنسخه منه .

(٢) فى رأين أن الطريق إلى سنار ميسور للتاجر المسيحى أو الإفرنجى أو لأبى شخص خبير أيا كان وطنه ، أما الدروب الخارجة من النيل إلى البحر الأحمر فيجب ألا يسلكها من لا يستطيع الظهور بمظهر التجار الوطنيين .

ولقد جمع مستر براون خلال الغامين اللذين أقامهما بدارفور معلومات ثمينة عن بلاد الزنج المحيطة بهذه المملكة ، ولكن الشك لا يخامرني في أن أهل دارفور لم يسيثوا به الظن إلا بسبب إيمانه في السؤال والتقصي . ولو أتيح له أن يغادر دارفور ويجوب غيرها من أنحاء السودان لوقع له مثل هذا ولا تنهى الأمر بحبوط مساعيه وإخفاق خططه . ولست أقول هذا غرضاً من شأن مستر براون ، فإن كفايته وجلده قل أن يجتمعا لرجل ، وإنني لأذكر له صداقته أبد الدهر ، وأعزو كثيراً من الفضل في توفيقى إلى نصائح الغالية . إنما سقت هذه الملاحظات لمن يخلفونى في هذا العمل . فحين خرج مستر براون في رحلته إلى دارفور لم يكن له هذا العلم الذى حصله فيما بعد بالمربية وطباع العرب . فلما لم يستطع الظهور بين القوم في زى المشاركة لم يحاول إنكار أورييته ، لأنه رأى — وكان في رأيه على حق — أن من الخير له أن يحتفظ بجنسيته ، مهما قل احترام القوم لها في هذه الأصقاع ، عن أن ينتحل ملابس الوطنيين وعاداتهم هذا الانتحال الأعرج فيمرض نفسه لأوخم العواقب ولخطر الكشف عن سره بين ساعة وساعة . ولكنه كان يستطيع — حتى في صفة الأوربي — أن يكون أكثر إطمئناناً على نفسه لو أنه اتخذ التجارة مهنة بدل الطب ، فالطب مهنة لا عهد لأهل هذه البلاد بها . وفي أثناء مقامى بأسىوط عرفت رجلاً رأى مستر براون بدارفور — وكان هذا قد أقام بيت أخيه رديحاً من الزمن — وروى لى أن مستر براون كان طوال رحلته من أسىوط إلى دارفور مشغولاً بتدوين الأحداث اليومية وبالاستفسار عن أسماء ما يلقى في الطريق من نجاد ووهاد ، وأنه كان لديه قطعة من الرصاص يكتب بها فلا تنضب . ثم قال إن « سلطان الإنجليز » لا بد أوفده لتجسس الإقليم ، فلما أدرك ملك دارفور أنه لم يأت إلا مستظلاً كفه عن التجول في أنحاء البلاد . وقد أكد لى الرجل البيانات التى ذكرها مستر براون عن نفسه وهو بدارفور ، وهى حقائق لا يمكن أن يتطرق الشك فى صحتها إلى من عرف أمانته وصدقه . ولقد شعر هذا الصديق الراحل — الذى بذل نفسه فى سبيل الحقيقة والعلم فكان أظهر قربان وأكرم ضحية — أقول إنه شعر بأن تدوينه المذكرات جهرة كان العقبة

التي هاقته عن بلوغ أقصى ما يصبو إليه من نجاح ، فكانت نصيحته التي محضنها غير مرة أن أتوخى في هذه المسألة الحذر الشديد ، وهي حكمة قد تبدو للقارىء الأوربي أدنى إلى الجبن ، أو إلى المغالاة في الحيلة على الأقل ، لأنه لا يعرفها ولا يقدرها حتى قدرها غير من كابد أمثال هذه الرحلة .

وليس بين سنار وشندى وبربر مواسلات مائية ، ولا تستعمل القوارب إلا للمبور من بر إلى بر ، وهي إلى ذلك نادرة جداً ، ووسيلة القوم في عبور النهر الراموس الصغير من الغاب . ويطلق السكان من العرب على فرع النهر الذي تقع عليه سنار والذي ينبع من الحبشة اسم النيل أو البحر الأزرق ، فيقولون « بلاد سنار مبنية على حافة النيل » . وقياساً على هذا يكون بروس على حق حين زعم أنه كاشف منابع النيل . بيد أنى صحت غير مرة من تجار سنار أن البحر الأبيض [النيل الأبيض] أكبر كثيراً من النيل الأزرق (وهم يعنون بالبحر الأبيض فرع النيل الواقع غرب النيل الأزرق) . وقيل لى من مصدر ثقة إن بين شندى والدامر جندلاً في النهر شبيهاً بجندل أسوان ، وإن هناك جندلاً أكبر وأوعر في إقليم عرب الرباط بعد بربر .

وكثيراً ما تقصر مياه الفيضان دون بلوغ الأرض المجاورة لشندى بسبب ارتفاع ضفتى النهر ، وفي الزراع هنا كسل وتوان يقعدانهم عن معاونة الطبيعة بشق القنوات . وقد ذكرت أن شندى تعتمد في زادها من الذرة على ما تجلبه من الجنوب ، ولكنها جلبت بعض هذا الزاد من التاكة خلال القحط الذى حل بالبلاد في العام الماضى . ويبدأ هطول المطر عادة حوالى منتصف يونيو ، غير أن الفصل المطير هنا أقل ثباتاً واستقراراً منه في غرب السودان . وفي أواخر إبريل أصابت شندى شآبيب قليلة من المطر ، ولاح في المساء بعض البروق في المشرق ، وما وافى العاشر من مايو حتى علمنا أن مجرى نهر مقرن قد غص بالماء ، وأنه أفرغ مائه في النيل بعد أن ملا فيه أقداماً ، فلا بد أن مطراً غزيراً قد هطل — إما صوب جبال البشارية حيث منبع مقرن ، وإما صوب منبع عطبرة في بلاد الحبش . والفرض الثانى أرجح لأننا لم نثر فيما بعد على آثار مطر في صحراء البشارية . ولكن يخيل إلى أن هذه

الأمطار ليست من الوفرة بمكان ، وأن هطولها لا يدوم أسابيع متصلة كما هي الحال في كردفان على ما سمعت ، إنما هي تسقط متقطعة وإن كان سقوطها في سيول متدفقة . أما الصحراء الشمالية الواقعة بين بربر ومصر ، لا سيما الإقليم الجبلي الواقع إلى الشمال من عين شقرة ، فليس فيها على ما يبدو موسم ثابت للمطر . وقد أجمع كل من سألت من مصريين وعبادة على أن هذه الجبال يصيبها الغيث صيف شتاء ، ولكنه غير غزير . وركاب القوافل في خوف دائم من أن تعظم السماء في أى وقت أيا كان الفصل الذى يسافرون فيه فتتلف أمتعتهم وبضائعهم ، وقد بلغنى مثل هذا عن طبيعة هذه الأمطار وأنا مصعد مع النيل في رحلتى إلى دنقلة . كذلك يسقط المطر في جميع فصول السنة على سلسلة الجبال الممتدة من أسوان إلى القصير بين النيل والبحر الأحمر ، ولكن سقوطه يكاد يقتصر على الشتاء إلى الشمال من طريق القصير حتى السويس ، في جبال عرب المازة . ومعلوم أن المطر نادر في وادى النيل ، بيد أنه يسقط لأمّا على الدلتا في أشهر معدودة . أما الصعيد فيكاد يقفر منه في أجزائه الدانية من النيل ، لذلك ترى فيه ظاهرة فذة ؛ فالوادي الخصيب عديم المطر على مدار السنة في حين تحظى الجبال الجرداء على ساعات منه بمطر منتظم . وفي شهر سبتمبر حين كنت بإسنا أمطرتنا السماء مدراراً وطفت تسح ساعتين متصلتين بمطر لا يذكر له الإسناويون نظيراً .

ويعرف أهل شندى أو ان ريح الخمسين الحارة كما يعرفه أهل مصر . وسميت الريح هكذا لأنهم حسبوا مدتها خمسين يوماً تمتد من ٢٩ أو ٣٠ إبريل إلى ١٨ أو ١٩ يونيو ، وهو أو ان « النقطة » أو أول ارتفاع النيل في مصر . وحين كنت بإسنا في أول مايو بدأ هبوب الخمسين ، فأرسلت علينا شواظاً من ريحها اللافحة الخائفة . وقد قضيت بشندى مطالع الخمسين فشهدت بها هبوب الريح الحارة أياماً ، وخيل إلى أنها لم تبلغ في حرها وإرهاقها مبلغ خمسين الصعيد ، مع أننى في شندى كنت ليل نهار أمكث في المراء لا أدخل غرفة رطبة ولا أجد ما يقينى وقدة الشمس غير تعريشة أستظل بها . ولست أدري هل الفضل في هذا لاعتدال في الطعام وزهدى في الشراب ، ومن شأن هذا كما أقنعنى التجارب أن يكسر من حدة الحر والقر

على السواء ، أو الفضل فيه لخلاف في المناخ نفسه . ولكن ليذكر القارىء أن شندى أعلى كثيراً من الصعيد .

وأهل البلاد الواقعة على النيل من دنقلة إلى سنار ، وكذلك سائر القبائل العربية الصحيحة إلى برنو ، يتكلمون العربية دون سواها ، وجيرانهم مزدرون محتقرون في نظرهم سيان منهم الشرقيون والغربيون ، فسكلمهم عندهم «عجم (*)» وهو لقب غير الناطقين بالصاد في لغة القرآن الكريم . على أنك تسمع بينهم أيضاً ما تسمع بين البدو الأعراب من رطانات متعددة واختلاف في النطق والألفاظ . فالشرقيون النازلون عطبرة صوب التاكة والبحر الأحمر يتكلمون الرطانة البشارية ، أما النوبيون فأقرب الرطانات الدخيلة عليهم رطانة كردفان التي لا تختلف عن لهجة الفور إلا في النطق . ويتكلم القوم العربية في طلاقة وإجادة ، ويأوحى أن عرب السودان أفصح لساناً من أخوتهم بمصر وأشد تمسكاً من عربيتهم ، ونطقهم بها شبيه بنطق أهل الصعيد ، وهو يختلف أكبر اختلاف عن نطق أهل القاهرة والدلتا . ذلك أن أهل الصعيد إلى الجنوب من أسبوط ليسوا سوى قبائل البدو القديمة ، وعرييتهم في نظري خالصة نقية من الشوائب ، ولا يفضلها نقاء غير عربية شبه الجزيرة . صحيح أنهم ينطقونها بلغة مصرية ، ولكن ألفاظهم وعباراتهم جامها مأخوذ من لغة الحجاز واليمن ، وهو ما تحققته بنفسى في أثناء مقامى بعد ذلك بحدة ومكة . ويستعمل عرب الجنوب كثيراً من العبارات الدخيلة على العربية ، ولعلها نتيجة اتصالهم الوثيق بالزنج ، ويستعملون الكثير من الألفاظ الفنية ، ولعلها مشتقة من الحبشية ومن لغات البشارية والزنج .

ويعتز عرب الجعليين أكثر ما يعتزون بلسانهم العربي المين ، وقد سمعت عرباً من قبيلة بنى حسان التي تنتجع بحر الغزال يتكلمون بلهجة هي لهجة الجعليين

(*) يطلق العرب لفظ العجم من ناحية على الفرس ومن ناحية أخرى على أهل الشام والإفريقى المقابل لشبه جزيرة العرب حيث يتكلم السكان أشتاتاً من اللغات . ولا يزال اليمينيون والحجازيون يسمون هذه البلاد العجم ، وهو اسم يطوى تحته جميع الساحل من سوا إلى بلاد البربر يماق ذلك بلاد الحبش ، ويسميه الجغرافيون الأوربيون Regnum Adjamioe .

لا تشوبها شائبة مغربية ، وهو ما استرعى التفانى بنوع خاص ، وهو يدعو إلى الترجيح بأن أصلهم من الشرق لا من الغرب . كذلك نجد في دارفور وكردفان كثيراً من القبائل العربية محتفظة بلغة أجدادها وإن تكلمت رطانة البلاد إلى جانب العربية . ولا يعرف القراءة والكتابة من القبائل العربية إلا قلة لا تذكر ، ولكن الجميع يجيدون الكلام بعبارة واضحة سليمة بل بليغة في كثير من الأحيان ، وليس بالغريب ولا النادر أن نجد فيهم الشعراء الذين يتفننون في قصائدهم بذكر أبطال الحرب على نحو ما يفعل شعراء العرب الشرقيين . وقصائدهم لا تكتب وإنما تتناقلها ألسنة الرواة ، وقد لا يسلم شعرهم من الهنات اللغوية ، ولكنه لا يجيد قيد شعرة عن أوزان الشعر العربي . ويحيل إلى أن ألحانهم دخيلة ، وذلك لأن العرب — ولا أقول البدو — على اختلاف أمصارهم ، سواء منهم عرب العراق أو الشام أو شبه الجزيرة أو مصر ، يغنون ألحانا ذات طابع مشترك بين هذه الأقوام جميعاً ، وهي تختلف تمام الاختلاف عن ألحان المغاربة والعرب الزنوج . ولعل غناء العرب الزنوج مأخوذ عن بدو البشارية ؛ فإن أغاني البشارية القومية أقرب إلى أغانيهم من أغاني المصريين . أما العباددة فقد استعاروا أغانيهم كلها من البشارية ، وهم يغنون بصعيد مصر هذه الأغاني نفسها ، وقد سمعناها كذلك في شندى من تجار سنار يتفننون بها وهم يحتسون البوظة . على أن هناك ضرباً من الغناء تشترك فيه هذه الشعوب جميعها ، ألا وهو « الحداء » ، غناء يسوقون به الإبل في مسيرها ليلاً على الأخص . والحداء أحب ضروب الغناء إلى البدو في الصحارى العربية ، وقد سمعته على ضفاف الفرات كما سمعته على ضفاف المطبرة . ومن غريب العادات الفاشية بين القوم جميعاً أنهم إذا أرادوا نفي أمر أو رفض طلب طلقوا حلقهم بالسنتهم ، وكذلك يفعلون — بصوت أشد وأعلى — إذا أرادوا التأكيد أو الاستحسان . ويعتبر هذا في تركيا وبلاد العرب ضرباً من الوقاحة والإهانة ؛ أو على الأقل عادة من العادات المبتذلة والوضيعة . كذلك يفرقون أصابعهم إذا طامبوا شيئاً كأنهم يقولون « هات » .

وأهل شندى على ولهم بالغناء لم يؤتوا من العلم بالآلات الموسيقية إلا قليلاً ،

فلم أر عندهم من الآلات غير « الطمبورة » ، وغير ضرب من الزمار مصنوع من ساق الذرة الأجوف ينبعث منه صوت حزين كئيب ، هذا بالإضافة إلى « النقارة » ويحيل إلى أن هذه النقارة لازمة من لوازم الإمارة في السودان طولاً وعرضاً ، فهم إذا أرادوا وصف رجل من ذوى السلطان قالوا إن النقارة تقرع أمام بيته ، وفي شندى كانت تدق النقارات أمام بيت الملك كل عصر بانتظام . ومن الألعاب التي يؤثرها عرب السودان « السيجة » ، وهي ضرب من الداما يعرفه عرب الصعيد أيضاً ، ويلعبونه على الرمل فيخطون رقعة ذات تسعة وأربعين مربعا ، ويختار أحد اللاعبين « كلابه » من كرات من روث الجمال يلتقطها من الطريق ، ويلعب غريمه بكرات من روث الماعز . واللعبة معقدة تتطلب من لاعبيها يقظة وانتباهاً ، وهم اللاعب فيها أن يأكل كلاب غريمه ، ولكن قواعدهما تختلف من قواعد الداما البولندية اختلافاً كبيراً . وللقوم بها ولع كبير ، وقل أن يقعد شخصان معاً دون أن يشعرا من فورهما في خط رقعة السيجة على الرمل . ولا يجد الملك نفسه غضاظة في ملاعبة أحقر الخدم إذا أثر عنه خدقه اللعبة . ولا يستاء لاعب إن أمان غريمه متفرج من بين الواقفين بمشورة أو رأى . وقد يلعب بعضهم على قرعة بوطة ، ولكن هذا قليل . ولا يجهل القوم الشطرنج ، ولكنى لم أصادف منهم من يلعبه .

ولم يقع لى إبان مكثى بشندى ما ينفصنى أو يكدر صفوى . صحيح أن العبادة الذين ساكنتهم لم يبدوا نحوى كبير عطف أو مودة ، ولكنهم كذلك لم يسيئوا إلى أو يفلظوا إلى القول ، وهذا قصارى ما كنت أطمع فيه . وكان وجودى فى صحبتهم حى لى وسترأ لأننى سرعان ما اشتهرت فى المدينة كلها ، فحرصت على إعلام القوم بأننى أنتمى للأدلاء العبادة وجماعتهم المبجلة . وغصّ البيت والحوش بالمبيد والجمال ، فقسمنّا أنفسنا جماعات يشترك أفراد كل منها فى الطعام ، وكان كل منا يؤدى نصيبه اليوى من الذرة للجوارى اللآئى يقمن بطهو الطعام ، وكانت نفقاتنا جميعها تؤدى ذرة . ودأب بعض الرفاق على الاجتماع لتعاطى البوطة ليلا ، أما النهار فكانوا ينفقونه فى البيع والشراء . وكنت تواقاً إلى استرضاء العبادة ،

قاسمت عقب وصولنا حملا ذبحته لهم ، ولم أضن عليهم بما يشتهون من تبغى .
وكنت أختلف إلى السوق بانتظام ، وتعرفت إلى بعض الفقهاء ممن قد أحتمى بهم
من شر رفاق الدراويين الذين لم يكفوا عنى سفاهتهم أيما لقوى . بل إن ابن صاحبي
الدراوى القديم ، هذا الذى أوصاه أبوه بى خيراً وشدّ فى الوصية ، هذا الفتى بلغ
به التطاول على أن يصق فى وجهى مرة فى السوق لأننى طالبته ملجأً برد مبلغ
ضئيل من المال كان قد اقترضه منى ثم أنكره بأغلظ الأيمان . والحق أننى لم أكن
ألقى أحد هؤلاء الدراويين فى طرقات المدينة وشوارعها دون أن ينالنى منه السب
والإهانة ، ولو ألقيت إلى الأمر بالألمسوا بى إلى الملك والحقوا بى أشد الأذى لما لهم
من حظوة ونفوذ عنده . هؤلاء الدراويون هم الذين أقعدونى بندقيتى كما علمت فيما بعد ،
والله أعلم بما كانوا يبيتون لى بعد ذلك لولا أن فتق لى ذهنى خطة أثمرت لى الخير
كل الخير . ذلك أن الشك لم يخامرهم فى أن سنارهمى وجهتى ، فأننا لم أنبئ أحدًا
بأننى ميمم شطر البحر الأحمر رأساً . وكانوا لفرط إساءاتهم إلى يكرهون أن أعود
إلى مصر حيث أستطيع أن أناقشهم الحساب ، وحيث تكفى كلمة تصدر منى
لإبراهيم باشا وإلى الصعيد آنشد فينكل بهم تنكيلا ، ولو أن هذا ما كان يخطر
لهم ببال . وعلى ذلك فقد حاولوا التمهيد لأذى ، فأشاهوا عنى أسوأ الشائعات بين تجار
سنار وقد خلونى مسافراً فى صحبتهم ، وقالوا عنى إننى أملك المال الطائل ابتزته
فى مصر ، وإن سلب بضاعتى لن يكون إلا جزاء وفاقا وانتصافاً لأولئك الذين
ابتزرت ما لهم . وكنت الآن قد قضيت بشندى قرابة أسابيع ثلاثة ، وأصحابى
العابدة يتأهبون للعودة إلى وطنهم بعد أن ابتاعوا الكثير من العبيد والجمال ،
وكانت هناك قافلة سوا كنية على وشك الرحيل أيضاً . إزاء هذا أذعت أننى عدلت
نهائياً عن متابعة الرحلة جنوباً لأنه لن يفضل معى من المال ما يغطى نفقات سفرى
بعد بلوغى سنار . وعلى ذلك ابتعت بما تبقى لى غلاما وجملا ، ثم أعلنت أننى قافل
إلى مصر مع أصحابى العابدة ، وهى فكرة طالما أغرونى بها من قبل . هذه الخطة
أطاحت بما دبر الدراويون من خطط وحلتهم على تغيير مسلكهم معى بين عشية
وضحاها ، فإذا كبيرهم يزورنى ويكرر الزيارة — وهو الذى ضربنى فى الدامر — ،

وإذا هو يبعث إلىّ بالعشاء الفاخر مرات ، ويعرب لى عن أصدق أمانيه فى أن نلتقى ثانية بمصر فى صفاء وود لأنه مزعم أن يتخذ إليها سمته هو وجاعته بعد رحيل العباددة بقليل ، وأن يصطحب من بين عباددة بربر خبراء لرحلة الصحراء . أما أنا فقد اتخذت أثناء ذلك أهبتى للرحلة وأعددت لها كل العدة واستفسرت سراً عن قافلة سوا كن ، وفى الليلة السابقة لقيامها — وكان يسبق قيام العباددة بيومين — أحطت شيخ العباددة هلماً بخطتى ، واستطعت بهدية صغيرة أن أحمله على مرافقتى لشيخ القافلة السوا كنية ، فقدمنى إليه بوصفى صديقه وأوصاه بى خيراً . والقوم فى مثل هذه الرحلات يمفون المسافر من كل تكليف أو احتفال، فدأبته من تحته وهو حر فى السفر مع أى قافلة شاء ، ورئيس القافلة تواق بطبيعة الحال إلى الاستزادة من المسافرين استكثاراً للمنفعة وتميزاً لأسباب الدفاع عن القافلة كلها .

أما اعتزأى السفر رأساً إلى البحر فلم يحملنى عليه خوف من مغبة الشائعات التى افتراها علىّ الجلابة الدراويون . ولم أر — وأنا فى موقفى هذا — كبير مشقة فى بلوغى سنار إن شئت أو السفر منها إلى غندار ومصوع ، لأنى أعلم أن التجار الأحباش غادون رانحون بين غندار وراس الغيل حيث يلقاهم التجار السناريون ، فإذا وصلت غندار ووديان الحبشة الخصيبة فلن يميننى أن أشق طريقى إلى الساحل ، ولكنى إن فعلت لن أكون إلا متأثراً خطى بونسيه Poncet وبروس ، وأنا واثق أنه لن يمضى طويل وقت حتى نستكشف كل مجاهل الحبشة لسهولة الوصول إليها نسبياً من البحر . ولكنى رأيت أن رحلتى فى الإقليم الواقع بين شندى والبحر الأحمر قد تضيف إلى علمنا بإثيوبيا جديداً ، وأن مثل هذه الرحلة المحفوفة بالمسكاره لن يقوى على الاضطلاع بها غير رحلة تمرس بتجارب السفر القاسية ، لذلك آثرت أن أقطع هذا الإقليم الصغير نسبياً مخافة أن يطول جهل الناس به . كذلك كنت فى اختيارى متأثراً أشد التأثير باعتبار آخر هو رغبتى فى بلوغ مكة فى شهر نوفمبر ، وهو موسم الحج . والحق أن هذا الهدف كان من أهم أهدافى طوال إقامتى بصعيد مصر ، وكان عاملاً من العوامل التى حفزتنى إلى الخروج فى هذه الرحلة الثانية

إلى بلاد النوبة . ولست أشك في أن صفة الحاج ستكون لى أقوى سند وأفضل حماية في أى رحلة أقوم بها فى قلب إفريقية . ولو أردت إنفاذ خطى هذه من السويس أو القصير لوجدت دون ذلك صعباً ذات بال ، أما السفر بطريق الحبشة فقد يعوقنى فى البر أو البحر فترة تعطلنى عن إدراك الحج فى مكة ، وكنت على يقين أننى لو بلغت مكة بعد فوات موسم الحج لما استطعت أن أزعم للناس بعد ذلك أننى حاج أصيل لا غش فيه دون أن أخشى افتضاح أمرى بين يوم وآخر .

لذلك بمت فى شندى كل بضاعتى ودفعت حصتى فى نفقات الإقامة بالمدينة ، وقدمت لرب البيت هدية لا بأس بها ، ثم اشتريت غلاماً فى الرابعة عشرة وأنحوها وذلك لغرضين ، فهو من جهة رفيق نافع مستديم ، وهو إلى ذلك حجة واضحة أتكى عليها فى تبرير رحلتى إلى البحر الأحمر لأننى قد أبيمه هناك بريح . وكنت لا أزال أزعم للناس أننى جاد فى البحث عن قريب لى قد انقطعت أخباره عني ، ولكنى الآن أضفت إلى ذلك أننى إزاء ما لقيت من مشاق السفر برأ فى هذه البلاد اعتزمت أن أركب البحر من سواكن إلى مصوع فأدخل الحبشة من هذا الطريق ، وزعت لهم أن الدلائل كلها تدلنى على أننى سأعثر على هذا القريب فى الحبشة . وعلمت أن قافلة سواكن قسماً ، قسم يقصد سواكن رأساً ، وقسم يسلك طريق التاكة . فعولت على السفر مع الجماعة الثانية ، وعلى تجربة حظى فى العثور على مواصلة ملائمة تنقلنى من التاكة إلى مصوع .

واخترت عبدى من بين عدد كبير من الفلمان ، ودفعت فيه ستة عشر ريالاً . وقد ألفيته غلاماً نافعاً وخادماً ممتازاً . كذلك اشتريت جملاً بأحد عشر ريالاً وعנית بانتقائه من أصلب الإبل وأشدها لأن سلامتى كانت رهينة به . وأخذت مئى زاداً من « الأبريه » أو الخبز الجاف والذرة ودقيق الذرة والسمن ، وابتعت عدداً من مقاطع الدمور لعلنى بأن الطلب عليها كثير فى طريق التاكة . وبقي لى من المال بعد تسديد حساباتى كلها أربعة ريالات ، ولكن ضالة هذا المبلغ لم تزهجنى ، فقد رقت أن أبيع جملى حال بلوغى الساحل بشمن يغطى نفقات رحلتى إلى جدة ، وكنت أحمل إليها من مصر خطاب اعتماد بمبلغ كبير من المال .

الرحلة من شندى إلى التاكة

بكرت قافلة سواكن في القيام صبيحة ١٧ مايو وجاوزت حدود المدينة قبل أن أفرغ تماماً من تحميل جلى ، وبينما كنت مشغولاً بجمتى هذه نعى إلى نفر من الدراويين أنني معتزم الرحيل فجاءوا ليصبوا على جام غضبهم لأننى أحبطت تدبيرهم وأفبست عليهم مكرهم السيئ . غير أنهم جاءوا بمد فوات الفرصة ، فقد كنت أبعد من أن ينالونى بأذى ، وراقبني العباددة مسافة قصيرة بعد المدينة ثم ودعهم وداعاً حاراً ، ولا عجب فهم منذ غادرت مصر تقريباً أصحاب الفضل في المحافظة على سلامتى ، سواء بمحابتى أو بالتدخل بينى وبين خصومى ومناصرى عليهم . على أن معروفهم ما كان لينتهى بعد ، ذلك أن عبداً من عبيد الملك تبعنى وأنا أغادر المدينة . ولما ودعت العباددة — والقافلة تسبقنى بنحو نصف ميل على السهل — كان العبد يلزمنى كظلى ، ولاحظ ذلك منه أحد العباددة ، ورأى أنه يحمل سلاحاً فارتاب في أمره ، وقفل راجعاً إلينا من فوره فأدركنى في الوقت المناسب وأقذنى منه . وكان المبدىقونى ليأخذمنى غدارتى (*) عنوة مع أنه كان يصيب من طعامنا كل يوم تقريباً في أثناء مقامنا بشندى ، ولعله خالنى أوثر التفريط فيها على المظل وخطر التخلف عن القافلة ثم اللحاق بها منفرداً . وكان العبد قد أمسك بمقود جلى وطلب إلى أن أسلمه السلاح ، ولكن العبادى لحق بنا وعنفه على مسلكه هذا أشد تعنيف . وفي العصر وصلنا إلى الحصاة ، وهى قرية واقعة بمد مصانع ملح بيوضة ، وسهلها غير بعيد من المكان الذى حططنا فيه ظهر وصولنا شندى .

١٨ مايو — مكثنا اليوم كله نحيمين بالحصاة ، ولحق بنا في العصر نفر من تجار سواكن وشندى جاءوا مودعين أصحابهم . وكان أعراب الجمعلىين يحومون ليتخطفوا ما استطاعوا من إبلنا التى ترعى أوراق السنط في حراسة العبيد ، فاضطرنى هذا إلى شدة اليقظة في المحافظة على جلى . وفيما أنا أعم به أحراج السنط الكثيفة لقيت خرائب مبان قديمة بقرب النهر الذى تملو ضفتاه هنا علواً كبيراً . وهذه الخرائب أسس حجرية للبيوت وجدران من الآجر . ويبدو أن الأسس لبيوت متوسطة الحجم ، وقوامها كتل من الحجر الرملى ، طول الكتلة منها

(*) عبيد الملك دون غيرهم هم الذين يباح لهم حمل أسلحة سيدهم النارية أحياناً .

ثلاث أقدام أو أربع ، خشنة الصناعة أصابها البلى والتلف . وليس بين الحجر والآجر من التناسب إلا أقله ، وهذا الآجر شبيه بالذى رأيت قرب دوا ، وقد بنيت به جدران المساكن . ولم أر آثاراً لسور مدينة أو لآى بناء كبير . ويحيل إلى أن هذا الذى رأيت لم يكن سوى بيوت بلدة صغيرة مكشوفة . ومحيط هذه الخرائب يقطع فى ثمانى دقائق إلى عشر على الأكثر . ولم أستطع أن أتبين فى تصميمها نظاماً ولا ترتيباً ، فهى مربعات صغيرة منفصلة بعضها عن بعض ، وهى أقرب إلى الاستطالة ، وتراها منبثة بين الشجر حيثما اتفق . ولم يبق من حيطان الآجر أكثر من قدمين فوق الأرض ، وبقاء هذا القدر — على قلته — يدعو للفرابة إذا ذكرنا ما تحدثه الأمطار السنوية بهذه المباني المهجورة الواهية ، ولم أعر على آثار أخرى من أى نوع فى المنطقة المجاورة . وبقرّب هذا المكان مخاضة فى النهر يستعملها عرب الجعلين ثلاثة أشهر أو أربعة قبل موسم الفيضان .

١٩ مايو — استأنفنا الرحلة صباحاً فسرنا على الحدود الشرقية للسبل المزروع حتى بلغنا قرية الكبوشية ، وهى مقر رجل من أسرة مك شندى ، وتبعد عن الحصاة قرابة ثلاث ساعات . ولما كان بيننا وبين عطبرة ثلاثة أيام طوال فقدملاًنا قربنا من النهر ، ومجراه على نصف ساعة من القرية . وحدث لى ونحن نبدأ المسير حادث من تلك الحوادث التى تضايق المسافر فى الصحراء وتنقص عليه رحلته ، ذلك أننى بعد أن شددت قربى إلى رجل جلى ثقت بإحداها — وكانت من أكبرها — وتفجر الماء منها كأنها ينبوع . ويسد العرب مثل هذا الثقب بوند من غصن أخضر يلفونه بقماش ، ولكن خير سدادة له لباب عود من هيدان الذرة ، فهو إذا ابتل بالماء انتفخ فأحكم سد الثغرة . وعبرنا إقلياً مستويا تقطعه الوهاد والوديان الحافلة بالشجيرات والقش . ثم مررنا بمخيم كبير للجعلين يبعد أربع ساعات من النهر ، وهم برغم بعدهم هذا من النهر يجلبون منه حاجتهم من الماء كل يوم . وحططنا رحالنا فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن سرنا من الكبوشية سبع ساعات أو ثمان

٢٠ مايو — قنا قبيل الشروق وعمنا شرق الشمال الشرق ، وكان قوام

قافلتنا ما لا يقل عن مائتي جبل حملت بالبضائع ، وعشرين أو ثلاثين هجيناً يركبها
أغنى التجار دون أن ينقلوها بأحمال آخر ، ونحو مائة وخمسين تاجراً ، وثلاثمائة عبداً ،
ونحو ثلاثين جواداً مرسله لسوق اليمن يسوقها المبيد طوال الطريق ، وأكثر
البضاعة تبغ ودمور اشتراه السواكثيون من سنار . وكان زمام القافلة بيد رجل
كفء من كبار عرب سواكن تربطه رابطة المصاهرة يبدو البشارية والهرنروية
الذين يقع طريقنا في أرضهم . ولكننى برغم هذا أحسست أن القوم يتوجسون
خيفة من البشارية طوال الرحلة . وكانوا يصدهون بأوامر الرئيس (*) في كل ما يتصل
بسير القافلة دون أن يجدوا في ذلك غشاضة أو بأساً . ولم يكن هناك غرباء بين
التجار السواكثيين سوى جماعة من النظارة (واحد منهم تكررورى) أو التجار
الزنج قوامهم خمسة من السادة وعشرة جبال وثلاثون عبداً على التقريب . وإلى
هذه الجماعة انضممت ، ولا عجب فكلنا غرباء يسرنا أن يماون بعضنا البعض .
وكنت أحط إلى جوارهم طوال الرحلة إلى الساحل معتزلاً التجار السواكثية
الذين انقسموا هم أيضاً فرقاً وجماعات . وما لبثنا قليلاً حتى سرت الألفة بينى وبين
رفاقى السود فأدوا لى كثيراً من الخدمات الصغيرة ، وما أخرج المسافر فى القافلة
إلى مثلها ، ولم أتوان فى رد هذه الخدمات بأحسن منها . وهكذا ظللنا طوال
الرحلة على تفاهم ووافق ولا أقول على مودة وصداقة ، فإن مصادقة الفقير أمر يزهد
فيه الناس ولو كانوا من الزنج .

كان أحد هؤلاء التكارنة من دارفور ، والثانى من إردفان ، وثلاثة قدموا
أصلاً من برنو ، وقد غادروها من زمن مديد فى قافلة فزان ، ومن فزان مضوا
إلى القاهرة وكان كبيرهم — واسمه الحاج على البرناوى وهو الذى تزعم جماعتنا —

(*) علمت بعد ذلك أن شيخ القبيلة لا يمكن أن يكون رئيساً للقافلة ، ذلك أن العرب
درجوا من قديم الزمان على عادة لاتزال سارية فى الصحارى الشرقية فى الجزيرة ، وهى ألا يولوا
شيخ القبيلة قيادة الجماعات المسلحة التى توجهها القبيلة على العدو . وله أن ينضم إلى الحملة إن
شاء ، ولكن لواءها يفقد للقائد ، وهى وظيفة تقليدية فى الأسرة . ويقول العرب « الشيخ
ما يقيد القوم » . ولعلى عائد إلى تناول هذا الموضوع فى يومياتى .

قد طوف في كثير من أنحاء تركيا تاجراً للرقيق ، ونزل القسطنطينية وعاش
بدمشق طويلاً (وفي دمشق يشتغل التكاثر فملة في بساتين سرة القوم) ، وأدى
فريضة الحج ثلاث مرات ، ثم استقر أخيراً بكردقان وانقطع للتجارة فيما بين
كردقان وجدة . وقد ذاع صيته بفضل أسفاره وما يتظاهر به من تقى وورع ،
لذلك أحسن الملوك والرؤساء لقاءه ، ولم يكن يفوته أن يتحفهم بالهدايا الصغيرة
يجلبها لهم من جدة . وهو على إدامانه قراءة القرآن — سواء جالساً تحت مظلة مؤقتة
من الحصير أو راكباً على جملة في الطريق — رجل شهوان مبطن لاهم له إلا متعة
الجسد ونعيم الحياة الدنيا ؛ فهو ينفق على لذاته كل ما يغله رأس ماله البسيط من
ربح متجدد بتجدد أسفاره . كان يصحب معه جارية من برقو يؤثرها على سواها
ويتخذها من دونهن محظية له ، وقد عاشت معه ثلاث سنوات ، وكانت تركب جملاً
على حين يسير غيرها من الجوارى على الأقدام طوال الطريق ^(١) . أما جربانه
الجلدية فقد حفلت بأشهى وأطيب ما حوت سوق شندى ولا سيما السكر والتمر ،
وأما مائدته فأغزر موائد القافلة إطلاقاً . وقد تسمعه يفيض في الحديث عن الفضيلة
والدين فتخاله لا يعرف عن الرذيلة إلا اسمها ، ومع ذلك فهذا الحاج على الذى أنفق
نصف عمره في التهجّد والعبادة . هذا الحاج نفسه باع في العام الماضى بنت عمه في
سوق الرقيق بالمدينة المنورة بعد زواجه منها بمكة . وكانت الفتاة قد وفدت عليها
حاجة من برنو بطريق القاهرة فلقبها على غير انتظار وطلب بدها بوصفه ابن عمها ،
وتزوجها ^(٢) ، ثم احتاج إلى شيء من المال في المدينة فباعها إلى الجلالة المصريين ،
ولم تستطع المسكينة أن تقيم الدليل على أنها حرة الأصل فأذعنت لقضاء الله وقدره .
وكان القوم في القافلة يعلمون من أمره هذا ، ولكن علمهم به لم ينل شيئاً من
قدره وسمته بينهم .

كان التكاثر يماثلونى كما يماثلون أى مسافر غيرى وكما جرى القوم على
معاملة المسافرين ؛ فكل مسافر مشغول بتوفير أسباب راحته ، اللهم إلا أن يمد

(١) كان لنفر من التجار السواكنية خيليات ، وهم في العادة يصطحبونهم في
أسفارهم .

(٢) ابن العم في جميع الأقطار الإسلامية مقدم على غيره إذا طلب يد ابنة عمه .

إلى جاره من حين إلى حين يد المونة في وسق جملة . على أننى ما كنت أطمع في أكثر من هذا ، وما كنت في حاجة ماسة لمونة أحد ، ولا أذكر أنه قد نالنى من التجار السوا كنية إساءة أو شبه إساءة لم يقاسمى إياها التكرانة على قدم المساواة . وكنت يقطاً حذراً مؤدباً مع الجميع متحاشياً مغالطة العبيد ، وكان القوم ينظرون إلى نظرتهم إلى هؤلاء العبيد تقريباً . ثم إننى قاومت أشد المقاومة كل محاولة يقصد بها ابتزاز شيء من بضاعتى أو زادى ، وأحسبني بهذا المسلك قد عرفت بين القوم بأننى رجل نشيط دؤوب صعب المراس ، أنا فى شديد الحرص والحذب على مصلحته .

كانت صخور السهل الذى قطعنا طوال الصبح من الصوان ، وانبسطة إلى يميننا بعض الوديان والمنخفضات . وحططنا للراحة بعد عشر ساعات أو إحدى عشرة . ومن عادة القوم أن يبدأوا السير مع الشروق ، ويقيلو ساعات الظهيرة أو من المائسة صباحاً إلى الثالثة أو الرابعة عصرأ ثم يستأنفوا السير حتى العشاء ، بل قد يتصل سيرهم إلى ما بعد منتصف الليل .

٢١ مايو — ما زال طريقنا يشق السهل . وقد هبت اليوم سموم هوجاء ، ولما كان التجار السوا كنيون قد استكثروا من البضائع التى حملوها جالهم فإنهم لم يحملوا من الماء إلا قليلاً بالقياس إلى عدد العبيد والحيل . لذلك فرغت أكثر قريهم منه عند الظهر . وأقبل رئيس القافلة على جماعتنا وأخذ من كل من رابع مائه أخذاً يشبه أن يكون غصباً . ومررنا ساعات الظهيرة فوق سهل أسود محصب قرب أشجار من السنط . وبعد أن قطعنا فى هذه المرحلة الطويلة عشر ساعات أو إحدى عشرة متجهين شرق الشمال الشرق نمنا فى واد مشجر عميق الرمال . ونامت القافلة كلها ظمأى ، وكان أكثر الدرب الذى سلكنا فى الصحراء مطروقاً يسوق عليه أهل عطبرة ما شيتهم إلى سوق شندى . ولقينا فى الطريق نفرأ منهم ميممين شندى بمحصر من سعف صنعت فى عطبرة .

٢٢ مايو — سرنا ثلاث ساعات بين السهول الرملية ، ثم أشرفنا على نهر عطبرة ودخلنا الأجرار التى تسكنف ضفافه ، وكانت الأشجار الباسقة تحديق بنا

من كل صوب فيمثم مرآها النشوة حتى في أفئدة الجلابة القاسية . قال أحدهم مشيراً إلى المفازة الجرداء التي قطعناها « بعد الموت الجنة » . ومشيناً نحو ربع الساعة بين أشجار فارغة اشتبكت أحمالنا بأغصانها فكنا نخلصها معها بصعوبة . ورأيت من التنوع الكثير في نبات هذا الإقليم ما لم أره في أى مكان على ضفاف النيل بمصر ، فكانت هناك صنوف مختلفة من الموزا ، ودوم ضخمة أسالت عناقيده الفاخرة لماب المبيد ، وأشجار من النبق ناضجة الثمار ، ثم اللالوب وهي في حجم النبق ، فضلاً عن كثير من الأنواع التي لا عهد لي بها . وإلى هذا كله عشب برى موفور ينمو فوق تربة خصبة غنية كثرية مصر . وتأوى إلى الشجر أسراب كثيرة من الطير تصدح بالغناء الذي يندر أن يسمعه المسافرون في مصر . ولم تسكن الطيور غنية بالألوان بل طيوراً صغيرة من فصائل مختلفة ، وقد راقنتى منها أنعام لم تطرق أذن من قبل ، ولم ينقطع من أذن هديل الحمام الرقيق طوال سيرى . وانطلقنا صوب النهر وهبطنا ضفافه الواطئة في لفحة لروى من مائه غليلنا ، وقطعت بمض الجمال مقاودها حالاً وقع بصرها على الماء وألقت أحمالها عنها وهي تندفع أو تتمثر فوق الشاطئ فأحدثت كثيراً من الجلبة والفوضى .

لم يطل مكثنا بالمكان ، فاستأنفنا السير نحو ساعة على ضفة النهر ، وكان أكبر سيرنا بين نخل يحف أطراف الصحراء ، وهو أكبر من أى نخل رأيته بمصر . وبعد ساعة عبرنا النهر خوضاً في غير مشقة إذ لم يكد مأؤه يجاوز ركب الجمال ، ولم يمض نصف ساعة حتى جئنا قرية عطبرة ، ويسمونها كذلك اقربها من النهر . وكان مقررأ أن تظل القافلة أياماً هنا ، لذلك اهتم كل منا قبل كل شئ باختيار مكان ملائم ينزل به . أما التجار السواكنية فنزلوا ساحة مكشوفة أمام القرية وقسموا أنفسهم فرقاً وجماعات ، وأما أنا والتسكارية فحططنا بأرض من الأشجار الشائكة في جنب من القرية ، ومهد كل منا لنفسه بيلطته مهذاً صغيراً ينسج له ولعفشه ، وأما المبيد فأمرأوا بالنوم أمام مدخل هذه الأرض ، وبهذه الطريقة أمنا على مقاعنا من اللصوص ، ونشرنا فوق الأشجار حصراً فكان لنا منها ظل طيب .

وقرية عطبرة - وهي أقرب إلى الخيم منها إلى القرية - صفوف مستطيلة غير منتظمة من أكواخ قوامها الأبراش وسمف الدوم ، ويسكنها نحو مائتي أسرة من البشارية . هذه الأكواخ هي مسكن القوم في جميع المغازة الواقعة بين مصر والحبشة ، فهم يستعملون البرش لأن الماعز والغنم النوبية لاصوف لها ولاشعر حتى يصنعوا منه الخيام كما يصنعها البدو الشرقيون ، وهم يدقون في الأرض صفاً من الأعمدة يبلغ طول العمود منها اثنتي عشرة قدماً أو خمس عشرة ، ويدقونها متقابلة بحيث تنقارب في أعلاها ، ويثبتون فوقها أعمدة أخرى في وضع أفقي ، ثم يلصقون الأبراش بحيث تكون في كل أوضاعها مائلة ميلاً يتبع لواء المطر أن يجري من فوقها . وفي كل كوخ عنقريان أو ثلاثة تكاد تملأ فراغه كله فلا يبقى منه غير حيز ضئيل للوقوف ، والبشاري في غنى عن هذا الحيز على أي حال لأنه ينفق جل وقته متكئاً على المنقريب (*) . وفي الأكواخ الصغيرة يعيش الرجال والنساء معاً ، أما الأكواخ الكبيرة ففيها فواصل من وراء المنقريب تقسمها إلى غرفة أمامية وأخرى خلفية ، وتشغل النسوة الخلفية منهما - ولو أنهن لا يفكرن البتة في الاحتجاب عن الغرباء - وتستعمل مطبخاً كذلك . ولكبار القوم أكواخ خاصة بالحريم ياحقون بها أحياناً سقيفة يستقبلون فيها الضيوف . والبدو يقيمون هذه الأكواخ أنى حطوا وينقلون معهم الأعمدة والأبراش وما إليها على الجمال .

(*) فإني أن أذكر في موضع سابق من هذه اليوميات أنني رأيت القوم في جميع بلاد النيل التي زرتها وفي صحراء النوبة أيضاً يستعملون مساند خشبية صغيرة طول المسند منها نحو خمس بوصات ، وله رأس بهذا الطول وعرضه ثلاث بوصات أو أربع ، وهو شبه في جلته برأس العكاز . والمسند قطعة واحدة من الخشب الصلب ، وخير أنواعه ما جاء من سنار ، ويضعه النائم تحت رأسه ، ويستند إليه بنواحيه حين يتكى . وإذا خرج وجيه من وجوههم حل له نايعة مسنداً من المساند ، وفي كل بيت أوعية تخدم مسنداً يقدمونه للضيف ، ولكنك لن تستشعر الراحة في استعماله ما لم تمرن على ذلك منذ صغرك . وحلني على ذكر هذه العادة ما قرأت في كتاب مستر سولت من أن أهل الحبشة يستعملون مثل هذا المسند ، ويبدون من الأوصاف التي ساقها هو ومستر بروس أن عادات الأحباش شديدة الشبه بعادات السكان على حدود وادي النيل .

وعطبرة مقر شيخ قبيلة الحمراء . ولا يخلط القارىء بينها وبين قبيلة الحميداب ،
وهى إحدى قبائل العباددة . والحمداب من أقوى (*) قبائل البشارية ، وقد سافر
شيخهم معنا من شندى بعد أن ابتاع من سوقها العبيد والخيل . ولا تخلو عطبرة
من قوم يتجرون مع شندى وينتظرون عندها وصول قوافل سواكن . وما إن علم
الجيران أن قافلة قد وصلت وأنها تعزم البقاء أياماً حتى توافدت علينا أفواج
البشاريين يحملون الذرة والقمح والسمن واللبن ويريدون المقايضة عليها بالدمور والتوابل
لا سيما الحلب والقرنفل واللبن ، وكلها مجلوب من الغرب . وقل من هؤلاء القوم
من يفهم العربية اللهم إلا المتجرون منهم مع بربر وشندى ، ولكن أكثر عبيدهم
يفهمونها ، ذلك أنهم تربوا بين سكان ضفاف النيل . ولباسهم — وأخلق بى أن
أقول عربيهم — واحد فى كل مكان ، فهو لا يخرج عن قيص من الدمور يلبسه الرجل
والمرأة على السواء . وخيل إلى أن نساءهم على جانب كبير من الحسن ، وفيهن
سمرة شديدة وعيون فائنة وأسنان رائمة ، ولهن قدود نحيلة ممشوقة ، ولم يكن يبدو
عليهن أثر للخوف من إضرار الغيرة فى لبوب أزواجهن أو آبائهن . فقد قصدن خيامنا
ضاحكات عابثات ، ومن كانت منهن تجهل العربية حاولت أن تترجم عما تريد
بالإشارة . وظهر لى أن حسانهن شاعرات كل الشعور بما حباهن الله من
مفاتيح ، ولكن كان من الواضح أنهن ما عابثننا إلا ليمعننا الذرة واللبن بشمن
أعلى مما تباع به أخواتهن اللاتي لا يدانين جمالا . على أى حال كن جميعاً
سواء فى خراب الذمة . وكنت قد سمعت فى مصر أن البشاريين لا يغارون
على نساءهم ، فمن أصول الشرف عندهم ألا يرتاب الرجل فى امرأته حتى

(*) لأن كثيراً من القبائل البشارية لا تحتقر الزراعة مع بداوتها ، فينزل أفرادها ضفاف
عطبرة عقب الفيضان ليزرعوا الذرة ، ويقون بها حتى يضموا المحصول ثم يفلون راجعين
إلى جبالهم . فإذا اشتد الحر وجف الكلاء فى الصحراء هبطوا ثانية من الجبال إلى ضفاف
النهر انتجاعاً للمرعى . ومثل هذا يصدق على التركمان المجاورين للحلب ، فهم يجتمعون بين
البداوة والزراعة .

ثبت له خيانتها بالدليل الحاسم . وقد يرى البشارى غريباً يقبل امرأته فيصرف
المسألة بضحكة ، ولكنه قاتلها لا محالة إن أمسكها ترتكب الفحشاء .

وبشاريو عطبرة - كغيرهم من البشاريين - سلالة ممتاز بوسامة الخلقة وجراءة
الطابع ، وهم لا يضعون سلاحهم قط ولا يفيقون من عرا كهم وقتالهم . ويتفشى السكر
بينهم تفشيه بين عرب شندى ، ولم تمض ليلة لم نسمع فيها صخبهم وضجيجهم في
مشارب البوطة ، وهم ميالون إلى مد أيديهم لمتاع التجار ، وعلى الرغم مما أخذنا
من حيطة وحذر فإن أحداً منا لم يسلم من لصوصيتهم . ففقدنا أشتاتاً من متاعنا ،
وسرق من الجمل بعضها ولكنها ردت بفضل تدخل رئيس القافلة الذى حصل من
أصحابها على هدية طيبة لقاء جهوده . وولعهم بالسرقة ليس شرّ ما فى طباعهم ،
فإن فيهم - على ما بدالى - غدرًا وقسوة وحرصاً وحباً للثأر ، وهم ينقادون لهذه
النزوات فلا يردعهم عنها رادع من دين أو قانون . أذكر أن رجلاً من أهل القرية
- وكان قد صحبنا من شندى - افتقد عند وصوله جملين من أفضل جماله فإذا هما
مسروقان ، واشتبه الرجل فى جاره له فجاء إلى التسكرانة يستعين بسحرم على تأييد
شبهته ولكنهم أبوا أن يعطوه جواباً شافياً أو أن يتدخلوا فى الأمر ، فأقسم الرجل
ليذبحن عيال اللص لو عرفه وليقطعن إبله تقطيعاً وليهدمن بيته حتى يخرج إلى
الأحراش يلتمس قوته كما تفعل البهائم . والبشاريون على بكرة أبيهم مسلمون ،
ولكنهم لا يعبأون بشعائر دينهم ولا يؤدون فريضة من فرائضه ، فهم فى هذا على
نقيض الحجاج الذين يعمرون بهذا الطريق ، والذين لا تفوتهم فريضة من
فرائض الإسلام . وبخل البشاريين على الضيف يكنى وحده دليلاً على أنهم إفريقيون
لا غش فيهم ، ولكن لفتهم تؤيد هذا الظن تأييداً لا يترك للشك مجالاً . وآية بخلمهم
أننا لم نستطع أن نظفر منهم بقطرة من اللبن دون أن تؤدى ثمنها ، وقد اقتضت
النسوة أجرة استمالة نافدوراً من الفخار عتيقة كنا فى حاجة إليها أثناء مكثنا بينهم ،
بل إن أحداً منهم لم يرض أن يقوم مترجماً بيننا وبين من يجهلون منهم العربية ،
دون أن يأخذ لقاء ذلك حفنة من الذرة على الأقل . هذا الجشع تاحظه فى كل
تصرفاتهم ، وهو لا يظهر فى معاملتهم لركاب القوافل فحسب - فهو لاء بطبيعية

الحال مطمع لا شك فيه - بل في معاملتهم للحجاج الزنوج الساكنين الذين يمرون من هنا في طريقهم إلى التاكة ، فهم يشكون مر الشكوى من سكان عطبرة الذين تحجرت قلوبهم وخلت من كل أثر للرحمة .

ويزرع القوم الذرة وقليلًا من اللوبيا في الغابات القريبة من النهر دون أن يهدوا لها التربة أى تمهيد . وهم لا يعرفون السواقي ، وتمتد الأرض الخصبة على ضفتي النهر على مسافتين متساويتين ، ولكن الضفة اليسرى خلو من الزرع لما يقوم به عرب الجعليلين من غارات للسلب والنهب . ويجلب القوم زادهم من التاكة في السنوات التي لا يفيض النهر فيها على ضفافه . وتنمو الأشجار التي رأيتها على الضفة الغربية قرب القرية ، وأكثرها نبق ، وثمره موفور حتى أنهم يطمعون عليه الجمال أحيانًا . وينمو العشر بين الشجر الكبير ولا يكاد يترك لزراعة الذرة متسما . وكانت تحوم في الجو أسراب كثيرة من الحمام واليمام ، ولها عدو كثير العدد هو ضرب من النسر لا يكبر الرخم المصرى إلا قليلا ، وجسمه أسود فاحم ورأسه عار من الشعر تكسوه حمرة أرجوانية قائمة كراس الديكة الرومية . ويزعم البشاريون أن غاباتهم تحفل بالنمر ، وأنهم يصادفون فيها الحيات الكبار أحيانًا ، ولكنى كنت أعبر الغابات يوميا لأستقي من النهر فلا تقع عيني على حيوان من ذوات الأربع اللهم إلا جيوشًا من الجرذان السمينة تسرح وتمرح بين جذور الذرة المتخلقة في الأرض . وكان العبيد يقتلون منها الكثير ويلتذون أكله ، ولا تجد للنمل الكبير الذى يقال إنه يسب أذى كبيراً في كردقان ودارفور أثراً في أى بقعة شرق النيل . وتظهر التماسيح في النهر وقت فيضانه ، ولكنك لا تجد فيه أفراس النهر ، أما الخرتيت فلا يعرفونه .

وماشية البشاريين ماشية طيبة النوع كثيرة العدد . وحين ألمت بهم كانوا قد أرسلوا إياهم إلى الجبال الغربية ترمى فيها الكلا النضر عقب هطول المطر عليها . أما جهالنا فكنا نسوقها كل صباح إلى الغابات لترعى أغصان السنط . وكانت قطعان الضأن والماعز تساق إلى الجبال بعد أن سيقت إليهما الإبل . وابتعنا كبشين كبيرين بدمور يساوى ريالاً . ويقتنى شيخ البشاريين وبعض أقاربه الخيل ويلبسون الزرد ، ولكل خيمة عندهم حماران .

ويتصل عطبرة بالقرن على مسيرة يومين من هذه القرية ، وبمدها يسمى الملتقى بالقرن . ويقال إن منبع القرن في جبال البشارية ، ولكن ماءه في الصيف يكاد ينضب . وهو حتى في موسم المطر لا يبدو أكثر من مجموعة سيول ، ولا يخترقه الطريق المباشر من هنا إلى سواكن ، وهذا دليل واضح على أن مجراه لا بد أن يكون أبعد إلى الشمال مما تجده عادة في الخرائط . وقد أسلفت القول إننا لم نجد في عطبرة من الماء إلا قليلاً جداً ، ولا بد أنه من أسابيع كان جافاً تقريباً ، لأننا لم نجد في قاع ملتقى النهر — حين هربناه قرب الدامر — إلا بركاً راكدة الماء . وفي أثناء مقامنا بمطبرة كانت السماء تمطرنا بالليل رحات خفيفة ، أما النهار فكان ملبداً بالغيوم ، وكثيراً ما كان الضباب ينتشر في الصباح . وفي الثالث والرابع من يونيو هبط مستوى النهر فجأة فإذا أكثر مجراه جاف ، وقد لحظت بعد ذلك في طريقنا إلى التاكة أن مقدار الهبوط كان على الأقل قدما . ولا تملو ضفافه عن خمسة وعشرين قدما . ولم أفس عرض النهر ، ولكنني أقدر ، حسبما انطبع في ذهني حين رأيت مجراه ، أن ما بين الضفتين لا يزيد على أربعمائة خطوة أو خمسمائة ، وكان تيار الماء من الضعف بحيث لا تكاد تتيبته .

وإذا مات للنساء عطبرة قريب عزيز حلقن رءوسهن حداداً عليه ، وهي عادة جرى عليها كثير من القبائل العربية المشتغلة بالفلاحة في صعيد مصر . والثارقانون البشارية الذي لا يعرفون فيه هواة على ما علمت ، وقبائلهم لا يفتزلها حرب ولا قتال ، وأعداء جنسهم الشكرية من ناحية والهدندوة من ناحية أخرى . وجيران الحداب الساكنين عطبرة هم قبيلة بنى كرب في مصعد النهر صوب قوز رجب ، وقبيلة البطراب ، وكلاهما بشارى . ويزرع الحداب شطآن عطبرة الدانية حتى يلتقاء بالقرن ، وبعد هذا الملتقى تبدأ أملاك الجمالين . وتقطع المسافة من هناك إلى بربر في أربع مراحل طوال ، ولكن الدرب لا يكاد بطرقه أحد ، ، فلا تمدو البلاد التي يتصل بها القوم شندى وقوز رجب والتاكة وبشارية الجبال الواقعة إلى الشمال منهم .

وبعد أن مكثنا بمطبرة ثلاثة أيام أو أربعة جبي الملك ضريبة المرور من كل فرد حسب عدد عبيده . ويؤدى عن العبد ثوب دمرور ، ومثله عن كل حمل مهما احتوى ،

أما التجار الذين يظن أنهم يحملون ذهباً أو يعرف عنهم هذا فتفرض عليهم ضريبة تمسقية ، وبديهي أن هذا الإجراء يثير منازعات كثيرة . وقد أدت عن بضاعتى كلها ثوباً ونصف ثوب من الدمور ، ولكن التجار السواكنية استاءوا من تشدد الشيخ وتمسفه أشد استياء وأندروه بأنهم لن يعودوا قط من هذا الطريق . على أنه في الواقع أسلم الطرق إلى سواكن ، فالصحراء في هذه الناحية تسكنها قبائل صديقة للجداربة واسواكن ، وقد علمت أن شيخ عطبرة مضطر إلى إشراك كثير من هذه القبائل في الأموال التي يجلبها من القوافل . أما الطريق من سواكن إلى الدامر فيخترق مراعى تمتلكها قبائل بشارية قوية الشوكة معادية لسواكن ، فلا يستطيع عبوره من القوافل غير القوى القادر على رد الاعتداء . وفي الغد يمشى الشيخ لىكل طائفة من التجار طاجناً من عجينة الذرة السائل وطرفاً من البوظة . وكان على القافلة أن تنقسم إلى جماعتين بعد مبارحتها عطبرة ، تتخذ إحداها طريق الصحراء إلى سواكن رأساً ، وتسلك الأخرى طريق التاكة . وينحرف الطريق الأول في الأيام الثلاثة الأولى مشرقاً عن اتجاه سواكن حتى يبلغ بئر قنقرا ب ثم ييمم صوب سواكن في خط مستقيم ماراً بثلاث آبار بين الواحدة منها والأخرى مسيرة يومين . وتستغرق الرحلة كلها عشرة أيام أو اثني عشر ، والطريق حافل بالكلأ ، وتسكثر مضارب البدو في الوديان الخصبة التي تسقيها سيول الشتاء فينمو بعدها العشب النضر الغزير . أما الفريق الذي قصد التاكة فكان في نيته أن يبيع فيها ما اشترى في سناز من دمور وتبغ ، وكان بعضهم يريد العودة بعد ذلك تواء إلى شندي ، على حين نوى بعضهم الآخر المضي قدماً إلى سواكن . أما أنا فقد قررت أن أتخذ طريق التاكة ، وقد سررت أن أرى رفقاءى من التجار الزوج يحذون حذوى ، فقد كان معهم كثير من العبيد ، وكانت جماهم ضعيفة ، والماء في طريق التاكة ميسور كل يوم .

٣١ مايو — سافر التجار القاصدون سواكن مساء أمس ، أما نحن فبكرنا في السير مع عطبرة سالكين سهلاً عرضه ميلان تكسوه أشجار الدوم والعشر التي ما زالت تقوم بينها جذور الذرة . ورأيت حللاً منبثة بين أحراج السنط الكشيفة

على مقربة من النهر . وأنفقنا في هذا ثلاث ساعات حططنا بعدها على شاطئ رملي قرب النهر رأيت على أرضه هياكل عظمية لتامسيح متوسطة الطول . واستوت الأرض أمام ناظري فلم يبد فيها أثر لتل ولا لتجد ، فأتى سرحت الطرف وجدت الأفق منبسطة لا انحر فيه . والإقليم سهل مستو على يمين النهر ويساره . وكانت الجرذان الكثيرة تعدو بين قوائم الإبل في كل خطوة تخطوها ، والعبيد يلهون بصيدها اليوم كله . ومن هذا الموضع اتخذنا طريقاً مستقيماً خلفين النهر إلى يميننا ، وسرنا فوق سهل محصب رملي متجهين جنوباً ثم عدنا إلى النهر ثانية بعد رحلة عشر ساعات في يومنا هذا .

أول يونيو — مضينا تتبع مجرى النهر . وتحفل الضفتان بالشجر ، والإقليم ملك لبني كرب ، وأرضه خصبة ولكن لا يبدو عليها أثر لزراعة ، ويظهر أن سكان الحلال والمضارب لا يعرفون لهم صناعة غير الرعي . وقد قدرت عرض النهر في إحدى بقاعه — حين دنونا منه — بمسيرة عشر دقائق تقريباً . وبعد أربع ساعات مررنا بأسم راود ، وهي مضرب كبير من مضارب قبيلة النعقاب إحدى قبائل البشارية ، وهذا أقصى حدود أملاك البشاريين جنوباً وبداية أملاك الهدندوة ، وهم قبيلة ذات بأس ساعدوا إلى ذكرها . وكان ابن شيخهم راجعاً معنا من شندى ، لذلك لم يكن هناك ما يثير مخاوفنا منهم اللهم إلا أن نخشى لصوصيتهم . وحطت القافلة قرب القرية فسرت إلى الأكواخ متطلماً ، وأثار مظهرى بين القوم صيحة دهشة ورعب — وهو ما كان يثيره على الدوام في هذه البلاد — لا سيما بين النساء اللاتي اشتد بهن الفزع حين رأين رجلاً ممن لفظتهم الطبيعة — أعنى البيض — يتطلع داخل أكواخهن ويسألهن بعض الماء أو اللبن . ووضح لى أن أول شعور يبعثه منظرى فى القوم هو شعور التقزز والاشمئزاز ، فالزنج يؤمنون إيماناً راسخاً بأن بياض البشرة أثر من آثار المرض وعلامة من علامات الضعف ، وما من شك فى أنهم ينظرون إلى الرجل الأبيض نظرهم إلى مخلوق أدنى منهم وأخط شأناً . وأهل شندى أكثر تعوداً ، إن لم يكن على رؤية البيض ، فعلى رؤية عرب شبه الجزيرة السمير . ولما كانت بشرى قد لوحتها الشمس فإنى لم أكن أنير بينهم كبير دهشة .

ومع ذلك فكثيراً ما كنت أفزع الناس حين أطلعهم فجأة فيصيح الواحد منهم « أعود بالله من الشيطان الرجيم ». ووقع لي مرة أنني كنت أساوم بسوق شندی فتاة ريفية على بصل معها ، فقالت لي إن خامت عمامتك وكشفت لي عن رأسك زدتك خمس بصلات . فلم أرض بأقل من ثمان ، فأعطتنيها وخلعت لها عمامتي فجعلت من رأسي الأبيض المخلوق . وسألتها مازحاً : أرضين لك زوجاً له مثل رأسي ؟ فبدت عليها الدهشة والاشمئزاز ، وأقسمت أنها تؤثر على مثل هذا الزوج أقبح عبید دارفور وأبشعهم خلقه .

وجدنا كثيراً من شواهد القبور في الصحراء المجاورة لأم داود ، فقد فتك الجدرى بالأهالي فتكا ذريعاً في العام الماضي . وكانت القبور مغطاة بالحصى من الرو الأبيض جرياً على عادة النوبيين ، وفي كل طرف من طرفي القبر عمود مضروب في الأرض . وهنا التقينا بقافلة كبيرة لبشاريين يسلكون طريقنا نفسة حتى فوز رجب ليشتروا منها ذرة . وتوجس التجار السواكنية شراً لأنه لم يكن بينهم وبين قبيلتهم ود ولا سلام ، وعلى ذلك حرصنا على أن نسير بعيدين عنهم ، وكنا منهم على حذر شديد .

ومضينا مع عطبرة بدم أم داود ، وكنا من حين لحين نسير في طريق قصيرة عبر الصحراء ، وكانت وجهتنا الجنوب الشرقى بانحراف إلى الجنوب . وبعد مسيرة تسع ساعات ونصف حططنا بعد أن رأينا قافلة البشاريين تحط على مسافة منا . وكان رئيس قافلتنا يخشى أن نغص في طريقنا ثم نحط بعد ذلك لثلاث نؤخذ على غرة ، فرأى أن من الحكمة أن يكون العدو على مرأى منا عن أن يكون وراءنا . وبتنا طوال الليل شاكي السلاح ، وأوقدنا ناراً ووضعنا متاعنا بحيث يكون دريئة لنا إن هوجمنا . على أن البشاريين كانوا في الغالب يخشوننا كما نخشاهم ، فقد لزموا مكانهم في الصباح بينما مضينا نحن قدماً .

٢ يونيو — سرنا في الصباح أربع ساعات متجهين جنوباً بشرق ، وكان سيرنا فوق سهل من أرض صالحة للزراعة وإن بمدت عن النهر أميالا . ولم نرأراً الجبال . وقينا في حرج من أشجار النبق والسيال واللالوب . ورأيت هنا فصائل من طيور

لأعمدلى بها ، وكان طير منها شبيهاً في حجمه وشكله بالشحرور ، وله ذيل طويل ذو خطوط بيض . ورأيت غربانا كباراً برقاب بيض . ويبدو أن البشاريين لم يكن في لغتهم أسماء لهذه الطيور المختلفة . وأكل لحم الطير عندهم عار كبير ، وقد سمعهم غير مرة يمتنون المصريين « بأكل الطير » سخريه منهم وتهكاهم . واستأنفنا السير فدخلنا الصحراء الرملية متجهين شرق الجنوب الشرقى . وفي مصر طارد التجار السواكنية — وقد ركبوا أخف منجنهم وحشاً رأوه من بعيد ، وكانوا يدعونه حمار الوحش . ولم يكن الوحش على قرب يتيح لى التحقق من شكله ، ولكنهم يقولون إنه في حجم الضبع ، وإن له رأساً وذيلًا شبيهين كل الشبه برأس الحمار وذيله ، وإنه بغير قرون . ويعرف أهل الصحارى العربية حيواناً يطلقون عليه هذا الاسم نفسه ، ولست أدري على التحقيق أهو هذا الحيوان بعينه أم غيره . وكانت الأرض أنى اتجهت تحمل آثار أقدام غزلان لا حصر لعدددها ، وبعض هذه الآثار لفصائل أكبر كثيراً مما عرض لى من شتى فصائل الغزلان . وبعد مسيرة أربع ساعات وقفنا بواد مشجر ، وكان هجير النهار لا يطاق . وأمطرتنا السماء في الليل وابلاً ، وكنت هلى طول الطريق أتبين شكل الكشبان الرملية والشجر فأرى الأدلة الواضحة على تعرض الإقليم للرياح الشرقية العاتية . ورأيت جبلاً بمنزلاً عالياً في السهل المشرق على أربع ساعات منا .

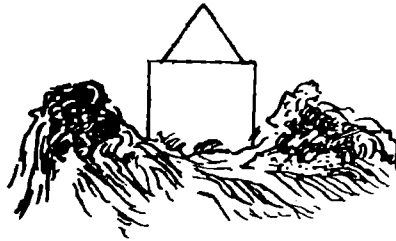
٣ يونيو — رأينا ونحن نقطع السهل هذا الصباح سراباً أزرق صافياً شبيهاً في وضوحه وصفائه بما رأيت في الصحراء بين مصر وبربر . وبعد مسيرة أربع ساعات إلى الجنوب بلغنا النهر ثانية تجاه قرية كبيرة هى فوز رجب ، وهى اسم عربى . وكانت الأرض على الضفتين جرداء قاحلة . وحططنا تحت أشجار من العسركانت من الكبر بحيث أظلت القافلة كلها ، وكان فى نيتنا البقاء بهـذا الموضع أياماً لأن الحداربه كانوا يرون فى فوز رجب سوقاً صالحة لبيع شطار من بضاعتهم . ولما دنونا من النهر رأيت على كشب تلين منفصلين يقومان متجاورين على السهل غير بعيد من النهر . وحين اقتربنا منهما أدهشنى أن أرى على قمة التل الأكبر بناء أثريا ضخماً ، ولما كنت أشكو قصراً طبيعياً فى نظرى استفحل

أمره حين أصبت بالرمد مرتين في الصعيد ، فأننى لم أصدق عيني ، لذلك سألت رفاقي عن هذا الذى يبدو فوق التل كأنه بناء ، فقالوا ألا ترى أنه كنيسة (وهو لفظ كثيراً ما يطلقه المصريون على المعابد المصرية القديمة التى ينسبونها للمسيحيين) ، وهى بلا شك من صنع «الكفار» ، ومضينا نحو التل وحططنا على مسيرة ساعة منه . وما إن زلنا عن جبالنا وربنا متاعنا حتى انطلقت صوب التل وبى شوق لفحص هذا الأثر الإثيوبى ، ولكن صيحة عالية من السوا كنية ردتنى على عقبى . قالوا « إن المنطقة كلها ينبث فيها فلاحو قوز رجب ، ولن تستطيع السير وحدك مائة خطوة حتى يهاجموك » . والواقع أننا رأينا أشخاصاً مريبين يختبئون بين الأشجار التى تحف ضفاف النهر بعيداً منا . وأضاف أصحابى أن التل موطن للعصوص الهندو ، فهم يسكنون مغاوره ، وهم فى حرب مع جيرانهم أجمين ، ولما لم يكن لهم فى خداعى مصلحة فقد صدقت تحذيرهم وعدت أدرأجى ، لا مطلقاً فكرتى بل مؤملاً أن أستطع فى التدبير زيارة لهذه الآثار فى صحبة بعض الأهالى الذين قديوافوننا للبيع والشراء . وصح عزى على هذه الزيارة مهما كلفتنى ، ولكننى لم أستطع لسوء الحظ أن أحقق هذا الأمل ، ولن أغتفر لنفسى هذا التردد الذى منعنى ساعتها من زيارة أهم أثر صادفته فى رحلتى هذه .

عبرت جماعة منا النهر إلى قوز رجب لتستطاع حالة السوق ، ثم عادت بمد الغروب بساعتين ، وكنا نتأهب للنوم (*) . وإذا رئيس القافلة يقبل علينا وهو يصيح « استمجلوا يا ناس الجلابه ساقا إذا قعدنا يقتلوننا يالله دلوا قربكم وشدوا على جالكم » فى مثل هذه الحالات تطغى رغبة المحافظة على النفس على كل رغبة سواها . وهكذا نسبت العبد مؤقتاً وعدوت إلى النهر بقربتين بينما تولى غلامى إعداد الجمل ، فما إن عدت بقربتى الممثلتين حتى وجدت رئيس القافلة قد رحل . وتفسير ما حدث أن الفريق الذى ذهب إلى قوز رجب رأى إليه سراً أن جماعة كبيرة من البشاريين اعترمت أخذنا على غرة ، فأصبح من الحكمة أن ترحل القافلة لساعتها لأن فى عبورنا النهر ليلاً للاحتباء بقوز رجب مشقة أى مشقة ، ثم إننا قد نحاصر فيها إذا التجأنا إليها ويطول علينا الحصار . لذلك مضينا على ضفة النهر فى صمت ، وممرت (*) إذا مرت القافلة بإقليم يهددها فيه الخطر قام المسافرون كلهم بالحراسة على نوبتين ، ففريق يحرس حتى منتصف الليل وآخر من منتصف الليل إلى الصباح .

بسفح التل ، ولسكن الليلة كانت غائمة فحجبت ظلمتها عن عيني كل أثر للمعبد . ودلتني نباح السكلاب على صدق ما ذهب إليه أصحابي من أن الجبل موطن للصوف الهندوة . وبلغ الرعب من التجار غايته ، فسكنوا سكونا عميقا ، ولم يسمح لأحد بإشعال قصبة لئلا تنبىء النار بمكاننا ووجهتنا . ولم يحرق هذا السكون غير أنين الجوارى المهزولات اللاتي أضناهن السير ، ووقع السياط يلهب بها السادة الفلاط ظهورهن ليكرهوهن على المسير وراء القافلة بمد أن أعاروا دوابهم لقوم من القوز أرادوا أن ينقلوا عليها بضاعة إلى التاكة . ورميت ببصرى إلى هذا الأثر الذى كنت أتلهف على رؤيته وأسفت للحظ المائر الذى عاقنى عن زيارة معبد صليب بالحس فى العام الماضى بمد أن بلغت أقصى رحلتى فى وادى النيل جنوباً ، والذى عصف بأملى اليوم أيضاً بمد أن بلغت نهاية رحلتى جنوباً ، وحرمت الناس من شيء قد يكون فى نظر البمض أشهى ثمار هذه الرحلة الضنية . فلعل الفرصة تواتى سائحاً آخر أسعد حظاً أو أجراً قلباً فيزور هذا المعبد الذى لم أستطع إلا الإشارة العابرة إليه .

وصخور هذه التلال من الجرانيت ، فقد التقطت منها أحجاراً ونحنت نحر بها ليلاً فلما فحمتها فى الصباح وجدتها من الجرانيت الوردى غليظ الحبيبات ، ويبدو أن التل الذى يقوم عليه المعبد هو أعلى تلال المنطقة ، فهو يرتفع عن النهر ثلاثمائة قدم أو أربعمائة ، وله جوانب مدرجة تكسوها كتل ضخمة غير منتظمة وصخور كبيرة . أما جانبه المشرف على النهر فقائم ، وبينه وبين النهر مسافة تبلغ ثلاثين ياردة يمتد فيها الدرب الذى سلكناه . ويلوح أن البناء مشيد على الجرف



وأنه يطل على النهر ، ولم أميز من تفاصيله غير حائطين عاليين ضخمين وسقف مستو كبير ، وعلى السقف شبه قبة عمودية الجوانب ، ولم أر أعمدة ولا بناء آخر .

أما المعبد نفسه فيحيط به من كل جوانبه صخور عالية تحجب مظهره عن البصر . ولم يتح لى فى النهار أن أبصره من أمام ، وقد خيل إلى أن ارتفاع جدرانها يتراوح بين ثلاثين قدما وخمسين ، وأنها مبنية من الجرانيت لأنها بدت لى فى لون الصخور المحيطة بها . ولم يكن معى منظر مقرب ، لذلك لا أستطيع أن أذكر للقارىء من تفاصيل هذا الأثر شيئاً ، ولكن يبدو لى أن المعبد كله — باستثناء السقف المدب — أخشن ما يكون بناء ، وأنه عريق فى القدم . وسألت التجار السواكنية هل رأوا مثل هذا الأثر فى النواحي المجاورة لهذا الموضع فقالوا لأنهم لم يسبق لهم التصعيد مع النهر بعد هذا المكان ، لذلك لم يستطيعوا أن يدونى بمعلومات وثيقة فى الموضوع ، ولم أر من أهل المنطقة من أستطيع سؤاله .

وقرية قوز رجب تقوم فوق السهل الرملى على نحو ربع ميل من ضفة النهر اليسرى ، ويسمونها قوز لموقعها بين الرمال ، وأهلها على ما علمت خليط من العرب والبشاريين والهندودو والجمعليين والشكرية الذين نزلوها للتجارة قبل كل شىء . وبدأ لى أنهم لا يشتغلون بشىء من الزراعة ، وقد فهمت أنهم يجلبون من إقليم التاكة القريب كل زادهم من الذرة . ولهم ماشية تنتجع ضفة النهر صيفاً وقلب الصحراء شتاء . وتدخل القوز فى أملاك سنار ، وحاكها — كحاكم شندى — من أمرة ورد عجيب الحاكمة . ولأهلها تجارة نشيطة مع سنار وشندى وقد يقصدون أسواق الدامر يبيعون فيها ماشيتهم كما يبيعونها فى شندى . ولا ينقطع المبيد من سوق قوز ، ويؤمها التجار السواكنية أحيانا ، ولكن بدو البشارية والهندودو أكثر غشيانا لها ، فعلى الرغم من أنهم أعداء للأهالى جرت هذه البلاد — كما جرى البدو الأعراب — على إباحة السفر فى بلد البدو بقيود معلومة . وقوافل سواكن التى تقصد سنار ولا تريد المرور بمطبرة أو شندى تسلك طريق القوز ومنها تشق الصحراء رأساً إلى سنار . وتكثر برك الماء فى الرمل شتاء ، أما فى الصيف فتضطر القوافل إلى حمل الماء معها رحلة ستة أيام كاملة ، ويقال إن هذه الصحراء جرداء لا شجر فيها . ولا تسلك القوافل هذا الدرب إلا صيفاً لأن بدو الشكرية يضربون خيامهم هناك فى الشتاء فيهددون سلامة المسافرين .

وعلى الرغم من الخطر الذى كثيراً ما يهدد صحة العبيد من جراء إقفار هذا الطريق وخلوه من الماء صيفاً ، يفضل التجار أن يسلكوه عن أن يتحملوا نفقات الإقامة بشنقى وأداء إتاوة المرور بمطبرة . وسرنا نحو أربع ساعات فى الليل ثم استرحنا فوق أرض رملية عميقة على مقربة من أشجار من الشوك والطرفاء .

٤ يونيو — قنا قبل الشروق ، وكان مسيرنا فوق سهل فسيح لا أثر فيه لمرتفع غير التلين اللذين ذكرتهما والذين كانا يقومان إلى يسارنا ، وكانا فى الصباح يتجهان إلى الشمال الشرقى بانحراف للشمال ، أما حين حططنا للقيولة فكان اتجاههما إلى الشمال الغربى . وتربة السهل من الطفل يتخلله القليل من الحجر ، وهى تقترب فى خصوبتها من تربة ضفاف النيل ، وتحفل بفصائل شتى من العشب البرى ، ولفت نظرى أن فصيلة منها كانت تشغل بقعة قائمة بذاتها لا تكاد تختلط بغيرها من الفصائل بحيث بدا السهل كله رقعة هائلة من الصور المختلفة ، وكان كثير من هذه الحشائش قد ذبل .

كانت وجهتنا شرق الجنوب الشرقى ، وفى الصباح انفصل عن القافلة بعض الرفاق واتخذوا سمتهم إلى أقصى حدود التاكة الجنوبية سالكين إليها طريقاً أكثر انحرافاً للجنوب . وطالعنا قرب الظهر أشجار من بعيد ، وكانت الشمس حامية فخففنا إلى الظلال نائمتها . وكان على سطح الأرض وعلى الشجر من الشواهد ما يدل على أن المكان فى مهب الرياح الشرقية الماتية . وفى المصر دخلنا سهلاً مستويا أجرد لا ترى فيه أثراً لشجر ولا لعشب أيا كان ، ولا ترى فيه مرتفعات ولا معالم من الأرض تهدى المسافر فى طريقه . وفى المساء ومضت البروق الساطعة فصححت وجهتنا بعد أن تبين القوم الجهة التى تنبث منها البروق . وكان الجو غائماً ينذر بالمطر ، وبعد مسيرة إحدى عشرة ساعة حططنا بواد مشجر وقد أخذ منا التعب كل مأخذ لأن فئة منا ضلت طريقها فى الليل .

٥ يونيو — يبدو أن القافلة عن بكرة أبيها قد ضلت طريقها أمس لانبساط السهل وخلوه من الشجر ، فقد بدأنا مسيرنا اليوم ميممين شرق الجنوب الشرقى ، وبعد مسيرة ساعة وصلنا حدود إقليم التاكة ، فوجدنا تربة غنية لها نعومة التربة النيلية

ولونها . وكانت أحراج العشر والسنط الكثيفة تمرقل سير الإبل ، وهبت علينا
ريح غائية أثارت الغبار والرمل حتى حجبت عن أبصارنا كل شيء . فلم نعد نبصر
ولو على عشر ياردات . وضللنا طريقنا بين الشجر ، وطفقنا نحبط نحبط عشواء
برهة أفزعنا فيها بعض الرعاة إذ حسبونا من أعدادهم البشاريين فساقوا قطعانهم على
عجل ، وبعد ثلاث ساعات بلغنا خياماً تبدو من الهدندوة فحططنا هناك . وكان
خبير من كبار خبرائنا زوجاً لإحدى قريبات شيخ الخيم ، ونزلنا في الساحة التي
تحيط بها الخيام ، وكانت مضروبة على شكل دوائر أو حلقة كما هي العادة في شبه جزيرة
العرب أيضاً . وفي المساء هبت علينا عاصفة أخرى لا أذكر أنني رأيت لشدةها
مثيلاً ، فقد ظهرت أول الأمر غيمة زرقاء قائمة تماو نحو ٢٥ درجة فوق الأفق ، ولما
دنت وعلت اربدّ لونها وشابتها صفرة خفيفة ، وراع جلال هذه الظاهرة من لم
يألف رؤيتها من قبل . ولما دنت الغيمة مناشعت فيها الصفرة على حين كان
الأفق أصفى ما يكون زرقة . ثم دهمتنا وهي تسرى حينئذٍ ولفتنا في ظلمة دامسة
وأشاعت الاضطراب في صفوفنا ، فلم يكن الرجل منا يميز شيئاً على خمس أقدام
أوست ، وامتلاّت عيوننا بالغبار ، وعصفت الريح بمظالنا المؤتة حالماً مستها ،
وعصفت معها بما هو أمكن منها من خيام الهدندوة . أما الخيام الكبيرة فصمدت
للماصفة برهة ثم أذعنت فإذا الخيم كله صعيد جرز ، وزاد اضطرابنا أن الإبل همت
بمقاودها - والفزع يملؤها - فقطعتها فراراً من الهلاك المحدث بها . واتصل هبوب
الريح نصف ساعة لم تعرف فيها هوادة ، ثم سكنت فجأة ، وصفا الجو ، ومضت
الغيمة الرهيبة في طريقها شمالاً تحمل معها الخراب والدمار . ومثل هذه الماصفة
كثير في هذا الموسم ، على أن تدميرها لا يعدو ما ذكرت ، فها هي إلا دقائق حتى
نصبت الخيام من جديد وعاد كل شيء كما كان .

لم نلق من الهدندوة إلا كراماً يذكر ، وحططنا في وسطهم خشية التعرض
لهجوم الليل ، وبتنا نحرس بضاعتنا مخافة أن تمتد إليها أيديهم بالسرقة على ما هو
معهود فيهم . وكانت عيون الماء بعيدة عن المضارب ، وكان على قاصدها أن يشق
طريقه في الغابة ، وهو طريق محفوف بالخطر على الغراب ، لذلك ألزمتنا الهدندوة

بدفع ثمن الماء الذى جلبوه لنا منها . أما الخبير فقد أولم له أقرباؤه ولية نحروا فيها كبشاً احتفاء به ، وأرسلوا من مائدتهم إلى جماعة التجار السود الذين كنت أسأكنهم أرطالا من اللحم المشوى . وبعد هنية بعث شيخ الدوار عبده يطلب شيئاً من القرنفل فلم نستطع رده لأنه كان من الواضح أنهم إنما طلبوه ثمناً للحجم ، ولو بدرت هذه الخسة من بدوى فى صحارى العرب لو صمته هو وقبيلته كلها بالخزى والعار .

٦ يونيو — لم يشأ أصحابى أن يمشوا مع الهندودوة أكثر مما مكثوا ، فإن صغر تخيمهم وبعده عن الأسواق لم يفسح أمامهم المجال لبيع بضاعتهم . لذلك استأنفنا السير هذا الصباح — على رغم اعتراض الرئيس — وشرنا جنوب الجنوب الشرقى فوق سهول التاكة الخصبة ، وهذه السهول غنية فى كل أرجائها ولكنها غير مزروعة ، وفيها الشجر الكثير والعشب الوفور . وبعد أن سرنا فى الغابات ثلاث ساعات فى طريق طويلة بلغتنا نجماً كبيراً عزمنا على أن نحط عنده ، واسم النجم فريجو ، ودخلناه من إحدى المنافذ المفتوحة فى السياج الكثيف العالى الذى تؤلفه الأغصان الشائكة ، وكل هذه المضارب تلفها الأشجار الكثيفة ، ثم ضربنا خيامنا فى الساحة المربعة . وكان لكثير من التجار أصحاب هنا فنزلوا فى خيامهم . وظل التجار السود يلزم بعضهم بعضاً . ولما كنت أعلم أننا سنمكث بهذا المكان بضعة أيام على الأقل فقد استأجرت بدويا لينصب لى تعريشة من الحصير أستظل بها ونقدته لقاء ذلك حفنة من التبغ .

بلاد التاكة — بلاد التاكة أو الفاسه كما يسميها أهلها أيضاً ، معروفة فى هذه الأجزاء كلها بخصبها العظيم . وتنبس جنوباً بشرق ، وطولها ثلاث مراحل طوال وعرضها مرحلة ، وأهلها كلهم قبائل تجمع بين البداوة وسكنى الحضر . وعلى مسيرة يوم إلى الجنوب الشرقى من مضرب الهندودوة المسمى فريق تبدأ مضارب لبدو يدعون الملكئاب ، وأبعد منهم ينزل بدو سقولو . وعلى مسيرة يوم من بدو الملكئاب تبدأ قبيلة الحلفه ، وهى عشيرتان عليا وسفلى ، وتبعد الأولى عن الثانية

مرحلة . والتاكة جزء من بلاد البجة^(١) وتشمل مجرى عطبرة من قوز رجب ،
وتعد — على ما قيل لى — جنوبا حتى الجبال (وهى فى طائى جبال الحبشة) ،
أما فى الشمال فحدود البجة هى سلسلة جبال لنقاي ، وعلى ذلك تدخل فيها مفاور
ونجاد كثيرة . ولكن التاكة نفسها أرض منبسطة تمام الانبساط ، أو قبل
أرض منخفضة تحدها الصحارى فى الشمال والغرب ، وتحدها من الجنوب الشرقى
سلسلة جبال تدعى النقيب قيل لى إنها تمتد محاذية للبحر الأحمر . أما حدودها
الجنوبية فلا أستطيع أن أفيد القارىء بماومات كثيرة منها ، ولكنى أعتقد أنها
إقليم تخترقه الجبال والوديان الحصيبة .

والفضل فى خصوبة التاكة وعمرانها راجع لما يفرها من فيضان منتظم .
وهى حقيقة لا يخامرنى فيها شك ولو أنه استحال على استقاء المعلومات الدقيقة
عن أسباب هذا الفيضان أو ملاساته . فى أخريات يونيو — وقد يتأخر هذا إلى
يوليو ، لأنه يبدو أن فصل الفيضان ليس له ثبات فيضان النيل^(٢) — تتدفق على
الإقليم السيول الغزيرة مقبلة من الجنوب والجنوب الشرقى ، فهاهى إلا أسابيع
(أو أيام ثمانية فى رواية بعضهم) حتى يضرع الماء الأرض كلها بطبقة يتفاوت سمكها
بين القدمين والثلاثة . ويقال إن هذه السيول تنبدد فى السهل الشرقى بعد أن
تفيض على الأرض ، ولكن الماء يظل فى التاكة فوق الشهر ، فإذا انحسر خلف
وراءه طبقة غربية سمكة شبيهة بما يخلفه النيل فى فيضانه — هذا إذا صدقت روايات من
رووا ذلك لى ممن عرفوا النيل ، فاستطاعوا المقارنة بين النهرين . والثابت أن البدر
يبدرون الحب على التربة الغرينية حال انحسار ماء الفيضان عنها دون تهديد أيا كان .
ويصحب الفيضان عادة أمطار غزيرة تبدأ قبيله ويشد هطولها إذا بلغ الفيضان
غايته . وقيل لى إن المطر تهمل له هوامف هوجاء عاتية تهب من الجنوب كل عشية
عقب مغيب الشمس . وبطول هطول الأمطار أسابيع بعد الفيضان ، ولكنهم
لا تتصل ، بل تهطل منها الشايب الغزيرة فى فترات قصيرة . ويتزود أهل

(١) (والبجة سكانها يسمون بجواوا) .

(٢) علمت من سواكن فيما بعد أن فيضان هذا العام بدأ حوالى ٢٦ أ و ٢٩ يونيو .

التاكة بالماء في الشتاء والربيع من آبار عميقة متدفقة المياه منبثة في أرجاء البلاد وإن تكن المسافات بينها بعيدة ، وهي مجموعات كل مجموعة منها ست ، وحولها أحواض كبيرة بنيت من اللبن لشرب الناشية ، وهي تنص طول النهار بالراحة وقطمانهم لأنها مورد الإقليم المجاور الذي يمتد أميالا أربعة أو خمسة . والماء في أكثر هذه الآبار ملح زقاق ، ولكن يقال إنك لا تعدم في كل مجموعة بئراً ماؤها مقبول . ويحفرونها إلى عمق يختلف بين خمس وعشرين قدماً وأربعين ، ولا يعلنون جوانبها بحجارة ولا آجر

والحصول الذي تنتجه أرض التاكة ضئيل إذا قيس بما يمكن أن تغله تربتها الخصبة التي تتمتع كل أجزائها بفيضان قل أن يخيب . ويبدو أن أهلها يجهلون الزراعة ، فليست لهم حقول منظمة ، وهم يبذرون حب الذرة — وهو غلتهم الوحيدة — بين الأشجار الشوكية والعشر ، بحفر ثغرات كبيرة في الأرض يرمون في كل ثغرة منها حفنة . فإذا ضموا المحصول رجع الفلاحون إلى مواشيهم يرعونها . ولعلمهم لم يفكروا قط في رى الأرض لغلة ثانية بالماء الذي يمكن أن تجده أبنائهم حفرت عليه في الإقليم . وليس أقل من أربعة أخماس الأرض يترك بوراً . ولكن غلتهم من الذرة تكفيهم عادة وتفيض عنهم ، لذلك لم يفكروا في العمل على زيادتها وإن كان الأهليون يقاسون الأمرين من القحط والموز في الفيضانات المتوسطة ، أو الشحيحة — ولا أقول في الجذب التام ، لأن أحداً لا يذكر أن الفيضان امتنع في سنة من السنين . وكان القوم هنا يبيعون ٢٤ مكيالاً من الذرة بثوب من الدومر . أما في شندى فالثوب يساوي سبعة مكاييل ، فإذا حسبت الثمن بالريال ، كان ثمن الذرة ريالاً إسبانياً ، كما هو الحال في صعيد مصر ، وهو أرخص أسواق الغلال في الشرق بأسره (*) . والذرة من أجود الأنواع ، وهي من الفصيلة التي تجدها في الصعيد وسائر أراضي النيل . ولكن ذرة التاكة أكبر حباً وأبيض لونا وأطيب مذاقاً ، لذلك يشتد طلبها

(*) حين كنت بالصعيد كان ثمن الأردب من أجود القمح (وبعادل ١٥ بوشلاً) ٥ بانكات أعنى ١١ بوشلاً بريال إسباني . وقد احتكره الباشا وباعه في الإسكندرية بأربعين بانكا للأردب (أعنى ١١ بوشلاً بشمانية ريالاً) .

الطلب . وحين كنت بسواكن في بيت الجابي التركي أكلت خبزاً صنع من الذرة التاكية فلم يكن خبز القمح يفضلهُ إلا قليلاً . وتباع ذرة التاكية في سوق جدة بثمان يزيد ٢٠ ٪ على الذرة المصرية ، وفي ظني أن أهل التاكية لا يزرعون من المحاصيل غير الذرة ، اللهم إلا قليلاً من البامية واللوبياء ، ولهم شغف عظيم بالبصل ، وقد أصبح ضرباً من العملة يتعاملون به مع تجار سواكن ، ولكن أحداً لم يحاول زرعهُ في التاكية .

وشهرة التاكية بالماشية لا تقل عن شهرتها بالذرة ، فهي تملك منها القطعان الكثيرة . وأبقارها على الأخص طيبة ، وهي ذات سنام كأبقار وادي النيل ، ويتعامل بها الناس كما يتعاملون في دارفور وكردفان . وكان ثمن البقرة الكبيرة السمينّة أربعة مقاطع دمور ، أو ستة وتسعين مدّاً من الذرة ، أي مايساوي أردبين تقريباً أو ثلاثين بوشلاً . وثمان البعير القوى يزيد ربع هذا . على أنني لم أرها من الماشية إلا قليلاً لأن الفصل كان آخر فصول العام ، وهو الذي يسبق الفصل المطير مباشرة وتكون الأرض فيه جافة جرداء ، وكان القوم قد أرسلوا قطعانهم من شهور إلى الصحراء الشرقية جرياً على عادتهم كل سنة ، وهناك نرعى الماشية في الجبال والوديان الخصبّة ، ويتوفر لها الماء في العيون . فإذا انقضى الفيضان عادوا بها إلى السهول . ويتهاقت الناس على إبل التاكية لأنهم يمتدّدون أن أغصان السنط الغضة التي تأكلها في الغابات تمطيها من الشدة والقوة ما لا يتاح لغيرها من الإبل التي تطعم غير هذا الغذاء . ويأخذ القوم جلد عنق الجمل الطويل بعد أن يخيّطوه من جنب ويركوه من جنبه الآخر فيستعمل غرائر يحملون فيها غلتهم في السفر ، وشكل الغرائر ملائم جداً للتحميل . ولولا الوحوش الضارية التي تأوى إلى الغابات وتفترس الكثير من الماشية ل زاد عددها زيادة كبيرة . وأهم هذه الضواري الأسد ، وكذلك النمر فيما يقولون ، ولكني لا أحسب نمرهم إلا فهداً . على أن بصرى لم يقع قط على هذه الوحوش ، إلا أنني كنت أسمع زئيرها كل ليلة . وفي السماء تساق الغنم التي ترمى على مقربة من المخيم إلى ساحته الكائنة في قباب الدوار . وتسدّ الثغرات المفتوحة في السياج الشوكي الذي وصفته بكوم من الشوك . ولا يجرؤ أحد على

الخروج من هذا السياج في أثناء الليل ، وهو من القوة بحيث يمنع على السباع التي تجوس الأرض طوال الليل ، وتعلأ الفضاء بموائها المنكر الذي يجيب عليه الكلاب من داخل المضرب بنباح متصل . ويندر أن يقتل القوم أسداً أو غمراً في هذه الأرجاء ، فإذا فعلوا فدفاعاً عن النفس ، ذلك أن الأهالي لا يعرفون من السلاح إلا السيوف والرماح(*) ، وهو لا يعينهم كثيراً على الفتك بملك الغابة الذي استطاب سكنى الإقليم فيما يبدو . ويحفظ بمض الشيوخ بجلود الأسود في خيامهم ، ولكنهم قلة لا تذكر . ويخيل إلى أن هذه الجلود متوسطة الحجم ، ولكن الأسد في هذه النواحي - إذا صدق المهندوة - قد يدانى البقرة حجماً ، وكثير ما فتكت هذه الأسد بالناس . والغابات حافلة بالذئب والفيلان والأرانب ، ويرى البدو القصص عن الأفاعى العظيمة التي قد تفرس الأفعى منها خروفاً برمتها . ولكن ليس بين وحوش هذه الغابات ما هو أشرس من البجاجة أنفسهم . ويقتنى هؤلاء البدو الحمير الكثيرة . ويقال إن الزراف يكثر جداً في جبال النقيب ، وقد رأيت في خيمة رجل من المهندوة قطعة من جلد زرافة . والجراد كثير في التاكة ، ويبدو أنه يتوالد فيها ثم ينتشر منها لسائر أرجاء النوبة . ولا تستطيع أرجال الجراد مهما تكثرت أن تأتى على كل أخضر في الإقليم كما تفعل أحياناً في مصر والشام . وما رأيت منه كان أكبر حجم هرفته ، وأجنته العليا حمراء والسفلى صفراء . ويحفل الشجر بالحمام والأسراب الكبيرة من الغربان . ولا أذكر أنني رأيت هناك طيراً زاهى الريش . ويجمع الصمغ العربي من السنط ويبيع في سواكن لتجار جدة ، ومن جدة ينقل إلى مصر ، ولكنه ردىء النوع ، ولعل هذا راجع لرطوبة التربة ، فإن أجود أنواع الصمغ يؤخذ من أجف الصحارى .

وبدو المهندوة - ولم أر من أهل التاكة غيرهم - ينتمون إلى نفس الجنس الذي ينتمى إليه البشاريون وسائر النوبيين الشرقيين ، ولهم قسماهم

(*) كذلك حال التجار السواكنية فهم لم يألفوا استعمال الأسلحة النارية . وقد يمر بهذا الطريق بعض العرب المساجين بالبنادق البسيطة في صحة قوافل سواكن فاصدين شنفى أو سنار .

ولفتهم وطباعهم وعاداتهم . وهم أشد قبائل الناقة الأربع بأساً ، أما أضغفها فاللكتاب . وكل هذه القبائل تشتغل بالزراعة حيناً وبالرعى حيناً ، ولكل قبيلة قريتان كبيرتان في الصحراء على حدود الأرض الزراعية التي لا تخلو قط من بعض السكان ، والتي يمود إليها السكان جميعاً في موسم الأمطار ، اللهم إلا نفرأ منهم يقومون على الماشية في الصحراء . فإذا انحسر الماء انتشر البدوي الأرض يتخيرون المرعى الطيب فتضرب فيه الجماعة دوارها ولا تفتأ متنقلة من شهر إلى شهر حتى يحف الكلاء وتحرقه حرارة الشمس ، وفي غضون ذلك يزرع ساكنو القرية الأرض الملاصقة للصحراء . والدوار أكواخ من الحصير كتلك التي يقيمها أهل عطبرة ، وإلى هذه أكواخ قليلة ذات جدران من الطين ، وهي شبيهة بأكواخ الوادي ولكنها دونها حجماً . على أن أكثرهم — حتى من سكن منهم القرى — يفضل تعريشة في الحلاء عن سكنى هذه الأكواخ المقلية . وغير هذه القرى التي وصفت قرى أخرى في الأقاليم الخمسة بنيت على بقاع رملية منعزلة ترتفع قليلاً عن مستوى الأرض العام كأنها الجزائر . وسألت هل في الناقة مستنقعات أو برك كبيرة من الماء الراكد فقليل لا .

وكان بالحيم الذي نزلناه مائة وخمسون خيمة إلى مائتين ، وهو أربعة دوارات يفصلها عن بعضها البعض سياجات أوطأ من سياج الشوك الكبير الذي يحيط بالضرب كله . ورأيت في كل مضرب بالناقة — كما رأيت في شندى وعطبرة — الكثير من مشارب البوطة وبنات الليل . وقد ألم بهن التجار السواكنية حتى أرفقهم قدرأ في عيون القوم . وخيل إلى أن هؤلاء النسوة كن أكثر حشمة ممن على شاكلتهن ببلاد وادي النيل ، فمن على الأقل لا يخرجن بالنهار إلا فيما ندر ، أما أوائل قترهن يجان في المدينة في كل وقت . ويلبس القوم — رجالاً ونساءً — اللباس النوبي المعروف ، أعني القميص من الدمور والثوب منه يلقونه على أكتافهم . ولفتت نظري عادة غريبة بين النساء هي لبسهن الخواتم من النحاس أو الفضة في أصابع القدم ، ومنهن من ترتدي مئزراً من الجلد بدلاً من قطعة الدمور التي تلقها النساء النوبيات على خصورهن . وهذه المادة منتشرة بين

بدو الحجاز أيضاً . وفي الخيام يعلقن الحلى المختلفة من الودع الأبيض المجلوب من
البحر الأحمر مختلطاً بربيش النعام الأسود . ونساؤهم سافرات ، ولا تعجب المرأة
غصاصة ولا حرجاً في لقاء رجل في خيمتها ، ولا تحس طاراً إذا رؤيت تتحدث
منه في غياب بعلها . على أن هذا لم يقع لي قط ، فكلما أقبلت على خيمة تلقاني
السوة بصيحات عالية وأمرن إلى بأيديهن أن أغرب عن وجوههن فوراً . ولم
يرعن منى أكثر من لحيتى وشاربى ، ذلك لأن لحنى البدو لا تطول ولا تنزر ،
وهم يقصرون شواربهم لأن إرسالها عيب ، وهو إلى ذلك عنوان البذاذة كاللحية
الطويلة عند الأوروبيين .

ووجدنا في كل قرية تقريباً رجلاً أو رجلين أديا فريضة الحج ، وكانا يقومان
بما يقوم به الفقهاء من مهام . هؤلاء الرجال وحدهم هم الذين يهتمون بإقامة شعائر
الدين ، أما سائر القوم فأجهل الناس بشرائع الإسلام وتعاليمه . فهم متى بعض
الوجوه يقلبون هذه التعاليم رأساً على عقب ، فيأكلون مثلاً دم الحيوان المذبح بأن
يضعوه على نار حتى يحمد ، وبعد ذلك يرشون عليه الملح ويصبون عليه السمن . وأفضل
دماء الحيوان وأصلحها لهذا اللون من الطعام دم البقرة . وهذه الأكلة يعرفها أهل دارفور
كأعرفها أهل التاكة على ما علمت من الرقيق الدارفوريين . ولا يأكلون من اللحم
نباتاً غير الكبد أو الكلى ، وكذلك يأكلها بالملح البدو من الأعراب وأهل الشام .
ومن ألد الأشياء عندهم أكل نخاع البقر نيئاً . وحين تكون ماشيتهم قرب
مضاربهم ترى طعامهم لا يكاد يخرج عن اللبن لاسيما لبن الناقة . فإذا اجتمع منهم
نفر وضعوا قدراً منه على الأرض وسطهم ثم أدبرت عليهم القدر كل خمس
دقائق تقريباً فيرشف منها كل منهم رشفة . فإذا فرغت ملئت ثانية ، وهكذا
دواليك ما دام الضيوف موجودين .

وفي الهدندوة كسل مفرط ، فالرجال يكونون شئون البيوت لنسائهم وعبيدهم
وينفقون سحابة نهارهم إما في التسكع والزيارات الفارغة للجيران ، أو في البيوت
متكئين على المنقرب يدخنون الأهواذ ويمارقون الخمر حتى يشملوا بها قبل النوم .
وهم فيما بينهم كرام أسخياء ، ولكنى لم أراشع منهم ولا أبخل على الغريب ،

وهذا أدعى إلى الدهشة لأنه نقيض ما ألف البدو ، فالبدوى يعنى أشد العناية
بحاجات الغريب ، ويبدو أن البخل على الغريب صفة تفرد بها الهدندوة والسواكنية ،
وآية ذلك أننى لم أستطع أن أحصل من القرية القريبة من دوارنا — وفيها تنصب
السوق — على قطرة من الماء دون أن أؤدى ثمنها ذرة ، كذلك اضطرت فى دوارنا
إلى دفع إيجار حصير لأجفف عليها شيئاً من دقيق الذرة دقائق معدودات. ويشكو
الحجاج الزنوج الساكنين الذين يمرون بالتاكة فى طريقهم إلى مكة مر الشكوى من
بخل القوم على الغرباء ، وكان بعض هؤلاء الحجاج مالمين بالدوار ونحن به ، وكانوا
يطوفون فى العشية بصحافهم الخشبية فيستجدون القوم قليلاً من الخبز وهم يتمشون ،
فما كانوا يستطيعون أن يظفروا من مائتى خيمة بما يكفى لمشائهم. وكنت ورفاقى
نضطر لاستضافة اثنين منهم أو ثلاثة كل عشية . والملاحظ أنه إذا انعدم الجود
والسخاء فى قوم اتسع المجال لكثير من الرذائل والدنايا. وتلك حال أهل التاكة ،
فغراب الذمة يؤثر عنهم كما يؤثر البخل . والتطاحن والتناحر لا ينقطعان فى صفوفهم ،
ولكنهما لا ينتهيان بالعداء السافر بل بحرب خائنة غادرة يحاول فيها الرجل أخذ
عدوه على غرة والفتك به غيلة . وتراهم مدججين برماحهم وسيوفهم ودرقهم حتى
فى دوارهم ، فإذا ابتعدوا عنه لا يسرون إلا جماعة. وقد قتل مجهولون رجلين منهم فى
أثناء مقامى عندهم ، ولم يكن رجال القافلة يجرءون على الخروج من الدوار إلا فى جماعات
كبيرة . وكان من عادتنا فى المساء أن يلتئم شملنا فى قافلة صغيرة لنمضى إلى
الآبار تلاً منها قربنا حريصين على أن يلزم بمضنا بعضاً قدر الاستطاعة . والقوم
لا يعتبرون الخيانة جريمة ولا هاراً ، ولا يجد الرجل من الهدندوة عيباً فى الفاخرة
بذمته الخربة مادامت أغانته على نيل مأربه . وأهل التاكة — على ما زعم
لى السواكنية — قوم لا يتقيدون بأيمان ولا يرتبطون بمهود ولا موافيق . وقد
يتخرجون من الحث يمين واحدة لاثانى لها ، هى قول الرجل منهم «وحياة عافيتى» .
وقل أن يتردد أحدهم فى الفتك بصاحبه فى الطريق طمعاً فى أتفه الغنيمة مادام يرى
نفسه فى مأمن . وهم يثأرون لقتلهم ما استطاعوا إلى التآ سبيلا . ورووا لى نبأ
عادة منكرة جرت عليها قبيلة الخلقة — وأصلها من الحبشة — فى ثأرها

لقتلها . ذلك أن أقرباء القتيل إذا قبضوا على قاتله أولوا ولمية لأفراد الأسرة وجاءوا به في وسطهم موثقاً على عنقريب ، ثم ذبحوه بشفرة ذبحاً بطيئاً وهم يتلقون دمه في قدر تدار على الحاضرين فيشربون من دم الضحية وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ولست أستطيع الجزم بصحة هذه الرواية وإن يكن كثيرون قد أكدوا إلى حقيقتها ولم أسمع أحداً ينفيها . ولعلى كنت قادراً على معرفة بعض عادات هؤلاء الهمج لو كنت ملماً بلقمتهم أولو لقيت منهم عدداً كبيراً يتكلم العربية ، إذ لا يكفي في ذلك أن أجد منهم واحداً أو اثنين يعرفان العربية ، فهم لا يطبقون إرهابهم بالأسئلة ما لم يكن في الإجابة عليها مغنم ، ومثلى لا أمل له في الحصول على معلومات كهذه إلا بالإنصات إلى حديث القوم بعضهم مع بعض ، أو بمحاولة الاستطراد بهذا الحديث إلى هدفه هو على غير وعى منهم .

وقد ابتلى أهل التناكة برذيلة أخرى فوق الغدر والخيانة ، وهي ولعهم الشديد بالسرقة . وقد أصابنا جميعاً شواظ من هذا الولع ، ولكن أشدنا اكتواء بنارهم كان سوا كنياً ينزل خيمة بدوى كبير في الدوار ، فقد شرطوا جرابه الجلدى في الليل وسرقوا منه مائة أوقية من الذهب . وكنا كل صباح نكتشف سرقة توافه من متاعنا ، ولكننا اتخذنا من أسباب الحيلة والحذر ما استحال معه عليهم أن يسرقوا الأشياء الثمينة دون إيقاظنا . وكنت يوماً في السوق أكيل بعض الذرة فإذا رجل ينشل من فوق كتفى فردات دمور أعرضها للبيع ، ولم أفطن إلى السرقة لتوى مع أن الواقفين جميعاً رأوا الرجل وهو يفر بها . وما إن اكتشفت فعلته حتى اقتفيت أثره ، ولكنى وجدته يحمل سلاحاً ، ووجدته لى قريباً بل أكثر من قريب ، ثم إن بعض القوم انحاز إلى صفه ، لذلك رأيتني محظوظاً حين استعدت منه ثلثى غنم الدمور ذرة ، واحتفظ اللص بالباقي مكافأة له على ما كابد من عناء في سرقة الدمور كله .

وقد أصبح سكان التناكة أهل حرب وقتال يفضل ما بينهم من تناحر ، وما بينهم وبين البشاريين أعداء جنسهم من خصومة لا هوادة فيها . وسلاحهم سلاح أهل وادى النيل ، ولا يعرفون في حربهم سهاماً ولا قسيماً . ويقتنى شيوخهم الجياد ويلبسون الزرد . وهم فيما يقال شجمان صناديد ، ولكنى لم

أر آثار الجراح إلا على ظهورهم ، ومثل هذا رأيتُه عند أهل النوبة جميعاً . فلم ألق منهم رجلاً يحمل ندوباً على صدره ، أما ظهور أكثرهم فتحمل ندوباً كبيرة يبدو أنهم يخورون بها . ويقال إن الدرق يدرأ عن جنوبهم الطعنات . ووجدت عندهم عادة كنت في رحلتى إلى دنقلة قد سمعت بوجودها بين البشاريين ، ذلك أنه إذا ازدهى شاب آخر ببسالته الفائقة ، استل هذا مدية فطعن بها ذراعيه وكتفيه وجنبه ، ثم أعطاها لذلك التباه الفخور بشجاعته ، فيضطر هذا — زوولا على قواعد الشرف عندهم — إلى طعن جسمه طعنات أغور من طعنات صاحبه ، فإن لم يفعل كان لفرعته قصب السبق . وما من شك في أن القوم أشداء لا تدانيهم في قوة البأس وصلابة العود قبيلة ممن عرفت من البدو . ويكاد غذاؤهم في الشتاء يقتصر على اللحم واللبن ، أما الخبز فلا يصيبون منه إلا أقله ، وإلى هذا يعززون قوتهم . ولا يروغهم من الأمراض سوى الجدرى ، وقد اجتاحت قبيلتهم في العام الماضى ولم يفارقهم بعد تماماً ، فما زال مضرب من المضارب القريبة موبوءاً به ، لذلك قطعت المواصلات بينه وبين سائر المضارب المحيطة به . وأول من جلب المرض إلى هنا التجار السوا كنية ، ثم انتشر من هذا الإقليم إلى سائر بلاد النيل .

وعلى أطراف الصحراء قرية تسمى سوق الهرم (ويستعمل الأهالى في افتقهم كلمة « سوق » العربية) ، وتقع على ربع ساعة من دوانا ، وهى مقر الشيخ الأكبر لهندوة التاكة . وفى كل أسبوع تقام على الرمال المنبسطة خلف القرية سوق يؤمها العدد الفقير من البدو والريفين . وقد زرتها مرتين فسكنت بين الوافدين عليها بمبعث دهشة بالغة ومصدر تسلية كبيرة لما رأوا في منظرى من غرابة وطرافة . على أنى كنت على الدوام أثير في النساء من الاحتقار والتقرز أكثر مما أثيره في الرجال . ورافقتى إلى هذه السوق مساكنى من التجار السود فبمنافيتها سلماً مختلفة جابئنا من شندى وتقاضينا منها ذرة ، وهى العملة المتداولة هنا . وقل أن تجد في التاكة بدواً يرضون بالريال هملة ، ولكن الطلب شديد على الدولار . وقد

جلب الريفيون إلى السوق سلماً أخرى بالإضافة إلى الماشية ، منها الحصر والسلال المختلفة المصنوعة من الجريد وسمف الدوم الذى يكثر فى الوديان الصحراوية شمالاً وشرقاً ، والقدير من الفخار للطهو ، وأباريق الوضوء التى يشتريها السواكنية ويحملونها إلى الحجاز . وكل زنجى أو حاج فقير



يحمل منها إبريقاً لوضوئه اليومي ، ورجال الإبل ، والجبال من السّمار ، والجلود ، والقرب ، والدجاج الذى تراه فى أرجاء التوبة كلها ، ولحم الجمل المجفف (أما السمن فلم يكن من سبيل للحصول

عليه لبعده الشقة بيننا وبين القطمان) ، وفأكهتا اللالوب والنبق ، ويعصمون من النبق ضرباً من المربى طيب المذاق ، والتاما — وهى قشر شجرة شبيهة بالقرفة التى رأيتها فى شندى سواء فى شكلها أو طعمها أو الأغراض التى تستعمل فيها ، وتسمى الباسنيا فى الجبال الواقعة جنوب الخلقة — ، والصمغ العربى ، والقرص — وهو تمر السنط الذى يدبغ به الجلد — ، والملح المجلوب من سواكن وهو سلعة هامة ، وريش النعام الأسود المأخوذ من أثناء ، أما الريش الأبيض فيباع سراً لتجار سواكن . وفى السوق حدادون ، فترى العبد يتفخ بالمنفاخ بينما يكف سيده على إصلاح المدى ورؤوس الحراب والقيود الحديدية التى يربطون بها فى الليل قائمتى الجمل الأماميتين .

وأهم ما يبيعه التجار الأجانب التبغ سواء منه ما جلب من سنار أو من العجم واليمن . وهذا الأخير يسمى تبغاً سودانياً فى هذه النواحي ، وهو بيمينه التبغ ذو الأوراق الصفراء الذى يسمونه فى الحجاز ومصر تمباكاً ، والذى يدخنه الشرقيون فى النارجيلة . ونظراً لما يمتاز به التبغ السنارى من قوة وحرارة يفضله القوم فى التاكلا سيما فى صناعة النشوق الذى يكلفون به أشد الكلف ، ويحضرونه بخلط النظرون أو الملح بالتبغ المسحوق . وليس منهم رجل أو امرأة يسير بغير وطاء صغير فى حجم بيضة الإوزة يحمل فيه نشوقه . كذلك يبيع التجار السواكنية النظرون الذى يجلبونه من شندى ، والتوابل بكافة أنواعها — ويقبل على شرائها الخلقة إقبالا عظيماً لاسيما القرنفل — وكذلك يبيعون اللبان والحرز

والآلات الحديدية، ولكن أهم سلمهم التبغ والدمور والقرنفل، ويقايضون عليها كلَّها بالذرة، وهي أهم ما ينشده تجار سواكن التي تعتمد في زادها من الذرة على التاكة، لأن الإقليم المجاور لها لا يكاد يزرع منها شيئاً. وتجلب ذرة التاكة إلى سواكن بمقادير كبيرة بحيث يمكن أن يشحن القوم منها في أى وقت شاءوا مراكب إلى جدة التي لا تنفرغ أسواقها من الذرة. ولست إخالني في حاجة إلى القول بأن هذا ينشط المواصلات بين التاكة وسواكن تنشيطاً عظيماً، فقل أن يمضي أسبوعان دون أن يفد على التاكة قوم من سواكن، وأجرة السفر بينهما ضئيلة لرخص الابل. ومع ذلك فقد كان ثمن الذرة بسواكن أربعة ضعاف ثمنها بالتاكة، فكانت الاثنتا عشرة كيلة تباع بريال، ولكن هذا الثمن على ارتفاعه يسمح للتجار بنقل الذرة إلى جدة ويبيعها بثمن مجز. وكانت التاكة إبان القحط الأخير عند الذرة وادى النيل كله من شندى إلى مقرات. وبالأقليم هذه أسواق كالسوق التي وصفت، وسوق الحلقة فيما يقال أكبرها، والذرة فيها أرخص منها في هذا القسم من التاكة. وكان ثوب الدمور هناك يساوى من اثنين وثلاثين مداً إلى ستة وثلاثين، وقد ركب بعض اصحابي إليها ليبيعوا فيها تبغهم.

ويهدد سلامة المسافرين بالطريق المباشر من التاكة إلى شندى غارات الشكرية مما يضطر التاكيين القاصدين شندى إلى سلوك طريق فوز رجب وعطبرة. وقد تذهب القوافل الصغيرة أحياناً من التاكة إلى سنار مباشرة طلباً للدمور والتبغ، فتسافر من أقصى الحدود الشمالية للحلقة نصف يوم إلى قرية مناه، ومنها سفر ثلاثة أيام في صحراء رملية لاماء فيها حتى عطبرة، ويسكن ضفافه هناك عرب عثمانيه الذين يتكلمون العربية. ومن عطبرة رحلة يومين في الصحراء إلى عرب الضليانة الذين يملكون القطعان الكبيرة من البقر والجمال، ومن هناك رحلة يوم في الغابات والمزارع إلى قرية المرمر، ثم رحلة يومين عبر الصحراء يبلغون يمدّها سنار بعد رحلة مجموعها ثمانية أيام أو تسعة من السير الوئيد

في طريق غير مستقيم . وكثيراً ما يسلك الحجاج الزنوج هذا الطريق . وقد أحاطني علما بهذه المسافات رجل من دار صليح قام بالرحلة مع غلام ولم يكن لهما فيها دليل . وقد أحسن عرب عمران معاملة الرجل ، ومن خيامهم أتوا صوب منان محترقا الصجرأ ولا دليل له إلا نجوم السماء . وروايته — في اعتقادي — موثوق بها . وإنى أسوق إلى القارىء فيما يلي ما سمعت عن الطريق إلى رأس الفيل ، ولنكتفى استقتنا بدقته اقتناعاً بدقة الرواية الأولى .

يقطع المسافر بعد مغادرته آخر قرى الحلقة مرحلة واحدة طويلة تبلغ به عرب الفحارة ، ومن هناك يسير يوماً ونصف يوم إلى وادي عمران ، ثم يوماً إلى عباية ، ثم يومين إلى رأس الفيل على الطريق بين سنار وغندار . وعلى مسير ثلاثة أيام من عرب عمران — صوب القوز على عطبرة — قرية كبيرة للشكرية تدعى قباربب قيل لى أنها فى اتساع شدى ، وكثيراً ما سمعت القوم فى التاكّة يرددون اسمها فى أحاديثهم .

وبين الحلقة والحبش عداً شديداً ، ولا يذكر الحلقة الحبش إلا الصقوا بهم نعتاً من النموت المعيبة ، وأهونها الكفر . وسمعت فى الصعيد وفى بربر أن القوافل تقوم أحياناً من الحلقة إلى مصوع . وروى لى بعد ذلك تجار مصوهيون فى جدة أن الحلقة يذهبون إليها أحياناً ليعرضوا أبقارهم للبيع ، ولكنى لم أسمع أبان وجودى بالتاكّة بمثل هذه التجارة . وبين الحلقة وأحباش إقليم وفات روابط تجارية ضعيفة . ولو أنى وجدت الرحلة إلى مصوع ميسورة لما ترددت فى القيام بها ، لأنى رأيت هذا الإقليم غاية فى الطرافة ، ولأنى كنت فى هذه الحالة أمر بالقبائل الكثيرة التى هى همزة الوصل بين الحبش والعرب ؛ وكلها قبائل ذات عادات غريبة جداً . بيد أنى — وقد بلوت من خلق أهل التاكّة ما بلوت — لم أر بصيصاً من الأمل فى إمكان المحافظة على بضاعتى القليلة لو أنى افترقت عن رفاقي التجار السواكنية . وقد أيقنت — لما خبرت من معاملة هؤلاء القوم للغرب — أننى لا

عالة هالك جومالو سرقت بضاعتى . ولو استخدمت أحد هؤلاء الهمج دليلاً لى
لأغنائى هذا فتيلاً حتى ولو كان الرجل مخلصاً لى وفياً ، لأنه كان يمجز عن
ضمان سلامتى أكثر من يوم واحد ، أعنى لنفاية حدود قبيلته ، وكنت عندئذ أقم
بين أغراب لأم لهم إلا نهب كل ما أحل ، بينما تموزنى وسائل الدفاع عن نفسى
وأسباب التفام معهم ، لأن الناطقين بالعربية منهم قلة لا تذكر . فلمل
أحدلاً لا يلومنى على نبذ هذه الفكرة فى وقت كنت أومل فيه بلوغ سواكن آمناً ،
وهو أمل له ما يبرره . وقد سمعت فى التاكة أن سواكن ومصوع على بعدين
متساويين من الحلقة.

ولم يلحق بى وأنا بالتاكة أى أذى ، ولست أذكر أن حادثاً مكدرًا وقع
لى . على أنه نعى إلى فيما بعد أننى كنت على وشك الوقوع فى بلاء كبير . ذلك أن
عبدًا كبيراً لأحد رفاقى بيت سرقة جملى وبيمه فى قرية قريبة ، ولست أظنى كنت
قادرًا على استرداده لو فعل . كانت جمالنا تساق كل صباح إلى الغابات لترعى
تحت حراسة العبيد ، وكنت عهدت بجملى إلى غلامى يحرسه . وكانت بعض الجمال
تسرق أحياناً فى أثناء نوم العبيد فى قيظ النهار ، ولولا أن العبد الذى دبر سرقة
جملى أسر بالأمر إلى آخر ، ولولا أن هذا الآخر أبلغنى نبأ هذا التدبير لسرق جملى
كما سرق إخوة له من قبل . وقد شكوت العبد إلى سيده فنهغه تعنيفاً شديداً .
ولم أترك بعدها جملى يرعى بميداً ، بل كنت أحجزه داخل الخيم وأقدم له الذرة
عليقاً . ويتخذ التجار الحيطلة خافة أن تسرق خير إبلهم ، فيقيدون قائمتى
الجلل الأماميتين بأغلال حديدية ثقيلة يقفلونها بقفل فلا يمكن فكها إلا بفتح
القفل بمفتاح ، وبذلك يتمرد على اللص خطف الجلل خطفًا على الأقل . وفى غداة وصول
القافلة قدم شيخ الخيم لسكل جماعة فطوراً وهشاء من عججين الذرة الرقيق ، وبعد
يومين أمر بنجر بقرتين احتفاءً بمقدمنا ، وكان نصيب من هذا اللحم مرسلارفاقى
التكارنة ، ولكن عبيد التجار السواكنية استولوا عليه فاخفى فى طرفة عين .
وردأ على هذه الحفاوة اضطررنا إلى إتخاف الشيخ بهدية ، وكانت فردة دمور
قيمتهما اثنتا عشرة كيلة من الذرة عن كل عبد فى القافلة ، وجملة هذا تقرب من

عشرين ضعفاً من ثمن الخبز واللحم اللذين قدمهما الشيخ للقافلة . ولا يؤدى
للمسافرون ضرائب مباشرة هنا، كذلك لا يؤدى أهل التاكة ضرائب فى سواكن.
وما وافى الرابع عشر من شهر يونيو حتى كان تجار القافلة قد باعوا كل
ما يحملون من أقمشة قطنية وتبغ ، وانطلق بعضهم فى جماعة قليلة عائدين إلى قوز
رجب . وقد وصل إلى علمنا أن البشاريين وصلوا فى نفر كبير غداة رحيلنا من
المكان المقابل للقوز ، ولكنهم عادوا أدراجهم حين عرفوا مما خلفته القافلة من
نيران خامدة ورماد بارد أننا فتنناهم بزمان . وفى الليلة السابقة لرحيلنا عن
التاكة انضم إلى القافلة عدد من أهل هذه الناحية بأحال من الذرة . أما تجارنا
فقد قايسوا على بضاعتهم كلها بالذرة ، ووسقوا إبلهم على قدر ما أطافت .
كذلك انضمت إلى القافلة جماعة كبيرة من الحجاج الزوج ، فاجتمع لنا ما لا يقل
عن ثلاثمائة من الإبل . وكان رحياننا غاية فى الفوضى والاضطراب ، فقد قام
أكبر شيوخ القافلة فى الرابع عشر ، وكان من رأينا أن نمكث بعده أياماً ، وإذا
الشيخ الذى ولى أمر القافلة من بعده يقوم فجأة ويوسق جماله . وكان من أثر هذه
العجلة أن اضطر أحد رفاقى إلى ترك دين له بالقرية ، فحسر بهذا ما يعادل عشرين
كيله من الذرة . وقد تردد طويلاً بين الرحيل مع القافلة أو التخلف عنها حتى
يسترد دينه ثم ينطلق إلى سواكن فى قافلة تالية ، ولكن حذره تغلب فى النهاية
على حبه للمال ، فانطلقنا فى الصباح الباكر من ١٥ يونيو ، وأحاط بنا أهل
الدوار جميعاً — قبل أن نرحل عنهم نهائياً — محاولين الحصول منا على بعض
الهدايا الصغيرة . وكانوا طوال مكثنا عندهم يهقوننا بطلب الهدايا ، لاسيما نساؤهم
اللاتى لم يتركن حيلة ولا فنا من فنون الدلال إلا لجأن إليه لنيل مآربهن . وكانت
أشدهن حاجة وإلحاحاً عروس حديثة المهد بالزواج ، وهى إحدى بنات عم شيخ
الدوار . وكنت على يقين من أنها فى قرارة نفسها تحتقرنى وتسخر منى ، ولكنى
لم أنمألك نفسى من الإعجاب بدهائها وملقها وهى تحاول بالإشارة أن تقنعنى
بأنها تهيم بى حباً ، وأن تفهمنى أنها لن تردى طلباً إذا أعطيها حفنة من القرنفل .
ولم قومها كانوا يعلمون أنها إنما تخاذعنى للظفر منى بشىء ثمين ، وهى ذلك كان

من بواث ارتياحي أن أفسد عليها الأعيان فتذهب محاولاتها كلها أدراج الرياح .
 وكنت في مقامى بهذه القرية — كما كنت في مقامى بشندى — أبدو للناس
 غاية في التقوى والورع ، مقلداً جهد استقطاعى الفقهاء الذين يحلمهم أهل
 هذه البلاد لاشتهارهم بالعلم الغزير والخلق الكريم ، وتلك في الحق شيمة هذه
 الطائفة بوجه عام ، وإن كان معروفاً أن من أفرادها جماعة لا خلاق لهم ، وأنهم
 في كل ما يعملون منافقون . ولعل إيمان القوم بالخرافات واحترامهم لدين
 يزيد رهبة وجلالا جهل الأكرين بتعاليمه ، ولعل خوفهم من التعاويذ والرقى ،
 وما يبديه كل فقيه نحو أخيه الفقيه من احترام وإكبار ، أقول لعل هذا كله
 أعان على احتفاظ الناس باعتقادهم القديم ، وهو أن الفقيه إنسان يمتاز عن سائر
 الخلق بالفضيلة والتقى ، فإذا بدا منه نقيض ذلك لم يجرؤ منهم أحد على
 اتهامه بالمعصية وإلا انقلب عليه رجال الطائفة كلها وناصبوه العداء .
 وتلك حال العلماء في تركيا وشبه جزيرة العرب ؛ فأخلاقيهم معلومة للناس
 حق العلم ، ولكنهم برغم ذلك ما برحوا متمتعين بالسمة الطيبة لأن أحداً من
 الناس لا يريد أن يكون البادى بمناوئهم ، زد على ذلك أن الحكومة تبسط
 عليهم حمايتها لأنها تتوسل بهم لاسترقاق جماهير الناس وتوجيه الرأي العام .
 وقبل أن تغادر التاكة بيومين روينا نبأ أنانا من سوا كن ومفاده أن رجلا
 من التاكة قتله أحد الحداربة بتلك المدينة . وقد تدارس الهدندوة الأمر وفكروا
 في حجز جميع أفراد القافلة حتى يتبين لهم الأمر ، ولعلهم كانوا فاعلين لولا أن بدويا آخر
 خف إلينا نبأ أن هو أن السوا كن دفع ذية القتل ففض النزاع على هذا الوجه
 وسويت المسألة .

الرحلة من الناقة إلى سواكن

١٥ يونيو — ما بدأنا الرحلة حتى هبت علينا ريح هوجاء اتصلب هبوبها طوال الصبح ، وأخذت تسقى علينا الرمال من كل ناحية حتى حجبنا الطريق فضلنا . وكانت وجهتنا شمالا بشرق مع انحراف إلى الشمال ، وكنا نمر قارة بأراض رملية وتارة بأخرى خصبة تشق الصحراء في شريط ضيق وتغمرها مياه التاكة بفيضان منتظم . وبعد حوالي أربع ساعات بلغنا نهاية هذا الإقليم الخصب الذي يضم فيه السنط العالي . وهنا وجدنا قائد القافلة الأكبر في انتظارنا . وفي انصر احتانقنا السير في الاتجاه نفسه فوق السهل الصحراوي إلى أن حططنا بعد رحلة تسع ساعات أو عشر . وهب علينا بعد الغروب إعصار شديد أثارها نجة الإبل فلزمنا مكاننا حتى هدأت الريح .

١٦ يونيو — مضينا في اتجاهنا صوب الشمال الشرقي منحرفين للشمال . وكان معنا الآن نحو الثمانية عشر أو العشرين من الحجاج الزنوج أو التكارنة (واحد منهم تكروزي) ، وليس اسمهم هذا نسبة إلى بلد تدعى تكورور كما يتبادر إلى أذهان القوم في الشرق وكما ظن جغرافيو العرب جميعهم خطأ ، ولكنه مشتق من الفعل تكور (أى تنق) بمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج ، ويطلق هذا الاسم على جميع الزنوج القادمين من الغرب — منهما اختلفت أوطانهم — طلباً للعلم أو سعيًا إلى بيت الله الحرام . وهم لا يسمون أنفسهم تكارنة ، وقد أكد لي كثير منهم أنهم لم يسموا بهذا الاسم حتى بلغوا حدود دارفور وهؤلاء الحجاج على علم ولو قليل بالقراءة والكتابة ، وكلهم من طائفة الفقهاء ، ولم أجده بينهم أمياً قط ، فهم ينفقون زمناً في مدارسهم الوطنية أولاً (وهذه تلقاها أى سرت في الأقطار الإسلامية بإفريقية) ثم يقصدون مكة ليحجوا أو يحفظوا القرآن ويدرسوا التفسير فيها وفي المدينة ، وقد يؤمنون القاهرة لهذا الغرض ، ولكن أكثرهم يذهب للحج ، ولا تعبد اليوم منهم بالأزهر الشريف أكثر من اثني عشر ، ولم أجده بالسجدة الحرام أكثر من ضعف هذا العدد ، وهناك يفرغون إلى حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وهم يؤمنون بأنهم لن ينسوا منه سورة ما داموا حفظوها في بيت الله . وأكثر التكارنة الذين (م ٢١ — بوركهارت)

يفدون على مكة قادمون من مدارس دارفور ، وأهمها في كنجارة بجوار كوبي .
والوافدون بهذا الطريق من أقصى الغرب موطنهم بحر الغزال والباقرى . وكل
الحجاج السود القادمين من غربى الباقرى — من برنو حتى تمبكتو — يسافرون
إما فى قافلة فزان ، وهى القافلة الكبرى التى تنقل الحجاج الناربة ، وإما
بحراً من شاطئ الغرب . وهم فى هذه الرحلة مدفوعون أولاً بالرغبة الخاصة فى
أداء فريضة الحج ، وثانياً بالرغبة فى التمتع بما يضيفه عليهم الحج من طيب الأحدث
إذا عادوا إلى أوطانهم ، وكلما ازدادت مشاق الرحلة كان فضلهم أعظم وذكرهم
أطيب .

وبعض تكارنة دارفور وكردفان على شىء كثير من اليسار ، وهم
يتاجرون فى أثناء رحلتهم . وقد لقيت منهم فى جدة دارفورياً كان له من الخدمات
ثلاث أو أربع ، ومن الجوارى ست يقتنهن فى بيته فضلاً عما كان يحمل
من مبيد للبيع . على أن أكثرهم لا يملكون شروى نقيير ، وهم يخرجون فى
رحلتهم إلى مكة ومنها يعودون إلى أوطانهم ولا مورد لهم إلا ما يجود به الخيرون
وما يكسبون بعرق جبينهم فى الطريق . وعتاد الحاج منهم — وهو هو لا يتغير —
خرق يتر بها حول الخاصرة ومهامة صوفية بيضاء وجراب من الجلد يحمله على
عصا طويلة فوق كتفه وكيس من الجلد يحتوى على كتاب للصلوات أو نسخة
من بعض سور القرآن ، ولوح من الخشب طوله قدم وعرضه ست بوصات
يكتب عليه التماويد أو الصلوات ليحفظها أو يحفظها غيره غيباً ، ومحمرة مصنوعة
من قرعة صغيرة ، وقدر يشرب فيها الحاج أو يجمع فيها الطعام من التصدقين ،
ووعاء صغير من الفخار للوضوء ، ومسبحة طويلة من الخرز تتدل فى طيات
كثيرة حول عنقه . وقل أن تجد تكرورياً يسافر منفرداً ، أو هو على الأقل
لا يبدأ رحلته منفرداً . ويسير التكارنة عادة فى جماعات من ستة ثم ينضمون إلى
قافلة من القوافل كيفما اتفق ، أو يمشون فى الرحلة فى هذه الجماعات . وهم
يذهبون إلى مكة بطريق أسبوط أو سنار أو شندى . والوافدون منهم من
أقصى الغرب يلتقون فى دارفور ، ثم يقصد أسبوط القادر منهم على تكاليف

الرحلة في قافلة دارفور ؛ وتتطلب الرحلة من المال ما يكفي لشراء الزاد والإبل التي يستلزمها سفر الصحراء والرحلة من أسبوط إلى جدة بطريق القصير . أما الحجاج الذين يسلكون طريق سنار فهم الوافدون من كردفان ، ولهم طرق ثلاث (أولها) يشق الحبشة ماراً بفندار وأكسوم إلى مصوع و (ثانيها) على حفاف النيل من سنار إلى شندى و (ثالثها) من سنار إلى التاكة (بطريق راس الفيل) ثم إلى الخلقة ، متفادين بذلك رحلة الصحراء . ويشكو المسافرون بالطريق الأول — طريق الحبشة — من سوء معاملة الأحياش المسيحيين ومن أنهم لا يسمحون لهم بدخول بيت ولا حوش ، ومن أنهم يقدمون لهم الطعام على عتبة البيت كأنهم الكلاب — على حد قول الزنوج ، ولكنهم يرغم ذلك يصيبون منهم دائماً عشاء موفوراً ، فإذا بلغوا مصوع ألما بها أسابيع يعملون فيها ليكسبوا ما يكفي نفقات الرحلة بجرأ إلى أقرب ساحل — وهو ساحل اليمن — وتبلغ ريالاً ، أو إلى جدة ، وتبلغ ريالين . وملتقام في المادة ثمر اليمن المسمى الحريرة ، ومنه يتخذون ستمهم إلى مكة براً مارين بقبائل البدو المضيفة التي تقطن جبال الحجاز . ويبلغ عدد الحجاج الزنوج الذين يسافرون بهذا الطريق سنوياً إلى مكة — حسب تقديري — مائة وخمسين أو مائتين . ويسكن كثير من التكارنة ثغور اليمن وجدة ومكة . والطريق الثالث أثر الطرق عند الحجاج القادرين على الاشتراك في شراء حمل يحمل الماء والزاد ، وهم لا محالة واجدون بالتاكة إذا بلغوها تجاراً سوا كنية يسافرون في صحبتهم .

وأمر الطرق بهؤلاء الحجاج الطريق من دارفور أو كردفان إلى شندى مباشرة . والطريق ميسور إلا في آخره فهم أينما ساروا في أرجائه الآهلة لقوا الجود والكرم في قوم يفخرون بالتصدق على الحجاج الفقراء . بيد أن عليهم أن يقطعوا من حدود كردفان إلى شندى رحلة خمسة أيام في صحراء لا ماء فيها ، وكثيراً ما يجعلهم خوف الرحلة على اتخاذ طريق سنار الطويل أو الانتظار بكردفان حتى يحمل فصل المطر فيكثر الماء في هذه المفازة الجرداء . فإذا بلغوا شندى مكثوا بها زمناً حتى يستردوا عافيتهم ، وهم في أثناء ذلك يلمون كل ليلة بالتجار الطارئين عليها فيجاسون

إلى ما نلتهم في غير كافة ايصيبوا منها عشاء ، وتستطيع أن تقول بوجه عام إن التكروري رجل لا يحملها ، فأينما وجد البلد الطيب والسكان الذين أقام أسابيع برمتها ، وخبر هنده أن يتخذ طريقاً طويلة في أرض عامرة بالخيرين ولوا اتصلت رحلته أسبوعين كاملين من أن يبلغ غاية رحلته في يومين اثنين يقطع فيهما مفازة جرداء أو يجتاز بلاداً لا يعرف أهلها قرى الضيف . فإذا بلغوا شندى مضوا جميعاً إلى الدامر ، وقل أن تجد هذا الطريق خلواً من أفواج الحجاج الزوج ، ويتألف الفوج من ستة حجاج أو اثني عشر ، ومن مادتهم إذا وصلوا قرية أن يتفرقوا بين أسرهم ثم يجتمعوا عشية ليشاركون فيما جاد به عليهم أهلها من طعام .

ومن الدامر يتفرع الطريقان الرئيسيان اللذان يتخذهما الحجاج ، ففريق يمشي إلى مصر هابطاً مع النيل ، وفريق آخر يرتقي ضفاف القرن وعطبرة حتى قوز رجب ومنها إلى التاكة وسواكن . والرحلة الأولى أطول ولكنها أقل مشقة ، وكلمة قاربوا مصر لقوا من أهل الوادي صدقة أوفر . ويفخر عرب الشايقية بسخائهم على التكرارة ، ولكنه سخاء يعرف الحاج أنه يدفع فيه ثمناً فادحاً ، لأنه يكافئه كل نفيس يحمله . ويأمن الحجاج على مالهم القليل بمض الأمن في الطريق من دارفور إلى شندى لأن الحكومة تحميهم ، أما بعد ذلك فلا أمن ولا اطمئنان . وقد درج التكرارة على أن يستبدلوا ببضاعتهم ذهباً في شندى ، فإخفاء الذهب بأسر عليهم من سواء . ولكن الناس عرفوا عنهم هذه العادة ، فتعرض الحجاج بسببها للأذى في الطريق ، وقد أكد لي كثيرون أن بدو عطبرة والتاكة ، ومثلهم بدو الشايقية ، يجردونهم هرايا في كثير من الأحيان بحثاً عما يخبثون من ذهب ، وأنهم يفتشون عن هذا الذهب في كتبهم ، وحتى في محارمهم ، ولا يتركون ذريعة إلا لجأوا إليها ليسلبوهم ما حملوا من ذهب أو فضة . وفيما عدا ذلك يكرم الشايقية مثواهم فيموضونهم بذلك بمض التمويض عن جشمهم واغتياهم ، أما بدو عطبرة والتاكة فيضيئون إلى شرهم للغنيمة شحاً وبخل على الطارق ، لذلك يباقي المسافرون الساكن منهم نصيباً شديداً وعتقاً كبيراً .

والحجاج المسافرون على شاطئ النيل يلمون أياماً بقرى الصميد حيث الأروقة

التي ينفق عليها من أموال المساجد (*) لاستضافة التذكارية المارين بها ثلاثة أيام
ويعصرف لكل تكرر في إسنا قرش واحد عند رحيله من الجامع . ويجهز
الحجاج الملقون في أن يكسبوا من المال بالعمل اليدوي أو بكتابة التمام ما يؤدون
به نفقات الرحلة من القصير إلى جدة في موسم الحج ، فإن لم تيسر لهم أداها عنهم
بعض الخبيرين من حجاج الترك . وأكثرتهم يسلك طريق القصير ، ولا يزور
القاهرة منهم إلا قلة برغم وجود رواق بالأزهر الشريف تقدم فيه الفتة يومياً لعدد
لا يتجاوز أربعين في ظني (وقل أن يجتمع منهم أكثر من هذا العدد إلا في
موسم الحج) . والمارون منهم بالقاهرة يتخذون طريق قافلة الحجاج الكبرى إلى
مكة ، وعند أمير الحج أوامر مشددة من السلطان بتقديم الطعام والشراب لكل
زنجي لا يملك دابة .

وأمر الطرق بالحجاج الزوج الطريق من الدامر سيراً مع القرن حتى التاكة
ومنها إلى سواكن . ولست أغالي إذا قدرت عدد المسافرين منهم بهذا الطريق كل
سنة بخمائة . وهم لا يسافرون في أفواج كبيرة كما قلت ، ولكنك تلقى منهم
الجماعات القليلة كل يوم تقريباً سائرة على ضفاف النهر . ويتتاع القادرون منهم الخير
من الدامر ويوسقونها دقيق ذرة لزادهم في الطريق . ويسير هؤلاء في جماعات من
عشرين ، فإذا حاول قطاع الطرق الاعتداء عليهم في الطريق قاومهم أشد المقاومة
مستعينين عليهم بصيهم . أما في انقري أو المضارب فهم مطمئنون إلى حماية الشيخ
أو على الأقل واثقون من أن زادهم ودوابهم لن تسرق منهم . فإذا بلغوا التاكة
ساروا مع القوافل إلى سواكن وفيها ينتظرون مركباً يقلهم إلى جدة . وتختلف أجرة
المركب من ريال إلى ريالين . وحين كنت بسواكن رأيت فيها فوجاً من خمسين حاجاً
على الأقل ينفلون راجعين إلى التاكة لأن أصحاب المراكب الراسية في الميناء

(*) يشتهر الأزهر الشريف بمؤسساته الخيرية التي أوقفت لمساعدة المسافرين الفقراء من
مختلف الشعوب . ففيه أروقة خاصة بأهل الصعيد ، والزنج ، والمغاربة ، والحبش (أو
الجريت كما يسمونهم) واليمنيين والهنود ، والأفغان ، والسلمانيين ، والبخاريين ، والفرس ، والكرد ،
والأناضول ، والشوام . ويقوم على كل رواق عالم من كبار علماء القاهرة . وشيوخ الأروقة
هؤلاء هم الذين تتألف منهم هيئة علماء الأزهر ، وهي هيئة طالما جعلت الولاة يرتدون فرقا .

لم يرضوا بأقل من ريالين أجراً لكل راكب . وقد عرض التكارنة ريالاً عن الرجل منهم فأبوا ، لذلك رحلوا عن سواكن قافلين إلى التاكة ومنها يذهبون إلى مصوع وهم على ثقة من أنهم واجدون فيها من يقلهم إلى شاطئ اليمن بريال واحد ، وهو قصارى ما يستطيعون دفعه . ففي سبيل هذا الريال أزمعوا رحلة تقتضيهم على الأقل ثلاثين يوماً ، وقد قدروا أن في استطاعتهم تغطية نفقاتهم بالعمل أو الاستجداء في مثل هذه الطريق العامرة . فانت ترى أن المسافات والأبعاد لا حساب لها عند هؤلاء الحجاج ولا عند أهل هذه البلاد عموماً . من البدو كانوا أو من التجار . فهم لا يعبأون بمشقة السفر ولا وعثائه ، وهم أقل احتقلاً بالوقت أو اكتراناً لضياعة ، وهمم الوحيد هو الكسب المباشر والقصدي النفقة . وسأسوق إلى القارىء في معرض الكلام عن سواكن ملاحظات أخرى من رحلة هؤلاء الحجاج بالبحر ، وسأعود إلى هذا الموضوع عند وصف رحلتى إلى الحجاز فأذكر ما يفعل التكارنة بعد وصولهم شبه جزيرة العرب .

رأى القارىء يدرك لأول وهلة أن ما يكتنف الرحلة من مكاره وأخطار يقضى على حياة عدد كبير من الحجاج ، فسدسهم تقريباً يلقي حتفه من جراء هذه الفيرة على الدين . وأكثر الأمراض التي تعترهم في الطريق ناجم عن عدم توفر الملابس لديهم ، ويهلك منهم نفر جوعاً وإعياء ، ونفر آخر يقتل ، ولكن هذه الحوادث لا تفت في عضدهم ولا تحولهم قيد شعرة عن هدفهم ولا تنقص من عدد من يحجون منهم كل عام ، فضحايا الرحلة إنما استشهدوا في سبيل الله . وأكثر الحجاج من الشباب الأشداء ، ولكنك قد تجد بينهم نساء يتبعن أزواجهن إلى مناسك الحج . وكان في الركب حاج مكفوف - وهو أمر لا يكاد المرء يصدقه - انضم إلى القافلة في التاكة ، وكان قد غادر وطنه برقو - غربي دارفور - في صحبة ثلاثة من رفاقه ، وكان يستعين على السير بمصا يقوده بها واحد منهم وهو يتقدمه . ورأيت هذا المكفوف يستجدي في المسجد الحرام بمكة وفي مسجد المدينة وهو جالس على العتبة ، وكان يستدرّ عطف الحجاج وإحسانهم حين يقول لهم إنه ضريح ، ولكن نور كتاب الله وحب نبيه الكريم أضاء أروحه وهدياه السنين

من السودان إلى قبر الرسول ، وكان الحجاج يجزلون له العطاء ، وأكبر ظلي أنه
سيمود إلى وطنه أيسر حالا مما غادره .

وبعض التكاثر ذوو يسار ونفوذ في وطنهم ، ولكنهم يتصملكون في الرحلة
مخافة أن تؤذيهم مظاهر النعمة . وقد رأيت ونحن نعيمون في السهل القريب من
سواكن شاباً تكرروريا نائماً في بقعة منعزلة وقد جثا إلى جواره فتى آخر يهش
للذباب عن وجهه . ولما تحريت الأمر علمت من الزوج الآخرين أن الشاب ابن شيخ
كبير في دار صليح ، وأنه تاقى العلم مع الفقهاء وقام في هذه الرحلة بحمل وخدام
واحد لاغير . وفي شندی استبدل بالجل حماراً . وتظاهر الخادم بأنه صديق ورفيق
له في الرحلة ، واختلط كلاهما بمجهور الحجاج الفقراء . وبسبب هذا الفتى وأمثاله -
وهم قلة - تجدد سكان البلاد التي يمر بها الحجاج يقسون ويبخلون عليهم ، فهم
يحسبون كل تكرروري ملكاً متكرراً من ملوك السودان الذين يتقلبون في الذهب .
وكان بكوات الممالك إبان حكمهم مصر يفتقون على التكاثر أجزل العطاء ،
أما الحكومة الحاضرة فلا تبدى نحوهم عطفاً يذكر ، ولا يسمح لتكروري أن يركب
مركباً بالقصير إلا إذا أدى أجراً مقررأ لأصحاب المركب ، وجل المراكب ملك
للحكومة . وحيثما مر الفقهاء الزوج في إفريقية وبلاد العرب تجد الأهالي يقبلون
على التائب التي يكتبونها ، فهي أطهر وأقدس في نظرهم مما يكتبه سائر الحجاج .
وفي القاهرة اليوم تكرروري يسكن قرب قره ميدان ، أشهر منذ سنوات بما يكتب
من تائب ، وقد درت عليه صناعته هذه ربحاً طائلاً . والحجاج الزوج على العموم
قوم مجدون دهبون ، وما دام في إمكانهم كسب قوتهم بالعمل فهم لا يستجدون
إلا نادراً

وطرق القوافل السودانية التي تراها على الخرائط من كردفان إلى دنقلة أو بربر
لا يملكها اليوم أحد . فليست هناك مواصلات مباشرة أبداً كانت بين كردفان وبربر ،
أما المواصلات بين كردفان ودنقلة فلم تنتظم إلا منذ وصول الممالك إلى تلك
الأصقاع . وقل أن يختار الحجاج الطريق من بربر إلى سواكن لأنهم يرهبون

البشارية القساء ، ولأن فرصة السفر في قوافل التجار لا تنهياً لهم إلا قليلاً ، فهذه القوافل تنكب هذا الطريق عادة .

وأعود بالقارى . الآن إلى حديث الرحلة فأقول إننا عبرنا هذا الصباح مفازة من أرض منبسطة ، وبعد ساعتين جئنا بركة صغيرة من الماء تخلفت عن المطر الذى ظل يتساقط بين الحين والحين طوال الأسبوعين الماضيين ، والذى هطلت علينا منه شأيت ونحن في التاكة . وعلى مسير أربع ساعات تقريباً إلى يميننا سلسلة من الجبال تمتد في اتجاه جنوبي شرق ، وقد قدرت ارتفاعها بألف قدم إل ثلاثة آلاف . وقيل إنها أهلة بالهدندوة وغنية بالسكلا . وقد التقينا هنا بقافلة من سواكن محملة ملحاً ، وهو من أهم السلع التي تتألف منها تجارة التاكة . ويجلب من سواكن ، ويصدره تجار التاكة إلى عطبرة وقبائل البدو المجاورة حيث يندم الملح . وبعد مسير أربع ساعات جئنا وادياً مشجراً عبرنا بعده عدة وديان تحمل آثار السيول العنيفة التي تندفق عليها في الفصل المطير . وفي الظهيرة خططنا بواد منها بعد أن سرنا خمس ساعات . وتربة المكان في جملتها رملية ، وينمو هنا نوع من البلوط القصير شديد الشبه ببلوط الشام ، كذلك يكثر شجر العشر . وفي العصر دخلنا أرضاً صخرية مخرسة وجدت فيها خرباً من الرو الوردى الدقيق الحبيبات في طبقات سميكة تتخلل الحجر الرملى . وتوارت عن انظارنا سلسلة الجبال التي شاهدناها صباحاً . وبعد ثمانى ساعات وقفنا بوادى رورو ، وهو واد منخفض يمتد صوب الغرب ، فوجدناه حافلاً بأشجار الدوم وبالسكلا النضر ، أهلاً بببدو الهدندوة ، وهم يستقون ماءهم في الصيف من الآبار الكثيرة ، ولكننا وجدنا عند مرورنا الماء الكثير في مجاميع الصخور المنبثة في أرجاء الوادى . وتمدمن هنا سلسلة تلال إلى الشرق . ونزلنا عن دوابنا أول الليل لنتيح لها وقتاً نتمتع فيه بالمرعى الطيب .

١٧ يونيو — وفيما نحن نسير على سهل محصب تغطية الأشجار الشوكية الكثيفة فوجئت بمقدمنا بعض إناث النعام — وتتميز عن ذكورها بريشها الأسود — فجفلت وعدت هاربة أول الأمر دون أن يبدو عليها الخوف الشديد ، ولكنهما تبعتا القافلة أكثر من ساعة وهى منها على نحو رميتين . وكانت تقولم إلى يميننا من بعيد جبال شماء . وبعد ساعتين جئنا بركة كبيرة تجمعت من ماء

المطر . وبعد خمس ساعات بلغنا وادى عرى ، وفيه الابار وميام الأمطار ، وهو زاخر بأشجار الدوم والشوك . وكان يقوم هنا نجيم كبير للهندوة غادره أصحابه من قريب منسحبين إلى الجبال الشرقية اتقاء غارات البشاريين . ومضينا نطوى الوادى المشية كلها ، ويبلغ عرضه ثلاثة أميال أو أربعة ، وأرضه شديدة الخصوبة تصيب من سيول الشتاء ربا طيباً . ولا نكتشف الوادى تلال ؛ وإنما يسمونه وادياً لانبساط أرضه التى تصبغ فى الشتاء قاعاً لسيلى . وكانت وجهتنا الشمال الشرقى بانحراف إلى الشمال . ويزرع الهندوة هنا الذرة وبعض القطن ، وبدأ لى أنهم يبذلون من العناية بزراعة القطن ما لم أره منذ غادرت ضفاف النيل . وكان النبات أوفر وأغزر مما رأيت حتى على ضفاف عطبرة . ورأيت أشجار السنامكى تكسو الأرض ، وقد أخبرنى التجار السود أن هذه الشجيرة شائمة جداً فى كردفان ، وهى تنمو هناك إلى أربع أقدام أو خمس . ووجدنا هنا قنفذاً كبيراً ، فسلكه التسكرانة وتمشوا به . وبعد أن أوغلنا فى الليل حططنا قرب نهاية الوادى عند بركة ماء . وقد قطعنا فى يومنا هذا مرحلة طويلة فى عشر ساعات .

١٨ يونيو — نشب هذا الصباح خلاف بين رئيس القافلة والتجار السواكنية حول الطريق الذى ينبغي أن نسلكه ، وبعد أن سرنا ساعتين فوق أرض أكثرها مستو — وإن لم تحل من شجر — وقفنا بغاية من شجر السيل لنرى لنا فى هذا الخلاف رأياً . كان هناك طريقان ينتهيان إلى سواكن ، فأما أقربهما فيتفرع شمالاً بشرق ويقع على جبال وعرة يسكنها البدو ، وتكثر فيه الآبار ، ولكنه طريق وعرة كله نجادو وهاد . وأما الثانى فأسهلهما ، ولكنه أطول بيومين . وأصرّ الرئيس على سلوك الدرب الثانى تيسيراً على الإبل وقد أرهقتها أحمالها ، بيد أن التجار آثروا سلوك الدرب الأول . وفشل الفريقان فى الاتفاق فافترقا ، وبقيت أنا والتجار السود مع الرئيس . وفى المساء لحق بنا الباقون بعد أن أعمالوا الروية ورأوا الرئيس مصمماً على معارضتهم فوجدوا من خرق رأى أن يعرضوا أنفسهم للخطر لا لشيء إلا ليوفروا يومين اثنين . وكانت تنمو فى المكان الذى نزلنا فيه أشجار كثيرة متوسطة الطول منبهة فى أرجائه ، ولها

فروع كثيرة تنبت من الساق في كل اتجاه من أسفله إلى أعلاه وتتدلى على الأرض . وأوراقها شديدة الشبه بأوراق الفار (*) ، وقد وجدتها مرة كالمقلم ، أما الإبل فعافتها ، وأما الزوج فيأكلونها لأنها « تمكّن البطن » على حد قولهم . وشجر العشر منتشر هنا . وبعد مسير ثلاث ساعات آخر — أى خمس ساعات من بداية المرحلة — كان اتجاهنا فيها للشمال الشرق بانحراف نصف درجة للشرق ، نزلنا وادياً من شجر الدوم . وهنا قتل العبيد بعض الجراد وأكلوه ، ثم جموا عشباً تشبه أوراقه أوراق اللوخية ، وبعد أن سلقوها ألغوها في الحساء الذى يضيفونه إلى العصيدة ليصلح طعمها ، والعصيدة أهم غذاء للتجار السود ، ولعلها شائعة في كل أرجاء شمال إفريقية ، وهى عجينة غليظة من دقيق الذرة أو الدخن تسكب عليها تغطية من السمن والبصل أو البامية . ويبدل في طهوها من العناية ما لا يبدل في خبز الفطيرة التى وصفت من قبل . وإذا كان الدقيق جيد الطحن كان مذاقها طيباً . وكان تجار كردفان يحملون في جربانهم الجلدية دقيق الدخن ، وهو معروف عندهم أكثر من الذرة . كذلك كان أكثر التجار يحملون الأحجار التى يطحنون بها الذرة ، وكان عبيدهم يضطرون لقضاء أكثر الليل فى طحن زاد الغد بالتناوب . وفريق آخر — كنت أحد أفرادها — ملأوا جربانهم فى أثناء مقامهم بالتأكل بدقيق الذرة المجهز بالطريقة التى وصفتها ، ويصلح أيضاً لصنع العصيدة ، وهو عندهم أصح من دقيق الدخن . وبأكل العبيد عجينة الذرة فى غذائهم دون أن يضيفوا إليها مرقاً أو تغطية خلا الملح . أما فى العشاء فيسلقون حب الذرة حتى يفشّر ، ثم يرشون عليه الملح ويأكلونه حفاً بلا سمن ولا مرق . وكان سائر العبيد يحسدون عبيدى على تناوله غذاءه وعشاءه بالسمن مثلى . وطعام التجار السواكنية أدمى وأطيب من طعام عبيدهم ، وهو مالا يفعله التجار المصريون . وإذا أعيا عبد لتاجر سواكنى أو اتناه صداع ألم — وما أكثر ما ينتابهم الصداع — أعطاه سيده قليلاً من السمن . وكان فريق من التجار يحمل معه سكباً مجففاً يسلقه فى مرق العصيدة . وكانوا إذا

ذبحوا جلاً قطعوا لحمه شرائح يعلقونها يومين في الشمس حول رحال الجبال حتى تجف جفافاً يقيها من التعفن ، ثم يعميونها بعد ذلك في الجربان . وكان القيظ شديداً طوال النهار ، وبعد الغروب أرعدت السماء وأبرقت ، ثم أمطرتنا وابلاً ، وكنت أنشر فوق حصيراً أتقى به البلل بعض الاتقاء ، ولكن لم ينقض الليل إلا وقد نفذ منه المطر فأغرقني كما أغرق سائر رفاقي . وليس هذا بالخطب اليسير إذا لم يتخذ له المرء عدة من الثياب أو كان جسمه ما زال متأثراً ببحر النهار .

١٩ يونيو — كان الصباح بديعاً والطيور تشدو شدواً أطرب الركب واستخف حتى العبيد والجلالة . وبعد ساعة دخلنا سلسلة من أهم سلاسل الجبال في هذا الجزء من النوبة ، وهي تمتد — كما فهمت — من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرق مسير أربعة أيام أو خمسة على جانبي الموضع الذي دخلنا منه السلسلة . ويتفرع منها فرع يتجه صوب الشمال قرب الساحل على طول الطريق إلى القصير . وصعدنا من واد تكتنفه الصخور الوعرة من جانبيه ، وقد اعترضنا فيه الكثير من المصاعد والمهابط القاتمة ، وتقطع الوديان الجبل ، وكلها حافل بالشجر والكلاب . وكان الدرب مطروقا يكاد يخلو من الحجارة . وبعد ثلاث ساعات وقفنا بسهل مرتفع ضيق نما السنط في رماله وحصبائه ، واسم الوادي أروار (*) . ووجدنا الظل الوارف تحت أشجار دوم ضخمة ، وعللنا النفس بأنا واجدون الماء في بئر صغيرة قريبة منها ، ولكننا وجدنا البئر قد غصت بالحصى . وحفرنا على الماء طويلاً فلم نستطع أن نصيب منه قدراً يكفيننا ويكفي الإبل . لذلك أنزلنا الأحمال عن الدواب وصعدنا بها في منحدر الجبل الصخري زهاء ثلاثة أرباع الساعة حتى جئنا حوضاً واسماً عميقاً مليء بماء المطر منذ العام الماضي . وحدث لي هذا الصباح حادث لم أنج منه إلا بشق النفس ، وذلك أن سواكياً لحق بي وأنا أقدم القافلة فاستطاع أن يضاني من الطريق ويسلك بي وادياً جانبياً يبعد عنه نحو نصف ميل . وكان يحمل رعماً ، ولم يكن ممي من سلاح سوى عصا صغيرة . ويشاء الحظ أن أعر على فرع شجرة

(*) ليس هذا الاسم عربياً . ولكنه بشارى كثيره من أسماء الأماكن التي جزناها بعد أن تركنا عطبرة .

غليظ في اللحظة التي فطنت فيها إلى قصده ، ولما التقطت الفرع ضحك منى ، ولكن غرضه من تنبئى أصبح واضحاً لا خفاء فيه ، لذلك أمرته أن يقف منى بعيداً وإلا حملت عليه ، وهكذا استطعت أن أعود أدراجى وألحق بالقافلة . ولو قتلتى الرجل وأخذ ما أحمل من ربايات قليلة - أحسبه غالى فى تقدير عددها - لماد إلى القافلة آمناً مطمئناً ، فما كان غيائى ليحمل أحداً على الاهتمام بالبحث والاستفسار عنى يله الثأر لمقتلى . على أن هذا اليوم كله كان شؤماً على ، فبينما كنت أملاً قربت عند الظهر من الحوض أفلت جلى فى غفلة منى - وكنت قد شددت وثاقه إلى شجرة فى الوادى - وعاد إلى المناخ فى صحبة غيره من الجبال المحملة بالماء . فلما هبطت بقربى الجبل وجدت الجبل قد أفلت ووجدت رفاق السود قد عادوا . ولم يرض أحد من الباقين أن أضع قربى على جملة ، ولما كانت أثقل من أن أحملها على كتفى طويلاً فقد اضطررت للعودة إلى القافلة ملتصقةً بالجبل . وماملأت قربى وعدت ثانية إلى القافلة حتى وجدت الركاب قد بدءوا يوسقون جمالهم . وهكذا اضطررت بعد هذا السكد فى قيظ النهار إلى معاودة السير من فورى دون أن أصب طعاماً ولا راحة . وألحق أن التجار الذين يصطحبون معهم عدداً من العبيد ينعمون براحة يحسدون عليها ، فالعبيد يضطلمون بالطهو وحمل الماء ووسق الإبل ، وليس على السيد إلا أن يرتب الأحمال ويستوثق من أن شيئاً من بضاعته ومتاعه لم يترك . وهو ينعم ساعات القيلولة بنوم هادئ رضى تحت مظلة من الحصر ينصبها له عبده فلا يوقظونه إلا وقد أعد كل شئ وتهيأ الركب للرحيل . وقد نفعتى غلامى الصغير فى هذه الرحلة فى جلب الخشب وإضرار النار ، أما الطهو وجلب الماء من بعيد ووسق الجمل فهذا كله كان ملق على عاتقى .

وفى هذا الوادى بمض أسر فقيرة من الهدندوة تخشى أن تهبط إلى السهل فتمرض لغارات البشارية . ولما كانت الأمطار لم تبدأ بعد فإن النبات فى الوادى المرتفع كان قليلاً ، أما السهل السفلى فقد روى مرات .

ومضينا فى العصر فوق السهل الضيق متجهين شمالاً زهاء ساعة ونصف . وهنا التقينا بقافلة صغيرة قادمة من سواكن ميممة الناكه ، وكان هذا يومها

السابع . ولما بلغنا نهاية السهل عاودنا الصعود من وادى ضيق اكتسى كله بشجر الصدر (*) ، ولم يبق منه مفتوحاً للدرب إلا شريط ضيق يشقه في وسطه . وتكثر التواءات الوادى ومنعطفاته ، وعرضه في أكثره أربعمائة ياردة تقريباً ، ولكنه يضيق في مواضع حتى لا يجاوز المائة ، وتكتنفه من جنبه صخور شماء براها ماء المطر وحفر فيها أخاديد عميقة . ومررنا في الطريق بكثير من البرك ، فقلت لنفسى ما كان أغنانى عن العناء الذى كابدت في ملء قربي ، ولكن ذلك شأن المسافر في الصحراء ما دام غير خبير بالطريق ، أما الخبيرون بمواقع الآبار أو البرك فيكتمون غلهم هذا ويحسون الجماعة على حمل ما تطيق من الماء . ومن الأقوال الماثورة عندهم أنهم يودون لو حملوا ماء النيل برمته لو أطاقت الجمال حمله . وقد يكون حمل الماء أمراً لا بد منه ولو كانت البئر قريبة ، وذلك إذا لم يكن مقررأ أن تقف القافلة بالبئر ، وفي هذه الحالة لا يخطر ببال راكب أن يتخلف وحده للماء قربته . وتنمو أشجار العشر والطرءاء في أكثر من موضع بالوادى . ولكن أشجار الصدر كانت تكسوه إلى قته . ورددت طرفي إلى السهل الذى تركنا ، فرأيت مفازة صخرية مترامية يتحوى فيها شريط من الزرع هو الوادى الأخضر . والأرض الخصبة موفورة في كثير من ربوع الوادى ، فحينما توفر الماء استحالت الرمال القاحلة أرضاً طيبة ، وأبنا سرحت البصر في الوادى رأيت ما صنمته به السيول ، فقد جطمت جوانب الجبل وزعزعت صخوره العليا وألقها هشيما من حوله

وبعد أن سرنا شمال الشمال الشرقى تسع ساعات - أنفقنا منها أربعاً مصعبين في الجبل - جئنا بقعة استوى فيها الوادى بعد أن بلغ ذروته ، وانبسط مدى خمسمائة ياردة ، فخططنا فيها رجالنا ، وكنا قد التقينا بعدة أسر من الهدندوة قرب برك الماء ، ولما كنا نعرفهم لوصفاً مهرة فقد قرأنا على مواصلة السير إلى هذه البقعة لأننا استبعدنا أن يتبعونا وراءها في الغابات . وأكدلى رجل من رجالنا

(*) بين هذه الشجرة وشجرة الشرين larch شبه شديد ، وكثيراً ما رأيناها بالحجاز ، وهم يولدون النار بحك أغصانها الجافة بعضها ببعض .

أنه رأى في أثناء صعوده الوادى قرداً بين الشجر ، وقيل لى إن القردة ليست نادرة هنا ، وإنها تسكث في الدرب القريب الواصل إلى سواكن وهو واقع على سلسلة الجبال نفسها . ورأينا غزلانا وأرانب جبلية ، أما الهجير الذى كاد يزهق أرواحنا ونحن نقطع السهل السفلى الذى تسكتنفه الجبال العالية ، فقد استحال في هذا الموضع زمهريراً فأضرمنا نيرانا ، ولم ندق للكرى طمأ أكثر الليل خوفاً من سطو اللصوص علينا . وقد قتلت هقرباً وجدة بجوار نارى .

٢٠ يونيو — كانت أعلى قنن الجبل تقع على نحو ثلاثمائة قدم من المرتفع الذى خيمنا فيه . وفي موسم المطر تنهمر السيول من صخورها الوعرة القائمة إلى هذه الهضبة متخللة آلاف الشقوق التى فى الصخور ، ثم تنقسم إلى شعبتين ، فسيل يندفع إلى السهل الشمالى وآخر إلى الجنوبى . وقد سلكنا فى هبوطنا هذا الصباح قاع السهل الشمالى ، ولم يكن المنحدر وعراً كالمرتقى . وذكرنى جو هذا الجبل بحج وديان لبنان ، وبمث هواء الصبح المنعش فى جسدى كله من العافية والنشاط ما لم أحسه منذ غادرت بلاد الشام . وكذا طوال هبوطنا نصادف أشجاراً فى الطريق . وبعد أربع ساعات وقفنا ببقعة يتسع فيها الوادى اتساعاً كبيراً ، وهنا وجدنا بين الصخور القاحلة كلاً من نصير أو دوماً كثيراً وبعض ماء فى بركة ضحلة . وكان منظر الوادى كله غاية فى الروعة والجمال ، أو قل إنه يبدو على أى حال رائعاً جميلاً للمسافر إذ تقع عينه بعد قطعه الصحراء على بقعة خضراء فيتهيج لرآها كأنها جنة من جنات عدن . ومرت بنا قافلة صغيرة محملة ملحاً ، وكانت قد غادرت سواكن قاصدة التكاكة قبل ستة أيام . وتتصل بقاع السيل الكبير وديان جانبية كبيرة كلها حافلة بالشجر . وبعد أن استأنفنا السير واصلنا الهبوط فى بطاء شديد زهاء ساعتين ، ثم خرجنا إلى سهل فسيح اندمج فيه الوادى . وأصبح طريقنا بعد ذلك فوق أرض مخرسة محصبة (وكان اتجاهنا الآن للشمال الشرقى بانحراف نصف درجة إلى الشمال) ثم حططنا لنبيت بعد أن قطعنا فى يومنا هذا تسع ساعات ونصف . وكانت سلسلة الجبال تمتد عن يميننا وعن يسارنا . أما فى اليمين فأتجاهها جنوبى شرقى . وأما فى اليسار فتتفرع فرعين ، يمتد أحدهما غرباً وينتهى فى الصحراء ، ويمتد الثانى شمالاً

بجذاء ساحل البحر . وقد لقينا في أثناء مسيرنا بالنهار جماعات هامة تضرب في الأرض ، لذلك لزم بعضنا بعضاً طوال الليل خشية سطو اللصوص .

وليس في الطريق الجبل الذي عبرنا أية مشقة ، ويطلق الأهالي على الجبل اسم عرباي لنقاي أو جبل لنقاي ، وهو ظاهرة هامة في تضاريس شرق النوبة . ويحفل الجبل بالكلا في شتى أرجائه سباني غريبه حيث الآبار والينابيع الكثيرة . ولعل منبع نهر القرن — أو على الأصح سيل القرن العرم — في أقصى الغرب من هذا الجبل لأن مجراه كما قلت لا يقطع طريق القوافل بين عطبرة وسواكن . وجبل لنقاي مسكن عرب المهندوة وحدهم ، وإليه يفرعون من غارات البشارية . وإلى هذا الجبل يرسل أهل سواكن ، والمهندوة البعيدون عنه مسيرة أيام ، ماشيتهم في الصيف ، وهي لا تعدم فيه الرعي الطيب والكلا النضر . وجبل لنقاي حد مناخي فاصل في شرق النوبة ، فقد بدأت الأمطار جنوبيه من أسبوعين ، أما الشمال فلم يصبه طل بعد ، ومصادق ذلك هذه الأرض المتربة وشهادة البدو . وقيل لي في سواكن إنهم لا ينتظرون المطر قبل منتصف يوليو ، وكانت الرياح السائدة في سهول البجة (*) هي الشرقية ، أما في هذا السهل الشمالي فكانت تهب علينا في الأكثر رياح شمالية . ولم نشمر في جنوب الجبال — منذ غادرنا عطبرة — بأى ندى في الليل ، أما الآن فكان الندى شديداً كل ليلة ، واستمر كذلك طوال إقامتنا بسواكن . وهذه السلسلة كلها من صخر جيرى أولى ، ولم أجد فيه أى أجزاء متحجرة أو أثر الجرانيت .

٢١ يونيو — ركبنا هذا الصباح فوق أرض مخرسة بحجرة في جملتها ، وكانت وجهتنا الشمال الشرقى بانحراف نصف درجة إلى الشمال . وكانت الصخور من المرو والحجر الأخضر المنبت في ربوع النوبة كلها . وتقطع الطريق منخفضات كثيرة هي قيعان سيول . وبعد ثلاث ساعات وقفنا بوادي عسويت قرب بركة ماء . وهذه البركة التي اجتمع فيها ماء المطرين الصخور كثيراً ما تكون بميدة الفور ،

(*) تشمل البجة كل المنطقة الواقعة جنوب لنقاي حتى عطبرة وجبال الحبشة ، فيها التاكة .

أما البرك الواقعة على السهل المستوي فأقرب غوراً وأكبر مساحة. وتركنا وادى مسويت
ميدمين صوب الشمال الغربي بانحراف للشمال فوق سهل شبيه كل الشبه بصحارى الشام.
وكانت الشجيرات القصيرة تملأ أرجاء السهل الذى تكسوه تربة لا يصعب تحوِيلها
إلى تربة خصبة مثمرة. ومررنا محاذين للسلسلة التى تقوم إلى يسارنا ونحن منها على
أربعة أميال إلى سقعة، واسم السلسلة رُئيب، وأحسبها ممتدة بمحذاء الساحل حتى القصير.
وهي تبدو لأول وهلة جرداء قاحلة، ولكن الأغنام والماعز تجد الكلال الوفور
وشعابها، والتقينا بقافلة أخرى من ثلاثين جملاً عائدة إلى التاكة مدان أنفرت حولتها.
كذلك مررنا بمخيم صغير للهندوة، وكانت لهم قطعان كبيرة من الإبل، وحططنا
في السهل بعد أن مررنا في يومنا هذا عشر سنوات.

٢٢ يونيو — مررنا فوق أرض صخرية شمال الشمال الغربي، وبعد مسير ثلاث
ساعات دخلنا وادى مهيتر، وهو حافل بشطايا الصخور الضخمة، وقد اخترقناها
غرباً ميممين الجبل حتى جئنا بئراً رأينا إلى جانبها بركة من ماء المطر. وهنا
وجدنا قطعانا من الغنم وإبلًا كثيرة يسقيها الرعاة من الهندوة. وعلى الرغم من
وعورة الجبل ترى الأشجار منتشرة حتى على قمته وهو منظر طريف جديد ارتاحت
له عيني بعد أن حرمتها مغادرت بلاد الشام. وفي الجبل أخاديد لا تحصى تنحدر
منها السيول إلى السهل في موسم المطر. ولا بد أنما في أعينها تكون المساقط والشلالات
الكثيرة ترفع مياهها وتزيد فيكون منظرها رائعاً. وينمو في السهل الكثير من
أشجار السدر. واسطاد العبيد هنا أيضاً جرأداً شووه على النار بعد أن نزعوا
أحشاه. ومضينا بعد وادى معيز أربع ساعات فوق أرض مستوية ولكنها
صخرية، ثم حططنا للمبيت.

٢٣ يونيو — وجدنا أمامنا وادياً يسمى وادى عسير، عرضه أربع ساعات
على الأقل، وتحتفه من شرقه التلال الواطئة. ومضينا بجوار السلسلة الغربية
المالية. والسهل كله حافل بالشجر، وكان المشب الذى جف واحترق غلاً لكل
منخفض فيه. ومررنا بمخيم آخر للهندوة، وكان عندهم القطعان الكبيرة من الإبل،
ويبدو أنهم يعيشون هنا بأمان من أعدائهم. كذلك لقينا جماعة مسافرة من

المهنددة يحملون معهم نساءهم ، وكانت النسوة جالسات على الإبل فوق رجال عالية مزخرفة مزودة ، ولها عصي ثلاث أو أربع تمتد أمام رأس الجمل ونهاياتها محلاة بياقات كبيرة من ريش النعام الأسود . ويتألق الإفريقيون - كما يتألق بدو العرب في ترين إبل النساء فقط . وكانت الشراريب الجلدية مختلفة الحجم ، والأجراس الصغيرة ، والودع الأبيض المجلوب من البحر الأحمر - كل أولئك يحلى هذه الجمال ورجالها . ولم نمر من هؤلاء النسوة امرأة إلا صاحت بصوت عال ثم ضحككت على . وبعد مسيرة ساهتين ونصف حططنا تحت ظل وارف من أشجار السنط في منخفض من الأرض يسمى وادي سُكُرة . وكان على العبيد أن يحملوا الماء من الجبل على مسيرة ساعة . وهنا جمعنا المشب الذي وصفت من قبل لنصلح به المصيدة . وجاءت نسوة فقيرات يبعننا لبناً ويستجدين قليلاً من ذرة ، وهي نادرة عند هؤلاء البدو ، ويحلبون من التاكة حاجتهم منها ، ولكنهم يتمددون في غذائهم على اللبن واللحم دون غيرها . ومضينا في وادي عسير في المساء متجهين للشمال بانحراف للشرق ، ثم حططنا لنبيت بعد أن سرنا ثمانى ساعات ونصف .

٢٤ يونيو - قام رئيس القافلة بصحبة بعض كبار التجار في أثناء الليل وغادرونا على أمل بلوغ سواكن في الغد لما توفر لهم من الهجان الطيبة . أما نحن فقمنا قبل الشروق . وتفتى التلال الشرقية عند هذا العرض ، وحين أشرقت الشمس من خلفها طالعنا صورتها منعكسة على مياه البحر حتى بعد شاسع منا ، فابتهج بهذا المنظر كل من بالقافلة ، ولعلى كنت أشدهم طرباً . وقد سأل العبيد : أهو بحر النيل ؟ وذلك أنهم لم يسمعوا قط ببحر كبير غير «بحر» النيل . ولكن بيننا وبين البحر مهل من رمال جرداء يكتسى قرب البحر بطبقة من الملح . ومضينا نضرب بين الشجر ومجاري السيول التي تفرغ مياهها في الرمال . وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف بلغنا وادي سُكُراب ، وفيه نبع متدفق الماء ، ولكنه ماء ملح زقاق . ويتجمع الماء في حوض ، ولا يصلح لشرب الناس إلا إذا اكتسب عذوبة ماء المطر . وحول هذا النبع صخور من الجرانيت الأشهب لم ألق غيرها من (م ٢٢ - رحلات بور كهارت)

الصخور مذبحت تلال قوز رجب . وتنمو هنا السنامكي بوفرة . ويتفرع في السلسلة
البسرى واد شديد الوعورة ، وفي موسم المطر يصبح وادي شنتيراب سيلاً عرماً ،
وهو لا يقل عن ثلاثمائة ياردة عرضاً واثنى عشرة قدماً عمقاً . ولما مضينا قدماً وجدنا الأرض
مفرسة والطريق صخرية جداً ، فكانت الإبل تسير عليها بشق الأنفس . والدرب
الذى سلكنا من انقاي كله مطروق ، ويتصل حتى سواكن . وبعد مسيرة
ست ساعات ونصف شمال الشمال الشرقى زلنا وادياً يحمل بالكلأ فانطلقت
الماشية تراه .

وحدث في مسيرنا هذا النهار أن سقط على الطريق جمل لأحد تجار كردقان
فنفق ، أما تجار سواكن - وهم كمهدى بهم في كل مناسبة ، قوم لا تعرف الرحمة
ولا البر إلى قلوبهم سبيلاً - فقد مروا بالرجل دون أن يبدو منهم أى ميل لإغاثة
في محنته هذه . وكان جملي أقوى إبل الركب ، فمرضت على الرجل خدماتى متطوعاً ،
وحملت جملي معظم ما كان يحمله الجمل النافق ، واضطرنى هذا إلى قطع باقى الطريق
إلى سواكن سيراً على قدمي . وكان الرجل صاحب فضل سابق على ، فكثيراً
ما كان يأمر عبيده بطهو عشائى وجلب الماء لى حين يرانى متعباً مكدوداً ، لذلك كان
فرضاً على أن أرد له صنيمه .

٢٠ يونيو - قنابند منتصف الليل ، وسرنا فوق سهل صخرى . ولما أشرقت
الشمس علينا رأينا البحر على نحو ساعات منا . وأخذت التربة تبدو شديدة التشيع
بالملح ، فاكنتى أكثر سطحها قشرة ملحنة تتمق فيها عدة بوصات . وقد تأثرت فروع
الشجر بالهواء المتصاعد من هذه التربة ، والذى زاده هواء البحر ملوحة فوق
ملوحته ، فاسودت كأنها تفحمت ، وتعذر على قطمان الإبل المؤلفة من أربعين
جملاً أو خمسين أن تجد لها فيها بعض الورق الأخضر تأكله . ولم أر في حياتى
إبلاً أقرب إلى التوحش مما رأيت هنا ، فقطمانها تنطلق لترعى دون حراسة من
ناس أو كلاب ، ولا يبتنى الهدندوة من اقتنائها غير لبئها لجمها ، أما الجمل فلا
يستخدمون له إلا أقلها . وقد روع هذه الإبل اقتراب الناس والجمال المحملة ،

ولم أعهد مثل هذا في الإبل من قبل ، فهي في صحارى العرب والشام إذا رأت من بعيد جلا غريباً وهي ترعى أقبلت نحوه تمدو وتطفر ، بل إنها لتطيع في غير عتاء نداء الأغراب إذا كانوا من البدو كأصحابها . والإبل التي رأيتها اليوم كانت في جلتها بيضاء كإبل النوبة . والسنت في هذا الوادى قزم لشدة ما يتعرض له من الرياح الموح . وقد رأيت ضرباً متسلقاً من الصبير يتطفل على هذا السنت كله ويلتف على بعضه التفافاً تاماً ويحجبه كأنه شبكة تحيط به .

وبعد مسيرة أربع ساعات أنجھنا شمالاً بشرق ودونا من جبل يتفرع في السهل من سلسلة دئيب الرئيسية ، وامن الجبل فنقرب ، وتسكنه أسر من الهدندوة تمد سواكن بالزبد واللبن في الصيف حين ترحل عنها الماشية . وحططنا ساعات الظهيرة على كشب من الجبل ، واشتد كربنا لقلة الماء . فإتنا لم نحمل منه يوم ٢٣ إلا قدرأ ضئيلاً ، واستأجر تجار سواكن - وهم أدري ببلادهم - عربياً في غفلة منا فجلب لهم من الجبل حولة بضعة جمال من الماء ، وهبنا توسلنا إليهم أن يعطونا والمبيد حظاً منه . وقد يعجز الأوربي عن إدراك مقدار ما يحتاجه المسافر في هذه البلاد من ماء للشرب والطهو والغسل ، ولكنه أحوج ما يكون إلى الماء لإطفاء غليله وترطيب حلقه الذى لا تفتأ تجففه لفحات الهواء المحرقة والسير على الأرض اللتبية ، وقد يكون مقترأ على نفسه في شرب الماء من أيام عدة ، ومن شأن الغذاء الذى يتناوله - وقوامه المعجين والسمن - أن يثير أشد الظما . وقد درجت القوافل في هذه البلاد وفي صحارى العرب على ألا يشرب أحد إلا حين يقف الركب جميعاً دقائق لهذا الغرض . ووقوف قوافل المبيد يكون عادة مرة حوالى التاسعة صباحاً ومرة في العصر والمغرب حوالى الساعة الرابعة والسادسة ، كذلك يشرب السكل أول الظهر إذا حطت القافلة ، ويشربون مرة أخرى عقب الغداء ، ويفعلون مثل هذا في العشاء . وشرب أحدهم في غير أوان الشرب يعرضه آتمة الضعف والطرارة ، وهم يهجون به قولهم « شه مربوط على خشم القربة » ، وهو إلى ذلك تصرف غير حكيم ، لأن فتحة قرفته في غير أوان الشرب يعرضه للحاجة السائلين ، وهي الحاجة ليس من الحكمة دائماً أن يرد أصحابها خائبين ، أما إذا وقفت القافلة كلها للشرب فلن يخطر ببال أحد أن يسأله شربة . وإذا كان لمسافر عبيد كثيرون

ملئت لهم القصعة الخشبية الكبيرة ماء ووضعت على الأرض ، فيجثو المبيد ويشربون منها مرات كما تشرب الناشية من مساقها . وهم يفعلون هذا اتقاء تبديد الماء إذا أخذ كل عبد منه نصيباً على حدة . ويشرب المسافر في هذه الرحلات مقداراً كبيراً حين يتوافر الماء . ولا يحسبني القاريء مغالياً إذا قلت إنني كثيراً ما شربت أو ان المصرف في جرعة واحدة ملء زجاجتين من زجاجات الماء العادية . والاكتفاء بثلاث شربات في اليوم أو أربع يعد تضيقاً على الراكب . وإذا كان الماء موفوراً قل أن نجد من الزوج أو العرب من يقنع في اليوم بأقل من ست شربات أو سبع ، أما حين تهب الرياح الجنوبية الشرقية فلا يكفي ماء - مهما كثر - لترطيب فم المسافر ، فهو يتلف على الشرب كل ربع ساعة . وما يرويه البدو للحضر عن بقائهم ظاء يومين أو ثلاثة ليس إلا حديث خرافة ، والمسافرون في أى جزء من أجزاء النوبة - أو في طرق القوافل على الأقل - لا يفتقرون إلى الماء ولا يشتد بهم الكرب ما لم تكن الآبار قد نضب معينها . وليس في الطريق قسم طويل يخلو من الماء إلا القسم من فوز رجب إلى سنار ، ومن حدود كردفان إلى شندى ، ومع ذلك فكثيراً ما يمانى التجار السودانيون ويلات العطش حتى ولو كانوا على مقربة من الآبار ، وما ذلك إلا لأنهم لجشعهم وحرصهم يسرفون في تحميل جملهم بالسلع والبضائع إسرافاً لا يترك لهم متسعاً لحمل زاد وفير من الماء . والقربة للتوسطة التي تسع خمسين رطلاً من الماء أو ستين تكفى الرجل - في حسابهم - ثلاثة أيام إذا كان وحده ، أو تكفى أربعة رجال يوماً واحداً . إذا كانوا يأكلون ويشربون جماعة .

وإذا حط العرب ساعات الظهيرة سمو ذلك « القيالة » ، فيقولون « نحن قيلنا في مطرح الفلاني » . وإذا أمرهم رئيس القافلة بالوقوف صاح بهم « قيلوا يا اخواننا » ، فإذا أرادهم أن يستأنفوا السير صاح بهم « الشديد الشديد » (من وسق الأحوال والشدة عليها) فإذا أرخى الليل سدوله هتف بهم « حطوا » فالعربي إذا روى لك مسيرة يومه قال « قنا في الفجر » ، وقيلنا على الماء ، وشديتنا وظل بطول الشخص ، وبعد النزول [الغروب] حطينا وبيتنا في مطرح الفلاني » .

ومن عادة قوافل سواكن أن تسافر في رتل واحد طويل كما تفعل قوافل الحجاز، أما قوافل مصر في جهة عريضة. على أن الطريقة الأولى أمثل، ذلك لأنه إذا اختل حمل حمل من جملها أمكن تنحيته عن الصف وإصلاح الحمل قبل أن تلحق الإبل المتخلفة بالركب. أما في الطريقة الثانية فلا بد من وقوف القافلة كلها إذا وقع لحمل منها حادث. والقوافل السائرة من بغداد إلى حلب ودمشق - وقد تبلغ القافلة منها أحياناً التي حمل تمشي والجمال سائرة جنباً إلى جنب على مساحة تزيد على الميل. وكان أصحابنا التجار السواكنية يأمرؤن عبيدهم بسوق الجمال من مقاودها، فإذا زل حمل أو تعثر أهواوا بالسوط على قائده.

ووقع لي اليوم ونحن مقيون أمر أضحكني ورفه عني كثيراً. ذلك أن التجار السود اشتروا شاة وذبحوها ثم وزعوا بعض لحمها على العبيد. وقد قدموا لي شطراً من هذا اللحم ولكنني رفضته لأن أكل اللحم يثير في الظمأ الشديد للماء، وكذلك فعل بهؤلاء العبيد بعد أن أكلوه، ولم يكن في قرب سادتهم ماء لسوء الحظ. فجاءني منهم غلام يحمل عظمة لم يكده يفرغ من نهشها، وقدمها إلي زاعماً أنها ما زالت ملبسة بأكثر لحمها، لآخذها لقاء شربة ماء، ثم قال « لقد أرسل سيدي إلى قنقراب مع السواكنية في طلب الماء، فإذا عادت قربه ملأى فإني أعدك صادقا برد هذه الشربة إليك ». وليس في الإمكان أن يصور المرء الخلق الشرقي في الطبقات الوضيعة خيراً مما صوره هذا الغلام في التهامه نصيبه من اللحم بهذه الشراهة، ثم في محاولته غشي بتقديمه العظمة إلى وبذل وعد يعرف أنه لا يستطيع إنجازها. على أن حيلته لم تنطل على، وشربت أنا وغلامي آخر قطرة من الماء في قربتي.

وسرنا فوق السهل الملح مرحلة طويلة بعد الظهر، ورأيت في أثناء مسيرنا غزالا كبير الحجم يوشك أن يكون في طول الظبي، وله قرون طوال مدبية. واقترب منه سواكني ورماء برعهم ولكنه أخطأه. وقبيل الغروب طالعمتنا سواكن من بعيد، وحططنا قرب قرية صغيرة - أو قل دوار - بعد أن قطعنا في يومنا عشر

ساعات أو إحدى عشرة . وانطلق معظم التجار إلى المدينة من فورهم ، أما أنا ورفاقي فقد رأينا أن من الأصوب الانتظار إلى الغد .
٢٦ يونيو . بلغنا مشارف سواكن بعد ساعتين ، وضربنا مظالنا الصغيرة سى مسيرة عشرين دقيقة من المدينة .

سواكن - تقع سواكن على نهاية خليج ضيق يبلغ طوله اثني عشر ميلا وعرضه ميلين . وفي نهاية الخليج عدد من الجزائر شيدت المدينة نفسها على واحدة منها ، ويفصلها عن ضاحية القييف القائمة على ساحل القارة لسان من البحر عرضه خمسمائة ياردة . وتقع الميناء على الجانب الشرقى من المدينة ، وقد كونها تنوء في القارة . ولسان البحر الواقع في الغرب لا تستطيع أن ترسو فيه سفن أيا كان حجمها . والجزائر وسائر الأرض المحيطة بالمدينة رملية لا ينبت فيها غير شجيرات قليلة أو قصيرة . والمدينة القائمة على الجزيرة مبنية على نظام جدة ، فاليوت من طابق أو طابقين ، وهي مشيدة من قوالب من عرق اللؤلؤ (*) أنيقة المظهر ، ولكن أكثرها تقادم عليه العهد وأدركه البلى . أما ضاحية القييف فأخذت في النمو ، وسكانها يزايدون ، وهي اليوم أكبر من المدينة نفسها . وتقوم على الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من الميناء أسوار عتيقة هي آثار حصون قديمة ، وفي داخل هذه الأسوار يسكن الأغا ، وترسو السفن عادة تحت نوافذ منزله . وعلى أنقاض هذه الأسوار المتهمة ترى مدفعين أو ثلاثة من الحديد الذى أكله الصدأ ، وهو دفاع لا يمكن أن يرد عن المدينة شراً أو يوفر لها أهون حماية . ومنزل الأغا صغير حقير ولكنه يشرف على منظر رائع فوق الخليج صوب البحر ، وعلى مقربة منه تقوم بعض المخازن ، ورصيف انتشرت عليه هياكل سفن صغيرة محطمة ، وذلك لأنك لا تجد عند أحد من الناس هنا الوسائل أو المهارة لإصلاح المراكب حين يصيبها العطب . وفي سواكن نحو ستائة بيت ، ثلثاها متهدم لأن قوالب عرق اللؤلؤ التى بنيت بها سريمة البلى إذا لم يتمهدها القوم بالترميم المستمر . وليس بالمدينة من المباني العامة سوى مساجد ثلاثة . وفي ضاحية القييف بمض بيوت من الحجر تلحظ فيها

أسلوب العمارة السوداني لا العربى ، ولها حيشان كبيرة . وسائر البيوت بعد ذلك من الحصر كبيوت البدو النوبيين . وبالقيف مسجد واحد لا غير .

وعلى مسيرة نصف ساعة من القيف تقع الآبار التى تمد بالماء سواكن وضواحيها والسفن التى ترسو بمينائها . وعدد هذه الآبار اثنتا عشرة تقريباً ، وبين البئر والبئر خمسون ياردة ، وعلى مقربة منها تنمو بضلع أشجار من النبق . ومنها بئر واحدة مبطنة بالحجر ، أما سائر الآبار فليست إلا حفراً منقورة فى الأرض . وماء بعضها لا بأس بعذاقه ، ولكن ليس فى إحداها ماء عذب سائغ . وفى المدينة صهاريج أقيمت لحفظ ماء المطر ولكنها تهدمت وليس من راقب فى الإنفاق على ترميمها . والجزيرة مسكن لكل مشتغل بتجارة البحر والشحن على المراكب وبأشغال الحكومة ، أما الأهالى العرب والتجار السودانيون فيسكنون القيف وهى مقر السوق .

وأهل سواكن — كأهل ثغور البحر الأحمر جميعاً — أخلاط من الناس . على أنك تلاحظ فيهم عنصراً هاماً متميزاً عن سواء ، فأسلاف الأسر الكبيرة من عرب سواكن كانوا من أهل حضرموت ، وكان جلهم من مدينة ساهر ، وهى ثغر حضرموت الواقع على المحيط الهندى . وقد نزلوا سواكن — فى رواية — قبل قرن من الزمان تقريباً ، وفى رواية أنهم نزلوها عقب انتشار الإسلام هناك . ومن هنا ينسب الأجانب أهل المدينة إلى هؤلاء ، فيسمونهم الحضاربة (الحداربة) . أما أهل المدينة أنفسهم فيميزون أدق التمييز بين الحضاربة الخالص من سلالة أهل حضرموت وبين سواكن من هؤلاء الذين يسمونهم سواكنية . ويدخل فى هؤلاء السواكنية عدد كبير من قبائل البدو الهدندوة والأمراء والبشارية وغيرهم من أصل عربى وتركى . ويمتثل هؤلاء البدو اختلاطاً كبيراً بالحداربة ، ويحتفظون بأسمائهم البدوية حتى إذا سكنوا المدينة . وأكثر أسلال الترك منحدرة من الحامية التركية التى أرسلها

(١) هذا هو نطق الكلمة بلهجة العجايزيين ، فهم يجمعون حضرمياً على حضاربة لا على حضارمة . ويشتهر أهل حضرموت بحب الهجرة ، وتجد منهم أفواجا كثيرة من هؤلاء فى مدن اليمن والحجاز ، وهم يؤلفون أكثر سكان جدة والطبقة الفقيرة من أهل مكة .

السلطان سليم بعد فتحه مصر لتمسك في سواكن كما أرسل غيرها من الحاميات لاحتلال أسوان وإبريم وصاى . ويزعم كثير منهم أن أجدادهم من ديار بكر والموصل ، ولكن سلالتهم الحالية تتميز بالسحنة والطباع الإفريقية ، ولا يمكن أن تفوق بينهم وبين الحداربة في شئ . كذلك نجد في سواكن التجار والرباننة واللاجئين وغيرهم ممن انحدروا من مستعمرين أحدث عهداً من الأولين ، ولكنهم نسوا التركية من زمن مديد ، وتربطهم اليوم روابط المصلحة وشائج الدم بأسلال الوافدين من حواضر العرب — وهم هنا كثيرون ، وزبهم زى حضر الحجاز وطباعهم وعاداتهم هي طباع أهل الحجاز وعاداتهم . وعلى ذلك نجد في سواكن سلالتين متميزتين (١) البدو من حداربة وهندوة الخ . بما فيهم أحفاد الترك القدامى (٢) الحضرة ، وهم إما عرب من الساحل المقابل أو ترك محدثون . ويتزوج البدو فيما بينهم ، ولكن يصعب على الحضرة أن يتزوج بدوية لأن بنات الأسر الكبرى لا يزوجن إلا للبدو . ويسكن البدو ضاحية القييف . أما الحضرة فيسكنون الجزيرة .

وزمام سواكن في يد أمير الحداربة ، ويختار من كبريات أسر القبيلة وعددها خمسة ، ويميزونها عما عداها من الأسر بكلمة « أرتيقة » وهى كلمة بشارية تعنى الأشراف . وقضاء القييف موكل إلى الأمير ، ولكن سلطانه على البدو ضعيف وإن رأس محاكمهم . وهو تابع لباشا جدة اسماً ، غير أن سلوكه رهن بقوة متبوعه أو ضعفه . فحين كان أمر جدة إلى الشريف غالب — وكان الوهابيون آنشد يشددون عليه التكبر ويحدقون به من كل جانب — كان الأمير مستقلاً عنه تمام الاستقلال ، أما بعد أن فتح محمد على والى مصر الحجاز فقد فاوض الباشا وأبرم معه اتفاقاً . ويثبتها كم جدة — أيا كان — في مركزه سنوياً ويخول له السلطة في أن يجبي من القييف المكوس التى يفرضها الحداربة على القوافل القادمة من الداخل . ولقد مضت عليه أعوام لم يدفع فيها للشريف شيئاً نظير هذا الامتياز ، أما اليوم فإن خوفه من محمد على باشا قد حمله على شراء حق الجباية سنوياً بنحو أربعين أوقية من الذهب أو ما يعادل ٨٠٠ ريال إسباني .

وليس للأمير من مظاهر الملوكية غير خفيه التركيب الأصفرين اللذين لا بد
لهم من انتمالهما جرباً على التقاليد القديمة ، وغير طاقيته العربية الصغيرة . والتسافر
ظاهر بين الخفين والطاقيّة وبين سائر لباسه البدوي . ولما كان لبس الطاقيّة
لا يليق على شعر البدو الكثّ فقد اضطر الرجل أيضاً إلى حلق رأسه . ويستخدم
الأمير في داره رجلين أو ثلاثة نستطيع أن نسميهم موظفين أو عيوناً يتجسسون له
ما تحمل كل قافلة من عبید وبضاعة على وجه الدقة . ويسكن الأمير القيف ،
وهو غير شيخ الحدارية ، فهذا لا علاقة له بالحكومة التركية ، إنما ينتخبه
القوم لتصرف شئونهم الداخلية بحسب .

ويمثل الحكومة التركية في سواكن جاب حكومي يحكم الجزيرة ويحمل
لقب أغا . وهو يحكم المدينة ، ولكن يحد من سلطانه أشد الحد ما للحدارية
من شوكة ونفوذ . وسلطانه اليوم لا يمتد به ، ولا بد أنه كان مثلاً للزدرام
الشديد قبل فتح محمد على لبلاد العرب . وباشا جدة وال على سواكن أيضاً ،
وله بهذه المثابة الحق في أن يرسل إليها ممثلاً له ، وهو حق لم ينازع فيه السواكنية
قط ولو أنهم ما زالوا يروون لك ما جرت عليه السنة القديمة في سواكن قبل أن
تضم إلى جدة ، فقد كان لها واليها الخاص الميموث من القسطنطينية . وليس
للأغا من سبيل إلى الاحتفاظ بالبقية الباقية من سلطانه إلا بمسألة الأمير والتفاهم
معه ، فهو يسمح له ، أو قل يساعده ، في أن يبتز بعض المال من المستضعفين
بالقيف لقاء معاونته الأمير له على جباية المكوس بالجزيرة . وقد ألزم الأغا في
السنوات الأخيرة بجباية المكوس التي تحصل على تجارة البحر في سواكن ،
وهو يدفع لخزانة الدولة في جـدة كل عام ٣٢٠٠ ريال مقابل هذا الامتياز ،
وأكبر الظن أن هذا يغلّ له ألفي ريال أو ثلاثة آلاف كل عام ، وقد يتضاعف
هذا المبلغ لو جبيت المكوس بدقة ، ولكن الحدارية ، وهم أقدر الناس على
أدائها ، قوم ضنينون بما لهم أشد الضن . ونجى الضرائب على الواردات كلها
ولا سيما سلع الهند وتوابلها التي ترسل إلى أسواق السودان ، وكذلك على السلع
الواردة من السودان — وأهمها العبيد والخيل والتبغ — والتي تشحن في جدة

للأقطار الأخرى . ويؤدون من كل عبد ريالين وعن كل جواد ثلاثة . ويبقى من المكوس الفدرة وغيرها من السلع التي تبقى في سواكن .

ويحدد تميمين الأغا كل عام أو يمين غيره . والأغا الحالي رجل من أهل جدة يدعى بمك كان أبوه حاجاً موصلياً استوطن الحجاز ، وكان بمك ، على عهد الشريف ، مهرج القصر وسمساراً بسوق جدة ، فلما وصل محمد علي استطاع الرجل أن يتوود إلى العثمانيين بما يعرف من تركية قليلة ، وبعد أن استخدموه وسيطاً بينهم وبين الشريف وعيناه عليه قلده وظيفته الحالية . وحدث عن لؤم الرجل ولا حرج ، وقدزاده اصطناع المادات والتقاليد التركية في بلد كسواكن هزءاً على هزء ، فتراه يخلع على أتباعه الصماليك الألقاب التي يخلعها الباشا على كبار موظفيه ، فهذا خازن داره (أي أمين بيت ماله) وذاك سلحداره (أي حامل سلاحه) وثالث قهوجى باشا (أي حامل كأسه) ورابع باشكانبه (أي كبير كتابه) وهلم جرا . ثم هو يحيط نفسه بالعلماء كأنهم صفار الماليك ، ويتكلم في زهو وخيلاء وأبهة كأنه وال جليل القدر عظيم الخطر ، ويخلط عربيته السوقية ببعض المبارات التركية . ويحتفظ الأغا بخمسة جنود أو ستة من مرتزقة البين الذين تجردم عند شريف مكة وغيره من أمراء العرب ، ويدفع لهم رواتبهم من ماله الخاص ، وليس لسواكن حامية سواهم ، ومن هنا يسهل على القارى أن يدرك عدم احتفال القوم هنا بسلطان الترك . ولا يجرؤ هؤلاء الجند على الخروج من الجزيرة مخافة أن يشتموا ويهانوا ، أما الأغا فلا يبطأ القيف لأسباب واضحة ، ذلك أنه إذا وقعت معارك تدخل الحداوية واضطر الأغا إلى كف يده . ولا يؤدى البدو من المكوس إلا نصف ما يؤديه غيرهم من التجار ، وطالما سمعهم يقولون للأغا صراحة إنهم لن يدفعوا له أكثر مما دفعوا . وكثيراً ما يكون حظ الجند الذين يأمرهم الأغا بالبقاء في المراكب الراسية تحت نوافذه لمراقبة المهرين «هلقه طيبة» ، بل إن الأغا نفسه قد يسب في عقرداره ، ولكنه يحتمل هذا كله راضياً ، ويقول للقوم إنه لولا حبه لهم لكتب أشد الشكاوى وأعنفها إلى الباشا فجلب غضبه على رؤسهم . ومن عجب أن يهينه البدوى منهم فما إن يولى قفاه حتى يأخذ صاحبتنا في سبه

بالتركية ثم يفرغ جام غضبه على خدمه وأتباعه . وأذكر أن شجاراً احتدم يوماً بينه وبين بدوى فقال له الرجل وهو يتميز غيظاً « أنت كذاب » . وما إن بارح البدوى الغرفة حتى قال لى الأغا « أنت ترانى صابراً على هؤلاء القوم ، ولكنهم سيملمون فى النهاية كيف تغضب حكومة الترك ؛ فإن انتقام الترك مريع إذا أثيرت ثأرتهم . ولقد كنت ، ومازلت ، أردعهم غضب الترك ونقمتهم ، فإن حملة واحدة يرسلها الباشا كفيلاً بأن تهدم المدينة كلها وتودى بحياة الكثيرين من الأبرياء » . والواقع أنه لولا توجس القوم من حملة كهذه تنقض عليهم من جدة بسهولة فهدم بلديهم لما ترددوا فى خلع نير الحكومة والجهر باستقلالهم ، ولكن أحقر مركب حربى يستطيع أن يكره المدينة على التسليم . وقبل عشرين سنة أو ثلاثين أرسل أحد ولاة جدة فرقة قوامها مائتان من الجند نهبوا القيف ثم حاصروا البدو فى بيت الحاكم وما جاوره من المباني ولكنهم استطاعوا فى النهاية أن يفتلوا بما غنموا . وبعد أن فتح الوهابيون مكة أوفدوا مبعوثين إلى سواكن لإقناع القوم باعتناق الوهابية ولكن لم يؤذن لهم بالمضى فى رحلتهم إلى القيف واضطروا إلى ركوب البحر هائدين بعد حين . وقد سمح الوهابيون — حين كان زمام الأمور بيدهم — لأهل سواكن بالاتجار مع جدة ، ولكن سموداً زعيمهم رأى بمكة بعضهم وقد بيعوا بالدهن شعورهم الكثيفة فألزمهم تغطية رؤوسهم بالناديل على نحو ما يفعل البدو الأعراب .

ويشارك الحداربة وبدو سواكن البدو النوبيين سجنهم ولفتهم وزيهم ، ولباسهم من الدمور المجلوب من سنار ، ولكن مراتهم — رجالاً ونساءً — يلبسون القمصان النوبية المصنوعة من البقعة الهندية . على أنهم لا يرتدون إلا ثوباً واحداً ، وقل أن تجد لهذا نظيراً فى سائر أنحاء النوبة . ويتألف من قطعة طويلة من البقعة يلف أحد طرفيها حول الخاصرة ويلقى الطرف الآخر على الصدر والكتف اليسرى ويتدلى على الظهر تاركاً الساقين وأكثر الجذع عارياً ، ذلك هو الثوب القفضاف الذى يفضل الحداربة ، فإذا أضفت إليه خفين جميلين ، وثلاث تمائم كبار أو أربع كتلك التى يلبسها القسوم فى وادى النيل متدلية على المرفق الأيسر ، وسيقا

وكرهاجاً في يد الرجل ، وشعراً كثاً ينفذه بالدهن ، وسيجاً خشبياً طويلاً دسه فيه ليحك به رأسه - فقد اجتمعت لك صورة لأبأس بها لبدوى سواكن . ولهؤلاء البدو سحن معبرة ولحى خفيفة قصيرة ، وفي بشرتهم سمرة شديدة توشك أن تكون سواداً ، ولكنهم براء من السحنة الزنجية ، ثم إنهم يمتازون بالجسم القوى والمعضل المقتول . وليس للسواكنية مهنة غير التجارة سواء بالبحر أو مع السودان . وهم يصدرون السلع التي تأتيهم من القارة الإفريقية إلى شتى تنور الحجاز واليمن حتى محاً ، ولكن أهم هذه الثغور جدة والحديدة . ولهم في جدة حى خاص بهم ، ومساكنهم فيه أكوخ من الغاب كساكنهم في القيف . ومن البدو الحدايرة من يعضى في الرحلة إلى ساحل بلاد العرب بعد أن يؤم سوق سنار ، ومنهم من يبيع سلعه الإفريقية للتجار في سواكن فيتولى هؤلاء تصديرها إلى بلاد العرب . ولا تفلح سفينة في سواكن إلى جهة من ساحل بلاد العرب دون أن توسق ذرة من التاكة فوق ما وسقت من سلع شندى وسنار (وهى العبيد والذهب والتبغ واللبان وریش المنام) ، وتزود السفن معظم الحجاز بقرب الماء والجربان الجلدية والجلد المدبوغ . ويشتري القوم القرب في حواضر الحجاز الكبرى - وهى خمس - وفي ريفه أيضاً . أما الجربان فلا يشتريها غير البدو ، وفيها يحملون زادهم . ويغل الاتجار في هذه السلع أرباحاً طائلة ، فالماشية نادرة في الحجاز لقلة المرعى ، وحاج مكة يحتاجون إلى عدد كبير من القرب ، لذلك كان ثمن القربة المصنوعة من الجلد بحدة يعادل ثمن الشاة بسواكن . كذلك تصدر القرب إلى اليمن ولكن بكميات أقل ، وقد رأيتها معروضة بسوق السويس ، وهى تفضل سائر أنواع القرب لسهولة الباعه ومقاومة الحياكة . وتدبغ الجلود كما تدبغ في الصعيد ووادي النيل ، أعنى بالقرض ، وهو ثمر السنط الذى اشترت إليه غير مرة . ويبيع البدو المجاورون لسواكن الجلود في سوقها لقاء الذرة . وفي بلاد العرب يصنعون النعال من الجلد المدبوغ وجلود الأبقار الخامة المصدرة إلى جدة ، ولكن أفضل ما يرد للحجاز من الجلود مجلوب من مصر . كذلك تصدر سواكن السمّن (*) إلى جدة . وفي موسم

(*) وهو سائل لا جامد ، ولا يستعمل في السوان من الزبد سواء . ويصنعون الزبد كما يصنعونه في مصر وبلاد العرب بنحس اللبن في القرب حتى ينفصل الزبد على حدة .

الحج تعتمد مكة وجدة على سواكن ومصوع قبل غيرها في زادهما من السمن ، وتستهلكان منه المقادير العظيمة ، لجميع الطبقات تأكله ، وإن أشدهم فقراً لينفق نصف دخله اليومي ليحصل على قدر كبير من السمن يطبخ به غداءه ويشرب منه في فطوره ربع رطل على الأقل . وحين كنت مقبلاً بمكة ارتفع ثمن السمن فوق ثمنه المادى بمقدار النصف لأن سفينتين محملتين من مصوع باعتا حولتهما منه في اليمن بدل أن تمضيا في الرحلة إلى جدة . كذلك تحمل السفن الحصر المصنوعة من سمف الدوم ، وتأخذ كل مركب منها مقداراً ، وتستعمل في جميع أنحاء الحجاز واليمن حيث الدوم نادر ، وحيث لا ينزل إلى كسب الرزق بالعمل اليدوى إلا القليلون . وتفرش أرض المساجد في مكة والمدينة بهذه الحصر ، وتجدد كل عام تقريباً بفضل هبات الحجاج ، وقل من الحجاج من يبرح مكة بغير حصيرة سوا كنية صغيرة مصنوعة صنماً دقيقاً على هيئة سجادة يؤدي عليها فريضة الصلاة . ويصنع هذه الحصر البدوى في الجبال المجاورة لسواكن . ويصدر إلى جدة وع صغير من الحار منتشر على السواحل الإفريقية ، ويأكله الأطفال وفقراء الناس على الأخص ، ويسمونه « السرمباق » ، يزعمون أنه دواء للدوسنتاريا لسا له من خواص قابضة . كذلك تصدر الذرة والقرب والحصر للحديدة ببلاد اليمن ، وهى أكبر سوق للجياد التى يجلبها تجار سواكن من وادى النيل . وقد قلت إن شريف اليمن شغوف بشراء الفحول الإفريقية يزود بها فرسانه . والجواد الذى يساوى فى شندى خمسة وعشرين ريالاً يباع فى الحديدة بمائة أو مائة وخمسين ، ولكنها تجارة محفوفة بالخطر ، وكثيراً ما تنفق الجياد فى رحلة البحر لافترارها إلى العناية الصحيحة التى لا تجدها على ظهر مركب ريفى صغير . ونقل الهجن البشارية - وهى أنجب الهجن قاطبة - على المراكب الكبيرة إلى جدة ، فإذا وصلتها سالمة بيع الهجن منها بستين ريالاً إلى ثمانين ، وهو ثمانية أضعاف ثمنها بسواكن . على أن نصف الهجن المشحونة على الأقل ينفق فى الطريق ، وبكلف نقل الهجن منها عشرة ريالات .

ويشتري تجار سواكن من جدة كل ما تحتاجه الأسواق الإفريقية من

بضائع هندية ، وكذلك الكماليات التي تروج سوقها في سواكن ، كثياب النساء وحليهن ، والأواني النثرية ، وشتى ألوان الطعام كالسكر الهندي والبن والبصل والبلح على الأخص - وهو ليس من حاصلات شرق النوبة . كذلك يجلب من جدة الكميات الكبيرة من الحديد لصنع الحراب والبدى ، ويصنعها الحدادون الماديون - ولم أجد غيرهم من مهرة الصناعات بسواكن ، اللهم إلا البنائين والتجارين - ويزودون بها جميع البدو المحيطين بسواكن على رحلة خمسة عشر يوماً .

ولا يدخل مرفأ سواكن من السفن الأجنبية كما علمت إلا القليل ، اللهم إلا إذا أكرهتها رداءة الجو على الالتجاء إليها . وتقوم بتجارة البحر مراكب يملكها قوم من سواكن وجدة لاصناعة لهم إلا الملاحة بين الساحلين . ولا يمضى أسبوع لا يصل فيه مركب من جدة أو يقلع إليها مركب . وفي أثناء مقامي أبحرت إلى الحديدية سفينة واحدة وإلى مخا أخرى وإلى جدة تسع سفن . أما السفينة القاصدة مخا فقد شحنت بشطر كبير من العبيد القادمين معنا في قافلة شندى ، فمعظم بلاد اليمن يقيم فيها سواكنية وهم يعملون وكلاء لمواطنيهم ، ووصلت من جدة سفينة ومن اللحية قارب صغير ، وإلى ذلك كان بالميناء أربع سفن أو خمس وجهتها ساحل بلاد العرب . وكثيراً ما يكون ملاحو هذه السفن من البدو ، وهم يخذقون استعمال حبالها حذقهم حزم أعمال أبلهم ، ولكن أكثر الملاحين صوماليون من الساحل الإفريقى الواقع بين الحبشة ورأس غردفوى ، وهم أنشط الملاحين في البحر الأحمر . وربان السفينة في العادة من أهل جدة أو اليمن والسواكنية من أنشط صيادى الأسماك ، ولهم نحو اثني عشر قارب صغير تشغل بالصيد في البحر . ولا تخلو سوق سواكن من السمك في أى وقت ، ولكن لا يقربه من البدو إلا الأفلون . وقد يجد الصيادون اللاؤلؤ في المياه القريبة من سواكن . ويمكن أن تعد سواكن - على العموم - سوقاً من أهم أسواق العبيد في شرق إفريقيا ، فهي تستورد كل عام من شندى وسنار عدداً من العبيد يختلف من ألفين إلى ثلاثة آلاف ، ولا يضارعا في هذا غير إسنا وأسيوط من مدن مصر ، ومصروع من مدن الحبش (ويمر بها كل عام نحو ثلاثة آلاف عبد

وخمسة مائة مجلدين من الداخل كما قيل لى فى جدة بعد ذلك) . ومن هذه النقط
الأربعة ، ومن ثغور الحبشة الجنوبية ، ومن ساحل الصومال وموزمبيق ، يصل
مصر وبلاد العرب مدد سنوى من العبيد يقدر بخمسة عشر ألفاً أو عشرين جلبوا
من قلب إفريقيا .

وتنصب سوق سواكن بالقيف فى ساحة مكشوفة تحيط بها أكواخ تعرض
فيها نفس السلع التى تعرض فى سوق شندى تقريباً ، وفيها يقايض البدو على الجلود
ويأخذون حاجتهم من الذرة والدمور . ويجبى الحداربة والمهندوة الذين يحتكرون
التجارة مع التاكة الأرباح الطائلة من بيع الذرة للبدو الشماليين . ورأيت فى سوق
القيف كيزان الذرة معروضة للبيع ، ولم أكن رأيتها منذ أربعة شهور ، ولا غذاء
لفقراء سواكن سوى هذه الكيزان يأكلونها بالسمن . ويتعامل القوم فى جميع
الصفقات الصغيرة بالذرة ، ويكيلونها بالحفنة أو بالمد الممار المستعمل فى شندى .
أما فى الصفقات الكبيرة فالعملة المتداولة هى الريال دون غيره ، فهم لا يمترون
بالقرش ولا بالبارة ولا بعملة الذهب التركية . على أن عندهم ضرباً من البارات
القديمة يقطعونه أرباعاً ويشترى به السلع الرخيصة . ويؤدون الثمن فى أغلى
الصفقات بالأوقية من الذهب ، وقيمتها بالريال محددة .

وخلق السواكنية هو خلق القوم فى داخل البلاد على ما وصفت من قبل ،
وعندى ما يحملنى على الاعتقاد بأنه هو الخلق السائد فى شرق إفريقيا كله ، بما
فيه الحبشة ، فليس بين طباع أهلها — كما وصفها بروس — وطباع النوبيين
فرق يذكر . ويؤسفنى أن أضطر إلى رسم هذه الصورة القائمة لجميع الشعوب
الإفريقية التى رأيتها إلى الآن . ولو كانت خبرتى بهم خبرة سطحية لأحجمت من
الحكم عليهم هذا الحكم القاطع ، ولكنى جيت بلادم فى زى أتاح لى معرفتهم
معرفة وثيقة(*) ، لذلك أراهم مضطراً إلى مصارحة القارىء برأى فيههم ، فهم قد نشت
بينهم — بدرجات متفاوتة — ردائل خراب الذمة والجشع وإدمان الخمر وما إليه .

(*) لأن سوء معاملته — وهو سر تحامله عليهم — يرجع إلى ارتياهم فى أمره : أهو
جاسوس ؟ وإن صح ذلك فلمن ، الحمد على ؟ ألدالك ؟ الأوروبين ؟ الخ هذا هو السر كله . (غربال)

والسوا كنية يشاركون جيرانهم بدو الصحراء هذه الرذائل ويفوقونهم غلظة وقسوة . وإذا كان التجار السوا كنية في القافلة قد أمسكوا عن الإساءة إلى فلا يتخذن القارىء هذا دليلاً على رقة فيهم أو حنان ، فإن خوفهم من الترك — وهو خوف أشاعة في قلوبهم فتح محمد على للحجاز — وخوفهم من أن يناقشوا أعسر الحساب لو عرف في سوا كن وجدة أنهم أساءوا معاملة «عثمانلى (*)» مثلى — هذا الخوف كان على الأرجح وازعاً قويا يكف عني أذاهم ، وإن لم يبلغ من القوة مبلغاً يحملهم على إبداء أقل عطف نحوى خلال الرحلة . ولست أذكر أنهم تنازلوا ولو مرة فمأونونى على وسق جملى أو ملء قربى ، أو فسروا لى مرة ما يعجم على من كلام القوم ، أو أدوا لى خدمة من هذه الخدمات الصغيرة التى يؤديها المسافرون بعضهم لبعض . بل إنهم — على تقيض ذلك — أكرهونى غير مرة على أن أقاسمهم زادى ومائى ، وكثيراً ما أرسلوا لى فى العشاء عبيدهم يسألوننى بعض عشائى لسادتهم أو يستأذوننى فى أن يشارك أحد عبيدهم عبرى طعامه بحجة أنه لم يجد وقتاً يظهو فيه عشاءه . وقد كانت مخالطة السوا كنية للبدو النوبيين ، وعدم استقرار حكومتهم ، أهم الأسباب فيما أصاب أخلاقهم المربية القديعة من انحلال وتدهور . وأنت تجد لهم — لى تنقلت بين سواحل البحر الأحمر — طابماً واحداً يتميزون به هو الجشع والعقوق ، أو كما قال عنهم عربى من أهل ينبع « حتى إذا سقيتهم من ماء زمزم فيخلوك تموت من الظماً ولو كان ييرهم مليون » . وبشهد على هذا الطبع كل من أتى له الاطلاع على دخائل بيوتهم . وفى سوا كن لا يحترم الناس غير قانون الغابة وحده ، ومن المبت أن تحاول أداء مصلحة لك فى المدينة ما لم تشتت حماية حدرى ذى بأس . وتنشب المارك الدامية بين السكان كل يوم ، وترى على جسامهم — ولا سيما على ظهورهم — ندوب الجراح التى يصابون بها فى هذه المارك . وليس القتل عندهم نقيصة تنقص من قدر الرجل ، بل إنه ليفاخر بعدد صرعاة فى هذه المشاجرات وبما أدى من دية عنهم . وقبل ثلاث سنوات أو أربع روع أهل المدينة كلها عبد لأحد كبار الخدارية . وكان العبد

(*) اتخذت لنفسى لقب «عثمانلى» حين بارحت شندى بعد أن سمعت فيها أن للباشا عاملاً بسوا كن وآخر بمصوح .

تضج وحده قوة وبأساً وجراً واقتحاماً ، وبعد أن ارتسك أبشع الجرائم وقتل
نفقاً وعشرين شخصاً ترك سيده ، وكان ما يزال يبسط عليه حمايته بدافع الخوف
منه . ثم لقي العبد حقه آخر الأمر على يد فتى حاول العبد أن يفتصب أمه . وكنت
ذات يوم جالساً مع الأغا فإذا بملاح مسكين يدخل علينا وجنبه يقطر دماً من طمئة
سيف وهو يستغيث به من حدرى أراد الفتك به ، فأوصاه الأغا أن يفض
خضومته مع الرجل بالحصى ، ثم نفحه بكيلتين من الذرة ليطيب خاطره . وأهل
سواكن - كأهل التناك - لا يعرفون لقرى الضيف معنى ، وتنتشر هناك المواخير انتشارها
في أى ناحية من نواحي النوبة ، ولكنى لا أعتقد أن امرأة من الحدادة تجرؤ
على احتراف الدارة جهراً . ولا يملك بحال للمطارة بالسوق سوى طاهرات من عتائق
الحبشيات . ونساء القيف سافرات ، أما نساء الجزيرة فيتجججن ويلبسن لبس النساء
في شبه جزيرة العرب .

وبالجزيرة مقهى واحد يقضى فيه أهل المدينة والحدادة أهم مصالحهم ويودون
عن القهوة ذرة . ووسيلة الانتقال بين القيف والجزيرة الطوف أو اليرث ، ويمطون
الرجل الذى يديره حفنة من الذرة ، ولكن السواكنية ضنينون حتى بهذا الأجر
الضئيل ؛ فترى الرجل منهم يخضع ثوبه ويقدمه مع خفيه وسيفه فوق رأسه ثم يعبر
القنال ساعماً كما يعبر المصريون النيل . ولم أر سباحين أحذق منهم ولا أبرع ، وهم
أهمر ما يكونون في الاحتفاظ بالجسم حتى قلة الكنت منتصباً في الماء بينما يسبح
الرجل باطرافه السفلى كأنما يعيش على أرض ثابتة ، ولا تكاد سرعته في السباحة
تقل عن سرعة السائر على الأرض (*) .

والبشارية هي لغة الكلام الغالبة في سواكن ، أما العربية فيتكلمونها بلهجة
سقيمة مع أن أهل القيف جميعاً يفهمونها ، ولكن أهل المدينة يتكلمونها بوصفها
لشهم القومية ، وينطقونها بلهجة أهل جدة . وقد رأيت بين جيرانهم الهدندوة
الذين يجلبون لسوق القيف السمن والنم كثيرين يجلبون العربية جهلاً مطبقاً .

(*) يرمى هذا الضرب من السباحة في ممرات سويسرة * دون الماء .

ولأهل الجزيرة قاض ومفت ومدرسة أميرية ، وفيه أوفقيهان ينتميان إلى طبقة العلماء ، وقد تقلد زعيمهم وعين أعيانهم وظيفة الأغا إبان حكم الشريف ، أما اليوم فهو يزعم حركة المارضة للأغا الحالى الذى نصبه محمد على ، والذى استحق نقد خصمه على تصرفاته الرسمية . وقبل أن أبرح سوا كن أرسل إلى القاضى فوافيته سرّاً فى بيته ، وسلمنى رسالة رجاى أن أحملها إلى الحجاز ، وأسلمها ل محمد على شخصياً . وتتضمن الرسالة شكوى من بك والحداربة ، فقد نعمتهم الكاتب بالمضيان والتمرد ، وآية ذلك أنهم أبوا التعامل فى بلدهم بعملة محمد على وبالقروش المصرية ، ونسكلوا عن فريضة الجمعة حين أضيف الدعاء فى الخطبة للسلطان والباشا . أما بك فقد رماه الكاتب بأنه معرة للترك ، وزعم أنه يرتعد فرقاً من البدو ، وأنه لوث مركزه بالانفاس فى شهواته المنحرفة(*) . وكان إنشاء الرسالة خليطاً عجيباً ما أنزل الله به من سلطان ، فقد خلعت على الباشا أسخف الألقاب وأبعثها على السخرية ، فأطلقت عليه فيما أطلقت « أسد البر وفيل البحر » . وقد وقعها وختمها اثنا عشر مظلماً ، وبالرغم من أننى لم أسلمها بنفسى فى الحجاز ، فقد استوثقت من أنها سلمت للباشا كما طلب إلى .

ولا يستعمل السوا كنية من الأسلحة إلا ألقاها ، ونذر من أهل القيف من يجرؤ على إطلاق النار . وسلاحهم سلاح النوبيين ، أى السيف والرمح والدرقة والمدينة . وفى المدينة نحو اثني عشر جواداً . فإذا نشبت الحرب امتطى أشجع شجعانهم الهجن وباغتوا العدو . ويكاد كل بيت فى القيف يملك هجيناً . وبدو القيف ليسوا أكثر من بدو الصحراء احتفالاً بدينهم ، ولو تجرأت مدى علمهم به لما وجدت بينهم من يرب كيف يصلّى الفريضة إلا الأقلين ، بل إنهم - فيما روى لى - قل أن يصوموا رمضان . أما فى المدينة فالقوم يدققون فى القيام بالفرائض تدقيق كل الشعوب المشتغلة بالملاحة .

(*) قد تكون هذه من الرذيلة الوحيدة التى لم تتغلغل بعد فى قلب إفريقية ، فقد سمعت الإفريقيين من جميع الطبقات يستهجنون أشد الاستهجان ما يروى بالحجاج العائدون إلى أوطانهم عن انحرافات الترك والأعراب .

ويبلغ عدد سكان سوا كن — حسب تقديري — ثمانية آلاف نسمة ، يعيش ثلاثة آلاف منهم في الجزيرة ، ويسكن الباقون القيف .

وعلى بدوسوا كن الماشية الكثيرة جداً ، وهم لا يبقونها فيما جاور المدينة إلا في أعقاب الفصل المطير مباشرة حين ينبت الكلأ في السهول المحيطة ، أما فيما عدا ذلك من الشهور فإن رعايتها يطلقونها لتسرح في مضارب الهندوة بجبل دثيب أو جبل انقاي . وبين المدينة وهؤلاء البدو المجاورين مواصلات يومية لا تنقطع .

وعلى مسيرة ثلاث ساعات من سوا كن وإد بجبل دثيب يرويه نهر . ويملؤه النخيل ، وكله من ذكور النخيل التي لا تثمر . وينزل الوادي اليوم بعض الهندوة . وروى السوا كنية أنه حين كان لمدينتهم وال خاص بها ، كان بهذا الوادي مدينة يختلف إليها السوا كنية كثيراً وينفق فيها الباشا نفسه شطراً من العيف ينعم فيه بهدونها وجوها اللطيف .

وحين تهطل الأمطار يزرع بعض الهندوة من سكان القيف مهلاً خصباً يسمى طوكر على نحو يمين جنوبي المدينة غير بعيد من البحر . والوادي فسيح خصب تكتنفه الجبال وترويه السيول ، ولكن نسبة غلته إلى استهلاك المدينة نسبة ضئيلة جداً .

وعلى نحو خمس ساعات شمالي سوا كن تقترب سلسلة دثيب المذكورة اقتراباً شديداً من البحر ، والنتوء الحاصل هو الحد الشمالي لأملاك بدو الهندوة ، وفيما وراءه تبدأ قبيلة الأمرار ، وهي قبيلة مستقلة لا صلة لها بالقبائل السابقة بهذا الاسم ، والتي تجد مضاربها على الساحل كله حتى بلوغك جزيرة جبل مكور . وهؤلاء الأمراء على صفاء مع الهندوة ، ولكنهم خصوم للبشاريين مع أن القبيلتين منفحدرتان من جد واحد فيما يقال .

واستفسرت عن الطريق الساحلي إلى مصنوع ، وهل هو مطروق أو مهجور ، فقيل لي إن أحداً لا يحاول سلوكه ، وإن المواصلات الوحيدة مع الجنوب هي

بطريق التاكنة . ومن سواكن إلى أسوان رحلة عشرين يوماً إلى أربعة وعشرين
فيقال ، ولكن الدرب غير مطروق . وحدث في العام الماضي حين كان
الأمير نعيم يقطع الطريق على المسافرين بين شندى والصعيد أن جماعة من مغامري
التجارة السواكنية نظموا رحلة إلى مصر تسلك بلاد البشاريين مؤمانيين حتى ربح
وفير مما يحملون من إبل وعبيد وسلع هندية شتى . وعلى الرغم مما بينهم وبين
البشاريين من عداوة وحرب فقد استأجروا دليلين بشاريين ليضمنا سلامتهم
وليرشداهم إلى المسالك والدروب ، واتفقوا على مقدار ضرائب المرور التي يؤدونها
لشيوخ البشاريين . ويسافر التجار في بلاد العرب بهذه الطريقة آمنين على أنفسهم
في أرض الأعداء ، فهم لا يجرءون على مسهم بسوء ماداموا في محبة نفر من قبائلهم .
بيد أن الإفريقيين أقل تحرجاً من أهل جزيرة العرب ، فلما إن نصفت قافلة
السواكنية الطريق حتى أبيت على بكرة أبيها فلم ينج منها فرد . لذلك ليس من
المحتمل أن يسلك أحد هذا الدرب بعد هذا الذي وقع . وليس هناك اليوم أى
اتصال بين الحداربة وبين القبائل البشارية التي تسكن الصحراء إلى الشرق من
الأمراء والهندوة ، وإلى الشمال من الأمراء حتى بلوغك أملاك المباشدة
والأمراء والهندوة - على خصومتهم للبشاريين - لا يكرهونهم هذا الكره
الذين الذي يكنونه للحداربة ، وليس بين الفريقين من الصلات التجارية إلا
أقلها . ويشترى الأمراء من سواكن الذرة والدمور والتبغ ، ويقايضون بها
على ماشية البشاريين وجلودهم . ولعل أهم بلدة من بلاد البشاريين علمة ، وهي
جبل عال ملاصق للبحر دوقاً صغيراً ، وهو على مسيرة عشرة أيام أو اثني عشر
من سواكن ، ونحو خمسة عشر من دراو بصعيد مصر . ويقيم شيوخهم في
واديان هذا الجبل النقي بالكلاً فيما يقال ، وتسكنه القبائل الشديدة البأس ،
وبعرفه أهل الصعيد جيد المعرفة ، وكثيراً ما يختلف إليه بدو المباشدة يحملون
الذرة والنسوجات القطنية المصنوعة بمصر . كذلك يختلف إليه شيوخ المباشدة
ليجمعوا إتاوة يؤديها أهل الجبل نظير الإذن لهم بإطلاق ماشيتهم في الفصل المطير

أترعى في ذلك القسم من جبال شمال النوبة الذي يزعم العبادة أنه ملكهم ،
ولكن تكرار فحش الحروب بين الفريقين يجعل أداء هذه الأتاوة غير منتظم .
وقيل لي غير مرة في الصعيد وفي سواكن إن في الصخور القريبة من الساحل
المجاور لجبل عليه مساكن منقورة في الصخر يبدو أنها من صنع « الكفار » .
وعلى شهادة كثير من الملاحين هو المرفأ الوحيد الذي تستطيع أن تعتبره صالحاً
لرسو السفن على الساحل الإفريقي بين القصير وسواكن . وللبشاريين فيه سوق
منتظمة تزود بالسلع من صعيد مصر وبربر ، ومن سواكن بطريق غير مباشر .
وقد تقصد هذه السوق القوارب الصغيرة من بلاد العرب طلباً للجلود والسمن
وإن يكن هذا نادر الحدوث ، ولكن أصحاب السفن يخشون خيانة البشاريين ،
لذلك ترام يزهدون في هذه الغامرة التي تعرضهم لندرم فضلاً عن الأخطار التي
تكتنف الرحلة ، وذلك على الرغم مما قد يحنونه من ورائها من ربح طائل . ويقال
إن الإبل موفورة جداً هناك ، وإن غذاء البشاريين يكاد يقتصر على لبنها ولحمها .
وهم لا يزرعون وديانهم وإن لم تحل من الأنهار الصغيرة . لذلك يشتد عندهم غلاء
الذرة لأنها تجلب لهم من بعيد ، فما يساوى منها في صعيد مصر ريالين يشتري
في علة بميراً طيباً . وقد يكون من الممتع أن يزور المرء هذا الثغر الذي أحسبه
قد غاب عن جميع السياح والملاحين المحدثين ، ولعل ارتياده يجلو نقط الخلاف
على جغرافية هذا الساحل (*)

ولما بلغنا مشارف القييف صباح ٢٦ يونيو توقفت أن ندخل المدينة لساعتنا ،
ولكن القوم لم يجرؤوا على هذا . وانطلق التجار السواكينة إلى بيوتهم في حين
نزل التجار الأغراب عن دوابهم على مسيرة عشرين دقيقة من المدينة بقرب الآبار
التي تمدها بالمياه ، وهناك وجدنا عدداً كبيراً من الحجاج الزوج ينتظرون منذ
أسابيع سفينة تقلهم إلى جدة . ولما كان علينا أن ننتظر بهذا الموضع حتى يث
أمير سواكن في أمرنا — وهو يفرض المكوس على جميع القوافل — فقد أقام

(*) راجع يومية ١٤ يولية .

كل بنا لنفسه خيمة من عيدان ربطنا عليها الحصر . وفي العصر زارنا أخو الأمير ،
وفي الند أقبل الأمير نفسه ، فتقاضانا نصف ريال عن كل عبد ، وهي الإتاوة
المقررة . ولما كان التجار السود يحملون بضاعة لا رسوم محددة عليها ، ولما كان
هناك شك في أنهم يحملون في حقائبهم ذهباً ، فقد تم الاتفاق ودياً على
أن يأخذ الأمير جلين من جواهرهم — وكان لهم به معرفة قديمة . ويتقاضى
رئيس القافلة من كل تاجر غير حدرى ريالاً فوق ذلك . أما أنا فقد اشتهر
جلى في القافلة بشدته وخفته اشتهاً حمل الأمير على طلبه منى ، فزعم لي
أن كل إبل يحملها التجار الأعراب من السودان هي حق له غير منازع ، لذلك أمر
على الاستيلاء على جلى . وكنت قد ربت أن أبيع هنا لأوفى أجرة سفري إلى
جدة ، وكنت على ثقة من أن مثل هذا القانون لا وجود له ، لذلك أبيت أن أذعن
لطلب الأمير ، وأصررت على الاختصام إلى الجانب التركي ، ولا غرو فأنا الآن
في بلد أستطيع أن أفيد فيه من فرمان الذى أعطانيه إبراهيم باشا ، ومن فرمان
قديم كان قد أعطانيه أبوه محمد على حين غادرت القاهرة قبل ثمانية عشر شهراً ،
وذلك قبل ذهابه إلى الحجاز . ولكنى أمسكت عن الإشارة إلى فرمانين لجهلى
بطباع هؤلاء البدو ومدى طاعتهم لسلطان الباشا ، واكتفيت بطلب الاحتكام
إلى الأغا وأعلنت أنني سأترى على حكمه من فوري إذا أمرنى بتسليم جلى . وكان
الأمير قد منعنى — من أول يوم وصلنا فيه — من العبور إلى الجزيرة ، أما الآن
فقد يئس أن يأتي مع الأغا نفسه على سلب هذا الذى خاله مستضعفاً لا يسط عليه
أحد حمايته . فأبلغ نبأ وصولي إلى الأغا ، وما عزم أن أصحبى بنفسه إلى بيت
الأغا بالجزيرة . ودخلنا على الرجل فألفيناه جالساً يستمع إلى بعض الملاحين ،
فأنحيت له احتراماً ، أما هو فقد وجهه إلى الخطاب بالتركية بمبارات لا يخاطب
بها غير الخدم ، فلما لم أجب بالتركية صاح بالعربية يسبنى ويزعم أنني أنظاهر بجهلى
التركية مع أنني قادم من عند إخوانى المالك بدنقلة . والواقع أنني كنت
أبدو — بسحقى ولحيتى — أشد شبهاً بالمالك منى بأى جنس آخر من المشاركة
ولكن كل فرد بالقافلة كان يعلم أنني قدمت من مصر إلى شندى ، وأنى لأمت

إلى المالك بصلة. ولا تبعد دنقلة عن سواكن أكثر من رحلة عشرة أيام إلى ستة عشر ، لذلك خيف من زمن أن يحاول المالك التعمق إلى هذا المرقأ ويتجالفوا مع الوهابيين في بلاد العرب على محمد على هدوها المشترك . وقد مر بسواكن أحد كشافهم - واسمه حسن جوهر كاشف - قاصداً مكة في عام ١٨١٢ حين كان الشريف غالب يلي أمر جدة ، وعرف الناس أنه اجتمع مرات بسعود أمير الوهابيين . لذلك ظن الأغا أنه إذا اتهمني بأني مملوك متجسس أو هارب - وهي تهمة لست أحسبه مؤمناً بها في قرارة نفسه - وإذا قبض علي بهذه التهمة استطاع أن يشتد علي بضاعتي وهو في مأمن من اللوم ، واستحق فوق ذلك شكر رؤسائه في جدة وحدهم له يظنته وفطنته . قلت للرجل في هدوء إنني آت لأسمع من فقه هل للأمر الحق في الاستيلاء على جملي ، فأجاب « ما هو الجمل بس ، بل نأخذ فمشك كله ونفقتشه وندير شفاك مع أفندينا حقاً ، ولا نخمن إنك تحبب علينا يا . . . » واستكثر بخبرنا إذا مارمينار قبلك « قلت له إنني لست إلا تاجراً منكود الطالع ، وتوسلت إليه ألا يزيدني عذاباً على هذا ، وكنت أبغى بالطبع أن أهدي من ثأثرته دون إبراز الفرمانين إذا كان ذلك ميسوراً . ولكن سرعان ما أكرهني بك على نيل هذه الفكرة ، فقد شرع يسبني ويلعنني بالتركية ، ثم نادى شيخاً أعرج كان قد خلع عليه لقب « الولي » (أي ضابط البوليس) وأمره أن يضع الأغلال في يدي ويلقيني في السجن ويأتيه بعمدي وأمتعتي . هنالك تبين لي أن قد حان الوقت لإبراز فرماني فأخرجتهما من جيب خفي في زعجوطي . أما الفرمان الأول فمكتوب بالتركية على ورقة طولها قدمان ونصف وعرضها قدم ، وممهور بخاتم محمد علي الكبير ، وأما الثاني وهو أصغرهما فمكتوب بالعربية وعليه خاتم ابنه إبراهيم ، وقد لقيني فيه « رجلنا إبراهيم الشامي » .

وما إن رآني بك أبسط الفرمانين حتى طار لبي ، أما الحاضرون فقد أخذوا يرمقوني بنظرات ملؤها الدهشة . ولم يستطع الأغا أن يقرأ من الفرمانين إلا المكتوب بالعربية ، ولكنه قبلهما جميعاً ووضعهما فوق رأسه ، وقال لي في ذلة ومسكنة إنه ما دفعه إلى صنع ما صنع إلا الحرص على المصلحة العامة دون غيرها ، ثم طلب

نفوى الره بعد المرة . أما حق الأمير فى الاستيلاء على جلى فقد أصبح فى خبر كان ، ثم قال إنه أعفانى من أداء الضريبة من عبدى وإن نكن من حقه . وسألنى الأغا بطبيعة الحال عن سبب هذا المظهر الذى كنت أبدو فيه . فهذه الثياب التى لم نكن فى بداية الرحلة وجبة ولا فاخرة قد غدت الآن أسعالا بالية . فأجبت أن محمد على باشا أوفدنى لأتجسس على المالك وأستطلع حالة بلاد الرنج . وأنى اتخذت زى التسولين لأكون فى مأمن من الرقاء . هنالك عظم قدرى فى عين بك . فبدأ يخشى بأسمى ويخاف مغبة ما قد أنقل إلى الباشا عن مسلكه وحكمه فى سواكن ، وأصبح الرجل غاية فى الخنوع والتذلل . وأهدانى جارية وحلة من حظه . واسكنى رفقت الهدية . وكنت طوال إقامتى بسوا كن أختلف إلى داره كل يوم لأصيب عداء طيباً ما كان أحوجنى إليه ، ولأنهم يتدخين تبغهم المعجمى . وكان أهل المدينة يسخرون لتذلل الرجل وتقربه إلى مملوك مثل بما خاله مجلبة لرضائى . أما أنا فكان هدفى أن أظفر بالحماية ما دمت فى صحبته . وأن أجد ما فقدت من قولى ونشاطى بالشاركة فى طعامه الجيد . وأن أقتصد فى النفقة لأنه لم يبق معى الآن سوى ريالين .

ولقيت فيمن يختلفون إلى مائدة الأغا شريفاً كان فيما مضى حاكماً للشريف غالب وأغا فى مصوع ؛ وقد ثبتته محمد على أول الأمر فى وظيفته هذه ولكن طرده من خدمته بعد قليل لما ارتكبه من غش وتدليس ، فالتجأ إلى سوا كن . وقد عرف الرجل مستر صولت فى أثناء زيارته للعبشة ، وأنبأنى أن الشريف غالباً كان قد أمره مشدداً بأن يمنع الأوربيين — لاسيما الإنجليز — من دخول العبشة ما استطاع إلى معهم سيلا . ولم يكن الرجل على علم بحقيقة أمرى ؛ لذلك لم أجد ما يدهونى للتشكك فى صحة أقواله . ولم ينس القوم زيارة لورد فالنشيا القصيرة لسوا كن ، وكانوا يتكلمون عنها كأنها حدث فريد .

وبعث طوال إقامتى بسوا كن مساكناً للتجار الزوج خارج القيف على الرغم من إلحاح الأغا فى استضافتى بداره . وقد عاونتهم على تهريب كثير من عبيدهم إلى المدينة ، فردوا إلى هذا الصنيع بأن أمروا عبيدهم أن يجهزوا لى طرفاً من اللحم المجفف آخذة فى رحلتى عبر البحر الأحمر .

وكان يحيط بنا في مسكننا مئات من التكارنة ينتظرون سفينة تقلهم إلى الحجاز ،
وهم خلال ذلك يكسبون قوت يومهم تارة بالاشتغال حاليين (فالسوا كنية قوم عنهم
كبرياؤهم عن اتخاذ هذه الحرفة) ، وتارة بصنع قدور من الفخار لمطابخ الدبنة .
أما جلى فلم أبعه بأكثر من أربعة ريالات ، فإن أحداً من الناس لم يجرؤ على
التقدم لشراؤه به أن أعلن شيخ الحدارة رغبته في أن يشتريه ، وعلى ذلك اسقطاع
الشيخ أن يفرض الثمن الذى ارتأى . وكان الجلى على فرط ما أسابه من عناء
السفر يساوى ضعف هذا الثمن ، فأثمان الإبل هنا كأثمانها في جنوب وادى
النيل . وكان من القوة بحيث يطيق أن يحملنى ويحمل عبنى حين يأخذ الثعب
منا كل مأخذ ، وذلك فوق ما يحمل من متاع وماء . وكنت أسمع
للغلام بركوبه أربع ساعات أو خمس في الصباح ، ثم ينزل فأعقبه باقى النهار .
وكان التجار السوا كنية بمحبون أشد المجد لهذا التواضع ، ولكنه
—والحق يقال— تواضع فيه من الرعاية لمصلحة الشخصية أكثر مما فيه من الرفق
بالغلام ، ذلك أننى كنت على يقين من أنه لو أعيا الغلام وخارت قواه ،
لقاسمته هذا المصير لا محالة بعد قليل . وهبت علينا إبان مقامى بسوا كن مموم
لا أذكر لها نظيراً في شدتها وحرها اللافت ، فقد أتهب الهواء من حولنا
كأنه نار الله الموقدة ، وكادت الرمال التى تسفها الريح علينا من كل جانب
ترهق أرواحنا لولا لطف الله بنا .

وبدا مركب صغير يوسق حمولته (واسم المركب منها في البحر الأحمر
« صاى ») فأخبرت الأغا بأننى معتمزم ركوبه . ولو كان الوقت غير الوقت ،
والظرف غير الظرف ، لقصدت مخا أولا ، فإن الكولونيل ميست ممثل صاحب
الجلالة البريطانية بمصر أولانى قبل مباحثى القاهرة بدأ أخرى فوق أياديه الكثيرة
على ، فتفضل بالكتابة إلى عامل شركة الهند الشرقية بمخا ينبئه بأن سأبحر بهذا
الوصف قد يصل مخا من البر المقابل ، ويطلب إليه أن يمدنى بما أحتاج إليه في
أسفارى القادمة من مال . وكنت في وقت من الأوقات أنوى التوغل في جبال
اليمن حيث أصول معظم قبائل البدو الذين يسكنون شبه جزيرة العرب ، وحيث تجد

أكثر عاداتهم وتقاليدهم القديمة باقية على نقائها القديم وفطرتها الأولى. فلما بارحت سميد مصر كان في نيتي الذهاب إلى غنا - سواء من مصوع أو من سوا كني - ومن غنا إلى صنماء عاصمة اليمن حيث انضم إلى الحجاج اليمنيين في رحلتهم السنوية إلى مكة عبر الجبال ، وكان القيام برحلة كهذه خليفاً بأن يسدى لجغرافية بلاد العرب أجل خدمة ، ولعله كان يكشف عن حقائق هامة في تاريخ بلاد العرب . بيد أن ما جمعت في سوا كن من معلومات عن حرب الحجاز زهدني في هذا المشروع ، فقد كانت الطائف آنئذ مقرّاً لقيادة جيوش محمد علي ، وكانت طلائع جيشه على مسيرة أيام جنوبي هذه المدينة ، في نفس الجبال التي كان عليّ أن أسلكها ، وفيها احتشدت كثرة الجيوش الوهابية . ولم يكن عندي بصيص من أمل في النجاة بجلدي من هؤلاء التهوسين الذين سيحسبونني لا محالة جاسوساً تركياً ويضجون بي على مذبح انتقامهم .

وأمر الأغا ربان السفينة بأن يعفيني من أجرة السفر . وأمر بشيء من البائع والسكر - وهما أوفر ما في مخازن بيته - يحمل لي زاداً في السفينة . وأقلعنا مساء السادس من يوليو . وقد ندمت على ركوب هذه السفينة حين رأيت ما احتشد على ظهرها من جمع غفير . ولكنني فهمت بعد ذلك أن كل مركب يبحر من سوا كن ابتداءً من هذا الوقت انماية شهر الحج (وهو نوفمبر) ينص بالركاب كما غص مركبنا . وكان أصحاب التجار السودم وعبيدم من الكثرة بحيث لا يجدون في هذا المركب متسعاً ، لذلك قرروا الانتظار حتى تحين لهم فرصة أخرى . وقد بلغوا جدة بعد أن بلغتها بثلاثة أسابيع . وكان لمركبنا - أو على الأصح قاربنا ، فهو لم يزد على ثلاثين قدماً أو أربعين طولاً ، وعلى نسمة أقدام عرضاً في أوسع نقطه - كان للمركب شراع واحد . وهو مكشوف لا ظهر له ولا مظلة . وكان قد وسق ذرة ليحتفظ بتوازنه على الماء . وكانت عدول الذرة (*) مغطاة بطبقات عديدة من الحصر والجلود أعدت مهاداً لمائة وأربعة من الركاب بما فيهم الملاحون . ومن

* تنقل الذرة من التاكة إلى سوا كن في عدول يؤلب العدل منها حمل جل ، وفي هذه العدول تشحن إلى جدة .

هذا العدد خمسون من التكارنة رجالا ونساء . وخمسون من عبيد التجار السود أو السوا كنية المسافرين بالركب . وفي الليل رد إلى الشاطئ نحو خمسة عشر شخصاً أعاد إليهم الرئيس أجرة ركوبهم التي كانوا قد دفعوها مقدماً ، ولكن كان لا يزال بالركب تسمة وثمانون راكباً حين أقبلنا صباح الغد . وهذا الجشع الذي يدفع أصحاب المراكب إلى حشدها بالركاب كثيراً ما يكون وبالاً عليهم ، فن ذلك أن سفينتين كانتا تبهران قبل ستة أشهر من جدة إلى سواكن وعليهما عدد من الحجاج السودانيين فتحطمتا على الساحل غير بعيد من شمالى سواكن ، ولم ينج من ركابهما غير عدد قليل ، أما شحنتهما فقد غرقت بأكلها . ولا تخلو سنة من حوادث كهذا الحادث ، واسكن الرئيس العربي يقول « الله أكبر ! » ثم يفعل ما كان آباؤه وأجداده يفعلون .

الرحلة من سواكن إلى جدة

٧ يوليو - لبثنا في الثغر طوال الصباح نتنظر زائداً من الماء . ويؤدى التكرارة وبعيداً من رايلا من كل شخص لقاء هذه الرحلة . ويعلق كل منهم قربته على جانب المركب ، ويحفظون الماء الذى يلزم الرئيس والنوتية والتجار السواكنية خلال الأيام الثلاثة التى تستغرقها الرحلة فى أزيار كبيرة على مقدم المركب . وقد أوسع النوتية والسواكنية الزوج ضرباً ، وكان هؤلاء يقتتلون على الأماكن فى السفينة . وأقلعنا مساءً ثم رسونا بعد أن انتصف الليل عند مدخل خليج سواكن حيث طالعنا برج صغير مهديم . وهنا غادرنا الريان الذى قاد سفينتنا ليقفل عائداً إلى القيف رآ .

٨ يوليو - أقلعنا بعد الشروق تحذونا ريح مواتية ، وكانت الطريق تنحج شمالاً بجذاء الساحل وعلى أربعة أميال منه أو خمسة بين الصخور والشعاب المرجانية . وفى نحو الثالثة بعد الظهر دخلنا خليجاً ضيقاً جداً ، والسير فيه محفوف بالخطر ويسمونه دجوراتاج . ولا يكاد عرض الخليج فى مدخله يسمح لمركب أياً كان حجمه بالهدوران ، ولكن الماء بعيد النور إلا قرب شاطئه . والبر رملى محصب ينمو فيه بعض الشجر . ثم أقبل السكان البدو - وهم من قبيلة الأمراء - يطلبون إناوتهم ، وهى ذرة قيمتها نحو ريال فرضت على جميع السفن التى تقف بهذا المرسى . وقد باعنا القوم لبناً . ويسمى العرب هذه المرافىء كلها « مراسى » .

٩ يوليو - أبحرنا عقب الشروق ، والقاعدة المتبعة فى جميع سواحل البحر الأحمر أن تعلق السفن فى هذه الساعة وترسو فى أحد المرافىء بعد الظهر ، وهى قاعدة لا يجيد عنها الملاحون إلا إذا تهيأوا للعبور إلى البر المقابل . وجعل العرب بفنون الملاحة يحملهم على السير بحذر شديد فى هذا البحر الخطر ، وشعورهم بقلة درايتهم وبعدم كفاية مراكبهم يجنبهم الخروج إلى عرض البحر أو التمرض لريح مماكسة . ولا نجد على ظهر المركب الصغير من مراكبهم مقياساً للسرعة أو إبرة من إبر الملاحين ، فإذا وجدت هذه الآلات لم يستعملوها إلا نادراً . وكانت خطة الرئيس أن يسير بجذاء الساحل حتى يبلغ جبل مكور ، وتلك طريق المراكب السواكنية إبان هبوب الرياح الشمالية ؛ لأن الريح تكون فى المادة مواتية من هذه النقطة للعبور إلى جدة . والمراكب

الذاهبة من سواكن إلى غا تسير عادة محاذية للساحل الإفريقي راسية في مرقاً من الرافىء كل مساء حتى تصل مصوع ومنها تمبر إلى البر العربى . وفي القسم الشمالى من البحر الأحمر ترى المراكب الذاهبة من القصير إلى جدة تمبر إلى أقرب نقط البر المقابل ثم تسير محاذية للساحل حتى جدة . أما المراكب الذاهبة من جدة إلى القصير فتتبع الساحل حتى عرض رأس محمد (قول) ومنه تمبر إلى البر المقابل مستعينة بالريح الشمالية . ومراكب العبيد السواكنية أحوج السفن إلى السير بقرب الساحل لاحتشادها في الغالب بالركاب والمبيد عيث لا يستغنى الحال فيها عن التزود بالماء كل يوم .

وهبت علينا هذا الصباح ريح غربية مواتية . وأصاب السودانين جميعاً دوار البحر ، ولم يجد المراكب منا متيسراً لد أطرافه ، ولزمنا أما كفنا طوال النهار تحت لفحات الشمس المحرقة ، واضطر الملاحون للسير فوق أجسام الركاب ليؤدوا عملهم وأصبح الركب كله مسرحاً للفوضى والاضطراب والشجار . ومررنا في الصباح بضريح شيخ يدعى « الشيخ برغوت » ، وللضريح قبة بناها على البر الملاحون السواكنية الذين يقدسون الشيخ ويعتبرونه ولياً لهم وحامياً . ورأينا الكثير من الدلافين ، وهى في حجمها وشكلها شبيهة بما تراه منها على ساحل مصر قرب مصاب النيل . ولم يسمح لى البحارة أن أرى واحداً منها برمح لأن جرح دلفين منها في اعتقادهم شؤم على الرحلة . وبعد الظهر رسونا على خليج جيابا ، وكنا طوال الصباح نسير وسط سفخور لا تملو من الماء إلا قليلا . وفيما نحن نبحر الخليج جنحنا إلى بره ، وكثيرا ما يحدث هذا للسفن في هذه الخليجان ، فقد ألف الملاحون أن يدخلوها ناشرين قلوبهم للريح ، فإذا أصبحوا على مسافة معلومة من البر طووها بسرعة وتركوا السفينة تجري إلى الرسى ، ولكنهم قد يخطئون حساب هذه المسافة ، ولما كانت سفنهم بنير « هلب » فأسرع ما ترتطم بالبر قبل أن تستطيع الدوران حول نفسها . وما إن ينزل الشراع حتى يقفز إلى الماء ثلاثة رجال أو أربعة منهم . يبال مربوطة في خطاطيف فيحكون ربطها في سفن مرجاني أو شجرة على ...

يمضي الركاب إلى البر كل عشية وقد بنفقون هناك الليل كله . ولما لم يكن معنا قارب صغير ، ولما لم يكن تقرب السفينة إلى البر أمراً ميسوراً في جميع الحالات ، فقد كنا نضطر أحياناً إلى خوض الماء أو السباحة إلى البر^(١) . وكان الزوج يضربون خيامهم كل مساء على طريقهم حين يسافرون في الصحراء . ولقد نظرت هذا المساء امتلاء البر بالودع ، وكانت المياه التي تتخلل المرجان غاصة بالسماك مختلف الأشكال والألوان . وأروني محار « السرمباق » الذي يأكله العرب على طول ساحل البحر الأحمر ، لاسيما في هذه المنطقة .

وقد رأيت بين الأصداف المتكلسة صدفه جراد البحر^(٢) . ووفدت إلى البر جماعة من بدو الأمراء يبيعون الماء والغنم (بسم ثلاثة خراف سمان بما قيمته ريال من الذرة) ، والمحار والسماك المسالوق والأرانب الجبلية^(٣) ، ويأخذون من الرئيس العطايا التي ألغوا أخذها . وكانوا يجهلون العربية جهلاً مطبقاً ، ومع أننا كنا نفوقهم عدداً فإنهم لم يعبأوا بنا ، وكانوا يعاملوننا في غير احتفال ولا أدب . وخليج جيابا من أفضل مراسي هذا الساحل ، وتستطيع السفن حتى الكبيرة منها أن تحتوى فيه حين يضطرب الجو وتشتد الأنواء .

١٠ يوليو -- سافقنا ريح طيبة قبل الظهر إلى خليج درورو ، وهناك رسونا لأن في جواره بئراً غزيرة الماء . وقد مررنا أمس واليوم بمحلبجان أخرى تمخرها المراكب الريفية . وكل ربان على بينة من مواقعها ، ولكن الخبرة الطويلة بها ضرورية للتعرف على مداخلها دون خطأ ، وتقع هذه المداخل وسط تيه من البرك الضحلة . ومضى التكرار وملأوا قربهم من البئر ، ولما عادوا ردهم الرئيس ليملاؤا للملاحين قدرأ كافيا من الماء . وكان هؤلاء الساكنين

(١) في مرة من هذه المرات سقط في الماء جراب من جرابي كنت أودعته بمجموعة الصخور التي جمعتها في شندى ، وذلك بسبب إهمال أحد البحارة ، وقد بقى معي قليل من عينات هذه الصخور .

(٢) Lobster

(٣) كثيراً ما كنت أرى الأرانب الجبلية في سوق سواكن ، وقد أخبروني أن البدو فيها جاور المدينة يقصّون آثارها في الرمال ويأخذونها على غرة ثم يقتلونهم في الهجير وهي تنفياً ظلال الشجر .

يلقون دائماً أشد الإساءة والهوان مع أن أحد منهم لا يدين بفضل
للريس ، فقد أدوا جميعاً أجرة ركوبهم . وكان السوا كنية والملاحون يوسعونهم
سباً وضرباً في النهار ويلزمونهم بالعمل في المركب بينما هم جلوس يدخنون في
راحة ودعة . وكان النوتية لا يكفون عن سرقة زاد هؤلاء الحجاج المساكين ومأثمهم
ويحشدونهم في مكان ضيق كما يحشد ثلاثة أشخاص في غرفة لا تتسع إلا لاثنتين .
وكان جماعة الملاحين والتجار يخبزون الذرة صباح مساء في فرن صغير على مقدم
المركب ، أما الزنوج فكانوا يصومون النهار كله - لأن استعمال الفرن حرام عليهم -
إلى أن يرسوا على البر فيطهوا عشاءهم . ولو تجرأ أحدهم وأخرج ورقة من أوراقه ،
أو قرأ صلاة أو كتبها ، لرشه بالماء سوا كنى منهم وأتلف له كتابه . وفي سوا كن
يتعرض التكرانة قبل ركوبهم البحر لمضايقة أخرى ، ذلك أن بعض التجار
السودانيين ألبسوا عبيدهم مرات لباس الحجاج تهرباً من الرسوم المفروضة عليهم ،
فلما عرف عنهم هذا اتخذ الأغا منه ذريعة لتحصيل الرسوم على الحجاج الأحرار زاعماً
أنهم عبيد متخفون ، فهو يتقاضى من الحاج منهم ريالين حتى ولو استطاع أن يثبت
كذب هذه الدعوى . وتمنص سوا كن بالتكرانة قبل موسم الحج بثلاثة شهور أو
أربعة ، ولولا هذه الإساءات التي يلقونها على أيدي السوا كنية ، ولولا ما يحف
الرحلة عبر البحر الآخر من مخاطر - وكثير منهم تفت في عضدهم هذه الرحلة
أكثر من رحلتهم إلى الساحل - أقول لولا هذا لازداد عددهم في سوا كن أضماقاً .

١١ يوليو - كانت الريح مضادة ، فوجدنا أنفسنا محصورين بين الصخور ،
ومررنا بمحصر أو برج كبير خرب على ميلين من البر . وأخبرني السوا كنية أن
والياً قديماً لسوا كن بناء بقرب بر ، وأنه كان محطة على درب بين القصير
وسوا كن كان فيما مضى مطروقا . وكنت قد سمعت من أهل الصميد بوجود هذا
الدرب في جبال النوبة من قديم ، وبأن والى سوا كن كان يتخذ في سفره من مصر
إلى مقر حكمه ، وأضاف السوا كنية إلى ذلك أنه كانت تقوم أبراج كهذا البرج عند
كل محطة على الطريق . على أنهم لم يعرفوا هذا إلا سماعاً ، فإن أحداً منهم لم يسافر
بهذا الطريق .

وفي الجبال الواقعة شرق دراو بالصعيد ، وعلى ثلاث مراحل منها صوب البحر الأحمر ، سهل به آبار ماء عذب ، واسم السهل « الشيخ شادلى » نسبة إلى ضريح هذا الشيخ الذى مات هناك فيما يروون على الطريق الممتد من القصير إلى سواكن والذى تقع عليه الآبار . وللضريح منزلة كبيرة عند المصريين ، وقد بنى أحد بكوات الممالك فوقه قبة ، وكثيراً ما يئذر الناس زيارة الضريح وينحرون فيه شاة إكراماً للشيخ . وتحفل الوديان المحيطة به بالشجر ، وإذا صدق الرواة فإن هناك خرائب مبان ، وكهوفاً منقورة فى الصخر . وقد اشتهر الجبل منذ القدم بالزمرد ، ويؤيد معظم جغرافىي العرب هذا الرأى فى كتبهم ، ولما بلغت الرواية مسامع محمد على باشا أرسل إلى الشيخ شادلى عام ١٨١٢ نفرأ من جنده يرافقهم جواهرى روى من القاهرة زعم أنه خبير بالأحجار الكريمة ، وأخذت البعثة معها مئآت من الفلاحين ، وبعد أن لبثوا أياماً يحفرون الأرض الصخرية والسهل المجاور للضريح فى مكان قيل إن أحد بكوات الممالك وجد فيه حجراً نفيساً لا يقدر بثمن ، أخرجوا بمحض الصدفة القريبة قطعة من الزجاج المغم الأخضر يبلغ حجمها ثمانى بوصات مكعبة ، وعلى القطعة مسحة من لون الزمرد ، فأعلنوا على الفور أنهم وجدوا زمردة أصيلة ، ثم حملوها ظافرين إلى القاهرة . وكنت قد وصلت إسنا توا حين مر هذا الجواهرى بها . فرأيت السكز المزعوم فى بيت الحاكم ، ولكنى كرهت أن أطفى فرحة رئيس البعثة بعد أن حسب نفسه فى عداد الأثرياء . وسمعت بعد ذلك أن نبأ هذا الكشف السعيد قد حمل إلى القاهرة قبل وصول السكز إليها ، وأن مكتشفه قد حظوا بمجازة سنوية من الباشا ، وأنه مضى زمن طويل قبل أن يجرؤ خبير من خبراء الجواهر على مصارحة الباشا بأن الزمردة المزعومة ليست سوى قطعة من الزجاج . وكانت البعثة قد وجدتْها فى طبقة سميكة من الجبس بين جدران قديمة ، ولست أشك فى أن مصنع زجاج قديم كان يقوم على هذه البقعة يوماً ما . والجبال المحيطة بهذا المكان كثيرة الشجر ، ويحرق العبادة من سنطها قدراً كبيراً يصنعون منه الفحم البلدى ، ويحملونه إلى النيل فيشحنه التجار بالراكب إلى القاهرة . وتكثر فى هذه الجبال أعشاب الشيخ والروثة ، ومنها يصنعون أفضل أنواع

القلي أو السوداء ، كذلك يكثر الرمل في الوديان . لذلك كانت هذه البقعة مناسبة جداً لإقامة مصنع للزجاج ، ومن الثابت أن المصريين القدماء كانوا يستعملون الأواني الزجاجية ، وفي أنقاض مدنها جميعها شظايا من هذه الأواني مختلفة الأشكال والألوان ، بل إنهم لا بد حذقوا هذه الصناعة حذقاً عظيماً وحاولوا صناعة زجاج يقلد الأحجار الكريمة ، ففي أثناء إقامتي بأسنا كشف عن كثير من القطع الزجاجية الصغيرة في خرائب إدفو Apollinopolis Magna ، وكانت تزييناً متقناً للجمشت والياقوت .

وقبل الظهيرة دخلنا خليج الفجج (*) ، ومدخله سهل ومرساته واسعة . وقد أصيبت قارية المركب هذا الصباح بمطب من جراء جهل البحارة بالقيادة ، والحق أنك لا تجد أعقد ولا أفسد من هذه الطريقة التي يقودون بها هذه السفن الريفية ، فليس لأحد من الملاحين فيها عمل معين يختص به ، وكل حركة على السفينة تشيع فيها الفوضى والاضطراب ، وليس للرئيس سلطان حقيقى على رجاله ، فهم يفعلون ما بدا لهم دون احتفال بأوامره أو أوامر الربان . ولكن جبنهم الشديد يقلل من وقوع الأضرار التي يصح أن تنجم عن هذا الجهل ، فكلما هبت ريح طوى الملاح العربى قلوته وأرسى مركبه على البر وقبع هناك إلى أن تهدأ الريح . وإذا دنت السفينة من خليج قبل الظهر وكان هناك شك فى إمكان الوصول إلى الخليج التالى قبل المغرب بسبب حالة الريح ، بادروا بدخول الخليج الأول وأنفقوا بعد الظهر كله عاطلين ، فإنهم متى شدوا السفينة إلى البر بقوا حيث هم مهما تكن الريح مواتية .

والفجج مرسى مشهور على هذا البر ، وسرعان ما بدأنا سوقاً مع بعض البدو الذين أتونا بماء زلال . وتستمر الجبال محاذية للساحل بطوله على نحو أربعة أميال أو خمسة من البر ، ويرتفع البر شيئاً فشيئاً نحو سفوحها . والساحل رملى فيه طبقات طباشيرية كونها الصدف المتكلس ، وأينما تلفت وجدت الأصداف الكثيرة ، وقد

(*) هذا اسم عربى ، أما أسماء الخليجان التي مررنا بها إلى الآن فيشارية .

خيّل إلى أن كل ضرب منها اختصت به بقعة من الشاطئ . على أن بخليج الفجع
أشثاتاً من هذا الصدف ، لفت نظري منها السرمباق ، والصدف الأبيض الصغير
الذى يسمونه في القاهرة « الودع » ، وتستعمله نساء الفجر في الإنباء بالبحر ،
فيضربن بعضه ببعض وهن يذكرن اسم الشخص ويلحظن موقع الودع من
الأرض حين يقع .

١٢ يوليو - هبت علينا ريح مواتية ، ولكن افتقارنا إلى الماء أكرهنا
على دخول خليج عراقية قبل الظهر بكثير . وكان من عادتنا ألا نطلع في الصباح
إلا إذا ارتفعت الشمس في الأفق ارتفاعاً يتيح لنا رؤية المياه الضحلة والشعاب على
بمد كاف ، فإن عين الربان هي دليله الوحيد في أكثر هذه الخلجان المتشابكة .
وجلب العرب هذا المساء على الإبل والخير قدراً كبيراً من الماء استقوه من مستودع
لماء المطر موجود في الجبال على ثلاث ساعات أو أربع . والخليج كله من
الأصداف المتكلسة ، وهو مرفأ أمين للسفن الكبيرة . وفي هذا الموضع اشتبكت
في شجار عنيف مع بعض التجار السواكنية الذين لم يكفوا عن الإساءة جهدهم
إلى الزنوج الساكنين ، والذين أبوا أن يستمعوا إلى شيء من توسلاتي من أجلهم .
وعلى الرغم مما رأوا من الاحترام الذي عولمت به في سواكن فقد أسقطوني من
عيونهم لأنني لا أملك ثوباً جديداً ، ولأنهم ظنوني مسرقاً في عشرة هؤلاء
السود الصماليك على حد قولهم . وقد آزرني في جهودي للدفاع عن التكارنة
رجل من الأروام المسيحيين قدم معنا من سواكن ، وكانت صحبته مبعث
تسلية لي في الرحلة ، واسم الرجل « اسطافا » وهو من أهالي الجبل الأسود ،
والبهر صناعته . وكان قد زار إنجلترا قبل سنوات على مركب حربي بعثه
محمد علي باشا ليرجو الإذن له بالإبحار إلى البحر الأحمر بطريق رأس الرجاء الصالح ،
وأقام الرجل في بلاد الإنجليز عاماً كاملاً تعلم فيه شيئاً من لغتهم ، ولما عاد عينه
الباشا قبطاناً لمركب في البحر الأحمر . أما ذهابه إلى سواكن فلاسترداد بضعة مئات
من الريالات كان قد استدانها منه سواكني ، وكان الآن عائداً إلى جدة .
وقد خالني الرجل - كما خالني غيره من ركاب السفينة - شامياً ، وأخذ يحدثنى

في هريية ركيكة . وأضحكني كثيراً ما رواه عن أسفاره في أوروبا وعن مشاهداته في إنجلترا وعن عادات أهلها ، وكله هراء ظاهر وتلفيق مكشوف . أما معاملتي على ظهر المركب فلمست أرى فيها ما يدعو للشكوى إذا قارنتها بمعاملة غيري من الركاب ، وقد نفخت الرئيس بريال من هندي — وكان رجلاً من أهل جدة — فزاده هذا رغبة في توفير أسباب الراحة لي ، وكان الركاب من التجار يؤدي عن سفره ريالين .

١٣ يوليو — كانت الرياح معتدلة ، فبلغنا خليج تاضه في الثانية صباحاً مستميين بالماذيف ، وكثيراً ما كنا نلجأ إليها . وكانت هناك قرية للأمرار ملاصقة للبر . ولم تعرف عن هؤلاء البدو الأمانة أو الذمة ، لذلك وقفنا على مسافة كبيرة من البر . وسبح بمض البحارة إليه ليتفقوا مع شيخهم على الإتاوة التي يؤذيها المركب . وقد اضطرت — واضطر معي القبطان الروي — إلى أداء نصف كيله من الذرة فوق المبلغ المشروط ، بحجة أننا في خدمة الباشا ، وأنها لسنا عرباً كالباقيين . ثم رسونا على رمت صغير كان يسحب من البر بحجاب المركب . وقد أحسن البدو الذين احتشدوا حولنا معاملتنا ، أو قل إنهم تركونا وشأننا دون مضايقة . وهم ينتمون إلى عشيرة كورباد من أمهات عشائر الأمرار ، ويسكنون هنا في خيام من شعر الماعز الأسود كخيام عرب شبه الجزيرة . وجملة الخيام ثلاثون أو أربعون ، وخيمة الشيخ مضروبة إلى جوار قبر جده ، وكان رجلاً جليل القدر بين قومه ، لذلك شيدوا له قبراً من الحجر . وفي المساء أقبلت القطعان الكثيرة من الإبل والغنم والماعز تمدو إلى البر لتشرب من عيون تنبع وسط الشجر بقرب البحر ، وعدد العيون ست ، وماؤها كلها زعاق فيما خلا واحدة . وصوف هذه الغنم قصير رديء النوع ، أما شعر الماعز فطويل . وفي الجبل خزانات لمياه الأمطار ، ولكن البدو ألفوا ماء العيون ، لذلك لا يكفون أنفسهم مشقة جلب الماء العذب من بعيد ، ويستحيل الشاطئ — غير بعيد من الآبار — صخرياً جداً ، وتكسوه الأحجار الهشة الكبيرة ، ثم يرتفع فجأة صوب الجبل ، والصخور — على قدر ما أضعفني النظر — كلها من الجرانيت

الأشهب . وأنفقنا الصباح كله في المساومة على شراء اللبن ، فبعد أن شربت النوق حلبها أصحابها ووضعوا اللبن أمامها في أوعية كبيرة من السمار المجدول جدلاً رقيقاً كتلك التي يصفنها البرابرة جنوبي أسوان . وكنا قد جلبنا معنا قدراً من الذرة والتبغ - وهما خير ما يتعامل به الناس في هذا البر - فكان الرجل منا يضع بجوار كل وعاء ما يراه ثمناً مناسباً من الذرة أو التبغ ، ولكن البدوى منهم كان يقول بكل برود « كاك » (*) (أى امش) ويمضى في ذلك إلى أن يزيد الرجل التبغ أو الذرة إلى القدر الذى أضمره البدوى كاملاً غير منقوص ، فهو لا يقبل المساومة إطلاقاً . وقد وجد بعض التجار السواكنية والملاحين نساء لهم بهن صلة قديمة ، وبالرغم من أن الريس كان قد أمر الركاب أن يغودوا جميعاً إلى المركب بعد الغروب فقد ظل هؤلاء على البر ، وكنا نسمع غناءهم الصاخب طوال الليل . والنساء هنا سافرات بتمتعن بحرية واسعة . ولباس الرجال القميص المألوف من الدمور ، وسلاحهم الحراب والدرق ، ويحمل بعضهم السيوف . وأمتع الأشياء عندهم وأحبها شرب البوطة شأن النوبيين جميعاً . وقد يتعرضون لغارات الأهداء لكثرة ما يقتنون من ماشية . وبفد أهل ينبع من حين لآخر في مراكب صغيرة مسلحين بالبنادق فينهجون ماشية المنطقة كلها محتجين بأنهم يثأرون من الأمرار لأنهم قتلوا بعض بنى جلدتهم ممن تحطمت بهم سفينة على هذا البر .

١٤ يوليو - بينما كنا واقفين خارج الخليج كانت تدخله سفينة قادمة من جدة ، والسفن القاصدة منها إلى سواكن تعبر البحر عادة من هذه النقطة ثم تلتزم الساحل جنوباً حتى تبلغ نهاية رحلتها ، ونندر أن تعبر البحر رأساً إلى سواكن ما لم تكن الريح مواتية جداً . ولو أضعفتنا الريح لعبنا من هذا الخليج ، ولكنها كانت ريحاً جنوبية ، لذلك يمينا شطر جزيرة صغيرة على أميال

(*) تلك عادة بدو الشام أيضاً حين يبيعون خيلهم ، فيعرض المشتري الثمن الذى يبنى دفعه ، ويقول البائع عند كل عرض « حط » دون أن يذكر المبلغ الذى يريد ، حتى يصل المشتري إلى الرقيم الذى أضمره في نفسه .

من تباد ، وهناك دخلنا خليجاً جليلاً لثقب فيه هبوب ربح شمالية . واسم الجزيرة « جبل مكور » ، وسميت كذلك لأنها تسكاد أن تكون كلها جبلاً صخرياً واطئاً . ومكور مشتقة من كور بكور ، وهى فى لهجة بحارة اليمن العبور إلى البر المقابل^(١) . أو الإفلاع بفرض العبور . ويمبرون البحر من هذه الجزيرة لسبيين ، فوقوعها فى عرض أعلى من عرض جدة يتيح للسفن الإفادة من الرياح الشمالية إفادة تامة ، والمبر منها خلو من البرك والصخور الخفية التى تجعل الملاحة فى الليل محفوفة بالخطر . ويستغرق العبور عادة يومين بليلة .

وتفرقنا بين الأشجار القصيرة التى تزخر بها سواحل الجزيرة والتى ينمو بعضها حتى فى الماء ، ونشبه أوراقها أوراق الصبر^(٢) وخشبها هش قصم . ومحيط الجزيرة — على قدر ما تبين — يناهز أميالاً ثمانية ، وعلى جانبها الشمال والشرقى جزيرة أكبر منها كثيراً . وقد أردت التوغل فى داخل الجزيرة ، ولكننا أمرنا بأن نكون على أهبة الرحيل حال تنبهنا إذا تحولت الرياح شمالية . وصخور الجزيرة صخور ثانوية (رسوبية) يخالطها الطباشير ، وهى جرداء فيما عدا الساحل الذى ينمو عليه الشجر . وعلى برها الغربى مرسى آخر ولكنه أضيّق من الجنوبى الذى رست عليه سفينتنا . وتسكن الجزيرة نحو عشرين أسرة بشرية ، وقوام غذائهم السمك ، ولا يملكون من النعم والمأهز إلا ما ندر لأن الجبل شحيح الكلاء . وفى شمال الجزيرة بضعة آبار ، ولكن ماءها زعاق بعافه الجميع حتى أهل الجزيرة . وفى الشتاء يجدون ماء المطرين الصخور ، أما فى الصيف فيمبرون كل أسبوع إلى بر القارة على الطوف الذى يستخدمونه فى صيد السمك — ولا يبعد البر عنهم أكثر من ميل أو ميلين — فيستقون

(١) فيقولون « نحن كورنا البحر فى اليوم القلانى » أو « نحن كورنا من الجبل إلى جدة » . أما فى الأنحاء الشمالية من البحر الأحمر فيستعملون فى المعنى الثانى الفعل « دفع » فيقولون « نحن دفعنا من راس محمد إلى البر الغربى » .

الماء من عيون إلى الشمال من تبادا . ويلوح أنهم يمتدنون في غذائهم على السمك والمحار والبيض ، هذا إلى قليل من اللبن يأخذونه من غنمهم التي لا تزيد على الثلاثين عدداً . ويصيدون بالشباك والصنابير التي يشترونها من السفن السواكنية ، ويصنمون الدرق المدور والمربع من جلد صفيق يأخذونه من سمكة كبيرة لا علم لي بها ، وقطر الدرق منها نحو قدم ونصف ، وهي من القوة والثانة بحيث تثبت لضربة الرمح . ويجمعون من الجبال في هذا الفصل عدداً هائلاً من بيض طائر من فصيلة النورس (*) كثير الانتشار في هذه البقاع . وأقبل إلى الخليج نحو اثني عشر رجلاً وامرأة يسوقون بعض الغنم ويعرضون للبيع شيئاً من اللبن والبيض . وكانوا يكومون صفار البيض المسلوق على درقهم كواماً ويحملونه على رؤوسهم . وقيل لي إنهم يحفظونه الأسابيع على هذه الحال . وكان رجالهم ونساؤهم نحافاً مهزولين ، أما العربية فيجهلون بها . وكنت أريد المقايضة على شيء من اللبن ، ولكن مظهرى روع النساء ترويعاً نفرهن من أى معاملة معى . وكانوا كلهم يتلهفون على الذرة التي لاسبيل للحصول عليها إلا من السفن الراسية في برهم ، ولكن غنمهم كانت أعز عليهم وأغلى ، لذلك أبوا التفريط فيها برغم ما عرضنا عليهم من ثمن مجز .

وتبدأ أملاك البشارية من النقطة المجاورة للجزيرة من بر القارة ، وتمتد إلى الشمال رحلة ثمانية أيام إلى حدود بلاد البدو المباشدة . ويتمرض أهل مكور لغارات الأمراتائهم من تبادا إذا نشبت الحرب بين القبيلتين ، وفي هذه الحالة يلجأون إلى بر القارة . ويبدو أن أهم أهدافهم في سكنى الجزيرة هو الاتجار مع السفن التي ترسو عليها في طريقها من جدة إلى سواكن أو العكس . وقيل لي إنهم يمدون الجزيرة بملسكا لهم ، وأنه غير مسموح لسواكن من البشاريين بسكنائها . وقد ظن بعضهم أنها « جزيرة الزمرد » ، ولكن ملاحى العرب يطلقون هذا الاسم على بضع جزائر تقع إلى الشمال بين هذه الجزيرة وبين القصير .

وقيل لى فى الجزيرة إن على رحلة يوم آخر إلى الشمال — أى من عشرين ميلاً إلى خمسة وعشرين ، وهو معدل ما تقطعه هذه المراكب فى اليوم — خليجاً كبيراً يتوغل فى الأرض ، واسم الخليج « مرسى دنقلة » وعلى مدخله جزيرة . ويشتهر الخليج بصيد اللؤلؤ ، وقد ذهب إليه مرة قبطان مركبنا « الرئيس سيد مصطفى الجداوى » ، وعاد منه بكمية طيبة من اللؤلؤ المتوسط الجودة أخذها منه الشريف غالب بعد ذلك فى جدة . وذكر لى الرجل أن قاع البحر فى هذا الخليج خافل بأصداف اللؤلؤ ، وأن صيدها ميسور لقلة غور الماء . على أن القوم لا يرتادونه اليوم لصيد اللؤلؤ ، فهم من جهة يخشون غدر البشاريين الذين يسكنون هذا المرسى ، ومن جهة أخرى — وهو السبب الأهم — يخاف أمجباب السفن أن يشاع عنهم أنهم وجدوا كنوزاً من اللآلى فيسترعى ذلك انتباه حكومة جدة فوراً . وقد أكدوا لى غير مرة أن ربابية السفن فى سواكن والقصير لا خبرة لهم إطلاقاً بالملاحة على الساحل الواقع إلى الشمال من جبل مكور فى طريقك إلى القصير ، وأن هذا الساحل لا يعرفه من ملاحى جدة إلا نفر قليل من قبيلة عرب الزبيدية ، وعلمهم به ضئيل . وليس بين القصير وسواكن تجارة ولا مواصلات مباشرة ، وندر من أهل البحر الأحمر من يجرؤ على الملاحة فى هذا الشطر من الساحل أو فى الشطر الشمالى الواقع بين القصير والسويس . وقد يرسو عرب الزبيدية دون غيرهم على مرفأ هلبة ، وهو على رحلة أربعة أيام من مرسى دنقلة ، وعلى رحلة خمسة أيام من جبل مكور . ويقال إن اللؤلؤ يوجد على طول هذا الساحل حتى مصوع جنوباً ، ولكنه أوفر ما يكون فى مرسى دنقلة .

وقد اضطررنا أن نصلح ثقباً فى السفينة أحدثه ارتطامها أمس بصخر مرجانى . كذلك تم توزيع الشحنة والركاب توزيعاً يترك للملاحين متسماً بقيادة السفينة فى رحلتها عبر البحر ، وهى رحلة لا يؤديها العرب إلا جزهين خائفين مستغيثين بالنبي والرسول والأولياء جميعاً .

١٥ يوليو — هبت صبيحة اليوم ريح مواتية فخرجنا الى عرض البحر ، وحىء ببوصلة من مخزن أخشاب السفينة ، ولكن ذلك لم يكن إلا إجراء شكلياً ،

فقد اختلف الريس والزبان على الجهة التي يقع فيها الشمال بالضبط . وأقبل المساء فاشتدت الرياح ، واستبدل الملاحون بالشرع الكبير شراعاً أصغر منه . وأرخى الليل علينا سدوله فكان يريق الماء حين يهتز يثير دهشة الزوج وعجبهم ، وعبثاً حاولوا فهم علة هذه الظاهرة من البحارة . وأنفقنا ليلة باردة مضنية ، فقد أعوزنا المكان الكافي للنوم ، وبدأ على جوائى الصحراء الشجعان شدة الخوف والغزع في عرض البحر ، فكان ذلك مبعث تسلية للسوا كنية .

١٦ يوليو — طالعنا في الصباح الباكر ساحل بلاد العرب ، واتضح الآن جهل الزبان، فبدل أن نجد أنفسنا تجاه ساحل جدة — حيث كان ينبغي لو أنه استرشد بإبرة الملاحين في سيره — وجدنا أنفسنا جنوبها بخمسين ميلاً على الأقل . ودخلنا خليجاً صغيراً والرياح تملأ شراعنا ، وكاد يفرقنا إعصار هب آتئذ . وجدنا الشاطئ بقلماً لا آبار فيه ولا عيون إلى مسافة كبيرة ، ولم نر فيه أثراً للبدو . واشتد كربنا لقلة الماء ؛ فقد أوشك أن يفرغ ما أخذناه منه أخيراً في هراقية ، ولم يبق في قرب التكارنة قطرة . وكانت الرياح مما كسدة ولا أمل لنا في بلوغ جدة في أقل من يومين . وفي المساء ترك أكثر التكارنة السفينة قاصدين جدة سيراً على الأقدام ، فقد أوههم البحارة أنها أقرب كثيراً مما كانت ، وأشاروا لهم على جبل يبعد عن مرسانا اثني عشر ميلاً قائلين إن به عين ماء . ولكن الجبل -- كما علمت فيما بعد -- خلو من العيون، ولم يكن هدف البحارة من هذا التضليل إلا التخلص من الحجاج خشية أن يكرههم العطش آخر الأمر على أخذ ماء البحارة غصباً (*). وقل أن تصل جدة سفن حجيج سوا كنية لم يقاس فيها الركاب عذاب الظمأ ، فهم يحشدرن فيها حشداً يستحيل عليهم معه أن يأخذوا من الماء أكثر من زاد أيام ثلاثة ما لم يضحوا بغيره من أسباب الراحة ، وهي تضحية لا يرتضونها . وجبل مكور الذي تقلع منه السفن عابرة للبر الغربي لا ماء

(*) قضى هؤلاء التكارنة البائسون يومين ونصفاً قبل أن يبلغوا جدة ، ومات منهم في الطريق ظمأً أمراًه وغلماً ، ووصل الباقون في حالة من الإعياء يرثى لها ، وقد شكوا من كذب البحارة مر الشكوى .

فيه إطلاقاً ، وقد لقيت بعد ذلك زنجاً في جدة لم يذوقوا الماء في هذه الرحلة أربعة أيام بأكلها . واضطرونا إلى البقاء راسين هنا الى الغد . والأصداف في هذا البر أقل منها في سابقه .

١٧ يولية — أقلعنا حوالى الظهر تمحونا ريح جنوبية ، وعند الغروب رست السفينة على صخر مرجاني غير بعيد من الساحل . وقد عرا الشمس هذا الصباح كسوف يكاد يكون كلياً ، واشتد خوف اللاحين ومن بقي بالركب من التكاثر من هذه الظلمة الغريبة التي لفتهم . وجريا على السنة ركب كل مسلم بالسفينة ركعتين وصلى « صلاة الكسفة » ، وبمدها راحوا يقرعون الأباريق والسيوف والدرق والملاعق بعضها ببعض طوال الكسوف .

١٨ يوليو — ركبت الريح هذا الصباح ، واضطر البحارة لاستخدام المجاذيف ، وطال تجديفهم حتى كلت أيديهم . ودخلنا حوالى الظهر مرفأً مقابل ضريح شيخ فوه قبة ، واسم الشيخ عمرو ، ولم يكن بالركب قطرة ماء . وقيل إن بالجبل وراء البر بئر ماء ، ولكن أحداً في السفينة لم يعرف موقع البئر على التحقيق . ومع أننا كنا مشرفين على جدة بحيث نسمع أصوات مدافعها في المساء فإنه كان من المحتمل أن نظل في السفينة أياماً أخرى نتصور فيها ظمأً . لذلك طلبت نقلى إلى البر على طوف كان الرئيس قد ابتاعه من تباده ، وتبعنى الركب الروم وسوا كنيان وعبيدها . وسارت جماعتنا الليل كله على البر ، وهو أرض قاحلة تكسوها طبقة ملحة ، حتى لقينا الدرب الرئيسى الذى يحاذى الساحل حتى اليمن . وعلى نحو ساعة من جدة بلغنا نجماً لبعض البدو ، فشربنا فيه وجددنا نشاطنا ، ثم دخلنا المدينة سالمين موفورين . وفى صباح ١٩ يوليو هربنا من معنات عبيد إلى جدة ، لأن كل عبيد نزل المدينة من مركب يؤدي عنه صاحبه ربالاً . أما السفينة فقد وصلت فى اليوم التالى ، وهو ٢٠ يوليو ١٨١٤ .

فهرس الاعلام

آرچی ٢٤٥
 أرو ٥٠
 أرتینوق ٧٨
 أرقو ١٢، ٥١، ٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٢،
 ١٩٤، ٨٢
 أرقین ٧٧
 أرمه ٣٢
 أرمینیا ٢٣١
 أرمیت ٢١٩
 أرواد ٢٣١
 أزمیر ٢٣١، ٢٥٣
 أسبانيا ٢٢٣
 إسطافا ٢٧٣
 إسكر ٧٤
 إسناء ٣، ٤، ٨، ١١، ١٢، ١٣، ١٤،
 ١٩، ٢٠، ٢٦، ٤٥، ٤٧، ٥٢،
 ٥٣، ٨٨، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠،
 ١٢٦، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧،
 ١٤١، ١٤٥، ١٦٦، ٢١٩، ٢٥٤،
 ٣٢٥، ٣٥٠، ٣٧١
 أسوان ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ١١، ١٢،
 ١٥، ١٦، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٦، ٢٧،
 ٣١، ٣٧، ٣٩، ٤٢، ٤٧، ٤٨، ٥٨،
 ٦٨، ٨٦، ٨٧، ٩٩، ١١١، ١١٤،
 ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٦، ١٢٨،
 ١٢٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٠،
 ١٤١، ١٤٢، ١٤٨، ١٦٩، ٢٢٢،
 ٣٤٤، ٣٥٦، ٣٧٥
 أسیوط ١٩، ٢١، ٢٦، ٣٤، ٣٦، ٤٥،
 ٨٢، ٩٩، ١١٩، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٧،
 ١٤١، ١٤٥، ١٦٦، ٢١٨، ٢٣٢،
 ٢٣٣، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٧١، ٤

(١)

ابراهيم (بن محمد علی) ١١، ١٢، ١٣، ٢٩،
 ١١١، ١١٩، ١٢٠، ١٤٥، ١٩٤،
 ٢٧٧، ٣٥٩، ٣٥٨
 ابراهيم بك الجزائرلى ١٥
 ابراهيم بك الكبير (زعيم الممالیک) ٥٣، ١٤٧
 ابراهيم الشامى ١٤٥، ٣٥٩
 ابراهيم ٣، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٦، ٢٩، ٣٠،
 ٣١، ٣٤، ٤٨، ١١٧، ١١٨، ١٢١،
 ١٢٨، ١٤٧، ١٧١
 أبو أهول ٨٣، ٨٨، ٩٢، ١٠٢، ١٠٩،
 أبو السعد (محمد) ٢٧، ٨٤، ٨٥
 أبو بروش ١٥٢
 أبو حجل ١٩٢
 أبو حراز ٢١٧، ٢٤٣، ٢٤٥
 أبو سمیل ٣٤، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٧،
 ٩٥، ١٠٦، ١١٣
 أبو ضی ١٦٠
 أبو عجاج ١٣٩
 أبو کبیر ١٣٩
 أبو مسلم ١٦٢
 أبو هور ١٠، ١١، ٢٣، ٩٩
 أبیس ٨٣
 أتیری ٤١، ٤٢، ٧٢
 إتیویا ٢٨٧، ٢٩٨
 إخمیم ٢١٩
 أدا ٣٤، ٧٨، ٣٠٥
 إدفو ١٣، ٣٤، ٩٢، ١٠٢، ٢١٩، ٣٧١
 أدندان ٣٥، ٤٦، ٧٨
 إدریس قساح ١٧٠، ١٧٩، ١٨١، ١٩٢،
 ١٩٩

أولى ٥٩

لميزيس ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٠ ،
١٠٨ ،

(ب)

باجة ٢٥٢
الباقرمي ٢٦٦ ، ٢٤٩
بالاس ٨١
البجة ١١٥ ، ٣٣٥
بحيم ١٩٢
البديرية ٥٩
البحر الميت ٣٤ ، ١٢٢
بحيرة ١٥١
براون ٢٧١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩
الربا ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٠٤

بربر ١٧ ، ٢٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٦١ ،
١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ،
٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ،
٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣٢٧ ، ٣٥٧ ،
٢٧٤

برجة ٥٦

برديس ١٦٦
برغوث (الشيخ) ٣٦٨
برقو ٤٠ ، ٢٥١ ، ٢٣٤ ، ٣٥٥ ، ٣٢٦
بركة دخان ١٤٣
بركل ٥٩

بروس ١٤ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٥٩ ، ١٥١ ، ١٦٥ ،
١٦٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢٧٠ ،
٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٣٥١

٣٥٠

أشنته ٦٨
أشكيت ٣٦ ، ٧٧
أفار ٥٨
أقايت ١٣٤ ، ١٤١
أكسوم ٢٣٩ ، ٣٢٣
أكمة ٤٤ ، ٧٠ ، ١٢٠
الأيض ٢٤٦ ، ٢٤٧
الأردن ١١
الأرياب ١٣٠ ، ١٦٠ ، ١٨٦
الإسكندرية ٤٩ ، ٢٥٣
القنن ٤ ، ٧٢ ، ١١٥ ، ٢٢٦
الاقس ٨٨ ، ١٠٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
الأمارا (الأمهرة)
٢٤١ ، ٢٥٤

الأمركاب ٢٣ ، ١٠٨ ، ١١١
الأمرار ١٣٠ ، ٣٤٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٧
الأناضول ١٤٥
أم الحبال ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣

أم برد ١٥٢
أميقول ٤٢ ، ٥٨ ، ٧١
أم حريذل ١٤٤
أم داود ٢٩٥ ، ٢٩٦
أم دوم ١٥٧
أم ركة ١٣٨
أم شريف ٣٨ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٧٢

أم على ٣١٢

أم قات ١٥٠ ، ١٥٧

أم قناصر ٧١

أمقلاب ١٢١

أنس الوجود ٦

أنطونينوس ٩٥

أواريك ١٦٣ ، ١٦٤

أوزيريس ٢٠ ، ٢٥ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٤

بيت الوالى ١٠٥
بيوضه ٢٧ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٦

(ت)

ناضة ٢٧٤

الثاكة ١٥٨ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ،
٢٧٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ،
٣٠١ ، ٢٧٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،
٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ،
٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦

٣٦٢ ، ٣٦٣

التركان ٢٩٠

تركيا ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٣٥ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦

تريستا ٢٣٥

تلميس ١٠٥ ، ١٠٦

تمبكتو ٣٢٢

تمساح ١٧١

تنقسي ٥٩

تنكل ٥٧٨

توشكى ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٨٣

توماس ٨٣ ، ٨٤

تونس ٢٦٧

تيفه (طافية) ٩ ، ١٠

تيفون ٢٠

تينارى ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٦٩

التيه ١٥٥ ، ١٦١ ، ٢٤٦

(ج)

جامع ٩ ، ٥٥

الجبرت ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٢٥

جبيل أم على ٢١٢ ، ٢١٤

جدة ١٥ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٦١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ،

٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،

٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٤

بستان ٣١ ، ٨٣

البشارية — البشاريون ٣ ، ١٢ ، ٢١ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٩ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ،

١٨١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،

٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٧

البشناق ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٩ ، ١١٧

البطاحين ٣٦٧

البطراء ٢١ ، ٢٩ ، ١٢٧ ، ٢٢٥

بطران ١٣٠

بطن الحجر ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١١٧

بغداد ٢٣ ، ١٠٦ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ٢٥٣

البغدادلية ٢٣

بلاية ٣٤ ، ٣٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١١٣

الباميس ٣٥ ، ٧٤ ، ١٠٨

بلنكو ٤١

البينات (عتبة) ٤١ ، ٧٢

بندا ٣٥٢ ، ٥٤

البندقية ٢٣١

بنيان ٩٥

بنو العباس ١٧٩

بنوكرب ٢٩٣ ، ٢٩٥

بنى سويف ١١٧

بوركهارت ٣٥ ، ١٧٣

بورنو ٥٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ ،

٢٨٥ ، ٢٢٢

بوهيميا ٢٣٤

بيان ١٤٤

حديد ١١١
الحديدية ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨
حسن بك (والى اسنا) ٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦
حسن قوسى ١١٧ ، ١١٨
حسن كاشف ٤ ، ٥٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٤٤ ،
٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣٥
حسين العلوان ١٣٨
حسين كاشف ٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ١٢٢ ، ٣٥٩ ،
الحصاة ١٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
الحصاية ٨٦ ، ٩٥ ، ١١٣
حاب ١٠٦ ، ١٥٦ ، ٣٤١
حلفا ١٠ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤١ ،
٥٨ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٥ ،
١٠٦ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٢٢
الحفاية ٢٤٥
حصرموت ٣٤٣
الحلقه ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٣
حليب ١٦١
حداب ٥٩ ، ١٣٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣
حزرة ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
الحديدية ٣٦٨
الحمدية ٣٦٧
حمدوراب ١٣٠
حمودة ٢٠٣
حميداب ١٥١ ، ٢٩٠
حميدة ٤٩
حواية ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣
حوران ٢٧٠
الحوف ١٩٥
حى ٥٨

٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
جرف حسين ٩٨
الجزيرة ٢١
الطافرة ١١٧
جمرة ١١١
الجليليون ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٣٦٨
٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤
٢٢٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٨٣
جباى — جى ٣٥ ، ٧٤
جنوة ٢٣٥
جهينة ٢٥١
الجوايرة ١١٧
جورجيا ٦٢
جيانا ٣٦٨

(ح)

حالك ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٢
حانك الزبير ٥٩
حباتر ٤ ، ١٤٥
الحبشة ٦٢ ، ١٠٥ ، ١٣٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،
١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩
٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٣
٣٣٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٠
حيون ٢٣٢
الحجاز ١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ ،
٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٧٤ ، ٣١٣ ، ٣٤١ ،
٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ،
٣٦١ ، ٣٦٢
الحدارة (الحضارة — الحضارية) ٢٤٨ ،
٢٩٧ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ،
٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١

حماقي ١٣
حيثاني ٥٨
حيط المعجور ٦
حيبور ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٦٩
(خ)
خراب ١٧
خرطوم ١٠٦
الخطارة ١٣٩
الخالسة ١٣٠
الخنديق ٥٦ ، ٦١ ، ٦٢
خورسنگ ٤٣
(د)
دار حميده ٦٨
دار صليح ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
٢٢٧ ، ٢٦٦
دار موت ١٠ ، ١٠٦
دال ١٠٦
الدامر ٥٩ ، ١٢٩ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٩٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
١٢٩
داود كاشف ٨ ، ٩ ، ١٢٠
داود كرا ٤٤ ، ٤٣ ، ٦٩
دثيب ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٥
ديروسه ٣٧ ، ٧٧
دبقورا ١١
ديموكايب ١٦٠
ديود — ديوت ٥ ، ٧ ، ١٠٠ ، ١٠٨
١١١ ، ١١٣ ، ١١٤
ديبره ٣٦ ، ٧٧
دجورتاج ٣٦٧
الدر ٤٠ ، ٥٠ ، ٨٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ،
١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ١٠٣
١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٢٩ ، ٢٧٧
دراو ٩٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ،
١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ،
١٩٩ ، ٢٣٥ ، ٣٥٦
دفار ٥٨
الدكة ١٣ ، ٤٨ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٤
دلقو ٥٦ ، ٥٩
دمحيت ١٤٢
دمشق ٢٨٦ ، ١٤٢ ، ١٥٦ ، ٢٧٠ ، ٣٥٣ ،
دندرة ٢١ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٦٨
الدندر ٣١٤
دنقلة ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٣ ، ٦٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ،
١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٤٣ ، ١٧١ ، ١٧٧ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦ ،
٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٣١٢ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠
دمحيت ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ٢٣ ،
١٠٨ ، ١٤٢
دوا ٢١٢
دوشة ٤٢ ، ٧١
ديزبه ٥
دينون ٦ ، ٩٢ ، ١١٦ ، ١٢٦ ،
ديوان ٨٦

سلاسى ٢٣٩ .
 السليلاب ١٣٠ .
 سليم الفانج ٣٠ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ١١٧ ، ٣٤٤
 سليم بك الطويل ١٩٤
 ساياني ٦٠
 سليمة ٤٥
 سليمان كاشف ١٨
 سميت ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٩٧ .
 سمنه ٧٢ ، ٧٨ ، ١١٣ .
 سنار ٤ ، ٢٠ ، ٣٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٣٢٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ .
 سنقارى ١٧ ، ٨٧ .
 سنكى ٧٠
 سهداب ١١١
 سواكن ٢٨ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٨ ،
 ١٦٦ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧

« ر »

راس الرما الصالح ٣٧٣
 راس القيل ٢١٢ ، ٢٤٠ ، ٢٧٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ،
 راس محمد ٣٦٨ ، ٣٧٦
 راس الوادى ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
 الرباطاب ١٣٣ ، ١٨٨ ، ١٩٢
 رشيد ١٢
 رفاعه ٢٥١
 الرمله ٢٢٨
 روزنى ٤٧
 الريقه ٨٦ ، ٨٧

(ز)

زاوية الدير ٢٥٥
 الزبير ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢
 الزمرد (جزيرة) ٣٧٧
 زنانه ١١٧
 زواره ٥٩
 زينانيب ١٦٠

(س)

ساق الجبل ٧ ، ٩ ، ١١٤
 السبوع ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٦٩ ، ٨٧ ، ١١٤
 ست الحاجة ٣٩ .
 سمرس ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٧٤
 سمركانو ٣٥ ، ٦٩
 سمره ٣٦ ، ٧٧ ، ١١٧
 سمود ٢٥٧ ، ٢٤٧ ، ٣٥٩ .
 سقولو ٣٠٣ .
 سقوى ٣٧ ، ٧٦ .
 سكوت ٥ ، ١٢ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
 ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٢ ،
 ٨٤ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ١٢٧ .

الشلال ٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ،
٥٨٤٥٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ١١٩ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٧ ، ١٨١ ،
١٤٠ ، ٨٨

الشالك ٢٢٦ ، ٢٤١ .

شتتيراب ٣٣٧ .

شندى ٣٢ ، ٦٢ ، ١٤٦ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ،
١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ،
٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ،
٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ،
٣٥٨ ، ٣٦٩ .

شنگره ٣٣٧ .

شاهين بك ١٢

شيمة الواح ٧ ، ١١٤ .

(ص)

صاى ٣٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥٢ ، ٦٨ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٤

صليب ٦٧ ، ٢٩٩

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ،
٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٧٩ .

سورات ٩٦ ، ٢٤٨ .

سولت ٤٢ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ١١٣ ،
سولة ٧٥

السويس ١٤٥ ، ١٦٦ ، ٢٤٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٣٧٨ ،
٣٤٧ .

سويسرا ٣٥٣

صياله ٨ ، ٨٩

سيناء ٦ ، ١٦ ، ٢٤٦ .

(ش)

شادلى (الشيخ) ١٧١ .

الشام ١٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ١١٧ ، ١٦٦ ، ٢١٨ ،
٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ،
٣٢٨ .

شاهر ٣٤٣ .

الشايقبة ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ،
٦٢ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٧١ ،
١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ،
٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .

الشب ٢٧ ، ١٦٥ .

شباك ٣٠ ، ٣١ .

شقره ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٩٢ ، ٢٧٣ ، ١٤٧ ، ١٥٨ .

الشقيق ١٠

شقه ١٧ ، ٨٦

الشكرية ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨ ،
٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٠ .

صفحة ١٥٦

صنماء ٣٦٢

الصومال ٣٥١

(ض)

ضرار ١٥ ، ٩١

الضباينة ٣١٤

(ط)

طافية (تيفة) ٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١

١١٤

الطائف ٣٦٢

طبل بن الزبير ٦٢

طرفاوى ١٥٥ ، ١٥٦

الطواشى (محمد) ١٥١

طوكر ٣٥٥

الطور ٢٤٦

طيبة ٨٣ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ٢١٢

(ع)

عامور ١٦٢

عافية ٢٨٣

العابدة ٣ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٥٨ ، ١٣٦ ، ١٣٨

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٣

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٨

١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،

٢٣٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣

٢٩٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٧

عبد الرحمن بك المنفوخ ١٩٤

عبد الله المحذوب ٢٠٥

عبد الله بن أمييد ٣٨

عبرى ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٨

عبدون ٨ ، ١١١

عبكة ٣٨

عتباى ١٦٩ ، ١٩٤

عثمان بك بهنس ١٥

عثمان بك حسن ١٤٧

عجور ٦

عدلان ٢١٥

عدلاناب ٦٠

عدى ٣٢٩

العراق ١١٧

عراقية ٣٧٣ ، ٣٧٩

العرب (وادى) ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٤

عرباى النفاى ٣٣٥

عرفات ١٣٦

عسويت ٣٣٥ ، ٣٣٦

عسير ٣٣٦

عشرا ١٨

العثاباب ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٩٤

عطار ٣٨٠

عطيره ٦٢ ، ١٠٥ ، ٢٥٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،

٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،

٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨

الطلود ١٣٣

عطوانى ١٢٩

عفتو ٢٥٠ ، ٢٦٦

عكاشة ٤٤

علاقى ١٤ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠

علبة ١٦٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

علوان ١٤٦

على البرناوى ٢٨٥

العاليقات ١٦ ، ١٧ ، ٢٤

عمارة ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ١١٣

عمراب ٦٠ ، ١٣٠

عمران ٣١٤ ، ٣١٥

عمدا ٨٦

الفويخ ، ٦١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ،
فيلة ٦ ، ١٥ ، ٤٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٥

(ق)

القاش ٣٠٣
القاهرة ١٥ ، ١٧ ، ٢٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٨٣ ،
٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٧١ ، ٢٦١ ، ٢٢٧

قبضة ٤١
قباريق ٣١٥
قب الحيل ١٥٥
قباني ٢١١
قبة الهواء ١١٥
قبقبة ١٦٠
قوبق ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٩
قتقو ٦٩
قتة ٢٨ ، ٨٣
القدس ٢٣٢ ، ٢٣٤
قرناس ٩ ، ١٠٨ ، ١١٤
القراريش ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٤ ،
٦٨ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨
قرشة ١١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
١١٧ ، ١٢٢
قرى ٥٩
قريش ٥٥
قبطل ٣٥ ، ٤٦ ، ٧٨
القسطنطينية ١٧ ، ١٧٠ ، ٢٥٣ ، ٢٨٦ ،
٣٤٥
تقط ١٣٤
القصير ١٢٨ ، ١٦٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،
٢٧٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ،
٣٧٠ ، ٣٧٨

عون اللاب ١٢١
عونية ٥٩ ، ٦٠

(غ)

غالب (الشريف) ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠
غدير ١٤٩
غردفوى ٢٢٧ ، ٣٥٠
غربة ١١٧
غزة ٢٣٢
الغز ١٢١
غندار ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٣
غمهتاب ١٣٠
الغور ١١
غوشاني ٥٩

(ف)

فاضل ٢٢٧
فالشيا ٢٨ ، ٣٦٠
فتقو ٢٤٢
الفجع ٣٧٢ ، ٣٧٣
الفجارة ٣١٥
الفرات ٢١ ، ١٦٨
فرتيت ٢٥٢ ، ٢٥٣
فرس ٣٥ ، ٧٨
فرشوط ١٤١ ، ١٦٧
فرعون ١٠٣
فرقندى ٣٢ ، ٨٣
فركة ٣٥ ، ٤٦ ، ٦٨
فرمكة ٧١
فرنسا ٢٤٦
فريق ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٦
فزان ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨٥ ، ٣٢٢ ،
فلسطين ١١ ، ١٤ ، ٢٢٨ ،
قاوونسا ٢٣٣
قولنى ١٠

كلايشة ١٠ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١١٣	قملة ٩
كشمتة ١٢ ، ٩٥ ، ١٢٢	قنا ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ١٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
كنات ٥٨	٢٤٤ ، ٢٥١
الكنوز ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٨٨ ، ١٠٨ ،	ققرات ٢٩٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤١
١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ١٢١ ، ١١٧ ، ١١٦	القوز ١٦ ، ٢٣ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٤٦ ،
١٧١	١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٤٨ ، ٢٩٩ ،
كنيسة ٤٧ .	٣١٧ .
كويان ١٣	قوبق ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٩
الكوالة ٢١٨ ، ٣٦٨	قوز الفونج ١٩٩
كوي ٢١٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٢٢ .	قوز رجب ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ،
كوباد ٣٧٤	٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ .
كوبانية ٢٧	قوس ٥٨ ، ١٤١ ، ٢٥١
كوزق ٢٥٠	القيف ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
كوع ١٥٦	٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
كوك ٥٦ ، ١٠٦	٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ .
كيان ججا ٣٥	الكتاب ١٣ ، ٩٤
(ل)	كانسينا ٤٠
لاموله ٤٣ ، ٧١ ، ١٥٧	كاسنجر ٩٩
لبنان ٣٣٤	الكاشف ٣١ ، ٤٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٧ ،
لندن ١٠٦	الكتابيش ٥٨
لنقاي ٣٠٤ ، ٣٥٥	الكتابوشية ٢٨٤
لورنس ١١٦	كرار ١٩٤
لى ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٩٧	كردفان ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
ليون ٧٣٣	٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ،
(م)	٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،
مار جرجس ٣٤	٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
مارب ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤	٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ،
المالكى ٨٧	٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ،
ماما ٦٩	٣٤٠ .
المتسلم ١٩٧	كرسكو ١٧ ، ١٨ ، ٨٨ .
مجدرة ٤٧	كرك ١٢٧
المجنوب ٢٠٥	كركر ٩٥
المخرقة ١٥ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١١٣	الكرونك ٢٤ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٣ ،
المحس ٥ ، ٧ ، ١٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٧ ،	كرو ٥٩
٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ،	كريب ٥٩
٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ،	

المقریزی ٥
مكره ٤٧
مكة ١٢٨، ١٢٩، ٢٠٦، ٢٢٦، ٢٣٩ ،
٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ،
٣١٠ ، ٣٢١ ، ٣٤٦
مكور ٣٦٧، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ،
الملكئاب ١٢٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨
منان ٣١٥
النیا ٢٣ .
مندیس (پریابوس) ٢٥ ، ٧٣
منصور ١٨٠
منف ٢١١
منقلوط ٢٣٣
موسی ٢٩
المویلج ١٤٢
میت ٣٦١

(ن)

نابة ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٩
النافعاب ٢١٥
نیللة ١٦٥
نجد ١١٧
النجم ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
١٩٣
النخیرہ ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٨٢
النصرلاب ١٦ ، ٢٣ ، ٨٨
النقاب ٢٩٥
نعمۃ ١٦
نعم ١٦٣ ، ١٩٣ ، ١٩٣ ، ٣٥٦
نقارة ٤٠
النقیب ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧
نمر ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢٢١
النمراب ٢١٥
نواباب ٨٩
نواریک ١٥٤
النوبانای ٣٥

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٦٩ ، ٨٤ ، ١٠٦ ، ١١٨ ، ١٢٣ ،
١٢٤ ، ١٧٧ ، ٢٥٠ ، ٢٩٩
الجلۃ الکبری ١٧٤ ، ٢٢٣
محمد علی ٣ ، ١١٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ٤٧ ، ٥٣ ،
٥٧ ، ٦٢ ، ١٤ ، ١١٧ ، ١٤٥ ،
١٩٤ ، ٢٣٩ ، ٢٥٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
٣٦٢ ، ٣٧١
محمد کاشف ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ١١٩ ،
محمد المدلانی ٦١ ، ٦٢
مدراس ٢٤٨
مدوراب ١٣٠
مرسی ذقلة ٣٧٨
مرشد ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٧٥
المرۃ ١٤٩
مروا ٩٩ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
مرو ١٤٣
مروی ٣٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٠٩
مریس ١١١
مریم ١١ ، ٩٨
مشو ٥٦
مصمص ٨٣
مصوع ٦٢ ، ١٨٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ،
٣٢٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ،
٣٦٢ ، ٣٦٨
المضیق ١٦ ، ١٧ ، ٨٨
معازة ١٢٩ ، ٢٧٣
معاویة ١١٥
معیز ٣٣٦
مقرات ١٧ ، ١٢٩ ، ٥٩ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ،
١٧٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤
مقرن ١٨٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ،
٢٩٣ .

هوسا ٢٦٦ .	نور الدين ٢٠٢
(و)	نوردن ٦ ، ١٥ ، ٣٤ ، ٨٦
الواحة الكبرى ٣٦ ، ٥٦ ، ٨٢	نورى ٥٦ ، ٥٩
وادي الحار ١٦٨	(ه)
واو ٣٥ ، ٥٠ ، ٦٨	الهاشمى ١٩٥
ود عجيب ٢١٤ ، ٢٠٠	هابو ٢٦٧
وسطه ٥٩	الهندوة ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢
ونس ٥	٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢
الوهايون ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٢	٣١٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
وقات ٣١٥	٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
(ى)	٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٩٣ .
يافا ١٦٨ ، ٢٣٢	هرمونتيس (أرمنت) ٩٣
يك ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩	هزربة ١٤٤
الين ٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٧٤ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ ،	هل ١٠٦
٣٨٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣٢٣ ، ٣٤٣ ،	هيام ١٨
٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠	الهند ٢٢٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
ينبع ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٣٥٢	هنداو ١٠٨
	هورس ٢٠ ، ٩٨

تصويب الأخطاء الطباعة

نورد الصواب وحده فيما يلي :

صفحة	سطر	صفحة	سطر
١٢	١٦	١٤٣	٤
١٥	٨	١٤٧	١٦
٢٤	١٨	١٥٢	١
٢٦	٤	١٧	١٧
٢٩	١٦	١٥٥	٢١
٣٢	٣ الهامش	١٥٦	٢٥
٣٣	١٩	١٥٨	٥
٣٥	٧ الهامش	١٦٠	١٦
٣٨	١	١٧٨	١٠
٤٧	١٢	١٨٢	١١
٥٣	٢	١٨٧	٢٤
٧٠	١٩	١٩٢	٢٠
٨٢	١٧	٢٠٣	٧
٨٨	١	٢٠٥	١
٩١	١٧	٢١١	١٩
٩٣	١٥	٢١٣	١٣
٩٧	١٢	٢١٥	١٢
١٠٢	١٧	٢٢٣	٢٥
١١١	٧	٢٣٦	٢٠
١١٧	١٩	٢٤٥	١٨
١٢٢	١	٢٥٠	٢ الهامش
١٢٣	٢٣	٢٥١	١٠
١٤١	٢١	٢٥٦	٤

صفحة	سطر	صفحة	سطر
٢٧١	١٢	اطمنثانا	٣٣٧
٢٧٢	١٥	بلهجة مصرية	٣٤٣
٢٨٤	٢٤	ثماني	(*)
٢٩٢	٢٢	القريبة	٣٤٦
٣١١	٨	عنها	٣٤٧
٣١٤	٢٢	الدندر	٣٤٨
٣٢٢	٩	دارفور	١١ الهامش
٣٢٨	٢٢	تغطيه	٣٥٦
٣٢٩	١٩	مجاد ووهاد	٣٥٧
٣٣٣	١٥	فخيما	٣٦١
٣٣٥	١٨	اثر الجرائيت	٣٣٧
٣٣٦	٩	عشر ساعات	
		ونصفها	١٣
		(الحداربة) (*)	١٧
		الهامش	(*)
		بول	٢٥
		أربعا	٢٤
		النعام	١٣
		السودان	١٤
		الأمرار	١٤
		علبة	٤
		كبرياؤهم	٣
		وكان بيننا	١٩

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



جون لويس بوركهارت رحلات بوركهارت في بلاد النوبة و السودان

إن هذا الكتاب يشمل الكثير من المعلومات، فهو أدب رحلات وهو أيضاً بحث اجتماعي يتناول حياة النوبيين، كما أنه كتاب في التاريخ وفي الجغرافيا وفي الآثار، وقد عرض بأسلوب سهل بسيط بحيث يستوعبه المتخصص وغير المتخصص... أسلوب بسيط بساطة أهل النوبة. لقد نجح هذا الرحالة الطموح في أن يردف قارئه وراءه على ظهر دابته ليجوب معه قرى النوبة ونجوعها من أسوان وإلى آخر قرية حط رحالة فيها (شمال الخرطوم)، وجعله يعيش معه هذه المغامرة الحلوة الصعبة الخطرة، وأكسبه خبرات لم يكن يعرفها عن هذه البلاد ولم يسمع عنها.

تصميم الغلاف : عمرو الكحلاني

رحلات بوركهارت



940301572